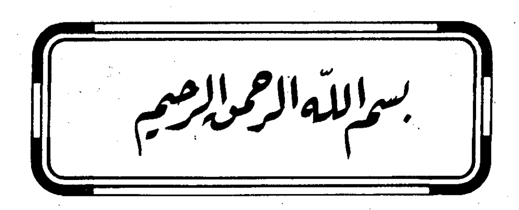
تفسير القرآن الكريم

الفاتحة والبقرة

الأستاذ أحمد حسين



الناشر

المركز العربى الإسلامى للدراسات

١٨ ش إبراهيم اللقانى ـ روكسى ـ مصر الجديدة ـ ت : ٢٥٨١٧٣٩

الطبعة الثانية / القاهرة ١٤١٢ هـ / ١٩٩٢ م .

منهاج البحث

لقد صاحبت القرآن الكريم منذ كنت حدثاً صغيراً فقد بدأت تعلمى ككل أبناء جيلى فى أحد المكاتب (الكتّاب) والتعليم فى الكتّاب كان يقتصر على تحفيظ القرآن وعندما انتقلت إلى المدارس النظامية كان حفظ بعض أجزاء من القرآن يكون قسماً أساسياً من التعليم، واستمرت صلتى بالقرآن الكريم لم تفتر لحظة واحدة طوال حياتى كما هو شأن أى مسلم معتز بدينه، وقد كانت ألفاظ القرآن كما هو شأنها تشع فى نفسى معانٍ معينة وكانت الأيام والأحداث تعمق هذه المعانى وتزيدها تألقاً ثم شاءت الظروف أن أتعرض لسورة (العصر) فرجعت لكتب التفسير القديمة لأزداد علماً بما قيل فى هذه السورة وسرعان ما أدركت أن هذه الكتب كانت ملائمة للعصور التى كتبت فيها، وأن الجيل الحديث فضلاً عن الأجيال المقبلة لا تعرف شيئاً من أمر هذه التفاسير فإن هى عرفت فلن تستطيع أن تفهم منها شيئاً لسبب واضح جداً وهو أنها تكتب لأناس بلغ بهم الولع باللغة العربية أن تكون مشاكل النحو والصرف هى التى تثير الأزمات بين مختلف الجماعات.

ومن ناحية أخرى كان القرآن هو مصدر التشريع، وكانت الأحكام فى المحاكم فى طول العالم الإسلامى وعرضه لابد أن تستند إلى تعاليم القران ومن هنا فقد جرى الخلاف حول مدلول بعض الألفاظ، وكان نقصان حرف أو زيادة حرف قد يترتب عليه تناقض فى الأحكام فى القضية الواحدة، ولذلك فإن بعض التفاسير القديمة كانت أشبه بكتب القانون الحديثة التى لا يستطيع أن يفهمها إلا المتخصصون فى القانون هذا هو الجانب الحسن فى هذه التفاسير القديمة التى عنيت باللغة أو الفقه.

الجانب السيء :

على أن هناك جانباً سيئاً فى بعض هذه التفاسير ذلك أنها مليئة بما جرى العرف على تسميته «بالإسرائيليات».

(والإسرائيليات) موضوع مشهور وقد تنبه إليه مفسرو القرن الخامس الهجرى وحاولوا أن يدفعوه وأن يبرءوا تفاسيرهم منه، ولكن هذه الإسرائيليات كانت من الكثرة وصيغت بكثير من الدهاء والإحكام بحيث يقع فى حبائلها حتى هؤلاء الذين تنبهوا لها .

وقصة هذه الإسرائيليات أن اليهود بعد أن غلبوا على أمرهم وطردوا من جزيرة العرب وشاهدوا بأعينهم انتصار الإسلام. رأوا أن يلجأوا إلى السلاح الوحيد الذى يجيدون استعماله وهو محاولة التسلل إلى القوة العالمية المسيطرة ومحاولة التسلط عليها من الداخل كما نشهد ذلك فى عصرنا

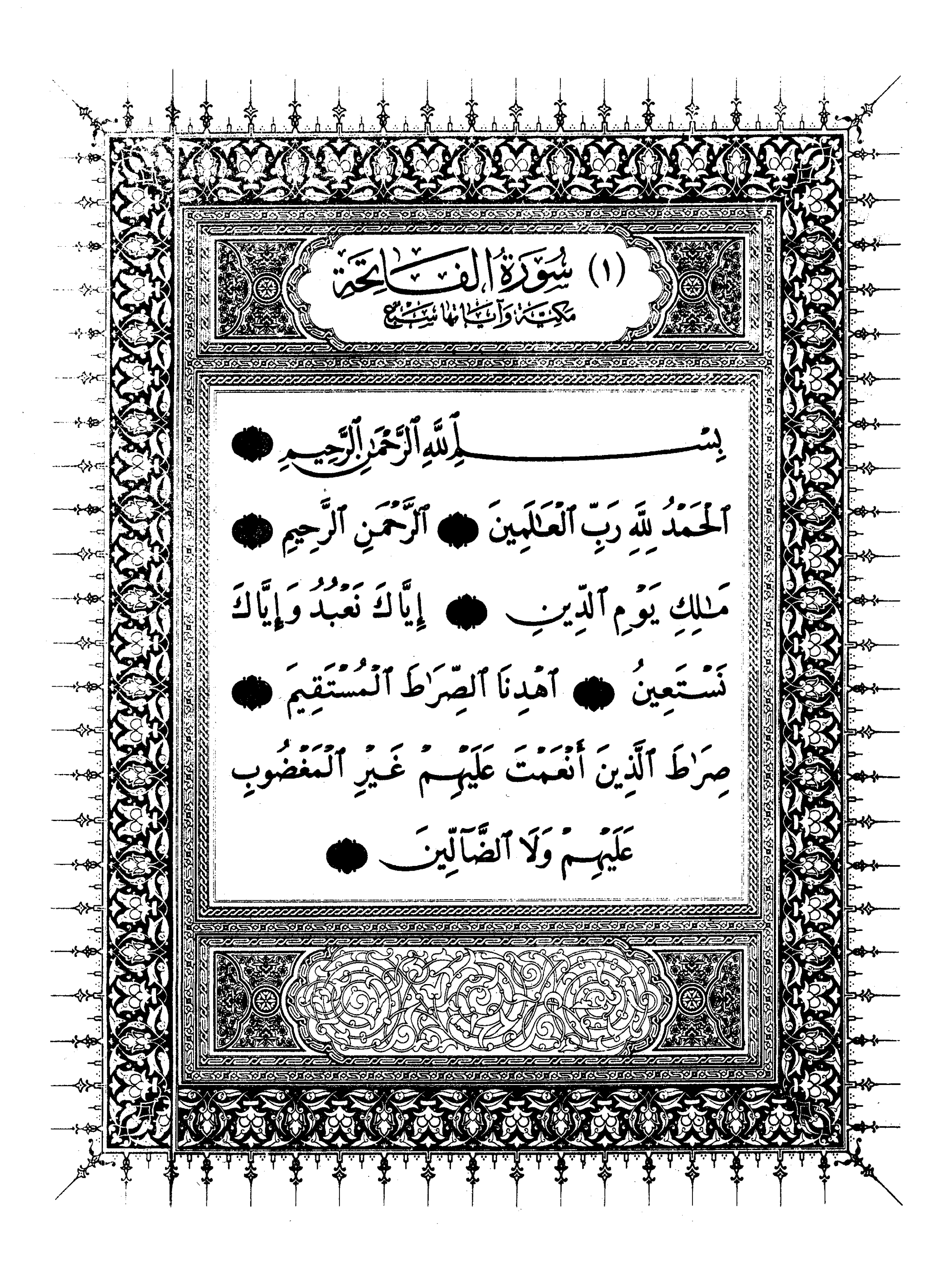
الحديث، حيث نجدهم قد تسللوا إلى جميع المراكز، التى توجه الرأى العام الأمريكى كالصحافة والإذاعة والتليفزيون ودور النشر وكذلك يوجهون أعظم قوة فى العالم لخدمة أغراضهم الخاصة. هذا الدور الذى نشهده بأعيننا هو ما كان يحدث فى القديم، حيث كان المسلمون هم القوة المسيطرة على العالم فراح اليهود يتظاهرون بالتفانى فى خدمة الإسلام فتظاهروا باعتناقه وراحوا يضعون القصص والأقاويل ويتعرضون للغيبيات التى نهينا عن التعرض لها ونشأ عن هذا ركام من الأقاويل التى تبلبل الأفكار والتى أخذت طريقها إلى كتب التفسير القديمة.

مشكلة العصر :

واليوم لم تعد مشكلة العالم الإسلامى تدور حول قواعد النحو والصرف أو حول استنباط الأحكام من القرآن بل أصبحت مشكلة الإنسانية كلها هو الإيمان بالله أو عدم الإيمان به، هل هناك بعث ونشور وحساب وجزاء أم لا بعث ولا نشور ولا جنة أو نار أى أن القضية قد عادت إلى بساطتها الأولى وهى غرس الإيمان فى النفوس بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر.

ومن هنا أحسست بواجبى أن أعرض على الجيل الجديد والأجيال القادمة ما فهمته من القرآن كمسلم مؤمن فى القرن العشرين، أعود إلى أصول الإسلام وهو القرآن والسنة الصحيحة وأن أعرض عن الحشو والتزيد الذى لم يعد العصر بحاجة إليه، وأن أنبه لما اعتقد أنه ضار فى بعض التفاسير.

وأريد أن أشهد الله أننى لا أدعو إلى مذهب معين ولست أنتمى لطائفة معينة وإنما أعرض بأمانة ما قد قيل فى التفاسير القديمة منبهاً إلى الصحيح منها وغير الصحيح، والصحيح وهو ما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أو تؤيده بعض آيات القرآن لأن القرآن يفسر بعضه بعضاً فإذا فتح الله على بفهم خاص سجلته دون أن أدعى أن ما فتح به الله علىّ هو الصواب وإنما هو وجهة نظر واجتهاد، قد يصيب أو يخطىء فليسامحنى من قد لا تتفق وجهة نظره معى، فما أريد إلا الإصلاح ما استطعت "وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب".



(١) سُورَةُ الفَاتِحَة
مَكِّيَّة وَآيَاتُهَا سَبْع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ●
الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ● الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ●
مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ● إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ
نَسْتَعِينُ ● اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ●
صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ
عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ●

فاتحة الكتاب واسماؤها

يطلق على فاتحة الكتاب ، أم الكتاب ، وأم القرآن العظيم ، بل أن القرطبي يذكر من أسمائها انها « القرآن العظيم » لتضمنها جميع علوم القرآن . وتتعدد الأسماء الناطقة بأسرارها حتى ليجعلها الفيروزابادى ثلاثين اسما من اشهرها ، الفاتحة ، وأم الكتاب ، وأم القرآن ، والحمد ، والاساس ، والصلاة ، والوافية ، والكافية ، والرقية ، وهي قبل ذلك وبعد ذلك السبع المثانى ، حيث يقول الله عز وجل :

« ولقد آتيناك سبعا من المثانى والقرآن العظيم ».

(٨٧ الحجر)

كل مبادىء الاسلام الكلية ومقاصده :

أما لماذا استحقت الفاتحة كل هذه الاوصاف وغيرها ، فذلك لان آياتها السبع ، قد حوت كل مقاصد الاسلام ومبادئه الكلية ، وما تضمنته سور القرآن وآياته من أغراض .

ففى هذه السورة الكريمة التوحيد والوعد والوعيد والعبادة والاخبار والقصص. فاياك نعبد واياك نستعين ، هى التوحيد الخالص فى أصفى صوره واكملها .

ووصف الله بالرحمن الرحيم هو ذكر أخص صفات الله عز وجل ، وهو الوعد لبنى الانسان وسائر الكائنات ، ببر الله بمخلوقاته ورأفته بهم .

ووصف الله بأنه مالك يوم الدين ، اشارة الى البعث والنشور ويوم الحساب والدينونة ، وذلكم هو الوعيد وفى الدعاء بطلب الهداية الى الطريق المستقيم ، لب العبادة ومخها وجوهرها . وفى ذكر من أنعم الله عليهم ومن غضب عليهم ومن ضلوا السبيل ، اشارة لكل تاريخ البشر ، ومن عرفوا طريق الحق ، ومن تنكبوا الطريق عن عمد وقصد ، أو عن جهل واهمال .

تغنى عن سور القرآن

ولا تغنى عنها سور القرآن

والفاتحة هى السورة الوحيدة التى يمكن أن تجزىء المسلم عن حفظ بقية القرآن ، ولا يجزىء عنها حفظ كل القرآن ؛ ذلك أن الصلاة وهى عمود الدين ، لا تصح فى اغلب المذاهب الا بفاتحة الكتاب ، لما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« لا صلاة لمن لم يقرأ بام القرآن » وقال ابو هريرة : امرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم ان انادى انه لاصلاة الا بقراءة فاتحة الكتاب فمازاد ». وجرى الخلافبعد

ذلك بين الفقهاء ، اتكفى قراءة الفاتحة مرة واحدة لتصح الصلاة ، أم هى شرط فى كل ركعة وليس هنا مجال عرض هذه الاقوال ، وحسبنا هذه الاشارة لاظهار خطر سورة الفاتحة فى حياة اى مسلم .

بعض ما قيل فى فضائلها :

ولن أستطيع أن أنقل لك الكثير مما قيل فى فضائلها وحسبى الاجتزاء بحديثين .

روى البخارى وابو داود والترمذى ، ان أبا سعيد بن المعلى رضى الله عنه قال : كنت أصلى فدعانى النبى صلى الله عليه وسلم فلم أجب ، قلت يا رسول الله كنت اصلى ، قال الم يقل الله استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم ، ثم قال : الا اعلمك اعظم سورة فى القرآن قبل أن تخرج من المسجد ، فأخذ بيدى ، فلما أردنا الخروج ، قلت يا رسول الله ، انك قلت لاعلمنك أعظم سورة فى القرآن ، قال : الحمد لله رب العالمين هى السبع المثانى والقرآن العظيم الذى اوتيته ، وزاد الترمذى : والذى نفسى بيده ما أنزلت فى التوراة ولا فى الانجيل ولا فى الزبور ولا فى الفرقان مثلها ، وانها سبع من المثانى والقرآن العظيم الذى أعطيته .

قسمة بين الله والانسان

ويقول لنا أبو هريرة على ما رواه مسلم والنسائى ، انه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

قال الله عز وجل : قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين ولعبدى ما سأل . فاذا قال الحمد لله رب العالمين ، قال حمدنى عبدنى . واذا قال الرحمن الرحيم ، قال أثنى على عبدى . فاذا قال مالك يوم الدين ، قال مجدنى عبدى . فاذا قال اياك نعبد واياك نستعين ، قال هذه بينى وبين عبدى ولعبدى ما سأل فاذا قال اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ، قال الله هذه لعبدى ، ولعبدى ما سأل .

مكية او مدنية :

وكل هذا الذى تقدم يشعرك أن فاتحة الكتاب لابد أن تكون من أول ما نزل من القرآن ، بل ان البعض يراها أول ما نزل من القرآن على الاطلاق(١) ، ولذلك فان

(١) قيل ان اول ما نزل من القرآن هو الآيات الاولى من سورة اقرا باسم ربك . وعلى هذا الراى الجمهور ، ولكن الامام محمد عبده رضى الله عنه اخذ بالراى القائل ، ان فاتحة الكتاب اول ما نزل من القرآن ، لاحتوائها على كل مقاصد القرآن ، ونحن نتفق مع تلميذه الشيخ رشيد رضا ، من انه لا تعارض بين ان تكون الآيات الاولى من سورة اقرا هى اول ما نزل من القرآن ، وان تكون الفاتحة اول سورة كاملة نزلت من القرآن بعد ذلك . يدعم ذلك ويسانده ، ان الآيات الاولى التى نزل بها الوحى على سيدنا محمد هى دعوة للقراءة باسم الله ، ويكون الترتيب المنطقى ، ان يبلغ الرسول بعد ذلك رسالة الله كما تتضمنها الفاتحة مبتدئة باسم الله الرحمن الرحيم .

جمهور المفسرين والدارسين للقرآن يقررون أن السورة مكية ، ومع ذلك فقد وجد من قال انها مدنية ، ومعنى ذلك انها لم تنزل الا بعد ثلاثة عشر عاما من البعثة المحمدية .
ويحاول المحاولون أن يوفقوا بين القولين ، فيقول بعضهم أن بعضها نزل فى مكة والنصف الاخر فى المدينة .

ويذهب آخرون الى حد القول انها نزلت مرتين مرة فى مكة ومرة فى المدينة ، وكل هذه أقوال يجب أن تنحى فالحقائق الثابتة :

١ — ان فرض الصلاة كان بمكة .

٢ — انه لم تكن صلاة قط بغير فاتحة الكتاب .

٣ — ان الاشارة الواردة الى الفاتحة باعتبارها السبع المثانى قد وردت فى سورة الحجر وهى مكية باتفاق .

وكل دليل من هذه الادلة يكفى وحده لاثبات مكية السورة فكيف بها مجتمعة . فيجب القول بأنها مكية على سبيل القطع والجزم .

مشكلة حول « بسم الله الرحمن الرحيم »

واخطر من الخلاف حول مكية السورة ومدنيتها ما يصادفنا من جدل كبير ، اذا ما رجعنا الى مختلف التفاسير القديمة حول بسم الله الرحمن الرحيم ، وهل هى آية من الفاتحة ، أم ليست آية . وهل هى آية من كل سورة على حدة ، أم مجرد علامة للفصل بين سورة وأخرى .

ويمتد هذا الخلاف الى الفقه ، فهل تتلى بسم الله الرحمن الرحيم عند قراءة الفاتحة فى الصلاة أو لا تتلى ، واذا جاز أن تتلى ، أتكون تلاوتها سرا أو جهرا ومن حسن الحظ أن ابن كثير يقول لنا انه على الرغم من هذه الخلافات بين الفقهاء « فقد أجمعوا على صحة صلاة من جهر بالبسملة ومن اسر بها ولله الحمد والمنة » .

ولا خلاف بين الباحثين على أن بسم الله الرحمن الرحيم آية من القرآن فى سورة النمل : انه من سليمان وانه بسم الله الرحمن الرحيم ، ولكنهم بعد ذلك اختلفوا ثلاث فرق :

١ — انها ليست آية من الفاتحة ولا من غيرها وانما ذكرت فى رأس السور لتكون فاصلا — وهذا هو قول مالك .

٢ — انها آية من كل سورة وهو قول عبد الله بن المبارك .

٣ — هى آية من الفاتحة وحدها وهو قول الشافعى، وان كان قد نسب اليه أنه قال أيضا انها آية من كل سورة .

وعندنا أن المصحف الام الذى وزعه سيدنا عثمان بن عفان على الامصار ، والذى جمع فى زمن ابى بكر الصديق باشارة سيدنا عمر وتحت اشراف كل صحابة رسول الله ، يتضمن ذكر بسم الله الرحمن الرحيم على راس كل سورة من سور القرآن ما عدا سورة التوبة ، والاجماع قائم بين المسلمين على أن ما بين دفتى هذا المصحف هو القرآن الكريم لا يزيد أوينقص كلمة . والقائلون بأنها وضعت على رأس السور لتكون فاصلا ، لا ينازعون بأنها من القرآن على ما ورد فى سورة النمل . ونحن مأمورون اذ ما شرعنا فى تلاوةالقرآن انستفتح باسم الله « اقرأ باسم ربك » فأصبح الجدل فى هذه القضية غير ذى موضوع .

ونستطيع أن ننتهى من مطالعة الابحاث الكثيرة فى هذه القضية الى الحقائق التالية :

١ — أن اول سورة كاملة نزلت من القرآن بمكة هى الفاتحة لتتم بها الصلاة وتتلى فى كل ركعة من الركعات .

٢ — ان البسملة آية من الفاتحة ، لتتم آيات الفاتحة سبعا ويصدق عليها وصف القرآن الكريم انها سبع من المثانى .

وعلى هذا الاساس نبدأ بدراسة بسم الله الرحمن الرحيم باعتبارها الاية الاولى من الفاتحة .

تفسير بالحروف :

ذكر القرطبى أنهم رووا عن عثمان بن عفان انه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن تفسير بسم الله الرحمن الرحيم فقال :

أما الباء فبلاء الله وروحه وتصرفه وبهاؤه ، وأما السين فسناء الله ، وأما الميم فملك الله وأما الله فلا اله غيره . وأما الرحمن فالعاطف على البر والفاجر من خلقه . وأما الرحيم فالرفيق بالمؤمنين خاصة . وروى عن كعب الاحبار أنه قال : الباء بهاؤه ، والسين سناؤه فلا شىء أعلى منه ، والميم ملكه وهو على كل شىء قدير .

بسم

الاسم هو اللفظ الذى يدل على ذات ، وقال كثيرون أنه مشتق من السمو والعلو كأن الاسم يعلو مسماه بكونه عنوانا عليه ودليلا عليه . وقال آخرون انه من السمة وهى العلامة وأصله وسم .

الله

لفظ الجلالة . علم على ذات واجب الوجود الذى لم يزل ولا يزال ، ويرى البعض انه اسم الله الاعظم ولم يتسم به غيره ، ولذلك لم يثن ولم يجمع وهو تأويل قوله تعالى « هل تعلم له سميا » وقد ورد لفظ الله فى القرآن ٢٦٩٤ مرة استغرقت بضع وثلاثين

صفحة من المعجم المفهرس لشيخنا محمد فؤاد عبد الباقى ، فاذا علمت بعد ذلك أن عدد آيات القرآن على اختلاف فى طريق العد هو نيف وستة آلاف آية ، دل ذلك على انه لا تكاد توجد آيتان تخلوان من لفظ الجلالة .

وكلمة الله هى التى حملت عليها بقية صفات الله فى القرآن : **هو الله الذى لا اله الا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم .**

هو الله الذى لا اله الا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون . هو الله الخالق البارىء المصور له الاسماء الحسنى يسبح له ما فى السموات والارض وهو العزيز الحكيم .

(الحشر ٢٢ — ٢٣ — ٢٤)

بسم الله

وقد اختلف النحويون حول تقدير معنى الباء فى بسم ، فهل هى على سبيل الامر فيكون المعنى ابدأ باسم الله ، أو على سبيل الخبر بمعنى : ابتدات باسم الله .

وسواء كانت هذه أو تلك فالمعنى ان اقرأ يا محمد هذه السورة على عبادى ، لا باعتبارها من قولك أو انشائك ، ولكن باعتبارها صادرة من الله الرحمن الرحيم ، وما أنت الا مبلغ ونذير .

الرحمن الرحيم :

الرحمن اسم آخر من الاسماء التى اختص بها الله عز وجل كلفظ الجلالة : قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن . الرحمن على العرش استوى . وهو لذلك لا يثنى ولا يجمع .

والرحمن مشتق من الرحمة على صيغة المبالغة ومعناه : ذو الرحمة الذى لا نظير له .

وقد ذكر الترمذى عن عبد الرحمن بن عوف أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : قال الله عز وجل انا الرحمن خلقت الرحم وشققت لها اسما من اسمى فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته .

والرحيم بمعنى الرحمن الا أن الرحيم صفة مطلقة يوصف بها الله والانسان أما الرحمن فلا يوصف به الا الله . ولكن الجمهور على أن الرحمن وهو على وزن فعلان لا تقع الا على مبالغة الفعل نحو قولك رجل غضبان للممتلىء غضبا .

قال أبو على الفارسى : الرحمن اسم عام فى جميع أنواع الرحمة يختص به الله ، والرحيم انما هو من جهة المؤمنين كما قال تعالى : وكان بالمؤمنين رحيما . وقال غيره : الرحمن ذو الرحمة بجميع خلقه على اختلاف أجناسهم وأديانهم وألوانهم ، حيث ينعم

عليهم جميعا بالحواس والصحة وسائر النعم العامة . أما الرحيم فخاص بالمؤمنين فى هدايتهم واللطف بهم .

الاسلام دين الرحمة :

وليس هناك ما يكشف عن طبيعة الاسلام ، وانه دين السلام والرحمة والرفق من هذه البسملة التى تبدأ بها فاتحة الكتاب ، وتبدأ بها كل سورة من سور القرآن ، حيث لا يصف الله نفسه الا بالرحمة والاغراق فيها . وليس ذلك الا تلخيصا لما يتردد بين جوانب السور وآيات القرآن ، من أن الله هو الغفور ذو الرحمة ، وهو التواب الرحيم وهو أرحم الراحمين ، وهو الرءوف الرحيم ، وهو العزيز الرحيم ، وهو البر الرحيم .

وكتب على نفسه الرحمة . والقرآن رحمة ورسول الله قد أرسل ليكون رحمة : **« وما أرسلناك الا رحمة للعالمين » .**

(١٠٧ الانبياء)

واخص صفات رسول الله أنه « بالمؤمنين رءوف رحيم » .

(١٢٨ التوبة)

وسيدنا محمد يقول لنا : **انا رحمة مهداة .**

فاذا ما تطلع البشر فى عصرنا الحديث الى دين يقوم على الرحمة وسداه ولحمته الرحمة فليس أمامهم سوى الاسلام دينا والله ربا .

الحمد لله

الحمد لله فى كلام العرب معناه الثناء الكامل ، والحمد والشكر بمعنى واحد ، وان كان البعض يرى أن الشكر أعم من الحمد بينما يعكس البعض القضية ويقولون أن الحمد أعم من الشكر وأيا ما كان الامر فالحمد لله جملة خبرية معناها أن الله سبحانه وتعالى مستحق الحمد على جزيل نعمه التى أنعم بها على الانسان وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها . وما على الانسان ، أى انسان ، اذا حاول أن يحس بنعم الله عليه ، الا أن ينظر لمن هم دونه فى الدرجة أو الرزق أو الصحة ، ليرى انه ينعم بالكثير مما كان يمكن أن يحرم منه ، ما على أى انسان مبصر أو يسمع ويتكلم ويتحرك ويعقل الا أن يتصور نفسه محروما من هذا الذى ينعم به . ليدرك مقدار رحمة الله به .

حتى الذين سلبوا بعض هذه النعم كنعمة البصر ، أو السمع أو الكلام . حتى المكدودين والمحرومين والمرضى والمعذبين ، لو انهم تأملوا فى أحوالهم لوجدوا رحمة الله

ونعمته لم تبعد عنهم . فما اكثر الذين يعوضون عن فقد الإبصار ، تفوقا فى العقل والاستيعاب حتى ليصلوا الى ارفع المراكز ، وما اكثر ما يجد من يتعرضون للمحن ، من يخف لنجدتهم ، ويمد اليد لمساعدتهم ، ويقف بجوارهم .

فالرحمة الالهية تصل للانسان ، كل انسان ، ايا كانت الظروف التى تحيط به . والفارق بين انسان وآخر ، ان البعض يحس بنعمة الله عندما توافيه ، والآخرون لا يحسون بها ، واذا احسوا انكروها واعتبروها امرا طبيعيا .

قصة مؤمن :

عرفت موظفا كبيرا دهمه المرض وهو فى شرخ الشباب ، وقد اصيب بحالة مرضية هى نوع من الشلل الذى اقعد كل اطراف جسمه عن الحركة واصابها بالضمور والذبول ، ولم يبق لصاحبنا الا الراس فقط هو الذى ظل سليمـا يسمع ويبصر ويتكلم ويعى .

ومرت عليه السنون وهو على هذا الحال يتطور من سىء الى اسوا .

ولكنه ما رؤى فى يوم من الايام الا هاشا باشا يحمد الله على نعمته .

وقد عجب صديق (وهو الذى عرفنى به) لهذا الحمد والثناء والرجل لا يمكن أن يكون اسوا مما هو عليه بغير امل فى الشفاء ، فسأله علام يحمد الله بكل هذا الايمان فازداد وجهه اشراقا وقال له : وهلا ترى نعم الله التى لا تعد ولا تحصى على .

لقد صدر قانون يحظر فصل من هو فى مثل حالتى من الحكومة ، وعلى ذلك فانا موظف كبير فى الحكومة واتقاضى مرتبى .. ما كان يمكن يا صديقى أن يصيبنى هذا المرض ، فأطرد من العمل ولا اجد ما أنفقه على نفسى فضلا عن اسرتى . وأنظر فوق ذلك الى النعمة الكبرى من وقوف زوجتى الى جوارى . انها كما ترى شابة جميلة ، ولقد عرضت عليها تسريحها باحسان ، فابت الا أن تقف الى جوارى ، بكل عجزى ومرضى وقلة حيلتى .

ويمضى صاحبنا ليقول ، وأنا بعد ذلك أرى نفسى مغمورا بالرضا ، فهل هناك نعيما يفوق هذا النعيم .

وينطلق وقد اشرقت عيناه ليقول الحمد لله ما اشرق صبح وما خفق قلب وما اذن مؤذن ، يقول ذلك وهو الذى لا يستطيع ان يتقلب فى فراشه أو ينزل منه او يصعد اليه الا ان يرفع رفعا ويحمل كما يحمل المتاع .

ومن تجربتى الخاصة أستطيع ان اقول ان حمد الله هو اقصى ما يستطيع الانسان أن يقدمه لله عز وجل آية على الايمان واقرارا بالعبودية وهو حصيلة العبادة كلها .

ـ ذلك ان توجيه الحمد لله فيه ادراك الى أن الله هو الذى أعطى ومنح .
ـ وان الانسان قد رضى بما أعطيه .
ـ وانه ما دامت قوة الله فى جسد الانسان فهو معتزم أن لا يعصيه .

نسال الله أن يجعلنا دائما من الحامدين . الراضين بعطائه السالكين سبله .

رب ..

رب الشىء سيده ومالكه ، وكل من ملك شيئا فهو ربه كقولنا : رب البيت . وفى الصحاح الرب اسم من اسماء الله تعالى ولا يقال لغيره الا بالاضافة كأن يقال رب الدار . ومتى ادخلت الالف واللام على رب ، اختص بها الله تعالى فهو رب الارباب ومالك الملوك . وقد اختلف فى اشتقاقه والراى على أنه مشتق من التربية . ورب فلان ولده يربه ربا أى رباه . ويكون نسبة ذلك الى الله سبحانه وتعالى ، انه هو مدبر خلقه ومربيهم ، فأرسل لهم الانبياء والرسل الهداة والمصلحين . بل وأودع فى نفس كل انسان ضميرا وعقلا يقودانه الى سبل الرشاد اذا هو أراد ـ وتلك هى تربية الله لعباده .

العـــالمين

جمع عالم ، اى كل ما فى الكون من عوالم أو مخلوقات سواء كانت عوالم منظورة أو غير منظـــورة ، عوالم الانســـان والحيوان والنبـــات ، أم عوالم الجن والملائكة وعوالم المجهول ، أو عوالم الكواكب الاخرى والاطباق الطائرة كما يقول رجال العلم الحديث .

ولقد كشف لنا العلم الحديث أن الأرض بكل ابعادها ليست سوى ذرة من ذرات هذا الكون .. بل ان المجموعة الشمسية كلها بعض هذه الذرات من هذا الكون اللانهائى ، وحيث ينطلق الضوء بسرعة ٣٠٠ الف كيلو متر فى الثانية ، فان الابعاد فى هذا الفضاء الكونى تقاس بالسنين الضوئية ، ثم يقال لنا ، ان هناك سدما ومجرات تبعد ملايين الملايين من السنين الضوئية .

ذلك هو بعض اتساع الكون وعوالمه ، والله خالق ذلك كله وصانعه ومدبره والمهيمن عليه فهو رب العالمين .

ولقد تساءل فرعون : وما رب العالمين ؟ قال رب السموات والأرض وما بينهما .

ذلكم هو تفسير رب العالمين .

الرحمن الرحيم

لا نعود هنا لمـــا ذكرناه فى تفسير الرحمن الرحيم الا ان نضيف الى ما سبق ، ان ذكر الرحمن الرحيم فى هذا الموضوع قد أريد به تخفيف بعض ما تحسه النفس امام عظمة الله وجبروته فلا تطير شعاعا ، ولا تصعق خوفا ورعبا ، فالله رحمن رحيم كتب على نفسه الرحمة .

مالك يوم الدين

وفى قراءة لا تقل شهرة وحجية فى النقل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « ملك يوم الدين » وقد اختلف العلماء اى المعنيين ابلغ ملك او مالك ، فقيل ملك اعم وأبلغ من مالك ، اذ كل ملك مالك وليس كل مالك ملك وقيل بل الامر على العكس فمالك ابلغ لانه يكون مالكا للناس وغيرهم ، فالمـــالك ابلغ تصرفا واعظم اذ اليه اجراء قوانين الشرع ثم عنده زيادة فى التملك .

وعندنا أن كلتا الكلمتين تؤديان نفس المعنى ، وتشعان اشعاعا واحدا ، وهو انه سبحانه وتعالى يوم القيامة هو المنفرد بالسلطان ، فلا قياصرة ولا أباطرة ولا ملوك او رؤساء ، لا أقوياء ولا أغنياء . لا طغاة او متجبرين . لا ديكتاتوريين او مستبدين . وعند ما يرتفع السؤال : لمن الملك اليوم ؟ فلا يكون الا جواب واحد : « لله الواحد القهـــار » .

يـــوم

اليوم فى اصطلاح البشر هو هذا اليوم المـــألوف من مطلع الشمس الى غروبها ، ولكنه فى لغة القرآن حقبة زمنية لا يعلم مداها الا الله .

« وان يوما عند ربك كالف سنة مما تعدون »

(٤٧ الحج)

« تعرج الملائكة والروح اليه فى يوم كان مقداره خمسين الف سنة » .

(٤ المعارج)

« قال كم لبثتم فى الارض عدد سنين . قالوا لبثنا يوما او بعض يوم فاسال العادين . قال ان لبثتم الا قليلا لو انكم كنتم تعلمون » .

(١١٢ — ١١٣ — ١١٤ المؤمنون)

فانت ترى أن اليوم قد يكون الف سنة ، وقد يكون خمسين الفا ، بل ان عمر اجيال من البشر قد لا تصل الى بعض يوم .

فيوم الدين اذا هو حقبة زمنية لا يعلم قدرها الا الله ، وما أروع أن تنتهى بنا حقائق العلم الاخيرة الى هذا الذى سبق به القرآن . فهذا اليوم الذى نعرف على هذه الارض هو مقياس زمنى محلى خاص بالعائشين على الارض ، حيث تدور الارض حول نفسها مرة كل اربع وعشرين ساعة أمام الشمس .

أما بعد ان انطلق الانسان الى دنيا الفضاء مخلفا الارض ، فلا ليل ولا نهار وانما هو زمن بغير حدود لا يحيط به الا الله .

الـــدين

والدين ـــ هنا بمعنى الجزاء على الأعمال والحساب « يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق » اى حسابهم . وقال تعالى : « أئنا لمدينون » أى مجزيون محاسبون « اليوم تجزى كل نفس بما كسبت » « اليوم تجزون ما كنتم تعملون » وهكذا نبهت فاتحة الكتاب الى يوم القيامة يوم يبعث من فى القبور ليحاسبوا على اعمالهم .

والايمان بالبعث والنشور ، هو لب اى دين وجوهره ، لانه اذا لم يكن ثمة ايمان بأن حياة الانسان على هذه الارض ليست هى الكلمة الاخيرة ، وانما هى مرحلة وصفحة من كتاب . اذا لم يؤمن الانسان بأن اعماله وأقواله محصية وأن سيكون حساب وعقاب وثواب ، فلا دين ولا عبادة فضلا عن ايمان بالله .

وحسبنا أن سورة الفاتحة قد أشارت الى هذا الركن من أركان الدين :

اياك نعبد واياك نستعين

يتوقف هنا اصحاب البلاغة ليقولوا لنا ان اسلوب القرآن قد انتقل من التحدث بصيغة الغائب ، الى التحدث بصيغة الخطاب على سبيل التلوين . ولمـــا كان القول يجرى من اول السورة مجرى الثناء على الله واظهار عظمته وانفراده بالملك ، فقد حان الوقت وقد عرف الانسان قدر ربه ، ان يجهر بتوحيده وان يقر بطاعته له .

والعبادة معناها الطاعة والتذلل ، طريق معبد اى مذلل للسالكين .

وقد قدم المفعول (اياك) على الفعل (نعبد) وكرر بعد ذلك ، اظهارا للاهتمام

والحصر ، أى لا نعبد الا اياك ، ولا نتوكل الا عليك وهذا هو كمال الطاعة والدين كله يرجع الى هذين المعنيين .

وقد جاءت هذه الآية ليتبرأ بها الانسان من كل شرك ولكى يفرد الله بالعبادة . فقد حكى القرآن عن المشركين انهم يؤمنون بوجود الله وأنه خالق السموات والارض : « ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله » . ولكن ذلك لم يمنع عبادتهم للاصنام بحجة انهم بهذه العبادة يتزلفون الى الله : « **والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى** » .

(٣ الزمر)

فجاءت آية ، اياك نعبد لا لافراد الله بالالوهية فحسب ، بل وافراده بالعبادة أيضـــا .

واياك نســـتعين

واذا كان الله هو الاله الذى لا اله غيره ، واذا كان هو المختص وحده بالعبادة ، فان كل اتجاه لا يجب أن يكون الا اليـــه وكل تطلع صوب العون والمدد من قـــوة غيبية لا يكون الا اليه . وذلك هو كمال التوحيد وكمال الايمان ، وكمال العبادة ، وقد قال بعض السلف الفاتحة سر القرآن واياك نعبد واياك نستعين هى الفاتحة ، فالاولى تبرؤ من الشرك ، والثانية تبرؤ من الحول والقوة وتفويض الى الله .

الاخذ بالأســـباب

ويثير موضوع حصر الاستعانة بالله مسألة التوكل والاخذ بالاسباب . فهل معنى الاستعانة بالله أن يقعد الانسان عن الأخذ بالاسباب ؟ وسيعرض لنا هذا الموضوع طوال رحلتنا مع القرآن .

وحسبنا الآن ان نشير فى ايجاز ، الى ان القرآن من أوله الى آخره دعوة الى تفهم أسرار الكون ، والاحاطة بنواميسه وسننه وقوانينه ، وابرز صور الاستعانة بالله هى استخدام قوانينه ونواميسه . فوضع البذور فى الارض وتعهدها بالرى والسقيا هى استعانة بالله للحصول على الثمر . واستخدام الوسائط على اختلاف انواعها للوصول الى بيت الله الحرام ، بما فى ذلك استخدام الطائرات هى استعانة بالله .

وحشد الاسلحة والاخذ باجراءات الوقاية للدفاع عن النفس والوطن ، واستخدام آخر معطيات العلم فى هذا السبيل هو استعانة بالله .

وبعد تمام الاخذ بالاسباب يكون التفويض لله . وقد لخص سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام القضية اكمل تلخيص ، عندما علم الاعرابى حقيقة التوكل فقد تصور الاعرابى ان معنى التوكل ، أن لاضرورة لربط ناقته ، مادام أن ما فى علم الله سيكون، فقال له الرسول « بل اعقلها وتوكل » اى خذ أولا بالسبب وتوكل بعد ذلك على الله .

فالتوكل على الله ، كالاستعانة بالله ، معناه فى الدرجة الاولى الاخذ بالاسباب ، واستعمال قوانين الطبيعة ونواميسها فيما اعدها الله لها .

اهدنا الصراط المستقيم

اهدنا ، اى ارشدنا ووفقنا ، ومل بنا والصراط المستقيم بمعنى الطريق ــ والمستقيم أى الذى لا عوج فيه ولا انحراف .

وقد حاول بعض المفسرين ، أن يصرفوا المعنى العام المطلق المستفاد من الدعـاء الى الله بطلب الهداية الى الطريق المستقيم ، طريق الحق والخير والسداد ، الى معنى خاص كالقول بأن المقصود به طريق الحج . أو ان المقصود به دين الله وشريعته . وقيل المقصـود به طريق رسول الله وصحابته من بعده . وكل ذلك تخصيص بغير مخصص ، فقد وردت الصراط المستقيم فى القرآن اكثر من مرة لتدل على معناها الواضح فى النفس ، من أنها طريق الحق والخير والرشاد .

*** هل يستوى هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم**

(٧٦ النحل)

*** أفمن يمشى مكبـا على وجهه أهدى ، أمن يمشى سويا على صراط مستقيم**

(٢٢ الملك)

وبقى أن نضيف أن الرياضيين يقولون أن الخط المستقيم هو اقصر الخطوط بين نقطتين ، وبالتالى يكون الطريق المستقيم هو أسرع الطرق ليحقق اى أنسان غايته .

وعندنا أن هذه الآية هى سلاح المؤمن ، وهى مفزع الى الله كلما حزبه أمر أو عرضت له مشكلة ، أو تفرقت به السبل .

صراط الذين أنعمت عليهم

ولم يلبث القرآن الكريم ان عرف لنا الصراط المستقيم ، بأنه طريق الذين أنعم الله عليهم .. وتذكر لنا احدى آيات سورة النساء من هم هؤلاء الذين انعم الله عليهم:

« فاولئك مع الذين انعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا ».

(٦٩ النساء)

غير المغضوب عليهم ولا الضالين

والمؤمن اذ يدعو الله بتوجيه من الله ان يهديه صراط الذين انعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين فهو يسأل الله ان يجنبه طريق المغضوب عليهم ، اى الذين استحقوا غضب الله ، وطريق الضالين والمنحرفين عن سبيل الله والغضب فى اللغة الشدة ، ورجل غضوب اى شديد الخلق .

ويجب ان نتذكر دائما ونحن ننسب الغضب الى الله ، أنه من نوع نسبة الكيد والمكر والانتقام اليه ، بمعنى انها مجرد كلمات بيانية تخاطبنا باللغة التى نفهمها وانها يجب أن تصرف على ما يليق بجلال الله وكماله ، وأنه منزه عن الحوادث والانفعال والتغير .. ولذلك قال العلماء : ان معنى الغضب فى صفة الله تعالى ، ارادة العقوبة .

اهم اليهود والنصارى ؟

وجمهور المفسرين على أن المقصود بالمغضوب عليهم هم اليهود ، والضالين هم النصارى ويستدلون على ذلك بذكر آيات وردت فى القرآن تدل على غضب الله على اليهود : وباءوا بغضب من الله .

وغضب الله عليهم . اى على اليهود .

كما جاء فى القرآن عن النصارى : قد ضلوا من قبل واضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل .

(٧٧ المائدة)

وذلك ليس بحجة فقد ذكر الضلال فى القرآن فى عشرات من الآيات منسوبا الى كل فئات البشر بما فى ذلك المسلمين انفسهم .

*** ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا .**

(٣٦ الاحزاب)

*** ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل .**

(الممتحنة)

وكذلك الشأن بالنسبة لغضب الله فهو ليس خاصا بقوم أو اتباع دين أو جنس معين وانما هو عقاب كل من يخالف اوامره أو يشرك به والمسلمون انفسهم يتعرضون لغضب الله اذ ارتكبوا بعض الكبائر ، ولعل غضب الله لم يذكر فى القرآن بأقوى

عبارة كما ذكر بصدد الذين يفرون يوم الحرب من ميدان القتال : **يا أيها الذين آمنوا اذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الادبار ومن يولهم يومئذ دبره الا متحرفا لقتال أو متحيزا الى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير .**
(الانفال ١٥ ـ ١٦)

※ **والذين يحاجون فى الله من بعد ما استجيب له حجتهم داحضة عند ربهم وعليهم غضب ولهم عذاب شديد .**

وهكذا لا حدود للمغضوب عليهم ، كما لا تحديد للضالين فوجب أن نطلق هاتين الكلمتين الى أقصى ما ينتهى اليه معناهما وأن نفزع الى الله سبع عشرة مرة فى كل يوم على الاقل ، أن يخرجنا من زمرة من يغضب عليهم ، من الضالين والمنحرفين ،وأن يهدينا سواء السبيل ، سبيل الحق والخير والعدل والاحسان والرحمة .

آمـــين

ويسن لقارىء القرآن أن يقول بعد الفراغ من الفاتحة وبعد سـكتة على نون « ولا الضالين » لتمييز ما هو قرآن مما ليس بقرآن « آمين » ومعنى آمين عند أكثر أهل العلم اللهم استجب لنا .

ولنقرأ جميعا سائلين الله أن يتقبل :

※ **بسم الله الرحمن الرحيم**

※ **الحمد لله رب العالمين**

※ **الرحمن الرحيم**

※ **مالك يوم الدين**

※ **اياك نعبد واياك نستعين**

※ **اهدنا الصراط المستقيم**

※ **صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين**

تعريف بسورة البقرة

بسم الله الرحمن الرحيم ، والصلاة والسلام على اشرف المرسلين سيدنا ومولانا محمد النبى الأمى وعلى آله واصحابه اجمعين اما بعد ..

فعندما شرعت بعون الله فى تسجيل ما يعن لى من آراء وخواطر تثيرها فى النفس والقلب بعض قصار السور لم يدر فى خاطرى اننى ساواصل العمل فى هذا السبيل ، ثم كان ان دهمنى المرض وتصورت أن نهايتى قد دنت ولكن شاءت حكمة الله السميع العليم أن يبقينى حيا وان يحفظ على عقلى وقدرة يدى اليمنى على الكتابة ، وهكذا مضيت فى استعراض قصار السور وما يسبقها من السور فى ترتيب المصحف حتى انتهيت بعون الله وتوفيقه من تسجيل خواطرى حيال الأجزاء الخمسة من آخر المصحف (٢٦ — ٣٠) ولما كنت لا ازال على قيد الحياة وكان من المتفق عليه أو اواصل ما بدأته ، فقد آن الأوان لتصحيح الوضع .

وأبدأ العمل من حيث جرت العادة ان يبدأ ،اى بسورة «البقرة» ذلك ان كل ما يتصل بالقرآن الكريم يجب أن نتقيد فيه بما جرى عليه سلفنا الصالح ولا محل للتجديد أو الابتكار فالقرآن الكريم ليس كتاب فن أو ادب من حق اى انسان ان يترخص فى فهمه وتفسيره وطريقة معالجة هذا التفسير ، ولكن القرآن الكريم كتاب مقدس ،مقدس باعتباره كتاب الله ، وأول مظاهر القداسة الثبات .

ومن هنا فقد هدانى الله سبحانه وتعالى ان أصحح الوضع الذى جاء نتيجة الظروف وان ابدأ حيث جرى العمل دائما وهو الابتداء بسورة البقرة حسب ترتيب المصحف .

ولم اكد استقر على هذا العزم حتى وجدت النشاط يتجدد فى عروقى ووجدت همتى تتضاعف، مما جعلنى احس ان ذلك التوجيه تم بتوفيق من الله .

فائدة :

واللطيف ان استعراض خواطرى حيال سور القرآن الكريم على هذا النسق (اذا تم بمشيئة الله كليا أو جزئيا) سوف يحقق ظاهرة لا تتوفر فى الأعمال السابقة المماثلة ، فقد كان كل من تعرض للقرآن الكريم استفرغ كل جهده فى السور الطوال الأولى ثم يروح بعد ذلك يحيل عليها ، أما بالنسبة لى فلم يكن هناك ما احيل عليه ولذلك كتبت بمناسبة قصار السور اهم واغلب ما قيل فى المعانى التى تتصل بها ، وانا اذ ابدأ اليوم بما بدأ به السلف فسوف انهل من خضم ما قالوه بصدد آيات السور وهم لن يحيلوا على شيئا كتبوه من قبل .

خواطر وليس تفسيرا :

واريد بهذه المناسبة ان احدد طبيعة العمل الذى اقوم به (ورحم الله امرءا عرف قدر نفسه) فتفسير بعض كلمات الآيات وتحديد المقصود بها انما اقوم فيها بدور الناقل عن السلف الصالح وكل الذى اسمح لنفسى فيه هو أن اختارما ارجحه من هذه الاقوال بعد ان اثبت الاقوال الاخرى ، فمن حق كل قارىء — متضلع فى العلم — أن يختار بنفسه ما يرجحه .

محاربة الالحاد والمادية :

اما الجزء الذى ادعيه لنفسى واعتبر انه الاضافة التى اقتضتها روح العصر وهى التى تحفزنى على بذل الجهد بقدر ما يسعفنى الله عز وجل فهو مطاردة الالحاد والمادية بكل صورهما واشكالهما فقد عشت بما فيه الكفاية لأرى الآثار المدمرة بل المهلكة لسعادة البشر عندما ينزع الماديون الايمان من القلوب وما يضيفه هذا الايمان على الانسان من قناعة ورضا لكى يحلوا محل ذلك الجرى وراء قطعة من اللحم أو نوع معين من الكساء او ضروب اللهو باعتبار ان هذا هو غاية الغايات من الحياة ثم يعجزون عن توفير هذه الماديات للناس فيصبحون فى منتهى التعاسة ، فلا هم احتفظوا بنعمة الرضا والقناعة ، ولا هم حصلوا على ما يريدون ، لا اقول من « اللحم » بل من مجرد « الخبز » مما حمل الكفار على أن يكفروا بكفرهم فيرتمون فى احضان اعدائهم ليكون فى قدرتهم توفير لقمة العيش .

من أجل تحصين الجيل الصاعد من شباب الانسانية كلها أكتب ما اكتب مستضيئا بنور القرآن الكريم « انما الاعمال بالنيات وانما لكل امرىء ما نوى » .

وبعد هذا التوضيح الذى كان لابد منه لأرد على من استكثروا على أن اقوم به ناسين ان ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

نقول وبالله التوفيق وبعد ان نحمده سبحانه ونصلى ونسلم على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم :

سورة البقرة سورة مدنية :

عدد آياتها كما هو مقرر فى المصحف ٢٨٦ آية وهى مدنية بالاجماع باستثناء آية « واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله » فيقال انها آخر ما نزل من القرآن وكان ذلك فى حجة الوداع بمنى ، اى بمكة .

وقيل : انها اول سورة نزلت بالمدينة ولذلك فهى تحمل خصائص السور المدنية ، فالمجتمع الجديد الذى هاجر اليه سيدنا محمد كان قد غلب عليه الطابع الاسلامى ، ومن لم يكن الاسلام قد تمكن من نفسه كعقيدة فقد تظاهر به نفاقا ومن هنا وجدت طائفة المنافقين التى لم يكن لها وجود فى مكة وبدا القرآن ينزل بخصوصهم ويندد بهم ويفضح اساليبهم ، ثم كان اليهود الذين بعد ان كانوا يبشرون بسيدنا محمد قبل ظهوره ، وحتى بعد ظهوره ما بقى فى مكة ، ولكنه بعد ان انتقل الى المدينة قلبوا له ظهر المجن فالدين عندهم وسيلة للكسب والتجارة ، وضمان النفوذ ، فلما ضعف نفوذهم وبالتالى قدرتهم على الاستغلال انكروا نبوة سيدنا محمد بل وحاربوه وسترى فى سورة البقرة أصداء ذلك من مجادلتهم لرسول الله الى حد تحريف التوراة وتزويرها .

التشريع :

كما سنرى فى السورة بدء نزول التشريع الاسلامى المفصل والذى سينظم ما نسميه اليوم بالأحوال الشخصية ، كما ينظم المعاملات المدنيةمن بيع واقراض وخلافه ، وقد لخص أشـياخنا مفسرو المنتخب مقاصد سورة البقرة ممـا نرىاثباته بالحرف الواحد تيمنا به من ناحية ولانه خير تمهيد يساق بين يدى السورة العظيمة ، قالوا :« سورة البقرة مدنية نزلت بالمدينة بعد الهجـرة وهى أطول سورة فى القرآن الكريم حسب ترتيب المصحف ، وقد ابتدات هذه السورة بتفصيل ما انتهت اليه سورة الفاتحة فقد ذكرت أن القرآن هو مصدر الهدى(١) وذكرت الذين أنعم الله عليهم بالرضا والذين غضب عليهم من الكفار والمنافقين،وقد تحدثت السورة عن صدق القرآن ، وان دعوته حق لا ريب فيه ، ثم تحدثت عن أصناف الناس الثلاثة : المؤمنين والكافرين والمنافقين ، وعن الدعوة الى عبادة الله وحـده وعن انذار الكافرين وتبشير المؤمنين : ثم خصت بنى اسرائيل بالدعوة والمراجعة وجاء فيها تذكيرهم بأيام اللهوبحوادثهم مع موسى عليه السلام وتذكيرهم كذلك بابراهيم واسماعيل وبنائهما الكعبة واستغرقذلك نحو نصف السورة وتخلله حديث موجه الى المؤمنينللاعتبار بما حدثلليهود والنصارى وانتقل الحـديث الى خطـاب اهل القرآن يذكر ما هو مشترك بين قوم موسى وقوم محمد من فضـل ابراهيم وهدايته ونسبه ، وبذكر مسألة القبلة ونحوها ثم جاء الحديث عن التوحيد والتذكيربآيات الله الدالة عليه .

وجاء الحديث عن الشرك والمحرمات منالطعاموان التحـريم والتحليل من حق الله وحـده ، وتعرضت السورة لبيان أصول البر وذكر بعضاحكام الصيام والوصـية ، واكل أموال الناس بالباطل والقصاص والقتال والحج والخمر والميسروالنكاح(٢) والطلاق والرضاع والعدة وغيرهما كما تعرضت للحديث عن العقائد العامة كالرسالةوالتوحيد والبعث وتحدثت عن الانفـاق والربا والتجارة وكتابة الدين وختمت السورة بدعاء منالمؤمنين لربهم أن ينصرهم ويؤيدهم ، وقد تضمنت هذه السورة عدة قواعد منها : أن اتباع سبيل اللهواقامة دينه همـا الموجبان للسعادة فى الدنيـا والآخـرة ، وأنه لا يليق بعاقل أن يدعـو للبروالفضيلة وينسى نفسه ، وأنه يجب ايثار الخير على الشر ، وترجيح الأعلى على الأدنى .

وان أصول الدين ثلاثة :

- الايمان بالله .
- الايمان بالبعث .
- العمل الصالح .

وأن الجزاء على الايمانوالعمل معا ، وأن شرطالايمان هو الاذعان النفسى والتسـليم القلبى لكل ما جاء به الرسول وأن غير المسلمين لن يرضواعن المسلمين ، حتى يتبع المسلمون دين هؤلاء وأن الولاية العامة الشرعية يجب أن تكون لأهل الايمان والعدل ، لا لأهل الكفر والظلم وان الايمان بدين الله كما أنزله يستلزم الوحدة والاتفاق وأنترك الاهتداء بذلك يورث الاختلاف والشقاق ،

---

(١) اشارة الى الدعاء فى قراءة الفاتحة (اهدنا الصراطالمستقيم) .
(٢) الزواج .

وان تحقيق الأمور الجليلة يستعان عليه بالصبر والصـــلاة وان التقليـــد الأعمى باطل يؤدى الى الجهالة والعصبية ، وان الله احل لعباده الطيبات من المطعم .و حرم اشياء قليلة محدودة ، ولايجوز لغير الله ان يحل او يحرم ، وان المحرمات تباح للمضطر لأن الضرورات تبيح المحظورات ، وتقدر الضرورة بقدرها وان الدين مبنى على اليسر ورفع الحرج فالله لا يكلف نفسا الا وســـعها ولا يأمر عباده الا بما يطيقون ، وان القـــاء النفس الى التهلكة حرام لا يجوز وان الأشياء تطلب بأسبابها ووسائلها المؤدية اليهـــا ، وان الاكراه فى الدين ممنوع وان القتال مشروع فى الاســـلام للدفاع ولتأمين حرية الدين وتأمين ســـيادة الاسلام فى مجتمعه ، وان للمسلم ان يطلب حظه من الدنيـــا كما يؤدى واجبه نحو الآخرة ، وان سد الذرائع، وتقرير المصالح من مقاصد الشريعة ، وان الايمان والصبر سببان لنصرة القلة العادلة على الكثرة الباغية ، وان اكل اموال الناس بالباطل حرام ، وان الانسان مجزى بعمله لا بعمل غيره ، وان حكمة التشريع يدركها العقل السليم لمـــا فيها من الحق والعدل ومصالح العباد » انتهى ما جـــاء فى المنتخب .

ولعلك ادركت ايها القارىء الكريم لماذا نقلناه بنصه وطوله فهو أشبه بجوامع الكلم ، اوحت به السورة العظيمة .

فضـــل السورة :

وقد قيل كلام كثير فى فضل الســـورة فسماها البعض فسطاط القرآن وذلك لعظمهـــا وبهائها وكثرة احكامها ومواعظها .

وروى الترمذى عن ابى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث بعثا فأمر على هـــذا البعث احدثهم سنا لانه كان يحفظ سورة البقرة اذ قال له : « اذهب فانت اميرهم » وفى صحيح مسلم عن ابى أمامة الباهلى « اقرأوا ســـورة البقرة فان أخـــذها بركة ، وتركهـــا حسرة ، ولا يستطيعها البطلة » .

وفى صحيح البستى عن سهل بن سعد قال :قال رسول الله صلى الله عليه وســـلم « ان لكل شىء سنام وسنام القرآن سورة البقرة .. الى آخر الحديث » وقد ورد هذا النص من ان البقرة ســـنام القرآن من اكثر من طريق ، وبأكثر من صيغة ، وعندنا ان كلمة سنام يجب ان تفسر على ضوء انفراد سورة البقرة بانها أطول سور القرآن على الاطلاق (حوالى جزأين ونصف) ومن وقائع السيرة النبوية انه فى غزوة حنين عندما فوجىء المسلمون فى بدء المعركة فتخلوا لمـــدة لحظات عن رسول الله ، كان العباس عم النبى صلى الله عليه وسلم يهيب بالمسلمين ليثوبوا الى رشدهم فكان مما نادى به « يا أصحاب ســـورة البقـــرة » والســـورة الكريمة تحتوى على آية « الكرسى » التى سنتحدث عنها فى حينها ، كما انها تختم بالآيات الكريمة « آمن الرسول » وقد قيل فيها ما قيل مما سنعرض له باذن الله اذا عشنا حتى نصل اليها .

الف امر والف نهى والف خبر :

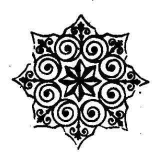
ومن بين ما قيل منسوبا الى شـــيوخ العلم ان السورة الكريمة تحتوى على الف أمر والف نهى والف خبر ، ويضيف القرطبى على لسان ابن العربى « والف حكم » .

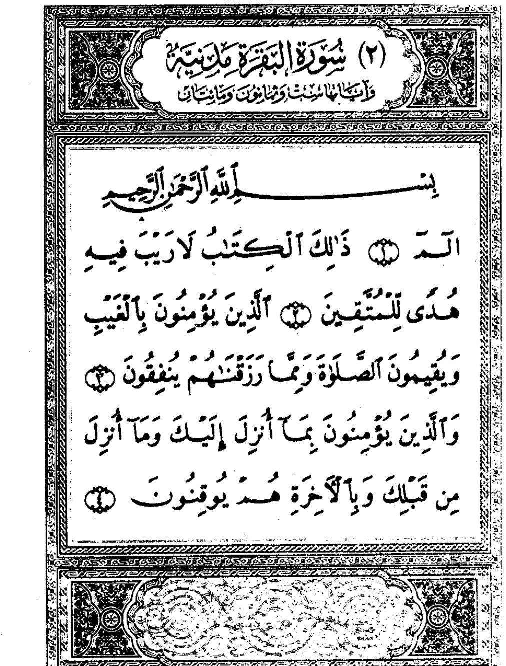
وهكذا كان بحسب اى شيخ ان يسمع قولا عن شيوخه فيثبته كما قالوا ، ولذلك فسوف ترى هذه العبارة دون اى تعليق ، مع أننا قدمنا ان عـــدد آيات السورة الكريمة ٢٨٦ آية فلو أن كل آية

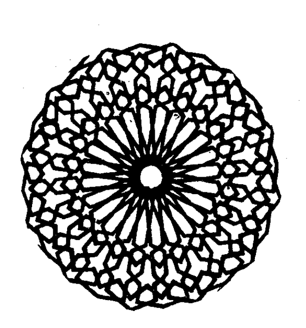
تضمنت أمرا ونهيا وحكما وخبرا لمــا بلغ العددهذا القدر ، ولذلك فيجب ان نفهم هذا القول لا انه سيق على سبيل الاحصاء ، ولكن على ســبيل المجاز والكناية لكثرة ما اشتملت عليه الســورة من الأوامر والنواهى ، والحق ان ذلك يرجع الى طول السورة ، والا فقد مر بنا أن « قل هو الله أحد » وهى من أقصر سور القرآن ، تعدل ثلث القرآن لاشتمالها على التوحيد أعظم مقاصــد القرآن .

ولطالما قلنا أن ما بين دفتى المصحف هو كلام الله والكل بركة وتلاوته تطرد الشيطان (وليست البقرة فقط كما جاء فى بعض الأقوال) ولمــا كانت سورة البقرة أطول السور وكان يكتب للانســان حسنة بكل حرف يتلوه من القرآن فضــلا عمن يحفظه ومن هنا تتفوق ســورة البقرة على أى سورة أخرى اذ انها أطول السور وبالتالى اكثرها حروفا وعلى ضوء هذا المعنى يجب أن نفهم كل ما قيل فى فضل سورة البقرة نفعنا الله بسورة البقرة وبقية سور القرآن .

وبعد هذا التعريف نبدأ بعون الله فنقول وبالله التوفيق :







« الــم » :

اختلف أهل التأويل فى الحروف التى فى أوائل السور ، فقال عامر الشعبى وسفيان الثورى وغيرهما : هى سر الله فى القرآن ولله فى كل كتاب من كتبه سر فهى من المتشابه الذى انفرد الله بعلمه ولا يجوز أن نتكلم فيها ، ولكن نؤمن بهـــا ونقرؤها كما جاءت ، وقد روى هذا القــول عن سيدنا أبى بكر الصـــديق ، وعلى بن أبى طالب رضى الله عنهما . وذكر أبو الليث السمرقندى عن سيدنا عمر وعثمان وابن مسعود أنهم قالوا: الحروف المقطعة من المكتوم الذى لا يفسر وروى من ناحية أخرى عن ابن عباس قوله : الحروف المقطعة فى القرآن اسم الله الأعظم الا أننا لا نعرف تأليفه منها . وقال قطرب والفراء وغيرهما : هى اشارة لحروف الهجاء أعلم الله بها العرب حين تحداهم بالقرآن أنه مؤتلف من حروف هى التى منها بناء كلامهم ليكون عجزهم عنه أبلغ فى الحجة عليهم اذ لم يخرج عن كلامهم .

قال قطرب : كانوا ينفرون (أى المشركين) عند استماع القرآن ، فلما سمعوا « الم » « المص » استنكروا هذا اللفظ فلما أنصتوا له صلى الله عليه وسلم أقبل عليهم بالقرآن المؤتلف ليثبته فى أسماعهم وآذانهم ويقيم الحجة عليهم .

وقال قوم ان المشركين لـــا أعرضوا عن سماع القرآن بمكة قالوا « لاتسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه » فنزلت (أى هذه الحروف) ليستغربوها فيفتحون لها أسماعهم فيسمعون القرآن بعــدها

فتجب عليهم الحجة . وقالت جماعة من العلماء هى حروف دالة على اسماء اخذت منها وحذفت بقيتها فحرف «الألف» من الله ، واللام من جبريل ، والميم من محمد .

وروى أبو الحسن عن ابن عبـــاس فى قوله : « الم » بمعنى انا الله اعلم و « الر » انا الله ارى و « المص » انا الله افصل ، واختار هـــذا الراى الزجاج فقال : انا اذهب الى ان كل حرف منها يؤدى الى معنى ، وقد تكلمت العرب بالحروف المقطعة كقوله : فقلت لها قفى فقالت قاف ، وقال زيد بن أسلم هى اسماء للسور وقال الكلبى ، هى اقسام اقسم الله تعالى بهـــا لشرفها لأنهـــا من اسمائه .

وقال بعضهم « الم » اى انزلت عليك القرآن من اللوح المحفوظ وقال قتادة « الم » اسم من اسماء القرآن .

وقال محمد بن على الترمذى : ان الله تعالى اودع جميع ما فى تلك السورة من احكام وقصص فى تلك الحروف فى أول السورة مما لا يعرفه الا نبى او ولى وقيل غير ذلك من الأقوال(١) .

ونضيف استكمالا للبحث ، ان هذه الحروف فى أوائل السور ، منها ما هو حرف واحد(٢) ومنها ما هو حرفان مثل « حم » ومنها مـا هو ثلاثة مثل مـا نحن بصدده (الم ــ الر) ومنها مـا هو اربعة مثل « المص » ومنها خمسة مثل « كهيعص » .

هى فى مجموعها اربعة عشر حرفا يجمعهـــا قولك : نص حكيم قاطع له سر .

وقد جاءت فترة سادت فيها فكرة ان تحسب هـــذه الحروف حسب قيمتهـــا العددية طبقـــا « لحساب الجمل » فيقال على سبيل المثال : الألف بواحد واللام ثلاثون والميم اربعون ، فتكون « الم » تساوى ٧١ و « الر » ٢٣١ ، لأن الراء بمائتين وهكذا ، والذين قالوا بهذا القول استندوا على ما روى من ان اليهود استعملوا هذا الحساب فى مواجهة سيدنا محمد وقد حمل المرحوم الشيخ رشيد رضا فى تفسير المنار حملة شـــعواء على القائلين بهذا القول ووصف رأيهم بالسخافة ، وعندنا ان الأمر كله اجتهاد ومحاولة لتفسير امر سيظل غامضا باعتباره من المتشابه وقد كرس احد المسلمين المقيمين فى امريكا جل وقته لمحاولة استخدام العقـــل الالكترونى لحل القضية وعندنا انه لم يأت بجديد وكان آخر ما بذل من جهـــد هو البحث المستفيض الذى نشرته منبر الاسلام فى عدد جمادى الآخرة للأستاذ الكبير فتحى رضوان حيث استعرض كثيرا مما قيل فى هذا الموضوع .

وما بقيت الحيـــاة مستمرة وما بقى العقـــل الانسانى يقوم بدوره فستظل الآراء تتدفق ليختار منها كل انسان ما يطمئن له قلبه . وطالما قلنـــا وكررنا اننا نرتاح الى ما اختاره أشياخنا فى تفسير المنتخب من أن هذه الحروف قد سيقت على سبيل التحدى من أن هذا القرآن المعجز هو من نوع حروفكم أيها العرب .

وبعد . . . فليس هذا القول الا ضربا من ضروب الاجتهاد ويقتضينا الأخذ بالأحوط أن نقول انها من المتشابه الذى اســـتأثر الله بعلمه ونقول قول المؤمنين : كل من عند الله آمنا به .

---

(١) اعتمدنا فى تلخيص هذه الآراء على القرطبى .
(٢) وقد مرت أمثال ذلك فى مقالات سابقة مثل ســـورة ق ، ن ، ص .

ذلك الكتاب لا ريب فيه :

ذلك : هذا .

الكتاب : القرآن .

لا ريب : لا شك .

يعجب من يطالع التفاسير القديمة للحرية التيجعلت المفسرين يذهبون كل مذهب ، ويشرفون ويغربون فى تأويل كل كلمة من كلام القرآن بلكل حرف ، فى غير تأثم أو تحرج ، ذلك انهم جميعا كانوا ينطلقون من حقيقة مؤكدة يؤمنون بها بنيــةصادقة ، وتلك هى ان القرآن كلام الله انزله على رسوله ، وما كان ليؤثر فى هذه العقيدة أن تدلهذه الكلمة على هذا المعنى او ذاك فالنتيجة دائما واحدة وهى تأكيد ما يؤمنون به من أن القرآن كلام الله المنزل على عبده سيدنا محمد عليه الصــلاة والسلام ، اذ تتفاوت العقول وتختلف الأمزجة وكل انسان مفكر مولع يســتطيع أن يأتى بجديد لم يسبقه اليه سابق ، فمن هنا تعددت الأقــوال والاتجاهات .

خذ على ســبيل المثال هــذه الكلمات الثلاث« ذلك ــ الكتاب ــ ريب » والتى حددنا معانيهــا (فى تصــورنا) فى ثلاث كلمــات مقابلة ، فقداستغرقت فيبعض التفاسير عشراتمن الصحائف، فاللغويون يتساءلون لمــاذا اختار للاشــارة ذلكولم يقــل هــذا ويســوقون مئــات الفــروض واستشاهدات من القرآن نفسه تأييدا لهذا المعنىأو ذاك ثم ينتهون جميعا الى القاعدة المقررة فى اللغة العربية ان كلمة « ذلك » قد تحل محل هذاوالعكس بالعكس .

أما كلمة « الكتاب » فيذهبون فيها على ما يقول القرطبى الى عشرة تأويلات ، فالكتاب هو اللوح المحفوظ والكتاب هو ما كتبه الله على نفسه منأن رحمته سبقت غضبه ، والكتاب هو التوراة ، وهو التوراة والانجيل معا ، الى آخر كل ذلك ولكن الرأى السائد والذى ينطق به الســياق ومقتضى الحال ، وما نص عليه القرآن نصا فى آيةمماثلة فى مفتتح سورة السجدة حيث تقطع أن المقصود هو القرآن الكريم واليك النص .

« الــم . تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين . أم يقولون افتراه بل هو الحق من ربك .. » الى آخر الآيات ..

وسورة السجدة سورة مكية أى انه كان قــدثبت واستقر أنه عندما يطلق القرآن كلمة الكتاب فلا محل للاجتهاد أو التنقيب فانما المقصود هوذات القرآن الكريم ، وقد كان النبى صلوات الله عليه وسلامه يوصى أصــحابه أن لا يكتبوا عنهالا القرآن باعتباره كلام الله ، فدل ذلك على أن القرآن مذ نزلت أول آية منه فهو كتاب ، والجزءيعبر به أحيانا عن الكل .

والكتاب مصدر من كتب يكتب اذا جمع ومنه قيل : كتيبة ، لاجتماعها وتكتبت الخيل صارت كتائب .

والكتاب هو خط الكاتب حروف المعجم مجموعةأو متفرقة وسمى كتابا وان كان مكتوبا .

لا ريب فيه : لا شك فيه ولا ارتياب .

والمعنى أنه حق منزل من عند الله .

« فيه هدى للمتقين »

اى فى القرآن هدى والهدى فى كلام العرب معناه الرشد والبيان وقيل ان الهدى من اسماء النهار لأن الناس يهتدون فيه لمعايشهم ، وهو فى كل الأحـــوال يعنى الاهتداء اى (الاســـتدلال) على الطريق المستقيم جاء فى فاتحة الكتاب « اهدنا الصراط المستقيم » اى ارشـــدنا ذلك ان الهداية والرشد من الله عز وجل (ويهدى من يشاء) .

للمتقين :

الأصل فى التقوى من وقيته اى منعته ورجـــل تقى اى خائف من عذاب الله فهو يتقيه بصالح عمله وخالص دعائه ، أى أنه جعل من اطاعة اوامر الله واجتناب نواهيه حاجزا ووقاية بينه وبين عذاب الله . ولا يتقى عذاب الله ويخـــافه منه الا مؤمن صادق الايمان بالله واليوم الآخر وكل ما فى الغيب وهو ما بينته الآية التالية :

« الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون . والذين يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون » .

صـــفات المتقـــين :

سر اعجاز القرآن انه كلام عربى مبين يفسر بعضه بعضا ، وهو قد نزل ليقرع الأسماع وينفذ الى القلوب ، ومهما كان الانسان ضليعا فى اللغة العربية فسيجد صعوبة فى فهم كثير من الشـــعر الجاهلى حيث لا يجد صعوبة مماثلة فى فهم آيات القرآن ذلك ان ما بين أيدينا من اللغة العربية هو ثمرة القرآن المباشرة ، واذا كان المصريون قد اشتهروا بين الدول العربية بالفصاحة فذلك لأنهم تلقوا اللغة العربية من القرآن مباشرة ، ومن هنا كان الأزهر الشريف ولا زال وسيبقى يخرج أساتذة اللغة العربية .

سقت هذه المقدمة لألفت النظر للجدل الكبير الذى دار حول هذه الآيات من حيث ان المذكورين فى هذه الآيات هل هم طائفة واحدة ام طائفتان ، فالآية الأولى « الذين يؤمنـــون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون » فالمقصود بها من آمن بسيدنا محمد واتبعه من العرب .

واما الآية الثانية « والذين يؤمنون بمـــا أنزل اليك وما أنزل من قبلك وبالآخـــرة هم يوقنون » قالوا : ان الحديث هنا قصد به مؤمنو اهل الكتاب وهذا الرأى قد قال به بعض فطاحل المفسرين(١) حيث يبدو لى الأمر وصفا واحدا جامعا شـــاملا للمتقين من عرب وعجم ومن كل ملة وطراز الى أبد الآبدين ، والقول متصل يتدفق تدفق مياه النهر فبعد أن أشارت الآية السابقة الى المتقين راحت تعدد صفاتهم فى هذه الآية فهم :

— يؤمنون بالغيب — ويقيمون الصلاة .

— ومما رزقناهم ينفقون .

— والذين يؤمنون بما أنزل اليك .

— وما أنزل من قبلك .

— وبالآخرة هم يوقنون .

---

(١) من هذا الرأى الشيخ محمد عبده والشيخ رشيد رضا على ما جاء فى تفسير المنار .

ويصف الله عز وجل من توفرت فيه هـذه الصفات بأنه هو الناجح الفائز « أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون » وهذا الفهم الذي يبدو لنا منسقا وناصعا هو الذى جرى حوله الخلاف كما قدمنا على أننا ما كنا لنسمح لأنفسنا أن نعتمد على فهمنا الا ان نجد بعض الثقـات ممن سبقونا قد قالوا بهذا .

فهذا هو ابن كثير يقول :

قلت : والظاهر قول مجاهد فيما رواه الثورى عن رجل عن مجاهد ورواه غير واحد عن ابن ابى نجيح عن مجاهد انه قال : اربع آيات من اول سـورة البقرة فى نعت المؤمنين وآيتان فى نعت الكافرين وثلاث عشرة فى المنافقين ، فهـذه الآيات الأربع عامات فى كل مؤمن اتصف بها من عربى وعجمى وكتابى من انس وجن وليس تصح واحدة من هذه الصفات بدون الأخرى ، بل كل واحدة مستلزمة للأخرى وشرط معها فلا يصح الايمـان بالغيب واقام الصلاة وايتاء الزكاة الا مع الايمان بما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ، وما جاء به من قبله من الرسـل صلوات الله وسـلامه عليهم أجمعين (انتهى) .

وهكذا يكون ما فهمناه واخترناه قد سبقنا اليه الثقات فالحمد لله من قبل ومن بعد . وننتقل بعد ذلك الى الكلام عن مختلف الصفات .

« يؤمنون بالغيب »

ما هو الايمان ، وما هو الغيب ، الايمان لغة هو التصديق ، جاء فى القرآن الكريم : « وما انت بمؤمن لنا » اى مصـدقنا ، وهذا هو مصـدر الاشتقاق اى أن المؤمنين بسيدنا محمد هم الذين يصدقون بما جاء به سيدنا محمد ، وقد عددت هاتان الآيتان مظاهر هذا الايمان وأولها الايمان بالغيب أى تصديق ذلك واعتقاده .

والغيب فى كلام العرب كل ما غاب عنك فيقال غابت الشـمس ، اى احتجبت وتوارت وراء الأفق .

ولكن الغيب هنا أصبح له معنى محدد يمكن أن يدل عليه ما تضمنه الحديث الشريف المشهور عندما سأل سيدنا جبريل سيدنا محمدا «أخبرنى عن الايمـان ، فقال سـيدنا محمـد ان تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ،وتؤمن بالقدر خيره وشره « قال » أى جبريل : صدقت . .

وعندنا أن الله سبحانه وتعالى قد وصف نفسه بأنه « عالم الغيب والشهادة » فدل ذلك على أنهما عالمـان ، هـذه الدنيا التى نحياها ونحسها باحساسنا ومشاعرنا . وهذا هو عالم الشهادة ، اى المشهود وثمة عالم آخر هو عالم الآخـرة ،وكل ما يتبع هذا العالم من بعث ونشور وحساب وثواب وعقاب اى جنة ونار فهذا هو عالم الغيب الذى لا نستطيع أن ندركه بحواسنا وانما نؤمن به ونعتقده لأن سيدنا محمدا وهو الصادق الأمين قال به ونزل به القرآن الكريم فجرى على لسانه .

« ويقيمون الصـلاة »

هذا هو الشرط الثانى من شروط الايمان فهـو ليس اعتقادا بالقلب وقولا باللسان فحسب ، وانما هو اعتقاد وقول وعمل ، وأول هذه الأعمال واهمها اقامة الصلاة .

واقامة الصلاة اداؤها باركانها وهيئاتها فى اوقاتها وقيل يقيمون : يديمون ، قال سيدنا عمر : من حفظها وحافظ عليها حفظ دينه ، ومن ضيعها فهو لسواها أضيع .

« ومما رزقناهم ينفقون »

واذا كانت صفة المؤمن الأولى ان يؤمن بربه وبكل ما أمره أن يؤمن به من الغيب وأن يحسن الصلة الدائمة بربه عن طريق الصـــلاة ليظل فى حالة ذكر ودعاء لله ابدا فان المظهر الثانى للايمان ولعله النتيجة الحتمية لهذا المظهر الاول ـــ هو شعور الانسان بانه عضو فى جماعة يتعين عليه ان يعمل كل ما يعود عليها بالخير والفـــائدة ،وذلك عن طريق الانفاق المشروع « ومما رزقناهم ينفقون » وقد حاول بعض المفسرين ان يخصصوا الانفاق بأنه الزكاة المفروضة ، ولكننا نختار قول من ابقى الانفاق بمعناه العام .

يقول ابن جرير : الآية عامة فى الزكاة والنفقات ممن لزمته نفقته من أهل أو عيال وغيرهم ممن يجب عليه نفقته بالقرابة .. وغير ذلك لأن الله تعالى عمم وصفهم ومدحهم بذلك ، وكل من الانفاق والزكاة ممدوح به محمود عليه .

ويقول ابن كثير : كثيرا ما يقرن الله تعالى بين الصلاة والانفاق من الأموال فان الصلاة حق الله وعبادته وهى مشتملة على توحيده والثناء عليه وتمجيده والابتهال اليه ودعائه والتـــوكل عليه ، والانفاق هو من الاحسان الى المخلوقين بالنفـــع المتعدى اليهم ، واولى الناس بذلك القـــرابات والاهلون ، ثم الأجانب فكل من النفقات الواجبة والزكاة المفروضة داخل فى قوله تعالى « ومـــا رزقناهم ينفقون » .

الانفـــاق الجيد لب الاقتصاد :

وفى حياتنا المعاصرة حيث يكثرون من القـــول سواء فى الشرق والغرب انها تقوم اى الزكاة على الاقتصاد فهم يعتبرون أن الانفاق هو جوهر الاقتصاد ومن هنا يتجلى لك تفوق الاسلام فحيث يعتبر المعاصرون أن الحياة تقوم على المادة ، فكان هذا الشقاء الذى اصبحت تعانيه البشرية كلهـــا حيث يقرر الاسلام ان الحياة تقوم على العنصرين معا الروح والمـــادة ولا تقوم حياة سعيدة الا على الاثنين معا ومن هنا خص المؤمنين وحثهم على الأعمال الروحية « الايمان بالغيب والصـــلاة » وفى ذات الوقت حثهم على الانفاق .

وغنى عن البيان أن الانفاق يجب أن يتم فى حدود المشروعية ، وهى كل ما يعود بالخـــير على الناس .

«والذين يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك»

هـــذه هى الآية التى قال البعض أنها وصف لجماعة أخرى غير الموصوفين فى الآية السابقة فهى تعنى أهل الكتاب الذين آمنوا بما أنزل على سيدنا محمد من مثل عبد الله بن سلام فقد كان من كبار اليهود الذين آمنوا بسيدنا محمد ، ولكنا من راى من قال ، كما قدمنا ، ان الآية عامة فى كل مؤمن اذ يجب أن تكون احدى صفاته الايمان بجميع الرسل الذين تحدث عنهم القرآن وانهم جميعا قد جاءوا برسالة واحدة وهى التوحيد وان كتبهم من مثل التوراة والانجيل هى بدورها تنزيل

من رب العالمين وذلك المعنى مستفاد مما جـــاء فى ختام سورة البقرة حيث وصف المؤمنين كافة بهذا الوصف .

« والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين احد من رسله » .

وحدة الدين :

والحق ان احد خصائص الاسلام العظيمـــة هو ما غرســه الاســلام فى نفوس معتنقيه من الاعتراف باليهودية والنصرانيـــة واعتبارهمـــا ينطويان على جوهر ما جاء به الإسلام وهـــو التوحيد من ناحية العقيدة ، ومكارم الأخـــلاق فى التعامل مع الناس ، واذا كان هذان الدينـــان قد غشـــيتهما الغواشى فليس ذلك الا نتيجـــة التحريف الذى قام به نفر من اتباع الدينين ، وقد جاء الاسلام ليصحح ويقوم ويعيد التوحيد الى نقائه وصفائه .

وهذا هو ما جعل من الاسلام الصخرة التى تتحطم عليها كل جهـــود المبشرين بالمسيحية او اليهودية ، فهم عندما يدعون لموسى او لعيسى ويتحدثون عن التوراة والانجيل يجدون لدى المسلم فكرة اوضح وأكمل من فكرتهم .

ومن عجب ان لا يدرك اى يهودى او مسيحى انه لا يستطيع انكار رسالة سيدنا محمد دون ان يهدم فى نفس الوقت رسالته ، فما دام اليهودى او المسيحى يؤمن بالله وانه يتصـــل بالبشر عن طريق الرسل ، فعلى اى اساس ينكرون رسالة سيدنا محمد . لقد سئل السيد المسيح سؤالا صريحا انه سيكون من بعده « أنبياء كذبه » فكيف يعرفـــونهم فأجاب بعبـــارته الحكيمة المشهورة « من ثمارهم تعرفونهم » فهو لم ينف انه سيجىء بعده أنبياء ، ووضع المقياس لاتباعه ليفرقوا بين النبى الصحيح والنبى الزائف ، وذلك يفحص ما يدعو اليه ، فأى شىء دعا اليه سيدنا محمد ؟ لقد جاء وسط أقوام يعبدون الأصنام ويشركون بالله ويعيشون فى جاهلية ، فدعاهم الى التوحيد وعبادة الله الواحـــد الأحد المنزه عن التشبيه والتجسيد ، وذلك بالاضافة الى مكارم الأخلاق ، وعلى راسها الحب والعدل والبر والاحسان للناس على أن يسود البشر اجمعين السلام والاخوة والتعاون وحققت هذه المبادىء أعظم حضـــارة عرفها البشر لمدة الف سنة ، واذا كان المسلمون قد تخلفـــوا اخيرا فليس ذلك الا لانحرافهم عن جوهر الاسلام ، والدلائل كلها تشير الى ان كل ما هو طيب فى دنيانا المعاصرة هو من الاسلام وكل ما هو ردىء او شر فهو مما ينكره الاسلام فأى ثمـــار مباركة اعظم من هـــذه التى طلع بها سيدنا محمـــد على الدنيا ؟ فانكاره وجحوده هو انكار لله وهدم للعقيدة من اساسها ، فليتدبر ذلك كل صاحب دين وليتق الله .

والخلاصة ان شرط الأيمان بالله هو الايمان بانه اختار نفرا من البشر ليكونوا رسله الى الناس ليرشدوهم الى طريق السعادة فى الدنيا والآخرة .

« وبالآخرة هم يوقنون »

اليقين : هو العلم الذى لا شك فيه .

الآخرة : هى الحياة « المتأخرة » كما ان الدنيا مشتقة من الدنو والمعنى هو اخص صفات المؤمنين من انهم يعلمون علم اليقين ان وراء الموت بعث الحياة اخرى فيها حساب وجزاء وجنة ونار .

أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ

« اولئك على هـــدى من ربهم واولئك هم المفلحون » .

المفلحون : من الفلاح افلح الارض : اى شقها تهيئة لزرعها ، ومن ذلك اشتق اسم الفلاح .

واصبح الفلاح رمزا على النجاح والفوز .

ويكون معنى : المفلحون الفائزون الذين ادركوا ما طلبوا وهو رضوان الله والجنة ، وقد كان سبب فلاحهم هو توفر الصفات التى عددناها .

« ان الذين كفروا سواء عليهم أانذرتهم ام لم تنذرهم لا يؤمنون . ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى ابصارهم غشـــاوة ولهم عذاب عظيم » .

لـــا ذكر المؤمنين واحـــوالهم انتقـــل الى وصف الفئة الثانية من الناس الذين يقفـــون على النقيض من الفئة الأولى ونعنى بهم فئة الـــكفار الذين يجحدون وجود الله او يجحدون وحـــدته وينكرونها او يشركون بعبادته .

واصل كلمة الكفر فى كلام العرب : الســـتر والتغطية يقول الشاعر : فى ليلة كفر النجـــوم غمامها . اى سترها وسمى العرب الليل كافرا لانه يغطى كل شىء بسواده . والكافر كذلك فى لغة العرب قبل الاسلام : الزارع وقد اســـتعمل القرآن الكريم هـــذا اللفظ بهـــذا المعنى فى الآية الكريمة « كمثل غيث اعجب الكفار نبـــاته » اى الزراع وسمى الزارع كافرا لانه يغطى الحب ويستره . ولكن الكلمة بعد نزول القرآن تحدد معناها على الوجه الذى سقناه من ان الـــكافر هو الذى يجحد الله او يشرك به . وقد ظـــل اصل الكلمة يستعمل حتى الآن فى كلمة «الكفور» بمعنى القرى الريفية .

أانذرتهم : الانذار : الابلاغ والاعـــلام الذى يحمل فى طياته التخويف فى زمن يسمح للاحتراز مما يخوف به .

ختم : اى طبع .

غشاوة : الغشاء : الغطاء .

الجبر والاختيار :

والمعنى اللفظى لهذه الآيات : اى لا تقطـــع نفسك يا محمد حسرات على الـــكافرين ان لم يؤمنوا فمهما انذرت وحذرت فلن يسمعوا لك فقد طبع الله على قلوبهم واسماعهم وابصـــــارهم

فأصـــبحوا لا يفقهون ولا يســـمعون ولا يرونالآيات ، وهم فى نهاية الأمر مآلهم الى العـــذاب العظيم .

وهكذا ينفتح باب التساؤل على مصارعه ،هل الانسان مخير أو مسير ، وهل هو منذ يولد من أهل الشقاء أم من أهل النعيم ؟ وهذا البحث قديم قدم الانسان ، وقد افترقت حوله الآراء وقد شغل العالم الاسلامى فترة بالجـــدل فى هـــذه القضية ، ومحاولة كل فريق أن يجزم ويحســـم بهذا الرأى أو ذاك .

مع اننا لو أخذنا بفـــكرة أن من خلق كافرا فلا سبيل أمامه الا الكفر لمـــا كان هناك أى معنى للوعظ والارشاد وارسال الرسل وانزال الكتب ومن الناحية الأخرى لو قلنا أن الانسان يخـــلق أعماله باختياره لتعارض ذلك مع النص القاطع « الله خـــالق كل شيء » والنص الأكثر صراحة « والله خلقكم وما تعملون » ومن هنا فيجب دائما عندما تعرض لنا مثل هذه الآية أن نفهمها على ضوء ما جاء فى آيات من مثل قوله تعالى : « فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم » وقوله تعالى : « ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنـــوا به أول مرة ونذرهم فى طغيانهم يعمهون » .

وما أشبه ذلك من الآيات الدالة على أنه تعالى انما ختم على قلوبهم وحال بينهم وبين الهدى جزاء وفاقا على تماديهم فى الباطل وتركهم الحق .

وطالمـــا قلنا وكررنا أننا فى هذه القضية نتبع حواسنا وعقلنا والواقع الذى نحياه من أن كلا منا يحس فى نفسه القدرة على الاتيان بهذا العمل والانصراف عن ذلك فيجب استعمال القدرة التى زودنا بها الله فيما خلقت من أجله وهو الاختيار والتمييز بين الضار والنافع والخير والشر ، وفى ذلك يقول رسول الله صلوات الله وسلامه عليه « اعملوا فكل ميسر لما خلق له » فنحن مأمورون بالعمل بكل ما يتبعه من الاختيـــار والاحســـان والتجويد ما وسعتنا القدرة على ذلك ، على أن لا يفارقنا الايمان لحظـــة واحـــدة على أن الله سبحانه وتعالى هو خالق كل شيء ومنه الهداية وبه التوفيق ومن هنا فقد اخترنا من كل ما طالعناه من تفسيرات ما قاله أشياخنا المعاصرون فى تفسير المنتخب الذى أصدره المجلس الأعلى حيث قالوا فى تفسير هذه الآيات ما يلى بالحرف الواحد :

أما الجاهلون (أى الـــكفار) الذين فقـــدوا الاستعداد للايمان اعراضـــا منهم وعنادا فلن يستجيبوا لله فيستوى عندهم تخويفك لهم وعدم تخويفك .

هؤلاء قـــد تمكن الكفر منهم حتى كأن قلوبهم مختوم عليها بحجاب لا يدخلها غير ما فيها وكأن أسماعهم مختوم عليها كذلك ، فلا تسمع وعده الحق ، وكأن أبصارهم قد غشيها غطاء فهى لا تدرك آيات الله الدالة على الايمـــان ولذلك استحقوا أن ينالهم العذاب الشديد .

« ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين » .

الناس : جماعة الانســـان ، « وقد اختلف فى أصل اشتقاقها ، فقال البعض : انها من الفعل (نوس) بمعنى تحرك ، وقال بعض آخر : انها من الفعل « نسى » أى أن الانسان سمى انسانا لأنه ينسى ولكنا نؤثر ، على ضوء آخر معطيات العلم ، أن نختار كون الانسان مشتق مما يدل على الحركة فالطبيعة فى أساسها تقوم على الحـــركة ولا جدال أن الانسان هو قمة ما فى الطبيعة من

مخلوقات ، فهو يتحرك عبر المكان والزمان فى الحــاضر والمــاضى بل والمســتقبل عن طريق الخيال ، فالانسان هو الحركة فى أوسع معانيهاومدلولها ولذلك نؤثر كما قدمنـــا أن يكون اشتقاق كلمة انسان من الفعل نوس ينوس بمعنى تحرك،وبعد هذه الفائدة اللغوية نشرع فى فهم الآية فنقول وبالله التوفيق :

النفاق والمنافقون :

قدمنا أنه روى عن مجاهد قوله : نزلت أربع آيات من سورة البقرة فى المؤمنين ، واثنتـــان فى نعت الكافرين وثلاث عشرة فى المنافقين ، فمن هم المنافقون ، وما هو النفاق ؟

نافق الرجل نفاقا . اظهر الاسلام وعمل بعمله وابطن الكفر ، واصل ذلك نفاق «اليربوع» وهوان يخرج من جحر يستره يسمى « النافقاء » وذلك اذا قصد من جحره الظاهر فاطلق النفاق من هذا على فعل من يدخل فى الاسلام ثم يخرج منه من غير الوجه الذى دخل فيه ويأخذه بعضهم من النفق وهو سرب فى الأرض له مخرج من موضع آخر ،والنفاق فى معنى اظهار الاسلام وابطان الكفر من الكلمات الاسلامية وقد اعتمدت على معنى قديم كما رأيت (انتهى ما جاء فى معجم الفاظ القرآن الكريم للمجمع اللغوى) .

لا نفاق فى مكة :

والنفاق بمعنى اظهار الاسلام وابطان الكفر ،لم يكن له وجود فى مكة بطبيعة الحال ، اذ كان المسلمون يضطهدون ويعذبون ، وانما كان يوجد فى مكة وخاصة فى السنين المتـــأخرة من يؤمن بالله واليوم الآخر فى قرارة نفسه دون أن يظهر ذلك من باب التقية ، وهم الذين اشـــار اليهم القرآن الكريم فى سورة الفتح وجعل وجودهم أحد الأسباب التى شاءها الله ليحول بين المسلمين وبين القتال فى «الحديبية» .

واقتضت مشيئته سبحانه وتعـــالى أن يتم « صلح الحديبية » . جاء فى القرآن الكريم :

« ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطئوهم فتصيبكم منهم معرة بغـــير علم ليدخل الله فى رحمته من يشاء لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذابا اليمـــا » .

وهكذا لم يصف الله عز وجل من يبطن الايمان ويتظاهـــر بعكس ذلك بالنفاق بل لقد وصفهم بالمؤمنين والمؤمنات ، فليتدبر ذلك جيدا من حاول أن يمد وصف المنافقين ليشمل بعض المسلمين فى مجتمعنا المعاصر ، مما سنعود للتعرض له بعد قليل .

النفاق فى المدينة على عهد الرسول :

وانما عندما يذكر النفاق والمنافقون فيجب على الفور استحضار صورة ما كان عليه الحال فى عهد الرسول صلوات الله عليه وسلامه ، ولا مانع بطبيعة الحال من انطباق هذه الصورة على اى انسان معاصر شريطة توفـــر ذات الظـــروف والاوضـــاع لا أن يرمى الكلام على عواهنه كما سنرى فيقذف أقوام من خيار المسلمين بالنفاق الذى تتحدث عنه هذه الآيات .

والذى حدث أن سيدنا محمدا عليه الصلاة والسلام لم يهـــاجر الى المدينة الا بعـــد أن كان الاسلام قد تفشى بها ، واجتمع الاوس والخزرج لأول مرة فى تاريخهما على الايمان برسالة سيدنا محمد فلما أن هاجر رسول الله اليهم ارتضوه اماما لهم يطيعونه فى كل ما يأمر به باعتبـــاره

لا ينطق عن الهوى وانما هو وحى يوحى وقد حدث ان وادع اليهود سيدنا محمد فأبرموا معه عهدا سوف نتحدث عنه بالفصيل فيما بعد والمهم الآن ،ان الغلبة وقوة السلطان اصبحتا بيد المسلمين وخاصة بعد ان انتصروا انتصارهم الحاسم فى موقعة بدر ، وهنا وجد بعض سكان المدينة ان مصلحتهم لن تتحقق الا اذا تظاهروا بالاسلام ،حيث ظلوا يبطنون الكفر ، وهم من تصفهم هذه الآيات ، ولم يلبث القرآن ان صك لهم اسم المنافقين ، الذين أصبح لهم كيان محدد وأعمال ضارة بالمجتمع الاسلامى ، مما حدثتنا عنه سورة « المنافقون » ولندع الآن ابن كثير يحدثنا عن هذه القضية فقد لخصها اكمل تلخيص :

وانما نزلت صفات المنافقين فى السور المدنية لأن مكة لم يكن فيها نفاق ، فلما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المدينة وكان بها الانصار من الأوس والخزرج وكانوا فى جاهليتهم يعبدون الاصنام على طريقة مشركى العرب وبها اليهود من اهل الكتاب على طريقة اسلافهم وكانوا (اى اليهود) ثلاث قبائل بنو قينقاع حلفاء الخزرج ، وبنو النضير ، وبنو قريظة ، حلفاء الأوس فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وأسلم من اسلم من الأنصار من قبيلتى الأوس والخزرج فلما كانت واقعة بدر العظمى واظهر الله كلمته واعز الاسلام واهله ، قال عبد الله بن ابى بن سلول ، وكان راسا فى المدينة وهو من الخزرج ، وكان سيد الطائفتين فى الجاهلية ، وكانوا قد عزموا على ان يملكوه عليهم ، فجاءهم الخير واسلموا واشتغلوا عنه فبقى فى نفسه من الاسلام واهله.فلما كانت واقعة بدر قال هذا أمر قد توجه فاظهر الدخول فى الاسلام ودخل معه طوائف ممن هو على طريقته وآخرون من اهل الكتاب فمن ثم وجد النفاق فى أهل المدينة ومن حولها من الأعراب . انتهى .

وقد تحمل رسول الله صلى الله عليه وسلم الكثير من المنافقين مما سيرد علينا . ولنتفهم الآن الآيات التى نحن بصددها :

« ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين » هذه أول اشارة فى القرآن لوصف هذا الفريق من الناس الذى اظهر الاسلام وأبطن الكفر وقد استدل منها على أن الايمان لا يكون بالقول فقط اى باللسان وانما يجب أن يكون اعتقادا بالقلب وهو ما يدل عليه العمل .

وقد أنزل القرآن حكمه على من يقول بلسانه فقط انه يؤمن بالله واليوم الآخر ويبطن خلاف ذلك انه ليس بمؤمن .

« يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون الا أنفسهم وما يشعرون » .

قال بعض اللغويين أن الأصل فى مادة خدع عند العرب تعنى الفساد ولكننا نؤثر قول من قال من أهل اللغة أيضا ان اصل الكلمة يعنى الخفاء ومنها جاء « المخدع » وهو الحجرة الداخلية (التى تحرز فيها الأشياء) .

وعندما نريد تفهم معنى الآية فلا يجب أن يغيب عن بالنا لحظة أن القرآن الكريم انما

يخاطب باللسان العربى مستخدما الأساليب المعتادة فى الخطاب والمؤمن الحق الذى يفهم المقصود من الكلام حيث يريد ان ينبه المنافقين ويحذرهم ان ما يفعلونه عن جهل بطبيعة الله وحقيقته من انه يعلم السر وما هو اخفى وادق من السر .

يريد القرآن الكريم ان يقول لهم انهم انما يؤذون انفسهم ويضرون انفسهم .

هذا هو معنى هذه الآية الكريمة ، فلا يجب ان تؤخذ بظاهر الفاظها ، فالخداع لا يكون الا مع من لا يعرف البواطن ، اما من يعرف البواطن فالخداع غير قائم اصلا بالنسبة له .

وقد سلك كثير من المفسرين طرقا مختلفة لصرف الكلام عن معناه اللفظى فقالوا فى الكلام حذف « يخادعون الله » اى يخدعون رسول الله ، وقيل يخدعون المؤمنين لينجوا بأنفسهم ويحقنوا دماءهم . وعندنا انه ما دام ظاهر القول يفهم منه المعنى المقصود فلا داعى للقول بأن هناك محذوفا .

فى هذه الآية لا يجب ان ننسى أن القرآن الكريم يتحدث عن اقوام قد حكم عليهم بعدم الايمان وبالتالى فهم لا يؤمنون بقدرة الله المطلقة وعلمه الذى يحيط بكل شىء ، ومن هنا فقد تصوروا (حسب عقولهم ومعتقداتهم السقيمة) انهم اذ يظهرون عكس ما يبطنون فهم يخدعون الله ، وهنا يقول لهم القرآن الكريم ، انهم اذ يفعلون ذلك فهم انما يخدعون انفسهم .

وما يشعرون : اى ولا يفطنون أن مغبة ذلك ووباله راجع اليهم .

قال اهل اللغة : شعرت بالشىء اى فطنت له ، ومنها الشاعر لفطنته لانه يفطن لما لا يفطن له غيره من غريب المعانى ، ومنه قولهم : ليت شعرى ، اى ليتنى علمت .

« فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ولهم عذاب اليم بما كانوا يكذبون » .

المرض : معروف وهو الخروج عن حد الصحة والاعتدال من علة تعتريه ولما كان هناك اتفاق على أن المنافقين قد يكونون أصحاء جسديا فان قدامى المفسرين يقولون ان كلمة مرض هنا تعنى شكا كما قالوا نفاقا ورياء ، ولكننا نستطيع ان نزيد على ما تقدم أن مرضا بمعنى « مرض » اى انها كلمة مقصودة لذات لفظها فالمرض كما يكون ماديا اى لاصابة فى البدن فهو يكون معنويا يصيب الروح ويصيب النفس ، واكثر الأمراض انتشارا اليوم فى المجتمعات المادية الملحدة هى ما يسمونها الأمراض النفسية واصبح الطبيب النفسانى فى امريكا على سبيل المثال هو اروج الأطباء ، فعندما يحدثنا القرآن عن مرضى النفوس فنحن نقول بقول اسلافنا فى قلوبهم شك جعلهم مرضى .

فزادهم الله مرضا : وسيرا على نسق القرآن من التهديد والوعيد فانه يحذر هؤلاء المنافقين من التمادى فى غيهم وشرورهم ، والا اعمل مشيئته فزادهم شكا على شك وبالتالى مرضا على مرض .

« ولهم عذاب اليم بما كانوا يكذبون » .

وهم على كل حال (اى المنافقين) سوف يعذبون عذابا موجعا اليما يوم القيامة نتيجة

تكذيبهم فى ضمائرهم بما دعاهم اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم تكن دعوته الا التوحيد والايمان بالغيب والعمل الصالح فاستحقوا عذاب جهنم وبئس المصير .

موقف سيدنا محمد من المنافقين :

وقد شقى سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام ، كأشد مايكون الشقاء بمؤامرات المنافقين ومكائدهم مما فصلته كتب السيرة ، واشارت بعض آيات القرآن اليه ، مثل الذى جاء فى سورة المنافقون .

— « يقولون لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل » .

— وقالوا « لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا » .

وكان قائل هاتين الكلمتين الكبيرتين هو عبدالله بن ابى بن سلول حتى شاع واستفاض فى جيش سيدنا محمد (وكان راجعا من احدى الغزوات) بأنه سيقتل ابن سلول لا محالة ، مما جعل ابنه عبد الله نفسه (وكان مؤمنا صادقا) يقترح على رسول الله أن يكلفه هو بقتل أبيه اذا كان معتزما أن يقتله ، ولكن سيدنا محمدا عليه الصلاة والسلام اجابه : بل ترفق به وتحسن صحبته وما احسن صحبتنا ، وذلك لأن سيدنا محمدا عليه الصلاة والسلام كان قد استجوب عبد الله بن ابى ، فانكر أن يكون قد قال ما نسب اليه واقسم بالله انه ما تفوه بمثل هذا الكلام وقد تساءل المتسائلون فى هذا الموطن عن السر فى موقف رسول الله ، فقال بعضهم انه اراد ان يسن القاعدة الأصولية من أن الامام لا يقضى بعلمه ولكن فى الحادثة التى اشرنا اليها كان يمكن أن يشهد من سمعوا قول عبد الله بن أبى ، فيكون قضاء سيدنا محمد ليس بعلمه ، ولذلك فنحن نرجح قول من قال أن سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم وقد حماه الله من كيد المنافقين وقد أطلعه على سرهم ونجواهم آثر أن يحقن دماءهم حتى لا يقول الناس ان سيدنا محمدا يقتل أصحابه ، فما داموا يعلنون الاسلام ويشهدون أن لا اله الا الله وأن سيدنا محمدا عبده ورسوله فقد كان سيدنا محمد يعاملهم على الظاهر تاركا سرائرهم الى الله سبحانه وتعالى ، وهذا هو آية كون رسول الله نبيا مرسلا وليس حاكما ، فقد طالعنا فى التاريخ قديمه وحديثه أن الحاكم قد يتسامح فى كل شىء الا فيما يتصل بمكانته كحاكم وقد قتل الملوك حتى أولادهم فضلا عن اقرب المقربين لمجرد الشك او الظن حتى لقد روى أن أحد الساعين لتأسيس ملك كتب لداعيته فى خراسان أن يقتل على مجرد الظن حتى بلغ الأمر به الى حد القول « وأيما غلام يبلغ خمسة أشبار تتهمه فاقتله » . وقيل أن هذا الداعية الخراسانى قتل مائة الف بهذا الأسلوب ليمكن للدولة الجديدة ، وكان أن لقى هو مصرعه عندما شك فيه الحاكم : وليس ذلك الا النموذج الدائم لكل الذين يعملون لتأسيس ملك أو المحافظة عليه ، وخالف ذلك سيدنا محمد صلوات الله عليه وسلامه ، وذلك انه لم يكن حاكما ولا سلطانا وانما كان صديقا نبيا ، وهاديا مرشدا جاء يعلم الناس الطريق الى الله ، تاركا حساب الضمائر والسرائر الى الله عز وجل . كان اذا الح عليه أحد صحابته المقربين فى أن فلانا من المنافقين فيقول له صلى الله عليه وسلم ؟ هلا شققت عن قلبه ، أى انك لم تشق قلبه لتتأكد مما تقول وخير من ذلك أن تتركه لرب القلوب .

لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ

ـ واذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض قالوا انمانحن مصــلحون الا انهم هم المفسدون ولـــكن لا يشعرون .

الفساد : من فسد يفسد فسادا فهو فاسد .

ومعنى الفساد : الجدب فى البر والقحط فىالبحر والفساد فى المعنوى نقيض الصلاح .
صلح يصلح صلاحا والاسم هو الصلاح .

واستعملوا الصــــالح بمعنى الكثير ، وبمعنىالمناسب ، وبمعنى تقديم الشيء الحسن ، ومن هنا جاء استعمال الصلاح ضد الفساد ويكون معنىالآية انها تصف بعض صفات المنافقين ، فهم لمـــا كانت قلوبهم غير صافية ، وهى مفعمة بالكفروالشرور . فلا عجب أن جاءت أعمـــالهم تنضح بالفساد والشر والاســـاءة ، فاذا لفت أنظارهملافت ، عجبوا لقوله وقالوا ، انهم انما يصلحون بعملهم ويحكم الله عليهم بأن ما يفعلونه هو عينالفساد ، ولكن لا يشعرون وقد حاول القدامى من المفسرين أن يحددوا نوع الافساد الذى كانيمارسه المنافقون فقالوا ان المعنى انالأرض كانت قبل ان يبعث سيدنا محمد كان فيها الفساد ويعملفيها بالمعاصى فلمـــا بعث النبى صلى الله عليه وسلم ارتفع الفساد وصلحت الأرض ، فاذا عملوابالمعاصى فقد افسدوا فى الأرض بعد اصلاحها ، كما قال فى آية أخرى « لا تفسدوا فى الأرض بعداصلاحها » .

وعندنا ان هذا معنى بعيد ، واقرب منه ما قالبه نفر آخر من المفسرين وهو ما تعززه الآيات التالية أن المنافقين ظلوا علىموالاتهم لأهل الكتابحتى بعد أن بدتمنهم العداوة والبغضاء للمؤمنين، فلما نهوا عن هذه الموالاة والمصافاة ، بعد انتبين انقلاب اليهود ، ادعوا انهـــم يفعلون ذلك للاصلاح واللطيف ان هذا هو ما يدعيه كل مفسدمن اى نوع كان ، فهو يزعم أن ما يفعله هو من الصالح ولكن الله سبحانه وتعالى العالم بالسرائروالنوايا والذى يزن اعمال العباد بأدق ميزان حكم عليهـــم وعلى امثالهم بالفســـاد « الا انهـــم هم المفسدون ولكن لا يشعرون » .

« واذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء الا انهم هم السفهاء ولكن لا يعــلمون » .

السفهاء : جمع سفيه واصل السفه فى كلام العرب : الخفة والرقة ، يقال ثوب سفيه اذا كان ردىء النسج خفيفه وكان باليا رقيقا .

واصبحت كلمة السفهاء اذا وصف الناس بها تعنى الجهال والخرقاء ، وقال البعض ان المقصود بالخطاب هم أهم الكتب ، ولكنا نرجح كما قدمنا ، ان هذه الآيات نزلت بشأن المنــافقين ، الذين وصفوا بأن فى قلوبهم مرض ، وأنهم يخــادعون الذين آمنــوا ، ومن المحقــق انهم لم يكونوا مطمئنين تماما فى موقفهم ، فكان من الطبيعى أن ينصحهم بعض خلصــائهم ان يؤمنــوا كما آمن غالبية من فى المدينة ايمانا صادقا لا شك فيه ولا ارتياب ، فاذا بعنجهية الكفر تعاودهم ويقولون فى غرور وصلف « أنؤمن كما آمن السفهاء » اى عامة القوم فوصفوهم بالجهل والضعف ، وهذا هو شأن كل مدع مغرور يتصور نفسه انه هو وحده العالم هو الفاضل والفاهم والداعى ، وان من عداه من الناس مهما كان قدرهم لا وزن لهم ولا حساب ، وفى وقتنا الحاضر يدعى كل مغرور منحرف انه هو وحده المثقف ومن عداه من الناس ممن ليســوا على مذهبه أنهم من الجهال وغير المثقفين . لهؤلاء المغرورين فى كل زمان ومكان ينزل الله حكمه عليهم بأن خصمهم هم وحدهم بالجهل وحصر فيهم الســفاهة « الا انهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون » اى جعل من تمام جهلهم انهم لا يعلمون بحالهم فى الضلالة والجهل .

« واذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا واذا خلوا الى شياطينهم قالوا انا معكم انما نحن مستهزئون الله يستهزىء بهم ويمدهم فى طغيانهم يعمهون » .

شياطين : جمع شيطان وكلمة الشيطان مشتقة من الشيطنة وهو البعد عن الايمان والخير ، والشياطين تكون من الانس كما تكون من الجن ، جاء فى القرآن الكريم : « وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا شياطين الانس والجن يوحى بعضهم الى بعض زخرف القول غرورا » .

ولذلك فأرجح الآراء تعنى بكلمة الشياطين هنا رؤساء المنافقين من الكفار واليهود ممن يعلنون العداء لرسول الله صلى الله عليه وسلم فهم اذ عاتبوا أو حاسبوا اتباعهم كيف سمحوا لأنفسهم ان يقولوا للمؤمنين بسيدنا محمد انهم آمنوا كذلك فيردون بانهم فعلوا ذلك على سبيل الاستهزاء والسخرية من المؤمنين .

والهزء هو السخرية ، ومرة اخرى يقول لهؤلاء الأغرار الجهلاء أنهم اذ يتصورون انهم يسخرون بالمؤمنين فهم انما يسخرون بأنفسهم وذلك مثل قوله فى الآية السابقة : « يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون الا انفسهم وما يشعرون » .

ويجب ان نفهم كل ما جاء فى القرآن الكريم من مثل قوله : ومكروا ومكر الله ، انهم يكيدون كيدا وأكيد كيدا ، وهذه الآية التى نحن بصددها من ان الله يستهزىء بهم ، اقول يجب أن نفهم من ذلك

كله انه مجرد أسلوب فى الكلام على طريقة العرب الذى انزل القرآن بلسانهم ، حيث كانوا يكررون اللفظ ليؤدى معنى يغاير تماما ، بل ويناقض المعنى الأول الذى استخدم فيه اللفظ كقول الشاعر :

الا لا يجهلن احــد علينـــا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

فالشاعر هنا يحذر من الاعتداء عليهم واستعمل نفس اللفظ للتعبير عن الدفاع عن النفس والانتصار الحاسم القوى بنفس اللفظ وقد استعمل القرآن هذا الأسلوب الذى جرى عليه العرب فيقول :

« وجزاء سيئة سيئة مثلها » أو قوله « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه » .

وعلى هذا الأساس يجب أن يفهم كل ما جاء فى القرآن من تعبيرات بشرية تنسب الى الله والا فقد تنزه الله سبحانه وتعالى وعلا علوا كبيرا عن كل التصرفات البشرية من كيد ومكر وسخرية ، ولذلك فلسنا نتابع بعض المفسرين فى محاولتهم تأويل الخداع أو المكر الالهى بأنه هو من نوع المقصود بقوله سبحانه وتعالى :

« ولا يحسبن الذين كفروا انما نملى لهم خير لأنفسهم انما نملى لهم ليزدادوا اثما » .

وعندما يشيرون الى آيات تتحدث عما سوف يصيب المنافقين يوم القيامة من مثل قوله سبحانه وتعالى :

« يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب » .

اقول لا نجارى من سبقنا من المفسرين عندما يوردون هذه الآيات وأمثالها كضوء يلقى على ما يمكن أن يكون مقصودا بالاستهزاء أو الكيد أو المكر .

ونقف عند حد ما قلناه من أنه مجرد تعبير بالأسلوب العربى .

ويمدهم فى طغيانهم ويعمهون .

ويمدهم : ان يطيل لهم المدة ويمهلهم .

الطغيان : مجاوزة الحد .

يعمهون : اى يعمون ، وقيل حائرون مترددون .

وهكذا يصف الله سبحانه وتعالى حالة المنافقين بأنها طغيان اى اسرفوا فيه على أنفسهم وجاوزوا حدود الحق والانصاف ويتوعدهم الله عز وجل أنهم اذا لم يستيقظوا ويبادروا بالتوبة والاستقامة انه سيتركهم وشأنهم يتمادون فيما هم فيه من ضلال وعمى وحيرة وارتباك .

« أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فماربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين . مثلهم كمثل الذى استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون صم بكم عمى فهم لا يرجعون » .

القـــرآن والعـــرب :

القـــرآن كلام الله ، فهو بمبادئه وتشريعاته واخلاقياته ، منقطع الصلة كل الانقطاع عما كانوا عليه الا من نوع صلة النقيض بنقيضه ، هذا من حيث المضمون والمحتوى كما يقولون ، اما من حيث الشكل والصورة فالقرآن قد نزل باللغة العربية ليخاطب العرب بلسانهم واسلوبهم فى الخطاب فعكس لنا من هذه الناحية البيئة العربية ، والعقلية العربية ساعة نزول القرآن الكريم ، وقد كانت حياة قريش بصفة خاصة تقوم على التجارة ، كما جاء فى القرآن الكريم : « لايلاف قريش . ايلافهم رحلة الشتاء والصيف » .

ولذلك فقد خاطب القرآن العرب ممثلين فى قريش بما اعتادوه فى حياتهم اليومية من حساب الربح والخسارة اللذين تقوم عليهما التجارة وطالما اعلمهم واكد لهم بأسلوبهم وعقليتهم ان الايمان بالله تجارة لن تبور ، وان الربح مضمون ان هم آمنوا بالله وعملوا بأوامره واجتنبوا نواهيه ان لم يكن فى هذه الدنيا ففى الآخرة ، وان الخسارة محققة ومؤكدة ان هم عصوا الله ورسوله .

ومن هنا اشتمل القرآن على امثال هذه الآيات

« ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة » .

« من ذا الذى يقرض الله قرضـــا حســـنا فيضاعفه له » .

ومن هذا القبيل هذه الآية التى نحن بصددها ، فالله سبحانه وتعالى يشبه أحوال المنافقين الذين آمنوا فى بادىء الأمر ثم تسرب الشك وبالتالى الكفر الى قلوبهم بمثل التاجر الذى عقد صفقة خاسرة فباعوا الهدى بالضلال واستحبوا الغى على الرشد ، وهى صفقة خاسرة من غير شك .

« أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين » .

ويفهم من هذه الآية ان المنافقين كفروا بعد ايمان ، وهو ما حكاه عنهم القرآن فى آية اخرى .

« ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون » .

ويؤكد ذلك ايضا (اى ان المنافقين) آمنوا ثم كفروا بالمثل الذى ضربه الله ليصور حالتهم من حيث كونهم استضاءوا فى بادىء الأمر وابصروا، ثم اظلموا بعد ذلك وعموا .

« مثلهم كمثل الذى استوقد نارا فلما اضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم » .

وضرب الأمثال لتعميق الفهم فى نفوس المخاطبين هو احد اساليب القـــرآن التى نص على انه يستخدمها .

« وتلك الأمثال نضربها للناس » .

والمثل الذى نحن بصدده يتحدث عن نفسه فحال المنافقين يشبه حال من استوقد نارا اى اشعل نارا فلما اضاءت ما حوله ، بما انبعث من نور ، نتيجة الايمان غرقوا من جديد فى الظلام نتيجة كفـــرهم « ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون » .

لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ

وينسب الله ذهاب نورهم الى نفسه لتاكيدمعنى الربوبية دائما وانه خالق كل شيء ولكنه علمنا انه لا يذهب بنور احد اذ استحب هذا الاحد ذهاب نوره « استحبوا العمى » .

والمثل ما يحدث احيانا عندما يستضيء الانسان بنور انبعث من اشعال نار ، ثم يحدث لامر ما أن تطفأ هذه النار لسبب من الاسباب كريح عاصفة أو مطر مدرار وفى هذه الحالة يسود الظلام فيصبح شأن القوم الذين استضاءوه اولا :

« صم بكم عمى فهم لا يرجعون » .

« صم » لا يسمعون خيرا ، « بكم » لا يتكلمون بما ينفعهم ، « عمى » فى ضلالة وعماية البصيرة « لا يرجعون » اى لا يرجعون الى ما كانوا عليه من الهداية التى باعوها بالضلال .

« أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين . يكاد البرق يخطف ابصارهم كلما اضاء لهم مشوا فيه واذا اظلم عيلهم قاموا ولو شـاء الله لذهب بسـمعهم وابصارهم ان الله على كل شيء قدير » .

صورة ثانية من صور النفاق :

واذا كان القرآن الكريم قد صور لنا صورة من صور المنافقين الذين هم فى حقيقتهم كفار ، فقد صور لنـا صورة اخرى لنفر من الناس يتذبذبون بين الهدى والضلال ، أو بين نور الرشد وظلام الجهل والغى فتصبح حياتهم قلقة مضطربة مملوءة بالفزع والهلع . ويرأف الله بهذا النفر فلم يحكم عليهم بذهاب النور كما حكم على الطائفة الاولى ولكنه علق مشيئته فيهم على ما تسفر عنه اعمالهم فى النهاية ولنستعرض الآن بالتفصيل الفاظ الآية ومدلولها .

« أو كصيب من السـماء فيه ظلمات ورعدوبرق » .

الصيب : المطـر .

تصف الآية الكريمة حالة هــذا الطراز من المنافقين وما هم فيه من ذعر وخوف بحالة هذا الانسان الذى يجد نفسه فى يوم مطير مكفهر تدوى فيه اصوات الرعود التى ينخلع لها القلب وضوء البرق الخاطف الذى يكاد يذهب بضوء البصر من شدة لمعانه .

« يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين » .

وما أروع صور القرآن البيانية فهو يصور لنا مقدار ما عليه هذه الطائفة من المنافقين من الجهل والفزع اذ يضعون أصابعهم فى آذانهم تصورا منهم أنهم ما داموا قد اصبحوا لا يسمعون صوت الرعد فقد زال الخطر ، تماما كما تفعل النعامة عندما تدفن راسها فى الرمال اذا احاط بهــا الخطر ، تصورا منها أنها ما دامت لم تعد ترى الخطر فقد زال .

كذلك يفعل هؤلاء الحمقى فيسدون آذانهم حتى لا يسمعون صوت الرعود (والله محيط بالكافرين) اى ولا يجدى عنهم حذرهم شيئا لأن الله محيط بقدرته على كل شىء بما فى ذلك الكافرين بطبيعة الحال ، وقد خصهم بالذكر من قبيل الانذار لهؤلاء الحمقى حتى يثوبوا الى رشدهم ولا يتردوا فى هاوية الكفر .

« يكاد البرق يخطف ابصارهم كلما اضاء لهم مشوا فيه واذا اظلم عليهم قاموا » .

البرق ، هو هذه الظاهرة الطبيعية المألوفة ، وكذلك الرعد وكذلك الصواعق ، وآخر النظريات العلمية تفسر هذه الظواهر بتحركات السحب وما يولده ذلك من طاقات كهربائية تحدث هذه الظواهر وفى كتب التفاسير القديمة بعض ما كان يشاع عن اسباب حدوث هذه الظواهر فلا يجب ان نمتلىء غرورا بما نتصوره اننا بلغنا فى العلم شأوا بعيدا فاذا كان الأقدمون يتحدثون عن الملائكة فنحن نتحدث عن النواميس ونحن لا نعرف شيئا عن كنه النواميس وماهيتها ولكننا نوقن بوجودها ، وكذلك الملائكة هى من عالم الغيب الذى لا يعرف احد كنهه أو ماهيته ، والذى يعنينا فيما نحن بصدده هو الصورة التى يصور لنا بها القرآن الكريم هذا الطراز من المنافقين حيث يستضيئوا بنور الايمان ، والقرآن حينا ، كما يهتدون بنور البرق ، ثم يعودون الى ظلمة الشك والتردد وما يورثه ذلك من خوف وفزع « واذا اظلم عليهم قاموا » وقد تحدث الله عن هذا الطراز من المنافقين فى آية اخرى « ومن الناس من يعبد الله على حرف فان أصابه خير اطمان به وان اصابته فتنة انقلب على وجهه » .

هذا الطراز من المذبذبين المتارجحين بين الكفر والايمان يحذرهم الله « ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم » .

فليحذروا فليحذروا ، « ان الله على كل شىء قدير » .

كلمة لابد منها :

ليس من مهمة هذا التفسير ان يخوض فى جدليات أو مناقشات وبالرغم من ذلك فلا نستطيع أن نحبس خاطرا عرض لنا ونحن نطالع بعض التفاسير الحديثة الشهيرة حيث اراد ان يلقى ظلال

هذه الآيات على فريق من مسلمى العصر الحاضر ممن ســـماهم المقلدين بحجة أن معانى القرآن صالحة للتطبيق فى كل زمان ومكان ، وحقا هى كذلك ، ولا نحسب أن هناك مسلما واحدا ينازع فى ذلك والمهم هو توفر الظروف بذاتها ولا يمكن بحال وصف مسلمى عصر او فريق منهم بأنهم منافقون ممن عناهم القرآن بالآيات السابقة وتديمكن ان يوصفوا بالتقصير والانحراف عن الجادة او الفسق اذا شئت ، ولكنهم أبد ما يكونون عن المنافقين فى معنى هذه الآيات ، وليتحدث من يريد ان يتحدث عن نفاق اجتماعى أو سياسى لا عن نفاق دينى ، ذلك ان الالحاد والمادية اصبحتا هى موضة العصر ويسمونها تقدمية ووعى وثقافة ،ومن ناحية أخرى فان الوظائف والمناصب لم يعد يشترط فيها التقوى والورع بل شروط اخرى ،والقوانين المعمول بها قوانين وضعية ، وبالجملة فان السالك سلوك الاسلام لا يربح من ذلك الا راحة ضميره ، وتحسين علاقته بربه وهى علاقة خفية فالمسلم فى ايامنا المتمسك باسلامه وسط عالم وأوضاع تعمل كلها على محاولة صرفه عن الاسلام ، نقول ان تمسكه بالتدين ومظاهره تكادتجعله أشبه بالقابض على الجمر ، فمن التجنى وصـــفه بالنفاق بحجة أنه لا يفعل هذا الشيء او ذاك .

صـــورة كونيـــة :

لاتكاد تخلو سورة من سور القرآن الى الحديث عن خلق الله للسموات والأرض بكل من وما فيهن ، من انسان وحيوان ونبات وجماد ، من عوالم منظورة واخرى غير منظورة ، ومع علم الانسان بذلك فهو يقف فى كل مرة مشـــدوها امام هذا الحديث ، يتذوق حلاوته ويتيه فى ابعاده ويسبح بعظمة الله ، هذا ان كان من المؤمنين الذين فتح الله عليهم ، وهذه الآيات التى نحن بصددها ، فهى من هذه الآيات التى تحيط بالكون من خلق وما يدور فيه وينتهى اليه ، ومصير الانسان اما الى اليمين أو الشمال ، وتحدد هدف الانسان وموقعه من ذلك كله وهو ما تفتتح به الآيات :

« يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون » .

محور الحياة العبـــادة :

ينادى الله الناس منذ كان فى الأرض ناس ،اى فى كل زمان ومكان ، على اختلاف اجناسهم والوانهم ومقاماتهم ، أن يكون شغلهم الشاغل هو عبادة الله ، باعتبار ان ذلك هو هدف الوجود الانسانى فى هذه الدنيا ، جاء فى القرآن الكريم : « وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون » .

والعبادة يجب أن تفسر بمعناها الواسع ،وهى خلافة الله فى الأرض ، كما ستتحدث عن ذلك الآيات القادمة ، ولا شك أنه لا خلاف فى ان عبادة الله هى فى اطاعة اوامره واجتناب نواهيه ، كما نص عليها القرآن الكريم .. وقد حض القرآن على صالح الأعمال ، وهى كل ما يعود بالنفع والخير على شخص الانسان ومن يحيطون به مباشرة أو غير مباشرة .

جاء فى الحديث الشريف : « من سن سنةحسنه فله اجرها واجر من عمل بها الى يوم القيامة » .

وهكذا أمر الله بالعمل :

« وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله ».

وقال سيدنا محمد ، عليه الصلاة والسلام :« ان الله يحب اذا عمل احدكم عملا ان يتقنه » .. فالعمل فى كل ما هو نافع ومفيد هو عبادة من اعظم انواع العبادة ، واذا كان من المتفق عليه ان الجهاد فى سبيل الله هو ذروة العبادة ، فقدقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من جهز غازيا فى سبيل الله فقد غزا » .. فالعمال الذين ينتجون كل ما تحتاج اليه الجيوش المحاربة هذه الأيام يتعبدون ، شريطة ان تكون هذه الجيوش فى خدمة الحق والعدل ونصرة الله .

وهكذا كل ما يعين على ابقاء الانسان حيا على ظهر الأرض لكى يؤدى رسالته فى خلافة الله بتعمير الكون .

فجماهير الزراع والصناع الذين ينتجون المأكل والمشرب والمسكن والملبس وسائر الخدمات ، انما يعبدون الله .

جاء فى القرآن الكريم على كل ما يأخذ بأسباب الحيـــاة :

« كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله ان كنتم اياه تعبدون » .

« فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه » .

الى أمثال ذلك من الآيات التى تحث على السعى فى الحياة وطلب الرزق من خير الطرق كما نظمتها الشريعة الاسلامية ، فالعبادة فى معناها العام هى الايمان بالله خالق كل شىء ، وتوحيده ، ثم الانطلاق من هذا الأساس للسعى بكل ضروب السعى المشروع بكل ما يعود بالنفع على النفس والناس .

وهذا القدر من العبادة يلتقى عند البشر على اختلاف عقائدهم واديانهم ، والاســـلام يرتضى معايشة كل من يحقق هذا القدر من العبادة .

جاء فى القرآن الكريم :

« ان الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم اجرهم عنـــد ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

غير أنه لمـــا كانت احدى سنن الله فى الكون ان يكون لكل شىء درجات ، فقد جعل الدرجة العليا والرفيعة هى عبادة الله عن طريق الاسلام باعتبار ان القرآن الكريم هو آخر الكتب السماوية فهو مهيمن على كل ما سبقه ، وباعتبار ســـيدنا محمد ، صلوات الله وسلامه عليه ، هو خاتم

النبيين والمرسلين ، ورسالته هى المصححة لكلما تسرب الى العقائد والأديان السماوية السابقة من انحرافات ومغالاة وشطط .

وجاء فى القرآن الكريم :

« ان الدين عند الله الاسلام » .

فالعبادة بمعناها العام ، هىتوحيد الله والعمل الصالح واعلى درجاتهـا ، هو العمل بشريعة القرآن والائتمار بأوامره واجتناب نواهيه .

ومن هنا ، فنحن ممن يرون ان القرآن الكريمقد قصد قصدا ان يوجه حديثه للناس كافة على اختلاف اديانهم ، ان يعبدوا ربهم الذى خلقهم ،وهو خالق واحد ولا خالق سواه .

ونحن نعلم انسورة البقرة قد كانت اولما انزل بالمدينة ، وقد قدمنا أن سيدنا محمدا ، صلى الله عليه وسلم ، قد وادع اليهود وحالفهم بمجردوصوله الى المدينة ، واذا كان الاسلام قد تفشى بالفعل فى المدينة فمما لا شك فيه انه كانت لاتزال هناك جماعات ظلت على شركها ، وسـنرى كيف يوجه القرآن لهم القول فى الآيات التالية ، وفى هذه الآية التى نحن بصددها ، فهو يوجه النداء لهذا الخليط ان يعبدوا ربهم الذى خلقهم ، وقـد كان المسلمون يؤمنون بالله ويعبدونه طيعا ، وكانت هذه دعوى اليهود من انهم يؤمنون بالله ، حتىمشركى العرب فقد كانوا يؤمنون بأن الله هو خالق السموات والأرض ، وخالق الناس ، ولكنمشكلتهم الكبرى كانوا فى أنهم يشركون الأصنام فى عبادتهم لله ، فجاء القرآن الكريم يبين لهم انالعبادة لا تكون الا لله وحده الخالق « والذين من قبلكم » واذا كان احد من المخاطبين ، ينازعفى ان الله هو الخالق ، فقد جعلوا بعض الموتى ، والاجداد ممن يشركونهم فى عبادة الله ، وعبادة الموتى والأجداد من العقائد التى تراود البشر ، ومن هنا فالقرآن الكريم يذكر بأن الله هو خالقالكل فيجب افراده بالعبادة .

يا أيها الناس ويا أيها المؤمنون :

اجتهد بعض المفسرين فقالوا ان كل آية تبدأبـ « يا أيها الناس » فهى مكية ، ولكن ها هى سورة البقرة ، ولا خلاف فى انها مدنية ، تحتوىعلى هذه الصيغة ، وكذلك الحال فى سـورة النساء وسور اخرى كلها مدنية ، وقد توجه فيهاالنداء الى الناس فسقط هذا الاجتهاد ، ولكن يظل الشق الثانى من الاجتهاد قائما ، وهو قولهموكل آية جاء فيها « يا أيها الذين آمنوا » فهى مدنية .

« لعلكم تتقون » .. وقد أثير تساؤل كثير حول استعمال القرآن الكريم للفظ « لعل » ، وهو على ما يقول النحاة يفيد التمنى والترجى ، والرأىالذى نختاره هو ان العرب كانوا يستعملون أحيانا كلمة « لعل » مجردة من الشك ، اى بمعنى كى ،اى اعبدوا ربكم كى تتقوا .

والتقوى من الوقاية ، اى تجعلوا عبادتكم لربكموقاية لكم من النـار .

ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾

« الذى جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناءوانزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم » .

والقرآن الكريم ، بنظرته الشمولية ، يلفت النظر الى عظيم صنع الله ، مبتدئا بالارض التى نعيش عليها ، ومثنيا بالسماء التى تظلنا ، ثم مشيرا الى ما يربط السماء والأرض متمثلا كأعظم ما يتمثل فى الارزاق التى بها يحيا الانسان من ماءوهواء ونبات .

« الذى جعل لكم الأرض فراشا » .

وما أروع وصف القرآن للأرض بأنها فراش الانسان ، فمن الحق أنها احق ما يوصف بفراش الانسان اى وطاء يستقر عليه ، وقد لا يعلم الكثيرون ان كلمة « فراش » تعنى فى الأصل الأرض الواسعة على ما يقول معجم المجمع اللغوى ثم اطلقت الكلمة على ما صنعه الانسان من أدوات يبسطها على الأرض ليوقد فوقها ، ثم راح على مر العصور يستزيد من لين هذه الأدوات ويرتفع بها ، وظلت تحتفظ باسمها الأصلى وهو الفراش . فقدظلت تقوم بدور الأرض للانسان ، فهى المهد الذى يولد عليه ، وهى المرقد الذى يرقد عليه حتى الرقدة الأخيرة والنهائية ، فعندما يذكرنا القرآن بدور الأرض بالنسبة لنا ، فهو انما يتحدث عن الكلمة بمعناها الأصيل .

والسماء بناء :

السماء كل ما علا الانسان ، والسماء بالنسبة للأرض كالسقف بالنسبة للبيت .

جاء فى القرآن الكريم :

« وجعلنا السماء سقفا محفوظا » .

أما البناء فهو وضع لبنة على أخرى بنظام معين ونحن نعلم الآن أن السماء بناء محكم البنيان ، تترابط فيه الأجرام السماوية بنظام دقيق معين ، بحيث لا يمكن أن يوصف الا بأنه متماسك ، تقوم فيه كل لبنة على الأخرى ، وتنجذب اليها .

« وانزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم » .

والأرض هى بعض لبنات هذا البناء الكبير ، لا حياة لها الا بمقدار ما يأتيها من هذا الكون الخارجى ، ولعل أبرز ما يأتى للأرض من العناصر هو الماء ، فهو وحده الذى يجعل الحياة بكل صنوفها ممكنة .

والمـــاء يجيء على صورة المطر ، الذى لا يكاد يروى الأرض حتى تكون هذه النباتات التى يحيا بها الانسان عن طريق اكلها بطريق مباشر او اكل الحيوان الذى يعيش بدوره على النباتات ، او الحيوان الذى يأكل الحيوانات التى تأكل النبات ، اى ان النبات فى نهاية الأمر هو مصـــدر غذاء الانسان بكل صنوف الأطعمة ، مهما تعددت الوانها واشكالها ومذاقها ، وهوما اسماه القرآن ارزاقا.

« فلا تجعلوا لله اندادا وانتم تعلمون » .

وهذه هى النتيجة التى تنتهى اليها كل المقدمات السابقة ، فما دام الله سبحانه وتعالى هو الذى « خلقكم والذين من قبلكم » .

« وجعل لكم الأرض فراشا »

« والســـماء بنـــاء » .

« وانزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم » .

ما دمتم تقرون جميعا ، وتعترفون بأن الله وحده هو خالق ذلك كله ، فقد اصبح من المتعين عليكم أن تفردوه هو وحده بالعبودية ولا تشركوا معه فى عبادته احدا .

« فلا تجعلوا لله اندادا »

اندادا : اى اكفاء ونظراء وامثالا ، ومفردها ند .

والمعنى انه ما دمتم تسلمون بانفراد الله بالخلق فلا تساووه فى العبادة مع غيره كائنا من كان . قال رجل فى يوم من الأيام لرسول الله ، صلى الله عليه وسلم : ما شاء الله وشئت .. فقال (اى سيدنا محمد) : « اجعلتنى لله ندا » ؟

« وان كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين . فان لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة اعدت للكافرين » .

تحـــدى القـــرآن :

ويبدأ القرآن الكريم فى المدينة ، حيث انتهى فى مكة ، من حيث التحدى بالاتيان بمثيل لسورة من سور القرآن .

وكان القرآن الكريم قد بدأ تحديه للعرب عندما ادعوا ان هذا القرآن من صنع محمد : ان يصنعوا قرآنا مثله :

« قل لئن اجتمعت الانس والجن على ان يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » .

ومضى القرآن فى تحديه للعرب فبدلا من مطالبتهم بمحاكاة القرآن كله فقد اكتفى منهم : بعشر سور فقال فى سورة يونس :

« أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين » .

وهكذا بدا القرآن فى التهوين من شـــأن خصومه حتى وصل التحدى الى حد المطالبة بسورة واحدة ، ونحن نعلم ان بعض ســـور القرآن لا يتجاوز بضع عشرة كلمة .

وهاهو ذا بعد ثلاثة عشر عاما من نزول القرآن وقد انتقل رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، الى المدينة يواجه التحدى من جديد لكل خصوم القرآن ، بعد ان انضم اليهم خصم جديد عنيد وهم اليهود ، واذا علمنا ان اكثر القصص القرآنى حديث عن أنبيـــاء بنى اسرائيل وسيدنا موسى بالذات ، ادركنا كيف أن عجز المشركين واليهود معا عن محاكاة القرآن ، هو معجزة من غير شك تقطع بأن هـــذا القرآن ليس من صـــنع البشر ، وانما هو كلام الله .

وقفة امام اعجاز القرآن :

ونريد ان نقف طويلا أمام اعجاز القرآن ، باعتبار ان ذلك هو حجر الزاوية للايمان بأن سيدنا محمدا هو رسول الله حقا وصدقا ، وأن القرآن هو من وحى رب العالمين نزل به جبريل الأمين .

دفـــع شـــبهات :

ونريد بداءة ذى بدء ان ندفع بعض شبهات قد تعرض لتفكير بعض الشـــباب ، فأولا قد يقول البعض ومن ادرانا ان احدا لم يحاك القرآن ؟.. والجواب بسيط جدا ، وهو ان العالم شرقه وغربه ، وشماله وجنوبه ، لا يعرف الا قرآنا واحدا ، بنص واحد منذ أربعة عشر قرنا ، فحتى لو فرضنا جدلا أنه قد وجد بالفعل من حاول ان يحاكى القرآن ، فقد فعل شيئا اندرس وعفا عليه الزمن ، فأصبح لا يمكن أن يسمى قرآنا أو من نوع القرآن ، فأول صفة للقرآن هذا الخلود الذى نلمسه بأنفسنا فسقط هذا الفرض من احتمال وجود من حاول ان يحاكى القرآن .

دفع شبهة ثانية :

قد يقول قائل ان العرب او اليهود ، مع قدرتهم على محاكاة القرآن ، قد تعففوا او ترفعوا او تعجرفوا ، او قل ما شئت من الأسباب والعلل ، عن عدم محاكاتهم القرآن . وكان يمكن ان يكون لهذه الشبهة وجود ، لو ان المشركين واليهود تركوا سيدنا محمدا وشأنه ، وهو من ناحيته قد تركهم وشأنهم ، ولكن التاريخ والوقائع الثابتة التى لا يمارى فيها احد ، تنطق بأن العرب من ناحية ، واليهود من الناحية الثانية ، بذلوا كل مرتخص وغال لتكذيب سيدنا محمد وتسفيهه ، وجادوا فى سبيل ذلك بالمـــال والدم والأهل والولد على طول عشرين سنة .

وهاهو ذا القرآن يتحداهم ، انه على استعداد ان يسقط دعواه بأنه كلام الله ، ان هم حاكوه وقلدوه ، أفما كان أهون عليهم بدلا من الدماء التى سفكوها والأموال التى أراقوها ان يقوموا ، ولو بمجرد المحاولة ، فوقوف القوم عاجزين ، وخاصـــة بعد أن يســـتفزهم القرآن بكل صـــنف الاستفزاز كقوله فى هذه الآية : « ولن تفعلوا » اقول ان فى عدم الرد على هذا التحدى هو الدليل على أن القرآن ليس من صنع البشر ، أو على وجه التحديد ليس من تأليف سيدنا محمد .

سمة الكتب الناجحة ان تحاكى :

بقى أن التاريخ والواقع يؤكدان أن اى كتاب ناجح ، واى شخص ناجح ، فهو لابد ان يقلد على الفور ، والذين حاولوا ان يقلدوا سيدنا محمد ، وجدوا على الفور بعد وفاته ، وعلى راسهم مسيلمة الكذاب ، وهم وان كانوا قد سقطوا سريعا ، فان المحاولة قد حدثت على كل حال ، مما أكد اطراد القاعدة التى سقناها من أن اى انسان ناجح فى شان من الشئون ، لابد ان يوجد له من يحاول أن يقلده .

ولكنا نجد أن الشق الثانى من القاعدة ، وهى ان كل كتاب ناجح لابد من ظهور كتب تحاكيه ، ولكنا نواجه بخصوصية القرآن التى انفرد بها بين كل ما عرف البشر قبله او بعده ، فلا نجد محاولة واحدة لتقليده ، وبقى منفردا فى شكله وموضوعه .. ونحن نتحدى أن يجيئنا اى مكابر بكتاب مماثل ، سواء من الشرق أو الغرب ، حديثا أو قديما ، وقديما جدا ، ورب قائل يقول ان ذلك شأن التوراة والانجيل ، ولسنا نريد أن نخوض فى مواضيع جانبية تثير الجدل ، كأن نقول ان نص التوراة كما يعترف بها اليهود تختلف عن التوراة التى يعترف بها المسيحيون ، أو أن هناك اربع صيغ للاناجيل ، اقول : لا حاجة لمثل هذه الاشارات ، فلو سلمنا جدلا أن التوراة والانجيل يقفان فى مستوى واحد مع القرآن ، من حيث ثباتهما بنص واحد عبر القرون وعدم وجود كتب تحاكيهما ، اقول لو سلمنا جدلا بهذا القول ، فانه يؤكد ما قلناه عن القرآن ، لأنه يقرر ان التوراة والانجيل من عند الله ، فلزم كل من يقر بان خاصية القرآن تتوفر فى التوراة والانجيل ، أن يقر بأن الكتب الثلاثة نزلت من مصدر واحد وهو الله عز وجل .

والذى يعنينا أن نقرره فى هذا البحث هو ان القرآن بغير شبيه ، رغم تحديه القائم أبد الدهر :

« قل لئن اجتمعت الانس والجن » .

ولقد اتيح لى فى حياتى الشخصية أن اسمع من احد كبار الكتاب الذين وصفوا بالفحولة والجبروت .. اتيح لى أن اسمع من هذا الكاتب تندرا على بعض قصار السور من القرآن الكريم، ثم عشت حتى رايت هذا الكاتب نفسه ولا عمل له الا ان يشيد بالقرآن والأثر العظيم الذى طبع به الانسان ، وراح يؤلف بنجاح عظيم عشرات الكتب التى تمجد ابطال المسلمين ، ولا سر فى بطولتهم سوى تأثرهم بالقرآن ، فآمنت فوق ايمان ان القرآن يمارس معجزته فى كل زمان ومكان ، فيغزو القلوب المتفجرة والمتحجرة .

ما هو سر الاعجاز فى القرآن ؟

ولقد حاول بعض القدامى أن يلخصوا اعجاز القرآن فى بلاغته ، ونحن لا يمكن أن نناقش فى أن القرآن هو البلاغة نفسها ، وقد بدات علوم البيان والبديع والنحو ، وكل ما يتصل باللغة العربية حول القرآن وتاسيسها عليه ، فلا محل للتحدث عن بلاغته ومحاولة قياسها ، لأنه هو البلاغة فى ذروتها .

ولكننا نختلف فى الراى مع من حاولوا ان يلخصوا اعجاز القرآن فى بلاغته ، والا كان معنى ذلك ان كل من لا يتذوق العربية لا يعد القرآن معجزا بالنسبة لهم ، وهذا غير الواقع ، ففى عالمنا المعاصر اكثر من عالم وحجة فى فنه ، ممن لا يدينون بالاسلام يقفون مشدوهين ، أمام عظمة القرآن التشريعية ، ويقول بعضهم أنهم وجدوا فيه الحلول المناسبة لأى مشكلة عالمية تصدوا لبحثها ، ابتداء من شرور الراسمالية حتى التمييز العنصرى ، فضلا عن الدعوة للعالمية والاخوة البشرية والحرية والمساواة ، ولسنا نريد ان ننقل عينات مما قيل ، والا طال بنا الاستطراد ، والمهم الذى نريد الاشارة اليه ، ان اقواما لا يعرفون العربية اساسا ، قد وقعوا أسرى لاعجاز القرآن .

وكم من عالم فى عصرنا الحديث يجد الاشارات فى القرآن لكثير من الحقائق العلمية التى اكتشفت مؤخرا جدا ، وقد حكاها القرآن ، أضرب لذلك مثلا واحدا من بين الوف الأمثلة ، فقد تصور الناس فى القديم أن الشمس ثابتة ، وان الأرض هى التى تتحرك ، ثم جاء من قال ان الأرض ثابتة وان الشمس هى التى تتحرك ، ثم عدل عن ذلك ، وعادوا للراى الاول ، وقد حدث هذا خلال الفين من السنين ، ثم جاءت آخر معطيات العلم ، بعد ان توفرت الأجهزة والآلات ، فقال العلم كلمته الأخيرة وهى أنه لا يوجد فى الكون شىء ثابت ابدا ، وقد سمحنا لأنفسنا ان نصف هذا القول بأنه كلمة العلم الاخيرة ، لأن ذلك هو نص القرآن سبق به منذ اربعة عشر قرنا ، وذلك بقوله :

« وكل فى فلك يسبحون » .

وليس هذا المثال الا واحدا مما يشده علماء العصر الحاضر ، فالقرآن ، بما يحويه من توجيهات وارشادات ، وقصص وتشريع واشارات الى اسرار الكون والحياة ، هو شىء شامخ بكل المقاييس ، ومن مختلف الزوايا ، فمن الخير ان لا يحاول محاول تلخيص اعجازه فى ناحية من النواحى ، والحق عندنا انه كما لا يمكن ان ندرك سر اى جوهر (ماهية) ، وانما نسلم بوجودها ، اذ نرى آثارها ، فما هى الكهرباء ؟ .. وما هى المغناطيسية ؟ .. بل ما هى الجاذبية ؟ .. وما سر القوة الكامنة فى هذه الظواهر ، ذلك ما لا ندريه ولا نستطيع ان ندريه .

كذلك الشأن بالنسبة لاعجاز القرآن ، انها ظاهرة مؤكدة يشهد بها اربعة عشر قرنا وسبعمائة مليون مسلم يتزايدون عاما بعد عام . فالمعجزة قائمة ابدا تحدث اثرها ابدا .

فلم يبق أمام العقل الا التسليم بها تسليمه بأى حقيقة مادية واقعة ، وعندنا ان اعجاز القرآن كامن فى انه من روح الله .

« وكذلك اوحينا اليك روحا من أمرنا » .

وما كانت الروح بالتى تعرف أو تلخص ولكن يقر بها لأنها أمر واقع ، وكذلك الشأن عندنا فى اعجاز القرآن .

فكل جيل من الأجيال يرى فيه اعجازا بحسب قدرته وثقافته وعلمه .·. وقد بقى ان نشير ختاما لهذا البحث أن القرآن الكريم ذاته لم يكشف لنا عن ناحية اعجازه ، ووقف عند حد تقرير هذا الاعجاز ، فصار من الواجب علينا أن نقف حيث وقف ، والله تعالى اعلم .

مفردات :

والآن لنرجع الى ما كنا بصدده من آيات ، لنحدد مدلول الفاظها اللغوى وبعض ما دار من اوجه الخلاف حول حقيقة المقصود بها :

ريب : يعنى شك ، اى لو كنتم فى شك من أن هذا القرآن نزل من السماء .

على عبدنا : اى سيدنا محمد ، والعبد مأخوذ من التعبد ، وهو التذلل .

سورة : السورة واحدة السور ، والسورة فى القرآن تعنى القطعة من القرآن اقلها ثلاث آيات ، واصل الكلمة اللغوى من السور وهو الجدار المحيط المرتفع ، وقد ورد هذا الاستعمال كثيرا فى القرآن بهذا المعنى .

من مثله : اى فأتوا بقرآن « ومن » قيل عنها انها زائدة ، وقيل انها للتبعيض ، اى بعض هذا القرآن .

وقيل أن الضمير فى « مثله » ، يعود على سيدنا محمد اى من مثل سيدنا محمد فى اميته ، وانه لا يعرف القراءة والكتابة ، ولكن الراى الذى نأخذ به هو راى جمهور العلماء من ان الضمير فى « مثله » ، يعود الى القرآن ، حسبما هو صريح فى آيات اخرى .

وادعوا شهداءكم : اى اعوانكم ونصراءكم .

من دون الله : اى من غير الله ، والدون هو الخسيس الحقير .

ان كنتم صادقين : اى فيما زعمتم انكم قادرون على الاتيان بمثله ، جاء فى القرآن الكريم على لسان المشركين :

« لو نشاء لقلنا مثل هذا »

فان لم تفعلوا : اى فى الماضى .. « ولن تفعلوا » فى المستقبل .

« فاتقوا النار » : اى اجعلوا فى ايمانكم بسيدنا محمد وما جاء به وقاية لكم من النار .

وقودها الناس والحجارة : اى ان هذه النار انما توقد بالناس العصاة والحجارة ، وقيل كلام كثير فى الحجارة ، فقيل ان المقصود بها هو الأصنام ، وقد كانت تصنع من الحجارة .. جاء فى القرآن الكريم :

« انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم »

اى حطب جهنم ووقودها ، وقيل انما ذكرت الحجارة هنا للاشعار بشدة لهيبها ، ونحن فى هذه الغيبيات نؤثر الوقوف عند حد الفاظ القرآن ولا زيادة .

اعدت للكافرين : اى ان هذه اعدت للكافرين

وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُواْ هَـٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَـٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَـٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾ كَيْفَ

« وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات انلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذى رزقنا منقبل واتوا به متشابها ولهم فيها ازواج مطهرة وهم فيها خالدون » .

وكنســق القرآن لا يكاد يشــير الى احــدالوجهين : الجنة او النــار ، حتى يعقب على الفور بذكر الناحية المقابلة ، رامزا بذلك الىازدواجية الحياة ، وانها نور وظلام ، خير وشر ، شــقاء للكافرين والعصــاة ، نعيم للمؤمنينالصادقين ، فاذا كانت النار الحامية التى بلغ من شانها ان تكون الاحجار الصلدة بعض وقودها ،ففى الناحية المقابلة جنــات تجرى من تحتهــا الانهار ، ومعلوم ان الذى يجرى هو ماء الانهاروليست الانهار ، ولكن ذلك اسلوب فى اللغة مثل قوله : « واسال القرية » .. اى اهل القرية ،ومن المتفق عليه ان حذف المعلوم جائز .

هذا الذى رزقنا من قبل : وقد جرى الخلافبين المفسرين حول المعنى المقصود « من قبل » فالقرآن يحكى عن اهل الجنة قولهم كلما رزقوامن ثمار الجنة .

« هذا الذى رزقنا من قبل » : فقال البعضان « من قبل » يعنى فى الحياة الدنيا ، وقال آخرون بل يعنى ما رزقوه قبل ذلك فى الجنــةنفســها .

« واتوا به متشابها » : اى يشــبه بعضهبعضا فى المنظر ، وان اختلف فى الطعم ، فالذين يقولون أن من « قبل » تعنى الحياة الدنيــا ،يقولون ان ثمر الجنة يشبه ثمر الدنيا من حيث الشكل ، والذين ياخذون بالمعنى الثانى يقولونان ثمر الجنة وان تشابه فى الشكل ، بحيث يظن من يراه انه عين ما ذاقه من قبــل ، فاذا هومختلف والله اعلم بمراده والذى يعنينا نحن هو ان نسال الله عز وجل ان يجعلنا برحمته وكرمهمن اهل الجنة .

« ولهم فيها ازواج مطهرة » : واذا كان اللهسبحانه وتعالى قد وعد المؤمنين بطعام فى الجنة حلو المذاق ، متجدد الطعم ابدا ، فهو سبحانهيعدهم كذلك بزيجات صالحة « مطهرة » ، اى غير مشوبة بما تتعرض له النساء فى الدنيا منالتغيرات المعروفة ، وقد حاول بعض المفسرين

أن يخصص « أزواج مطهـرة » بأنهم الحـور العين ، ولكنا نؤثر أبقاء اللفظ على عمومه ، وقد جاء فى الحديث ان الزوج الصالح فى الدنيا ،والزوجة الصالحة ، يستأنفان حياتهما معا فى الجنة ، والله تعالى اعلم .

« وهم فيها خالدون » : وهـذه هى مكافأة المؤمن الكبرى ، وهو ان يخلد فى النعيم ، فآفة الحياة الكبرى هى الموت ، والكائن الحى يعيش ما بقى حيا فى رعب من الموت ، وها هو الله عز وجل يبشر المؤمنين انهم سيكونون فى الجنـة فى مأمن من الموت .

اشارات من آخر التطورات :

وقد جعلنا من برنامجنا فى هذا العرض لآيات القرآن الكريم ، أن ننبه من حين لآخر كيف ان آخر معطيات العلم ومنجزاته اصـبحت تزودنا ببعض ما يقرب معانى القرآن الى عقولنا ، فقد كان الكفار الأقدمون يضيقون ذرعا عندما يحدثهم القرآن عن الجنـة التى لا يرون فيها شـمسا ولا زمهريرا(١) . وانما هو نور أبدا .

وهم يحدثوننا اليوم من واقع التجربة المادية، انه لا يكاد الانسان يخرج من الغلاف الجوى ، حتى لا يكون ليل أو نهار ، وبالطبع لا يكاد يخرج من المجموعة الشمسية كلها حتى لا تكون هناك شمس ، ويتلاشى هذا الزمن الذى نعرف والذى نقيسه بالأيام والساعات .

وهم يحدثوننا حديثا عجبا عن حالة الانسان عندما تنعدم الجاذبية ، والمهم فى ذلك كله انه يفتح أمام العقل كوة تكشف له أن حيـاته على ظهر هذا الكوكب بكل ظروفها واحوالها ، هى شىء يختلف كل الاختلاف عن حياة أخرى فى هذا الكون ، وهو ما يكشف لنا عنه القرآن .. ومرة أخرى نذكر أن ذلك كله من قبيل الاشارات .

« ان الله لا يستحيى أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها فأما الذين آمنوا فيعلمون انه الحق من ربهم وأما الذين كفروا فيقولون ماذا اراد الله بهذا مثلا يضل به كثيرا ويهدى به كثيرا وما يضل به الا الفاسقين . الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به ان يوصل ويفسدون فى الأرض أولئك هم الخاسرون » .

يستحيى : من الاستحياء ، ومعناه الانقباض عن الشىء والامتنـاع عنه خوفا من موقعـه القبيـح .

وهذا المعنى محال على الله بطبيعة الحال .ولذلك قيل يترك ، وقيل يمتنع .. وكلهـا افعال مستحيلة على الله ، فهو منزه عن اى فعل ،ولذلك فيجب ان لا نجهد انفسنا بمحاولة صرف الكلمة عن معناها التماسا لكلمة أخرى ، ويجب ان لا يغيب عن أذهاننا لحظة ان الله سبحانه

(١) البرد القارس .

وتعالى وقد اختار رسولا منا ، فلم يعد لهـذا الرسول من سبيل لمخاطبتنا الا استعمال اللغة الانسانيه التى هى وسيلة التخاطب ، فعنـدمابقول القرآن الكريم : « ان الله لا يستحيى » ، فنحن نفهم منها المقصـود ، وقد فهم صـحابة رسول الله المعنى واستعملوه على الفور ، جاء فى صحيح مسلم على لسان أم سلمة ، رضى الله عنها قولها : « يا رسول الله ، ان الله لا يستحيى من الحق » ، ثم قالت لرسول الله ما قالت ،والآن لنرجع الى سياق الآية ، فقد اختلف فى سـبب نزولها ، فقيل أنه عنـدما ذكر القرآن المنـافقين : « كمثل الذى اسـتوقد نارا » أو « كصيب من السماء » .. اعترض اليهود على هذه الأمثلة ، وقالوا هذا كلام لا يشبه كلام الله ، بينما قال آخرون بل جـرى الاعتراض ، على ضرب القرآن المثل بالذباب أو العنكبوت والنمل وخـلافه ، واحتـج القائلون بالرأى الأول ان القرآن الكريم قد ذكر الذباب والعنكبوت فى سور مكية ، بينما القول هنا رد على اعتراضات نزلت فى المدينة ، حيث لم يكن نزل من الأمثال الا هذا الوصف للمنافقين ، ونحن نرجح الراى الثانى ،وهو ان الاعتراض انما ينصب على تمثيل القرآن بالذباب والعنكبوت وامثالها ، وذلك للاسـباب التالية :

■ أولا : انه قبل هجرة سيدنا محمـد الى المدينة كان المسلمون قد هاجروا اليها وتفشى بين جنباتها ، وكان القرآن الذى أنزل بمكة هو الذى يقرأ ويتردد .

■ ثانيا : نستبعد ان يعترض اليهود على ذكر القرآن للأمثال ، لان كتاب التوراة الموجود بين ايديهم يستخدم نفس الأسلوب ، بل انه يتضمن سفرا كاملا يطلق عليه سفر الأمثال .

■ ثالثا : الاشارة فى الآية بالذات الى البعوض دليل على ان الاعتراض لا ينصب على مبدأ المثل، وانما ينصب على موضوعه ، فقد أنكروا ان يتخذ الله من الذباب والعنكبوت عبرة يدعو للاعتبار بها .

وهكذا نزلت هذه الآية الكريمة لتعلمهم ان عملية الخلق واحدة ، وان سرها واحد ، وان الذى خلق الشمس والقمر وخلق الانسان والسموات والارض انه هو خالق البعوضة ، وليست هـذه باعصى عليه من تلك ولا اصـعب أو اسهل ، ففى كل الاحوال اذا اقتضت مشيئته امرا ، كان وهو اذ يشير الى اى من مخلوقاته ، فانما يشير بذلك الى قدرته ، سواء فى ذلك النملة او الفيل .

« ان يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها » .

من أجمل ما طالعنا فى التفاسير واعتبرناه فتوحا من الله .. ومعنى « فما فوقها » فى هذه الآية « مادونها » ، اى ما هو أصغر وأتفه واقل من البعوضة ، وذلك جريا على ما يحدث فى العادة عندما يروح متحدث يذم فى شخص من الأشخاص فينعته بالبخل والجبن .. و .. و .. فيقول احد الحاضرين « وفوق ذلك » قاصدا بذلك أن يضيف خلالا سيئة فيكون معنى الفوقية هنا الاغراق فى الصفة المقصودة ، فعندما تحدثنا الاية الكريمة عن البعوضة ، باعتبارها شيئا صغيرا ، فتصبح عبارة « فما فوقها » فى الصغر ، وهذا الفهم هو الذى يتسق مع مدلول الآية .

الذرة كون كامل :

وها هى ذى الأيام تثبت لنا أن ما كان يعتقدالى وقت قريب انه نهاية المـــادة ، وهو الذرة ، وانها ـــ لصغرها ـــ لا تنقسم . فها هو الحق يظهر لنا انها لا تنقسم فحسب ، بل ويخرج عند انقسامها طاقة لا قبل للانسان بها ، ويقولون لنا انهـــا تمثل فى تركيبها ، والنسب بين مختـــلف اجزائها ، ما بين الشمس وكواكبها من نســـب بين كتلها وأبعادها .

وقد بقى أن نعرف ان الخليـــة الحية اكثر تعقيـــدا من الذرة ، وان كل جـــزء من اجزاء البعوضة يتألف من الوف الخلايا ، فهل فهمت كيف ان القرآن هو كلام الله حقا وصدقا ، كلام خلق البعوضة وخلق الانسان ، وفى كليهما آية قدرته .

واما الذين كفروا ـــ اى بالله وانه الخـــالق القدير ـــ فلا يفهمون هذا المعنى ، بل لا يقفون لمجرد التأمل فى خلق البعوضة .

« فيقولون ماذا اراد الله بهذا مثلا » : ومن هنا فهم عمى عن الحكمة ، فيسخرون مما قيل .

« يضل به كثيرا ويهدى به كثيرا » : وهكذا يتحول المثل الذى اريد به الهداية والارشاد ، الى عكس المقصود منه ، فيصبح سبيلا للضلال ، والأصل اللغوى لمعنى الضلال ، انه الهلاك ، ولكنه هنا يعنى الخذلان ، ويسارع الله عز وجل ليهدىء من مخاوفنا فيقول لنا انه لا يضل الا من اختار الضـــلال لنفسه : « وما يضـــل به الا الفاســـقين » .

ولا يدعنا الله برحمته حيارى فى معرفة من هو الفاسق فى هذا الموطن الذى استحق أن يضله الله ، فيعرفه لنا بأنه او بالأحرى بأنهم :

« الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه » .

« ويقطعون ما امر الله به ان يوصل » .

« ويفسدون فى الأرض » .

وينزل الله عز وجل حكمه على مرتكبى هذه الأعمال فيقول وقوله الحق :

« أولئك هم الخاسرون » .

تَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا فَأَحۡيَٰكُمۡۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿٢٩﴾ وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمۡ عَلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ

الموت كاحد صور الوجود :

احدى خصائص القرآن التى انفرد بها هو عرضه لأدق اسرار الوجود فيبسطها ويقربها للعقل وتصول الفلسفة والعلوم وتجول وتشرق وتغرب وتغرق فى التفاصيل والتفريعات والتخصصات فاذا هى كلها ترتد الى الحقيقة البسيطة المضيئة والتى عبر عنها القرآن فى كلمات قلائل كما هو الشأن فى هذه الآية الكريمة، فهو يوجه الحديث الى كل من يكفر بوجود الله فى أى عصر أو مكان ويحاصر هذا الكافر الملحد بما لا فكاك منه الا أن يكون أعمى القلب والعقل فحق عليه الشقاء .

الموت مرتان فلابد ان تكون الحياة مرتين كذلك :

انه يسائل الكفرة والملاحدة والذين يزعمون انهم لا يؤمنون الا بالحقائق العلمية فيقول :

ــ ألستم تسلمون بأن الانسان كان له وجود من نوع ما سابق على وجوده بصورته الانسانية الكاملة المألوفة والمتعارف عليها ، هذا الوجود الأول فى أصلاب الرجال وأرحام النساء ، أو كون الانسان من تراب أو ماء وطين ، أيا كانت الصورة الأولى التى نشأت منها الحياة فتلك هى الحالة الأولى التى يعبر عنها القرآن بالموت « وكنتم أمواتا » .

فأحياكم : وكما أن الخطوة الأولى فى الوجود هى امر مسلم به : فكذلك الخطوة الثانية ، وهى الحياة بصورتها التى نمارسها .

ثم يميتكم : ثم تأتى الخطوة الثالثة ، وهى انقطاع صورة الحياة المألوفة بالموت .

ثم يحييكم : فليس الا كافر ملحد أعمى القلب والعقل من ينكر عودة هذا الانسان مرة اخرى الى الحياة بعد أن رأينا انه كان ميتا ثم حيى ، ثم مات فهاتان موتتان فلزم أن يقابلهما حياتان ، حيث يقوم بناء الطبيعة كله على التقابل والتوازن وهو ما أشار اليه القرآن بصريح النص فى اكثر من آية :

« ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين »

« ثم اليه ترجعون »

هذه هى قضية البعث ، تكاد تلمس باليد لمسا . فما دمنا قد سلمنا أننا أصبحنا على صورتنا الحالية حيث لم نكن كذلك ، وما دمنا مسلمين أن حياتنا على صورتها تنتهى وتعود الى ما كنا

عليه من حيث عدم الوجود الظاهرى ، فأى عقل يجرؤ بعد ذلك ان ينكر ان الحياة ستكون مره اخرى . والقدرة المطلقة التى احيت الانسان بعد ان كان ميتا والتى اماتته بعد ان كان حيا ، هى قادرة على احيائه مرة اخرى بعد موته لمحاسبته على ما قدمت يداه .

« هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا ثم استوى الى السماء فسواهن سبع سموات وهو بكل شىء عليم » .

الانسان والكون :

ومن تأمل الانسان واحواله الى تأمل الكون بأحداثه فكل منهما يؤدى الى معرفة الخالق وتوحيده ، ونشير الى ما سوف تحدثنا عنه الآية التالية بصريح اللفظ من ان الانسان هو خليفة الله على الأرض ، وسوف نتحدث بالتفصيل على هذه الخلافة فى حينها . والمهم فى هذه الآية التى نحن بصددها فهو يظهرنا على بعض خصائص هذه الخلافة وهو ان كل ما سوى الانسان فى هذا الكون قد خلقه الله من اجل الانسان « هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا » اى ان كل ما فى الكون من عوالم واكوان وجمادات ونباتات وحيوانات وما هو منظور وما هو غير منظور ، ما عرفناه حتى الآن منها وما لم نعرف كل ذلك قد خلقه الله من اجل الانسان ، اى لنفعه ، وقد تساءل بعض السذج فى القديم على ما جاء فى القرطبى : واى نفع فى العقارب والحيات .

وقد وصفنا المتسائلين بمثل هذا السؤال وأمثاله بالسذاجة لانه من المحقق ان كل شىء موجود فى الطبيعة انما هو لتحقيق غرض من الأغراض ان خفيت معرفته على الانسان فى وقت ما . فلاتلبث ان تتكشف له ولو لم يكن فى وجودها الا مجرد حفز الانسان على ازدياد معرفته بها ، لكان ذلك هدفا من حيث تعليمه التفريق بين ما هو ضار وما هو نافع ، وهى فى كل الأحوال مبعث للعبرة والعظة وسبيل على الاستدلال على عظمة الخالق من خلال التعرف على مخلوقاته .

كل ما فى الأرض والسماء :

واذا كانت هذه الآية تحدثنا عن أن الله سبحانه وتعالى قد خلق كل ما فى الأرض من اجل الانسان ، فثمة آيات اخرى تضيف ما فى السموات على ما فى الأرض ، وذلك من مثل قوله تعالى : « وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعا منه » .

والتسخير بمعنى جعله تحت سلطان الانسان للانتفاع به بشتى صنوف الانتفاع المادى والمعنوى بالايجاب والسلب .

لا حدود للعلم والمعرفة

وطالما نبهنا الى ان هذه الآيات وامثالها هى التى ارتفعت بالعرب فى قرن واحد من الزمان من جاهليتهم واميتهم الى أن يصبحوا هم الحفظة على تراث الانسانية العلمى ممثلا فى علوم الاغريق التى نقلوها الى اللغة العربية . ثم لم يلبثوا ان حسموها واكملوها واضافوا بل واخترعوا علوما لا عهد للبشرية بها كعلم الجبر الذى يحتفظ باسمه العربى فى كل لغات العالم والذى هو القاعدة والاساس فى كل المباحث الرياضية العليا التى هى سبيل التقدم فى العصر الحديث . هذا الاعجاز العربى فى استيعاب العلوم والمعارف دفع اليه العرب دفعا بمثل هذه الآية التى تقول لهم أن كل شىء فى هذه الدنيا قد خلق من أجل الانسان فليصعد الانسان الى القمر وبقية الكواكب الأخرى ، فهو من اجل ذلك خلق فسخر الله له كل ما فى السموات والأرض

ليزيده ذلك كله ايمـــانا بالله وعرفانا بقـــدرتهووحدانيته ، وتكون الكارثة التى تصيب الانسان هو ان يعلم الانسان من اسرار الكون ما يعلم ولايتوج ذلك بالهدف النهائى من العلم الذى تدعونا اليه هذه الآيات وهو الايمان بالله الخالق .

« ثم استوى الى السماء فسواهن ســبعسموات » .

مفــردات :

جاء فى تفسير الوسيط « ثم اســتوى الىالسماء » تعلقت ارادته تعالى بتسوية السماء ، والسماء هى كل ما سما وعلا فوق سطح الأرضويشمل ايضا الغلاف الهوائى المحيط بالأرض .

فسواهن : اى جعلهن سويات لا نقص فيهن .وجاء فى معجم الفاظ القرآن الذى اصدره المجمع اللغوى .

« ثم استوى الى السماء فسواهن ســبعسموات » اى قصد اليها بتدبيره .

وسوى الشىء يسويه تسوية :

عدله وجعله لا عوج فيه .

« فسواهن سبع سموات » اى اكملهن .

احدى المتشابهات :

وهذه الآية وامثالها فى القرآن مما يشير الىالاستواء ، وهل خلقت الأرض قبل الســماء ام ان الذى حدث هو العكس قد يستفاد من آياتاخرى . وقد حفلت التفاسير القديمة باسرائيليات كثيرة ، سنعرض لها ان شــاء الله فى مناسبةاخرى ، ونكتفى الآن بالمعنى العام المفهوم من الآية وهو ان الله سبحانه وتعالى بعد أن لفتالانظار الى الحياة والموت ، فهو يلفت الانظار بعد ذلك الى الكون وما فيه من المخلوقات سواءفى الأرض او فى السموات .

السموات السبع :

جاء فى تفسير الوسيط لاشياخنا :

« وبعد ان سقنا ما رآه المتقدمون فى المرادبالسموات وعددها . نقول : لعلهم يرون ان القرآن الكريم اقتصر على عدد السبع فى السمواتلأن ذلك كان مفهوم العرب فيها ، فعبر القرآن عن عددها كما يفهمون ، حتى لا يكذبون اللهورسوله ، ولذا أمرنا النبى صلى الله عليه وسلم أن نخاطب الناس بما يعقلون حتى لا يكذبونالله ورسوله فيما يجهلون » ا.هـ .

ونحن من ناحيتنا نرجو ان يأذن لنا اشياخناان نقف عند نص القرآن من انهن سبع سموات .

« وهو بكل شىء عليم » .

اى بما خلق وهو خالق كل شىء جاء فى التنزيل« الا يعلم من خلق » فهو العالم والعليم بكل شىء.

« واذ قال ربك للملائكة انى جاعل فى الأرضخليفة قالوا اتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال انى اعلم ما لا تعلمون » .

مفـــردات :

خليفة : جاء فى معجم الفاظ القرآن للمجمع اللغوى : فسرت بأنه ينوب عن الله تعالى فى اجراء احكامه وتنفيــذ ارادته فى عمارة الكون وسياسته والأصل فى الكلمة خلف فلان فلانا ، اى قام بالأمر بعده .

وجاء فى تفسير الوسيط لمشايخنا :

» الخليفة من يخلف غيره وينوب عنه والمراد به آدم وبنوه » .

الملائكة : جاء فى معجم المجمع اللغوى « الملائكة جنس من خلق الله تعالى ذوو اجسام لطيفة نورانية يستطيعون أن يتشكلوا فيما يشاءون من الصور ومنهم الرسل الى الأنبياء بالوحى ، ومنهم من ينفذ من الأمور فى هذا العالم ما يؤمر به ، ومنهم من تخصص للعبادة .

وقال اشياخنا فى تفسير الوسيط :

« الملائكة جمع ملك وهم ذوات نورانية خلقوا لطاعة الله فيما يأمرهم به ، لهم قدرة التشكل بالاشكال الحسنة المختلفة ولهذا كان الرســـل يرونهم وهذا مذهب اكثر المتكلمين .

وقال الحـــكماء هم جواهر مجـــردة مخالفة للنفوس الناطقة بالحقيقة .

ويسفك الدماء : اى يريقها والسفك مختص بالدم .

نسبح بحمدك : نبعد عنك ما لا يليق بك اعتقادا أو قولا وعملا متلبسين بحمدك .

ونقدس لك : اى ننزهك عما لا يليق بك من أجل ذاتك . اهـ .

الأديان هى التى تكرم الانسان :

لعل المعنى الذى يســـتخلص من هذه الآية وما سوف يتلوها من آيات هو الرد الذى يفقأ عيون الملحدين ، ويقطع السنة المتخرصين الذين يزعمون أن الاديان هى سر تخلف الشـــعوب المتدينة فى العصر الحديث .ويروحون يتشدقون بأن نظرياتهم هى التى تعلى من شأن الانسان ودوره فى هذا الوجود .مع أن الانسان لايرخص وتستباح حرماته ، ولا تزيد قيمته عن الحيوان ، الا فى ظل المجتمعات التى خلت من الدين ، أو تعطل فيها حكم الدين نصا وروحا لسبب من الأسباب ولفترة طارئة ، وما عليك الا ان تستوعب هذه الآية التى نحن بصددها لترى اى كرامة يضفيها الله على الانسان (جنس الانسان) واى آفاق يفتحها امامه ، واى سلطان يزوده به عنـــدما يصفه بأنه خليفته على الأرض .

فبعد أن يقوم ايمان المؤمن على قدرة الله التى لا حد لها وعلى علمه النهائى ، يخبره (كما سنرى فى آية مقبلة) انه قد أودع فى الانسان نفحة ربانية « ونفخت فيه من روحى » .

وانه بهذه النفخة الربانية قد اصبح اسمى كائن فى هـــذا الوجود واستحق أن تسجد له الملائكة فأى كرامة للانسان تعلو هذه الكرامة ،واى تنبيه للانسان على قدرته وما أودع الله فيه من طاقات عليه أن يستخدمها فى كل ما يعود عليه بالنفع ولكل من حوله من انســـان وحيوان . بل ومن نبات وجمـــاد ، اكثر من أن يقال له انه خليفة الله فى الأرض .

الخلافة كنظام للحكم :

وقد استفاض القرطبى فى تفسيره فى موضوع الخلافة كنظام للحكم الاسلامى باعتبار ان هـــذه الآية على حسب نص تعبيره « هذه الآية اصل فى نصب (اى تنصيب) امام وخليفة يسمع له

ويطاع لتجتمع به الكلمة وتنفذ به احكام الخليفة، ولاخلاف فى وجوب ذلك بين الأمة الا ماروى عن الاصم حيث كان عن الشريعة اصم وكذلك كل من قال بقوله .. الخ » .

ويمضى القرطبى فى مناقشته المستفيضة ،ويحدد شروط الخليفة ، ومن منهاجنا أن لانخوض فى مباحث فقهية ، ومما لا شك فيه أن المجتمع البشرى لا يقوم أول ما يقوم الا على نظام الحكم وسيادة الشريعة (مما نسميه الآن سيادة القانون) وبغير ذلك لا يقوم مجتمع بشرى صالح فضلا عن مدنية وحضارة ، ولكن فى معرض التفسير لهذا اللفظ (الخلافة) وفى هذا الموضع بالذات لا يمكن قصره على ان المقصود به هو الخلافة الاسلامية فالحديث يجرى هنا حول آدم . وقد سبق آدم ونسله من بعده الاسلام بدهور لا يعلم مداها الا الله ، فوجب ان تفسر كلمة الخلافة هنا بمعناها العام وفق ما قلناه عن التفسير الوسيط ومعجم الفاظ القرآن والله تعالى اعلم .

« قالوا اتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك » .

يجمع جمهرة المفسرين من قدامى ومحدثين على ان هذه الآية الكريمة لا ينبغى أن تؤخذ على ظاهرها ، وانما تؤخذ المعانى المستفادة منها ومن بقية الآيات التالية وسيكون لنا رأى باذن الله سوف نسوقه جريا على منهاجنا ولكن فى ختام قصة خلق آدم كلها ، وبعد ايراد آراء الفقهاء الاعلام .

وقد اجمع المفسرون على أن قول الملائكة « أتجعل فيها » — الآية ، لم يكن على سبيل الاعتراض ، وانما على سبيل السؤال للتعلم ،وان ذلك قد تم بأذن من الله سبحانه وتعالى .

كما دار التساؤل بين المفسرين عن مصدر علم الملائكة بأن هذا الخليفة الذى سيستخلفه الله فى الأرض سيكون من نسله من يفسد فى الأرض ويسفك الدماء ، فذهب البعض الى انهم علموا بذلك من اللوح المحفوظ ، وقال آخرون ، انما قالوا ذلك قياسا على ما فعله الجن فى الأرض وقد كانوا يسكنون الأرض قبل خلق الانسان .

التفسير الوسيط :

وقد احسن التفسير الوسيط فى طرحه جانبا كل هذه الأحاديث المستفيضة ، ولذلك فاننا ننقل عبارته بنصها لأنها تلخص وبالتالى تغنى عن كل ما قيل فى هذا الموضوع بغير مقتضى واليك النص:

« والاستفهام ظاهره تعجب الملائكة من انه تعالى سيجعل فى الأرض من يفسد فيها ، أو الاعتراض على ذلك وانكاره ، ولكن هذا الظاهر غير مراد ، لأن الملائكة كما قال تعالى : « عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون » بل هو استفهام تعجب ، قالوا استكشافا لما خفى عليهم من الحكم فى خلق من يفسدون فى الأرض ، واستخبارا عما يزيح شبهتهم ، ويرشدهم الى معرفة ما فى آدم من الفضائل التى جعلته أصلا للخلافة هو وذريته ، كسؤال المتعلم استاذه مما ينقدح فى ذهنه ، ليعلم الجواب فيستريح » انتهى .

« انى أعلم ما لا تعلمون »

اى اعلم ما لا تعلمون مما كان ويكون ومما هو كائن وقد حاول بعض المفسرين أن يخصصوا علم الله بواقعة محددة مثل الذى كان يضمره ابليس فى نفسه من التمرد والعصيان وذلك ردا على قول الملائكة « ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك » ولكن هذه كلها اجتهادات لا سند لها ، والأرجح هو ابقاء العام على عموميته ، وذلك أن الله عز وجل هو الاعلم بمراده .

إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ سُبْحَـٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَـٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَـٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُواْ

مفردات :

علم : اى عرف وهى هنا بمعنى الهم او اودع فى آدم علم كل شىء .

آدم : اسم ابى البشر على ما جاء فى القرآن الكريم والتوراة والانجيل واختار القرطبى قول من قال ان كلمة آدم اشتقت من اديم الارض بمعنى وجهها (اى سطحها) .

الاسماء : جمع اسم والاسم هو علامة الشىء وما يعرف به (ذاته(١)) والجمهور على ان الاسماء هنا تعنى المسميات .

جاء فى تفسير الوسيط (لعلماء الأزهر) ومعنى تعليم الله لآدم الاسماء كلها : انه خلق فيه — بموجب استعداده عليها ضروريا وخواصها ، باسماء جميع المسميات واحوالها وخواصها اللائقة بها .

قال ابن عباس وغيره : علمه اسماء جميع الاشياء حتى القصعة والقصيعة والجفنة والمخلب .

ثم عرضهم على الملائكة : اى عرض المسميات المدلول عليها بالاسماء ، وهذا ظاهر من قوله تعالى : « انبئونى باسماء هؤلاء ان كنتم صادقين » .

فى تصوركم انكم احق منه بالخلافة فى الارض لان بعضا من ذريته سوف يسفك الدماء ويفسد فى الارض .

---

(١) جاء فى معجم الفاظ القرآن « وما يعرف به شخصه ».

« قالوا(١) سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا انك انت العليم الحكيم » .

وهكذا اعترف الملائكه ان علمهم محدود بماقصر الله سبحانهم وتعالى علمهم عليه كل فى دائرة اختصاصه وذلك بخلاف آدم الذى علمه كل شيء .

وقد استهل الملائكة كلامهم بقولهم «سبحانك» والتسبيح معناه تنزيه الله عما لا يليق بجلاله ولكنها هنا تعنى فوق ذلك استغفار الملائكة عما قالوه على سبيل السؤال للتعلم واقروا بجهلهم فالله وحده هو الذى يعلم كل شيء « انك انت العليم الحكيم » فى كل ما يفعل ويقدر ويدبر .

« قـــال يا آدم انبئهم بأسمائهم فلما انبأهم بأسمائهم قال الم اقل لكم انى اعلم غيب السموات والأرض » .

بعد أن اقر الملائكة بعجزهم أراد الله عز وجل أن يبين لهم فضل هذا المخلوق الجديد الذى اختاره الله ليكون خليفته على الأرض وما هى الخاصية التى زوده الله بها ليكون جديرا بهذه الخلافة ، فأمر آدم أن ينبئهم بما عجزوا عنه ، ففعل وهنا ذكر الله للملائكة ما يعرفونه من انه هو وحده عالم « غيب السموات والأرض » اى بكل ما هو كائن وما سوف يكون .

« واعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون »

اما ما ابداه الملائكة فقد صرحوا به بقولهم « اتجعل فيهـــا .. الآية » . اما ماذا كانوا يكتمون ، فالرأى عندنا ان علم ذلك عند الله ولكن جمهور المفسرين على ما يدل عليه شاهد الحال وما اشرنا اليه فيما سبق من انهم كانوا يرون انفسهم احق بالخلافة ، ويرى قلة من المفسرين أن فى ذلك اشارة لمـــا كان الشيطان يحدث به نفســه .

الانسان بعلمه ولا علم بغير حرية :

ومن ناحيتى فقد اتخذت هذه الآية منذ بدأت افكر كدليل على ان الانسان لا يكون انسانا الا بمقدار ما يعلم وانه لم يستحق أن يكون خليفة الله الا بعلمه ، ، والعلم البشرى كله مستكن فى نفس كل انسان منذ يولد . وفائدة التربية والتعليم هو استثارة بعض مكونات هذا العلم الانسانى ، فاذا لم يترب الانسان ويتعلم فانه يظل جاهلا ولكن علوم الأرض كلها تظل هناك كامنة فى انتظار ما يستثيرها تماما كالمغناطيسية او الكهربائية كامنة فى الاجسام ولكنها فى حاجة لمـــا يستثيرها لتظهر والا ظل الجسم باردا خامدا . ولا يحرك العلم الكامن فى كل نفس الا تحصـــيل المعارف التى اصبحت متاحة ثم التفكير فيها والتأمل ومداومة التأمل. فاذا باضافة جديدة تنبثق من اغوار النفس وهكذا نشأت كل الاكتشافات والاختراعات فما من مكتشف او مخترع الا ويكون قد استوعب أولا علم عصره فى فرع العلم الذى اختاره لنفسه ، ثم تأتى الاضافة الجديدة من اعماق نفسه وهو ما يسمى بالالهام والالهام فى تصورى — وهذا هو الفارق بينه وبين الوحى السماوى — ان الالهام

---

(١) اى الملائكة .

نابع من أغوار النفس . من هذه القدرة التىاودعها الله فى كل نفس ، وشأن الانسان الجاهل كشأن اى انسان لا يعرف ان المــاء او البترول او الذهب او الماس وشتى صنوف المعادن تحت قدميه فى باطن الأرض وما عليه الا ان يحفرليخرج فى كل عصر واوان ما يفيــده فى حياته اليومية .

لا علم بغير حرية :

والعلم لا يستثار ويروج وينمو الا فى ظل الحرية ، ذلك ان العلم هو اختيار من عدة فروض واحتمالات . ومن هنا كان العلم والحرية صنوان لا ينفصلان ولا يتجزآن ، فحيث وجدت الحرية وجد العلم وحيث يوجد العلم توجد الحرية ،ولا يمكن لاحدهما على المدى الطويل بغير الآخر ولقد بحثت هذا الموضوع باستفاضة فى كتابى « العلم والمــال فى الاسلام » وبينت السر فى تفوق المسلمين على الأوربيين فى العصور الوسطىحيث ازدهر العلم فى المجتمع الاسلامى فى ظل الحرية ، ومن هنا وجد من قال بكروية الارضودورانها حيث احرق فى اوربا من قال ذلك .

والمهم أن هذه الآية التى نحن بصددها « وعلمآدم الاســماء كلها » كانت هى المنطلق الذى اشدت عليه بحثى عن السر فى عظمة العلم فىالاسلام .

« واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس ابى واستكبر وكان من الكافرين » .

مفــردات :

اســجدوا : الســجود لغــة معناه التذلل والخضوع . واصطلاحا هو وضع الجبهة على الأرض والله وحده اعلم بمراده .

ابى : يأبى اباء : اى امتنع .

استكبر : اى استعظم وهو مشتق من الكبراى ان الشيطان كره ان يسجد لآدم فعصى بذلك الله ، والكبر « والعياذ بالله » من اكبر المهلكاتالتى تودى بالبشر .

جاء فى صحيح مسلم « لا يدخل الجنة من كانفى قلبه مثقال حبة من كبر » وقد عرف الرسول صلوات الله عليه « الكبر » فى احــدى رواياتالحديث بانه « بطر الحق وغمط الناس » والبطر معناه ابطال الحق وتسفيهه . وغمط النــاساحتقارهم .

عصيـــان ابليس :

والقصة بعد ذلك واضحة وقوية الدلالة فىان مشيئة الله اقتضت ان تخضع الملائكة لآدم الذى اختاره الله ليكون خليفته اى ممثل قدرتهعلى الارض ، فانصاع الملائكة للأمر الآلهى ما عدا ابليس الذى ابى فكان من الكافرين وفى التنزيلما يفيد ان ابليس لم يكن من الملائكة « الا ابليس كان من الجن » وهو يتحدث عن نفسه فى اكثرمن آية انه خلق من نار حيث الملائكة خلقوا من نور ودار جدل كبير بين قدامى المفسرين هل كانابليس من الملائكة فى امثال هذه القضايا ، والذى

تنص عليه الآية التى نحن بصددها انه ايا كانت طبيعية ابليس ، فقد صدر اليه الأمر مع جملة الملائكة المخاطبين المأمورين بالسجود ، فعصى الأمر الصــادر له . وبذلك طرد من رحمة الله ، وحل عليه غضب الله ولكن شـــاءت ارادته ان يجعل له دورا فى الحياة ستتحدث عنه الآيات التـــالية .

راينـــا فى القصـــة :

وقد حفلت قصة خلق آدم فى بعض التفاسير القديمة بطوفان من الاسرائيليات التى ما انزل الله بها من سلطان ولذلك نمر عليها معرضين ولكننا لا نستطيع الا ان نقف قليلا امام القصة لنؤكد بعض المبادىء . والقصـــة كما عرضتها الآيات التى نحن بصددها ، وكما ذكرها فى اكثر من سورة تدور حول مشيئة الله فى خلق جنس الانسان ، فخلق آدم ابو البشر واصلهم الاول من ماء وطين . وسواه ونفخ فيه من روحـــه ،واستحق آدم بسبب ما اودع فيـــه من السر الالهى أن تسجد له الملائكة « فاذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين » وقد حدث على ما تشير الآيات التى نحن بصددها ان تساءل الملائكة على سبيل الرغبة فى التعلم عن السر فى جعل آدم ونسله من بعده خلفاء لله فى الأرض وانتهى المشهد كما هو حقيق به أن ينتهى وهو ان تنصاع الملائكة كما هو « ديدنها » لأمر الله فسجدوا جميعا ، ولكن لكى تتحقق مشيئة الله فيما اراده لخلقه من محنة واختبـــار ان يتمرد ابليس على الأمر فيمتنع عن السجود ، فيكون اول الكافرين ، ويقف بعد ذلك بالمرصاد لآدم حتى يخرجه من الجنة ، ثم يترصد هو وقبيله لذرية آدم ليحول بين من حقت عليهم الشقاوة منهم وبين دخول الجنة .

كيف يجب ان نفهم القصـــة :

والسؤال الآن هو كيف يجب ان نفهم هـــذه القصة وقد اجمع المفسرون بداءة ذى بدء القدامى منهم والمحدثون على السواء ، أن القصة لا يجب أن تؤخذ على ظاهرها ولكنا نزيد الأمر تفصيلا .

« ليس كمثله شىء »

واول ما نقوله هو ما نص عليه القرآن الكريم وما يعتبر جوهر التوحيد وهو تنزيه الله عن كل تشبيه لمـــا يدور بين البشر « ليس كمثله شىء »وثمة عبـــارة رتبها الاصوليون على هـــذه الآية الكريمة ، وكان العلامة فريد وجدى يرددها ومنه تعلمناها : « أن كل ما يدور فى ذهنك على انه الله ، فالله بخلاف ذلك » هذا بالنسبة لذات الله جل وعلا ، أما بالنسبة للملائكة فقد وصفهم القرآن الكريم بأنهم « عباد مكرمون . لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون » وعلى ضوء هاتين القاعدتين الأساسيتين يجب أن نفهم قصة آدم ،فقـــد اريد بعرضها على هـــذه الصورة تعليم الانسان مدى الكرامة التى اسبغها الله سبحانه وتعالى على الانسان وأن يشمر عن ساعد الجد ليكون جديرا بالمكانة التى ارادها الله له ، وأن ينأى بنفسه عن أن يكون من هذه الزمرة (التى تسفك الدماء وتفســـد فى الأرض) وأن ينتبـــه ويتيقظ ويحذر الشيطان الذى يقف له بالمرصاد حســـدا من ناحية ورغبة فى الكيد والانتقام من ناحية أخرى ، والله تعالى اعلم بمراده .

بشرى للمسلمين

احسب انه من حق التاريخ ان اسجل على صفحات المنبر ما يملأ وجدانى من اننا نشهد طلائع فجر جديد للعالم الاسلامى كله ، ذلك انه اذا عزت مصر عز العرب كلهم . واذا عز العرب عز المسلمون . فكيف اذا عز هؤلاء الثلاثة ووقفوا متساندين متكاتفين ، فمن اندونيسيا حتى ايران والباكستان وبنجلاديش وبقية اقطار المسلمين تتوالى البشائر بتضامنهم مع العرب فى جهادهم المقدس وليس من قبيل الصدفة أن يكون لدى المسلمين بعامة والعرب بخاصة أعظم رصيد فى العالم من احتياطى الطاقة ، وانما هو الاشارة من الله عز وجل ببعث الاسلام والمسلمين من جديد . ففى عصر اصبح فيه البشر يقيسون الأمور كلها بالمادة اودع الله عز وجل اعظم مظاهر المادة وهو الطاقة فى بلاد العرب والمسلمين وجعل جزيرة العرب بالذات حيث ولد النبى صلوات الله عليه وسلامه ونشأ ودرج ثم بعث ليكون نورا للعالمين ، اعظم مصدر للطاقة فى العالم كله وللماديين والملحدين أن لا يروا فى ذلك الا محض صدفة ، اما نحن المؤمنين فنرى فى ذلك الاشارة نعم الاشارة بالمستقبل السعيد الذى سيعود فيه المسلمون الى مجدهم والله اكبر الله اكبر ولا اله الا الله .

مفردات :

سكن : يسكن سكونا : قر وثبت وهدأ بعد حركة فهو ساكن .

زوج : زوجه امرأة اى انكحه اياها ، وجعلها له زوجا (وزوجة) والمقصود هنا هو حواء أم البشر .

الجنة : الجنة بفتح الجيم هى الحديقة ذات الشجر (البستان) وهى دار النعيم فى الآخرة .

رغدا : رغد العيش يرغد رغدا اى اتسع ولان وطاب . ويقال عيش رغد اى موسع فيه .

فأزلهما : أوقعهما فى الزلة . زلت القدم اى زلقت وانحرفت عن موضعها .

اهبطوا : هبط يهبط وهبطت هبوطا نزل من علو الى اسفل وانحدر ويقال هبط البلد والوادى: نزل به وانتقل اليه .

مستقر : موضع استقرار .

ومتاع : تمتع وانتفاع ومتعة جعله ينعم وهيأ له ما يحب وما ينتفع به .

حين : الحين الفترة من الزمن وهى هنا تعنى (حتى انتهاء الأجل بالموت) .

تاب : توبا وتوبة ومتابا : رجع عن المعصية فهو تائب وهى تائبة وهم تائبون وهن تائبات .

وتاب الله عليه ، عاد بالمغفرة عليه او رجع عليه بفضله وقبل توبته وغفر له والتواب ، كثير التوبة .

هدى : هداه الشىء واليه وله هديا وهداية وهدى فهو هاد .

يقال هداه الطريق اى عرفه له وارشده ويقال هداه الحق ، ارشده اليه ودله عليه بلطف ودلالة من شأنها أن توصل الى البغية ويكون ذلك فى الخير ويقال هداه الى الايمان ، دله عليه وادخله فيه .

خالدون : الخلد دوام البقاء خلد يخلد خلودا وخلدا دام بقاؤه فهو خالد وهما خالدان وهم خالدون .

انتهى ما جاء فى معاجم اللغة وتفسير الوسيطعن المعنى اللغوى للالفاظ .

قصـــة آدم :

وتمضى الآيات الكريمة لتكمل بقية قصة خلقآدم ، فبعد أن ذكرت الآيات السابقة الغاية من خلق الانسان « آدم » وان ذلك ليكون خليفة للهفى الأرض يعمر الكون ويكون بمجرد وجوده آية واعية على وجود الله ، وبعد ان بين لنا القرآنالكريم ان هذه الكرامة العظمى التى اختص بها الله عز وجل الانسان هى بسبب ما أودعه فيه من عـــلم .

زوجة آدم :

والقرآن الكريم الذى سمى لنا آدم ، لم يعلمنالحكمة يعرفها الله عز وجل عن اسم زوجة آدم ، واكتفى دائما بالاشارة اليها من انها زوجة آدمكما هو الشأن فى هذه الآية .

ومع ذلك فالمشهور والمتعارف عليه بالاجماع ،أن زوجة آدم كانت تســـمى « حـــواء » ونحن لا نستطيع أن نخالف ما عليه الاجماع ، ومعذلك فان واجب الأمانة والدقة العلمية يفرض علينا فرضا ان نسجل هذه الملاحظة وهى انالقرآن الكريم قد خلا من اسم حواء وعنـــدما يصرح القرآن باسم آدم ويسكت عن اسم حواءويكتفى بالاشارة اليها بأنها زوج ، فلا مناص من أن يكون وراء ذلك حكمة : ولهذا رايناوجـــوباثبات هذه الملاحظة .

ويقول لنا ابن كثير وهو المحقق ان قصة خلقحواء قد نقلت عن أهل الكتاب ، وانها ترددت فى اقوال ابن عباس وغيره وتتلخص القصة فىأنه بعد خلق آدم نزلت عليه سنة من النوم ثم أخذ الله عز وجل ضلعا من أضلاعه من شقهالأيسرولأم مكانه لحما . وآدم نائم لم يهب من نومه حتى خلق الله من ضلعه تلك . . ويمضى ابن كثيرفى قصته بعد أن يقول : فقال فيما يزعمون والله اعـــلم . .

ولـــا كانت القصة بعد ذلك ترديد لـــا وردفى الكتاب الموجود بين أيدينا تحت اسم الكتاب المقدس (العهد القديم) فقد رأينا أن ننقلهـــابنصها حتى يعرف على وجه التحقيق مصـــدر اسم حواء وكيفية خلقها ، جاء فى العهد القديمســـفر التكوين .

« فأوقع الرب الاله سباتا على آدم فنام .فاستل احدى أضلاعه وسد مكانها بلحم وبنى الرب الاله الضلع التى أخذها من آدم امرأة فأتى بها آدم فقال آدم هذه المرأة عظم من عظامى ولحم من لحمى . هـــذه تسمى امرأة لانهـــا منامرىء أخذت » .

وفى موضع آخر يقول العهد القديم : وسمىآدم امرأته حواء لانها أم كل حى » .

وعلى هذا فقد لزم التنبيه الى أن اهل الكتابهم مصدر ما قيل عن كيفية خلق حواء وتسميتها بهذا الاســـم .

أما نحن فطبقا لمنهاجنا الذى التزمناه نقف عندحد النص القرآنى لا نعـدوه والآية التى نحن بصددها تحدثنا ان الله عز وجل اسـكن آدموزوجه الجنة وأباح لهما ان يتنقلا بين ارجائها ويأكلا من ثمارها كلما وحيثما طاب لهما ذلك . وان يتمتعا حلالا طيبا ، ولم ينههما الا عن شجرة واحدة طلب منهما ان لا يقتربا منها (اى لا يأكلامنها) ولكن الشيطان نجح فى ان يغريهما بمخالفة النهى الذى صـدر لهما ، لكى يتم قضـاء اللهالسابق فكان ان خرج آدم وزوجـه وحرما من النعيم الذى كانا فيه ، ووجه الله الحديث لآدموزوجه والشيطان « وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو » وهكذا كانت ارادة الله فى خلق الانسان ونقيضـه ونعنى به الشـيطان وفرض عليهما الصراع ما بقيت الدنيا مستمرة الى ان يرث اللهالارض ومن عليها .

اشكالات عرضت للمفسرين :

وعلى الرغـم من أن المفسرين كما قدمنـايجمعون على ان قصة خلق آدم كما وردت فى القرآن لا ينبغى أن تؤخذ على ظاهر الفاظها ،فانهم بعد تقرير هذا المبدأ ، يعودون لمناقشـة القصـة متتبعين لحرفية الفاظها ، محـاولين الاحاطة بأدق تفاصيل احداثها ، ومن هنا فقـد وقعوا فى عديد من المشاكل التى لا حل لها ،فما يقوله فريق ويقيم عليه الدليل يناقضه قول فريق آخر معزز بدوره بالدليل القرآنى ، واللطيفان كل فريق يقرر ان رأيه هو الذى تقـول به الاغلبية كما سنرى .

ولقد قدمنا ان القصة انما تساق على سبيلالتعليم ، اى ان المقصـود هو المعـانى التى تستخلص منها ، وليست ماديات الوقائع .

ما المقصود بالجنة ؟

ولعل أخطر القضايا التى دار حولها الجدلهو التساؤل عن الجنة التى قيل لآدم ان يسكنها هو وزوجه وأنا واثق تماما ان (٩٩ فى المـائةبل واكثر من ذلك من قراء القـرآن الـكريم سيدهشون لتصور ان مثل هذه المسالة يمكن ان تكون محل جدل فعندما يقول القرآن الكريم « الجنة » معرفة بأداة التعريف وهى « ال » ثملا يوجد من سياق الكلام ما يوجهها وجهة خاصة فليس هناك الا جنة واحدة عرضـها عرضالسموات والارض وهى « دار النعيم » ولا حجة فى قول من قال ان كلمة « جنة » وردت فى القرآناكثر من مرة بمعنى « بستان » ففى كل مرة ورد فيها لفظ الجنة بمعنىالبستان . كان السياق يحددعلى وجه القطع واليقين انها لا يمكن ان يكون المقصود بها جنة النعيم من مثل قوله تعالى : « كمثل جنة بربوة اصابها وابل فآتت اكلهـا ضعفين » البقرة .

« أيود أحدكم أن تكون له جنـة من نخيـلواعناب » البقرة .

« ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما اظن انتبيد هذه ابدا » الكهف .

أما فى هذه الآية الكريمة التى نحن بصددهافهى تذكر الجنة معرفة ، وليس فى سياق الكلام ما يصرفها عن كونها « دار النعيم » وليس هناكسوى دار نعيم واحدة نؤمن بها نحن المسلمين .

على ان القائلين بان الجنة على الأرض لا يقفون عند حد المعنى اللغوى لكلمة « جنة » وانما يسوقون بعض الأدلة ، كان يقولوا انه لا خلاف على ان خلق آدم كان فى الأرض ولم يرد فى القرآن ما يدل على أن آدم رفع الى السماء ، وعندنا ان ليس فى ذلك حجة فليس من نهج القرآن أن يذكر تفاصيل الا عندما تكون هذه التفاصيل مقصودة بالذات كما هو الشأن فى المسائل التشريعية .

ويقولون لو كانت الجنة هى جنة السماء فكيف يتسنى لأبليس ان يدخلها بعد ان طرد منها واصبحت محظورة عليه ، ولانقل لك نموذجا لبعض ما جاء فى هذه التفاسير .

جاء فى تفسير القرطبى :

ولا التفات لما ذهبت اليه المعتزلة والقدرية من أنه (أى آدم) لم يكن فى جنة الخلد وانما كان فى جنة بأرض عدن .

ويمضى القرطبى فى سوق حجج المعتزلة والرد عليهم ، الى أن يخلص الى القول : وقد حكى بعض المشايخ ان اهل السنة مجمعون على ان جنة الخلد هى التى اهبط منها آدم عليه السلام فلا معنى لقول من خالفهم . انتهى .

تفسير المنار :

وفى الوقت الذى يقطع فيه القرطبى بأن المعتزلة والقدرية هم الذين يقولون ان الجنة التى اخرج منها آدم هى جنة ارضية وان اهل السنة « يجمعون » على أنها جنة الخلد ، نرى تفسير المنار يقول :

« فقد اختلف علماء المسلمين من اهل السنة وغيرهم فى (الجنة) هل هى البستان او المكان الذى تظلله الأشجار بحيث يستتر الداخل فيه كما يفهمه اهل اللغة ، ام هى الدار الموعود بها فى الآخرة .

والمحققون : من اهل السنة على الأول ، قال الامام ابو منصور الماتريدى فى تفسيره المسمى بالتأويلات : نعتقد ان هذه الجنة بستان من البساتين او غيضة من الغياض كان آدم وزوجه منعمين فيها . وليس علينا تعيينها ولا البحث عن مكانها وهذا هو مذهب السلف (انتهى) وجاء فى تفسير الوسيط لأشياخنا من علماء الأزهر :

والجنة التى أمر بسكناها هى دار الثواب عند الجمهور لأنها كذلك فى عرف نصوص الشريعة ، وقيل هى جنة بأرض فلسطين ، أو بين فارس وكرمان او فى غيرهما خلقها الله امتحانا لآدم عليه السلام وحمل « الاهباط منها » على النقل منها الى ارض أخرى ، كما فى قوله تعالى « اهبطوا مصرا » لان خلقه (أى آدم) كان فى الأرض بلا خلاف ولم يذكر فى قصته رفعه منها الى السماء حيث جنة الجزاء ولو وقع ذلك لكان اولى بالذكر ، ولأنها لو كانت دار الخلود لما دخلها ابليس . « ذكره ابو السعود والألوسى والله اعلم » انتهى .

الاختلاف حول الشجرة :

وقد دار الاختلاف كذلك حول « الشجرة » أى شجرة هى ، فقالوا الحنطة وقالوا شجرة العنب وشجرة التين وغير ذلك وفى العصر الحديث بعد ان تسربت الينا الثقافة الغربية قالوا انها رمز « للجنس » وكل ذلك ، رجم بالغيب وترجيح بغير مرجح .

وعندنا ان ذلك كله يرجع الى محاولة تقصى عناصر القصة والرجوع الى ما جاء فى الكتب غير الاسلامية ولو وقفنا عند ما نميل اليه ونرجحه من ان قصة آدم تساق على سبيل التعليم ولترشدنا الى مجموعة من المبادىء لاكتفينا بما تعبر عنه القصة من المعانى ولما شغل منا بما لا طائل تحته ، اما هذه المعانى فهى :

١ — تكريم الانسان وتفضيله بالعلم .

٢ — الصراع الدائم بين الخير والشر .

٣ — باب التوبة المفتوح ابدا .

« ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين »

وفى الآيات بعد ذلك عديد من العبر التى تكشف عن الطبيعة الانسانية من ذلك على سبيل المثال هذه الظاهرة الانسانية العجيبة من ان كل ممنوع مرغوب ، فلا يكاد الانسان يمنع من شىء حتى يتعلق به ، انظر الى اى انسان حولك تجد ان الاغلبية الساحقة تتجاوز ما فى حوزتها وتسيطر عليه من نعم وتتطلع الى ما ليس فى يدها حتى ولو كان دون ما فى يدها بالذات .

فكم من انسان رزق بعدة بنات هن ريحانة الحياة ، يعتبر نفسه فى شقاء لانه لم يرزق بولد ، مع أن البنت قد تكون أكثر حنانا ورحمة وفائدة له ، وتتمتع الأغلبية الساحقة من البشر العاملين بالصحة والعافية فيأكلون جيدا وينامون جيدا ويعملون وبالتالى ينتجون جيدا ، ولكنهم ينصرفون عن هذه النعمة الكبرى (نعمة الصحة)ويتطلعون الى المال ويحسون بالحرمان والشقاء لقلته فى أيديهم وهم لا يعلمون أن بعض أصحاب الملايين قد يحسدهم على ما هم فيه من نعمة الصحة حتى لقد يصل الأمر به انه على استعداد ان يبادلهم المال بالصحة لولا ان هذه الأمور ليست فى يد البشر ، وهذا هو شأن الانسان ، اى انسان سرعان ما يتطلع لما ليس فى يده ، ويزهد فيما هو ملكه وتحت سلطانه .

هذه الظاهرة الانسانية العامة هو ما تكشف عنه هذه الآية ، واننا جميعا قد ورثنا أبانا آدم فى هذه الغريزة فها هو والدنا الأول يسكنه الله الجنة بكل ما فيها من خيرات ونعم ولابد انه كان فيها من الأشجار المثمرة بكل أنواع الثمر ،وحذره الله هو وزوجه من شجرة واحدة ، واحدة فقط — وذلك ليبتليه ويجرى قضاءه المقدر ،فاذا بآدم وزوجه يزهدان فى كل النعيم الذى هم غارقان فيه حتى الأذقان (وكلا منها رغدا حيث شئتما) .

ويقدمان على عصيان الأمر الالهى فيأكلان من الشجرة التى نهاهما الله عن مجرد الاقتراب منها وذلك سدا للذريعة وزيادة فى التشديد والتغليظ ،بل وزاد على ذلك ان نبههما انهما اذا اقدما على هذه المعصية فسيكونا (من الظالمين) أى ظالمين لأنفسهما « فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه » .

ولم يقدم آدم وزوجه على مخالفة النهى الالهى الا تحت تأثير الشيطان ، وهكذا حق عليهما الخسران والبوار اذ اخرجا من النعيم المقيم .

وعندنا ان هذا هو الهدف الاعظم من هذه القصة وهو تحذير الانسان من وسوسة الشيطان الذى آلى على نفسه أن يدمر نعيم الانسان باخراجه منه ، وكل انسان فى نعيم ما بقى يطيع أوامر الله ، ولا عمل للشيطان الا أن يخرج الانسان ، أى انسان من نعيم الطاعة الى جحيم العصيان .

« وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو »

واصدر الله سبحانه وتعالى امره ببدء الحياةوتعمير الانسان للكون ، ولكنه حذر الانسان من ان الشيطان سيبقى عدوا لآدم وزوجه وذريتهمامن بعده ، فعلى آدم ونسله ان يحـذروا من الشـيطان ويتخـذوه عدوا لهم فلا يسـتمعوالوسوسته ولا يقعوا فى احابيله .

« ولكم فى الأرض مستقر ومتاع الى حين »

وهكذا بدأ الوجود الانسانى على الأرض ــ الانسان يمثل الخير يقابله الشيطان ممثلا للشر ويدور بينهما الصراع على هذا الكوكب الى حين قيام الساعة ، ولكن لما كان كل شىء مقدرا فى علم الله منذ الأزل ، وكان حلول آدم فى الأرضلتعميرها هو الهدف من خلقه ، ولما كان كل ما حدث انما هو تعليم من الله انه يجرى مشيئتهمن خلال الأسباب والمسببات فقد شاءت ارادته ان يبدأ حياته على الأرض طاهرا وليبدأ اللهدرسه الأول لتعليمنا ، وهو ان اى معصية وان عظمت ، فان رحمة الله اعظم وما على الانسان الا ان يتوب فيتوب الله عليه .

« فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه انه هو التواب الرحيم »

وكيفية التلقى ندع علمها لله سبحانه وتعالىوالمهم انه تعلم كيف يتوب الى الله ، والمفسرون على خلاف كما هى العادة حول نص كلمـاتالتوبة وقد نص القرآن فى سورة الأعراف على قولهما معا وهو « قالا ربنا ظلمنا انفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخـاسرين » وتاب الله عليهما كما جرى فى سابق علمه ليبدأ آدم حياته على الأرض بصفحة بيضاء نقية ذلك لأن (التائب من الذنب كمن لا ذنب له) ووصف الله نفسه كبشارة لآدم وذريته من بعده انه هو التواب الرحيم وقد استعمل الله كلمة « التواب »وهى على طريقة العرب فى صيغ المبالغة ليثبت فى نفس آدم ــ ونحن من بعده ــ انه كثير التوبة .

لفت نظر :

وقد يفوت الكثيرين ان هذه الحقيقة وهى انالله تاب على آدم ، تؤلف مبدأ هاما فى تاريخ البشرية وها هو القرآن يوضح لنا هذه الحقيقةفما كان الله لياخذ الأبناء بجريرة الآباء وقد قرر ذلك فى قاعدة اصولية وهى شخصية العقـوبةبمعنى أن لا يعاقب مرتكب الجريمـة او المخالفة بصفة عامة الا من ارتكبها بالذات وذلك بقـولهتعالى « الا تزر وازرة وزر اخرى » وقد لا يعرف الكثيرون ان هذا المبدأ الذى يبدو لنا اليوم وكانهاحدى البديهيـات لم تعرفه اوربا الا فى اخريات القرن الثـامن عشر اى بعـد اندلاع الثـورةالفرنسية واعلانها حقوق الانسان ، فقد كانت القاعدة تجرى قبل ذلك ، ان العقـاب على اىجريمة او مخالفة يتناول غير شخص مرتكبها ، ومن هنا تتجلى لك عظمة الاسلام وهو يقرر هذاالمبدأ الأساسى من ان وزر الجريمة انما ينحصر فى شخص مرتكبها وهو هنا فى هذه الآية التىنحن بصددها يؤصل هذه القاعدة منذ آدم ، فهو اذا كان قد اخطأ فغير صحيح ان ابناءه جميعا قد وقعـوا فى الخطيئة ، لأن الله تاب عليـه ، ولأنه لا تزر وازرة وزر اخرى وهكذا يتضح لنـاكيف ان بضعة الفاظ فى القرآن قد نتصور انهـا شىء عادى من حيث كون آدم قد اخطأ ثم استغفرفتاب الله عليه ، والله تعالى اعلم .

مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٩﴾ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَآمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ

« قلنا اهبطوا منها جميعا فاما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . والذين كفروا وكذبوا بآياتنا اولئك اصحاب النار هم فيها خالدون » .

آدم يبدأ الحياة على الأرض بعد تلقينه الدرس :

وهكذا بعد ان خلق الله آدم وعلمه ثم سلحه بالتجربة ، واعظم العلم هو ما جاء ثمرة التجربة ، والتجربة هنا ، هى وقوع آدم فى الخطا بمخالفته اوامر الله وقد عاين ودفع ثمن مخالفته خروجه من الجنة وحلوله دار التعب والالم (الدنيا) وبعد ان تحقق آدم مما يؤدى اليه عصيان الله لولا ان تاب الله عليه ، وفتح الله لآدم وزوجه وذريته من بعدهما ، صفحة جديدة يكافأ فيها المحسن بالايمان والعمل الصالح بالعودة الى الجنة ، اما المسىء بالكفر والمعصية وارتكاب ضروب الشر فسيكون جزاؤه هذه المرة ان يصلى بنار جهنم ويتجرع عذابها الى ابد الآبدين .

على ان الله هذه المرة لفرط رحمته بالبشر شاءت ارادته ان يرشدهم من حين لآخر الى طريقه المستقيم الذى يرضى عنه وذلك على لسان نفر من البشر يبعث بهم من حين لآخر ليدلوا البشر على الطريق .

« فاما يأتينكم منى هدى »

اى رسل الله وكتبه وآياته « فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » اى يوم القيامة « والذين كفروا وكذبوا بآياتنا اولئك اصحاب النار هم فيها خالدون » .

مفردات :

بنو اسرائيل : هم اليهود ، وقد اطلق عليهم اسم بنى اسرائيل نسبة الى جدهم الذى تفرعوا منه وهو اسرائيل اى سيدنا يعقوب الذى رزق اثنا عشر ولدا كان كل واحد منهم راس قبيلة من قبائل اليهود الاثنى عشر . وكلمة اسرائيل مؤلفة من مقطعين « اسرا » و « ايل » وهناك اجماع على ان « ايل » معناها (الله) بالعبرية فقد نصت التوراة نفسها على ذلك ، اما كلمة

« اسرا » فلم نجد اتفاقا على معناها الدقيق ، فقيل انها تعنى « عبد » فيكون معناها بالكامل « عبد الله » وقيل بل معناها « الصفوة » وقيل « العهد » وقيل غير ذلك ، ولسنا فى صـــدد التحقيق اللفظى ، فكل هذه المعانى تلتقى عندمعنى تكريم « يعقوب » .

« نعمة » النعمة هنا اسم جنس فهى مفردة بمعنى الجمع ، جاء فى القـــرآن الكريم « وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها » اى نعمه .

اوفوا بعهدى : اى ادوا التكاليف التى عهدت بها اليكم وافية ووفى الشىء يفى اى تم ولم ينقص منه شىء .

والوفاء بالعهد هو تنفيذه والقيام به وجاء فى القرآن الكريم « اوفوا بعهد الله » وغيره كثير فى القرآن .

فارهبون : اى فخافون .

مصدقا لمـــا معكم : اى التوراة .

ولا تلبسوا الحق بالباطل : اى ولا تخلطوه به.

البر : التوسع فى الخير . وقيل كلمة جامعة لكل صفات الخير .

لكبيرة : اى ثقيلة .

الخاشعين : الخاضعين .

يظنون : الجمهور على انها بمعنى يعتقدون ، وهناك من يبقيها على معناها الظاهر اى الذين « يرجحون » .

ملاقوا ربهم : اى راجعون اليـــه فى الآخرة ليحاسبهم على اعمالهم .

مناقشة القرآن الكريم لليهود :

بهـــذه الآيات الكريمة نبدأ فى اســـتعراض ما تضمنه القرآن الكريم من نقاش وحوار وتانيب لليهـــود ، بل وتعنيف ، ردا على مروقـــهم ، وانحرافهم ، ولا نريد ان نتعجل القول ، فنقف عند حدود الآيات ومدلولها فهو هنا يذكرهم بالنعم الكبرى التى اســـبغها عليهم ويطالبهم بحقـــه عليهم باعتبارهم من نســـل آدم الذى خلقـــه بيـــده وكرمه وجعله خليفتـــه فى الأرض اولا ، وباعتبارهم من نسل اسرائيل ثانيا ، فقد دخلوا الى مصر وهم لا يزيدون عن كونهم اسرة لاسرائيل (يعقوب) على ما يحدثنا القرآن ، وخرجـــوا منها وقد اصبحوا يعدون بالألوف ، وسيرد علينا باذن الله فى الآيات القادمة تفاصيل هذه النعم .

« يا بنى اسرائيل اذكروا نعمتى التى انعمت عليـــكم واوفوا بعهـــدى اوف بعهـــدكم واياى فارهبون » .

اى تذكروا نعمتى عليكم بالشكر لا بالكفر .

والعهد : الوصية .

وقد جرى الخلاف بين المفسرين حول ماهية العهد بين الله وبين بنى اسرائيل ، وقد ذهبوا فيه مذاهب ، فقال بعض المفسرين ان المقصود به هو الايمان بسيدنا محمد ، وقالوا غير ذلك ، وعندنا ان القرآن يفسر بعضه بعضا ، وما يشير اليه فى بعض الآيات على سبيل الاجمال ، فهو يفصله فى آيات اخرى ، جاء فى القرآن الكريم : « ولقد اخذ الله ميثاق بنى اسرائيل وبعثنا منهم اثنى عشر نقيبا وقال الله انى معكم لئن اقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلى وعزرتموهم واقرضتم الله قرضا حسنا لأكفرن عنكم سيئاتكم ولأدخلنكم جنات تجرى من تحتها الأنهار » .

وهذا نص يغنى عن كل حدس وتخمين فى ماهية العهد الذى اخذه الله على بنى اسرائيل ، وسيرد علينا بنصه تقريبا مفرقا فى اكثر من آية ، وهو ذات العهد الذى اخذه الله على آدم ونسله من بعده على ما مر بنا ، اى انه ليس شيئا خاصا باليهود ، غير انه من حيث الترتيب الزمنى بعث الله الأنبياء والرسل من صفوف بنى اسرائيل . ولعل اقدم رسالة سماوية معروفة ومكتوبة يتداولها البشر هى التوراة الكتاب المنزل على موسى عليه السلام ، (والقرآن يحدثنا ان يد التحريف قد امتدت اليها) وكما تعطى هذه الاولوية لليهود ميزة لا فضل لهم فيها ، وهى السبق فهى تضع فى اعناقهم مسئولية مضاعفة ، ان يكونوا دعاة فى كل زمان ومكان للحق ، والتوحيد والعبادة الحقة ، ولكنا سنرى ان اليهود كانوا على عكس ذلك تماما ، حتى لقد ذهبوا الى الحد الذى تحالفوا فيه مع عبدة الاصنام والأوثان ضد هذا النور الذى جاء به سيدنا محمد ، والذى جلا به هذا الموجود فى ايديهم على ما تنص عليه الآية التالية .

— وآمنوا بما انزلت مصدقا لما معكم ولا تكونوا اول كافر به ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا واياى فاتقون » .

وجاء القرآن الكريم يدعو لنفس الجوهر الذى دعت اليه التوراة ، وهو توحيد الخالق وتنزيهه عن الشبيه والولد ، واثر ذلك على التعامل بين البشر ، بحيث يكون العدل هو الاساس وقيام الروابط الانسانية على مكارم الأخلاق ، وهذه كلها لب التوراة ، بل لب كل رسالة سماوية ومن هنا فالقرآن يطالب اليهود بالايمان بسيدنا محمد وبرسالته وبما جاء به ، وهو بعث لما دعا اليه موسى عليه السلام .

« ولا تكونوا اول كافر به »

والمعنى اول كافر به من أهل الكتاب وحملة الرسالات السماوية ، فقد نزلت هذه الآيات التى توجه الحديث الى بنى اسرائيل لدى وصول الرسول صلوات الله عليه الى المدينة ، وقد كان يقيم بها وحولها وبالقرب منها عدة مجتمعات يهودية ولجأوا الى شمال الحجاز بعد تشريدهم للمرة الأخيرة على يد الرومان ، فكان ممن قطنوا فى المدينة وفى ضواحيها بنو قينقاع وبنو قريظة ، وبنو النضير ، وأهل خيبر ، وقبل أن يبعث النبى صلى الله عليه وسلم ، كان اليهود يبشرون بمقدمه ، ويستفتحون به على العرب ، بمعنى انهم كانوا يفاخرونهم بقرب ظهور نبى يدعو الى

التوحيد وهجر عبادة الاصنام ، وأن اليهـودسوف يتبعونه ويتفوقون بذلك على العرب ، فلما ان بعث النبى بالفعل وترامت اخباره الى يثرب ،وقفوا منه موقف الحياد المشبع بالعطف عليـه ما بقى ضعيفا مضطهدا ، فلمـا ان هاجر الى المدينة والتف حوله الانصار وهم سكان المدينة ، والتقى على حب الرسول ومتابعته القبيلتـان المتناحرتان والمتخاصمتان ابدا ، وهما « الاوس والخزرج » اضر ذلك باليهود الذين كانوا يعيشون ويربحون من هذا النزاع ، فاذا بهم ينقلبون على سيدنا محمد ، ويكفرون بما جاء به ، وينكرون نبوته لتعارضها مع مصلحتهم الدنيوية وهو عين ما فعلوه من قبل مع السيد المسيح ، فقبل بعثته كانوا يبشرون به ، فلمـا ان جـاء كفروا به ، وسعوا الى حتفه .

نص من التوراة :

وبالرغم من ان التوراة التى توجد بين ايدينا قد امتدت اليها يد التحريف ، فلا زالت تحمل فى نصوصها اشارات الى النبى الذى سوف يبعث من العرب ، فهى تحدثنـا بالتفصيل عن قصـة زواج سيدنا ابراهيم بهاجر المصرية ، وكيف رزق منها بابنه اسماعيل (جد العرب المسـتعربة) ووعد الله لابراهيم ان سيجعل نسل اسماعيل امة ، ثم يجىء النص الصريح فى سفر « التثنية » من انه سيبعث من هذه الامة نبى ، وبعد ان يقول الرب لموسى « يقيم لك الرب الهك نبيا من بينكم » .

فانه يقول له بعد ذلك بالنص :

« اقيم لهم نبيا من بين اخوتهم مثلك والقى كلامى فى فيه فيخاطبهم بجميع ما آمره به . واى انسان لم يطع كلامى الذى يتكلم به باسمى فانى احاسبه عليه » (سفر التثنية الثـامن عشر) وانت ترى أن هذا كلام صريح وقاطع ، ومع ذلك فقد انكره اليهود ، بعد ان كانوا يبشرون به عندما تعارض مع مصالحهم الدنيوية ، وهو ما يذكره القرآن بانه ثمن بخس .

« ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا »

اى ان كل اعراض الدنيا ، من مال وعز وجاه ورئاسة ، ليس الا متاع الغرور ، ولا يقـاس بما يعود به رضوان الله من المغـانم والنعيم الباقى الخالد الى ابد الآبدين ، هذا هو المعنى الذى نستخلصه من سياق الآيات ، ولكن بعض المفسرين اتخذوا من هذه الآية اساسـا لبحث مستفيض حول عدم جواز تقاضى اى اجر على تلاوة القرآن وتعليمه ، ونحن نميل الى الراى القائل ان لا علاقة لهذه الآية بهذا المعنى .

« واياى فاتقـون »

اى اتقـوا غضبى بالايمـان واتباع الحـق والاعراض عن متاع الدنيا .

« ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وانتم تعلمون » .

طابع العصر :

واذا كان كل تفسير للقرآن الـكريم لا يمكن الا ان يحمل طابع عصره ، فقد شاءت ارادة الله ان يجىء تفسير هذه الآيات فى وقت نفتحت فيه تفضية اليهود والمسلمين مرة اخرى بعد اربعة عشر قرنا ، فاذا هم كما وصفهم القرآن الكريم ولا عجب فى ذلك فهو تنزيل من لدن الـسميع العليم .

« الا يعلم من خلق » ففى هذه الآية التى نحن بصددها ، كما فى كثير غيرها ، يقرر لنا القرآن الكريم اسلوب اليهود فى التعامل فى معرض نهيهم عن عمل ذلك ولكن اليهود لم ينتهوا كما تقطع بذلك أحداث السيرة النبوية ، ولم يعدلوا ابداعن هذا الاسلوب ، وهو أن يخلطوا الحق بالباطل عن عمد وعلم ، انهم لا يمكن ان يقولوا الحق ابدا ولابد ان يزيفوا الحقيقة بالاضافة اليها حينا ، وبالحذف منها حينا آخر والمهم هو تسخيركل شىء لتحقيق مآربهم العدوانية .

وتكتموا الحق : وكما تزيف الحقيقة بالايجاب عن طريق الاضافة والحذف والخلط ، فهى تزيف أيضا عن طريق السلب وذلك بكتمانها وعدم التصريح بها ، وكلا الأمرين من الجرائم التى يمارسها اليهود فى كل زمان ومكان .

وانتم تعلمون : اى انهم لا يستطيعون أن يعتذروا بجهلهم ، فهم انما يعملون ما يعملون عن علم وبالتالى عن عمد .

« وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين »

العمل هو مظهر الايمان :

كما انه لا غناء للجسد عن الروح ولا غناءللروح عن الجسد فكذلك الايمان والعمل الصالح كل منهما دليل الآخر وآيته فلا يكمل ايمان بغيرعمل ، كما لا يصلح عمل بغير ايمان ، فبعد أن طالب القرآن اليهود بالايمان بالقرآن الذى هومصدقا لما جاء فى التوراة ويهيمن عليه ، فقد طالبهم بكل ما هو مطلوب من كل مكلف يؤمن برسالة سيدنا محمد ، وهو أن يصلوا صلاة المسلمين وان يزكوا أموالهم بدفع الفريضة المستحقة على كل صنوف الأموال .

والأصل فى الصلاة من الناحية اللغوية العربيةعلى أرجح الآراء انها تعنى الدعاء ، ولكنها متى ذكرت فى القرآن بعد لفظ الاقامة وما يشتق منهاأصبحت تعنى على وجه التحقيق العبادة المعروفة مع التنبيه الى ان المقصود هو توفيتها بكلحقائقها لا الاتيان بهيئتها فقط كما فى قوله : « ولا يأتون الصلاة الا وهم كسالى » فعندما يأمر القرآن الكريم اليهود « باقامة الصلاة » فهذا يعنى على وجه التحقيق انه يأمرهم بالصلاةالاسلامية وليس بصلاتهم التى اعتادوا أن يمارسوها ، يقطع بذلك الأمر التالى « واركعوامع الراكعين » وليس فى صلاة اليهود الخاصة ركوع .

« وآتوا الزكاة »

واذا كان الله سبحانه وتعالى قد جعل الصلاةأول مظاهر الايمان باعتبارها صلة العبد بربه ، فقد شفعها بمجرد أن شرع فريضة الزكاةبوجوب ايتاء الزكاة اى اعطاء الزكاة .

والأصل اللغوى لكلمة زكاة من زكا الشىءاذا نما وزاد يقال : زكا الزرع والمال يزكو اذا كثر وزاد ، وقيل أصلها الثناء الجميل ومنه زكىالقاضى الشاهد ، وقيل الزكاة مأخوذة من التطهير ولكنها عندما تقرن بالصلاة وتكون مسبوقة بكلمة « ايتاء » يتحدد معناها بالفريضة الدينية التى هى ركن من أركان الاسلام وان كان بعضالفقهاء قد ذهب الى أن المقصود بها هو زكاة الفطر ولكننا نأخذ برأى الجمهور على أنها الزكاةالمفروضة .

واركعوا مع الراكعين : الركوع فى اللغة الانحناء فى الشخص ، والمقصود هنا هو الركوع على الهيئة المعينة فى الصلاة باعتباره من اركانها ونحن نرى ان هذه الآية هى التى تحدد ان القرآن دعا اليهود الى اعتناق الاسلام ومزاولة شعائره مع سائر المسلمين فى المدينة .

وقد اتخذ بعض المفسرين هذه الآية اساساً لمباحثهم فى صلاة الجماعة وكيف تفضل صلاة الفرد سبعة وعشرين مرة ، ولكن من رأينا ان الآية هنا وردت فى سياق دعوة اليهود الى الدخول فيما دخلت فيه الجماعة ، باعتبارهم اولى الناس باتباعه لأنه لم يخرج عن كونه مصدقاً لما معهم .

« اتأمرون الناس بالبر وتنسون انفسكم وانتم تتلون الكتاب افلا تعقلون » :

القدوة اساس كل اصلاح :

تصل بنا هذه الآية الكريمة الى احد المآخذ او بالأحرى « المهلكات » التى يأخذها القرآن الكريم على اليهود المعاصرين لسيدنا محمد حسبما يفهم من السياق ، ولكن الآية كما هو الشأن فى القرآن موجهة الى البشر فى كل زمان ومكان وحثهم على ان تطابق اعمالهم اقوالهم والا فقدت هذه الاقوال كل فاعليتها من ناحية ، واستحق من يفعل ذلك كل مقت الله وغضبه جاء فى القرآن الكريم :

« يا ايها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون . كبر مقتا عند الله ان تقولوا ما لا تفعلون » .

وتضع هذه الآيات وامثالها ايدينا على سر نجاح الدعاة والمصلحين وفشل المزيفين منهم وهم الذين يتشدقون بالكلمات الضخمة والبراقة التى تدعو الى كل صنوف الخير والمعروف وذلك فى الوقت الذى يكونون هم ابعد ما يكونون فى حقيقة الأمر ، عما يدعون اليه ، وهكذا يتحدثون عن فشل دعوتهم ويلقون باللوم على الناس وانهم لم يعودوا يستمعون للوعظ والارشاد ، ان الناس لا تستمع لمن لا يكون هو اول عامل لما يدعو اليه ، وهذا هو سر القدوة والزعامة الحقة ، انك مهما دعوت الى الشجاعة فلن يستمع اليك الناس ، ولكن بحسبك ان تكون شجاعا لكى يتشجع الناس بك ، وربما فاتوك بعد ذلك بالشجاعة ، وهذا هو ما يحدث دائما فى ميدان المعارك وما يفرق به بين قائد وقائد ، فالقائد الشجاع سرعان ما تسرى شجاعته الى جنوده والعكس بالعكس ، لقد كفى فى احدى معاركنا الفاصلة فى القرن التاسع عشر أن يفر القائد من ميدان المعركة ، لكى يفر كل من فيها ، وتفسير ذلك ان الأغلبية الساحقة من البشر تعمل من خلال القدوة وتقليد من تحبه وتأتم به ، وهى لا تتبع الأقوال بقدر ما تقلد الأعمال .

وفى تاريخ السيرة النبوية موقف رائع يؤكد هذه الحقيقة من اتباع الناس القدوة عندما يعمل بأكثر مما ينصاعون له احيانا عندما يأمر ، كان ذلك عقب ابرام صلح الحديبية مما فصلناه بمناسبة سورة الفتح فقد امر رسول الله جماعة المسلمين بعد ابرام الصلح مع المشركين ان يتحللوا من احرامهم تمهيدا لعودتهم الى المدينة ، ولكن رغم امر الرسول الصريح ، فان الصحابة ظلوا وقوفا جامدين لا يتحركون ، وغضب سيدنا محمد على ما تروى كتب السيرة ودخل خيمته وهو غاضب ولكن زوجته ام المؤمنين « ام سلمة » وكانت قد فهمت حقيقة ما جرى هونت عليه ما حدث ، وطلبت منه ان يخرج على المسلمين ثانية وان يتحلل هو من احرامه (يحلق رأسه) وعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم بمشورة زوجته فحلق رأسه فلم يكد يفعل ، حتى تواثب المسلمون جميعا يفعلون مثل فعله لم يشذ منهم واحد فالقدوة هى سر الزعامة والقيادة ، وهناك الكثير من الاحاديث النبوية التى تظهر لنا ما اعده الله من العذاب لهؤلاء الذين يقولون مالا يفعلون .

جاء فى صحيح مسلم :

« يؤتى بالرجل يوم القيامة فيلقى فى النـــارفتندلق اقتاب بطنه (أى امعاؤه) فيدور بها كما يدور الحمار بالرحى ، فيجتمع اليه أهل النـــارفيقولون : يا فلان مالك الم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ؟ فيقول : بلى قد كنت آمر بالمعروف و لاآتيه وانهى عن المنكر وآتيه » .

وآخر ما أريد أن اقوله فى هذا الباب أبياتا من الشعر كانوا يحفظوننا اياها ونحن صغار فعسى ان يكونوا يفعلون ذلك حتى الآن .

يقول شاعر عربى حكيم :

لا تنـــه عن خلـــق وتاتى مثـــله
عـــار عليـــك اذا فعلـــت عظيـــم
ابدا بنفســـك فانههـــا عن غيهـــا
فاذا انتـــهت عنـــه فلنت حـــــكيم
وهناك يقبـــل ان وعظت ويقتـــدى
بالقـــول منـــك وينفـــع التعليـــم

وعلى ضـــوء هذه المعانى يجب ان نفهم هـــذا الخطاب الموجه الى اليهود وهو اليوم موجه الى كل الناس .

« أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم »

أى وتتركون أنفسكم . والأنفس جمع نفس ، وهى هنا تعنى « الذات » .

« وأنتم تتلون الكتاب »

توبيخ شديد وتعظيم لاثم العـــالم ، ذلك أن الجاهل قد يكون له عذر من جهله ، اما العالم فلا عذر له وهو مبدأ أساسى فى كل الشرائع حيث يعتبر العلم بما يرتكبه الانسان هو ركن الجريمة، وهو مايوبخ به القرآن اليهود، فيقول كيف تفعلون ما تفعلون من عدم ايمانكم بسيدنا محمد وبالاسلام مع أنكم تتلون الكتاب ، وهو هنا «التوراة» وفيها مصداق نبوة سيدنا محمد ورسالة الحق التى جاء بها ، وقيل ان يهود المدينة لأول مقدم ســيدنا محمد عليها ، لم يكونوا يجرؤون على انكار ما فى التوراة مما يثبت رسالة سيدنا محمد فــكانوا يقولونها لكل من سألهم ، ولكنهم فى قرارة انفسهم كانوا يضمرون الانكار والعداء .

« أفلا تعقلون »

الأصل فى العقل المنع ، ومنه عقال البعير أى منعه من الحركة ، ومنه يقال للحصن : معقـــل لانه يمنع العدو والمعنى هنا ، أفلا تمنعون أنفسكم من هذه الحالة التى ترديكم .

وقد أصبح العقل هو قوة التمييز واشتق منهـــا « التعقل » واصبحت تستخدم بهذا المعنى اى « التمييـــيز » ويكون معنى « **أفلا تعقـــلون** » أى أفلا تميزون بين ما ينفعكم ويضركم وهى كلهـــا بمعنى متقارب .

أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَوٰةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِىَ الَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾

« واستعينوا بالصبر والصلاة وانها لكبيرة الا على الخاشعين » :

وتمضى الآيات الكريمة فى رسم طريق النجاح والفلاح فى هذه الحياة الدنيا ، والحديث وان كان كما يقتضى السياق موجها الى اليهود المعاصرين لسيدنا محمد فقد جرى كما قدمنا بصيغة العموم للبشر فى كل زمان ومكان وذلك اظهر ما يكون فى هذه الآية من الدعوة الى الصبر ، وقد تصور بعض قدامى المفسرين ان الصبر هنا كناية عن فريضة الصوم ، حيث اشارت الآيات السابقة الى الايمان بالله وبسيدنا محمد واقامة الصلاة وايتاء الزكاة ، فراوا ان يكون المقصود بالصبر هو الصوم ليكمل الركن الرابع من اركان الاسلام ، ولكننا نؤثر أن نبقى كلمة **« الصبر »** على معناها العام خاصة وقد تكرر ذكر الكلمة مقرونة بذكر الصلاة فى اكثر من موضع .

« يا ايها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة ان الله مع الصابرين »

والصبر لغة معناه الحبس ، يقال صبرت نفسى على الشىء ، اى حبستها عن هذا الشىء ، ويقال قتل فلان صبرا ، اى حبس حتى هلك ، ولكن عندما نطلق الكلمة فهى تعنى فضيلة الصبر وهى الفضيلة التى تعتبر من اخص خصائص الدعاة والمصلحين وراس كل الانبياء ، والصبر له تعريفات كثيرة وكل ما قيل فى تعريفه يندرج تحته ، ويبقى بعد ذلك مزيد .

فقيل ان الصبر هو جهاد النفس وقمعها عن شهواتها ، وقيل هو ضبط النفس والسيطرة عليها بحيث تحتمل ما تكره انتظارا للفرج وتمتنع عن لذائذها وشهواتها اذا لم تكن من حقها ، وقال البعض الصبر الا تتمنى حالة سوى ما رزقك الله والرضا بما قضى به الله عليك ، وقال سيدنا على كرم الله وجهه : الصبر من الايمان بمنزلة الراس من الجسد ، وكل ذلك وكثير غيره داخل كما قدمنا فى مفهوم الصبر والذى لا شك فيه ان القرآن ارتفع بمرتبة الصبر والصابرين الى اعلى الدرجات ، فقرر انه سبحانه وتعالى مع الصابرين ووعد الصابرين بالحسنى .

« وما يلقاها الا الذين صبروا » وحيث قال لنا ان الحسنة بعشر امثالها قال لنا : « انما يوفى الصابرون اجرهم بغير حساب » الزمر . وهى تجربة يمارسها ويتذوقها المؤمنون المجاهدون فى سبيل الله حيث يجدون فى الصلاة متنفسا لكروبهم ولما قد يقعون فيه من ضيق .

« وانها لكبيرة الا على الخاشعين »

وانها (اى الصلاة) لكبيرة اى ثقيلة اوصعبة ، وقال البعض ان الضمير فى « انها » يعود على كل ما سبق من التكاليف التى كلف الله بها بنى اسرائيل ولكننا نرجح عودة الضمير على الصلاة فهى تكون ثقيلة وتكون صعبة الا « على الخاشعين » جاء فى التنزيل (قد افلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون) فدل ذلك على اقتران الخشوع بالصلاة . وخشعت الأصوات اى سكتت وخشع ببصره اى اخفضه ولكنها فى العبادة تعنى حالة متكاملة من التواضع ، وقد عرفوا الخشوع بانه حالة نفسية يظهر منها فى الجوارح سكون وتواضع .

وقال قتادة : الخشوع فى القلب وهو الخوف وغض البصر فى الصلاة والاجماع منعقد على أن تكلف الخشوع بالتباكى وطأطأة الراس ، مذموم شرعا وذلك لما نقل عن سيدنا عمر بن الخطاب انه زجر احد المصلين كان منكسا راسه بقوله :يا هذا ارفع راسك فان الخشوع لا يزيد على ما فى القلب وفى رواية حفظتها منذ الصغر « ارفع راسك فالتقوى فى الصدر » .

« الذين يظنون انهم ملاقوا ربهم وانهم اليه راجعون »

الجمهور على أن الظن هنا بمعنى اليقين والاعتقاد كما قدمنا على أن قلة قالوا بأن الظن هنا فى بابه (أى بمعناه المتعارف) وهو الشك مع ميل الى احد معتقديه جاء فى تفسير الوسيط لأشياخنا علماء الأزهر بعد أن أخذوا برأى الجمهور من أن الظن بمعنى التيقن : وقيل الظن بمعناه المعروف ، وهو ادراك الطرف الأرجح . وقالوا فى موضع آخر ويكون الظن هنا بملاقاة ثواب الله والمعنى العام للآية هو احد سمات المؤمنين بأنهم يؤمنون بالغيب ، والبعث والنشور بعد الموت ، وانهم الى ربهم راجعون ليحاسبوا على ما قدمت ايديهم .

« وانى فضلتكم على العالمين » : اى عالمى ذلك الزمان .

« واتقوا يوما » : أمر يحمل فى ثناياه الوعيد ـ والتقوى هى الاحتراز ويوما اى يوم القيامة .

« لا تجزى نفس عن نفس شيئا »

اى لا تؤخذ نفس بذنب أخرى ولا تدفع عنها شيئا .

ولا يقبل منها شفاعة

الشفاعة مأخوذة من الشفع وهو الضم ـ اى ضم واحد الى آخر ليصيرا اثنين ، فالشفاعة هى ضم غيرك الى جاهك ووسيلتك .

« ولا يؤخذ منها عدل » اى فداء .

« ولا هم ينصرون » اى يعانون والنصر العون ــ والأنصار الأعوان .

« واذ نجيناكم من آل فرعون » الأصل اللغوى لكلمة نجيناكم اى القيناكم على نجوة من الأرض وهى ما ارتفع منها ، ثم سمى كل فائز ناجيا والناجى هو كل من خرج من ضيق الى سعة .

وآل فرعون : اى من تابعه على مسلكه من اهله وقومه وفرعون ، فى الاصل اسم لمن حكم مصر ، ثم اصبحت تطلق اصطلاحا على الحاكم الطاغية او الباغى فى تجبر وصلف جاء فى السيرة المحمدية ان ابا جهل لقب « بفرعون هذه الأمة »وهذا دليل على أن لفرعون « الطاغى » شبيه على مر الزمن .

« يسومونكم سوء العذاب »

الأصل فى السوم : اى الدوام ومنه سائمة الغنم ، لمداومتها الرعى ، ومعنى كلمة « يسومونكم » فى هذا الموضع يلزمونكم اياها ويذيقونكم « سوء العذاب » اى اشد العذاب .

« يذبحون ابناءكم »

الأصل اللغوى لكلمة « الذبح » اى الشق وهى اصطلاحا تعنى ازهاق الروح بفصل الراس عن الجسد ، وهو ما يجوز ان يكون مقصودا هنا على وجه التخصيص تصويرا « لسوء العذاب » أو أن يكون معناها : يقتلون ابناءكم الذكور .

« ويستحيون نساءكم »

اى يبقوهن أحياء .

« وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم »

البلاء بمعنى الاختبار وهو كما يكون بالشر يكون بالخير ويرى البعض انها هنا تعنى المحنة التى تعرض لها اليهود ، بينما يرى البعض الآخر انها هنا بمعنيها انها الاختبار فى وقت الشدة واختبار كذلك لمعرفة مدى تقدير النعمة نعمة نجاة اليهود من فرعون .

وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن

« واذ فرقنا بكم البحـــر »

اى فلقنا وفصلنا واصل الفرق ، الفصل ومنه الفرقان لانه يفرق بين الحق والباطل اى يفصل ومنه « يوم الفرقان » وهو يوم بدر فصل فيـــه الله سبحانه وتعالى بين الحق والباطل .

« فأنجيناكم واغرقنا آل فرعون وانتم تنظرون» اى فانقذناكم واهلكنا عدوكم .

« وانتم تنظـــرون »

اى وانتم تشـــهدون بعيونكم هـــذه المعجزة الربانية .

« واذ واعدنا موسى اربعين ليلة ثم اتخذتم العجل من بعده وانتم ظالمون» اى انه برغم رؤيتكم هذه المعجزة الربانية فقد كان شكركم لفاعل هذه النعمة الكبرى أن موسى لا يكاد يذهب الى الله فى الموعد المحـــدد (اربعين ليلة) والمـــكان المخصص ليعطيه التوراة حتى انقلبتم على اعقابكم كفارا جاحدين « فاتخذتم العجل » اى عبدتموه من دون الله « وانتم ظالمون » اى أنكم بهذا ظلمتم انفسكم وجعلتموها مستحقة للعقاب .

« ثم عفونا عنكم من بعد ذلك لعلكم تشكرون »

اى حين تبتم ، فعلى الرغم من شناعة جرمكم فحين قصدتم الى التوبة فقد تاب الله عليكم «لعلكم تشكرون » .

« واذ آتينا موسى الكتاب والفرقان لعلكم تهتدون »

وبدأ الله مع اليهود صفحة جديدة بعد أن تابوا بأن طلب منهم على لسان موسى ان يتبعوا اوامر الله وينتهوا عن نواهيه كما هى مفصـــلة فى التوراة وقد جرى التساؤل حول المقصود «بالكتاب والفرقان» اهما شيئان أم شىء واحد وهو التوراة بينما راى البعض انها تعنى اشياء اخرى كالآيات التى جرت على يد موسى عليه السلام والله تعالى اعلم فالنص يحتمل المعنيين .

« واذ قال موسى لقومه يا قوم انكم ظلمتم انفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا الى بارئكم »

بارئــكم : اى خالقكم وفى هذه الآية يفصــل القرآن الكريم ما طلبه موسى من قومه ليثبتوا انهم تابوا حقا وصدقا ، فطلب منهم طلبا شديدا .

فاقتلوا انفسكم : اى انه اصدر عليهم حكمــا بالاعدام يتولى تنفيذه فريق منهم (ممن لم يعبدوا العجل) .

« ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم انه هو التواب الرحيم »

كان هذا الحكم الذى اصدره موسى على من عبد العجل من قومه هو السبيل الوحيد للتكفير عن هذه الخطيئة الكبرى والقرآن الكريم لم يحدثنا عن مدى استجابة القوم لهذا الامر الذى اصدره موسى ولكنه حدثنا (وقبل حكايته هذا القول على لسان موسى) انه قد عفا عنهم وبعد ان قرر العفو، ذكر ما قاله موسى لقومه ، وليس هناك ما يمنع فى أن السياق بهذا الاسلوب اريد به اظهــار رحمة الله الواسعة ، فلم يحتج الأمر الى تنفيذ أمر موسى ولكن جمهرة المفسرين يرددون فى هذا الموضع اقوال اليهود فى هذه الواقعة مما يجعلنا بدورنا ننقلها من المصدر الموجود بين ايدينا ونعنى به كتاب العهد القديم ولكننا نقف دائما عند حدود القرآن ، ونمسك عما امسك عن ذكره وهــو هنا حدثنا عن مقولة سيدنا موسى لقومه ولكنه لم يحدثنا عن مدى استجابة بنى اسرائيل لهذا الامر ومما يشرح صدرنا لهذا النظر ان آية العفو قد وردت سابقة وليست لاحقة وليس من حقنا ان نقدم ونؤخر فى معانى آيات القرآن لتطابق ما عند اليهود .

قتــل معنوى :

وقد عثرنا على اقوال لبعض المفسرين إعتبروا أن الامر بالقتــل اريد به القتل المعنوى لا على انه قتل حقيقة ، وقد اخذ اشياخنا علماء الأزهر الذين اضطلعوا بتفسير الوسيط بهذا الراى .

أما نحن فمن رأينا انه ايا كان مقصود سيدنا موسى وهل يريد بقوله قتلا حقيقيا او معنويا فالله اعلم بمراده ، أما نحن فنقف عند حد آياته ، وقد ذكرت لنا الآيات قول سيدنا موسى ولكنها لم تقل مدى استجابة بنى اسرائيل لهذا الأمر فيجب ان نقف عند هذا القدر ، ولما كنا مامورين من ناحية أخرى أن لا نكذب اهل الكتاب ولا نصدقهم (فى نفس الوقت) فيما يقولونه عن تفاصيل لوقائع اشار لها القرآن فنحن نصدع بهذا الأمر فننقل ما يقوله اليهود فى كتابهم المنسوب اليهم دون أن نقع فيما وقع فيه بعض المفسرين عندما اعتبروا ما يرد علينا هو حق لا شبهة فيه ولكنا قبل ذلك نشير الى ما ورد عن قصــة ســيدنا موسى فى القرآن .

قصة سيدنا موسى :

يتضمن القرآن الكريم التفصيل الكامل لقصة سيدنا موسى منذ ولادته وكيف القت به امه فى اليم ، فانتشلته امراة فرعون وتبنته وكيف حرمت عليه المراضع الى ان دلتهم اخته على امه فكانت هى الوحيدة التى رضع منها ، وكيف تربى بعــد ذلك فى بيت فرعون ، ويحدثنا عنه القرآن الكريم بعد أن كبر وكيف ارتكب جريمة قتل هرب على اثرها من مصر حتى جاء ارض مدين وكيف اقام وكيف تزوج الى أن جاء الوقت الذى قــرر فيه العودة الى مصر (بعد مضى المدة) وكيف كلف بالرسالة اثناء الطريق ثم الحديث بعد ذلك عن مواجهته لفرعون وتحديه له بالمعجزات كل ذلك نراه مشارا اليه فى الســور الاولى من القرآن ثم مبسوطا فى الســور المكية وبخاصة فى سور : طه والقصص والأعراف والشعراء وعديد من السور المكية الأخرى كيونس وهود والزخرف والنمــل وغيرها .

فى السور المدنية :

ولكن الحديث عن سيدنا موسى اذا كان يردفى السور المكية على سبيل الوعظ والارشاد للمشركين من ناحية وللتسرية عن سيدنا محمد من ناحية اخرى فقد اصبحت قصة موسى بعد مقدم الرسول الى المدينة واستقراره فى مجتمع كان اليهود يكادون يسيطرون عليه ثقافيا ، لم تعد القضية قضية موسى ولا كيف ولد وتربى وتزوج وبعث فقد كانت السور المكية تضمنت ذلك ، واصبح الجديد فى الموقف هم هؤلاء اليهود الذين يعرفون كل شىء عن سيدنا موسى وتعاليمه ، بل واتخذوا من هذه الحقيقة مبررا لكى لا يتابعوا سيدنا محمدا ادعاء منهم أن متابعتهم لموسى تغنيهم عن متابعة سيدنا محمد والايمان بما أنزل اليه وغرورا واختيالا بأنهم « شعب الله المختار » فنزل القرآن الكريم يحاججهم ويبطل الزور من اقوالهم وخاصة هذه النعمة التى انعم الله بها عليهم عندما بعث سيدنا موسى من بين ظهرانيهم حاملا رسالة التوحيد فاستحقوا بذلك أن يكونوا افضل العالمين ، عالمى ذلك الزمان القديم والمتناهى فى القدم حيث كان تعدد الالهة وعبادة الأوثان هى اساس الاجتماع فعندما يجيىء موسى يبشر هؤلاء اليهود بالتوراة وما تضمنته من توحيد ومحاربة للشرك والوثنية فاليهود أو بالأحرى من تمسك منهم بهذه العبادة الصالحة يستحق أن يكون « افضل العالمين » أما عندما ينحرف اليهود عن هذه الدعوة الحقة بل ويرتدوا الى الوثنية فيعبدون العجل على ما تشير هذه الآية بأنهم يصبحون ملعونين فى الأرض والسماء والقول بغير ذلك يكون كفرا ما بعده كفر .

حكاية الشعب المختار والوثنية :

وان اصرار اليهود على كونهم شعب الله المختار مهما فعلوا وارتكبوا من آثام هو آية معتقدهم الوثنى والذى انحدر اليهم من عصور الوثنية قبل الوف السنين ، حيث كان لكل مدينة الهها الخاص وكانوا هم وحدهم الناس ومن عداهم ليسوا بناس واذا كانت مصر قد سبقت الدنيا كلها بالحضارة فذلك لانها سبقت الدنيا كلها بالوحدة ، فاصبحت الآلهة المحلية مثل (بتاح ورع واخيرا آمون) آلهة لوادى النيل كله شماله وجنوبه ومع ذلك فقد ظل هذا الاله خاصا بالمصريين من دون العالمين فمن لم يكن مصريا لا يستحق شرف العبودية لآمون وعندما نفذ اخناتون الى فكرة توحيد الالوهية وان ليس فى الدنيا كلها سوى اله واحد وهو «آتون» فهو ليس رب مصر فقط ، بل رب سوريا ايضا وبلاد ما بين النهرين اعتبر قوله هذا تحديا وكفرا وقامت عليه قيامة كهنة آمون الذين اطاحوا بملكه ودينه وارتدوا بمصر الى الوثنية الضيقة .

اليهود ورثة الوثنية الفرعونية :

هذه هى التركة الوثنية التى ورثها اليهود عن مصر الفرعونية لطول مكثهم فيها ، فاذا كان موسى قد جاء يحمل رسالة الاله الواحد الذى « لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا احد » فلا باس بذلك شريطة أن يكون هذا الاله خاصا بهم دون غيرهم من العالمين ، فهو شعبه المختار اى انهم هم وحدهم الناس ومن عداهم فليسوا ناسا .

وهذا اللون من التفكير هو تفكير وثنى ممعن فى الوثنية فلا معنى للالوهية الحقة الا ان تكون هى العدل المطلق فالبشر جميعا بعض مخلوقاتهاولا علاقة بينها وبينهم الا الايمان والعمل الصالح ومجازاة كل انسان بما يعمل ان خيرا فخير وان شرا فشر .

تفوق الاسلام على سائر الأديان والمعتقدات :

ومن هنا تتجلى عظمة الاسلام وسر تفوقه على كل ما عرفت البشرية أو يمكن أن تعرف من اديان او عقائد او مذاهب حيث تجعل مرجع الثواب والعقاب الى نوع العمل ، ان كان صالحا او غير صالح فيه خير للناس أو فيه مضرة أو اساءةوذلك بصرف النظر عن الجنس واللون والمركز الاجتماعى فربط الأفضلية بالعمل الصالح والتقوى فيقول للمسلمين على سبيل المثال « كنتم خير أمة اخرجت للناس » ثم يعلل ذلك ويربطه بسبب التفضيل فيقول « تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر » اى اذا توقفتم عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر (الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر : هو الدين كله والصلاح كله) فلا تعودون خير أمة ، وهى قاعدة اساسية من قواعد الدين الاسلامى سنظل نعود اليها ، وسوف تقابلنا اكثر من مرة فى سورة البقرة ولنرجع الى ما كنا بسبيله من ان دعوى اليهود بأنهم شعب الله المختار هى دعوى وثنية انصرفت عنها البشرية بشروق نور التوحيد منذ عشرات القرون فما اعجب ان يظل اقوام يرددونها حتى اليوم .

دحض القرآن لهذه الدعوى :

وفى هذه الآيات التى نحن بصددها يحاور القرآن الكريم اليهود داحضا هذه الدعوى .

« يا بنى اسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وانى فضلتكم على العالمين » .

فتفضيل الله لبنى اسرائيل على معاصريهم من الوثنيين هو نعمة انعمها عليهم فلا يتصورون ان ذلك يعفيهم من مسئولياتهم عن أعمالهم التى سيحاسبون عليها يوم القيامة شأنهم فى ذلك شأن أى انسان آخر .

« واتقوا يوما لا تجزى نفس عن نفس شيئا ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون » .

مسئولية الانسان التى لا مهرب منها :

وتدعو هذه الآية اليهود ، وبالتالى كل البشر الى استحضار ساعة الحساب يوم القيامة ، حيث لا ينفع أحدا الا ايمانه وعمله الصالح فليس ينجى الانسان « أى انسان » جاه أو سلطان أو حسب أو نسب ولا تستطيع كل أموال الدنيا أن تغنى عن الانسان شيئا ، وكل أنصار الدنيا لا يستطيعون أن يدفعوا عن الانسان بعض اهوال يوم القيامة .

حديث الشفاعة والشفعاء :

ولما كانت بعض أوهام اليهود أنه مهما فعلوا فهم ناجون لأن أنبياءهم سوف يشفعون لهم ، فقد بين لهم القرآن الكريم زيف هذا التصور ، فيوم القيامة لا « يقبل منها شفاعة » وحديث الشفاعة حديث مستفيض ، وقد عودنا قراءنا على أن لا نخوض فى هذه المباحث ، ولكننا نكتفى بأن نثبت بعض النصوص القرآنية والأحاديث الصحيحة تاركين لكل قارىء استخلاص ما يطمئن اليه قلبه ، جاء فى القرآن الكريم :

« ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع » .

— فما تنفعهم شفاعة الشافعين .

« ولا يقبل منها شفاعة » .

كما تضمنت آيات اخرى ما يستفاد منها ان الله سبحانه وتعالى يأذن فى بعض الأحوال لبعض المختارين من عباده أن يشفعوا .

« من ذا الذى يشفع عنده الا باذنه » .

« ولا تنفع الشفاعة عنده الا لمن اذن له » .

« ولا يشفعون الا لمن ارتضى » .

وهذه آيات صريحة وقاطعة فى ان الشفاعة لا تكون الا باذن من الله لمن ارتضى من عباده .

الاحاديث النبوية الصحيحة :

— جاء فى صحيح البخارى ، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « اسعد الناس بشفاعتى يوم القيامة من قال لا اله الا الله خالصا من قلبه » .

— وروى احمد والترمذى وابو داود والنسائى عن ابن عباس — رضى الله عنهما — أنه نقل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله « شفاعتى لأهل الكبائر من امتى وقد ورد فى صحيح البخارى فى كتاب التوحيد وفى باب الايمان فى صحيح مسلم ما سوف يقع باذن الله يوم القيامة وكيفية استشفاع سيدنا محمد فى المسلمين فليرجع اليها من يريد البحث والدرس ومن ناحيتنا فسوف نورد نص هذه الأحاديث باذن الله عندما نصل الى آية الكرسى .

ثلاث صور من تاريخ اليهود :

تتحدث الآيات الكريمة بعد ذلك عن ثلاث صور من تاريخ اليهود فى صدر دعوة موسى لهم .

١ — الصورة الاولى عن حياتهم قبل مجىء موسى لانقاذهم وكيف حرص فرعون على أن يستأصل شأفتهم بقتل الذكور منهم خاصة باعتبار أن الذكور هم مصدر التكاثر وذلك فى الوقت الذى يبقون فيه على الاناث اذ لا خطر منهم ، وقد وعدنا أن ننقل ما يقوله اليهود فى وصف هذه الفترة ، حيث سترد علينا آيات كثيرة مماثلة .

٢ — الصورة الثانية صورة فرار بنى اسرائيل من مصر ومتابعة فرعون لهم ثم غرقه ونجاة بنى اسرائيل .

٣ — الصورة الثالثة صورة كفران بنى اسرائيل بهذه النعمة وكيف ان موسى لا يكاد يذهب لملاقاة ربه حتى يعبد اليهود العجل ، مما يحنق موسى عليهم فيأمرهم بهذا الأمر الذى قلنا فيه رأينا وهو طلبه منهم أن يقتلوا انفسهم .

معجزة شق البحر :

وما جاء فى العهد القديم وهو ما يحدثنا عنه القرآن فى غير لبس او غموض ، من أن شق البحر كان معجزة من معجزات موسى عليه السلام حيث أمره الله سبحانه وتعالى بضرب البحر بعصاه ،

فانفلق البحر وظهرت اليابسة فسار عليها بنو اسرائيل ، فلما حاول فرعون أن يدركهم بجيوشه على نفس الطريق انطبق عليهم البحر . ويتصور بعض شباب اليوم انهم قد وصلوا من النضج الى حد يجعلهم فوق تصديق المعجـزات ، ولهـؤلاء الشبان أقول أن ما يتصوروه نضجا عقليـا ، قد سبقوا اليه منذ أكثر من نصف قرن حيث كانت (المودة) هى الالحـاد باسم العقـلانية ، حتى اضطر بعض مشايخنا الأفاضل من باب المجاراةلهذه العقلانية ، ان يحاولوا تفسير معجزة شق البحر تفسيـرا علميا فتحدثوا عن ظاهـرة المـدوالجزر فى هذه المنطقة وان اليهود ساروا حيث كانت المنطقـة فى حالة جزر ، وعندما سـار فرعون ومن معه كانت حالة الجـزر قد انتهت واعقبتها حالة المد فكان الغرق ، ويضيف القائلون بهذا الرأى قولهم « وهى معجزة فى كل الأحوال » وقد ساعدهم على هذا التصور ما جاء فى العهـد القديم من « هبوب الرياح الشرقية على البحر طوال الليل » وهذا هو خطأ من يحاول تفسـير بعض آيات القرآن التى تتصل باليهود على ضوء ما جاء فى كتابهم ، فالقرآن الكريم يهيمن على هذه الكتب وليس العكس . والقرآن لم يدع لنا مجالا فى تصـور ما حدث الا أن البحر انفلق (أى انشطر) جاء فى سـورة طـه :

« فأوحينا الى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم »

فعندما تقول لنا هذه الآية الكريمة « واذ فرقنا بكم البحر » فيجب تفسيرها على ضوء غيرها من الآيـات .

والذى يعنينى هنا هو التنبيه الى أن روح التشكك ومحاولة نفى المعجزات ، أو محـاولة تفسيرها تفسيرا (عقلانيا) ليست نتيجة الوعى والثقافة التى وصل اليها الجيل الجديد ، وانما هى « حالة » تطرأ من حين لآخر ثم لا تلبث أن تـزول .

المستحيل والممكن :

انتقل الآن الى الحقيقة الثانية وهى أن انكار المعجزات بغير دليل هو شىء ليس من العلم ، فالعلم لا ينفى كما أنه لا يثبت بغير دليل أى أن العلم ذروة العلم : هو أن لا تبادر بنفى شىء لمجرد انك تريد ذلك ، ان هذا هو ما يسمى « بالهوى »وهو شىء غير العلم على خط مستقيم . اننى على ثقة أن الكثيرين لا يتصورون أن المستحيلات فى هذه الدنيا لا تعدو أن تكون بعض حالات فكرية بحتة كان تقول مثلا أن الجزء أكبر من الكل ،هذا ــ وقال العقل ويقول وسيظل يقول : هذا مستحيل ، وهكذا فالمستحيلات ليست الا بضع بديهيات ومسلمات من هذا القبيل أما ما عدا ذلك فكل شىء جائز ، فاذا أردت أن تكون عالما فاياك ثم اياك أن تقول على شىء لا تفهمه أنت أو تتصور أنه لم يحدث أنه مستحيل ، هذا اذا أردت أن تكون ملتزما بالأسلوب العلمى ، ومنتهى ما يجيز لك أن تقوله « ان منتهى علمى يجعلنى أرجح أن هذا الشىء أو ذاك لم يحدث » أما أن يبادر انسان كائنا ما كان ليقول عن أمر حدث منذ عشرين قرنا أنه لم يحدث ، وكل سنده فى ذلك أنه هو نفسه عاجز عن احياء الموتى فلابد أن يكون عيسى عليه السـلام لم يفعل ذلك باذن الله ، ولمـا كان (المتكلم) لا يستطيع أن يشق البحر ، فلا يمكن لموسى أن يشقه ، مثل هذا القول لا يكون علمـا بل هو جهل مطبق فالدنيا مليئة بالأسرار التى نزال نجهل من أمرها كل شىء ، وهذا القبس من العلم الذى يمنحنا الله من حين لآخر يكشف لنا باستمرار على أن ما نعلم لا يزيد عن ذرة بالقياس الى جبل المعرفة والا فهل كان يتصور متصور منذ عشرين سنة فقط أن الانسان بقدرته أن يسير وأن يعمل فى الفضاء ويدور حول الدنيـا كلها فى أقـل من ساعتين ، وأن يشهد بذلك الليل والنهار على

التعاقب اكثر من عشر مرات فى اليوم والليلة ،فليتق الله اذن هذا الذى يبادر بنفى المعجزات باسم العلم لمحض انها لا تروق لمزاجه .

اما نحن معاشر المؤمنين فقلوبنا مطمئنة بل ومنشرحة ، بمعجزات موسى وعلى راسها شق البحر مادام القرآن الكريم قد نص عليها .

صورة الجحود الاسرائيلى :

وننتقل الى الصورة الثالثة ، صورة كفر اليهود بهذه النعمة وردهم على هذه المعجزات بعبادة العجل ، ولا نقل لك ماجاء فى كتابهم خاصا بهذه القضية ● وراى الشعب ان موسى قد ابطأ فى النزول من الجبل فاجتمع الشعب على هارون وقالوا له قم فاصنع لنا آلهة تسير امامنا فان ذلك الرجل موسى الذى اخرجنا من ارض مصر لانعلم ماذا اصابه ● فقال لهم هارون انزعوا شنوف الذهب التى فى آذان نسائكم وبنيكم وبناتكم واتونى بها ● فنزع جميع الشعب شنوف الذهب التى فى آذانهم واتوا بها هارون ● فاخذها من ايديهم وصورها فى قالب وصنعها عجلا مسبوكا فقالوا هذه آلهتك يا اسرائيل التى اخرجتك من ارض مصر . ● فلما راى ذلك هارون بنى امامه مذبحا ونادى هارون وقال غدا عيد للرب . ●فبكروا فى الغد واصعدوا محرقات وقربوا ذبائح سلامة وجلس الشعب ياكلون ويشربون ثم قاموا يلعبون . ● فقال الرب لموسى هلم انزل فقد فسد شعبك الذى اخرجته من ارض مصر ● قد حادوا سريعا عن الطريق الذى امرتهم بسلوكه وصنعوا لهم عجلا مسبوكا فسجدوا له وذبحوا له وقالوا هذه آلهتك يا اسرائيل التى اخرجتك من ارض مصر . ● وقال الرب لموسى قد رايت هؤلاء الشعب فاذا هم شعب قساة الرقاب . ● والآن دعنى يضطرم غضبى عليهم فافنيهم واجعلك امة عظيمة . ● فتضرع موسى الى الرب الهة وقال يا رب لم يضطرم غضبك على شعبك الذين اخرجتهم من ارض مصر بقوة عظيمة ويد شديدة● ولم يقل المصريون أنه اخرجهم من ها هنا بكيد ليقتلهم فيما بين الجبال ويفنيهم عن وجه الأرض. ارجع عن شدة غضبك وعد عن مساءة شعبك●واذكر ابراهيم واسحق واسرائيل عبيدك الذين اقسمت لهم بذاتك وقلت لهم انى اكثر نسلكم كنجوم السماء وجميع الارض التى تكلمت عنها ساعطيها لنسلكم فيرثونها الى الدهر ● فعدى الرب عن المساءة التى قال انه يحلها بشعبه ● ثم انثنى موسى ونزل من الجبل ولوحا الشهادة فى يده لوحان مكتوبان على جانبيهما من هنا ومن هناك مكتوبين ● واللوحان هما صنعة الله والكتابة هى كتابة الله منقوشة على اللوحين ● وسمع يشوع صوت الشعب فى جلبتهم فقال لموسى صوت حرب فى المحلة . ● فقال ليس ذلك صياح ظفر ولا صياح هزيمة بل صوت غناء انا سامع . ●فلما دنا من المحلة راى العجل والرقص فاتقد غضب موسى فرمى باللوحين من يديه وكسرهما فى اسفل الجبل . ● ثم اخذ العجل الذى صنعوه فأحرقه بالنار وسحقه حتى صار ناعما وذراه على وجه الماء واسقى بنى اسرائيل ● وقال موسى لهارون ما صنع بك هؤلاء الشعب حتى جلبت عليهم خطيئة . ● قال هارون لا يضطرم غضب سيدى أنت عارف بالشعب انهم أشرار ● فقالوا لى اصنع لنا آلهة تسير أمامنا فان ذلك الرجل موسى الذى اخرجنا من ارض مصر لا نعلم ماذا اصابه . ● فقلت لهم من له ذهب فانزعوه واتونى به فطرحته فى النار فخرج هذا العجل . ● ولما راى موسى الشعب انهم عراة من هارون كان قد عراهم امام اعدائهم لاجل ما هو عار نجاسة ●وقف موسى على باب المحلة وقال من هو للرب فليقبل الى . فاجتمع اليه جميع بنى لاوى ● فقال لهم كذا قال الرب اله اسرائيل ليتقلد كل واحد سيفه واذهبوا وارجعوا من باب الى باب فى المحلة وليقتل كل واحد اخاه وصاحبه وقريبه . ● فصنع بنولاوى كما امر موسى فسقط من الشعب فى ذلك اليوم نحو ثلاثة آلاف رجل . ●)

(الفصل الثانى والثلاثون)

تعليقنا على ما جاء فى العهد القديم :

واذا كانت القاعدة الاصولية « ان ناقل الكفر فليس بكافر » الا انه لا يسعنا وقد نقلنا نص ما جاء فى العهد القديم الا ان نسجل بعض الملاحظات لتجنيب المطالع المسلم من التردى فى بعض الأخطاء .

١ — يتضمن النص اتهاما صريحا لهارون شقيق موسى بأنه كان هو من صنع العجل لبنى اسرائيل ، وحقا اشار القرآن الكريم الى ان موسى عليه السلام عنف اخاه هارون ولكنه فعل ذلك لسكوت هارون عن هذه الفعلة وعن عدم تنديده بها ، اما ان يكون هو الآمر بهذا الكفر فهو ما نعيذ منه هارون عليه السلام وليس نسبة هذه الفرية الفظيعة لهارون بالشىء الوحيد فى كتاب العهد القديم ، فاليهود مولعون فيما يبدو أن ينسبوا كل النقائص ، وكل صنوف الجرائم والموبقات لمن يعتبروهم أنبياء وذلك ليبرروا لأنفسهم ارتكاب اشنع الجرائم فى كل زمان ومكان ، وهذا النص الذى نحن بازائه ينسب الى هارون أنه هو الذى اضل بنى اسرائيل .

٢ — يتحدث النص عن الذات الالهية كما لو كانت ندا لموسى عليه السلام ، يخاطبه كما لو كان يخاطب انسانا ، وهذا النص الذى نقلناه لك ، هو آخر ترجمة للعهد القديم (وكم لله من ترجمات) وقد كان النص فى الترجمة القديمة يجرى على لسان موسى يقول لربه « اندم على الشر الذى تريد ان تفعله بشعبك » ثم تقول « فندم الرب ندامة عظيمة » ولا شك ان الترجمة الجديدة قد احسنت كل الاحسان بحذفها هذه العبارات غير اللائقة ، ومع ذلك فان جوهر المحاورة لا يزال يحمل الطابع الوثنى حيث تتجلى « الندية » بين الوثن وكاهنه ، فتقول القصة على لسان موسى انه قال :

— ارجع عن شدة غضبك وعد عن مساءة شعبك .

ثم تمضى فتقول « فعدى الرب عن المساءة التى قال انه يفعلها بشعبه » .

٣ — اما ملاحظتنا الأخيرة فهى ما سبق ان نوهنا بها فى مطلع القصة وهى ان القرآن الكريم ، اكتفى بايراد أمر موسى لقومه أن يقتلوا أنفسهم ، ثم لم يرد فى القرآن ولا فى حديث صحيح ماذا فعل بنو اسرائيل ازاء هذا الأمر ، وكل ما قيل من جمهرة المفسرين انما هو ترديد لما يقوله بنو اسرائيل عن أنفسهم ، فنقلنا لك نص ما يقولون .

يوم عـــاشوراء :

ولمـــا كنت حريصا على ان اشير الى الأبحاث التى اشتملت عليها بعض التفاســـير القـــديمة المشهورة ، فهى تتحـــدث هنا عن صـــوم يوم عاشوراء ، فلدى وصول رسول الله صلى الله عليه وسلم للمدينة وجد اليهود يصومون يوم العاشر من المحرم (عاشوراء) فسأل عن سبب ذلك

فقيل له : هذا يوم انجى الله فيه بنى اسرائيل اذا اخرجهم من مصر واغرق فرعون فقال سيدنا رسول الله « نحن احق بصوم هذا اليوم منهم »وهكذا كان صيام هذا اليوم واجبا ، الى ان فرض صوم يوم عاشوراء تطوعا اى لمن اراد ذلك .

مفردات :

لن نؤمن لك : اى لن نصدقك مطمئنين راضين مذعنين .

حتى نرى الله جهرة : اى انهم علقوا ايمانهم على شرط ان يروه باعينهم وقيل ان فى الآية تقديما وتأخيرا وان جهرة هى صفة خطابهم ، ولكن الجمهور ونحن نتابعه على ان بنى اسرائيل طلبوا ان يروا الله جهرة اى باعينهم المجردة وقد استعملوا كلمة جهرة لتاكيد طلبهم .

فاخذتكم الصاعقة : والصاعقة فى قول المفسرين تعنى نارا او عذابا من اى نوع كان سقط عليهم من السماء فاماتهم ، ونحن نستعمل فى العصر الحديث كلمة الصاعقة للتعبير عن هذه الظاهرة الطبيعية ظاهرة عملية التفريغ الكهربائى التى تحدث نارا وهكذا يلتقى المعنيان .

وانتم تنظرون : اى تنتظرون اليها .

ثم بعثناكم من بعد موتكم : اى ان الله سبحانه وتعالى بعد ان عاقبهم بالموت عقابا لهم على اجترائهم بطلب المستحيل وهو رؤية ذات الله مع انهم رأوا العشرات من آياته ثم بعثهم بعد موتهم اى اعاد لهم الحياة .

لعلكم تشكرون : والشكر بعد هذه المعجزة والنعمة الجديدة التى انعم الله بها على بنى اسرائيل لا يكون باقل من ان يخلصوا فى عبادتهم لله وياتمروا باوامره وينتهوا بنواهيه ، ولكننا سنرى ما يدل على عناد اليهود ولجاجتهم وكفرهم بالرغم من توالى المعجزات والنعم .

وظللنا عليكم الغمام : الغمام هو السحاب الابيض الرقيق اظلهم الله به ليحول بينهم وبين الموت من شدة وهج الشمس وحرها .

وانزلنا عليكم المن والسلوى : جمهرة المفسرين على ان المن مادة صمغية حلوة كالعسل ، وتصدر العراق حتى الآن نوعا من الحلوى تجمعه من نبات معين وتطلق عليه اسم المن .

والجمهور على ان السلوى هو الطائر المشهور بـ « السمان » .

كلوا من طيبات ما رزقناكم : امر تكرر فى القرآن فى شتى المناسبات ، ويفيد التكرار مع استعمال كلمة « طيبات » التى تفيد الافضلية فى انواع الغذاء من حيث النفع والاستمتاع ، الا ان الله سبحانه وتعالى لايحب لعباده الحرمان ويحب لهم ان ياكلوا حلالا طيبا .

وما ظلمونا : بتركهم الشكر عن طريق الانصياع لأوامر الله .

ولكن كانوا انفسهم يظلمون : وهذا هو سر العبادة كلها وخطورة العصيان فنحن عندما نحسن نحسن لانفسنا ، وعندما ننحرف ونخرج عن الجادة فنحن انما نؤذى انفسنا فالله غنى عن العالمين احسنوا او اساءوا .

كَانُوٓا أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذۡ قُلۡنَا ٱدۡخُلُوا هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ فَكُلُوا مِنۡهَا حَيۡثُ شِئۡتُمۡ رَغَدٗا وَٱدۡخُلُوا ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا وَقُولُوا
حِطَّةٞ نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطَٰيَٰكُمۡۚ وَسَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ فَأَنزَلۡنَا عَلَى
ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا يَفۡسُقُونَ ﴿٥٩﴾ * وَإِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ فَقُلۡنَا ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ
ٱلۡحَجَرَۖ فَٱنفَجَرَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ قَدۡ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٖ مَّشۡرَبَهُمۡۖ كُلُوا وَٱشۡرَبُوا مِن رِّزۡقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡا فِي ٱلۡأَرۡضِ
مُفۡسِدِينَ ﴿٦٠﴾ وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصۡبِرَ عَلَىٰ طَعَامٖ وَٰحِدٖ فَٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُخۡرِجۡ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۢ

واذ قلنـــا ادخلوا هذه القرية : القرية هي المجتمع السكاني القليل العدد نسبيا فاذا كثر العدد فهي المدينة ، واشتقت كلمة القرية من قريت اى جمعت ونقـــل عن البعض قوله ان المقصود بالقرية هنا هو بيت المقدس ، ولكنه تخصيص بغير مخصص ، واذا كان الكلام لا يزال موجها لبني اسرائيل ايام موسى عليه السلام فقد كانوا قريبي عهد بصـــحراء التيــه ، وبيت المقدس ليست على حافة الصحراء فضلا عن انها لم توجد بهذا الاسم الا فيما بعد .

فكلوا منها حيث شئتم رغدا : رغدا اى واسعا هنيئا . ويلاحظ ما قدمناه من ان الله سبحانه وتعالى يحب لعباده الســـعة والهنـــاء في هذه الدنيـــا ، اى ان الحرمـــان عارض وليس هو الأصـــل .

وادخلوا الباب سجدوا وقولوا حطة :

وقولوا حطة : اى حط عنا ذنوبنا واغفر لنا ، والامر بالدخول ساجدين كناية عن وجوب شكرهم لله باظهار اقصى حالات الخشوع كمـــا يرمز له السجود

نغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين :

وهذا هو وعد الله لهم بان يغفر لهم كل سيئاتهم وحماقتهم واوزارهم التي ما فتئـــوا يرتكبونها منذ خرجوا من مصر ، بل ويحسن الى من احسن منهم .

فبدل الذين ظلموا قولا غير الذى قيل لهم :

ولكن هيهات ان يرعوى اليهود عن غيهم وان لايتمادوا في كفرهم ، ولذلك فقد اصموا آذانهم عن الانصياع لأوامر الله ، بل الله لقد فعل فريق منهم ما هو اشنع من ذلك كله وهو ان يبدلوا كلام الله الذى قيل لهم .

فانزلنا على الذين ظلموا رجزا من السماء :

الرجز : العذاب واراد البعض ان يخصصه بانه « الطاعون » وهو كمـــا اعتدنا ان نقـــول تخصيص بغـــير مخصص ، والارجح ان يكون الرجز عذابا من نوع ما ، انزله الله عليهم جزاء على عصيانهم « بما كانوا يفسقون » والفسق في اللغة هو الخروج واصـــبحت اصطلاحا في الاسلام تعني الافحاش في الخروج على اوامر الله ونريد ان نلفت النظر الى انه يفهم من سياق

الكلام أن الله قد اختص بعذابه الفئة التى ظلمت نفسها بأن غيرت وبدلت وهو المبدأ الذى طالما اكده القرآن بأن كل نفس بما كسبت رهينة ، وان تزر وزر اخرى .

واذ استسقى موسى لقومه : اى دعا الله سبحانه وتعالى ان يروى ظمأ بنى اسرائيل الذين كانوا يتيهون فى الصحراء واحد العبادات فى الاسلام « صلاة الاستسقاء » فقلنا اضرب بعصاك الحجر :

عصا موسى هى آية سيدنا موسى التى زوده الله بها ، والمتبع لقصتها منذ سأله عنها الله اول مرة ؟

وما تلك بيمينك يا موسى قال هى عصاى ..

اقول المتبع لقصة هذه العصا ، لايرى اى مجال لتفسيرها تفسيرا رمزيا وقد ضرب بها البحر كما رأينا ، والله هنا يأمره ان يضرب بها الحجر والمراد بالحجر ، هو اى حجر وليس حجرا بعينه .

فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا :

معجزة جديدة أجراها الله على يد سيدنا موسى ونعمة انعم بها على بنى اسرائيل وهى أن وفر لهم الماء ليرتووا : وقد تردد اسم عيون موسى كثيرا فى حرب رمضان التى نصر فيها الله الاسلام والمسلمين ، وعلى اية حال فان تسمية عيون ماء فى سينا بأنها عيون موسى هو تخليدا لهذا الحدث العظيم .

قد علم كل اناس مشربهم : اى موضع شربهم ، وقد قدمنا ان « العهد القديم » الذى يروى لنا فى سفر الخروج بنى اسرائيل من مصر يحدثنا ومن هنا يمكن ان يفهم لماذا انفجرت اثنتا عشرة عينا ، ويمكن أن يفهم من قد علم كل اناس مشربهم ، ان كل قبيلة قد اختصت بعين من العيون .

كلوا واشربوا من رزق الله :

دعوة الى الاستمتاع بنعم الله الطيبة الزكية الزكية من طعام وشراب ، ويلاحظ كيف كانت الدعوة للأكل فقط فى الآيتين السابقتين .

— كلوا من طيبات ما رزقناكم .

— فكلوا منها حيث شئتم رغدا .

وليس الا فى هذه الآية يتحدث عن الشرب بعد تفجر المياه فدل ذلك على عدم صحة قول من قال من المفسرين ان « المن والسلوى » يدخل فيها المأكل والمشرب .

ولا تعثوا فى الأرض مفسدين : تعثوا ، تفسدوا ومنه « العثة » وهى الوسوسة التى تفسد الملابس الصوفية وانظر الى اسلوب القرآن فى بيان الكلام فهو يؤكد المعنى مع تغيير اللفظ ، ويظهر أن ذلك هو قدر اليهود المقدور وهو انه بدلا من ان يشكروا نعمة الله عليهم ، يعيثون فى الأرض فسادا .

واذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد .

لو أن بنى اسرائيل كانوا فى احوال طبيعية ، لماكان عليهم لوم أو تثريب فى هذه الشكوى فقد فطر الله الخلق واودع فى الطبيعة البشرية حب التغيير والتنويع ويتطلع الانسان — اى انسان

(الا ما رحم ربى) لما ليس فى يده ، فمن يأكل اللحوم والطيور يشتاق الى طعام الفقراء الخالى من اى لحم وهكذا .

فالتضجر من تكرار طعام بعينه هو سمة بشرية فى الظروف العادية أما فى احوال الشدة فان هذه السمة تختفى ليحل مكانها غريزة البقاء غريزة المحافظة على الذات ، فيصبح الانسان سعيدا فى وقت الجدب والمجاعة ولو على كسرة من الخبز وجرعة من الماء كل يوم ، وفى حالتنا التى نحن بصددها ، كان بنو اسرائيل يتيهون فى الصحراء مما كان يهدد بفنائهم ، فرزقهم الله فى الصحراء المجدبة من الماء والمن والسلوى فبدلا من ان يشكروا بطروا .

فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها .

البقل : النبات الرطب يأكله الناس والأغنام والمقصود هنا هو ما تعارفنا على تسميته بالبقول من امثال اللوبيا والفاصوليا .

قثاء : هى الثمرة المعروفة بهذا الاسم ويمكن اعتبار الخيار مندرجا تحتها .

الفوم : الجمهور على انها الحنطة او اى حبوب اخرى تخبز وحجة القائلين بهذا القول انه من غير المعقول ان لايطالب بنو اسرائيل بغذاء يخلو من الخبز وقالوا ان الكلمة ليست بعربية على ان بعض اللغويين اختاروا أن يكون معنى فومها اى « ثومها » .

وقد اعتاد العرب ان يستبدلوا حرف الفاء بالثاء ، وقد أورد القرطبى كثيرا من الشواهد على ذلك .

وعدسها وبصلها :

العدس والبصل مشهوران فى مصر واكلهما سويا هو من مستلزمات الوجبة ، وهذا يشهد باعجاز القرآن .

قال اتستبدلون الذى هو ادنى بالذى هو خير .

هذه هى الجملة التى تكشف عن بطر بنى اسرائيل وجحودهم ، فبدلا من ان يشكروا الله على ما أنعم عليهم به راحوا يشكون ، ووصف ما أنعم الله به عليهم بانه خير مما يسألون من ناحية كونه مظهر فضل الله عليهم بخاصة وراحوا يطلبون من الاطعمة ما هو متاح للبشر جميعا ، وما عليهم الا ان : اهبطوا مصرا فان لكم ما سألتم

اهبطوا : الهبوط يمكن أن يكون تعبيرا على مجرد الانتقال من مكان الى مكان أسفل ، كأن يكون بنو اسرائيل فوق هضبة ويطلب منهم ان يهبطوا إلى الوادى فى السفح .

مصر : الأصل فى المصر البلد العظيم وقد دار التساؤل بطبيعة الحال عن المقصود بكلمة مصر هنا ، اهى مصر فرعون ، أم أنها أى بلد كبير مما يمكن ان يوصف بانه مصر ، ونحن نرجح أن تكون كلمة مصر هنا بمعناها العام ، فقد كان بنو اسرائيل قد فروا من مصر نجاة بأنفسهم ، فمن المرجح أن لا يدعوهم موسى للعودة اليها ، ولكن من ناحية أخرى فيمكن أن يساق كلام موسى على أنه تبكيت وتوبيخ لبنى اسرائيل ، كأنه يقول لهم ارجعوا الى مصر لتعانوا فيها ما كنتم تعانون اذا كنتم تصرون على هذه الأطعمة التى تتحدثون عنها فانت ترى أن المعنيين جائزان ، ولكنى مع ذلك أميل الى أن كلمة مصر هنا تعنى مجرد بلد متحضر حيث يتيسر فيه ما طلبوا .

« وضربت عليهم الذلة والمسكنة »

الذلة : تعنى الصغار والضعة .

المسكنة : تعنى هنا فقر النفس .

وضربت عليهم الذلة والمسكنة ، اى احاط بهم الصغار وفقر النفس ، يقال ضربت الخيمة اى اقيمت فاحاطت بساكنيها .

« وباءوا بغضب من الله »

آب : تعنى رجع وهى هنا تعنى انهم استحقوا غضب الله .

« ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق » .

اما لماذا استحق اليهود أن تضرب عليهم الذلة والمسكنة وان يستحقوا غضب الله ولعنته؟ فذلك لهذا الذى مر بنا حتى الآن من كفرهم المتجدد والمتكرر بآيات الله التى راوها راى العين وكانت خيرا وبركة عليهم ومع ذلك فقد جحدوها وانكروها ، وتردوا من جديد فى الوثنية .

وتشير الآية الى احدى جرائم اليهود الكبرى التى تكررت فى تاريخهم اكثر من مرة وهى قتلهم انبياءهم (بغير حق) وقد يتساءل البعض لماذا استعمل القرآن الكريم بغير حق فهى تعنى هنا « مع علمهم » بأن من يقتلونهم هم أنبياء يحتم الواجب عليهم ان يطيعوهم ويأتموا بهم ، لا ان يقتلوهم .

« ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون »

ويفسر لنا القرآن الكريم لماذا يقدم الاسرائيليون على هذه الأعمال المسرفة فى الاجرام ، فيقول لنا ان ذلك بسبب طبيعتهم العدوانية وتدرهم الذى جعلهم عصاة دائما ابدا .

هل رؤية الله ممكنة فى الدنيا ؟

واذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون . ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون .

لماذا عوقبوا ؟

ولا يجب أن يغيب عن اذهاننا انهم لم يعاقبوا على مجرد طلبهم رؤية الله فهذه امنية تراود كل نفس ولكنهم عوقبوا على تعليقهم الايمان بالله بشرط رؤيتهم له وهذه هى جريرتهم فنحن نؤمن بالله لاننا نرى آياته من حولنا وفى أنفسنا وانا شخصيا صرحت عقب انتصارنا المذهل والخالد فى ٦ اكتوبر « اننى رايت الله فيما حدث » واضفت اننى رايت الله بمعنى اننى رايت آياته وهذا حدود رؤيتنا لله فى هذه الدنيا ، اما المطالبة برؤية ذات الله فهذا هو المستحيل ، وتعليق الايمان به على هذا المستحيل فهذا هو الكفر . وقد استوقفنا فى تفسير القرطبى عبارة غريبة وهى قوله :

« وقد اختلف فى جواز رؤية الله تعالى ، فاكثر المعتزلة على انكارها فى الدنيا والآخرة .
واهل السنة والسلف على جوازها فيهما ، ووقوعها فى الآخرة وعلى هذا لم يطلبوا من الرؤية محالا وقد سألها موسى عليه السلام » .

ويعلم الذين يتابعوننا فى هذا التفسير اننا نتجنب دائما امثال هذه المباحث ولكن عندما

يكون الأمر واضحا فى نفسنا كل الوضـــوح وأن يكون الأمر متصلا بالعقيدة والتوحيد كما نؤمن به ، ويكون الأمر بعد ذلك يتعلق بمقولة لعالم جليل كالقرطبى سيظل تفســيره متـداولا بين المسلمين ، هنا ويصبح لا مناص ونعتبره واجبا فى عنقنا أن نقول فى القضية كلمتنا ، وكلمتنـــا تختلف جملة وتفصـــيلا عن هذا الذى يقـــوله القرطبى .

اختلاف الحكم فى الدنيا والآخرة :

ونفرق بداءة ذى بدء بين رؤية الله فى الدنيا والأخرة ، فأما عن رؤيته فى الآخرة فهذا ما نعتبره من أحوال الغيب التى لا نستطيع التعرض لها على وجه القطع واليقين ونفوض فيها العلم لله ، وعندنا نص صريح فى القرآن «وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة » .

وفى راى بعض المفسرين أن ناظرة هنا لا تعنى الرؤية بالعين ولـــكن هـــو نوع الأبحاث التى لا نخوض فيها لأنها من الغيبيات ، ولا نقول باستحالتها ، ذلك أن كل ما يتعلق بالاخرة ستكون له قوانين ونواميس وسنن غير تلك التى نمارسها فى هذه الحياة الدنيا ، والى جوار ذلك بل وقبل ذلك أمامنا هذا النص القرآنى « وجوه يومئذ ناضرة . الى ربها ناظرة » . فالقول باســـتحالة الرؤية ، خاطىءٌ ، ولذلك فالأصح والأرجح أن يقال بجوازها وعدم الأخذ بمحاولة صرف كلمة « ناظرة » عن معناها الظاهر ، والامر كله من الامور الغيبية التى يجب دائما أن نفوض العلم فيها لله ونسلم تسليما .

حكم الرؤية فى الدنيا

أما بالنسبة لرؤية ذات الله فى الدنيا فهذا هو ما نختلف فيه مع القرطبى فى القـــول بجوازها ، والقرطبى ليس معصوما ويدهشنا قوله « وأهل السنة والسلف على جوازها فيهما » وعندنا انه تجاوز الحد وأسرف على نفسه فى هـــذا التعليم والاطلاق ، ولو انه قال بعض السلف وأهل السنة، بل ولو زاد على ذلك فقال جمهور اهل السنة والسلف » لأمكن قبـــول التعبير ، اما أن يعمم القول ويطلقه « أهل السنة والسلف » فهو ما لا نستطيع بحال مهما كان علمه وفضله أن نسايره متعذر وحسبنا أن نستشهد بآيات من القرآن عليه ، ولسنا فى حاجة لتقصى اقوال السلف فذلك صريحة لكى نعرف ماذا يمكن أن يكون عليه راى الســـلف .

وابدأ فى مناقشة القرطبى فى آخر اقـــواله« فعلى هذا لم يطلبوا من الرؤية محالا ، وقـــد سألها موسى عليه السلام » اى ان القرطبى كما ترى يلتمس العذر لبنى اسرائيل ويذهب الى حد القول بأن موسى طلب نفس الطلب ، وهو ان يرى الله ، ولعل هذا القول يظهر لك كيف اذا استولت فكرة على عقل اى انسان ايـــا كانت درجة علمه فان الموازين كلها تختل فى يده لتأييد فكرته . انظر الى قوله « وقد سألها موسى عليه السلام » وتركها هكذا معلقة دون أن يشير عن قرب أو بعد (فى هذا الموطن) عن رد الله سبحانه وتعالى على هذا السؤال واليك ماجاء فى سورة الاعراف :

« ولمـــا جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرنى أنظر اليك قال لن ترانى ولكن انظر الى الجبل فان استقر مكانه فسوف ترانى فلمـــا تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا فلما أفاق قال ســـبحانك تبت اليك وانـــا أول المؤمنين » .

فأنت ترى أن الله سبحـــانه وتعـــالى قال لرسول من رسله :

١ — لن ترانى :

اجرى أمامه تجربة ليريه استحالة امكان ذلك فقد كفى أن يتجلى للجبل لكى يدرك الجبل ويغشى على موسى من هول ما جرى .

٢ — يحس موسى بانه أخطأ فى سؤاله فطلب المغفرة من الله وقرر انه تاب واناب .

بقى ان سيدنا موسى عليه السلام عندما طلب أن يرى ربه فعل ذلك لينال حظوة القرب أما ايمانه فكان راسخا وهو ما عبر عنه بقوله: « وأنا اول المؤمنين » .

هذه هى واقعة طلب موسى لرؤية الله فما اعجب أن يسوقها القرطبى فى معرض أن بنى اسرائيل لم يطلبوا محالا .

الرؤية فى الدنيا مستحيلة بنص القرآن :

بقى أن فى القرآن نصا بل اكثر من نص يفيد الاستحالة ، قال تعالى : « لا تدركه الابصار » .

ولا عبرة بمن يحاولون ان يؤولوا هذا المعنى بانه لا يعنى الرؤية البصرية وانما يعنى الادراك فان عملية الابصار هى عملية ادراك فى حقيقتها .

« ليس كمثله شىء »

على ان ثمة آية أخرى تجعل هذه الرؤية مستحيلة وهى قوله تعالى : « ليس كمثله شىء » ولما كانت العين لا يمكن الا ان ترى شيئا ، فلا مناص من أن يكون الله سبحانه غير اى شىء يمكن أن تراه العين .

الجزء يستحيل ان يرى الكل :

فاما وهذه هى النصوص القرآنية تتفق ومقررات العقل فقد أصبح من حقنا أن نقيم الدليل على الاستحالة بمحض التفكير العقلى والمنطقى فالانسان كله بما فيه عينه هو جزء والله هو الكل ويستحيل على الجزء ان يرى الكل ،والعين لا يمكن أن ترى الا شيئا « متحيزا » اى فى جهة ومكان ، وتعالى الله عن المكان والجهة .

ولعل هذه الأدلة العقلية البحتة هى التى جدت بالبعض أن يمد هذه الاستحالة الى الآخرة ، وهو ما قدمنا أنه بدوره خطأ ذلك أن الآخرة من عالم الغيب الذى يختلف كل الاختلاف عن عالم الشهادة ومن هنا لم نقل بالاستحالة وانما قلنا بالجواز لورود احاديث فى هذا المعنى ، ولظاهر الآية « لربها ناظرة » وقد فسر البعض «ناظرة» بمعنى منتظرة ، واخذا بالاحوط لا نقول بالاستحالة وانما بالجواز .

ما الذى اوقع القرطبى فى الحرج ؟

وقد بقى لنختم هذا البحث ان نتساءل ما الذى اوقع القرطبى ومن يقول بقوله فى هذا الحرج، انه الرغبة فى اثبات الرؤيا لسيدنا محمد فى ليلة المعراج وقد نص القرآن « لقد رأى من آيات ربه الكبرى » فالقرآن يحدثنا عن رؤية آيات الله لاذات الله ، وكان تعبير سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام على ماجاء فى الحديث « نور أنى أراه » وما كان على القرطبى الا ان يجعل الأمر كله خصوصية لسيدنا محمد كى لا يكون لدينا اى اعتراض فقدرة الله لا حد لها ، يفعل مايشاء، أما أن يخرج الأمر عن خصوصيته لسيدنا محمد ليجعلها قاعدة عامة وهى الجواز فى الدنيا ، فهنا نخالف عالمنا الجليل « القرطبى » والله تعالى اعلم .

« فاخذتكم الصاعقة وانتم تنظرون ● ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون »

البعث بعد الموت :

والآية صريحة فى أنهم (أى بنى اسرائيل) لم يكادوا يطلبون هذا الطلب ونعنى به رؤية الله حتى أهلكهم الله بالصاعقة ثم بعثهم بعد أن أماتهم لعلهم يقدرون هذه النعمة الجديدة من ردهم الى الحياة ، ولكن هيهات هيهات .

من حياة اليهود فى التيه :

ـ وظللنا عليكم الغمام وانزلنا عليكم المن والسلوى كلوا من طيبات ما رزقناكم وما ظلمونا ولكن كانوا انفسهم يظلمون .

ـ واذ استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا قد علم كل أناس مشربهم كلوا واشربوا من رزق الله ولا تعثوا فى الأرض مفسدين .

ـ واذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها قال اتستبدلون الذى هو ادنى بالذى هو خير اهبطوا مصرا فان لكم ما سألتم .

تشير هذه الآيات الكريمة الى صور من حياة بنى أسرائيل بعد خروجهم من مصر وحياتهم فى صحراء سينا مما اطلقوا عليه فى كتابهم اسم « التيه » وقالوا ان مدته استمرت اربعين سنة ، ولكن القرآن الكريم لا يقيم وزنا الا للعبرة والعظة، وليس قصص التاريخ بتفاصيله الزمنية والمكانية هى موضوعه ، وذلك على خلاف كتاب اليهود والذى لا يعدو أن يكون كتاب تاريخ وهو يحدثنا باسراف فى تفاصيل هذه الفترة التى قضاها بنو اسرائيل فى صحراء التيه بما يدور كله حول هذه الاشارات القرآنية من انعام الله على اليهود وكفرهم المستمر المتواصل فى اصرار عجيب . وقد تتبعنا كلمات الآيات فيما سبق فلا نعود الى ذلك .

ـ وادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين ● فبدل الذين ظلموا قولا غير الذى قيل لهم فانزلنا على الذين ظلموا رجزا من السماء بما كانوا يفسقون .

ما اشبه اليوم بالبارحة :

يأتى معنى هذه الآية من حيث الترتيب الزمنى بعد الآيات السابقة لانها تشير الى ما طلب من اليهود بعد أن أخرجهم الله من التيه واصبحوا على مشارف فلسطين حيث النعيم والرغد ، ولكن الآية الكريمة تقع كما مر بنا وسط الآيات التى تتحدث عن لجاجة اليهود وعنادهم وكفرهم وهم فى الصحراء ذلك أن القرآن كما قدمنا ليس كتاب تاريخ وانما هو كتاب هداية وارشاد ، وكل آية فى ذات الوقت الذى تشترك فيه لبناء المعنى بالاشتراك مع ما سبقها وما يلحقها ، فهى فى نفس الوقت قائمة بذاتها يمكن أن تستقل بمعناها عما سبقها ولحقها .

وهى الآية التى نحن بصددها مصداق ذلك ، فهى مع ما سبقها وما لحقها حديث عن ماضى اليهود عقب خروجهم من مصر ولكنها بذاتها تدل على خلود آيات القرآن وانطباقها فى كل زمان ومكان . فهاهم اليهود فى القرن العشرين وقد كانوا يشكون من العذاب والاضطهاد الذى اصبحوا يلقونه فى كل مكان ، وكانت اقصى أمانيهم (كما سمعتها باذنى) ان يجدوا بقعة من الأرض يموتون فيها ويدفنون بسلام ومكنتهم القوى العالمية من أن يجيئوا الى فلسطين ، بل وخصصت لهم قسما منها ليكونوا أصحاب السلطان ، فبدلا من أن يسجدوا لله شكرا ويطلبوا منه ان يحط

بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۖ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ

منهم ذنوبهم وان يغفر لهم ، اذ بهم يبدلون نعمتهم ولهجتهم واقوالهم ويتحولون الى قوة مخربة مدمرة طاغية ، لا يقنعون بغير اذلال كل جيرانهم . فكان ان اذلهم الله واخزاهم وانزل عليهم «رجزا من السماء بما كانوا يفسقون» .

فليس شك ان ما حل باسرائيل فى العاشر من رمضان هو عذاب من السماء حل باليهود وسيظلون يعانون منه جزاء طغيانهم وجبروتهم (بما كانوا يفسقون) .

— وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله ذلك بانهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون .

اليهود والذل والمسكنة :

شأن اى صفة تنسب الى موصوف انها تعنى الأغلب والأعم فاذا قلت مثلا « فلان سريع الحركة » فليس يعنى ذلك انه يتحرك بسرعة بدون انقطاع وانما الأغلب على طبعه انه اذا تحرك تحرك بسرعة ، وليس يعنى ذلك ان لا يبطىء فى حركته ابدا ، بل يقع ذلك منه وعندها يكون ذلك مثار الدهشة والاستغراب ، ويقول الأصوليون ان الاستثناء يؤكد القاعدة .

سقنا هذه المقدمة حتى لا يقع احد فى الخطأ فيتصور ان اليهودى لا يمكن فى اى لحظة وفى كل زمان ومكان الا ان يكون ذليلا مهانا ، كلا لا يجب ان نفهم من آية « وضربت عليهم الذلة والمسكنة » الا أن ذلك على الأغلب والأعم فهو الاصل والقاعدة وغير ذلك هو الاستثناء .

تاريخ اليهود :

ولقد طالعت تاريخ اليهود القديم كما ينطق به كتابهم المقدس ، وطالعت تاريخهم بعد ذلك بعد ان اصبح للعالم كله تاريخ يكتب ، وعاصرنا فى القرن العشرين مجريات الأحوال بالنسبة لليهود

فاشهد ، أن ذلك كله ليس الا تطبيقا لهذه الآية الكريمة من ان اليهود ضربت عليهم الذلة والمسكنة وصدق الله العظيم .

وان أنس فلست انسى منظرا رايته بعينى راسى ، كان ذلك عام ١٩٣٨ العام السابق على الحرب العالمية الثانية ، وكانت سياسة هتلر ضد اليهود فى المانيا بدات تتحدد معالمها وتأخذ ابعادها (فيما خلا الابادة عن طريق القتل) فكان من بين الاجراءات التى اتبعت أن يحظر على اليهود فى الحدائق العامة ان يجلسوا على مقاعد الحديقة ، وخصصت لهم بعض المقاعد طليت باللون الاصفر ووضعت الى جوارها لافتة (باللون الاصفر كذلك وقد كتب على هذه اللافتة « خصص هذا المقعد لليهود الذين لا يجوز لهم ان يجلسوا على غيره » . وغلا الدم فى عروقى لهذا الامتهـان للـكرامة الانسانية ولم اتصور ابدا أن يرضى يهودى لنفسه بهذه المهانة ، ولذا كانت مفاجأتى عظيمة عندما دخلت الحديقة فى احـد ايام العطلة فاذا برجل يهودى وامراة يجلسـان على المقعـد وهما منخرطان فى حديث حار لا علاقة له بطبيعة الحال بما هم فيه من ذل .

وبقى أن تعرف أن اليهود فى المانيا قبـل ان يصابوا بهذه « الضربة » كانوا هم الكل فى الكل فى المانيا فى دنيا الثقافة والصحافة والمال والتجارة وبدلا من ان يشكروا الله على هـذه النعمـة فيتواضعون ويعيشون ويسمحون لغيرهم بالحياة اذا بهم يأبون الا الطغيان والسلطان فتحل عليهم اللعنة الأبدية وهى الذل والمسكنة ، انظر اليوم الى موقفهم .

وقد اشرنا الى موقف اسرائيل كدولة وما انتهى وسوف ينتهى اليه حالها ، وقد بقى أن نقول لمن لا يعـرف أن دولة اليهـود التى حـكمها داود وسليمان لم تعد الا ثلاثة أرباع قرن ، لم تلبث بعدها أن تمزقت الى دولتين « اسرائيل ويهوذا » وغرقت الدولتـان فى صراع مميت الى ان قضى عليهما معا ، وسوف يسجل التاريخ مرة اخرى باذن الله ، أن الله لحكمة يعرفها جل جلاله قد مكن لهم فى الأرض واتـاح لهم نصرا لم يكونـوا يستحقونه وكما هو دابهم وديدنهم بدلا من شكر النعمة بالاحسان والعمل الصالح وتقواه اذا بهم يفجرون ويطغون ويرتكبون على مشهد من الدنيا كلها أحط انواع الجرائم ، وهكذا سيعودون الى ما كتب عليهم من الذلة والمسكنة .

وتبارك الله أعدل العادلين فهو لا يظلمهم ولكن انفسهم يظلمون وها هو يعطى كل جيل منهم الفرصة ليهتدوا ويرعووا فيأبون الا ممارسـة طبعهم الأصيل العصيان والعدوان .

« ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون » .

مفردات :

ان الذين آمنوا : برسالة محمد عليه الصلاة والسلام .

والذين هادوا : وهم اليهود وقد اختلف فى هذا الاسم « هادوا » ففى التنزيل « انا هدنا اليك » أى تبنا اليك . وهاد القوم يهودون هودا وهيادة اذا تابوا .

والهوادة السكون والموادعة ومن ناحيةاخرىقيل انهم سموا يهودا نسبة الى يهوذا وهو اكبر اولاد يعقوب فقلبت العرب الدال ذالا لأن احـد القواعد ان الكلمة الأعجمية اذا عربت غيرت عن لفظهـــا .

ونحن نميل الى هذا الرأى بأكثر من ميلنا لقول من قال انهم سموا يهودا لتوبتهم عن عبـــادة العجل .

والنصارى : جمع كلمة « نصرانى » واختلف ايضا فى اصل الكلمة فقيل هى من النصرة .

جاء فى القرآن الكريم على لسان عيسى عليه السلام « من انصارى الى الله » وقيل بل سموا نصارى نسبة الى الناصرة حيث كان يقيم المسيح. والصـــابئين : جمع صابىء واذا كان هناك حول المصدر الذى اشتقت منه كلمة يهودى ونصرانى فلم يكن خلافه حول من هم المقصودون : فاليهود هم اتباع موسى عليه السلام وكتابهم التـوراةوالنصارى هم اتباع عيسى عليه السلام وكتابهم الانجيـــل .

أما بالنسبة للصابئين فقد دار الخلاف حول حقيقتهم واى دين يدينون .

جاء فى التفسير الوسيط لعلماء الازهر : واما الصابئة فهم اهل دين غامض . ولذا اختـلف العلماء فى بيانه فمنهم من قال : هم قوم يقدسون الروحانيات ويتخذون لها وسائط يعبدونها لتقربهم اليها ، وقد انقسموا فيما يعبدون الى فرق : فرقة تعبد السيارات من الكواكب واخرى تعبد الثوابت منها وثالثة تعبد الأوثان . (انتهى) .

وقد خرجنا من كل ما طالعناه فى مختلف التفاسير ان احـدا لم يعرف على وجـه الدقة من هـم « الصابئة » وهل هو دين محدد . ومن هنا فقد سمحنا لأنفسنا أن نفـكر فيما يمـكن أن يكون المقصود بالكلمة .

ولقد كانت قريشا فى أول الاسلام تطلق على كل من اسلم انه صبا اى خرج من دين آبائه وأجداده ، وهذا هو الأصل فى اللغة جاء فى معجم الفاظ القرآن :

« الصابىء » بالهمز وبدونه كل خارج من دين لآخر . ثم تحدث المعجم بدوره عن الخلافات التى لا حد لها حول معتقدات الصابئة فكان من بين ما قال أن بعض من قال عن الصابئة « انهم قوم لا دين لهم » ولذلك فمن رأينا اننا لا نعرف دينـــا محددا للصابئة .

واذ اخذنا ميثاقكم : اى اذكروا يوم تعهـدتم لموسى بعد أن خلصكم من الذل والعبودية ان تكونوا أولياء لله مؤتمرين بأوامره ومعرضين عن نواهيه.

ورفعنا فوقكم الطور : جرى خلاف حـول موضوع الرفع وهل كان ماديا او معنويا وسنعود الى ذلك فيما بعد .

الطور : لغة هو مجرد الجبل ولكنه هنا الجبل المعين فى سيناء .

خذوا ما أتيناكم بقوة : أى شمروا عن ساعد الجد واعملوا فى صدق واخلاص لارضـــاء الله سبحانه وتعالى .

واذكروا ما فيه لعلكم تتقون : أى وحافظـــوا دائما على التعاليم الالهية ليقيكم ذلك من غضب الله .

ثم توليتم من بعد ذلك : أى أعرضتم ولم تفوا بالعهد الذى قطعتموه على أنفسكم .

فلولا فضل الله عليـــكم ورحمته لـــكنتم من الخاسرين : أى فلولا نعمة الله عليكم ان كان يوفقكم من حين لآخر بالتوبة لساءت عاقبتـــكم فى الدنيا والآخرة .

وهذا كلام ككل كلام القرآن حتى وان كان فى معرض الحكاية فهو يشع بالنور والهداية لسائر البشر ، فنحن معاشر المؤمنين نعيش فى رجـــاء دائم ان لا يحجب عنا فضله ورحمته فيوفقنا للتوبة اذا أخطأنا أو نسينا .

ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم فى السبت : يذكر القرآن الكريم اليهـــود باعتداء نفـــر منهم أى (تجاوزهم) ما فرض عليهم يوم (الســـبت)والسبت هو هذا اليوم المعروف من أيام الأسبوع وفى شريعة اليهود ما يحظر عليهم العمل خـــلال هذا اليوم ، وسنعود الى ذلك .

كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُواْ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُواْ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ

« فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين »

خاسئين : اى صاغرين مبعدين يقال خسأته خسا وخسىء اى ابعدته فبعد (١) .

كونوا قردة : سنعود الى موضوع المسخ كان ماديا او معنويا .

فجعلناها نكالا : النكال الزجر والعقاب اى أن ما حل باليهود المعتدين كان عبرة .

لما بين يديها وما خلفها : اى أن العبرة كانت للمعاصرين وللأجيال المتلاحقة بعد ذلك .

وموعظة للمتقين : الوعظ : التخويف ، وقال الخليل : الوعظ التذكير بالخير مما يرق له القلب، وخص المتقين من كل أمة فى كل زمان ومكان لتفردهم بها عن الكافرين المعاندين ، فهم وحدهم الذين ينتفعون بالوعظ وذهب البعض الى ان الخطاب فيها موجه لامة محمد حتى لا يقعوا فى مثل ما وقع فيه اليهود .

واذ قال موسى لقومه ان الله يامركم ان تذبحوا بقرة : البقرة ، هى هذه البهيمة المشهورة وهى تطلق على الانثى حيث يطلق على الذكر من نوعها « ثور » والذبح معروف ، والمعنى واضح وبسيط وصريح وهو أن موسى عليه السلام طلب من قومه اى من بنى اسرائيل ، أن يذبحوا بقرة (مطلق بقرة) وسنعرف فيما بعد هذا الطلب ،وبدلا من أن يسارع اليهود الى تنفيذ أمر نبيهم ومنقذهم ، تحدثنا الآيات عن لجاجتهم وشكهم الدائم المستمر ، فكان أول ما فعلوا أن انكروا على موسى هذا الطلب .

قالوا اتتخذنا هزوا : اى هل تسخر بنا ،والهزء اللعب والسخرية ، فكان أن رد عليهم سيدنا موسى الرد الذى كان يجب أن يدركوه من تلقاء انفسهم .

اعوذ بالله ان اكون من الجاهلين :

أعوذ : الفعل عاذ بمعنى التجأ ولاذ .

اى أن سيدنا موسى استنكر كلمة القوم وذكرهم بأن مثله (وهو نبى مرسل) لا يسخر من الناس فالسخرية بالناس من شأن الجاهلين . والجهل نقيض العلم .

(١) لاحظ علينا البعض اننا بدأنا نكثر من الناحية اللغوية وقد نقلنا ذلك عن قصد لنعيد لمباحث اللغة العربية اهميتها وخطورتها بعد أن حاول المحاولون أن يطمسوا نورها .

قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هى : وبدأ بنو اسرائيل لجاجتهم ، وترددهم الذى يكشف عن خبيئة انفسهم وانهم على الرغم من تاكيد موسى لهم بأنه يقصد قصدا الى ذبح بقرة فراحوا يطلبون منه أن يدعو الله ليبين لهم ما نوع هذه البقرة قال ابن عباس رضى الله عنهما « لو امتثلوا الأمر وذبحوا اى بقرة لحصل المقصود ولكنهم شددوا على انفسهم فشدد الله عليهم ما هى » : ماهية الشيء حقيقته وذاته التى هو عليها .

قال انه يقول انها بقرة لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك :

الفارض : المسنة .

البكر : الفتية .

عوان : اى بين بين .

ويكون المعنى العام أن البقرة المقصودة هي بقرة وسط فلا هى كبيرة مسنة ولا هى صغيرة فتية .

فافعلوا ما تؤمرون : واراد سيدنا موسى ان يحسم القضية ويبطل لجاجتهم فانتهرهم وأمرهم ان يصدعوا بالامر ولكن الاسرائيليين مضوا فى لجاجتهم .

قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها : وهكذا لم يكفهم أن تكون بقرة عادية متوسطة السن فراحوا يسألون عن لونها مع اننا نعرف أن قطعان البقر فى منطقة معينة لايمكن الا أن تكون ذات لون متقارب وشاء الله ان يؤدبهم .

قال انه يقول انها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين :

الفاقع : شديد الصفرة تسر الناظرين لحسنها.

تقول العرب : حالك السواد ، ناصع البياض ومن هذا القبيل الاصفر الفاقع .

وبتحديد اللون اصبح المطلوب :

١ — بقرة .

٢ — شديدة الصفرة .

٣ — متوسطة العمر .

فهل اكتفى اليهود بذلك واسرعوا الى تنفيذ الأمر الالهى الذى جاءهم على لسان نبيهم ؟ كلا بل انهم بعد أن عقدوا القضية على انفسهم راحوا يجارون بالشكوى .

« قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هى ان البقر تشابه علينا وانا ان شاء الله لمهتدون » .

وبدأ اليهود القضية من جديد فسألوا مرة أخرى عن ماهية البقرة ، ويبدو انهم احسوا ان سيدنا موسى يوشك أن ينفجر من شدة الغضب فأسرعوا يهدئون من غضبه بأن قطعوا على انفسهم العهد بأن يكون ذلك آخر سؤال (وانا ان شاء الله لمهتدون) .

جاء فى تفسير القرطبى انه ورد عن رسول الله قوله « لو ما استثنوا(١) » ما اهتدوا اليها ابدا ومضى الله سبحانه وتعالى فى معاقبتهم على لجاجتهم بالتشديد عليهم اكثر فى نوع البقرة المطلوبة .

---

(١) اى قالوا : ان شاء الله .

لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ (٧١) وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ (٧٢) فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٧٣) ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٧٤) * أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ

« قال انه يقول أنها بقرة لا ذلول تثير الأرض ولا تسقى الحرث مسلمة لاشية فيها »

لا ذلول تثير الأرض : اى أنها بقرة صعبة لم تروض ، فلم يذلها العمل .

لا تثير الأرض ولا تسقى الـزرع : فهى لـم تشتغل فى حرث الأرض وسقى الزرع فلم يذللها المحراث والساقية .

مسلمة : اى خالية من العيوب .

لاشية فيها : اى ليس فيها اى جزء يخالف لونها الأصفر الفاقع وقد فهمنا من السياق ان بنى اسرائيل احسوا بأنهم تمادوا فى المحاورة والمداورة فوعدوا بأن يكون سؤالهم عن ماهية البقرة ثانى مرة هو آخر سؤال فكان أن قالوا بعد ان وصلت المسألة الى هذه الدرجة من الشدة .

قالوا الآن جئت بالحق : وياله من قـدر ان لا ينصاع اليهود فى كل زمان ومكان للحق الا بعد أن يضيق عليهم ويحاط بهم ، انظر الى قولهم «الآن جئت بالحق » مع ان موسى لم يقل الا حقا مـذ طالبهم بذبح بقرة .

وعندنا ان هذا الحوار ذكر فى القرآن الكريم بكل هذا التفصيل لتحقيق هدفين :

الأول — الكشف عن طبيعة اليهود .

الثانى — تحذير المسلمين من ان يقعوا فى مثل ما وقع فيه اليهود ولنا عودة الى هذه المسألة .

« فذبحوها وما كادوا يفعلون » : اى انهم انصاعوا فى خاتمة المطاف بالأمر فجاءوا بالبقرة المطلوبة وذبحوها .

وما كادوا يفعلون : اى كادوا ان لا يفعلوا .

« واذ قتلتم نفسا فادارأتم فيها »

ادارأتم : اى اختلفتم وتنازعتم وجمهرة المفسرين على ان هذه الآية هى بداية القصة والسر فى طلب موسى من قومه أن يذبحوا بقرة ، وسنرى فيما بعد ان أحد مشايخنا الأعلام منذ نصف قرن أراد أن يرى فى الموضوع وجها جديدا فاختلف معه بشدة جلة من العلماء فى ذلك الوقت .

« والله مخرج ما كنتم تكتمون » : أى أن اللهسبحانه وتعالى سيكشف عن ما حاولتم اخفاءه وطمسه .

« فقلنا اضربوه ببعضها » : أى اضربوا القتيلببعض اجزاء البقرة المذبوحة .

« كذلك يحيى الله الموتى » : كان موضوع البقرةسبيلا ليرى بنو اسرائيل راى العين كيف يحيى الله الموتى .

« ويريكم آياته لعلكم تعقلون » : فى هذه الآيةما يفهم منه أن بنى اسرائيل كانوا ينكرون البعث فأراد الله أن يريهم قدرته التى لا حـد لها لعلهميعقلون ، ولعل الكثيرين لا يعرفون أن اليهود لم يعقلوا حتى اليوم فهم لا يؤمنون بالبعث وهذا هوسر جزعهم الذى لا حد له من الموت .

« ان الذين آمنوا والذين هـادوا والنصارىوالصابئين من آمنبالله واليومالآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هميحزنون » .

نريد بداءة ذى بدء أن نسجل آخر فقرة جاءتفى تفسير الوسيط لاشياخنا علماء الأزهر وفقرة اخرى من تفسير المنتخب للمجلس الاسلامىالأعلىباعتبار هاتين الفقرتين هما التفسير المعول عليه لهذه الآية وجاء فى التفسير الوسيط :

« وبما أن الايمان لا يتحقق الا بالايمـان باللهوجميع رسله وفيهم محمد ـ صـلى الله عليه وسلم ـ لقوله تعالى « ان الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بينالله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا . اولئك هم الكافرون حقا واعتدنا للكافرين عذابا مهينا » فلهذا تحدد الايمان المطلوبفى الآية وهو الايمان بالدين الاسلامى . فلابد من اعتنـاقه .

وجمع بين الايمان بالله واليوم الآخر لاهمية الايمان باليوم الآخر فى تثبيت دعائم الايمان بالله واتقان العمل الصالح . (انتهى) .

وجاء فى تفسير المنتخب :

ان الذين آمنوا من الأنبياء من قبل ، واليهودوالنصارى ومن يقدسون الكواكب والملائكة ومن آمن برسالة محمد بعد بعثته ، ووحد الله تعالىوآمن بالبعث والحساب يوم القيامة وعمل الأعمال الصالحة فى دنياه فهؤلاء لهم ثوابهم المحفوظ عندربهم ولا يلحقهم خوف من عقاب ، ولا ينالهم حزن على فوات ثواب والله لا يضيع اجر من احسن عمـلا .

انتهى

نص من القرطبى :

وجاء فى تفسير القرطبى : روى عن ابن عباسقوله : « ان الذين آمنوا والذين هادوا » الآية منسوخ بقوله تعالى : « ومن يبتغ غير الاسلامدينا فلن يقبل منه » الآية .

وقال غيره ليست بمنسوخة وهى فيمن يثبتعلى ايمانه من المؤمنين بالنبى عليـه السـلام (انتهى) .

ملاحظة :

والآن وبعـد أن اثبتنـا الراى الـذى يجب ان يكون عليه المعول اى عليه الفتوى كما يقولون ، نسمح لانفسنا ان نفيض بعض الشيءفى تبيان ما فهمناه من هذه الآية ، والتزامابمنهاجنا

فما كنا نسمح لأنفسنا بأى نوع من الفهم على اى وجه من الوجوه الا ان نكون قد سبقنا اليه من بعض السلف الصالح وعلى ضوء ذلك نقول وبالله التوفيق .

جاء فى تفسير ابن كثير عن مجاهد :

قال سلمان رضى الله عنه سألت النبى صلى الله عليه وسلم عن اهل دين كنت معهم فذكرت من صلاتهم وعباداتهم فنزلت الآية « ان الذين آمنوا .. الآية » .

وقال السدى « ان الذين آمنوا .. الآية » نزلت فى اصحاب سلمان الفارسى بينما هو يحدث النبى صلى الله عليه وسلم اذ ذكر أصحابه فاخبره خبرهم فقال كانوا يصلون ويصومون ويؤمنون بك ويشهدون أنك ستبعث نبيا فلما فرغ سلمان من ثنائه عليهم قال له نبى الله صلى الله عليه وسلم « يا سلمان هم من أهل النار » فاشتد ذلك على سلمان فأنزل الله هذه الآية . انتهى ماجاء فى تفسير ابن كثير . وقد جاء فى القرآن الكريم عديد من الآيات التى تشير الى ان الله سبحانه وتعالى يكافىء على الأعمال الصالحة ويجازى على الأعمال السيئة أيا كان مصدرها — جاء فى التنزيل :

« ليس بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب من يعمل سوءا يجز به ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا . ومن يعمل من الصالحات من ذكر او انثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا » وقد جاء فى القرآن الكريم آية عامة شاملة .

« فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره . ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » .

وفى حدود الآية التى نحن بصددها فقد اشترط الله سبحانه وتعالى شرطين لاستحقاق وعده « ان لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » وهــذان الشرطان هما :

١ — الايمان بالله واليوم الآخر .

٢ — العمل الصالح .

والايمان بالله يستتبع على الفور الايمان بكتبه ورسله فكما لا يكمل ايمان المسلم اذا أنكر رسالة موسى أو عيسى عليهما السلام ، فكذلك لا يتم ايمان غير المسلم بعد بعثة سيدنا محمد الا بالايمان به . والحق اننا اذا كنا نفهم عدم ايمان الملحد الذى لا يؤمن بالله ولا بسيدنا محمد فلسنا نفهم بحال كيف يؤمن بالله من ينكر رسالة محمد من اصحاب اى دين !! لقد سئل المسيح عليه ما ورد فى الانجيل كيف يمكن التمييز بين النبى الصادق وغير الصادق فقال لهم : « من ثمارهم تعرفونهم » ولم تشــهد الدنيا فى كل تاريخها اعظم ثمرة واجلها واروعها مما جاء به سيدنا محمــد وهو كله خير وبركة واحسان ورحمة فانكار رسالة ســيدنا محمــد لا يستقيم معها ايمان بالله ابدا .

وعلى ذلك تكون الآية الكريمة خاصة بكل من اتبع دينا من الأديان القديمة قبل بعثة ســيدنا محمد . متى تحقق هذان الشرطان الايمان بالله واليوم الآخر من ناحية والعمل الصالح من ناحية اخرى .

أما بعد بعثة سيدنا محمــد فقد أصبح آية الايمان بالله هو الايمان برسالته .

« واذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون . ثم توليتم من بعد ذلك فلولا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين » .

قضية رفع جبل الطور :

تتحدث هذه الآية عن آية كونية من هذه الآيات التى ما فتىء الله سبحانه وتعالى ان يريهـا لبنى اسرائيل منذ خرجوا من مصر مما مـر بنـا ابتداء من شق البحر ، وقد اثارت هذه الآيـة الكريمة جدلا حول مسألتين .

١ ــ هل كان ارتفاع الطور عملية مادية ام هو مجرد تعبير بيانى من الكنايات والاستعارات والمجازات .

٢ ــ الا تتضمن الآية معنى الاكراه ، اى ان اليهود آمنوا خوفا من وقوع الجبل عليهم .

فاما عن المسألة الأولى ونعنى هـل ارتفـاع الجبل كان حقيقة او على سبيل المجاز فقد كان المرحوم الشيخ عبد الوهاب النجار فى كتابه قصص الأنبياء ممن ذكروها ولم ير فى كلمة رفعنا او كلمة فوق ما يدل على الرفع المادى ففى القرآن الكريم « اذ جاءوكم من فوقكم » ولم يعن ذلك بحال ان الفوقية هنا كانت تعنى المسامتة واستدل بآية اخرى فى القرآن تحدثت عن نفس الواقعة بقولها:

« واذ نتقنا الجبل فوقهم كانه ظلة وظنوا انه واقع بهم خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون » .

ولـما كانت كلمة نتق تعنى الزعزعة والهز والجذب فقد راح المرحوم الشيخ عبد الوهاب النجار فى خضم مباحث طويلة عريضة حول هذا الموضوع وهو جهد مشكور .

ومن ناحيتنا نرى ان ذلك كله لا غناء فيه فكيفما كانت حقيقة ما حـدث فهو يذكر فى القـرآن لاستخلاص ما ينطوى عليه من عبرة وعظة وهذا هو لب الموضوع وجوهره . وقد قدمنا بمناسبة الحديث عن شـق البحر اننا لا نقر محاولة من يحاولون تفسير المعجزات تفسـيرا يتفق مـع عقولهم ومفاهيمهم .

المسألة الثانية : اما عن المسألة الثانية التى اثارها البعض من الآيـة تتضـمن اكراه بنى اسرائيل على الايمان ، فنحن لا ندرى اى شىء فى الآية يوحى بهذا المعنى ، ان الآية تحدثنا ان الله سبحانه وتعالى اخذ ميثاق بنى اسرائيل ، وهو ما تكرر ذكره من قبل ، فلم يكن ذلك نتيجة رفع الطور فوقهم ، ولا يعدو أن يكون رفـع الطور فوقهم هو كما قدمنا احـدى الآيات التى ما فتىء الله سبحانه وتعالى ان يريهم اياها مـذ اخرجهم من مصر ، وحتى فى الآية الثانية الواردة فى سورة الاعراف « واذ نتقنا الجبل فوقهم كانه ظلة وظنوا انه واقع بهم خذوا ما آتيناكم بقوة » .

فهذه الآية الكريمة تصور ما ظنه اليهود من ان الجبل سيقع عليهم ، ولكنها لا تتحدث عن أن اليهود كانوا كفرة فآمنوا خوفا من ان يقع الجبل عليهم ، لا تشير الآية عن بعد او قرب الى ان الايمان كان نتيجة الخوف . بقى أن نتساءل فمن اين اذن جاءت فكرة التحدث عن الاكراه ؟

لقد جاءت من أحاديث اسرائيلية كانت تتردد حول هذه الوقائع فكانوا يفهمون آيات القرآن على ضوئها ، ونحمد الله اننا فى العصر الحديث قد تخلصنا من هذه الاسرائيليات فخلص لنا فهم القرآن .

ورحم الله الشيخ محمد عبده عندما قال : « لاحاجة لنا فى فهم كتاب الله الى غير ما يدل عليه باسلوبه الفصيح فهـو لا يحتاج فى فهمـه الى اضافات أو ملحقات وقد ذكر لنا مسألة رفـع الطور فوق بنى اسرائيل ولم يقل انه اراد بذلك الاكراه على الايمان » .

انتهى

« ثم توليتم من بعد ذلك فلولا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين » .

لا يجب أن نفهم من هذه الآيات التعاقب الزمنى السريع اى فى يوم وليلة او اسبوع واسبوعين فالقرآن هنا يواجه اليهود بتاريخهم عبر قرون وقرون ، وكيف انهم لا يكاد ينصلح حالهم حتى ينكثوا من جديد وينحرفوا ومع ذلك فقد شاء الرب الرحيم ان يبقى عليهم ، ولولا ذلك لكانوا من الخاسرين ، وانا افهم من الخسران هنا الهلاك والبوار فى الدنيا ولا اقول بقول من قال انه يعنى « المعاقبين بسبب نقضهم للعهد » .

فالعقاب من شأن الله وهو ـــ القائل : « ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » وهو لن يحابى اليهود لانهم يهود والعقاب والثواب رهن بمشيئته يوم القيامة ومن هنا قلت اننى افهم من « لكنتم من الخاسرين » اى لاهلكم الله وافناكم من هذه الدنيا ، ولكنه يبقيكم فضلا منه ورحمة كما فعل بهم وبغيرهم من العصاة والفاسقين .

« ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم فى السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين . فجعلناها نكالا لما بين يديها وما خلفها وموعظة للمتقين » .

المسخ وحقيقته :

تشير هذه الآية الى مخالفة ارتكبها اليهود بالقيام ببعض الاعمال المنهى عن عملها يوم السبت فى شريعة اليهود والسبت لغة بمعنى القطع واصطلاحا هو يوم الاسبوع المعروف ويعظمه اليهود ويقدسونه تقديسا غير عادى زاعمين ان الله سبحانه وتعالى بعد ان خلق الدنيا فى ستة أيام « استراح » فى اليوم السابع وتنزه الله وتعالى عما يقولون علوا كبيرا .

فالراحة لا تكون الا بعد التعب ، قارن ذلك بقول القرآن الكريم « ثم استوى على العرش » فهو التعبير الذى يليق بجلال الله وكماله .

ونعود الى تفسير الآية فهى تحدثنا عن قوم تجاوزوا حدود الله فى يوم السبت فلعنهم الله وقال لهم : «كونوا قردة خاسئين» ولابد أن تكون هذه الحادثة مشهورة فى أوساط اليهود على أيام سيدنا محمد اذ أن الآية تبدأ بتقرير ذلك « ولقد علمتم » ويفيض قدامى المفسرين بمناسبة هذه الآية فى الحديث عن « المسخ » وهو اخراج الانسان من صورته الانسانية الى أخرى حيوانية أو جمادية وقد روى ابن جرير فى تفسيره عن مجاهد قوله : « ما مسخت صورهم ولكن مسخت قلوبهم فلا تقبل وعظا ولا تعى زجرا » .

ويمضى أشياخنا فى تفسير الوسيط الذين رجحوا هذا الرأى فيقولون « وذاك على حد تمثيلهم بالحمار فى قوله تعالى : « مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا » ولا شك ان الانسان الذى ينقاد لشهواته وليس له وازع من دينه يمسخ قلبه فيصبح كالحيوان منقادا لغرائزه وشهواته كلمادعته .

وفى مثله يقول الله تعالى :

« ان هم الا كالانعام بل هم أضل سبيلا » . انتهى ما جاء فى تفسير الوسيط

ونحن نتوقف بالنسبة لهذه الموضوعات التى تشير الى وقائع تمت وانتهت منذ الوف السنين ، ولنا دائما الموعظة التى يسوقها القرآن وهى التحذير والتخويف من مغبة عصيان أوامر الله

ونواهيه وهو ما تشير له الآية التاليـــة من ان العقوبة التى نزلت بالمعتدين اريـــد بها العبرة والاتعاظ للاجيال التى كانت معاصرة للحـــادث وللأجيال التالية « لمـــا بين يديها وما خلفهـــا » وموعظة للمتقين فى كل زمان ومكان .

قصـــة البقرة :

نصل الآن الى قصـــة البقرة والتى ســـميت السورة باسمها وفى سرد القصة بهذا التفصيل هدفان : الأول هو ما أشرنا اليه سابقا من لجاجة اليهود وترددهم وتشككهم فى كل شىء .

أما الهدف الثانى فهو تحذير المسلمين من ان يقعوا فى مثل ما وقع فيه اليهود من اللجاجـــة وكثرة السؤال وهو ما ورد بالنص فى آية اخرى: « يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن اشـــياء ان تبد لكم تسؤكم . وان تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم عفا الله عنها والله غفور حليم . قد سألها قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين ».

وجاء فى الحديث الصحيح « ويكره لكم قيل وقال ، واضاعة المال ، وكثرة السؤال » فلعلك ادركت من ذلك لماذا استعرض القرآن الكريم قصة البقرة بهذا التفصيل وكيف يشعر المطالع للقصة بالضجر من بنى اسرائيل والحاحهم فى المسألة وهذا هو عين ما قصد اليه القرآن الكريم.

والقصة بعد ذلك تدور حول حادثة ربما كانت السبب المباشر لاحتواء العهد القديم على نص تشريعى يعالج امثال هذه الحادثة ، وهى تتلخص حسبما يفهم من آيات القرآن وبعد اســـتبعاد عشرات القصص التى حفلت بها كتب التفسير القديمة اذ لا سند لها فى أن : قتيلا قتل فى بنى اسرائيل ولم يعرف القاتل فلما سألوا ســـيدنا موسى أن يرشدهم الى الفاعل أمرهم بتوجيه من الله سبحانه وتعالى أن يذبحوا بقرة ليضربوا المقتول ببعضها (وهذا البعض غير معين أو محدد) فيحيا الميت (على سبيل المعجزة) ويدلهم على القاتل .

وفى الآيات على نسق القرآن تقديم وتأخـــير فقدم الآيات التى تصور لجاجة بنى اسرائيل لانها هى المقصودة على ذكر الحادثة التى ادت الى هذه اللجاجة .

ومن هنا كان المفسرون بالاجماع على أن قصة البقرة تبدأ من الآية المتأخرة فى الترتيب « واذ قتلتم نفســـا » ثم تجىء آيات « واذ قال موسى لقومه » على أن المرحوم الشـــيخ عبد الوهاب النجار خرج على هذا الاجماع منذ أربعين سنة أو يزيد فاقترح أن يعتبر الموضوع قصتين ، بمعنى أن يفصل موضوع ذبح البقرة عن موضوع القتيل.

وقد استعملنا تعبير « اقترح » فالحـــق ان العالم الجليل قد ساق رأيه على سبيل الاقتراح اى انه ساقه بعد أن اثبت الرأى الذى عليـــه الاتفاق ، ولم يشأ أن يجزم أو يقطع بما ارتآه ، وليس الا بعد أن استثاره البعض بنقدهم له ، ان تشبث برأيه ودافع عنه دفاعا طويلا .

المسلك الواجب حيال تفسير القرآن

والحق ان الاسلام لا يحجر على العقـــول ، ولا يسد الطريق الى أبد الآبدين على اى اجتهاد صادق أمين ورع ولكن السلف الصالح خـــلال القرون الماضية ، لم يدع بابا من ابـــواب فهم القرآن الكريم على ضوء اللغة الا وطرقه ، وما من معنى يطوف برأس الانسان مما قد تؤدى اليه معانى بعض الآيات الا وقد سبقنا اليه .

فعندما يجمع السابقون على أمر فلست أتصور انه يمكن مخالفتهم . افهم أن تكون معارف العصر الجديدة قد كشفت لنا عن بعض الحقائق فتضيفها على ما قيل فى القديم ، اما ان نخالف فى مسائل لا جديد فيها ، واجمع السلف على قول واحـدفيها هنا ولا يجوز الخلاف كما قدمنا ونعترف اننا لم نفهم الحكمة فى مخالفة ما اجمع عليه المفسرون من وحدة القصة الا أن يكون هو الرغبة فى تفسير معجزة احياء الميت ليشهد باسم قاتله تفسيرا عقلانيا وهـو ما كررنا من قبل أكثر من مرة ان لا غناء فيه فقبول معجزة واحدة يعنى قبول سائر المعجزات ، ورفض اى معجزة على أساس التفكير العقلى كما نفهمه فى الوقت الحاضر يؤدى بنا الى رفض سائر المعجزات ، فاذا رفضنا هنا وعلى سبيل المثال قصة هذا القتيل الذى شاءت ارادة الله أن يبعث ليدل على قاتله فعلى اى اساس نقبل معجزات سيدنا عيسى وأنه يحيى الموتى . الحق أن موضوع المعجزات لا ينبغى بحال ان نخضعه للمقاييس العقليـة فيجب ان نؤمن به ايمانا غيبيا كبقية الغيبيات ومن فضل الله علينا معاشر المسلمين ان ايماننا بالاسلام وسيدنا محمد باعتباره رسولا من رب العالمين يقوم على الحقائق الناصعة التى غيرت وجه البشرية ويقوم بالأكثر على هذا الكتاب الخالد بين ايدينا والذى لا يأتيه الباطل من يديه ولا من خلفه ونعنى به القـرآن الكريم .

مفردات :

« ثم قست قلوبكم » القساوة : الصـلابة والشدة واليبس . والقرآن الكريم هنا يتحدث عن قلوب اليهود وكيف تحولت فأصبحت فى قساوتها كما لو كانت حجارة .

« أو أشد قسوة »

يجب أن نستحضر دائما فى أذهاننا ان القرآن الكريم هو ذروة البلاغة العربية ، فهو بعد ان يشبه القلوب بالحجارة فى قسوتها لا يلبث ان يهبط بها الى ما دون الحجارة .

وان من الحجارة لمـا يتفجر منه الأنهار

ويمضى القرآن الكريم فى رسم الصورة التى تعبر عن قساوة قلوب اليهود وخلوها من كل رحمة حتى لتفضلها الحجارة . فعلى الرغم من صلابتها الظاهرة الموحشة ، فقد تتدفق ميـاه الأنهار من خلالها .

التفجر : التفتح بسـعة وكثرة .

والمياه هى الحياة ، فيكون المعنى ان بعض الصخور يفور بالحيـاة .

وان منها لمـا يشقق فيخرج منه المـاء .

التشقق ، التصدع بطول أو بعرض .

واذا كانت العين ترى ماء النهر يتدفق من منبع صخرى ، فانها قد ترى الصخر يتشقق ويسيل المـاء على التو من هذه الشقوق .

« وأن منها لمـا يهبط من خشية الله »

هنـا وافترق المفسرون فالبعض يرى ان فى الكلام استعارة فاستعيرت الخشية للحجارة ، كما استعيرت الارادة للجدار « جدارا يريد ان ينقض » ومثله كثير فى القرآن ومن المفسرين من

اخذ الكلام على الحقيقة من مثل ما جاء فى القرآن: « لو انزلنا هــذا القرآن على جبــل لرايته خاشعا متصدعا من خشية الله » .

ونحن نرى ان كلا الوجهــين جائز وان يدور الكلام مدار المجاز والاستعارة . فهــذا احــد اساليب القرآن البلاغية ، وان يكون القول على الحقيقة فجائز ايضا . فقدرة الله لا يحدها حد وعقولنا لا تستطيع أن تســتوعبها ، انظر الى الذرة التى لا تراها بالعين لضآلتها انظر اليها وقد اكتشفوا انها مجموعة شمسية مصــغرة وانظر كيف اصبح ينبعث منها طاقة هائلة . ومن هنا فنحن نقف أمام هذه الآية وأمثالها موقفنا من قوله تعالى : « وان من شىء الا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم » ولنا العظة المستفادة من الكلام سواء كان على وجه المجاز او الحقيقة، وهى أنه حتى الجماد يلين ويرق وينبض بالحياة ويخشى الله ولكن قلوب اليهود لا تفعل ذلك .

« وما الله بغافل عما تعملون »

ويحذرهم الله ويحذر معهم بنى البشر جميعا بأنه حاضر دائما عالم دائما بكل ما يجرى ، لا يدع كبيرة او صغيرة الا يحصيها .

« أفتطمعون أن يؤمنوا لكم »

الطمع لغــة أرزاق الجند يقال أمر لهم الأمير بأطماعهم اى بأرزاقهم . والطمع كمــا يفهمه الناس هو نزوع النفس الى الشىء شهوة (على ما جاء فى معجم الفاظ القرآن) . والفعل طمع فيه وبه طمع على وزن فرح .

والقرآن الكريم اذ يوجه الحديث للمؤمنين فى المدينة فهو دائما يوجهه فى الدرجة الاولى لسيدنا محمد بصفته رأس المؤمنين ، وسيدنا محمد عليه الصلاة والسلام بحكم رسالته شــديد الحرص على هداية الناس كافة ، كذلك كان شأنه وهو فى مكة وقد رأينا مدى لهفته على ايمان قريش بعــامة ومن يحبهم بخاصــة حتى نزل القرآن الكريم يقول له :

« انك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهــدى من يشــاء » .

وغير ذلك كثير نراه فى السور المكية ، فلما ان هاجر رسول الله الى المدينة كان قوى الأمل فى أن يؤمن اليهود برسالته .

١ — لانهم لا يعبــدون الأوثان ولا يشركون بالله وبالجملة فهم اهل كتاب يقوم جوهره على عين ما يدعو له الاسلام .

٢ — ان يهود المدينة بالذات كانوا يبشرون ببعثة سيدنا محمد قبل مقدمه الى المدينة فلما ان قدم عليها واصبح بين ظهرانيهم انكروه وجحدوه فكان من الطبيعى أن يحز ذلك فى نفس سيدنا محمد وأن يحمله على الأسى فنزل عليه القرآن بالآيات التى مرت بنا تكشف له عن طبيعة اليهود ونزوعهم الى الكفر والمروق والعصيان ، فلا على سيدنا محمد من حرج أن لا يؤمنوا به ، فقد فعل اسلافهم بموسى مثل الذى يفعلونه بسيدنا محمد وهو العناد واللجاجة والتشكك على الرغم من كل الآيات والمعجزات الحسية التى اجراها الله على يد موسى عليه السلام .

« وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه » .

وتركز هذه الآية على ناحية برع فيها اليهود وتفوقوا فيها على سائر البشر وهى أن يحرفوا الكلام ويخرجوا معانيه عن مواضعها ، وهم فى هذه الناحية لا يتحرجون او يتأثمون عن تحريف « كلام الله » نفسه كما هو مثبت فى التوراة وقد افترق المفسرون سواء منهم القدامى او بعض

المحدثين ، حول عبارة « يسمعون كلام الله » وقبل ان نعرض لهذا الخلاف نذكر دلالته وهى التى حملتنا على الاشارة الى هذا الخلاف .

فالقضية الواحدة قد تبدو فى نظر البعض واضحة مشرقة بينما يرى البعض الآخر معنى آخر يختلف كل الاختلاف عما بدا فى نظر الآخرين لا يحتمل جدلا فضلا عن لبس .

فحيث يرى اشياخنا علماء الأزهر فى تفسير الوسيط ونحن من رأيهم ، أن المقصود بعبارة « يسمعون كلام الله » مقصود بها التوراة ، ولا يرى اشياخنا ان الأمر يحتمل وجهين حتى ليمتنعون عمدا عن الاشارة للراى الآخر . ونحن نوافقهم كل الموافقة على ما ذهبوا اليه .

ولكنا التزمنا فى تفسيرنا منذ البداية ان نستعرض بعض الأقوال الأخرى وخاصة اذا كانت لشيخ المفسرين ابن جرير الطبرى وتابعه عليها الشيخ رشيد رضا فى تفسير المنار .

وخلاصة الراى ان الآية تشير الى السبعين رجلا الذين اختارهم سيدنا موسى ليصحبوه فى مقابلته لله عز وجل فوق جبل الطور ، وهؤلاء هم الذين حرفوا كلام الله بعد ان سمعوه .

يقول الشيخ رشيد رضا بعد ان فسر الآية على هذا الوجه مستشهدا بكلام الطبرى :

« قال ابن جرير : لو كان المراد هنا تحريف كلام التوراة المكتوب لما قال : « يسمعون كلام الله ثم يحرفونه » فزيادة « يسمعون » هنا لابدلها من حكمة ولولا ذلك لجاء الكلام على نسق الآيات الأخرى التى ذكر فيها التحريف كأن يقول: « وقد كان فريق منهم يحرف كلام الله » وقوله تعالى : « من بعد ما عقلوه » نص فى التعمد وسوء القصد ، وابطال لما عساه يعتذر لهم به من سوء الفهم .. ومضى الشيخ رشيد رضا ينقل عن ابن جرير الطبرى فيما لا يخرج عما سبق .

وسندع القرطبى يتولى الرد على هذا الراى ولكننا نسجل هنا ما سبق ان قلناه اكثر من مرة اننا لا نوافق على الراى مهما كان مصدره يقول : لو كان القرآن يريد كذا لوجب ان يقول كذا .

فما كان لبشر ان يحكم على القرآن بفهمه .

قال القرطبى بعد أن ذكر قصة السبعين رجلا وانهم سمعوا كلام الله عز وجل لسيدنا موسى وبعد أن سجل كلاما بنفس المعنى للكلبى قال : « قلت هذا حديث باطل لا يصح . رواه ابن مروان عن الكلبى وكلاهما ضعيف لا يحتج به وانما الكلام شىء خص به موسى من بين جميع ولد آدم فان كان كلم قومه ايضا حتى اسمعهم كلامه فما فضل موسى عليهم وقد قال وقوله الحق « انى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى » وهذا واضح . (انتهى كلام القرطبى) .

أما ابن كثير فقد قال :

ليس يلزم من سماع كلام الله أن يكون منه كما سمعه الكليم موسى بن عمران عليه السلام وقد قال الله تعالى : « وان أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله » .

لا حجة على الخلف بما فعل السلف .

وأضيف وقد رأينا فيما مر بنا حرص القرآن الكريم على قاعدة « الا تزر وازرة وزر أخرى » . ومن هنا فعندما يقول القرآن الكريم للنبى صلوات الله عليه وسلامه ولمن معه من المؤمنين ان لا يطمعوا فى ايمان اغلبية اليهود المعاصرين فلا يمكن ان يكون ذلك الا لسبب قائم فيهم هم ، لا بسبب نفر فعلوا ما فعلوا فى غابر الزمان فالذى كان يحرف هم اليهود المعاصرون لسيدنا محمد وكلام الله هو التوراة

مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوٓا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ

« وهم يعلمون » يحرص القرآن الكريم فى كل مناسبة ان الله سبحانه وتعالى لا يعاقب الا على الاعمال التى ترتكب عن عمد ، والعلم بما يفعل الانسان هو شرط العمد .

« واذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا واذا خلا بعضهم الى بعض قالوا اتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم » تحدثنا اكثر من مرة ان النفاق وجد فى المدينة بعد ان اصبحت القوة والغلبة فى يد سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام واصحابه « الانصار » وكان اليهود بطبيعة الحال اول المنافقين وعلى راسهم من خلفهم .

وفى هذه الآية الكريمة يأخذ بعض اليهود ممن لم ينافقوا على اخوانهم الذين نافقوا انهم يقولون للمسلمين ما اعتاد اليهود ان يتعبدوا به ، وقد اختلف كما هى العادة حول هذا الذى كان اليهود المنافقون يقصونه من اخبارهم فقال بعض المفسرين ان المقصود هو صفة النبى كما كانت مسجلة فى التوراة وشهادة الأنبياء السالفين بمقدم سيدنا محمد واصافه . ويرى بعض آخر ان المقصود هو ما حل باليهود فى تاريخهم من انواع العذاب كمسخ الله لهم (قردة وخنازير) وعندنا ان القول بأن المقصود هو هذا القسم من الكلام او ذاك هو تخصيص بغير مخصص فلا شك ان اليهود المنافقين كانوا يتحدثون بهذا وذاك وبغيره من مثله ولنا نص القرآن فى انهم كانوا يتكلمون بما ينهض حجة عليهم ويسقط عنهم كل عذر بالجهل او سوء الفهم ولذلك فان توبيخ اخوانهم لهم ينتهى بعبارة :

« أفلا تعقلون » : اى هل فقدتم عقولكم لتفعلوا هذه الفعلة .

« أولا يعلمون ان الله يعلم ما يسرون وما يعلنون » .

وليس ادل على كفر اليهود بسيدنا محمد ، بل وجهلهم بقدرة الله التى لا يحدها حد وعلمه الذى يحيط بكل شىء . والا لما قالوا لاخوانهم ما قالوا فجاء القرآن الكريم ليسجل عليهم وليحذر وينذر .

(أولا يعلمون) هؤلاء الجهلة عمى القلوب (ان الله يعلم ما يسرون) اى ما يخفونه فى سريرة أنفسهم ، تماما كما يعلم ما يصرحون به ويجهرون .

« ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب الا امانى وان هم الا يظنون » .

الأميـــون جمع « أمى » وهو الذى لا يقـــرا ولا يكتب اى كما ولدته امه .

امانى : جمع أمنية وهى ما يقدره الانســـان فى نفســـه وهى هنا تعنى الأكاذيب والهواجس والظنـــون والمعنى ان بعض هؤلاء اليهود الذين يتشدقون بالمعرفة والعلم جهلة بالقراءة والكتابة وما يزعمون انه علم من التوراة ليس فى حقيقته الا من خلق أوهامهم وتصـــوراتهم وظنـــونهم الكاذبة .

— « فويل للذين يكتبون الكتـــاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا فويل لهم ممـــا كتبت ايديـــهم وويل لهم ممـــا يكسبون » .

الويل : عن ابن عباس : المشقة من العذاب . وقيل : هو بمعنى الهلاك وقيل : « الويل » تحمل معنى التفجع . والويح : ترحم ، ولا عبرة بقول من قال : ان الويل : واد فى جهنم . فهو حديث عن الغيب . وقد استعمل العرب كلمة ويل قبل نزول القرآن ، بل واكثروا من استعمالها بمعنى الهلاك والعذاب والنقمة فوجب الوقوف عنـــد هـــذا الحـــد .

والمعنى العام أن الهلاك والعذاب سيحل بهؤلاء الكذابين المزورين على الله الذين يكتبون الكتاب بأيديهم ، وأيديهم هنا تعنى أن ما يكتبونه هو من اختراعهم واوهامهم ثم يجترئون على الله زاعمين أن هذا الذى كتبوه من عند الله ويفعل من يفعل هذه الكبيرة من اليهود من أجل عرض من أعراض الدنيا الفانية التى مهما عظمت من مال أو جـــاه أو ســـلطان فهى بالقياس الى ما عند الله شىء تافه (ليشتروا به ثمنا قليلا) .

ويدمدم القرآن ويشـــتد ويغلظ على مرتكبى هـــذه الفعلة فيعود للانذار والوعيـــد فى تكرار تقشعر منه الأبدان .

« فويل لهم مما كتبت ايديهم وويل لهم ممـــا يكسبون » .

— « وقالوا لن تمسنا النار الا أياما معدودة قل اتخذتم عند الله عهدا فلن يخلف الله عهده أم تقولون على الله ما لا تعلمون » .

لن تمسنا النار : اى لن تصيبنا . والمس اتصال احد الشيئين بالآخر .

« أياما معدودة » : اى يضبطها العد كناية عن قلتها . يعيش اليهود فى كل زمان ومكان على أوهام وتصورات ما أنزل الله بها من ســـلطان وكلها تدور حول تصورهم انهم على خلاف جميع البشر فهم شعب الله المختار وهم أبناء الله واحباؤه ، وهم هنا يزعمون أن النار لن تمس (العاصين منهم) الا أياما معدودات جعلها بعضهم ســـبعة باعتبار يوم عن كل الف من الألوف السبعة التى خلق الله فيها الدنيا ، وفى رواية قالوا بل هى اربعون يوما بقدر سنوات « التيه » الاربعين .

وكل هذا خلط بطبيعة الحال .

والمهم انهم كانوا يتبجحون بهذا الادعاء فراح القرآن يفند دعواهم ويفضح اساليبهم فيسالهم على اى أساس يقوم هذا الوهم « اتخذتم عند الله عهدا فلن يخلف الله عهده » هل لديكم عهد من الله أن لا يعذبكم الا أياما معدودة ؟ وطبعا لا يوجد مثل هذا العهد وانما هى احدى دعاوى اليهـــود الكاذبة يطلقونها فى كل زمان ومكان ليعيشوا فى ظلها لفترة من الزمان « فلن يخلف الله عهده » لا يفوت القرآن فى كل مساجلة واى حـــوار عن تأكيد ذات الله ووحدانيتـــه وصفاته . فنراه هنا وهو فى معرض التســـاؤل عما اذا كان لدى اليهـــود عهد ان لم يعذبهم الا أياما معدودة فاطمأنوا لذلك تأسيا على ان الله لا يخلف العهد ، ولـــما كان الجواب بالنفى

عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ

فان القرآن الكريم يصدر حكمه على اليهـود بالكذب والتقول على الله ، ولكنه باسلوبه الذى اعجز ائمة البلاغة ببلاغته يسوق الحكم على اليهـود بالكذب والتقول على الله ويستنكر فعلتهم ويوبخهم وكل ذلك فى صيغة التساؤل « أم تقولون على الله ما لا تعلمون » .

— « بلى من كسب سيئة واحاطت به خطيئته فأولئك اصحاب النار هم فيها خالدون » .

بلى : اى ليس الأمر كما ذكرتم وهى رد لقولهم « لن تمسنا النار » الآية .

وبلى حرف جواب مثل نعم ولكنها لا تقع الا جوابا على نفى متقدم سواء ادخله الاستفهام أم لا وهى تفيد اثبات ما بعدها .

سيئة : يجب أن تفهم فى هذا الموضع على انها شىء فوق السيئات العادية التى يمكن ان يقع فيها اى انسان ودواؤها التوبة النصوح من ناحية وعمل الحسنات من ناحية اخرى « ان الحسنات يذهبن السيئات » وذلك مستفاد من سياق الكلام ، فالسيئة يبلغ بها المدى الى الحد الذى تصبح فيه هى المنطلق الذى تصدر منه كل تصرفات الانسان « واحاطت به خطيئته » اى استولت عليه .

واما الدليل الثانى الذى يدل على حقيقة المقصود بالسيئة فقول القرآن الكريم « فأولئك اصحاب النار هم فيها خالدون » ومن هنا فقد ذهب بعض السلف الى ان « سيئة » هنا تعنى الكفر أو الشرك ، ونحن لا نميل الى تحديد المقصود بكلمة سيئة « بالكفر او الشرك » فما دام الله عز وجل قد اختار هذا التعبير فذلك لحكمة مقصودة فالكلام موجه لليهود ولم يكونوا كفارا ولا مشركين فدل ذلك على أن من يمارس السيئات حتى تحيط به خطيئته يصبح من اصحاب النار المخلدين فيها ومن هنا فنحن ننصح كل من له اذنان للسمع ان لا يتمادى فى خطئه وان يبادر بالتوبة .

جاء فى الحديث الصحيح : « ان العبد اذاأذنب ذنبا تكتب فى قلبه نكتة سوداء فان تاب ونزع واستغفر صقل قلبه وان عاد زادت حتىتعلو قلبه » فذلك الران الذى ذكره الله تعالى فى القرآن « كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون » .

« والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون » .

ويسير القرآن الكريم على نهجه ونسقه فلايكاد يذكر الشر حتى يذكر الخير على الفور انه الوجه الثانى من الحياة ، انه الظلام والنــوروالعدم والوجود انهما الحياة والموت فاذا كانت الدنيا لا تخلو من الشر ، فهى كذلك لا تخلو من الخـــير .

وكما أنذر الاشرار وتوعدهم بالخلود فى النارفهو هنا يعد الاخيار بالخلود فى الجنة والاخيار هم « والذين آمنوا وعملوا الصالحات » .

هذا التفســير :

مر الأيام لا يزيدنى الا ايمانا فوق ايمان ، ان كل شىء بقضاء وقدر فاذا جرى على ايدينا خير فبتوفيق من الله ، خذ على سبيل المثــال هذا التفسير فعندما بدأته منذ سبع سنوات لا فى عزمى ولا تصميمى بل ولا فى مجرد فكرى ان اتصدى لتفسير القرآن فالله الحافظ لكتابه ، هو وحده الذى يوجه وهو الذى يوفق ويعين .

ثم كانت هزيمتنا الساحقة امام اليهــود فىيونيو ســـنة ١٩٦٧ والتى كانت تحمل فى طياتها عقابا الهيا من غــير شك . فما كان الله ليسلطعلينا اليهود الا ليظهر غضبه ونقمته علينـــا وفزعت الى القرآن استلهمه واستوحيه فوجدتفى ســـورة العصر العزاء والســـلوى والمنهاج الواجب ان يتبع . وتتابع تفسيرى لقصار السور وهو كما ذكرت من قبل خلاف التقليد المتبع . وهو ان يبدأ التفسير بسورة البقرة حسب ترتيبالمصحف على ما ذكرت ذلك فى مستهل تفسيرى لسورة البقرة ، ولكن الآن وبعد ان قطعت هذاالشوط من تفسير سورة البقرة فقد تجلت لى حكمة الله سبحانه وتعالى وتوفيقه لى فى هذا الترتيب ، فقد شاء لى سبحانه وتعالى ان لا اشرع فى تفسير البقرة الا بعد أن يرفع نقمته وغضبه عنا وينصرنا بأذنه على اليهود . فسورة البقرة فى جزئها الأول حديث عن اليهود وعن طبيعتهم فىمختلف صورها . وقد شـــاء الله لتفسيرى ان يستضىء بضوء القرآن فيشفى بعض الصدوربأن يكون سجلا الى أبد الابدين لهذا الحدث العظيم ، وهذا الحدث يأخذ طريقه لهذا التفسيربحكم النهج الذى اتخذناه لأنفسنا منذ بدأنا وهو أن نضيف بعد تفسير السلف ما قد يكون عصرنا الحديث قد أضافه لاظهار اعجاز آيات القرآن على مر الزمن .

اليهــود والقسوة :

انظر الى هذه الآيات التى تحدثنا عن قسوة اليهود حتى لتصبح كالحجارة أو أشد قسوه .
هذا كلام أنزل على سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام منذ قرون وقرون وقرون .

كانت القسوة أحد مظاهر التصرفات البشرية فكان الرومان على سبيل المثال يقيمون حفلات وحشية يقذفون فيها بالبشر الى الاسود الجائعة ويطلبون من العبيد أن يتصارعوا حتى الموت ، ومثل ذلك كان يحدث فى شتى المجتمعات بأسلوب او بآخر ، ومرت الأيام وترققت الطباع ووضعت القواعد الانسانية لتتبع حتى فى حالة الحرب وعلى راس هذه القواعد عدم التعرض للمدنيين بسوء .

ولكن ها هو القرآن يحكم على اليهود بأن قلوبهم اقسى من الحجارة ، فماذا كان يكون موقفنا لو كان اليهود كبقية البشر اصبحوا ودعاء رحماء ارقاء ، الم نكن كنا سنكون مضطرين عندما نصل الى هذه الآية أنها تحكى عن اليهود المعاصرين لسيدنا محمد ولكن شاءت ارادة السميع العليم ان يظهر لنا من جديد آياته فاذا اليهود هم اليهود فى كل زمان ومكان قست قلوبهم حتى اصبحت كالحجارة أو اشد قسوة فقد روعت الدنيا كلها من وحشية اليهود عندما اسقطوا طائرة ركاب مدنية بما فيها من شيوخ ونساء واطفال بعد أن استسلمت واصبحت فى ايديهم ولما ارتج العالم بهذه الفظاعة فحاولت الدعاية الصهيونية أن تتلمس الاعذار اذا برئيسة القوم تعلن فى برود وصفاقة أنها هى التى امرت بهذه الفعلة وهكذا شاء السميع العليم اننى عندما اتعرض لتفسير آية « ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهى كالحجارة أو اشد قسوة » ان تهتف الدنيا كلها « صدق الله العظيم » .

« ويحرفون الكلم »

واذا كانت القسوة الشديدة احدى صفات القوم فان الادعاء والغرور وتحريف الكلام هو خبزهم اليومى . ولا يتورعون فى ذلك حتى عن التقول على الله فراحوا يشيدون ملكهم على اكاذيب اصطنعوها والمهم هو فى نسبتها لله ولعل هذا هو سر نقمة الله الجديدة عليهم بالخذلان والبوار الذى هم فى طريقهم اليه .

الامية والنبى الامى :

تقدمنا أن كلمة « أميون » هى جمع « أمى » و « الأمى » وهو الذى لا يقرا ولا يكتب نسبة الى الأم اى ان الانسان كما ولدته أمه وهو يولد لا يعرف القراءة والكتابة . وقد حرص القرآن الكريم على وصف سيدنا محمد بالنبى الأمى وذلك على الرغم من تمجيد القرآن للعلم ، والقراءة والكتابة هما مفتاح العلم ومن هنا كانت أول كلمة نزلت من القرآن هى « اقرا » فعلى الرغم من احتفال القرآن الكريم بالعلم والتعلم فقد شاءت ارادة الله سبحانه وتعالى لسيدنا محمد أن يكون أميا لا يعرف القراءة والكتابة وذلك ليكون ما جاء به من القرآن هو معجزة المعجزات . وبالرغم من ذلك فقد ظل المنكرون والمشركون يتقولون على سيدنا محمد من أنه متعلم ومتثقف بعلوم الأولين والآخرين ليفسروا هذا الفيض من العلم الذى لا حدود له كما اشتمل عليه القرآن .

اليهود والاستشراق :

وقد نصب اليهود أنفسهم اعداء للاسلام مذ كان الاسلام ، وقد كانت آخر محاولتهم من هذا القبيل ان تصدى نفر من اليهود باسم « الاستشراق » فيدرسون الاسلام ثم يدسون فى هذه الدراسة بعض ما يبلبل الاذهان فمن ذلك موضوع « الامية » فقد حاولوا أن يحرفوها عن معناها فقالوا أنها تعنى « الاممية » واليهود يعتبرون من عداهم من البشر من « الامم » فعندما يقول القرآن النبى الأمى فهو يعنى أنه من غير اليهود وهو قول متهافت بل سخيف ولكنه وجد طريقه الى بعض كتب المسلمين المولعين بكل ما يجىء من الغرب .

ولقد اشرنا الى هذا الموضوع من قبل اكثرمن مرة ، ونحن نثيره من جديد بمناسبة هذه الآيات حيث تقطع بسوء قصد اليهــود عندمايفسرون كلمة « الأميون » بأنها تعنى غير اليهود فها هى الآية الكريمة تصف بعض اليهود بالأمية .

« ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب الا امانى ». وهكذا ينفضــح كل هذا الدس وكل هــذه الاسرائيليات التى تترى كل يوم فى شكل جديد .

مفــردات :

« واذا اخذنا ميثاق بنى اسرائيل »

كناية عن هداية الله لهم وفضله عليهم مذ انسلهم من ظهر يعقوب (اسرائيل) بن اسحاق ابن سيدنا ابراهيم وكملت نعمته عليهم باخراج سيدنا موسى من صفوفهم وأنزل عليه التوراة وفيها وصايا الله اى أوامره ونواهيه فأصبح فرضا على اليهــود ان يطيعوا هــذه الأوامر والوصايا [الميثاق] هو « العهد المؤكد » .

« لا تعبدون الا الله »

جوهر العهد والميثاق بين الله سبحانه وتعالى وبين بنى اسرائيل وســائر الأمم والشــعوب والجماعات فى كل زمان ومكان وهو افراد الله بالعبادة وهو ما نسميه بالتوحيد المتمثل فى قوله : « لا اله الا الله » .

« وبالوالدين احسانا »

ظاهرة تكررت فى القرآن الكريم ، وهى ان يرتفع بالاحسان الى الوالدين الى مرتبة عبادته . جاء فى القرآن الكريم :

« أن اشكر لى ولوالديك الى المصير »

« وقضى ربك الا تعبدوا الا اياه وبالوالدين احسانا » وســوف نتحدث فى هذا الموضــوع باسهاب اكثر فيما بعد .

القربى : بمعنى القرابة وهو مصدر كالرجعى والعقبى ، اى وأمرناهم بالاحسان الى اقاربهم ، الأقرب فالأقرب ، وأقرباء الانسان من ناحية أبيه يسمون بــ « العصب » ومن ناحية امه يسمون بــ « الأرحام » وكان العرب لا يقيمون وزنا الا لصلات الانسان من ناحية ابيه فجاء الاسلام ليرتفع بأقرباء الانسان من ناحية امه مكانا علياكما سيرد علينا .

واليتامى : جمع يتيم مثل ندامى جمع نديم وكان العرب لا يسمون اليتيم الا من فقد اباه وذلك جريا على منهاجهم فى جعــل « الذكورة » هى كل شىء .

وعندنا ان الطفل الرضيع والصغير لا يكاد يحس بفقدان والده فضلا عن ان يتأثر بغيابه وليس الا عندما يشب عن الطوق ما يؤثر عليه فقــدان الأب لحرمانه من العناية والارشــاد والحماية ، ويكون اليتم هو فقدان ــ الطفل أولا والصبى ثانيا ــ هذا الكنز من الحنان والعون والمساعدة التى يبذلها الأبوان كلاهما او واحدمنهما « الأم فى المراحل الأولى ثم الأب فى المرحلة التاليــة » .

واليتم من الناحية اللفظية يعنى « الانفراد » يقال : درة يتيمة اى ليس لها نظير ، وبيت شعر يتيم ، اى لا قبله ولا بعده .

والمساكين : الذين اسكنتهم الحاجة فاصبحوا ضعفاء . روى مسلم عن ابى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم : « الساعى على الأرملة والمسكين كالمجاهد فى سبيل الله — واحسبه قال : وكالقائم لا يفتر عن صلاة وكالصائم لا يفطر » .

وقولوا للناس حسنا : اى خاطبوا الناس بمايطيب خاطرهم .

« واقيموا الصلاة وآتوا الزكاة »

اقامة الصلاة : اداؤها مستوفية الشرائط وايتاء الزكاة : اى اعطاؤها لمستحقيها .

« ثم توليتم الا قليلا منكم وانتم معرضون »

شأن اليهود فى كل زمان ومكان عندما لا ينصاعون الى الحق او لا ينفذون العهود حتى ولو كانت مع الله سبحانه وتعالى ، ما عدا قلة منهم بطبيعة الحال فى كل زمان ومكان ، وقد كان عبد الله بن سلام من هذه القلة على زمن رسول الله .

الحديث موجه للمسلمين :

واذا كانت الآية الكريمة تذكر فى مجال الحديث عن بنى اسرائيل فان ما اشتملت عليه الآية من اوامر ، فهى موجهة للمسلمين لأن محورها هو مكارم الأخلاق . وهى جوهر الأديان كلها مما سنفصله فيما بعد ، جاء فى سورة النساء :

« واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين احسانا وبذى القربى واليتامى والمساكين .. الآية » .

واذ اخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم .

السفك لغة معناه : الصب

والنفس مأخوذة من النفاسة ، فنفس الانسان هى اشرف ما فيه ، والمعنى ان احد اوامر الله هو عدم قتل النفس ، وطالما اعتبر القرآن ان جريمة قتل انسان واحد هى بمثابة قتل الجنس البشرى كله . « فكأنما قتل الناس جميعا » ولما كان القاتل هو احد افراد الجنس البشرى فكأن القاتل عندما يقتل فهو يقتل نفسه بالقصاص فى الدنيا احيانا ، ولكنه فى الآخرة على وجه القطع واليقين .

« ولا تخرجون انفسكم من دياركم »

ويمضى القرآن الكريم فى اعتبار اى مساءة او مضرة تقع على انسان فرد بدون وجه حق فهى انما تقع على الناس جميعا ولذلك فهو ينسبها الى الكل بما فيهم مرتكب العمل [انفسكم] فانظر يا رعاك الله الى عظمة هذا التشريع السماوى وقارن بين تقديسه للنفس البشرية وحرمة كل ما يتصل بها وبين ما جرى عليه العمل اخيرا باسم التقدم حيث يترخص فى قتل الناس بدعوى ان ذلك لمصلحة الجماعة .

« ثم أقررتم وانتم تشهدون »

الخطاب هنا موجه الى اليهود المعاصرين لرسول الله من حيث ادعائهم بأنهم متمسكون بالشريعة التى تأمرهم بكل ذلك «وانتم تشهدون» اى تشهدون بقلوبكم أن هذا هو الحق من ربكم .

« ثم أنتم هؤلاء تقتلون انفسكم وتخرجون فريقا منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالاثم والعدوان » .

بعد أن سجل القرآن الكريم على اليهود ادعاءهم بأنهم مؤمنون بالتوراة منصاعون لأحكامها التى تنهاهم عن سفك دم اخوانهم اليهود أو اخراجهم من ديارهم ، ومع ذلك فهم يخالفون ذلك ويتحدونه فيقتلون فريقا من اليهود ويخرجون بعض اليهود من ديارهم ويظاهرون عليهم بالاثم والعدوان .

تتظاهرون : أى تتعاونون مشتق من الظهر لأن بعضهم يقوى بعضا فيكون له كالظهر ، جاء فى القرآن الكريم « وان تظاهرا عليه » بمعنى تعاونا .

الاثم : هو كل فعل يستحق فاعله الذم .

العدوان : الافراط فى الظلم والتجاوز فيه .

ما الذى كان يفعله اليهود ؟

ويرجع هذا الذى يسجله القرآن على اليهود من سفكهم دماء البعض واخراج البعض الآخر من ديارهم الى كونهم كانوا مقسمين الى فريقين فى المدينة وحولها وكان احد القسمين يتألف من بنى قينقاع ومن بنى النضير وهؤلاء كانوا يحالفون الخزرج اما القسم الثانى فكان يتألف من بنى قريظة وهؤلاء يحالفون الأوس ، ولما كانت الحرب لا تكاد تنقطع بين الأوس والخزرج قبل مقدم رسول الله صلوات الله عليه الى المدينة ، وكان على كل قسم من اليهود أن يحارب مع حلفائه ، ومن هنا كان اليهود يقتل بعضهم بعضا ويعاونون على اخراج بعضهم من ديارهم الى هنا قد يبدو أن الظروف قد ألجأتهم الى ذلك ، ولكن التناقض والنفاق باسم الدين والتمسك بالتوراة سرعان ما كان يتجلى فى تصرفهم التالى :

« وان يأتوكم أسارى تفادوهم وهو محرم عليكم اخراجهم أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض » .

أسارى : على وزن سكارى — جمع أسير ، والأسير هو الانسان الحى الذى يؤخذ أثناء الحرب وكانوا فى القديم يشدون وثاقه (الاسار) فاشتقت كلمة أسير .

تفادوهم : من الفداء وهو طلب الفدية من الاسير [أى العوض فى مقابل رد حريته] والمعنى ان اليهود كانوا يبادرون عقب كل حرب يدفعون الفدية عن كل أسير يهودى كائنا من كان بدعوى انهم ينفذون حكم التوراة التى تأمرهم بأن لا يتركوا بنى ملتهم من اليهود فى الأسر ، مدافعين عن هذه الفعلة بأن هذا هو نص التوراة. وهنا يكشف الله عن تناقضهم ونفاقهم ، فهى تأمرهم حقا بأن يفكوا أسارى اليهود ولكنها تأمرهم كذلك ان لا يخرجوهم من ديارهم ، وأن لا يظاهروا عليهم بالعدوان ومع ذلك فقد ضربوا بالتوراة عرض الحائط ، فما بالهم يدعون هنا انهم ينفذون ما فيها من أحكام ؟ « وان يأتوكم أسارى تفادوهم وهو محرم عليكم اخراجهم أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض » والكتاب هنا يعنى التوراة .

ازدواجية اليهود وتناقضهم :

وصدق الله العظيم الذى صور لنا طبائع اليهود وها نحن أولاء بعد أربعة عشر قرنا من تنزيل هذا القول نراه مجسدا أمامنا فى دولة اسرائيل فيدعون انهم يقيمونها اذ تقضى بذلك التوراة حيث يخالف قادتها احكام التوراة فى تحدويعلنون فى بعض المناسبات [انهم ملاحدة] أى أن طبعهم هذا الازدواج وهذا التناقض لخدمة مصالحهم بل واهوائهم ، فهم مضطرون الى تنفيذ احكام التوراة عندما يكون فى ذلك أذى للناس ولجيرانهم بصفة خاصة ، أما عندما تحتوى

ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ

التوراة نصا يدعو للرحمة والشفقة بالغرباء والضعفاء وقليلى الحيلة فهنا لا يتبعون وصايا التوراة .

« فما جزاء من يفعل ذلك منكم الا خزى فى الحياة الدنيا » .

الخزى : هو الهوان .. خزى يخزى خزيا اى ذل وهان .

كان من العدل الالهى أن ينزل عقابه عليهم لخبث طويتهم ونفاقهم الذى يتمثل فى ايمانهم بالكتاب وقتما يشاءون وكفرهم به ساعة يريدون، فقضى عليهم بالهوان والذل فى الدنيا ، واحمد الله الذى أمد فى أعمارنا نحن الذين رأينا وعانينا من صلف اليهود واستكبارهم ، حتى نراهم وقد أخزاهم الله يوم عيدهم الاكبر وحطم غرورهم .

وقد كان الخزى فى الحياة الدنيا من نصيب اليهود دائما على ما فصلنا فيما سبق .

ويوم القيامة يردون الى اشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون .

وليس الخزى الذى ينزله الله على اليهود من حين لآخر الا على سبيل التحذير والانذار ولكن هيهات لليهود ان يرعووا ، ومن هنا فسوف يكون عقابهم فى يوم القيامة بقدر جرائمهم ومكائدهم وفسادهم فى الأرض ، فليس الله بغافل عما يعملون ، فهو العالم المحيط بكل شىء صغر او كبر دق أو خفى فى هذه الحياة الدنيا .

« أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون » .

ويأبى الله بفضله ورحمته الا أن يعلمنا « ويعلمكم الله » فى كل مناسبة لنأخذ العبرة والعظة ، فها هو يقول لنا عن السر الذى جعل اليهود يتصرفون على هذا النحو مما جعلهم مستحقين لاشد العذاب ، ذلك انهم باعوا آخرتهم بدنياهم فاستحبوا اعراض الدنيا وتكالبوا عليها واعرضوا عن آخرتهم ومن هنا « فلا يخفف عنهم العذاب » اى لا يفتر عنهم ساعة واحدة « ولا هم ينصرون » اى لا يجدون لهم ناصرا او مجيرا من عذاب الله .

« ولقد آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده بالرسل » .

الكتاب : يعنى التوراة .

وقفينا : اى واتبعنا ، والتقفية تعنى الاتباع والارداف مأخوذ من « القفا » اى مؤخر العنق ومنه تسمية مؤخرة الشعر بالقافية .

فى هذه الآية الكريمة سيشرع القرآن الكريم فى دحض مزاعم بنى اسرائيل فى انهم يتبعون التوراة التى أنزلت على سيدنا موسى والقرآن هنا يكتفى بالاشارة الى ما سبق أن ذكر بعضه بالتفصيل فيما سبق من عنادهم ولجاجتهم وكفرهم وقد اعتاد اليهود أن يعتذروا بجهل اسلافهم على أيام موسى عليه السلام وانهم كانوا لا يزالون قريبى العهد بالوثنية ومن هنا كانت الاخطاء

التى ترددوا فيها ومن هنا فقد ذكرهم القرآن انهم وقفوا نفس الموقف من سلسلة الرسل التى راحت تترى عليهم من بعد موسى من امثال يوشع وداود وسليمان وعزير والياس واليسع ويونس وزكريا ويحيى فكل هؤلاء قد ذاقوا الأمرين من بنى اسرائيل .

« وآتينا عيسى ابن مريم البينات »

واذا كان القرآن الكريم قد اكتفى فى هذا الموضع بذكر « الرسل » فقد ذكر اسماءهم فى مواضع اخرى ولكنه اختص بالذكر « عيسى ابن مريم » فقد كانت رسالته يتبعها كثير من الناس ولايفتأ القرآن يذكر سيدنا عيسى بأنه «ابن مريم» ليصرف عن الاذهان انه « ابن الله » .

« البينـــات » اى الحجج والمعجزات التى اجراها الله على يد سيدنا عيسى كشفائه للمرضى الميئوس من شـــفائهم ، [الاكمه والابرص] وكجعله العميان يبصرون وفوق ذلك كله احيـــاء الموتى بتأييد من الله وباذنه وهو ما عبر عنه القرآن الكريم بقوله تعالى :

« وايدناه بروح القدس » والمسلمون على ان روح القدس هو جبريل عليه السلام ولهم على ذلك شاهدان من القرآن والسنة ، فأما من القرآن فما ورد فى سورة النحل « قل نزله روح القدس من ربك بالحق » ومعلوم باتفاق ان سيدنا جبريل كان هو الذى ينزل بالقرآن ، أما الشاهد من السنة فهو ما ورد فى صحيح مسلم من ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لحسان بن ثابت : « قل وروح القدس معك » وقال له مرة اخرى : « وجبريل معك » وايا كان المقصود بروح القدس فالقرآن لا يجعل مجالا للشك فى أن روح القدس بعض مخلوقات الله أيا كانت درجتها ومرتبتها ومكانتها ، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا .

« افكلما جاءكم رسول بما لا تهوى انفسكم استكبرتم ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون » .

تهوى : الأصل « الهوى » وهو الميل الى الشىء وهى هنا تعنى فى خطاب القرآن الكريم لليهود أكلما جاءكم رسول بما لا يوافق رغبات انفسكم ويلائمها ويحقق مصـــالحكم الدنيـــوية الزائلة « استكبرتم » عن اجابته بدافع الغرور والتعالى ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون « وتاريخ بنى اسرائيل الذى يتعبدون به (العهـــد القديم) ملطخ كله بدم الأنبياء الذين قتلهم اليهود ، ومن نجا من براثن الموت فلم يقابل الا بالصـــد والتكذيب ، فعندما زعم اليهود من معاصرى سيدنا محمد من انهم انما لا يتابعونه لأنهم يتمسكون بالتوراة والقرآن الكريم يذكرهم أنهم فعلوا مثل ذلك مع موسى ومع كل من جاءوا بعده فكذبوا البعض وقتلوا الاكثرين فموقفهم من رسول الله هو عين موقف اسلافهم من كل دعوة حق جاءتهم .

وقالوا قلوبنا غلف :

غلف : جمع اغلفة اى عليها اغطية او اغشية وهكذا انحدر اليهود الى ما انحدر اليه من قبل مشركو قريش عبـــدة الأوثان حيث قالوا على ما حكى عنهم القرآن : « قلوبنا فى اكنة مما تدعونا اليه » والقول واحد فى كلتا الحالتين يدفع اليه الغطرسة والعمى والعناد ، كأنهم يقولون : وفر يا محمد جهدك فقلوبنا مغلقة متحجرة عن ان تسمع شيئا مما تقول .

« بل لعنهم الله بكفرهم فقليلا ما يؤمنون »

لعنهم : اللعن فى كلام العرب الطرد والابعاد يقال للذئب لعين وكذلك يقال للرجـــل الطريد والمعنى هنا ان الله سبحانه وتعالى أبعدهم عن رحمته وتوفيقه وهدايته وهكذا يكذبهم الله فيما زعموا من أن قلوبهم مغلقة عن ان تسمع مـــا يقوله سيدنا محمد « بل لعنهم الله بكفرهم فقليلا ما يؤمنون » اى ان الامر ليس كما زعموا وانما عاقبهم الله بأن ابعـــدهم عن رحمته « فقليلا ما يؤمنون » اى أن اقل احوالهم ما يكونون فيـــه مؤمنين ، أما الـــكفر فهـــو الاغلب والاعم من احوالهم .

وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ ۞ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ

« ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم »

يشير القرآن هنا الى ما كرره فى اكثر من موضع وهو وحدة الكتب السماوية من حيث الجوهر مما سنعرض له بعد قليل ، فالقرآن الكريم جاء بصدق التوراة من حيث وحدانية الله وعدم الاشراك به وبعثة موسى عليه السلام وفضلا عن هذه المشاكلة بين القرآن والتوراة من حيث الجوهر ، فقد كان لزاما على اليهود المعاصرين لسيدنا محمد ان يؤمنوا به ، فقد روى القرآن وهو كلام الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، روى انهم :

« وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا »

يستفتحون : من الاستفتاح وهو طلب الفتح والنصرة قال ابن عباس : كانت يهود خيبر تقاتل غطفان فلما التقوا هزمت يهود ، فعادت يهود بهذا الدعاء وقالوا : انا نسألك بحق النبى الامى الذى وعدتنا ان تخرجه لنا فى آخر الزمان ، الا تنصرنا عليهم فكانوا اذا التقوا دعوا بهذا الدعاء فهزموا غطفان فلما بعث النبى صلى الله عليه وسلم كفروا به فأنزل الله تعالى « وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا » .

وروى عن معاذ بن جبل وآخرين انه كان يقول لليهود « يا معشر يهود اتقوا الله واسلموا فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد صلى الله عليه وسلم ونحن اهل شرك وتخبروننا بانه مبعوث وتصفونه بصفته ، فقال سلام بن مشكم اخو بنى النضير : ما جاءنا بشىء نعرفه وما هو بالذى كنا نذكر لكم ، فأنزل الله الآية » .

« فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين »

وقد كان هو شأن اليهود دائما فكم بشروا بمقدم المسيح فلما ان جاء المسيح كفروا به مع ان المسيحيين يستخرجون من [العهد القديم] كل صفات المسيح واعماله ومن هنا ضموا العهد القديم الى العهد الجديد [الانجيل] باعتبارهما معا « الكتاب المقدس » وهكذا وقفوا نفس الموقف بالنسبة لسيدنا محمد فبعد أن كانوا يبشرون به جحدوا وانكروه فاستحقوا غضب الله عليه .

فلعنة الله على الكافرين — اى طردهم الله وابعدهم واخرجهم من رحمته .

« بئسما اشتروا به انفسهم ان يكفروا بما انزل الله »

بئس : فى كلام العرب مستوفية للذم كما ان نعم مستوفية للمدح . اى ان اليهود شروا الحق بالباطل .

واشتروا : تستعمل للشراء والبيع جاء فى الصحاح : شرى الشىء يشريه شرا وشراء اذا باعه واشتراه ايضا وهو من الاضداد وهو هنا بمعنى باعوا . اى انهم باعوا انفسهم وخسروها وكان ذلك :

« بغيا ان ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده »

البغى . الفساد من قولهم : بغى الجرح اى فسد ولكن الكلمة هنا تعنى « الحسد » وهو داخل فى المعنى لان الحسد هو فساد النفس .

والقرآن الكريم هنا يكشف لنا عن دخيلة اليهود وانهم فعلوا ما فعلوا من التنكر لسيدنا محمد حسدا ان انزل الله فضله عليه وهى احدى آفات الجنس البشرى فى كل زمان فكم من المتزعمين والرؤساء يدعون دعوات فاضلة أملا منهم أن يذهبوا بفضل هذه الدعوة الى ما يشتهون ، فاذا فشل الداعون وقام بالعمل الصالح — الذى كانوا يدعون اليه — انسان غيرهم وقدر لهذه الدعوة النجاح ، اذا هم يكفرون بما دعوا اليه وذلك من باب الحسد الذى يهلك النفوس .

وكان ذلك شأن بضعة نفر من قريش دعوا قبل بعثة رسول الله الى التخلى عن عبادة الاوثان ومكارم الاخلاق ، فلما ان بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا بمن بقى حيا من هذا النفر يكفر بسيدنا محمد ، وهكذا كان شأن اليهود دفعهم الحسد الى الكفر بسيدنا محمد واليهود يعتبرون انفسهم ابناء الله واحباؤه ، وبالتالى يحتكرون فضل الله والآية تنبه اليهود ان الله ينزل فضله على من يشاء من عباده واذلم يدرك اليهود هذا المعنى الذى هو النتيجة الحتمية للايمان بالله الواحد الأحد خالق كل شىء ومقدر كل شىء ، واذ وقفوا من سيدنا محمد هذا الموقف .

« فباءوا بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهين »

باء يبوء : اى رجع يرجع

مهين : من الهوان اى الذل .

يحاول بعض قدامى المفسرين أن يحددوا مدلولات معينة لبعض الكلمات فيقولون ان اليهود استحقوا الغضب الاول لكفرهم بعيسى عليه السلام ، بينما يقول بعض آخر : الغضب الاول كان لعبادتهم العجل ، والغضب الثانى لكفرهم بسيدنا محمد وعندنا ان ذلك كله لا غناء عنه ، والقرآن نزل باللغة العربية مستخدما اساليبها البلاغية فنحن نفهم من الآية شدة غضب الله ، مثل قوله ، ظلمات من فوقها ظلمات ، كناية عن شدة الظلام ، كما يجب أن نفهم من غضب الله معنى عقابه ، والا فتعالى الله وتنزه عن مفهوم الغضب الانسانى .

« وللكافرين عذاب مهين » .

اى ولما كان كفر اليهود هو بسبب البغى والحسد ومنشأ ذلك التكبر والاستعلاء فقد استحقوا الهوان والصغار فى الدنيا والاخرة .

« واذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله »

موسيقى الالفاظ والمعانى

تتألف الموسيقى من توالى نغمات معينة على اختلاف فى درجة شدتها وسرعتها فالنغمة الواحدة تتكرر فى سرعة حينا وفى بطء حينا آخر، وفى غلظة ثم اقل فاقل ومن هنا تحدث الموسيقى اثرها فى النفس وقد تحدث كثيرون عن الفاظ القرآن وما فيها من موسيقى وهى حقيقة شاهد جيلنا البرهان المادى عليها عندما اصبح يشجيه سماع القرآن المرتل باكثر مما يشجيه سماع القرآن « المجود » ومرد ذلك ما فى تسلسل الفاظ القرآن من نغم يغنى عن كل نغم ، فموسيقى الالفاظ القرآنية مسالة مقررة ، ولكن الجديد (بالنسبة لى أنا شخصيا) هو موسيقى المعانى بمعناها الدقيق اى ان المعنى الواحد يتكرر هو بذاته بعد اضافة جديدة ، أو ان يعرض من زاوية جديدة فاذا به يؤلف موسيقى المعانى بعد موسيقى الالفاظ .

أثارت — هذه المعانى فى نفسى — هذه الآية الكريمة وهى تدعو اليهود للايمان بما انزل الله على سيدنا محمد وهى دعوة تكررت اكثر من مرة فيما سبق ، ولكنها فى كل مرة تساق بعد اضافة جديدة . فالدعوة الى الايمان بما انزل الله توجه مع التذكير بأنها « مصدق لما معهم » وها هى تساق مصحوبة برد اليهود عليها .

« قالوا نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه »

ولليهود فى كل مناسبة ، وفى كل زمان ومكان كلام يتعللون به ، والقرآن هنا يحكى ردهم على دعوتهم للايمان بما انزل الله ، فقد استغلوا اعتراف القرآن بأن التوراة كتاب منزل ، لكى يرفضوا الايمان بالقرآن .

« وهو الحق مصدقا لما معهم » مع ان القرآن الكريم قد جاء يتضمن اعجازه بالنسبة لليهود اذ تضمن كل ما حوته التوراة سواء بالنسبة لأدق تفاصيل قصة سيدنا موسى أو بالنسبة لوصاياه وتعاليمه وهى أمور لم يكن يعلمها فضلا عن أن يحيط بها الا افراد يعدون على الأصابع ويحتكرونها جيلا بعد جيل وقد لا يعرف الكثيرون أنه كان لا يوجد فى المجتمع اليهودى الواحد سوى نسخة واحدة من الكتاب المقدس تحفظ فى مكان بعيد عن الأنظار ويكتفى الشعب بالنظر اليها مرة كل عام . فعندما يسرد القرآن كل ما هو حق وينطبق على ما فى أيدى اليهود فقد كان من الواجب عليهم قبل اى انسان آخر أن يؤمنوا ان من انزل التوراة هو الذى انزل القرآن : ولكن لما كان الايمان بالقرآن يفوت عليهم مصالحهم فقد ادعوا أن بحسبهم ان يؤمنوا بالتوراة وسنرى أن القرآن فى مرحلة تالية يقيم عليهم الحجة بأن يحكموا بالتوراة ان كانوا مؤمنين بها اما فى هذه الآية التى نحن بصددها فقد اكتفى بتسفيه هذه الحجة التى يدعيها اليهود فى كل زمان ومكان بأنهم يتبعون أحكام التوراة وذلك بقوله ٠

« فلم تقتلون أنبياء الله من قبل ان كنتم مؤمنين »

لقد كان أنبياء بنى اسرائيل لا دعوة لهم الا التوراة وحث اليهود على التمسك بها فما كان جزاؤهم الا القتل ، فباطل اذن ما يزعمه اليهود من تمسكهم بالتوراة وغنى عن البيان ان اليهود المعاصرين لسيدنا محمد لم يقتلوا انبياء ومع ذلك فقد وجه اليهم القرآن الخطاب بصيغة الحاضر [تقتلون] ذلك انهم وقد كفروا بسيدنا محمد وكذبوه اصبحوا واسلافهم سواء ودخلوا فى عموم الآية السابقة :

« أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون » .

وحدة الأديان السماوية :

تشير هذه الآيات التى تتحدث عما أنزل الله وانه لا يمكن الا ان يكون واحدا لاتحاد مصدره وهو الله عز وجل ، وهو معنى حرص القرآن اشد الحرص على تاكيده وتعميقه فى نفوس المؤمنين، وبهذا انفرد الدين الاسلامى بل وامتاز على سائر الاديان مذ بزغ نوره فى سماء الدنيا ، ولقد كان هذا المبدأ هو الصخرة التى تحطمت عليها جهود أعتى المبشرين فى تحويل مسلم واحد الى دينهم ، بل وجعلت ابسط مسلم يصحح لاى مبشر عقيدته او على الاقل يسخر منها فى قرارة نفسه ، ذلك ان الاسلام يعترف بكافة الاديان السماوية بعد ان يطهرها من الغواشى التى غشيتها ، وينبه الى الانحرافات التى المت بها ، ويؤكد وحدة جوهرها وهو معرفة الله حق المعرفة بتوحيده وتنزيهه عن الشريك والولد من ناحية ، والحث على مكارم الاخلاق التى لا يقوم العمران البشرى الا على اساسها من ناحية اخرى ، وكل من العنصرين اذا اكتمل يؤدى الى الاخر ، فمعرفة الله حق المعرفة لا يمكن الا ان تؤدى الى مكارم الاخلاق ، كما ان مكارم الاخلاق فى ذروتها لا يمكن الا ان تؤدى الى معرفة الله .

هذان العنصران اللذان يكونان الدين اى دين نراهما متمثلين فى الاسلام اكمل تمثيل ابتداء من الشهادتين .

فاحدى الشهادتين (اشهد أن لا اله الا الله) هى معرفة الله والثانية (واشهد أن محمدا رسول الله) هى الرمز لمكارم الأخلاق .

وكل سطر من سطور الدين هو اشارة لهذين العنصرين — « فعالم الغيب والشهادة » « الدنيا والآخرة » « اقامة الصلاة وايتاء الزكاة » وهكذا .

وقد بقى أن نطلعك على بعض النصوص القرآنية التى حرص فيها على تاكيد وحدة الدين .

« آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله » .

« شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى ... الآية » .

وهذه الآيات التى نحن بصددها هى من تطبيقات ذلك .

الاحسان الى الوالدين :

ونعنى بأنها تطبيق لذلك من ناحية وحدة الاديان السماوية ومن ناحية كون الدين يقوم على دعامتين : معرفة الله ومكارم الأخلاق فقد رأينا كيف اخذ الله ميثاق بنى اسرائيل ان

يعبدوا الله وبالوالدين احسانا الى آخر الآية،ورأينا كيف امر الله المسلمين بهذا الأمر وبذات الالفاظ تقريبا ، وموضوع الاحسان الى الوالدين جدير منا ان نقف امامه بعض الوقت فى هذا العصر الذى اصبحنا نعيش فيه والذى اصبح من مظاهر التقدم والتطور هو التمرد على السلطة الأبوية وبالتالى التنكر للابوين فى احد مراحل العمر ومجمل ما يقال فى هذه القضية انه لا غنى للانسان عن أن يكون محكوما فى تصرفاته الى حد ما بسلطة تعلوه وقد بقى على البشر أن يختاروا اى السلطتين يفضلون ،السلطة الأبوية ام سلطة الدولة ، لقد جاء حين من الدهر بشرت فيه بعض النظريات بوجوب احلال سلطان الدولة محل السلطة الابوية باعتبار ان الروابط الأسرية بعض آثار الماضى التى عفا عليها الزمان ، وفشلت التجربة بصورة بشعة حيث أولعت الدولة فى سفك الدماء والتعذيب وتقييد حرية الفرد الى حد الاختناق ، وعم الفساد والبغى والطغيان وكل صنوف الشرور والجرائم فى كل مجتمع اسقط سلطة الابوين ذلك ان الدولة مهما كانت مدارسها ومعاهدها ووسائل اعلامها لن تستطيع تعهد كل افرادها بالرعاية وغرس القيم الانسانية المتوارثة .

فلا مناص اذا أريد انقاذ البشرية مما تردت فيه أن تعود للاعتراف بالسلطة الأبوية .

والاسلام شأنه فى هذه القضية ككل قضايا البشرية يأخذ بالطريق الوسط . فيبدأ بتأصيل القاعدة الأساسية من أن الوالدين هما كل شيء فى حياة الانسان وقد رأينا كيف قرن حقهما بعبادته دائما ثم وضع بعض القيود على هذه السلطة حين تتعارض مع حق الله « وان جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما » فالحالة الوحيدة التى سمح فيها القرآن بالخروج على طاعة الوالدين عندما يأمرانه بالكفر .

ومع ذلك

فحتى فى هذه الحالة لم يسمح القرآن الكريم للابن فى مناصبة العداء لأبيه او امه ، بل حتم عليه ان يظل يصاحبهما بالمعروف « وصاحبهما فى الدنيا معروفا » .

ويزيد القرآن الكريم فيأمر الابن بالترحم على أبويه كائنا ما كان شأنهما « وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا » .

حدود الاحسان الى الوالدين :

وقد وصل القرآن الكريم الى حد ان حذر من مجرد ابداء التأفف « فلا تقل لهما اف » فلا عذر لمن كان فى قلبه ذرة من ايمان اذا اساء معاملة ابويه .

والحديث فى هذه القضية يطول ويطول وسوف نعود اليه ما دمنا فى صحبة القرآن وحسبنا ان نقول الآن للشباب : انهم باتوا يسمحون للدولة بالتحكم فى مصائرهم فلا اقل من ان يسمعوا ويطيعوا لتوجيهات أبويهم التى تنبع من فيض الحب والرحمة والرغبة فى رؤية ابنهما احسن منهما .

القرآن والسيرة النبوية :

فى كتابنا « نبى الانسانية » وضحنا بتفصيل — العلاقة بين القرآن الكريم والسيرة النبوية باعتباره المصدر الذى لا يرقى اليه الشك فى وقائع السيرة ، لا من حيث كونه كلام الله المنزل فهذا امر مفروغ منه بالنسبة لنا باعتبارنا مسلمين ، يعد كافرا من يتشكك فى ذلك ، ولكنه يعد كذلك (أى المصدر الذى لا يرقى اليه الشك فى وقائع السيرة) من وجهة النظر العلمية البحتة لغير المسلمين ، فهم على اتفاق بأن النص القرآنى الموجود بين ايدينا هو بلا جدال او شبهة ، عين

النص الذى اوحى به لسيدنا محمد ، على تفصيل اوردناه فى كتابنـــا المـــذكور من حيث الدقــة والضمانات الصارمة التى احيط بها جمع القرآن، ثم نسخه بعد ذلك ايام سيدنا عثمان بن عفان ، ثم يقطع الباحثون من غير المسلمين بأن الدنيـــالم تعرف ولن تعرف كتابا فى مثـــل ثبـــات نص القرآن الكريم .

ولمـــا كان القرآن الكريم قد نزل منجما (اى على اجزاء بحسب المناسبات) وهو اذ يجـــادل المنكرين له باعتباره تنزيلا ، فلا يمكن أن يقـــول الا حقا لا يستطيع المكابرون من ســـامعيه ان ينكروه فعندما يشير القرآن الكريم الى واقعـــة تبشير اليهود بمقدم ســـيدنا محمـــد الى حـــد الاستنصار به (الاستفتاح) فان هذه الواقعـــة تصبح بحيث لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها وقد راينا فى حديث معاذ بن جبل الذى اشرنا اليه فيما سبق ، كيف أن اليهود لم ينكروا واقعة « الاستفتاح » وكل الذى قالوه انهم كانوا يعنون نبيا آخر .

اى ان اى اشارة فى القرآن عن بعد أو قرب لوقائع السيرة تجعلها مضيئة مشرقة مثل فلق الصبح .

« ولقد جاءكم موسى بالبينات ثم اتخذتم العجل من بعده وانتم ظالمون »

طالما ذكرنا أن على قارىء القرآن ان يستحضر دائما ان القرآن لم ينزل دفعة واحدة وانما كان ينزل بحسب المناسبات للرد على المعارضـــين احيانا ، ولبسط التشريع وعناصر التوحيد احيانا أخرى ، فلا يقولن قائل لقد سبق معنى هذه الآية من قبـــل :

« واذ واعدنا موسى اربعين ليلة ثم اتخذتم العجل من بعده وانتم ظالمون »

نقول لا يقولن قائل هذا تكرار للمعنى ، وانما يجب ان يتدبر ثبات المعنى على الرغم من الفترة الزمنية التى قد تكون قد انقضت بين نزول الآيتين ، لقد ظل القرآن الكريم ينزل على سيدنا محمد طوال ثلاث وعشرين سنة ، ولوجئت بأول ما نزل منه لوجدت الوحدة الكاملة فى الهدف والاسلوب وادق التفاصيل قد يزيد منها وقد ينقص مكتفيا بالاشارة ولكنك ستجد دائما ثبات المعنى ، وهو ما لم يتهيأ من قبل أو من بعد لبشر ، وهذا الثبات فى المعانى لا يمكن الا ان يكون لكلام الله ، وقد حرص القرآن الكريم على ان يذكر بهـــذا المعنى : بقى أن نضيف انك لن تجد آيتين يتبعان نفس النسق اللفظى مهما اتحد المعنى وهكذا نرى القرآن الكريم يتحدى اليهود الذين يزعمون انهم مؤمنون موحدون ، انهم عبدوا عجل الذهب وآثروه على الله الحق الذى اراهم موسى من آياته وآلائه عليهم ما ينطق الحجر الأصم ومع ذلك فقـــد كفى ان يغيب ســـيدنا موسى عن نواظرهم حتى يصنعوا عجلا من ذهب ويسجدون له .

ولعل احدى سمات اليهـــود عبر الزمن انهم ينسون كل شىء امام الذهب اى المال كمـــا هو شأنهم فى الوقت الحاضر حيث يضحون بكل شىء، بكل القيم والمبادىء ، ازاء المـــال فعجل الذهب هو معبود اليهود فى كل زمان ومكان .

« وانتم ظـــالمون »

لأنفسكم ، ولطالمـــا عبر القرآن الكريم عن الشرك بالله انه ظلم للنفس عظيم اذ يوردها موارد الهلاك والتلف ، جاء فى القرآن « ان الشرك لظلم عظيم » .

« واذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقـــوة واســـمعوا قالوا ســـمعنا وعصـــينا »

ذكرنا من قبل ان بعض المفسرين يتحدثون عن رفع الجبل فوق بنى اسرائيل لاخافتهم وحملهم على الايمان والتصديق ، وقد سجلنا عدم موافقتنا على هذا الراى وقررنا اننا لا نرى فى الآية اى

ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ

شبهة للاكراه ، فرفع الجبل كان بعد اخذ الميثاق وليس قبله . وها هو المعنى يتكرر بنفس الثبات فى المعنى الذى هو سمة القرآن فيشير الى ان رفع الطور كان بعد اخذ الميثاق .

وقد قدمنا أن اخذ الميثاق معناه تكليف البشر ان يعبدوا الله لا يشركوا به احدا ويزيد هذا الأمر عند اليهود وضوحا وجلاء ان راوا نعمه الكبرى عليهم مباشرة وهو يخرجهم من مصر وهو يريهم من آياته الشيء الكثير ، كما اشرنا الى ما اثير حول موضوع رفع الطور من جدل .

« خذوا ما آتيناكم بقوة »

اى بجد وحزم : وآية الفرق بين انسان وآخر وهل هو مؤمن بما يقول او غير مؤمن هو الجدية فى تنفيذ ما يقول ، ولقد حذر القرآن الكريم المؤمنين من أن يكونوا مجرد « قوالين » فقال وقوله الحق : « يا ايها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون . كبر مقتا عند الله ان تقولوا ما لا تفعلون » .

فعندما يقول القرآن الكريم لبنى اسرائيل « خذوا ما آتيناكم بقوة » فهو دعوة لكل المؤمنين الصادقين أن ينفذوا كل التكاليف والواجبات الالهية مأخذ الجد بوضعها موضع التنفيذ وهو ما عبر به القرآن فى هذا الموضع بعبارة : واسمعوا : التى يجب ان تفسر هنا بمعنى الطاعة والالتزام بأداء التكاليف .

قالوا سمعنا وعصينا : وهذا هو موقف اليهود ولسان حال كل منافق غير مؤمن يقول القول بلسانه ويضمر غيره ، ولا يمكن فى تصورنا ان يكون للكلام معنى الا ذلك ومع هذا فقد وجد من قال ان اليهود قد قالوا هذه العبارة باللفظ « سمعنا وعصينا » وهذا افراط فى الأخذ بالظاهر لا يتسق ومجرى الحديث .

« واشربوا فى قلوبهم العجل بكفرهم »

والمعنى أن حب عجل الذهب خالط قلوبهم وجرى منها مجرى الدم الذى يسرى الى كيان الجسم كله فلا يقوم الا به ، انظر الى جمال التعبير فى قوله « واشربوا فى قلوبهم العجل »

فليس شىء أسرع من امتصاص الجسم له من الماء والعنصر الذى يكون الدم بخاصة والجسم بعامة هو المـاء ولذلك فقد استعمل القرآن كلمـة الشرب بعد أن اشتق منها كلمة « الاشراب » وهو ما اعتاد العرب أن يعبروا به للتعبير عن شدة الاختلاط على سبيل المجاز لا الحقيقة .

ومرة اخـرى نرى بعض المفسرين يرون أن شرب العجل كان على الحقيقة لا على سـبيل المثال ، ذلك ان سيدنا موسى حطم عجل الذهب وبرده وذراه فى الماء وقال لبنى اسرائيل اشربوا الى آخر ما قالوا وهو ما لا يعول عليه .

ذلك أن القرآن الكريم يوجه الحديث الى اليهود المعاصرين لسيدنا محمد ويتهمهم بأن حب عجـل الذهب لا زال يجرى فى عروقهم بعد هذا الزمن الطويل حيث تنتهى الآية بالتنديد باليهـود المعاصرين .

« قل بئسما يأمركم به ايمانكم ان كنتم مؤمنين »

فاليهود المعاصرون لسيدنا محمد يزعمون انهم مؤمنون بالله ، بينما تنطق كل اعمالهم وتصرفاتهم على أن الههم هو الذهب مهما تعـددت صوره واشكاله عجلا كان او دينارا او دولارا .

وعلى ذلك فالقرآن الكريم يأمر سيدنا محمدا — ان يوبخهم على مسلكهم ، وقد قدمنـا ان « بئس » هى تعبير عن كل ما يوجب الذم .

« قل ان كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصـة من دون الناس فتمنـوا الموت ان كنتم صـادقين » .

كان اليهود على ايام سيدنا محمد شأنهم فى كل زمان ومكان يعتبرون انفسهم هم النـاس ومن عداهم من البشر ليسوا ناسا وقد حكى القـرآن من اقوالهم .

« وقالوا لن يدخل الجنة الا من كان هودا » الآية .

« نحن أبناء الله واحباؤه »

ومن هنا فقد أمر القرآن الكريم سيدنا محمدا ان يتحدى ادعاءهم بأن يقول لهم لو صحت دعواكم من انكم اهل الجنة لتمنيتم أن تفرغوا من هـذه الدنيا سريعا لتخلصوا الى الجنة التى تزعمـون انها خالصة لكم (اى خاصة بكم) .

« ولن يتمنوه ابدا بما قدمت ايديهم والله عليم بالظالمين » .

الأمنية : ما يرغب فيه المرء ويشتهيه .

واكثر ما يكون ذلك فى الآمال الباطلة كطول البقاء وعدم البعث . ويعلمنا الله فى قرآنه المنزل على نبيه صلى الله عليه وسلم ان تمنى الموت هو آخر شىء يفكر فيه اليهود ، بل انه عندما يقـع فلن تجد فى الدنيا كلها من يجزع من الموت جزع اليهـود .

ولقد راينا مصداق ذلك فى حرب اكتـوبر ، تهافت شباب مصر على طلب الشهادة وحيث كانت الناس تهنىء والد الشهيد ، وما ذلك الا من عمق الايمان بالآخرة وان الجنة هى مثوى الشهداء ، فقد كان الجانب اليهودى يفر نجاة بنفسـه من الموت ، وسمعنا عن حوادث غريبة — كأن ينتحر قائد عسكرى حزنا وكمدا على وفاة ابنـه بكل ما ينطوى عليه الانتحار من الكفر والجنون فليس فى الدنيا كلها من يكره الموت اذا وقع كاليهـود نتيجة الآثام التى ارتكبوها ويرتكبونها دائما ابدا وهو ما عبر عنه القرآن بقوله :

« بما قدمت ايديهم » ذلك أن معظم الآثام ترتكب باليد فالقتـل والضرب والايذاء والتزوير والاختلاس والسرقة هى كلها من عمل اليـد ، وجرائم اخرى تشارك فيها اليد وهكذا استعملت

« قدمت ايديهم » على كل ما يرتكبه الانسان من آثام ومعاص .

« والله عليم بالظالمين »

اى ان الله عليم بكل احوالهم ســـواء فى ذلك ما يسرون او يعلنون ، حيث انهم ظالمون اى معتدون فيما يقولون أو يفعلون أو يضمرون .

« ولتجدنهم احرص الناس على حياة ومن الذين اشركوا يود احدهم لو يعمر الف ســـنة وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر والله بصير بما يعملون » .

الافراط فى الحرص على الحياة :

لم يقف القرآن الكريم عند حد عدم تمنى اليهود للموت ابدا ، فقد تكون احد الغرائز التى ركبها الله فى النفس البشرية كراهية الموت ، ومع ذلك فان الكائن الحى لا يلبث ان يتبرم بالحياة ويسامها وخاصة بعد أن يطول به العمر ويصاب بالضعف والعجـــز .

ولكن اليهودى على خلاف الناس يحرص على الحياة مهما كانت متاعبها وآلامها ومذلاتها حتى ليتمنى البعض منهم « لو يعمر الف سنة » .

يود : بمعنى يتمنى .

يعمر : اى يطول عمره .

الف سنة : كناية عن الرغبة فى عدم الموت ابدا .

ومن الذين اشركوا : انقسم المفسرون حيال هذه الجملة الى فريقين : فريق يعنى أن اليهود احرص الناس على الحياة حتى من الذين اشركوا (الذين لا يؤمنون بالآخرة) .

بينما يرى فريق آخر أنها تعنى أن اليهـــود وطائفة من المشركين يحرصون على الحياة .

ونحن نميل الى الراى الأول الذى يعتبر حرص اليهود على الحياة يفوق المشركين انفسهم ذلك أن سياق الكلام ينصب على اليهود ويشتد ويغلظ عليهم .

« وما هو بمزحزحه من العذاب ان يعمر »

مزحزحه : اى مبعده .

اى ان الانسان الظالم والآثم لن ينجيه من عذاب الله طول عمره مهما طال فعندما يدنو الأجل فكل ما عاشه الانسان لا يعدو ان يكون ومضـــة يواجه الانسان بعدها بما قدمت يداه .

« والله بصير بما يعملون »

اى عالم بخفيات الأمور ، والبصير فى كلام العرب : العالم بالشىء الخبير به فيقولون : فلان بصير بالطب ، وبصير بالفقه .

« قل من كان عدوا لجبريل فانه نزله على قلبك باذن الله مصدقا لـــما بين يديه وهـــدى وبشرى للمؤمنين » .

قيل فى سبب نزول هذه الآية والله تعالى اعلم، ان اليهود قالوا للنبى صلى الله عليه وســـلم : انه ليس نبى من الأنبياء الا ويأتيه ملك من الملائكة من عند ربه بالرسالة والوحى فمن صـــاحبك حتى نتابعك ، قال : جبريل « قالوا : ذاك الذى ينزل بالحرب وبالقتال ، ذاك عدونا ، لو قلت ميكائيل الذى ينزل بالقطر (اى بالغيث وبالرحمة تابعناك) (الحـــديث اخرجه الترمذى) .

ولعلك قد رايت ان الأمر كله لا يعدو ان يكون احد (مماحكات) اليهود التى لا تنتهى فليس يغير

من جوهر القضية ان يكون النازل بالقرآن هذا الملاك او ذاك ، وانما المهم ان يكون منزلا من الله سبحانه وتعالى ، وآية نزول القرآن من الله سبحانه وتعالى أنه جاء مصدقا لما سبقه من الكتب السماوية فى التوحيد والأخلاق ولذلك فقد دمغهم الله بأنهم فى حقيقة الأمر اعداء لله جل جلاله ، فليس جبريل وميكائيل الا عبدين من عباده ، فمن عادى احدهما فهو عدو للآخر ، عدو لسيدهما جل وعلا .

« نزله على قلبك باذن الله »

اشارة الى الوحى ، وطالما كرر القرآن ان القلب هو مهبط الوحى مما نرى ان نفرد له بحثا مستقلا .

وهدى وبشرى للمؤمنين : اى ان القرآن الكريم — وهو يعزز ماسبقه من الكتب السماوية — فهو نور وهداية الى النجاح والفلاح والسعادة فى الدنيا وهو بشرى للمؤمنين بما ينتظرهم من نعيم فى الحياة الآخرة .

« من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فان الله عدو للكافرين » .

هذا هو الحكم الذى قدمنا ان القرآن الكريم انزله على اليهود باعتبارهم أعداء الله فان مجاهدتهم بالعداء لجبريل ولسيدنا محمد هو عداء لله كما اسلفنا ، بل ان ميكائيل نفسه الذى يزعمون أنه صديقهم ليتبرأ من هذه الصداقة بل ويعتبر عداوتهم لجبريل عداء له فليس الملائكة جميعا الا عبيد الله يصدعون بأوامره .

وقد ذكرنا من قبل ان « ايل » بالعبرية تعنى الله ومن هنا فقد نقل عن ابن عباس قوله : ان جبريل يعنى عبد الله وميكائيل عبد الله ، وهو المذكور فى الآية الكريمة « ميكال » .

« ولقد انزلنا اليك آيات بينات وما يكفر بها الا الفاسقون » قال احد زعماء اليهود (ابن صوريا) لسيدنا محمد : ما جئتنا بآية بينة فنتبعك بها ، يقول ابن عباس على ما روى الطبرى : فنزلت هذه الآية ، فكل آية فى القرآن الكريم بينة واضحة تشهد بأن ما يقوله رسول الله لا يمكن أن يكون من صياغة البشر .

« وما يكفر بها الا الفاسقون »

أى المتمردون الخارجون عن حد الايمان بالله .

« أو كلما عاهدوا عهدا نبذه فريق منهم بل أكثرهم لا يؤمنون »

يرى بعض المفسرين أن العهد هنا هو ما تحدثت عنه آية سابقة من انهم قبل بعثة سيدنا محمد كانوا يستفتحون به (أى يستنصرون به) على أعدائهم من مشركى العرب فكان ذلك أشبه بالعهد والميثاق ان يكونوا اول مؤمن به ، فلما بعث رسول الله اذا بهم يصبحون « أول كافر به » .

بينما يرى بعض المفسرين ان الاشارة هى لمخالفتهم للعهود والمواثيق التى ابرموها مع سيدنا محمد بالذات ويؤيدون رأيهم بالآية الكريمة :

« الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم فى كل مرة وهم لا يتقون » .

وعندنا ان السياق فى كل آية — وليس التشابه فى الألفاظ — هو الذى يحدد معنى الآية ، وهذه هى احدى خصائص القرآن البلاغية ولذلك فنحن نرجح فى هذا الموضع المعنى الأول اى ان المقصود « بالعهد » هو عهدهم مع الله لئن بعث نبيا ليكونن أول مؤمن به .

إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾

« نبذه فريق منهم بل اكثرهم لا يؤمنون »

نبذ : اى طرح والقى .

وهكذا يبادر فريق من اليهود دائما على الاخلال بالعهود والمواثيق واذا كان المجاهرون بنقض العهد واغفاله و (طرحه) هم مجرد فريق ، فالحقيقة ان الكثرة الغالبة « لا يؤمنون »

« ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون » .

وتعود الآية اتباعا لنسق القرآن الى ما وصفناه بانه موسيقى المعانى فتجمل قضية اليهود فى انه قد اصبح من دابهم كلما جاءهم رسول من عند الله بتعاليم الله ووصاياه التى يعرفونها جيدا لانها مثبتة فى كتابهم (التوراة) « نبذ فريق من الذين اوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون » .

وتساءل المفسرون عن المقصود هنا « بكتاب الله » الذى يلقيه اليهود وراء ظهورهم ، فاجاب البعض بانه القرآن ، ورأى البعض ان المقصود هو التوراة ، ونعود الى السياق فنرى ان التوراة هى الأرجح لأن الله سبحانه وتعالى يندد بهم لانه عندما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم وهو « التوراة » اذا بفريق منهم — لكى يخرج من هذا المازق — يطرح التوراة جانبا ويتمسك بما تتلو الشياطين مما ستفصله الآية التالية وهكذا يتعامون عن الحق فاعماهم الله .

« واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا » .

اتبعوا ما تتلوا الشياطين :

اى انهم ، اى اليهود ، بعد انطرحوا كتاب‌الله وراء ظهورهم آثروا اتباع ما تتلوا الشياطين واصح الأقوال فى مفهومنا عن معنى « تتلوا » اى « تتقول » « والشياطين » جـاء فى القرآن الكريم انها كما تكون من الجن فهى تكون كذلك‌من الانس ، فقال تعالى : «شياطين الانس والجن» والشيطان لغة « كل عات متمرد من الانس والجن والحيوان » .

وعنــدما نذكر الكلمة بصـيغة المفرد المعروف « الشيطان » يكون هو المخلوق الخبيث الذى لا يرى ويغرى بالفساد والشر » ويصبح مرادفالكلمة ابليس اللعين .

فعندما تذكر كلمة الشياطين فليس يتحتم انيكون معناها شياطين الجن والمعنى هنا يحدثنـــا على أن المتمردين تقولوا الكثير من المزاعم على‌سيدنا سليمان وراس هذه المزاعم ان سليمان كان ساحرا يستمد قوته من السـحر وأنه فى‌اخريات أيامه عبد الأوثان تحت تأثير نســائه الوثنيات ، وعندما تحدث القرآن عن سليمان‌باعتباره نبيا ، سخر اليهود المعاصرون لسـيدنا محمد وقالوا : أما سمعتم محمدا يصف سليمان‌بانه نبى مع انه لم يكن الا ساحرا وذكروا من امره ما قدمنا من أن نساءه الوثنيات حملنه على‌عبادة الأصنام فجاء القرآن الـكريم يرد هـذه الفرية « وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا »اى ان الكافر الحق هم الشياطين سواء كانوا من الانس او من الجن .

لفت نظـــر

وهنا نريد ان نقف قليلا لنلقم الكفرة والملحدين‌ممن يتشدقون بالعلم حجرا ، فبعضهم يزعم نقلا عن المستشرقين ان سيدنا محمدا عليه الصلاة والسلام كان يردد ما يقوله اليهود وينقل عنهم وهذا ما كان يقوله اليهود عن سليمان ويجمعون‌عليه ، فهاهو القرآن الكريم يخطئهم لقولهم هذا الزعم فدل ذلك على وجه القطع واليقين ، ان‌سيدنا محمدا لم يكن يتأثر بهم فضلا عن ان ينقل معتقدات‌اليهود الشائعة ،وانما كان‌يصحح ويصلح‌وقد فعل مثل ذلك بالنسبة للمعتقـدات المسيحية الفاشية فضلا عن مقاومته دين قومه وما كان لبشر ان يتصدى لذلك كله من تلقاء نفسه معرضا نفسه للهلاك الا ان يكون مأمورا من لدن قوة علوية‌وعدته بالنصر ان هو فعل وهو ما تحقق فى خاتمة المطاف والحمد لله .

« يعلمون الناس السحر »

قيل ان الذين يعلمون‌الناس السحر هم الشياطين ، وقيل ان الكلام عن‌الشياطين قد انتهى‌وان المقصود بالقول هم اليهود فهم الذين يعلمون الناس‌السحر والمعنى واحد اذا اعتبرنا ان المقصود هم شياطين الانس .

وقد كان السحر من أعظم ما اشتغل به اليهودطول حياتهم ، وسنقول كلمتنا فى السحر فيما بعد .

« وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت » .

هنا ونصل الى موضوع صالت فيه الاسرائيليات وجالت وجاء بالمضحك والمبكى ، وما يعد من احاديث الوثنيه والكفر الصريح كالقول بأن كوكب الزهرة المعروف كان فى بادىء الأمر سيدة راودها هاروت وماروت عن نفسها فأصعدها الله الى السماء وحولها الى الكوكب المعروف وهى ذات القصص الوثنية التى كانت تتردد فى بابل القديمة أما هاروت وماروت فيقصون عنهما قصصا يشيب لهولها الولدان ، فهما ملكان نزلا من السماء ليعدلا فى الأرض فكان ان ارتكبا من الاثام ماتضج له السموات والأرض فهما معلقان فى الهواء من اقدامهما وراساهما مدليان الى الأرض ، فتذهب اليهما الناس ويتعلمون منهما السحر وليس هذا الذى نقلناه اليك الا مجرد اشارة لما تغص به بعض كتب التفسير القديمة من اسرائيليات وقد آن لهذه الترهات أن ندحضها ونجهز عليها ليكون فى ذلك حصانة لديننا ، وذهبت التفاسير الحديثة الى اسقاط ذلك كله واغفاله ، وجريا على منهاجنا فنحن لا نعتمد دحض القارىء عندما تصادفه هذه الخزعبلات فى الكتب باعتباره غثاء ولكنا جريا على منهاجنا يجب أن نشير الى هذه المفتريات معتمدين لا على اجتهادنا وانما على اقوال من هم أعلم وأروع منا .

الامــام ابن كثـير :

وقف ابن كثير طويلا أمام هذه المسالة وكان مما اشغل باله فى الدرجة الاولى ان وجد أمامه حديثا ورد فى مسند أحمد بن حنبل ، وابن كثير يعتبر ابن حنبل أمامه واستاذه ومع ذلك فقد دفعه علمه وورعه للتوقف وبحث الموضوع بحثا مستفيضا وانتهى الى النتيجة الآتية :

« وحاصلها راجع فى تفصيلها الى اخبار بنى اسرائيل اذ ليس فيها حديث مرفوع صحيح متصل الاسـناد الى الصـادق المصدوق المعصـوم الذى لاينطق عن الهوى .

وظاهر سياق القرآن اجمال القصة من غير بسط ولا اطناب فنحن نؤمن بما ورد فى القرآن على ما أراده الله تعـالى والله اعلم بحقيقة الحال » .

والقرطبى من ناحية اللغــة :

هذا الذى هدمه ابن كثير من حيث تتبعـه للاحاديث المفتراة ، قد توصـل اليه القرطبى بطريقته الخاصة أى عن طريق اللغة وقواعد النحو والاعراب واليك ما قال :

قوله تعالى : « وما أنزل على الملكين » ما ، نفى والواو للعطف على قـوله : « وما كفر سليمان » ذلك ان اليهود قالوا : ان الله أنزل جبريل وميكائيل بالسحر ، فنفى الله ذلك ، وفى الكلام تقديم وتأخير ، التقدير : ما كفر سليمان وما أنزل على الملكين ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ببابل هاروت وماروت بدل من الشياطين فى قوله : « ولكن الشياطين كفروا » هذا هو أولى ما حملت عليه الآية من التأويل واصح ما قيـل فيهـا ولا يلتفت الى سواه .

انتهى ما قاله القرطبى ، ولعلك قد رأيت كيف استبعد كل الاقاصيص والحكايات ، وان كان قد أوردها بعد ذلك امانة للعلم كما أشرنا اليها نحن .

الشيخان محمد عبده ورشيد رضا :

أما الشيخان رشيد رضا وأستاذه محمد عبده فقد سلكا فى تفسيرهما مسلكا آخر حيال هذه القضية بأن اعتبرا القرآن الكريم يحكى ما يقوله اليهود ويزعمونه وليس يعنى هذا صحة الوقائع التى يزعمها اليهود ، واليك ما قالا :

« ومن البديهى ان ذكر القصة فى القرآن لا يقتضى ان يكون كل ما يحكى فيها عن الناس صحيحا » .

وهكذا التقى العالم الثبت المحدث مع العالم اللغوى الفقيه مع عالم العصر الحديث المستنير على رد كل ما قيل من أقاويل حول هاروت وماروت ، فنحن عندما نسقط كل هذه الحكايات ونقف كما وقف ابن كثير عند حد النص القرآنى فنحن نلتزم جانب الصواب وبالله التوفيق .

« ببابل هاروت وماروت »

أما بابل فهى معروفة ومشهورة فى التاريخ بأنها عاصمة القوم الذين سموا نسبة اليها « البابليون » وقد اشتهرت مدينة بابل بعلوم الفلك وكان علم الفلك مختلطا فى بادىء الأمر بالتنجيم ، وبين التنجيم والسحر علاقة وثيقة ومن هنا اشتهرت بابل بعلم السحر وقد عاش اليهود فترة طويلة فى بابل اذ سيقوا اليها كأسرى بعد تخريب بيت المقدس ويطلق اليهود على هذه الفترة من حياتهم فترة « الأسر البابلى » وفى بابل ترك اليهود كل شىء الا علم السحر فاشتغلوا به وأصبح همهم الأكبر على ما تشير هذه الآية ، ومن الواضح ان اليهود كانوا يرجعون علمهم بالسحر الى شخصين هما « هاروت وماروت » .

وقد رأينا كيف أن القرطبى اعتبر أن كلمة « الملكين » لا علاقة لها بهاروت وماروت ، وانما هى تشير الى جبريل وميكائيل اللذين زعم اليهود انهما نزلا بالسحر فنفى القرآن ذلك ، وذهب بعض المفسرين الى أن الكلمة بالكسر « الملكين » وأن المقصود بها داود وسليمان .

وكيفما كان الأمر فجمهرة المفسرين ترفض الاسرائيليات وما زعمته من أن هاروت وماروت من الملائكة .

« وما يعلمان من أحد حتى يقولا انما نحن فتنة فلا تكفر »

ويحكى القرآن على ما جاء فى القصة اليهودية ان هاروت وماروت كانا يحذران كل من سعى اليهما لتعلم السحر أن ما عندهما من علوم السحر انما هو فتنة (اى اختبار وبلاء) .

« فلا تكفر » اى فلا تستعمل هذا العلم فيما يخرجك من دائرة الايمان الى الكفر .

وهذا هو الشأن فى اى علم يمكن ان يوجه لخير البشر فيكون ايمانا ويمكن أن يوجه للاضرار بالبشر فيكون كفرا ومثاله فى عصرنا الحاضر من يدرس علم (الميكروبات) الجراثيم لوقاية الناس منها او من يدرسها لايذاء الناس بها واهلاكهم فهذا هو الكفر ومثاله ايضا علم تفتيت الذرة فهو اذا استعمل لخير البشر فبها ونعمت اما ان يستعمل للخراب والافناء فهذا هو الكفر.

« فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه وما هم بضارين به من أحد الا باذن الله ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم » .

ويستطيع الآن كل قارىء فطن اضاء الايمان قلبه ان يدرك العبارات السابقة اذا كان قد شابها الغموض فلانها تحكى ما يقوله اليهود اما الان والقرآن الكريم ينزل حكمه الالهى على هذه الاقوال والأفعال فيصبح كما هو شأنه دائما عنوان الوضوح والاشراق ، فمعاشر اليهود وكل مشتغل بالسحر بدلا من أن يتعلما يفيد وينفع ، اذا به يلوذ بما فيه ضرر وفيه افساد كهؤلاء الذين تعلموا ما يفرقون به بين المرء وزوجه وما أروع هذه اللمسة الربانية عندما يجعل التفريق بين الزوجين قمة الكبائر التى يمكن أن يرتكبها الساحر ، لقد عمم القول بعد ذلك « ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم » ولكنه من بين هذا التعميم قدم النص على محاولة التفريق بين الزوجين اشهد أن هذا حق من حق .

« وما هم بضارين به من أحد الا باذن الله ».

هنا ونريد أن نقف لنوضح المقصود بقوله باذن الله ونبادر فنقول ان اذن الله هنا معناها قضاؤه الذى سبق به علمه منذ الازل .

ذلك اننا نعيذ القارىء أن يتصور أن الساحر عندما يضر فهو باذن من الله .

ان الأمر لا يمكن أن يتصور بهذا المعنى وان الله سبحانه وتعالى قد يأذن للضرر الذى يريد الساحر أن يوقعه على فريسته ان يقع .

وانما الأمور كلها قد سبقت فى علم الله فزيد من الناس على سبيل المثال . مقضى عليه منذ الأزل بأن يصاب بكذا وكيت فاذا جاء ساحر يسعى للاضرار بهذا الشخص فان الضرر عندما يقع فهو لا يكون بفعل هذا الساحر او لتداخله على اى وجه من الوجوه .

وانما ذلك قد تم بناء على قضاء الله القديم .

« ولقد علموا لمن اشتراه ماله فى الآخرة من خلاق » .

خلاق : اى نصيب .

لمن : اى للذى .

أى يا بؤس ويا ويل من اختار هذا الطريق من طرح كتاب الله حيث الحق والخير والنور الساطع واقبلوا على السحر وهو الباطل والظلام .

ولقد اعتبرهم القرآن كما لو كانوا قد اشتروا الضلال بالهدى .

« ولبئس ما شروا به انفسهم لو كانوا يعلمون » . شروا بمعنى باعوا وقد تقدم .

لو كانوا يعلمون : نميل الى أن معناها هنا « وهم يعلمون » .

واذا اريد أن نأخذها بمدلولها اللفظى فيكون معناها انه أيا كان تصورهم للثمن البخس الذى باعوا به انفسهم فهو دون ما يتصورون .

« ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خير لو كانوا يعلمون » .

أى لو أنهم ، اليهود وكل من لف لفهم فى الاشتغال بالسحر آمنوا بالله وحده .

« اتقوا » اى اتقوا السحر .

« لمثوبة » اى لاثابهم الله بالخير والنعيم ولكن الشيطان اضلهم « لو كانوا يعلمون » .

كلمة عن الوحى :

تنص الآية على أن جبريل هو الذى كان ينزل بالوحى .

ولقد مر بنا من قصار السور التى كانت اولما نزل من القرآن ، أن سيدنا محمدا راى جبريل « ولقد رآه بالافق المبين » .

واشار القرآن الكريم الى حالة سيدنا محمد عندما كان يهبط عليه الوحى حيث كان يحرك لسانه فى تعجل ولهفة خوفا من ان ينسى بعضما يوحى به اليه .

« لا تحرك به لسانك لتعجل به »

وبعد ان استقر الوضع « وآمن الرسول بما انزل اليه من ربه » تتالت آيات القرآن تحدثنا من ان الوحى كان ينزل على قلب سيدنا محمد ،جاء فى القرآن الكريم :

« نزل به الروح الأمين ● على قلبك لتكون من المنذرين » .

فالايمان بالوحى يجب ان تتوفر فيه ثلاثة عناصر ، فوق كونه من الله عز وجل :

١ — الذى نقله الى سيدنا محمد هو جبريل.

٢ — ان سيدنا محمدا قد راى من هبط عليه بالوحى .

٣ — ان قلب سيدنا محمد كان مستقر الوحى .

ولا يقوم ايمان بسيدنا محمد بغير الايمان بهذه العناصر .

كلمة حول موضوع السحر :

جاء فى معجم الفاظ القرآن :

السحر قول او فعل يترتب عليه أمر خارق للعادة ويعتمد على وسائل من الرقى والعزائم وما اشبهها .

وجاء فى تفسير الوسيط لاشياخنا :

« السحر اخراج الباطل فى صورة الحق وهو فى الاصل مصدر سحر يسحر بفتح الحاء فيهما اذا ابدى ما يدق ويخفى ويستعمل فيما لطف وخفى سببه (انتهى) .

وقيل كذلك : سحره بمعنى خدعه وعلله وقالوا : عين ساحرة وعيون سواحر .

وفى الحديث الصحيح « ان من البيان لسحرا » .

وذلك كله يدل على أن كلمة السحر استعملت على سبيل المجاز للتعبير عن شدة التأثر وعمقه مع الجهل بمعرفة سببه . ولكن السحر المقصود فى هذه الآيات هو السحر بمعناه المتعارف وهو ما قال به المجمع اللغوى به هذا الحديث .

وفى كتابنا « الطاقة الانسانية » درسنا موضوع السحر وبحثناه بكل استفاضة ، فليرجع اليه من اراد الدرس والبحث وما نقوله هنا على سبيل الايجاز هو أن السحر فى العالم القديم وعبر الوف السنين كان أحد الحقائق الكونية ،ولعل أقوى رجل فى المجتمعات القديمة كان هو الساحر . والسحر كان علم العلوم والساحر بالتالى هو الزعيم وهو الرئيس وهو كل شىء فى القبيلة .

وبذور كل العلوم التى فى أيدينا ترى فى السحر القديم وكتاب الموتى المقدس عند قدماء المصريين هو كتاب سحر وكتب « الفيدا » الهندية المقدسة هى كتب سحر .

فالسحر كان احد الحقائق التى كان معترفابها من الجنس البشرى كله وليس سوى السذج وانصاف المتعلمين ، من يتصورون ان السحرليس الا مجرد خزعبلات وتراهات غرق فيهـــا البشر قديما لسذاجتهم وجهلهم .

فاعلم العلماء الذين تلقت عنهم البشرية العلم امثال فلاسفة الاغريق العظام كانوا يعتبرون السحر احد الحقــائق الكونية وبالرغم من أن القرآن الكريم كان أول من انزل الســـحر عن عرشه فقد ظل افاضل علماء المسلمين يرونه احد حقائق الحياة المشـــاهدة بالعين وان كانوا تمشيا مع القرآن كما تنطق هذه الآية التى نحن بصددها ، يرون ان السحر يتم بقوة شيطانية ، أى أن السحر كحقيقة كونية لم يكن محل خلاف. حتى لنجد عالما جليل القـــدر كالقرطبى ينـــدد بالمعتزلة ، اذ ينكرون حقيقة السحر ويتضح تنديده من قوله :

ذهب أهل السنة الى أن السحر ثابت وله حقيقة . وذهب عامة المعتزلة الى ان السحر لا حقيقة له .

وهكذا اعتبر القرطبى ان الاقرار بحقيقـــة السحر من السنة (وهوما نخالفه فيه) .

وهذا عالم الشرق والغرب معـــا ونعنى به « ابن خلدون » يحدثنا عن علم السحر والذى يعنينا أن يسجل هو مشاهداته الشخصية ممـــا يؤكد حقيقة السحر .

وعلى هذا فالسحر فى القديم كان يلعب الدور الذى تلعبه التكنولوجيا والطب فى عصرنا الحديث وكان يؤدى نفس الدور الذى يؤديه الطبيب فى عصرنا الحاضر .

القرآن والســـحر :

قدمنا أن القرآن الكريم لاعلاء سلطان العقل وفى سبيل افراد الله بالعبادة والقضاء على طائفة الوسطاء بين الانسان وربه ونعنى بهم — طائفة الكهان — وكان السحر هو احد اسلحتهم فى ذلك ، بين للناس :

١ — ان الجزء الأكبر من الظواهر السحرية هو من قبيل الايهام والخداع . (كما هو الشأن فى الوقت الحاضر) .

٢ — ان الجزء الباقى الذى له حقيقة هو من عمل الشيطان .

ويتضح القســـم الأول من السحر فى قوله تعالى :

« يخيل اليه من سحرهم انها تسعى » .

« سحروا أعين الناس واسترهبوهم » .

وهكذا كان القرآن الـــكريم أول من أزال سلطان السحر بين صفوف المسلمين حيث ظل فى أوروبا عميق الجذور حتى القرن الثامن عشر.

رأينا فى قضية الســـحر :

وفى كتابنا الطاقة الانسانية اعتبرنا «السحر» احد مظاهر الطاقة الانسانية التى هى قبس من القدرة الالهية .

ونريد أن نضـــيف هنا انه يشترط لمزاولة الســـحر وانتـــاجه لآثاره ان تكون الجمـــاعة الانسانية مؤمنـــة بذلك ، فلما أن ضاع هـــذا الايمان بفضل القرآن ، انتهى ما للســـحر من مفعول ، والله تعالى اعلم .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾ * مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ

مفــــردات :

« يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا » .

الخطاب المباشر هنا موجه الى صحابة رسول الله ودلالته وهدفه وحكمته موجهان للمؤمنين فى كل زمان ومكان .

« وراعنا ليا بالسنتهم » .

وكون الحديث موجه مباشرة لصحابة رسول الله من حيث كونه ينهاهم عن استعمال كلمة راعنا فى مخاطبتهم لرسول الله ويستبدلونهابكلمة « انظرنا » فسبب ذلك مذكور فى سورة النساء آية ٤٦ واليك نصها :

ـــ « من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع وراعنا ليا بالسنتهم وطعنا فى الدين » فدل ذلك على أن اليهود المعاصرين لسيدنا محمد استغلوا كلمة « راعنا » العربية بكلمة مشابهة لها بالعبرية ، وهى تحمل معنى الذم فراحوا يستعملونها فى مخاطبتهم لرسول الله وهم يضمرون معناها السىء . فنهى القرآن الكريم صحابة رسول الله عن استعمال لفظ « راعنا »وأن يستعملوا بديله « انظرنا » .

والأصل فى راعنا مأخوذ من المراعاة وهى المبالغة فى الرعى واصبحت تستعمل اصطلاحا بمعنى « انتظرنا » وتأن بنا ، وتدارك مصالحنا.

وجاء فى تفسير المنتخب انه توجد فى لغة اليهود العبرية كلمة « راعنو » وهى مؤلفة من كلمتين « رع » بمعنى شر ونو هى ضمير الجمع ويصبح معنى « راعنو » انت شرنا . وهكذا كان اليهود يلوون السنتهم بكلمة « راعنو » لتبدو كما لوكانت راعنا .

فجاء القرآن الكريم ليفوت على اليهود هذا القصد الخبيث ، ويجب ان نسجل لعلماء تفسير المنتخب هذه الاضافة الكريمة التى لم يسبقهم اليها فى تفسير القرآن سابق حيث جاءوا بنص الكلمة العبرية فاصبح تفسير الآية وسببها مثل فلق الصبح .

« وقولوا انظرنا واسمعوا »

وطلب القرآن الكريم من الصحابة ان يستعملوا كلمة « انظرنا » لتادية نفس المعنى الذى يريدونه من كلمة « راعنا » اى انتظرنا وتأن بنا وتدارك مصالحنا .

واسمعوا : اى امتثلوا واطيعوا .

«وللكافرين عذاب اليم» اى حتى تنجوا بأنفسكم من العذاب الشديد الذى ينتظر الكافرين وهذا حكم على اليهود الذين كانوا يفعلون هذه الفعلة بالكفر .

التوجيه العــام :

هذا هو مدلول الآية بالنسبة لمعاصرى سيدنا محمد ، بقى ان نستلهمها التوجيه الذى هو شان كل كلمة ، بل كل حرف من حروف القرآن ، فهى دعوة لأن يخاطب المربى والامام والقدوة بما يتفق والادب والاحترام اللائقين به حتى ليتعين عليه اختيار الالفاظ والبعد عن كل ما يثير لبســا او شكا ، هذا وقد اعتبر بعض الفقهاء الآية سندا لمبدأ « سد الذريعة » فها هو القرآن الكريم ينهى عن استعمال كلمة لا غبار عليها فى حد ذاتها حتى لا يقع مستعملها فى سوء استغلال اليهود لها .

« ما يود الذين كفروا من اهل الكتاب ولا المشركين ان ينزل عليكم من خير من ربكم » .

ما يود : اى ما يحب .

الذين كفروا من اهل الكتاب (اى اليهود) ولا المشركون ، ويلاحظ هنا ان القرآن قد انزل حكمه على اهل الكتاب الذين وصلتهم رسالة سيدنا محمد ثم لم يؤمنوا برسالته انهم كفرة . ذلك ان اول اركان الاسلام الشهادتان ، فليس يكفى ان يقال نحن نؤمن بالله ولسنا نؤمن بمحمد ، فان الايمان بالله يؤدى على الفور الى الايمان بسيدنا محمد والعكس صحيح ، فليس بمقبول ولا معقول ان يؤمن انسان بوجود الله وانه يبعث بالرســل لهداية البشر ثم يكذب سيدنا محمدا وينكر رسالته فليس يفعل ذلك الا من ينكر وجود الله ابتداء مهما تظاهر بغــير ذلك . وقد كان هذا شان اليهود المعاصرين لسيدنا محمد (باستثناء نفر منهم) ومن هنا حكم الله عليهم بالكفر وسلكهم مع المشركين وان حكمهما واحد من ان كليهما يكرهون الخير الذى هبط على العرب من السماء ونعنى به القرآن الذى جاء لهداية العالمين .

« والله يختص برحمته من يشاء »

رد على مزاعم اليهود من ان الله اختصــهم دون غيرهم من العالمين بالنبوة وان يكون الرسل من بين ظهرانيهم وهو تصور وثنى ، فجاء الاسلام لاول مرة فى تاريــخ الاديان كلها باعتبــاره رب العالمين وهو اعلم اين يجعل رسالته وهو يختص برحمته من يشاء .

سيدنا محمد رحمــة :

ولعل اغلب صفات الله سبحانه وتعالى التى ما فتئ يكررها انه اله الرحمة فهو رحمن وهو رحيم وكل ما يصدر منه غايته الرحمة بالبشر فهو عندما أرسل سيدنا محمدا انما ارسله رحمــة للعالمين .

« وما ارسلناك الا رحمة للعالمين » .

وقال سيدنا محمد عليه صلوات الله وسلامه « انا رحمة مهداة » ! . وفى هذه الآية التى نحن

بصددها ترديد لهذا المعنى وان الله يختص برحمته من يشاء وقد اختار سيدنا محمـــدا ليكون آية رحمته بالعالمين .

« والله ذو الفضل العظيم »

هـــذا هو مقتضى الايمان بالله ان لا تحـــد مشيئته بحد وان لا يوضع على ارادته قيد وانه المنعم المتفضل الذى لا حد لانعامه ولا حد لفضله يسبغه على من يشاء كيف يشاء بالقـــدر الذى يشاء فهو ذو الفضل العظيم الذى ما له من نفاذ.

« ما ننسخ من آية او ننسها نات بخير منهـــا او مثلها الم تعلم ان الله على كل شىء قدير » .

جاء فى تفسير الوسيط لاشياخنا علماء الازهر: ما ننسخ : النسخ لغة المحو والابطال .

والمراد هنا بالآية الجملة القرآنية ذات الحكم الكامل والمراد بنسخها بيان انتهاء التعبد بها وقيل المراد بها الشريعة على حد قوله : « الم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم » .

والمراد من نسخها على هذا تغييرها بشريعة اخرى تأتى بعدها ، او الآية المعجزة ونسخها الاتيان بآية اخرى غيرها .

وجاء فى تفسير المنتخب الذى أصدره المجلس الاعلى للشئون الاسلامية فى معنى هذه الآيـــة والمقصود منها ما يلى :

« ولقد طلبوا منك يا محمد ان تاتيهم بالمعجزات التى جاءهم بها موسى وانبيـــاء بنى اسرائيـــل وحسبنا أننا أيدناك بالقرآن واننا اذ تركنا تأييد نبى متأخر بمعجزة كانت لنبى سابق او انسينا الناس اثر هذه المعجزة فاننا نأتى على يديه بخير منها أو مثلها فى الدلالة على صدقه فالله على كل شىء قدير . انتهى » .

وهكذا تجاوز علماؤنا الاعلام الافاضل كل ماقيل حول هذه الآية من انها الأساس الاكبر لعلم الناسخ والمنسوخ من آيات القرآن واختاروا قول من قال من المفسرين ان الآية هنا بمعنى المعجزة .

موضوع الناسخ والمنسوخ :

ولقد بحثنا فى استفاضة فى كتابنا « الاسلام ورسوله بلغة العصر » الذى تفضـــل المجلس الاسلامى بطبعه فليرجع اليه من يشـــاء البحث ونكتفى هنا بايراد النتيجة التى انتهينا اليها ، ولكننا قبل أن نثبت هذه النتيجـــة نريد أولا أن نسجل بعض الامور المسلم بها واول هذه المسلمات أن هناك نسخا لبعض احكام الشريعة تم ابان نزول القرآن على سيدنا محمد .

ثانى هذه المسلمات ان هذا الموضوع هو من مسائل الفقه الرئيسية ومن لا يحيط به يجب ان لا يتصـــدى للفتيا . وبعد ان ســـجلنا هاتين الملاحظتين ، اصبح يجوز لنا ان ننضـــم لراى القائلين ان هذا الموضوع الخطير لا ينبغى ان يجعل سنده هو هذه الآية وانما يجب ان يكون السند هو ما حدث بالفعل ايام الرسول صلوات الله عليه « كالتحول عن القبلة » وهو ما سجله القرآن بالفعل ، كما يجب أن يكون السند اجماع المسلمين القدامى على وقوع النسخ بالفعل ، أما بالنسبة لهذه الآية التى نحن بصددها لقد رايناكيف فسرها علماء تفسير المنتخب بأن المقصود بالآية هنا هو الآية الكونية اى المعجزة ، وهو قول قال به الشيخ محمد عبده ولم يناقضه فيه تلميذه . الشيخ رشيد رضا على ما اعتاد أن يفعل اذا خالف شيخه .

الآية بمعنى الشريعة :

ولكن التفسير الذى نختاره وقد شرح الله صدرنا له خاصة وقد اصبحنا نعايش تفســـير

سورة البقرة هو ما اشار اليه اشياخنا مفسرو الوسيط من قول البعض ان المقصود « بالآية » هنا هو الشريعة ، فنحن كما لاحظ القراء من غير شك ممن يعلقون الكثير على المعنى المستفاد من السياق ، والسياق هنا ، على ما مر بنا ، هو مناقشة ومحاسبة وحوار مع اليهـود لالزامهم الحجة ، ونحن لا نقول بعدم استقلال كل آية بنفسها وامكان استخلاص معنى خاص بها يستفاد من ظاهر الفاظها ، كلا لا نقول بذلك ، ولطالما اشرنا الى أن القرآن قد نزل « منجما » ومع ذلك فاذا اتضح السياق وتلاحم معنى الآية مع مـا قبلها وما بعدها فيكون فصلها عما قبلها ومـا بعدها مما لا ينشرح له صدرنا .

ولقد رأينا أن السياق هنا هو مناقشة اليهود في مزاعمهم وحقهم في عدم التصديق بسيدنا محمد ، وقد كانت حجة اليهود الكبرى التى اشهروها في وجه سيدنا محمد هى قولهم « ما دمت يا محمد تسلم ان التوراة هى كتاب الله فكيف نتصور ان الله يغير كلامه القديم ويستبدله بشريعة اخرى ويصفون ذلك بانه من البداء » الذى يستحيل على الله .

تلك هى حجة اليهود فى دعواهم . التمسـك بالتوراة « نؤمن بما انزل علينا » ومن هنا فقـد جاءت الآية لترد على هذا الزعم فالله اولا وقبل كل شيء على كل شيء قدير ، وهو يفعل ما يشاء كيف يشاء انى يشاء وليس من حق المخلوقين ان يقيدوا مشيئته بعقولهم ومفاهيمهم وان هـذا يستحيل عليه فهو فعال لمـا يريد وقدرته لا يحدها حد وكذلك مشيئته .

فاذا اراد ان يلغى شريعة هى معمول هنـا بها مما نعرف (كالتوراة) او ينسخها من اساسها كشرائع الأنبياء الذين لا نعرف حتى أسماءهم ، (ورسلا لم نقصصهم عليك) فلا يجب ان يشك مؤمن ان الشريعة الجديدة هى كالشريعة القديمة اريد بها خير الانسان وهى بالنسـبة للظروف المتغيرة اكثر ملاءمة له لانها اصبحت اكثر انطباعا على الأحوال السائدة واليهود خير من يعرفون ذلك وكتابهم الذى يتعبدون به اكبر شاهد على هذه الحقيقة ففى غابر الزمان كان من المباح ان يتزوج الأخ اخته لأن هذا كان السبيل الوحيـد لتكاثر البشر اما بعد أن تكاثر البشر بالفعل فقد اصبح ذلك محرما .

هذا ما يعرفه اليهود جيدا فقولهم اذن ان الله لا يمكن ان يغير شريعة التوراة وهو مجـرد شقشقة يبررون بها كفرهم بسيدنا محمد .

وهكذا نرى الآية الكريمة تتصل كل الاتصـال بما قبلها وما بعدها من حيث كونها ترد على مزاعم اليهود .

ومرة اخرى نحن لا نستطيع الا ان نقرر مبدا شرعيـا سابقا بخطاب ورد متـاخرا عنـه وان كلا من النسخ كما هو وارد فى كتب الفقه من انه (ازالة حكم المنسوخ والناسخ لمصلحة العباد فى حينه) اقول مع تقريرنا بأن هذا القول حق وجرى عليه العمـل على زمن الرسـول صلوات الله وسـلامه عليه — فليس بلازم ان تفسر هذه الآية التى نحن بصددها لتـدل على ما جرى عليه العمل بالفعل .

راينا فى موضوع النسخ :

وقـد قدمنا اننا درسنا موضـوع الناسـخ والمنسوخ باستفاضة ووعدنا بان نوافيك بما انتهى اليه راينا ، ونقول وبالله التوفيق .

كل الآيات عاملة عند توفر ظروفها :

وهكذا يجب النظر الى آيات القرآن كلهـا ، فهى كلها عاملة ، وهى كلها موجهة ومرشدة ، وهى كلها واجبة التطبيق عند توفر دواعيهـا وظروف تطبيقها .

وهذا هو احد اسرار اعجاز القرآن وخلوده على مر الزمن ، ان يكون كالمحيط يستخرج منه الانسان فى كل عصر وزمان ومكان ما يحتاج اليه منه ، فقديما كانوا يخرجون منه اللؤلؤ والمرجان، ونحن نخرج منه اليوم البترول وشتى صنوف المعادن ، وغدا سنكرر ماءه ليصلح للشرب ورى الأراضى وبعد غد سنخرج منه كل ما يكفى لغذاء الانسان وليس يعنى اخراج البترول من البحر ان اللؤلؤ والمرجان لم يعودا فيه فهما هناك فى انتظار تطور جديد فى حاجات البشرية لنعود لاستخراجهما من جديد وهكذا .

كل شىء فى القرآن :

بمثل هذه النظرة يجب ان ننظر الى القرآن ،نستخرج منه فى كل عصر وكل زمان ومكان ما يصلح أحوالنا ، وينير سبيلنا ويثبت ايماننا دون ان نقول ان هذه آية الغيت فلايجور العمل بها فكلها آيات الله ، وكلها احكام الله تنوعت لكى تكون صالحة للتطبيق ، فى كل زمان ومكان حسب الحاجة وضرورات الساعة .

تجدد شباب الاسلام :

وبهذه الروح وحدها سيكون بقدرة المسلمين ان يجدوا شباب الاسلام وان يبعثوا مجده الروحى والتشريعى والقيادى لبنى البشر . الذين هم فى أمس الحاجة لنوره .

« الم تعلم ان الله له ملك السموات والأرض وما لكم من دون الله من ولى ولا نصير » .

فى هذه الآية الكريمة مصداق قولنا أن سياق الحديث كله هو محاججة اليهود وادعاؤهم بأن الله لا يغير ولا يبدل شريعته فالله قادر على كل شىء الا يعلم هؤلاء المتقولون ان الله سبحانه وتعالى هو مالك السموات والأرض المتصرف فى عباده وليس للعبد ان يحاسب سيده وان يقول ما الذى يجوز له ومالا يجوز فنحن جميعا ملك يمينه وليس لأحد ولى او نصير يعينه الا الله نفسه فيجب ان نسلم كل أمورنا اليه .

« أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل ومن يتبدل الكفر بالايمان فقد ضل سواء السبيل » .

افترق المفسرون الى فرقتين فرقة تقول ان الخطاب موجه لليهود على أساس ان الحديث متصل وهو كما قدمنا خطاب مع اليهود وليس يقترح فى هذا النظر عبارة « رسولكم » فرسول الله صلى الله عليه وسلم قد ارسل للناس كافة من عرب وعجم وبيض وحمر وسود ويهود وغير يهود فليس هناك ما يمنع أن يكون الخطاب موجها الى اليهود وقد كان مما سألوا النبى صلوات الله عليه أن يأتيهم بكتاب ينزل من السماء جملة واحدة كما جاء موسى بالتوراة جملة واحدة ويندد القرآن الكريم بهذا الطلب ويعتبره من نوع سؤالهم لموسى عليه السلام بقولهم « أرنا الله جهرة » وغير ذلك مما مربنا . بينما ذهب فريق آخر الى ان الخطاب موجه للمؤمنين بتحذيرهم من الوقوع فيما وقع فيه اليهود وهو تحذير تكرر من قبل وسوف يتكرر .

جاء فى القرآن الكريم :

« يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء ان تبد لكم تسؤكم » ونحن نرجح أن يكون الخطاب

هنا موجها للمؤمنين والذى جعلنا نرجح ذلك هو الآية التالية والتى يبدو عليها انها تكمل المعنى وتعلل سبب التحذير .

« ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد ايمانكم كفارا حسدا من عند انفسهم من بعد ما تبين لهم الحق » .

وهكذا توضح لنا هذه الآية الكريمة من هو المقصود من الخطاب فى الآية السابقة كما تصور لنا ما كان اليهود يمارسونه فى مجتمع المدينة حيث يشيعون البلبلة والشك فى نفوس المؤمنين ومرة اخرى وثانية وثالثة الى ما لا نهاية نقول صدق الله العظيم، فهذا الذى كان اليهود يسعون اليه هو شغلهم الشاغل فى كل زمان ومكان فهم اعجز واهون من ان يهاجموا الأديان مباشرة فيعمدوا الى تقويض الحضارة من اساسها بشتى الأشكال والأساليب فحيث تراهم قمة الرأسمالية العاتية المدمرة لكل الأخلاق والقيم تراهم خلف الشيوعية المدمرة للأديان والاسرة وكل القيم العليا التى تعارف عليها البشر مذ كانوا بشرا .

مجتمع المدينـــة :

وعلى ضوء هــذا الذى نشـــهده من اليهود نستطيع ان ندرك ماذا كان يدور فى مجتمع المدينة قبل أن يجليهم رسول الله عنه فكانوا ينبثون فى صفوف المسلمين وقد كانوا معايشين لهم ومخالطين فيتحدثون مع المسلمين بأحاديث ويطرقون مواضيع ويثيرون شبها ، ويسألون اسئلة لا هدف لهم من ورائها الا اشـــاعة البلبلة وكان بعض المؤمنين يقعون فى احبولة اليهود فيتوجهون الى رسول الله صلى الله عليه وسلم بأسئلة يفوح منها الشك فنزل القرآن محذرا فيقول للمؤمنين ان هذه الأسئلة التى تسألونها النبى صلوات الله عليه وسلامه هى من نوع الأسئلة التى كان اليهود يوجهونها لسيدنا موسى والتى كانت هى آية كفرهم فحذار أيها المؤمنون « ومن يتبدل الكفر بالايمان فقد ضل سواء السبيل » .

اى من يجعل الكفر فى موضع الايمان (بهذه الأسئلة) .

فقد ضل سواء السبيل :

ضل : من الضلال وهو النسيان والضياع .

السبيل : الطريق .

سواء : المستوى وقيل الوسط وعندنا انه بمعنى الصراط المستقيم والمعنى ظاهر ان من يختار لنفسه الكفر بعد الايمان فقد ضاع وهلك .

« ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد ايمانكم كفارا حسدا من عند انفسهم من بعد ما تبين لهم الحق » .

ود : اى تمنى واحب .

حسدا : الحسد معروف وهو تمنى زوال النعمة عن المحسود .

من عند انفسهم : والحسد حالة نفسية ويكون قول القرآن الكريم « من عند انفسهم » هو من نوع قوله « يقولون بأفواههم » « يكتبون الكتاب بأيديهم » اى للتأكيد والالزام .

من بعد ما تبين لهم الحق :

اى ان اليهود فعلوا ذلك بعد ان ثبت لهم ان سيدنا محمدا هو الحق .

لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾ وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾

فاعفوا واصفحوا :

العفو : ترك العقوبة على الذنب .

الصفح : ازالة أثره من النفس أى ان الصفح اعم واشمل واعمق من العفو فانت قد تعفو أى تسقط العقوبة عن المذنب ولكنك لا تصفح اذ يظل أثر الذنب فى نفسك . يقول معتنقو مبدأ النسخ : ان هذه الدعوة الى العفو والصفح قد نسخت بالدعوة الى القتال ، ونحن ممن نقول ان لا نسخ هناك فالدعوة الى العفو والصفح ستظل دائما مطلوبة ما بقيت تؤدى الى النفع والخير العام حتى اذا أصبح العفو والصفح يؤديان الى الأضرار بالمجتمع فلا يعودان مطلوبين ، وهو ما اشارت له الآية بقولها :

« حتى يأتى الله بأمره » أى الى ان يأمركم الله الى انه لم يعد ثمة مجال للعفو والصفح ، وهذا لا يعنى بحال — ان الدعوة الى العفو والصفح قد زالت الى الأبد كلا أن الدعوة قائمة تطبق عندما تتوفر ظروفها وشروطها كما ان الدعوة للقتال تطبق عندما تتوفر موجباتها وشروطها ، فالدعوة الى العفو والصفح موجودة وقائمة ابدا .

« ان الله على كل شىء قدير »

قدرة الله التى لا حد لها مسألة مقررة ولكنها تشير هنا الى ما سوف يتحقق على ايدى المؤمنين من نصر على اعدائهم عندما يأتى أمر الله بالقتال .

« وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة »

اقامة الصلاة : اى اداؤها كاملة الأركان والشروط مستوفية الهيئات .

ايتاء الزكاة : اى اعطوها لمستحقيها على ما سوف يجىء . اى ان المؤمن عليه فى كافة الأحوال أداء الفرائض بقطع النظر عن الظروف المحيطة به .

« وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله » .

هذا هو لب الايمان ومناط الخير فيه ، وماأسعد المجتمع الذى يؤمن افراده بهذه العقيدة ، ويا شقاء المجتمع ، بل ويا ويل البشرية كلهامتى ضعف الايمان بهذه العقيدة ، ونعنى بهـــا ايمان المؤمن بأن كل ما يفعله من خير ، وكل ما يدفعه من مال وجهد لخير الآخرين سيجده محفوظا فى انتظاره يوم القيامة ليثاب عليه .

كلما كانت القلوب عامرة بهذا الايمان فالدنياوالناس جميعا فى خير فسوف يتنافس القادرون دائما لمد يد العون للبؤســـاء والمحتاجين على اساس انهم يعملون لانفسهم ويقدمون الخـــير ليجدوه .

انظر عندما يضيع هذا الايمان كيف ستتحول الدنيا الى جحيم وغابة موحشة وهو الحاصل بالفعل فى مجتمعات توصف بالرقى والمدنية .ويزعمون ان الدولة وقد باتت مسئولة فهذا هو المطلوب .

لا يا ســـادة ان هـــذا هو ضعف الايمان ،فالواجب على كل واحد منا أن يقدم لنفسه بعمل الخير ليجده يوم القيامة ، اعرف ابنا روحيـــاطالما غبطه على ايمانه ورجوت الله ان يجعلنى مثله ، يؤمن صاحبى هذا انه اذ يحسن ويعمل الخير فكأنما يودع أمواله فى البنك ، وكما يحرص اى مدخر على زيادة رصيده ، فان صاحبنا هذايكثر من الاحسان ، والمهم انه يحصى ماله يوم القيامة على حساب الحسنة بعشر امثالها ويزيدكل يوم من الاحسان وهو فرح سعيد بأرصدته مطمئن الى انه غنى بها ، هذا هو الايمان باليوم الآخر ، بالحساب ، بالثواب ، وسعادة البشرية منوطة بهذا الاعتقاد وشقاؤها ينبع من فقدانه ،فليتدبر هذا جيدا كل من يحاول اضعاف هـــذا الايمـــان .

« ان الله بما تعملون بصير »

تأكيد وتعزيز لقوله : « وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله » . فالله يعلم سركم ونجواكم ولا يضيع عنده عمل العاملين .

« وقالوا لن يدخل الجنة الا من كان هودا أونصارى تلك أمانيهم قل هاتوا برهانكم ان كنتم صـــادقين » .

ذكرنا من قبل ان هودا اى اليهود ، وسموايهودا من قول القرآن على لسانهم « هدنا اليك » اى تبنا اليك ، وهناك من يقول انهم ســـموايهودا نسبة الى يهوذا ، والعرب تستبدل الذال دالا عندما تعرب الكلمة ونحن الى هذا الراى اميـــل .

وكذلك الحال بالنسبة للنصارى ، حيث قال البعض انها من الكلمة القرآنية التى جرت على لسان المسيح « من انصارى الى الله » بينماقال آخرون ، انما سموا نصارى نســـبة الى مدينة الناصرة مسقط راس المســـيح ، ونحن نختار هذا الراى ايضا ، اما لماذا نرجح ان تكون كلمة اليهود نسبة الى يهوذا والنصارى نســـبة الى الناصرة فذلك لأن العرب عرفوا اليهـــود والنصارى بهذين الاسمين قبل نزول القرآن .

امانيهم : جمع أمنية والأمنية تصور يقوم فى النفس وغالبـــا ما يكون الى الوهم « اى الى التصور الكاذب » أقرب .

برهانكم : أى الحجة التى تستندون اليها فى هذا الزعم .

لا يجوز التدخل في علم الله :

كثيرا ما قلنا ان كل ما فى القرآن الكريم قد جاء على سبيل التعليم والارشـــاد للمسلمين أنفسهم . أى الذين يؤمنون بسيدنا محمد ، فهذه الآية تحكى ما كان اليهود يقولونه من ان الجنة وقف على اليهود بينما يقول النصارى انه لن يدخل الجنة الا من كان نصرانيا ، وسنرى ان الآية التالية ستفتح البـــاب لادراج اتباع اى دين فى سلك المتصورين انه لن يدخل الجنة الا هم ، ومن هنا فنحن لا نحب أن يقع المسلمون فيما وقع غيرهم فيه فيقولون : لن يدخل الجنة الا من كان مسلما ، ان دخول الجنـــة هو فضـــل من الله ونعمة يسبغه على من يشاء لا لأنه يحمل لافتة انه « يهودى » أو « نصرانى » أو « مسلم » وانما الجنة جزاء الايمان بكل اركانه وما يؤدى ذلك اليه من عمل صالح وهو ما اكدته الآية التالية كما سوف نرى .

« قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين » .

ولكنا قبل أن ننتقل الى الآية التالية لا نستطيع الا أن نقف ونوقف قارىء القرآن معنا أمام هذه النعمة الكبرى التى ساقها القرآن الكريم أمام العقل البشرى ، هذه الكوة من النور والعلم التى فتحها القرآن الكريم فى دياجير الظلمات التى كانت البشرية غارقة فيها ، فحتى عصر نزول القرآن ، كان الدين ، أى دين ، هو ما يقوله الكاهن أو الكاهنة أو القسيس أو الحبر أو كائنا ما كان اسم رجل الدين ، حيث كان الدين حكرا عليهم ، فهم وحـــدهم الذين يعرفونه ويعرفون أسراره ، هم وحـــدهم الذين يتصـــلون بالله ويعرفون رغائبه والقول ما قالوا بغير معقب .

وجاء الاسلام ونزل القرآن ليضع حدا لهذا الطغيان باسم الدين ، فكانت هذه الآية وأمثالها «قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين» . والبرهان هنا يجب ان يؤخذ بمعناه الواسع فهو لا يعنى البرهان المنطقى فضلا عن البرهان الحسابى أو الهندسى ، وانما هو مجرد المطالبة بسند لمـــا يقولون من أى نوع ، كان يقولوا مثلا هذا وارد فى التوراة او الانجيل ولكنهم لن يجدوا الا ما سوف يقرره القرآن فى الآية التالية .

وهكذا انتهى عهد من عهود البشرية وبدأ عهد جديد يحاسب فيه رجل الدين كأى انسان آخر فيطلب منه أن يقدم الدليل على ما يقول بمعنى الأساس الذى بنى عليه كلامه .

« بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون »

ويذكر القرآن بالقاعدة التى ما فتىء يعمقها ويؤصلها ويغرسها فى نفوس البشر مذ نزل على سيدنا محمد

« والعصر ان الانسان لفى خسر الا الذين آمنوا وعملوا الصـــالحات . وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » .

« فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » .

هذا هو المعنى الذى تكرره الآية التى نحن بصددها .

« بلى » اى ليس الامر ايها اليهود والنصارى كما زعمتم ، وانما من اسلم وجهه لله :

واسلم بمعنى استسلم وخضع فى كل اموره لله ، والعرب تعبر بالوجه عن جملة الشيء وقيل الوجه هنا بمعنى المقصـــد وفى رأينا أنه تقابل « الايمان » .

وهو محسن : اى وهو يعمل الصالح من الأمور .

« فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

هذا هو مناط الثواب : الايمان وقد عبرت عنه الآية « باسلام الوجه لله » ولعل كلمة الاسلام اشتقت من هذا المعنى وهو ما نرجحه والعمل الصالح وقد عبرت عنه الآية بالاحسان « وهو محسن » وقد بقى أن نلفت النظر الى ان القرآن هنا لا يزيد عن الوعـــد بالثـــواب (الأجر) والنجاة من العقاب .

« ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

أما الكيفية فقد أبقاها معلقة بمشـــيئته يوم القيامة .

« وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء وهم يتلون الكتاب كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم فالله يحكم بينهم يوم القيـــامة فيما كانوا فيه يختلفون » .

التعصب المذموم :

أن يتعصب الانسان لدينه بمعنى أن يعتز به ويعتقد بكل حرف من حروفه هو امر مطلوب ، بل هو عين الايمان الذى لا يتم ايمان الا به وانما يبدأ التعصب المذموم عندما يحتكر الانسان الخير لنفسه ثم لا يكتفى بهذا ، بل ينفيه عن الآخرين ممن ليسوا على دينه متداخلا بذلك فى مشيئة الله وسابق علمه ، ولقد حدثتنا الآية السابقة عن احتكار اليهود والنصارى للخير باعتباره وقفا على كل واحد منهما فقط .

وفى هذه الآية الكريمة التى نحن بصددها يذهبان الى ابعد من ذلك بأن صاحب الدين الآخر ليس على شيء مطلقا اى لا يوجد فى دينه اى ذرة من الحق والخير .

وهم يتلون الكتاب :

توبيخ لليهود والنصـــارى وهم يدعون على بعض بهذه الدعوى مع ان كلا منهما يتلو كتابه وفيه الاعتراف الكامل بدين الآخر ، وانه هابط من السماء ففى الانجيل على سبيل المثال يقول المســـيح : « ما جئت لأنقض الناموس ولكن لأكمله » ويعنى بالناموس شريعة سيدنا موسى .

وفى ذات الوقت يبشر العهد القديم بسيدنا عيسى (المسيح) ويصف الكثير من احواله التى تحققت بالفعل حتى لتكرر الاناجيل نص هذه الفقرات . وعلى الرغم من حـــدا التلاحم الذى تنطق به كتب الطائفتين ، فاليهود يقولون ليست النصارى على شيء والنصـــارى يقولون ليست اليهود على شيء .

ويقول البعض أن السبب المباشر لنزول هذه الآية ان وفدا من نجران قدم على النبى صلوات الله عليه وسلامه وكان من المسيحيين فتناظروا مع أحبار اليهود وارتفعت أصواتهم وقال كل فريق منهم للآخر « لست على شيء » .

ترى هذا القول فى بعض التفاسير القديمة ولكننا لا نميل الى هذا الراى فسورة البقرة التى وردت فيها هذه الآية من اول ما نزل من القرآن على رسول الله فى المدينة ، حيث قدم وفد نجران على رسول الله صلوات الله عليه وسلامه فى عام الوفود وهو العام التاسع للهجرة ، وقد كان يمكن ان يكون هذا القول ليس بحجة فقد كانت الآية تنزل من القرآن فى وقت متاخر ويأمر سيدنا محمد أصحابه بناء على تعليمات من سيدنا جبريل ان يضعوا هذه الآية فى سورة متقدمة ، فوجود الآية فى سورة البقرة لا يحدد وقتا زمنيا لنزولها ، لولا ان القصة التى تتحدث عن الملاحاة بين النصارى واحبار اليهود يفوتها أن فى العام التاسع للهجرة حيث قدم وفد نجران كان اليهود قد اجلوا نهائيا عن المدينة وما حولها . وما احسب ان سيدنا محمدا سوف يستبقى لديه وفد نجران، ريثما يستقدم بعض احبار اليهود ليجادلوا النصارى فى حضرته .

ذلك ما فتح الله به علينا ومع ذلك فمن العبث أن يقطع الانسان برأى فى أمور مضى عليها أربعة عشر قرنا ولذلك نقلنا ما فى كتب التفسير عن مناسبة نزول الآية واثبتنا ملاحظتنا مفوضين العلم أولا واخيرا لله ولنا نص الآية التى تتحدث عن ظاهرة قائمة حتى الآن .

« كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم » .

وهذه الاشارة العامة الى « الذين لا يعلمون » تزيد فى احساسنا أن الآية لا تتصل بحادث محدد كقيام مساجلة بين اليهود والنصارى فى حضرة رسول الله ، بقدر ما تشير الى ظاهرة عامة تصف أحوال أصحاب أى دين من الأديان وهم ينكرون كل شىء عن الأديان ، ومن هنا انفرد الاسلام (وهو أحد أسباب قوته) انه يعترف بالأديان الأخرى ويقرر أنها جميعا ترجع الى أصل واحد وحقيقة واحدة وينبه الى ما تعرضت له هذه الأديان من انحرافات ويحذر المسلمين من الوقوع فى هذه الانحرافات وهو يطالب المسلم أن يعايش أصحاب الديانات الأخرى ما داموا لا يتعرضون له بالأذى حتى ليسمح للمسلم أن يتزوج كتابية وأن تظل على دينها .

هذه هى عظمة الاسلام وسر قوته وعالميته وأن النصر له فى النهاية « الذين لا يعلمون » حاول بعض المفسرين ان يحدد « الذين لا يعلمون » بأن المقصود هم مشركو العرب ولكن الطبرى يرى انها عامة ونحن من رأيه ، فقد تحدثت آيات سابقة عن مشركى العرب ، فعندما تحدثنا هذه الآية عن : « الذين لا يعلمون » فهى تقصد هذا التعميم قصدا ، والذين لا يعلمون هم الجهلة .

« فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون » .

تبارك الله الخالق رب العرش العظيم ، انظر أيها المسلم المؤمن وتأدب وتخلق بخلق القرآن انظر كيف يعلمنا القرآن فى موضوع الأديان واختلافها أن نتمسك نحن بديننا ونزداد ايمانا بعقائدنا مفوضين ما وراء ذلك (كالحكم على مصير أصحاب الديانات الأخرى) الى مشيئة الله ، وقد تكرر هذا المعنى فى عديد من الآيات القرآنية : جاء فى سورة الحج :

« ان الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين اشركوا ان الله يفصل بينهم يوم القيامة » .

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾

مفـــــردات :

ومن اظلم : اى لا احد اظلم وهى الصيغة التى تعرف فى اللغة بالاستفهام الانكارى .

مساجد الله : مساجد جمع مسجد وهو كل مكان يصلى فيه لله ، ولما كان السجود لله وهو طابع الصلاة فقد اطلق اسم المسجد على مكان الصلاة لله ، واطلق البعض فقال ان المسجد هو كل مكان يعبد فيه الله وفى الحديث الشريف : « جعلت لى الارض مسجدا وطهورا ! على انه بعد انتصار الاسلام اصبحت كلمة مسجد تطلق اصطلاحا على مكان العبادة المخصص للمسلمين ولكن التعبير القرآنى « مسجد » انما يعنى المكان المخصص للعبادة وذلك مستفاد من قول القرآن الكريم : « سبحان الذى اسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى » ولم يكن المسجد الحرام الكعبة (ولا المسجد الاقصى) (بيت المقدس) وقت نزول هذه الآية من دور العبادة المخصصة للمسلمين .

وسعى فى خرابها : الخراب هو التدمير والافساد ، وهو كما يكون ماديا فقد يكون معنويا كما نقول فى حديثنا اليومى :

« خراب الذمم » و « خراب النفوس » .

« ما كان لهم ان يدخلوها الا خائفين ! اى خاشعين خاضعين .

لهم فى الدنيا خزى : اى ذل وهوان

« ومن اظلم ممن منع مساجد الله ان يذكر فيها اسمه وسعى فى خرابها اولئك ما كان لهم ان يدخلوها الا خائفين لهم فى الدنيا خزى ولهم فى الآخرة عذاب عظيم » .

ومعنى الآية العام ان ليس هناك اظلم ممن يمنع الناس من ارتياد دور العبادة لذكر الله والتعبد اليه بكل صنوف المنع المادى او المعنوى فان ذلك معناه تخريب دور العبادة والحيلولة دون ذكر الله وقد توعد الله عز وجل من يرتكب هذه الجريمة المنكرة بالخزى فى الدنيا وبالعذاب الشديد فى الآخرة .

اقوال فى مناسبة التنزيل :

كان المفسرون القدامى مولعون بذكر ما اسموه« اسباب التنزيل » ولا شك ان معرفة الواقعة التى نزلت الآية بسببها ونحن نؤثر التعبيربالمناسبة وليس بالسبب نقول انه لا شك ان معرفة المناسبة يلقى ضوءا على معنى الآيةويزيدها وضوحا وجلاء ، ومعرفة المناسبة فى نزول آيات التشريع هو من باب ما يجرى فى العصور الحديثة من موضوع « المذكرة التفسيرية » او الايضاحية ولكن ذلك مشروطبأن يكون سبب التنزيل واقعة محددة حدثت ايام الرسول ونقلها عنه صحابته اما لأنهم رأوهاوشهدوا بوقوعها او لأنهم تلقوها من لسانه هنا وهنا فقط يصبح لزاما على كل مسلم أن يلتزمبمناسبة التنزيل فى فهم الآية .

رايان :

نقول ذلك بمناسبة ما ذكره قدامى المفسرينفى مناسبة نزول هذه الآية فذهب البعض الى انها تشير الى النصارى ومعاونتهم على تخريببيت المقدس والقائلون بهذا الراى يخلطون فى الوقائع التاريخية حتى ليخلطوا بين بختنصروالنصارى مع أن بختنصر عندما خرب بيت المقدس كان لايزال على ميلاد المسيح عدة قرونوبالتالى لم يكن النصارى قد وجدوا بعد حتى يعاونوا بختنصر فى خراب بيت المقدس وبالتالىيندد بهم القرآن . ويعجب الشيخ محمد عبده كيف يقع الطبرى وهو شيخ المؤرخين بلا مراء فى هذه الغلطة فيجمع بين بختنصروالنصارى ولا شك ان الطبرى هو عمدة التاريخ الاسلامىاما التاريخ فى العصور القديمة كمصر الفرعونية والاغريق والرومان فالأمر ليس كذلك .

المقصود هم قريش :

وثمة راى آخر يرى ان قريشا هى المقصودةبهذه الآية عندما منعوا سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم وصحبه عام الحديبية من دخول مكةومنعهم بالتالى من التعبد لله فى المسجد الحرام ويعتبرون الآية من قبيل الاعلام بما سوف يحدثحيث لم يلقمرتكبو هذه الفعلة من مشركى قريش الا الخزى فى الدنيا عندما دخل سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم مكة عام الفتح وذلك بالاضافة الى ماسوف يلقونه من عذاب فى الآخرة ونحننرجح ان المشركين هم المقصودون بهذه الاشارة فالحوار مع اليهود كاد ينتهى وسنرى بعد بضعآيات انه سيوجه باكمله لهم عندما يشرع القرآن فى التحدث عن سيدنا ابراهيم واسماعيل وبنائهما الكعبة وليس من الضرورى القول بأن المقصود هو منع الرسول وصحبه من دخول مكة عام الحديبية ، فان مجرد اضطرار قريش لسيدنا محمد وصحبه للهجرة من مكة هو منعذكر الله فى المسجد الحرام . وسعى فى خرابها ولا حجة لقول من قال ان قريشا لم تكن تسعىفى خراب الكعبة فان حياة الكعبة وعمارها بعد بعثة سيدنا محمد اصبحا منوطين بالدعوة الحقةوالى التوحيد . واصبح بقاء الأصنام والحج اليها هو الخراب الذى لا يعدله خراب وكيفما كان الأمرفقد اعجبنا القرطبى .

« وقيل ان المراد هو المنع من كل مسجد الى يوم القيامة وهو الصحيح لان اللفظ عام ورد بصيغة الجمع فتخصيصها ببعض المساجد وبعض الأشخاص ضعيف » .

كما اعجبنا جدا اشياخنا مفسرو الوسيط :

« على اى حال فالمراد من المساجد دور عبادة الله جميعا لأن العبرة بعموم اللفظ . وهذا يدل على أن الاسلام يحترم دور العبادة فى الأديان السماوية السابقة عليه .

« ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله ان الله واسع عليم » .

مفـــــردات :

ولله المشرق والمغرب : مشرق الشمس اى موضع شروقها معروف وكذلك المغرب اى موضع غروبها ، وقد جاء فى القرآن الكريم :

« رب المشرقين ورب المغربين » كما جاء فى القرآن ايضا : «رب المشارق والمغارب» وعندنا ان ذلك كله بمعنى واحد وهو أن الله سبحانه وتعالى هو رب العالمين وهذه الآية الكريمة ترجع القول القائل ان الآية السابقة تشير الى اخراج رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحبه من مكة وما ادى ذلك اليه من قلق واضطراب فى موضوع قبلة الصلاة وقد كان رسول الله صلوات الله عليه وسلامه يصلى فى مكة قبل الهجرة مستقبلا الكعبة ولكن فى اتجاه بيت المقدس فلما هاجر الى المدينة جعل صلاته فى اتجاه بيت المقدس اى جاعلا بيت المقدس قبلته ، ولم تشر كتب السيرة عن قرب او بعد ما الذى كان يفعله صحابة رسول الله الذين هاجروا الى المدينة قبله ، وتشعرنا هذه الآية انه كانت هناك تساؤلات حول هذه القضية ، وهل هذا الذى يفعلونه من التوجه الى بيت المقدس هو صواب فنزلت هذه الآية الكريمة تهدىء روعهم وتطمئنهم الى حسن تعبدهم فهذا الكون كله بمشرقه ومغربه هو ملك الله وسلطانه وحيثما واينما توجه الكائن اى كائن انسانا او غير انسان بالتعبد له ، فان ذلك لايغيب عن علم الله « ان الله واسع عليم » .

فثم وجه الله : اى فهناك الله والتعبير بوجه الله هو تعبير قرآنى يعنى « الله » فلا يجب ان له وجه وبعض المفسرين يختارون معنى محددا يناسب الموضع الذى ذكرت فيه الوجه وهم هنا يقولون وجه بمعنى جهة وقيل الوجه بمعنى الوجود وقيل بمعنى الذات وكره الكثيرون استعمال عبارة ذات الله بدلا من وجه الله الا ان يكون المقصود بذات الله هو علم الله وقد اخترنا قول من قال : الله يعنى الله ويكون المعنى هو عين ما جاء فى آية اخرى كريمة :

« ولا ادنى من ذلك ولا اكثر الا هو معهم اينما كانوا » .

والآية فى معناها واضحة كفلق الصبح تعبر عن معنى هو من اساس العقيدة وهو تنزه الله عن الجهة والمكان واشتراط موضع معين محدد بذاته لتوجه العبادة اليه وهو ما اكده رسول الله بقوله « جعلت لى الأرض مسجدا وطهورا » فالدنيا كلها ملكوت الله والتوجه له صالح فى كل زمان ومكان فى غير حاجة الى وسيط او دار مخصصة للعبادة لا تصح الا فيه ، وهذا المبدا هو احد مزايا الاسلام التى يتفوق بها الاسلام سائر الأديان التى تشترط انسانا معينا ومكانا معينا لكى تصح العبادة .

ربط الآية بموضوع الناسخ والمنسوخ :

والآية وهذا معناها لا تحتمل ان تنسخ فمن المستحيل القول بأن وجود الله فى غير جهة وان له المشرق والمغرب من الأمور التى يرد عليها النسخ وان يؤمر سيدنا محمد بعد ذلك ان يجعل صلاته فى اتجاه المسجد الحرام « فول وجهك شطر المسجد الحرام » وقال البعض بل الناسخ هو « وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره » فنقول ان ذلك امر يراد به التنظيم ولا علاقة له بالعقيدة التى يجب أن تظل راسخة من ان الله لا يحده حد وبالتالى يعلو عن التحيز فى مكان وسنزيد الأمر تفصيلا عندما نصل الى آية تحويل القبلة .

وحسبنا الآن أن نشير الى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم ظل حتى آخر يوم من حياته يصلى اثناء السفر على راحلته صلاة التطوع اى « النوافل » ايا كان اتجاه راحلته والمذاهب الأربعة نتيجة لذلك متفقة على جواز ذلك . اما بالنسبة للفرائض فيجيزونها فى حالة الضرورة فقط « كالخوف » مثلا .

يقول القرطبى : ومن جعلها منسوخة فلا اعتراض عليه من جهة كونها خبرا لأنهـا محتملة لمعنى الأمر ، يحتمل أن يكون معنى « فأينما تولوا فثم وجه الله » ولوا وجوهكم نحو وجه الله .

ونعترف اننا لم نفهم هذا الذى يقوله القرطبى ولكننا راينا ان نثبت رايه لعل القارىء يفهم منه ما لم نفهم .

وقالوا : اتخذ الله ولدا سبحانه بل له ما فى السموات والأرض كل له قانتون ●

سبحانه : اى تنزه وتعالى عما يقالون .

قانتون : اى خاضعون مطيعون مأخوذ من القنوات ، والقنوات الطاعة ، والسكوت والقيام وكلها أحوال العبودية لله .

روى البخارى عن ابن عباس عن النبى صلوات الله عليه وسلامه انه قال : قال الله تعالى كذبنى ابن آدم ولم يكن له ذلك وشتمنى ولم يكن له ذلك . فأما تكذيبه اياى : فزعم أنى لا اقدر ان اعيده كما كان واما شتمه اياى فقوله لى ولد فسبحانى ان اتخذ صاحبة او ولدا .

وجاء القرآن الكريم : « قل هو الله احد ● الله الصمد ● لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا احد » .

وقالوا اتخذ الرحمن ولدا لقد جئتم شيئا ادا ● تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا ● ان دعوا للرحمن ولدا ● وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولدا ان كل من فى السموات والأرض الا آتى الرحمن عبـدا لقد أحصـاهم وعدهم عدا وكلهم آتيه يوم القيامة فردا .

فارق ما بين التوحيد والوثنية :

تظهر هذه الآية الكريمة وامثالها فى القرآن التى تنزه الله عن الولد جوهر الاسلام الذى يجعله اعظم الأديان واكمل الأديان وآخرها ذلك انه انتهى الى التوحيد الخالص وتطهير العقائد والأديان التى سبقته من غواشى الوثنية وبقاياها فقد كانت احدى طوائف اليهـود تقول عزير ابن الله ، وحيث يقول النصارى المسيح ابن الله وكانت قريش تقول الملائكة بنات الله وكانت ديانة الاغريق القديمة ومصر القديمة تتحدث كلها عن ابن الله فجاء الاسلام ينزه الله عن ذلك كله ويعتبر ان اى كائن سـوى الله انما هو من مخلوقاته وبالتالى من عبيده . وحقيقة الفارق بين الوثنية والدين الحق يكمن فى هذه النقطة .

فالانسان الوثنى هو الذى يتصور الله على صورة بشرية أيا كانت الصفات التى يعزوها . بعد ذلك لله من حيث القدرة أو العلم أو الخلود ، ومن هنا فقد جاء الاسلام بالحصانة التى تحول بين المؤمن وبين الانزلاق الى الوثنية التى انزلق اليها البشر على شتى الصور اما هذه الحصانة فهو قوله سبحانه وتعالى : « ليس كمثله شىء » ومن هنا قيل كل ما دار فى ذهنك على أنه الله فالله بخلاف ذلك . واذا كان القــرآن الكريم يخاطب الناس بما يفهمون اذ لا سبيل غير ذلك لهدايتهم ، فيتحدث عن يد الله ووجه الله وغضب الله وحب الله ومكر الله الى آخر ما مر علينا وما سوف يمر فيجب أن نفهم من ذلك كله ان المراد هو هدايتنا الى سبل الخير والرشــاد أما العقيدة فى الله سبحانه وتعالى فيجب ابعادها ليس فقط عن الصورة البشرية بل وعن المنطق البشرى نفسه فالمنطق البشرى يوصلنا الى وجود الله اما ما وراء ذلك فهنا يجب أن يتوقف المنطق لأنه مقاييس ومعايير بشرية لا يمكن أن تسرى على الله .

نفى البنوة عن الله :

وعلى هذا الأساس يتعين نفى البنوة عن الله ، ذلك أن الحديث عن الابن انما هو حديث انسانى فالانسان له ابن لأن هكذا يقوم البنــاء الانسانى لتبقى الحياة الانسانية وتستمر — أما بالنسبة لله الذى هو القــوة الوحيدة المطلقة الفعالة فى هذا الكون فما هى حاجته الى ابن ؟ يقال عنه انه مساو له فى الجوهر .

ولذلك كله كان التوحيد المطلق الصارم للقرآن — فالله واحد وكل من عداه أيا كان اسمه أو صفته أو مكانته فهو بعض خلق الله ولهذا تشير الآية بقولها : « بل له ما فى السموات والأرض كل له قانتون » .

وفى هذا الاعتقاد تفوق الاسلام وانتشــاره بقوة مبادئه بمجرد أن زال عن شعوبها سلطان المستعمر وأصبحت حرة فى اختيــار معتقداتها والقول بأن لله ابنا ولد على ظهر الأرض هو قول من أقوال الوثنية يرفضه العقل بمجرد أن يتحرر من الضواغط التى تفرض عليه هذا التصور ومن هنــا فسوف تجد أقواما يعتنقون الاسلام بعد أن يخرجوا من معتقداتهم ولن تجد مسلما يخرج من دين الاسلام الى دين آخر الا لعلة أن وجدوا العكس هو المشاهد حيث يدخل غير المسلمين الاسلام كل يوم بالعشرات والمئات فى كافة أنحاء العالم وغدا عندما تنحسر عن العــالم الغربى موجة المادية والالحاد فسوف يكون الاســلام فى انتظارهم بهذه العقيدة السليمة الصافية فى تصور الله ووحدانيته وقدرته التى تصورها الآية التــالية :

بديع السموات والأرض واذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون .

بدع : الشىء أى انشاه وبداه على غير مثال سابق .

البديع : الذى يحدث الأشياء على غير مثال ســابق .

واذا قضى امرا : أى اذا شاء امرا .

كن فيكون : فيكون الشىء المراد كما شاءه .

والمعنى استمرار لاظهار قدرة الله التى لاتحتاج معها ابن ولا شريك ، واذا كانت الآية السابقة قد تحدث عن أن كل من وما فى السموات والأرض ملك لله فان هــذه الآية تشــير الى أنه خالق السموات والأرض . وقد لايعرف الكثيرون ان المعتقدات الوثنية توزع الاعمــال على مختلف الالهة .

فهذا الاله هو الذى خلق الكون وهذا الاله يدبره وهذا للموت للأحياء وجاء القرآن الكريم ليضع حدا لهذا كله فانما هو اله واحد هو الذى خلق ويخلق انى يشاء كيف يشاء لأى غرض يشاء وهو الذى يدبر وهو الذى يحيى ويميت ،وهو المريد الفعال وفعله هو مشيئته « كن فيكون » .

كن فيكون :

والتعبير « بكن فيكون » انما هو لاظهار عظمة الله وقدرته وكونه فى غير حاجة الى مساعدين او اعوان حاجة الأب الى الأبناء ليعاونوه فى حياته ويكونوا خلفا له بعد مماته هذا هو المعنى الانسانى للبنوة يقوم على الحاجة اما الله المستغنى عن كل شىء القادر على كل شىء الأبدى السرمدى فتنزه عن أن يكون له ابن . والاتفاق منعقد على ان الله سبحانه وتعالى لا ينطق بكلمة « كن » وانما يكون الشىء بمجرد مشيئته : وما اجمل ايمان السلف واكمله يسمعون القول فيفهمونه ويعونه ، ولكن بعض المفسرين حملوا انفسهم مشقة التساؤل متى يقول الله للشىء « كن » أيقوله والشىء لا يزال معدوما فكيف يؤمر « المعدوم » وحيث يبادر قوم فيقولون باستحالة ذلك ، يرد آخرون بانه حتى المعدوم كائن فى علم الله .

وعندنا ان امثال هذه الأبحاث خوض فى المنطقة المحظورة على العقل البشرى فهو انما يعمل ويطبق قواعده واقيسته وما يجوز وما يستحيل فى دائرة اختصاصه اى فى كل ما يتصل بشئونه هو . أما عندما يتصل الأمر بالخالق وعمليـــة الخلق فحسبنا أن نفهم ان الله هو كل شىء .

وقد جاء فى القرآن الكريم :

ــ انما امره اذا اراد شيئا ان يقول له كن فيكون .

ــ انما قولنا لشىء اذا اردناه أن نقول له كن فيكون » .

ــ وما أمرنا الا واحدة كلمح بالبصر .

وهكذا يجب أن نفهم من « كن فيكون » انه تعبير عن كمال القدرة الالهية وانها مطلقة بغير حدود .

ــ كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم :

فقد كانت قريش تقول لسيدنا محمد « لن نؤمن لك حتى تفجر لنـــا من الأرض ينبوعا » .

ومن قبل قال اليهود : « واذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة » ففى كل زمان ومكان وجد وسوف يوجد من اذا دعى للايمان بالله علق ذلك على أن يرى الله او يكلمه الله أو على الأقل يرسل له خصيصا آية تقوم باقناعه كأن هذا العزيز المسكين يتصور أن الله فى حاجة لاقتناعه ولا يدرى هذا المسكين أنه عندما يؤمن فانما يؤمن لنفسه واما حيث الآيات الدالة على وجود الله فكل ما فى الكون بل فى نفس الانسان ما يشيد بعظمة الله وقدرته ووحدانيتـــه فاذا غفـــل عنها الغافلون فذلك شـــأنهم وســـوف يحاسبون على ذلك حسابا عســـيرا أما الذين أنعم الله عليهم وهداهم فهم يرون آياته فى كل شىء « قد بينا الآيات لقوم يوقنون » اى يطلبون العلم الذى لا شك فيه بالنظر فى ملكوت السموات والأرض .

وفى أنفسهم نظرة تدبر واستدلال .

ــ انا ارسلناك بالحق بشيرا ونذيرا ولا تسئل عن أصحاب الجحيم .

إِنَّا أَرْسَلْنَٰكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ الْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ الَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ الْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُولَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ الْخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِيٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾ * وَإِذِ ابْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾

مفردات :

انا ارسلناك : هذا هو التكليف الالهى لسيدنا محمد بتبليغ رسالته ومن هنا كان سيدنا محمد رسول الله لكافة من خلق الله ممن نعرف ومن لا نعرف .

بالحق : هذا هو جوهر الرسالة المحمدية فكل ما هو حق فهو من رسالة سيدنا محمد والحق هو الله وتوحيده حق وشريعته حق والقرآن حق وتصرفات سيدنا محمد كلها سواء كانت بالقول او بالفعل كلها حق من حق .

بشيرا ونذيرا .

هذان هما وجها الحق الذى جاء به سيدنا محمد والتبشير هو الاخبار عما يسر ويفرح والانذار هو الأخبار عن كل ما يحزن ويكدر التبشير بالثواب بالجنة والنعيم المقيم والانذار بالعقاب ، بالنار والسعير البشرى بالجنة ورضوان الله لمن آمن وعمل صالحا والعذاب لمن كفر وافسد واساء .

ولا تسئل عن اصحاب الجحيم : اى لست مسئولا يا محمد عمن كتبت عليهم الشقاوة فكفروا وبالتالى أصبحوا من اصحاب الجحيم .

وهذا التحديد لدور سيدنا محمد وان مهمته تنحصر فى اداء الرسالة دون ان يكون مسئولا عن النتيجة التى هى فى علم الله ورهنا بمشيئته ، قد ورد ذكرها مرارا وتكرارا فى القرآن الكريم :

— فانما عليك البلاغ وعلينا الحساب .

— فذكر انما انت مذكر ● لست عليهم بمسيطر .

— فذكر بالقرآن من يخاف وعيد .

وهذا النهج هو الذى يجب أن يكون نبراس كل مصلح وداعية للخير وهو أن يصر على دعوته ويثابر عليها ويؤدى تكاليفها تاركا الجزاء لله سبحانه وتعالى .

— ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم قل ان هدى الله هو الهدى ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم مالك من الله من ولى ولا نصير ●

مفردات :

الملة : اسم لما شرعه الله لعباده فى كتبه على السنة رسله اى ان الملة والشريعة سواء .

اهواءهم : جمع هوى وهو اتباع العاطفة الجامحة .

« قل ان هدى الله هو الهدى »

والخطاب لسيدنا محمد ولأمته من بعده ان الله يهدى للحق من يشاء ويختار « انك لا تهدى من احببت ولكن الله يهدى من يشاء » !

فلتطمئن يا محمد وأنت يا من تتبع دين محمد انك على الحق وان ما انتم عليه هو الهدى الالهى لا ما يدعيه هؤلاء الكافرون .

— ولئن اتبعت أهواءهم بعد ما جاءك من العلم .

لا يزال ظاهر القول موجها لسيدنا محمد محذرا لسيدنا محمد عن متابعة رغبات المنكرين التى لا تهدف الا لصرف سيدنا محمد وأمته من بعده عن هدى الله الذى ساقه اليهم واتباع ملتهم التى انحرفت عن أسسها السليمة بما غشيها من الأهواء (بعد الذى جاءك من العلم) والعلم هنا هو القرآن وهو بعد أن جاء لسيدنا محمد فقد جاء لكل مسلم من بعده فالخطاب صالح لكل مسلم فى كل زمان ومكان .

« مالك من الله من ولى ولا نصير » :

انظر يا رعاك الله وظاهر القول أن المخاطب به هو سيدنا محمد كيف يتوعده الله اذا هو انحرف عن الجادة بأن يتخلى عنه فلا يتولاه بالرعاية ولا يمده بالعون ونحن كما قدمنا عن القائلين بأنه اذا كان الخطاب لسيدنا محمد فهو على سبيل الارشاد والهداية لأمته وادل ما يجب ان نتعلمه هو انه لا يوجد انسان على ظهر البسيطة مهما علا قدره واشتد خطره يعلو على الشريعة فها هو رسول الله وحبيبه وصفيه ومختاره لا يبقى كذلك الا بمقدار ما هو منفذ لأحكام الشريعة مؤتمر بأوامره منته عن نواهيها اعاذنا الله من شر من يصنعون انفسهم فوق الشريعة .

— الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون .

مفردات :

آتيناهم الكتاب : اليهود والنصارى .

حق تلاوته : يرى البعض انها بمعنى يتبعون أوامره وينتهون بنواهيه .

وقد تكررت الآية بمعناها اكثر من مرة ممايقطع بأن المقصود هم « اهل الكتاب » فمن كان منهم يؤمن بالتوراة والأنجيل ويتبع اوامرها بكل دقة فيحرم حرامها ويحلل حلالها ويفهم بشارتها بسيدنا محمد فهؤلاء لا يمكن الا ان يؤمنوا بسيدنا محمد وهو ما حدث بالفعل حيث اسلم نفر من اعلمهم واورعهم .

جاء فى القرآن الكريم بمعنى هذه الآية مع اختلاف فى الالفاظ :

— ولو انهم اقاموا التوراة والأنجيل وما أنزل اليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت ارجلهم » الآية .

— قل يا أهل الكتاب لستم على شىء حتى تقيموا التوراة والأنجيل وما أنزل اليكم من ربكم » الآية .

— قل آمنوا به أو لا تؤمنوا ان الذين اوتوا العلم من قبله اذا يتلى عليهم يخرون للاذقان سجدا ويقولون سبحان ربنا ان كان وعد ربنا لمفعولا .

— « الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون ● واذا يتلى عليهم قالوا آمنا به انه الحق من ربنا انا كنا من قبله مسلمين ● أولئك يؤتون اجرهم مرتين بما صبروا » الآية .

فأنت ترى أن القرآن الكريم قد أشار اكثر من مرة أن من يتمسك بكتابه من اهل الكتاب فلا يمكن الا ان يؤمن بسيدنا محمد وهو نفس ما تؤكده هذه الآية فالمقصود بها هم اهل الكتاب ومع ذلك فقد وجد من قال ان المقصود بها هم صحابة رسول الله يتلون القرآن « حق تلاوته » وعندنا أن الذى حملهم على هذا التصور هو ما روى عن بعض الصحابة من تحديد لمعنى « حق التلاوة » مطبقا على القرآن الكريم فروى عن عمر بن الخطاب قوله : « يتلونه حق تلاوته » قال « اذا مر بذكر الجنة سأل الله الجنة واذا مر بذكر النار تعوذ من النار » وعن ابن مسعود قال « والذى نفسى بيده ان حق تلاوته ان يحل حلاله ويحرم حرامه ويقراه كما أنزله الله ولا يحرف الكلم عن مواضعه ولا يتأول منه شيئا على غير تأويله !

وكذلك روى عن ابن عباس ما لا يخرج عن ذلك ، وهكذا نقول ان مثل هذه المرويات ما جعل بعض المفسرين يقولون ان الذين « آتيناهم الكتاب » هنا تعنى صحابة رسول الله وهؤلاء فاتهم ان كل خطاب أو وصف بخير وفضيلة (حتى ولو كان فى سياق قصة من قصص القرآن) يتصل بأهل الكتاب فالمسلمون به اولى فاذا وجد فيهم من يتلو الكتاب حق تلاوته فالمسلمون اولى بذلك ومن هنا جرى تحديد المقصود من حق التلاوة .

ـــ يا بنى اسرائيل اذكروا نعمتى التى انعمت عليكم وانى فضلتكم على العالمين ● واتقوا يوما لا تجزى نفس عن نفس شيئا ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة ولا هم ينصرون ●

وكما بدأ الحوار مع اليهود بالتذكير بما أسبغه الله عليهم من نعمه وكيف فضلهم على معاصريهم ، وشرع بعد ذلك يعدد هذه النعم وكيف بدأت بتخليصهم من فرعون مصر وكيف انزل عليهم المن والسلوى وانزل عليهم التوراة وبعث منهم النبيين والرسل وكيف ردوا على ذلك كله بالجحود والكفر والعصيان ، وقرعهم الله ما شاء له ان يقرع والآن وقد انتهى هذا الحوار فقد شاء الله أن يوسع لهم من رحمته مرة اخرى ويمد لهم فى حبل الرجاء ان هم آمنوا بسيدنا محمد فراح يذكرهم بما بدأ به الحوار من نعمته وفضله عليهم ويحذرهم كما حذرهم فى مستهل الحديث من يوم القيامة حيث يسأل كل انسان عن نفسه فلا ينفعه انسان آخر وليس هناك فدية (عدل) يفتدى بها الانسان نفسه وليس هناك من يعينه (ينصره) وانما هو عمل الانسان الصالح النابع من ايمان سليم هو وحده حبل النجاة فى هذا اليوم العصيب .

يتبع حيث تشرع الآيات فى الحديث عن مناسك الحج ان شاء الله .

مفردات :

« واذا ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فأتمهن »

ابتلى : الأصل فى الفعل « بلو » من باب نصر ومعناه الاختبار والامتحان ويكون بالخير والشر والنعمة والنقمة والمعنى ان الله سبحانه وتعالى اختبر سيدنا ابراهيم وامتحنه بينما كلفه به ، فنجح ابراهيم فى الامتحان (فأتمهن) أى انه قام بما عهد به اليه على الوجه الأكمل وقد وصفه الله فى آية أخرى أنه « ابراهيم الذى وفى » ويقول القرطبى نقلا عن الماوردى ان ابراهيم تعنى بالسريانية « أب رحيم » والمطلوب ممن يعرفون اللغة السريانية تحقيق هذا المعنى .

ما هى الكلمات :

وكعادة المفسرين القدامى واصرارهم على تحديد كل شىء ، يتحدثون عن هذه التكاليف التى أمر الله ابراهيم بتنفيذها فذهبوا فى المقصود بها مذاهب شتى لا نستطيع أن نجاريهم فيها وانما نكتفى بايراد رأى واحد من هذه الآراء يقول ان المقصود بهذه الكلمات هو « شرائع الاسلام » وهى فى رأى أصحاب هذا القول تتكون من ثلاثين سهما عشر منها فى سورة براءة « التائبون العابدون » الى آخرها وعشر فى الاحزاب « ان المسلمين والمسلمات » الى آخرها وعشر فى المؤمنون « قد أفلح المؤمنون » واذا كنا قد اخترنا هذا الرأى فلأنه اقرب الى الاحاطة والشمول من الآراء الأخرى التى تتحدث عن تقليم الأظافر .. الخ .

ونقول مع ابن جرير الطبرى « انه يجوز أن يكون المراد بالكلمات جميع ما ذكر وجائز ان يكون بعض ذلك ولا يجوز الجزم بشىء منها انه المراد على وجه التعيين الا بحديث أو اجماع ، ولم يصح فى ذلك خبر بنقل الواحد ولا بنقل الجماعة الذى يجب التسليم له » .

وعلى من يريد التوسع أن يرجع الى تفسير القرطبى والذى تحدث باستفاضة وخاصة فى موضوع « الختان » الذى يعتبره البعض احد هذه التكاليف التى كلف بها ابراهيم فقام بادائها على الوجه الأكمل .

« انى جاعلك للناس اماما »

الامام : القدوة .

اى أن الله سبحانه وتعالى بعد أن امتحن ابراهيم (ابتلاه) فاجتاز الامتحان ، اختاره بعد ذلك ليكون قدوة يقتدى بها الناس ، فأين هذا المعنى الكريم مما يتقوله اليهود من أن الله (سبحانه) عقد صفقة مع ابراهيم أن يعبد ابراهيم الله وفى مقابل ذلك يمنحه الله « كذا وكذا » له ولنسله من بعده .

وقد لا يعرف الكثيرون أن الصهاينة اذ يطالبون بفلسطين فبموجب هذا الاتفاق الذى ابرمه الله مع جدهم ابراهيم أن يكونوا لله شعبا وفى مقابل ذلك يعطيهم فلسطين ، ويجد اليهود فى القرن العشرين من يتابعهم على هذا الغثيان .

انظر الى قول الله يرد على ابراهيم عندما طلب أن يمد الله الخير الذى اضفاه الله عليه الى ذريته من بعده :

« ومن ذريتى قال لا ينال عهدى الظالمين »

وهكذا عندما دعا ابراهيم شأن اى والد يبتغى الخير لأولاده أفهمه الله سبحانه وتعالى أن سيكون من نسله الصالح والطالح والخير والشرير وان الله لا يشمل برحمته وبركته « الظالمين » وفى هذه الآية الكريمة نموذج لمعانى القرآن المتجددة والتى يرى فيها ابناء كل عصر ما يضىء طريقهم ، يثلج صدورهم .

الأئمة الظلمة واليهود :

ففى القديم حيث كان لواء الاسلام مرفوعا على العالمين ، وحيث لم تكن هناك اسرائيل وكان اليهود فى خدمة العالم الاسلامى كما هم فى خدمة أمريكا اليوم ، صال المفسرون وجالوا فى معنى « لا ينال عهدى الظالمين » واتخذ بعض العلماء من هذه الآية الاساس والقاعدة فى أن الامام (الحاكم) يجب أن يكون عادلا وأن الظلم يسقط عن اى حاكم شرعية وجوده ويقولون فى ذلك اقوالا جميلة ورائعة تهفو لها النفوس فى كل زمان ومكان .

والآية الكريمة تحتمل كل هذه المعانى فقد استثنى الله من « عهده » الظالمين .

وانظر الآن كيف يشمل هذا المعنى فيما يشمل بغى اسرائيل والظلم الذى ترتكبه فلا جدال أو شبهة فى ان اليهود بعض نسل ابراهيم ، ولكنه هذا البعض الظالم الذى استثناه الله من عهده ورحمته فلنا أن نتفاءل ونستبشر بأن الاسرائيليين بما ظلموا فسوف تكون عاقبتهم وخيمة .

« ذريتى » قيل ان هذه الكلمة مأخوذة من « الذر » وقيل من ذرء وقيل من ذرو .

ونحن نختار « الذر » لما ورد فى الخبر أن « الخلق كان كالذر » لأنه يطابق آخر ما توصل اليه العلم من أن الحيوانات المنوية فى حجم الذرة أو دون ذلك .

وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَـٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ

« واذ جعلنا البيت مثابة للناس وامنا »

جعلنا : بمعنى صيرنا .

البيت : هو المسجد الحرام ، اى الكعبة المشرفة .

مثابة : من فعل : ثاب يثوب ثوبا بمعنى رجع.

تقول ثاب الى رشده بمعنى رجع الى رشده .وثاب الناس الى كذا جاءوا اليه وتجمعوا .

والمثابة هى الموضع الذى يثاب اليه اى يرجع اليه .

والمعنى هنا أن القلوب تهفو للوصول الى الكعبة ومن قصدها مرة يظل ما بقى حيا يتوق لزيارتها مرة ثانية وثالثة ورابعة ما بقى ذلك فى دائرة الامكان ، وهو سر اودعه الله فى الكعبة والآية الكريمة تصف خصائص بيت الله الحرام من حيث انه مهوى النفوس ومنتهى الرغبات .

وامنا : الخاصية الثانية لبيت الله الحرام ، الأمن : « ومن دخله كان آمنا » .

ولقد امتن الله على قريش بهذه النعمة نعمة الأمن « فليعبدوا رب هذا البيت الذى اطعمهم من جوع وآمنهم من خوف » ومن يطالع تاريخ العرب فى الجاهلية لا يمكن الا ان يؤمن بالسر الالهى الذى انطوت عليه الكعبة فحيث كان الأخذ بالثأر هو قوام حياة العربى ، فقد كان الواحد منهم اذا رأى قاتل ابيه حول الكعبة لا يمكن ان يفكر مجرد تفكير بايصال اى نوع من الأذى اليه.

« واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى »

مقام : المقام فى اللغة موضع القدمين . وهو هنا فى هذه الآية يعنى على ما جاء فى صحيح البخارى « هو الحجر الذى ارتفع اليه ابراهيم حين ضعف عن رفع الحجارة التى كان اسماعيل يناوله اياه فى بناء البيت » .

ويعرفه كل من حج حيث يصلى عنده ركعتى طواف القدوم وفى صحيح مسلم من حديث جابر ان النبى صلى الله عليه وسلم لما راى البيت استلم الركن فرمل ثلاثا ثم مشى اربعا ثم تقدم الى مقام ابراهيم فقرأ « واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى » فصلى ركعتين قرأ فيهما بـ « قل هو الله أحد » و « قل يا أيها الكافرون » .

والقول على هذه الآية « واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى » بعض ما يرويه سيدنا عمر عن موافقات ربه عليه فقد قال لسيدنا محمد « هلا اتخذنا من مقام ابراهيم مصلى » فنزلت هذه الآية .

« وعهدنا الى ابراهيم واسماعيل »

عهدنا : أمرنا .

ابراهيم هو سيدنا ابراهيم اب الأنبياء فقد رزق باسماعيل واسحق . ومن اسحق تناسل اليهود عن طريق ابنه يعقوب (اسرائيل) وعن طريق اسماعيل تناسل العرب المستعربة الموجودون حاليا وسنذكر فيما بعد حديثا مطولا عن كيفية تواجد اسماعيل فى مكة .

اما الآن فنريد أن نشير الى الحقيقة التى تخفى على الكثيرين وهى الصلة الخاصة التى تربط سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام بالمصريين فقد وفد سيدنا ابراهيم الى مصر على ما يروى العهد القديم فجرت له حوادث مع فرعون انتهت بأن قدم فرعون مصر « هاجر » لتكون جارية له وكان ابراهيم عاقرا لم يرزق بأولاد ، ويمضى العهد القديم فى قصته فيقول أن سارة زوجة سيدنا ابراهيم طلبت منه ان يبنى بهاجر المصرية علهما يرزقان منها بغلام يكون انس حياتهما فى شيخوختهما فكان ان انجبت هاجر المصرية اسماعيل ، وكان من فضل الله على زوجة ابراهيم أن رزقها بالرغم من كبر سنها باسحق . ويقول لنا العهد القديم أن عوامل الغيرة تحركت عندئذ فى نفسها وطلبت من سيدنا ابراهيم أن يبعد هاجر المصرية وابنها اسماعيل فكان أن قصد بهما بلاد الحجاز لتحقق مشيئة الله فى أن يقوم العرب المستعربة وفى كتابنا نبى الانسانية الذى صدر منه الجزء الأول تفصيل لذلك كله وسوف نورد بعد قليل حديث بناء الكعبة .

« ان طهرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود »

هذا هو موضوع « العهد » اى الأمر فقد امر الله سبحانه وتعالى سيدنا ابراهيم واسماعيل بأن يصونا البيت بعد فراغهما من بنائه من كل دنس ورجس ، واى رجس ودنس اشد من الأصنام والأوثان التى لوث بها مشركو مكة الكعبة ، ومن هنا كان اول ما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما دخل مكة فاتحا وهو لا يزال ممتطيا ناقته ، بحيث لم يتريث ولو لبضع دقائق ليلتقط فيها انفاسه بعد ما عاناه فى يومه من مشقة ، بل انه قصد الكعبة على الفور وطاف حولها وفى يده قضيب من خيزران يشير به الى الأصنام وهو يردد « وقل جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا » فتنكفىء الأصنام على الفور ، وهكذا اعاد النبى صلوات الله عليه للكعبة طهارتها وهى التى امر الله بها جده ابراهيم بهذه الآية ويتخذ بعض الفقهاء هذه الآية اساسا لأحكام طهارة المساجد .

« للطائفين والعاكفين والركع السجود »

الطواف : احد مناسك الحج التى سنها سيدنا ابراهيم واقرها الاسلام فاصبحت من اركان فريضة الحج ، وصورته ان يطوف الحاج اى (يمشى) حول الكعبة سبع مرات (اشواط

وقد دار التساؤل بين المفسرين حــول من هم الطائفون ومن هم العاكفون ، واصح الاراء فى نظرنا قول القائل ان الطائفين هم حجاج بيت الله من خارج مكة ، والعاكفون هم المقيمون فى مكة بالذات « والعكوف » فى اللغة ، اللزوم والاقبال على الشىء .

والركع السجود : اى المصلون عند الكعبة وخص الركوع والسجود بالذكر لانهما اقــرب احوال المصلى الى الله تعالى :

« واذ قال ابراهيم رب اجعل هذا بلدا آمنا وارزق اهــله من الثمرات من آمن منهم بالله واليــوم الآخر قال ومن كفر فأمتعه قليــلا ثم اضطره الى عذاب النار وبئس المصير » .

وتمضى قصة سيدنا ابراهيم كما يثبتها القرآن فتحدثنا كيف دعا سيدنا ابراهيم لسلالته بالبركة شريطة ان يكونوا مؤمنين بالله واليــوم الآخــر فيتفضل الله عز وجل كما هو شــأنه من بنى البشر ، فيقول له : « سأفعل ذلك واشــمل من سيتواجدون فى هذه البقعة ببركتى ســواء منهم المؤمن والكافر ، ولكن نعمتى على الكافر لا تكون الا الى حين ، اقصاه حياته فى هذه الدنيا ويوم القيامة يكون الحساب حيث لا يفلح الا المؤمنون، اما الكفرة فأيا كان شأنهم فى الدنيا فمأواهم جهنم وبئس المصير .

« وارزق اهله من الثمرات »

ويهمنا كما عودنا قراؤنا ان نقف امام الآيات التى تتضــمن معجــزة خــارقة نطق بها الزمن واصبحت تقطع بأن القرآن لا يمكن ان يكون من تأليف البشر ويفسر هذه الآية التى نحن بصددها من حيث كونها تتضمن دعوة ســيدنا ابراهيم لسلالته فى مكة بالرزق ، قول سيدنا ابراهيم فى آية اخرى « انى اسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع .. الآية » وهنا تكمن المعجزة ، فالقــرآن الكريم يتحــدث عن واقعــــة مضت عليهــا عشرات القرون وها قد مضي على نزول القــرآن اربعة عشر قرنا قامت فيهــا دول وزالت دول وتغير وجه البسيطة من اليمين الى الشــمال ومن الأبيض الى الأسود وبالعكس ، اربعة عشر قرنا اكتشفت فيها قارات واكتشفت قوتا البخــــار والكهرباء ونحن الآن فى عصر الذرة والصعود الى الكواكب بكل ما ادى ذلك اليه من تطورات ومع ذلك فلا تزال منطقة مكة حيث كانت منذ الوف السنين لا تعيش الا ببركة دعوة سيدنا ابراهيم على ما يرد لهم من الثمار من خارج مكة .

ضلال اديب كبير فى شبابه :

ويحضرنا بمناسبة الحديث عن سيدنا ابراهيم وســيدنا اسماعيل وعــلاقتهما بالعرب وذلك فى القرآن ، أن اديبا مصريا منذ قرابة خمسين سنة ردد بعض اسرائيليات العصر الحديث التى يراد بها كما هى العادة زعزعة يقين المؤمنين ونحن اذ نناقش هذه الرواية التى حذفها قائلها هو نفسه من طبعة كتابه الثانية . كما انه بعد ان طال به العمر اصبح حصــنا من حصــون اللغة العربية واصبح لا يطرب (حســب قوله) الا من سماع القرآن المرتل كان ذلك من شأنه ان يجعلنا نتجاوز عن هذه العبارة الطائشة لولا اننا على ثقة من ان اليهود سيظلون ابدا يروجون هــذه الاقــاويل ويغررون بهــا الســذج وقليلى المعرفة فلزم ان نحصن الشباب ضد مفترياتهم .

للتوراة والقرآن أن يحدثانا عن ابراهيم :

قال بعض مستشرقى اليهود وتلقف قولهم هذا العالم المصرى المسلم ليشق طريقه الى الشهرة «للتوراة والقرآن أن يحدثانا عن ابراهيم واسماعيل ولكن ذلك لا يكفى لاثبات وجودهما التاريخى ».

كلمة طنانة رنانة يتصور بعض من يسمعها انها الفة علم مع انها اذا لم يقدم قائلها الدليل على دعواه تصبح آية جهل وحماقة ذلك ان الاثبات اذا كان فى حاجة الى دليل فان النفى فى حاجة الى دليل كذلك . وعندما يقول انسان ان فلانا ابى فدليله المعروف والمشهور والأمر الواقع وما يشهد عليه أصحاب الشأن من اقاربه فعلى من أراد ان ينفى هذا الأمر الواقع المقرر ان يأتى بادلته سواء كانت عقلية او نقلية كأن يثبت على سبيل المثال استحالة هذه النسبة او يأتى بشهود او اقوال صادقة أو حتى كاذبة لتأييد دعواه ، اما ان يكتفى بمجرد اقواله دون أن يعززها بنقل او عقل فهذا هو التخرص وهذه هى الرغبة فى اشاعة البلبلة والشك لترويج افكار اليهود ، وبقى ان تعلم ان صاحبنا (غفر الله له) لم يقدم اى دليـــل على قوله حتى انه اكتفى برفع هذه الجملة فقط دون ان يكون مضطرا لحذف اى شىء آخر ومضى كتابه يتداول بل ويدرس ذلك أن هذه العبارة كانت مجرد عبارة مدسوسة لا يؤثر حذفها على صلب الكتاب .

عبارة تنطق بالجهـــل :

بقى أن نلفت نظرك الى أن نص العبـــارة ينطق بالجهل ، فلو أن ما قيل هو نفى وجـــود ابراهيم واسماعيل لكان هذا النفى مجرد كلام يقال ، ومن المشاهد والمألوف ان يوجد متشككون فى كل شىء ، اما ان يدور الحديث حول « الوجود التاريخى » فهنا ويبدا الجهل ، ذلك انه لا سبيل امام البشر للمعرفة التاريخية الا من خلال الكتب والآثار القائمة وعندما يضـــاف الى ذلك تواتر الأحـــاديث عن الواقعة مـــع غياب ما ينكرها ويجحدها فهذا هو الوجود التاريخى بأدق معانى التاريخ وهكذا نرى أن نص العبارة متنـــاقض متهافت لا يراد بها وجه العلم انها بمثابة قولك انه على الرغم من ان الناس كلها تقول أن هناك بلادا تسمى الصين والمصورات الجغرافية ترسم كلها موقع الصين ولكن ذلك لا يكفى لاثبات وجود الصين ثم تسمى ذلك علما . اننا نكون علومنا ومعارفنا ، من الكتب ومن أقوال الناس المتواترة وكل من يريد أن ينقض كتابا أن يواجهه بكتاب آخر ويدحض الشهادة بشهادة اقول هذا هـــو السبيل الذى لا سبيل غيره ليحصل الانســـان على علومه ومعارفه .

اسرائيلية اخرى :

وثمـــة اكذوبة يهـــودية اخرى تراها فى كتب المستشرقين من اليهود أو يدسونها على غيرهم من المستشرقين وذلك لتحقيق هدفهم الثابت وهو التأثير على بعض ضعاف النفوس وهذه الأكذوبة هى أن اليهود اصطنعوا حكاية اسماعيل ليتقربوا الى العرب ويوجدوا علاقة بينهم وبين العـــرب وينسى أو بالأحرى يتناسى هـــؤلاء الكذابون ان حديث ابراهيم واسماعيل ورد فى التوراة منـــذ قرون سابقة على اضطرار اليهود لسكنى شمال الحجاز ولم يكن يدور بخلدهم أن سيجىء يوم يشردون فيه ويحتاجون لاختراع هذه القصة .

وانما العلم والتحقيق التاريخى يقول ان اقدم كتاب يتداوله البشر وهو (العهد القديم) يتحدث عن مجىء ابراهيم وابنه الطفل وامه هاجر الى ارض « فاران » ثم يحدد هذه الارض بأنهـــا « المواجهة فى شاطىء البحر الشرقى لبـــلاد مصر » .

هذا ما يقوله كتاب العهد القديم واصفا موقع الحجاز بالذات فاذا وجد بالفعل اقوام فى هذه المنطقة يتوارثون أن جدهم الأعلى هو ابراهيم وابوهم المباشر هو اسماعيل واذن فقد تأيدت رواية العهد القديم بالدليل المادى الحسى ، فاذاجاء القرآن الكريم بعد ذلك ليؤيد هذه الواقعة فهذا هو العلم غاية العلم ويصبح انكاره لمجرد الانكار بغير دليل أو شبهة دليل هو الجهل منتهى الجهل .

« واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل »

القواعد : جمع قاعدة أى الأساس والقواعد أى الأسس .

يرفع : اى يبنى عليها .

البيت : هو الكعبة .

اسماعيل : ابن ابراهيم من هاجر المصرية .

وقد ذكرنا من قبل أن « ايل » بلغة بنى اسرائيل تعنى « الرب » .

وذكر الماوردى على ما نقله عنه القرطبى ان اسماعيل معناها اسمع يارب .

بنـاء الكعبة :

وتحدثنا هذه الآية عن ان ابراهيم هو الذى كان أول من بنى الكعبة التى نعرفها وعرفها العرب قبل الاسلام وفى كتب التفسير وفى الكتب التى تتحدث عن بناء الكعبة وعلى راسها كتاب « الأزرقى » احاديث مطولة عن أول من بنى الكعبة ويرجعون به الى آدم عليه السلام ، بل وقبل آدم ثم اعيد بناؤها بعد الطوفان الى آخر ما قالوا .

ولنا المؤكد والثابت بنص القرآن من تحدثه عن ابراهيم واسماعيل وانهما شرعا فى بناء الكعبة .

« ربنـا تقبل منـا »

ما أروع التقوى وما أجمل الأدب الذى يتحلى به الصالحون فهما يقومان بعمل خالص كله لله اذ يبنيان بيتا لعبادته ومع ذلك يرجوان الله ان يتقبل منهما .

« انك أنت السميع العليم »

اى انك يارب تسمع دعاءنا وتعلم ما فى قلوبنا ونوايانا .

« ربنا واجعلنا مسلمين لك »

اى قدر علينا وصيرنا منقادين مستسلمين لك بالايمان والعمل الصالح .

« ومن ذريتنا أمة مسلمة لك »

من : للتبعيض ، اى بعض نسلنا ، ايمانا من ابراهيم ان ارادة الله فى خلقه أن يكون منهم البار والعاصى والشقى والسعيد .

أمة مسلمة لك : اى جماعة مخلصة مستسلمة منقادة لاطاعة اوامر الله والانتهاء عن نواهيه ، ورأى البعض انها تعنى أمة محمد عليه الصلاة والسلام .

ومن رأى ابن جرير الطبرى ، أن « أمة مسلمة » تشمل العرب وغيرهم لأن من ذرية ابراهيم بنى اسرائيل وقد قال الله تعالى « ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون » .

اما ابن كثير فيرى انها فى العرب ودليله الآية التالية « وابعث فيهم رسولا منهم » .

« وارنا مناســكنا »

مناسك : جمع منسك ويقال ان اصل النسك فى اللغة الغسل فيقال نسك الرجل ثوبه اذا غسله .

ولكنها وردت فى القرآن بمعنى العبادة يقـال رجل ناسك اذا كان عابدا وقد اختلف العلمـاء فى المقصود بالمناسك فى هذا الموضوع فوســعها البعض بحيث تشمل جميع المتعبدات وخصصها البعض بأنها تعنى المذابح اى مواضع الذبح اما نحن فمن راى الذين قالوا انها تعنى مناسك الحج ومعالمه ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مخاطبا من حوله فى حجة الوداع « خذوا عنى مناسككم » وراح يعلمهم عن طريق القـدوة كل مناسك الحج وسنورد فى النهاية حديث رســول الله فى حجة الوداع حيث يبين مناسك الحج .

« وتب علينا انك انت التواب الرحيم »

وان القــلب ليخفق مع خفقــان قلبى ابراهيم واسماعيل وهما يدعوان ربهما ان يتقبل منهما وان يغفر لهما ما يكونا قد وقعا فيه بحسن نيــة او عن سهو ، وهما بالاكثر يستغفران لمن يخطىء من ذريتهما شأن اى والد رحيم وهو يتشــفع فى ابنائه وبدلا من ان يستمتع بعض قدامى المفسرين بجمال هذه الصورة وكمالها ، مضوا فى التشقيق والتفريع والتفتيت فقالوا ان ابراهيم واسماعيل لم يطلبا التوبة بمعناها فهما نبيان معصــومان وانما طلبا التثبت والدوام ولسنا نريد أن ندخـل فى جدل او مناقشة وحسبنا ان نذكر قوله سبحانه وتعالى لسيدنا محمد عليه الصلاة والسلام :

« اذا جاء نصر الله والفتح . ورايت الناس يدخلون فى دين الله افواجا . فسبح بحمد ربك واستغفره انه كان توابا » .

وكل كلام او قول يخاطب به الأنبياء فهو للتعليم والارشاد والهداية فالمؤمنون مأمورون فى مواقف العــزة والافتخــار ان يتواضعوا لله ويذلوا له ليكونوا قدوة للناس فى سلوكهم وفى الآية التى نحن بصددها يعلم ابراهيم واسماعيل كل من جاء بعدهما ان ها هنا حول الكعبة مقام العائذ بالله والمستجير به وطالب العفو والمغفرة .

« انك أنت التواب الرحيم »

انك أنت (لا سواك) مانح التوبة والتواب اى كثير التوبة والذى يظل يمنحها لمن يطلبها باخلاص وصدق مهما عظم الذنب وتعدد . واقراوا ان شئتم « قل يا عبادى اسرفوا على انفســهم لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعا » .

« ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم انك انت العزيز الحــكيم » .

وابعث فيهم : اى فى ذرية سيدنا ابراهيم من ابنه اسماعيل .

رسولا منهم : هو سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام وعن النبى انه قال عندما ســئل عن بدء أمره :

« انا دعوة ابى ابراهيم وبشر عيسى بى ورات امى انه خرج منها نور اضاءت له قصور الشــام » .

وهذه الآية التى نحن بصددها هى دعــوة ابراهيم ، اما بشرى عيسى فقوله على ما جـاء فى القرآن الكريم « ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه احمد » .

« يتلو عليهم آياتك »

يتلو : تلى ويتلو تلاوة اى يقرأ آيات الكتاب .

ويعلمهم الكتاب : الكتاب هو القرآن ، والتعليم بمعنى التعريف بمعانى الآيات ومدلولها يأتى بعد قراءة ألفاظها ومن هنا كان التقليد المتبع (وانعم به تقليد) أن يحفظ الصبى الصغير القرآن أولا ثم يتعلمه بعد أن ينضج ويصبح قادرا على الفهم.

والحكمة ، قيل أن المراد بالحكمة هى السنة ومعرفة الشرائع وقيل هى معرفة الدين والفقه فى التاويل والفهم الذى هو منحه ونور من رب العالمين .

وفى تفسير الوسيط : الحكمة هى وضع الامور فى مواضعها .

جاء فى القرآن الكريم : « ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا » .

ويزكيهم : اى يطهرهم من دنس الشرك والمعاصى .

انك أنت العزيز : اى الغالب الذى لا يقهر .

الحكيم : الذى تنطوى كل أعماله على الخير والمصلحة سواء أدركناها أو عجزنا عن ادراكها بعقولنا القاصرة وقد استجاب الله كما قال سيدنا محمد لدعوة ابراهيم فبعثه رسولا يهدى البشر لما فيه صلاح الدنيا والآخرة مبتدئا أول ما بدا بتلاوة ما أنزل اليه من ربه وهو آيات القرآن ثم راح يعلمها لمن آمن به ويعمقها فى نفوسهم وبالتالى يزكيهم ويطهرهم ويعلمهم الحكمة وفصل الخطاب .

« ومن يرغب عن ملة ابراهيم الا من سفه نفسه »

ومن يرغب : استفهام استنكارى بمعنى النفى اى « لا يرغب » .

عن : هى التى جعلت كلمة يرغب تنقلب الى ضدها فأصبحت بمعنى ينصرف للكراهية .

تقول رغب فى بمعنى أحب اما اذا قلت رغب عنى أصبحت تعنى الضد على الفور فأصبح معناها يكره أو يزهد أو ينصرف أو ينأى بنفسه ولها معانى تفيد عدم الاستحباب وقال بعض المفسرين ان المقصود بالتقريع والتوبيخ هنا الانصرافهم عن ملة ابراهيم (والملة هى الدين) هم اليهود والنصارى ولا ندرى لماذا أبعدوا مشركى العرب وهم بدورهم لم يكونوا على دين ابراهيم .

« الا من سفه نفسه »

هذا هو الحكم الذى ينزله الله على من رغب عن ملة ابراهيم فقد ظلم نفسه واستخف بها وامتهنها . اذ عرضها فى الدنيا لارتكاب حماقات ما انزل الله بها من سلطان مثل عبادة الأصنام وعرضها فى الآخرة لعذاب النار هذه هى المعانى التى تشملها عبارة « سفه نفسه » تصل الى حد ما قاله البعض من انها بمعنى أهلك نفسه . أما المعنى اللغوى للكلمة فالأصل فى السفه الخفة والحركة يقال ثوب سخيف اى خفيف النسج ، وهذا يدلنا على أن موضع الكلمة وسياق ما قبلها وما بعدها هو الذى يحدد معناها .

« ولقد اصطفيناه فى الدنيا »

اصطفى : بمعنى اخترناه وصفيناه من كل دنس .

فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَـٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾ وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾

« وانه فى الآخرة لمن الصالحين »

اى أن الله سبحانه وتعالى قد اختار سيدنا ابراهيم ليكون قدوة للناس واماما وهو بالتالى من الفائزين فى الآخرة شأن كل صالح فى الدنيافكيف بامام الصالحين .

« اذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين »

لا يزال الحديث حول سيدنا ابراهيم والآيةتبين لماذا استحق ابراهيم ان يكون قدوة واماما وانه فى الآخرة من الصالحين ذلك انه بمجرد ان دعى الى الطاعة والانقياد (اذ قال له ربه أسلم) لبى فى غير تردد ، قال « أسلمت لرب العالمين » .

« ووصى بها ابراهيم بنيه ويعقوب يا بنى ان الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن الا وانتم مسلمون » .

ووصى بها : اى بملة ابراهيم وقيل بعبارة« أسلمت لرب العالمين » والمعنى واحد .

« ابراهيم بنيه ويعقوب »

معلوم ان المصاحف الأولى كانت خالية من التنقيط وحركات الاعراب ومن هنا فقد قرا البعض كلمة «يعقوب» علىأنها منصوبة — بمعنىابراهيم وصى يعقوب فى جملة ابنائه وقرا البعض «يعقوب» بالرفع باعتبارها فاعلا اى أن كلا من ابراهيم ويعقوب وصى ابناءه من بعده ، وطالما اكدنا ان المعول هو على المصحف الموجود بين ايدينا ومنصوص فيه على « يعقوب » بالرفع فوجب الالتزام بذلك وقد كان حفظ القرآن وانتقاله بالسماع والتلاوة سابقا على كتابته فمتى تضمن مصحف عثمان كلمة « يعقوب » بالرفع فيكون هذا هو المعتمد .

لماذا النص على يعقوب :

والمعنى واحد فى كلتا الحالتين وهو السر فى اختصاص يعقوب بذكر اسمه فبالنسبة للعرب الذين يعتبرون انفسهم من نسل اسماعيل فقد حدثتهم الآيات السابقة عن اسلامه ، ولما كان اليهود يعتبرون انفسهم من سلالة يعقوب (اسرائيل) فالقرآن الكريم يذكر اليهود بأن جدهم يعقوب بدوره قد طلب من سلالته أن يحرصوا حتى لحظة وفاتهم ان يكونون مسلمين « الا وانتم مسلمون » والاسلام هنا هو الدين ، يظهر ذلك من الفقرة السابقة « يا بنى ان الله اصطفى لكم

الدين » وقد قدمنا ان اصطفى بمعنى « اختار »لكم الدين وعندما يختم الكلام « فلا تموتن الا وانتم مسلمون » يكون الدين قد تحدد بأنه « الاسلام ».

أم كنتم شهداء اذ حضر يعقوب الموت اذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى .

كان اليهود يتخرصون كما هو شأنهم دائمـــابشتى أنواع التخرصات كادعائهم أن اليهودية دين ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقـــوب مع أن اليهودية كشريعة لم تأت الا على يد سيدنا موسى الذى كان لا يزال فى عالم الغيب ولم يرسل الا بعدمئات من السنين ، وسيجابه القرآن اليهود بهذه الحقيقة فى آيات قادمة ، وفى هذه الآية يكشف عن زيف ما نسبوه ليعقوب ويبين لهم الدعوة الوحيدة التى لا يمكن أن يدعو يعقوب الا بها ، وقد بسط القرآن الكريم هذه القضية بأكمل واروع اساليب العرض وهو أن يحمل المعلم تلميذه على تقـــريرما يراد تعليمـــه له ، وهى طريقـــة الســـؤال والجواب .

يعقوب لبنيه : ما تعبدون من بعدى ؟

أبناء يعقوب : نعبد الهك واله أبائك ابراهيم واسماعيل واسحق الهـــا واحـــدا ، ونحن له مسلمون .

وسكت يعقوب اقرارا منه لهذا الذى قالوا فهو الدين الحق دين التوحيد والاستسلام لله وطاعته والانقياد له فى كل ما يأمر به فعندما يرسل رسولا يدعو لمحاربة الأصنام وتوحيد الله فقد كان يتعين على اليهود أن يسمعوا له ويطيعوا لا أن يكفروا به وينحازوا لعبدة الأصنام المشركين بالله .

« تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم »

الأمة : لها اكثر من معنى فى القرآن ولكنهـــا هنا فى هذا الموضع تعنى الجماعة من النـــاس يجمعهم أمر واحد .

خلت : بمعنى مضت وانقضت .

لها ما كسبت : اى ما عملت وما تستحق عليه من اجر .

ولكم ما كسبتم : وواقع الحال ومفهوم السياق أنه اذا كان آباؤكم قد استحقوا الخير بايمـــانهم وتوحيدهم فالأمر على عكس ذلك بالنســـبة لكم فلم تكسبوا الا الكفر والعصيان .

« ولا تسألون عما كانوا يعملون »

فى هذه اسلوب من اساليب القرآن البلاغيـــةالتى هزت سامعيه ، فهو هنا ينذر ويحـــذر لا بكلمات مباشرة ولكن بمفهوم العكس ، فما دمتم أيها اليهود لن تسألوا عن عمل آبائكم الصالح فلم يبق لكم الا عملكم الطالح لتسألوا عنه .

هذا التفســـير :

من فضل الله على انه يرينى من حين لآخـــر احدى الاشارات التى تشجعنى وتقـــوينى على المضى فى هذا التفسير ما بقيت حيا ، وقد اشرت من قبل الى نقطة البدء فيه عقب هزيمتنا الساحقة عام ١٩٦٧ وما استولى على نفوسنا من ضياع فكان فى تفسير سورة البقرة وما صاحب ذلك من انتصارنا فى ٦ اكتوبر مما جعل الحديث عن اليهود والحوار معهم كما اشتملت عليه سورة البقـــرة اكثر جلاء ووضوحا ، واليوم .

آيات الحج :

تجىء آيات الحج ونحن فى مطلع ذى الحجة ، ولو اننى تكلفت ذلك او تعمدته تعمدا لمـــا جـــاز

لى أن أشير لهذه المصادفة السعيدة ، ولـكنى انا نفسى فوجئت بهذا الترتيب ، وكما هو شأنى دائما اتفاعل بهذه الاشارات ، ومن هنـا رايت ان اعرض لموضوع الحج . والحج باعتباره أحد اركان الاسلام الخمسة وضعت فيـه كتابين : اولهما مشاهداتى فى جزيرة العرب ثم مناسـك الحج .

واكتفى بأن أورد هنا نصين رئيسيين يجب أن يكونا تحت نظر اى حاج مثقف واول هـذين النصين حديث ابن عباس عن كيفية بناء ابراهيم للكعبة وظروف ذلك وسر السعى بين الصـفا والمروة اما النص الثانى فحديث جابر يصف فيه بدقة كيف حج رسول الله صلى الله عليه وسلم حجة الوداع ليستفيد به من تمكنه ظروفه أن يترسم خطوات رسول الله .

ثم أجىء ببعض نصوص فقهية موجزة ترد على بعض التساؤلات التى يكثر الحجاج من السؤال عنها وفى كتابى المشار اليهمـا كل التفاصـيل الخاصة بموضوع الحج اما الآن فلنورد هذا القدر الذى حددناه .

— كيف بنيت الكعبة .

— حديث البخارى .

روى الامام البخارى بسنده عن ابن عباس انه قال قال النبى صلى الله عليه وسلم « يرحم الله أم اسماعيل ولو تركت زمزم أو قال أو لم تغرف من المـاء لكانت زمزم علينا معينا » .

وارضعت ولدها فقال لها الملك ، لا تخـافوا الضيعة فان ها هنا بيت الله ، يبنيه هذا الغلام وأبوه ، وان الله لايضيع اهله ، وكان البيت مرتفعا من الأرض كالرابية تاتيه السيول فتأخذ عن يمينه وشماله فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من جرهم (أو اهل بيت من جرهم) مقبلين من طريق كداء . فنزلوا فى اسفل مكة فراوا طيرا عائفـا فقالوا : ان هذا الطير ليدور على ماء ، لعهدنا بهذا الوادى وما فيه ماء . فارسلوا جريا أو جريين فاذا هم بالمـاء فأخبروهم بالمـاء فاقبلوا قال : وأم اسماعيل عند المـاء فقالوا : اتاذنين لنا أن ننزل فقالت : نعم ولكن لا حق لكم فى الماء . قالوا نعم . قال ابن عباس قال النبى صلى الله عليه وسلم فألفى ذلك أم اسماعيل وهى تحب الأنس . فنزلوا وارسلوا الى اهليهم فنزلوا معهم حتى اذا كان بها اهل ابيات منهم وثب الغـلام (اسماعيل) وتعلم العربية منهم وانفسـهم واعجبهم حين شب فلما ادرك زوجوه امراة منهم .

وماتت أم اسماعيل فجاء ابراهيم بعدما تزوج اسماعيل يطالع تركته فلم يجد اسماعيل ، فسأل امرأته عنه . فقالت خرج يبتغى لنا ثم سألها عن عيشهم وهيئتهم فقالت نحن بشر . نحن فى ضيق وشدة فشكت اليه ، قال اذا جاء زوجك فاقرئى عليه السلام وقولى له يغير عتبة بابه — فلما جاء اسماعيل لكأنه آنس شيئا فقال : هل جـاءكم من احد ؟ قالت : نعم جاءنا شـيخ كذا وكذا فسألنى عنك فأخبرته . وسألنى كيف عيشتنا فأخبرته انا فى جهد وشدة . قال : فهل اوصاك بشىء ؟ قالت : نعم . أمرنى ان أقـرأ عليك السلام ويقول غير عتبة بابك .

قال ذلك ابى وقد أمرنى ان افارقك الحقى بأهلك . فطلقها وتزوج اخـرى . فلبث عنهم ابراهيم ما شاء الله ثم اتاهم بعد فلم يجـده . فدخل على امراته فسألها عنه فقالت خرج يبتغى لنا . قال كيف انتم وسألها عن عيشهم وهيئتهم . فقالت نحن بخير وسعة واثنت على الله . فقال ما طعامكم . قالت اللحم . قال فما شرابكم . قالت المـاء . قال اللهم بارك لهم فى اللحم والماء. (قال النبى صلى الله عليه وسلم ولم يكن لهم يومئذ حب ولو كان لهم دعا لهم فيه . قال منهما لا يخلو عليهما احد بغير مكة الا لم يوافقاه) قال فاذا جاء زوجك فاقرئى عليه السلام ومريه يثبت عتبة بابه . فلما جاء اسماعيل قال هل اتاكم من احد قالت نعم ، اتانا شيخ حسن الهيئة — واثنت عليه فسألنى عنك فأخبرته فسألنى كيف عيشتنا فأخبرته انا بخير . قال ما أوصاك بشىء . قالت

نعم هو يقرأ عليك السلام ويأمرك أن تثبت عتبة بابك . قال ذلك ابى وانت العتبة امرنى ان امسكك ثم لبث عنهم ما شاء الله — ثم جاء بعد ذلك واسماعيل يبرى نباله قريبا من زمزم . فلما رآه قام اليه فصنع كما يصنع الوالد بالولد والولد بالوالد . ثم قال يا اسماعيل . ان الله أمرنى بأمر . قال فاصنع ما أمرك ربك . قال وتعيننى. قال واعينك . قال فان الله امرنى ان ابنى ها هنا بيتا — واشار على اكمة مرتفعة على ما حولها قال فعند ذلك رفعا القواعد من البيت .

فجعل اسماعيل يأتى بالحجارة وابراهيم يبنى حتى اذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر (يعنى المقام فوضعه له فقام عليه وهو يبنى واسماعيل يناوله الحجارة وهما يقولان « ربنا تقبل منا انك انت السميع العليم) قال : فجعلا يبنيان حتى يدورا حول البيت وهما يقولون « ربنا تقبل منا انك انت السميع العليم » انتهى حديث البخارى.

كيف حج النبى — صلى الله عليه وسلم — حجة الوداع ؟

عن جعفر بن محمد عن ابيه رضى الله عنهما قال : دخلنا على جابر بن عبد الله فسأل عنى القوم حتى انتهى الى ، فقلت : انا محمد بن على بن حسين ، فاهوى بيده الى راسى فنزع زرى الأعلى ، ثم نزع زرى الأسفل ، ثم وضع كفه بين ثديى ، وانا يومئذ غلام شاب ، فقال : مرحبا بك يا ابن اخى ، سل عما شئت فسألته وهو اعمى وحضر وقت الصلاة فقام فى نساجه ملتحفا بها ، كلما وضعها على منكبيه رجع طرفاها اليه من صغرها ، ورداؤه الى جنبه على المشجب ، فصلى بنا فقلت : اخبرنى عن حجة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال بيده ، فعقد تسعا فقال : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم مكث تسع سنين لم يحج ثم اذن فى الناس فى العاشرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حاج ، فقدم المدينة بشر كثير كلهم يلتمس ان يأتم برسول الله صلى الله عليه وسلم ويعمل مثل عمله ، فخرجنا معه حتى اتينا ذا الحليفة ، فولدت اسماء بنت عميس محمد بن ابى بكر ،فأرسلت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف اصنع ؟ قال : اغتسلى واستثفرى بثوب واحرمى ، فصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المسجد ثم ركب القصواء ، حتى اذا استوت به ناقته على البيداء ، نظرت الى مد بصرى بين يديه من راكب وماش ، وعن يمينه مثل ذلك ، وعن يساره مثل ذلك ، ومن خلفه مثل ذلك ورسول الله صلى الله عليه وسلم بين أظهرنا وعليه ينزل القرآن ، وهو يعرف تأويله ، وما عمل به من شىء عملنا به ، فأهل بالتوحيد ، لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، ان الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك .واهل الناس بهذا الذى يهلون به ، فلم يرد رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهم شيئا منه ، ولزم رسول الله صلى الله عليه وسلم تلبيته ، قال جابر رضى الله عنه لسنا ننوى الا الحج ، لسنا نعرف العمرة ، حتى اذا اتينا البيت معه ، استلم الركن فرمل ثلاثا ومشى أربعا ، ثم نفذ الى مقام ابراهيم عليه السلام فقرا : « واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى » فجعل المقام بينه وبين البيت وكان يقرأ فى الركعتين : قل هو الله احد ، وقل يا ايها الكافرون ، ثم رجع الى الركن فاستلمه ، ثم خرج من الباب الى الصفا ، فلما دنا من الصفا قرا : « ان الصفا والمروة من شعائر الله » ابدا بما بدأ الله به ، فبدأ بالصفا فرقى عليه ، حتى راى البيت ، فاستقبل القبلة ، فوحد الله وكبره وقال: لا اله الا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير ، لا اله الا الله وحده ، انجز وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ، ثم دعا بين ذلك قال مثل هذا ثلاث مرات، ثم نزل الى المروة حتى اذا انصبت قدماه فى بطن الوادى سعى ، حتى اذا صعدتا مشى حتى اتى المروة ، ففعل على المروة كما فعل على الصفا ، حتى اذا كان آخر طوافه على المروة ، فقال :لو انى استقبلت من امرى ما استدبرت : لم اسق

الهدى وجعلتها عمرة ، فمن كان منكم ليس معه هدى فليحل وليجعلها عمرة ، فقام سراقة بن مالك ابن جعشم فقال يا رسول الله : العامنا هـذا ام لأبد ؟ فشبك رسول الله صلى الله عليه وسلم اصابعه واحدة فى الأخرى وقال : دخلت العمرة فى الحج مرتين لا بل لأبد ابدا .

وقدم على من اليمن ببدن النبى صلى الله عليه وسلم فوجد فاطمة رضى الله عنها ممن حل ولبست ثيابا صبغا واكتحلت فانكر ذلك عليها فقالت ان ابى أمرنى بهذا قال : فكان على يقول بالعراق فذهبت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم محرشا على فاطمة للذى صنعت ، مستفتيا لرسول الله صلى الله عليه وسلم فيما ذكرت عنه ، فأخبرته انى انكرت ذلك عليها فقال : صدقت . صدقت ، ماذا قلت حين فرضت الحج ، قال : قلت اللهم انى اهل بما اهل به رسولك ، قال فان معى الهدى فلا تحل قال : فكان جماعة الهدى الذى قدم به على من اليمن ، والذى اتى به النبى صلى الله عليه وسلم مائة ، قال : فحل الناس كلهم وقصروا الا النبى صلى الله عليه وسلم ومن كان معه هدى ، فلما كان يوم التروية توجهوا الى منى فلبوا بالحج وركب رسول الله صلى الله عليه وسلم فصلى بها الظهر والعصر والمغرب والعشاء والفجر ، ثم مكث قليلا حتى طلعت الشمس ، وأمر بقبة من شعر له بنمرة فسار رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا تشك قريش الا انه واقف عند المشعر الحرام ، كما كانت قريش تصنع فى الجاهلية فأجاز رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أتى عرفة فوجد القبة قد ضربت له بنمرة فنزل بها ، حتى اذا زاغت الشمس أمر بالقصواء فرحلت له فأتى بطن الوادى ، فخطب النـاس وقال : ان دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا ، الا كل شىء من أمر الجاهلية تحت قدمى موضوع ، ودماء الجاهلية موضوعة ، وان اول دم اضع من دمائنا دم ربيعة بن الحارث ، كان مسترضعا فى بنى سعد فقتلته هذيل ، وربا الجاهلية موضوع ، واول ربا اضع من ربانا ربا عباس بن عبد المطلب ، فانه موضوع كله ، فاتقوا الله فى النساء ، فانكم اخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله ، ولكم عليهن الا يوطئن فراشكم احدا تكرهونه ، فان فعلن ذلك فاضربوهن ضربا غير مبرح ، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف ، وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده ، ان اعتصمتم به — كتاب الله وسنتى ، وأنتم تسألون عنى ، فما أنتم قائلون « قالوا : نشهد انك قد بلغت واديت ونصحت فقال بأصبعه السبابة يرفعها الى السماء وينكتها الى الناس : اللهم اشهد ، اللهم اشهد ، ثلاث مرات ، ثم اذن ثم اقام فصلى الظهر ، ثم اقام فصلى العصر ولم يصل بينهما شيئا ، ثم ركب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى اتى الموقف فجعل بطن ناقته القصواء الى الصخرات ، وجعل جبل المشاة بين يديه ، واستقبل القبلة ، فلم يزل واقفا حتى غربت الشمس ، وزالت الصفرة قليلا حتى غاب القرص ، واردف اسامة خلفه ، ودفع رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد شنق للقصواء الزمام ، حتى ان راسها ليصيب مدرك رحله ، ويقول بيده اليمنى اى يشير بها : ايها النـاس : السكينة السكينة كلما اتى حبلا من الحبال أرخى لها قليلا حتى تصعد حتى اتى المزدلفة ، فصلى بها المغرب والعشاء بآذان واحد واقامتين ولم يسبح بينهما شيئا ، ثم اضطجع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى طلع الفجر وصلاه حين تبين له الصبح بآذان واقامة ، ثم ركب القصواء حتى اتى المشعر الحرام ، فاستقبل القبلة فدعا الله وكبره وهلله ووحده ، فلم يزل واقفا حتى اسفر جدا ، فدفع قبل ان تطلع الشمس ، واردف الفضل بن عباس ، وكان رجلا حسن الشعر ابيض وسيما ، فلما دفع رسول الله صلى الله عليه وسلم مرت به ظعن يجرين ، فطفق الفضل ينظر اليهن ، فوضع النبى صلى الله عليه وسلم يده على وجه الفضل ، فحول الفضل وجهه الى الشق الآخر ينظر ، فحول رسول الله صلى الله عليه وسلم يده من الشق الآخر على وجه الفضل يصرف وجهه من الشق

الآخر ينظر حتى اتى بطن محسر فحرك قليلا ، ثم سلك الطريق الوسطى التى تخرج على الجمرة الكبرى ، حتى اتى الجمرة التى عند الشجرة فرماها بسبع حصيات ، يكبر مع كل حصاة منها مثل حصى الخذف ، رمى من بطن الوادى ثم انصرف الى المنحر : فنحر ثلاثا وستين بيده ، ثم اعطى عليا فنحر ما نحر واشركه فى هديه ، ثم امر من كل بدنة ببضعة فجعلت فى قدر فطبخت فأكلا من لحمها ، وشربا من مرقها ثم ركب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأفاض الى البيت ، وصلى بمكة الظهر ، فاتى بنى عبد المطلب يسقون على زمزم فقال انزعوا بنى عبد المطلب ، فلولا أن يغلبكم الناس على سقايتكم لنزعت معكم ، فناولوه دلوا فشرب منه . (رواه مسلم وابو داود) .

العمـرة :

قال الله تعالى : « واتموا الحج والعمرة لله » .

روى البخارى عن ابن عمر : ليس احد الا عليه حجة وعمرة وروى الترمذى واحمد والبيهقى عن جابر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن العمرة أواجبة هى ؟ قال لا . وان تعتمروا هو أفضل .

شروط الطواف

روى الترمذى والحاكم عن ابن عباس عن النبى صلوات الله عليه انه قال : الطواف حول البيت مثل الصلاة الا انكم تتكلمون فيه فمن يتكلم فلا يتكلمن الا بخير .

وقد جاء فى كتاب المغنى والشرح الكبير فى الجزء الثالث صفحة ٢٣٢ ما يأتى بالحرف الواحد :

« مسألة » وهو مخير بين التمتع والأفراد والقران .

لا خلاف بين اهل العلم فى جواز الاحرام بأى الأنساك الثلاثة شاء ، وقد دل على ذلك قول عائشة رضى الله عنها : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فمنا من اهل بعمرة ومنا من اهل بحج وعمرة ومنا من اهل بحج . متفق عليه ، فذكرت التمتع والقران والأفراد . واختلف اهل العلم فى افضلها فاختار امامنا (ابن سنبل) التمتع ثم الأفراد ثم القران .

وقد جاء فى هذا المبحث أنه روى عن مروان ابن الحكم قال : كنت جالسا عند عثمان بن عفان فسمع عليا يلبى بعمرة وحج فأرسل اليه فقال الم نكن نهينا عن هذا قال بلى ولكن سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يلبى بهما جميعا فلم اكن ادع قول رسول الله لقولك رواه سعيد .

افعل ولا حرج :

وآخر ما نختم به هذه الشذرات أن نورد حديث رسول الله « افعل ولا حرج » ليهون كل حاج على نفسه ، روى الخمسة عن ابن عباس قوله :

قال رجل للنبى صلى الله عليه وسلم زرت قبل أن أرمى ، قال : لا حرج ، قال : حلقت قبل أن اذبح ، قال : لا حرج ، قال ذبحت قبل أن ارمى ، قال : لا حرج .

وفى رواية ، وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع بمنى للناس يسألونه فقال رجل : لم اشعر فحلقت قبل ان اذبح ، قال : اذبح ولا حرج فجاء آخر فقال : لم اشعر فنحرت قبل أن ارمى ، قال : ارم ولا حرج ، فما سئل يومئذ عن شىء قدم ولا آخر الا قال : افعل ولا حرج .

« وقالوا كونوا هودا او نصارى تهتدوا »

قدمنا ان ارجح الآراء الذى نختاره فى معنى هود اى يهود نسبة الى يهوذا بن يعقوب ومن المألوف عند العرب استبدال حرف الذال بالدال. والنصارى نسبة الى الناصرة مسقط راس سيدنا عيسى . (تهتدوا) اى انه لا هدى الا لمن كان يهوديا او نصرانيا مع انه لو صح احد القولين لبطل الآخر فلو صح كلام اليهود ان الهدى وقف على اليهود لبطلت دعوة النصارى من انهم هم وحدهم المهتدون والعكس بالعكس وليس هذا الزعم بأن معتنقى اى دين هم وحدهم المهتدون ليس وقفا على اليهود والنصارى بل هو ما يزعمه لأنفسهم معتنقو اى دين مذ عرفت البشرية الاديان ومن هنا ينفرد الاسلام باحدى خصائصه التى تجعله دين البشرية منذ كان دينا الى ان يرث الله الأرض ، وهو ما تؤكده الآيات التالية من وحدة الأديان السماوية كلها . فما دام الله واحدا وما دام هو الذى يبعث الرسل فلا يمكن الا ان يكون جوهر الرسالات واحد (وهو الايمان بالله الواحد الأحد خالق السموات والأرض) وان اليه المرجع والمآب ليحاسب كل انسان وما يترتب على ذلك من واجب على الانسان ان يعمل الصالح وينبىء عن الطالح «فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » .

هذا هو جوهر الدين اى دين ، وما زاد على ذلك فليس يخرج عن واحد من اثنين :

— اما تعاليم خاصة اريدت لأحوال واجيال محددة كانت هى التى توفر لها الصلاح .

— واما تحريفات وانحرافات طرأت على أصل الدين اضافها أشخاص تحقيقا لأغراضهم وشهواتهم .

وجاء الاسلام يطهر الدين مما غشيه من الغواشى وبالتشريع الذى يلائم البشر بعامته فى كل زمان ومكان فدعا الى التوحيد المطلق والايمان باليوم الآخر وبصالح الاعمال . فاصبح الكفر به هو كفر بالله وبانه لا يبعث الرسل ، لأن مجرد الايمان برسول يستتبع على الفور الايمان ببقية الرسل ما دام جوهر ما يدعون اليه واحد .

« بل ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين »

والقرآن الكريم قد اعتبر ما دعى اليه ابراهيم هو جوهر الأديان كلها وقد قدمنا ان كلمة «ملة» تعنى شريعة والأصل اللغوى لكلمة « حنيفا » اى مائلا وهى هنا بمعنى انه مال عن الباطل الى الحق ، وقيل أن حنيفا بمعنى مستقيما . وسمى ابراهيم حنيفا لأنه حنف الى دين الله وهو الاسلام دين الفطرة .

« وما كان من المشركين »

اما لماذا اختص القرآن الكريم سيدنا ابراهيم بالذكر واننا معاشر المسلمين نتبع ملته فذلك لانه الأصل المشترك الذى يعترف به اليهود والنصارى من ناحية والعرب من الناحية الاخرى ، فعند اليهود . فان ابراهيم هو جدهم الأعلى الذى انسل اسحق الذى انسل يعقوب (اسرائيل) والنصارى يسلمون بهذا القسم من الكتاب المقدس .

ومن الناحية الأخرى فالعرب يقررون انهم ابناء اسماعيل ابن ابراهيم وانهم انما يدينون بدينه ومن هنا براه القرآن من افكهم (وما كان من المشركين) فقد حارب سيدنا ابراهيم الأوثان وبدأ منذ صباه المبكر بتحطيمها ، فاى زور وبهتان أن تعبد الأصنام برغم ان هذا هو دين ابراهيم ، أو أن يزعم اليهود والنصارى ان ما هم عليه هو دين ابراهيم ، وانما دين ابراهيم هو دين الفطرة الذى ينطوى على جوهر الأديان كلها وهو ما جاء الاسلام لتبيانه فانكاره هو انكار للرسالات السماوية كلها .

قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنۡ ءَامَنُواْ بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا هُمۡ فِي شِقَاقٖۖ فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبۡغَةَ ٱللَّهِ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبۡغَةٗۖ وَنَحۡنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾ قُلۡ أَتُحَآجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡ وَلَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُخۡلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمۡ تَقُولُونَ إِنَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطَ كَانُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ قُلۡ ءَأَنتُمۡ أَعۡلَمُ أَمِ ٱللَّهُۗ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلۡكَ أُمَّةٞ قَدۡ خَلَتۡۖ لَهَا مَا كَسَبَتۡ

« قولوا آمنا بالله وما انزل الينا »

هذا هو صخرة النجاة لكل مسلم ، هذا هوحبل الله المتين يمسك به المسلم فيكون آمنا من كل سوء أو من كل شر وهو الايمان بالله من خلال رسالة سيدنا محمد باعتبارها خاتمة الرسالات وباعتباره خاتم النبيين والرسل فلا يمكن أن تكون رسالته الا اكمل الرسالات واتمها .

« وما انزل الى ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط »

الأسباط : جمع سبط والسبط فى اللغة تعنى التتابع ولكنها استعملت اصطلاحا على « ولد الولد » فالحسن والحسين سبطا رسول الله صلى الله عليه وسلم من ابنته فاطمة وكل حفيد فهو سبط والمقصود من الأسباط هنا سلالة سيدنا يعقوب وقد رزق اثنا عشر ولدا اصبح كل منهم راسا لقبيلة جاء فى القرآن الكريم حكاية عن هذه الواقعة .

« وقطعناهم اثنتى عشرة اسباطا امما »

والآية تفيد انه بعد ان الزم القرآن الكريم المسلمين ان يتمسكوا بما انزل اليهم فى القرآن فى الكل وادق التفاصيل جنب المسلمين ان يترددوا فيما تردى فيه دعاة سائر الأديان وهو ان ينكروا باقى الأديان من اساسها بل ان القرآن يعلم المسلم ما قدمناه من ان جوهر الأديان لا يمكن الا ان يكون واحدا وتطبيقا لذلك فالمسلم يؤمن بما انزل على ابراهيم وقد قدمنا بأنه دين الاسلام بالذات ، وعن ابراهيم تلقى اسماعيل وأسحق ويعقوب واولاده (الأسباط) وقد راينا فى آية سابقة (أم كنتم شهداء ..) تعهد الأسباط بعبادة الله الواحد رب ابراهيم واسماعيل واسحق (الها واحدا ونحن له مسلمون) .

« وما اوتى موسى وعيسى »

ولما كان لسيدنا موسى وسيدنا عيسى اتباع محددون (اليهود والنصارى) وقد تحدث القرآن عن كتب سماوية انزلت عليهم (التوراة والانجيل) فقد اختصهم القرآن باسلوبه البيانى بكلمة « أوتى » .

« وما أوتى النبيون من ربهم »

ولما كان القرآن الكريم يحدثنا عن أنبياء آخرين فليس الأمر كما يزعم اليهود من أن النبوة قاصرة عليهم ولا تكون الا من بين صفوفهم فحدثنا القرآن عن صالح وعن هود وهما من غير بنى اسرائيل وارسلا الى (ثمود وعاد)بل ولفت القرآن نظر سيدنا محمد الى ان فى تاريخ البشرية رسلا لم يرد الله عز وجل أن يذكر اسماءهم (ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك) ومن هنا فبعد التخصص فى الآية التى نحن بصددها من ذكر اسماء ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط ثم بعدتخصيص التخصيص بذكر موسى وعيسى ، عمد القرآن الكريم الى التعميم المطلق .

« وما أوتى النبيون من ربهم »

فكل مبعوثمن السماء عرفنا أو لم نعرف مادام قد تلقى وحيا من رب العالمين فلا يمكن أن يكون جوهره الا واحدا .

« لا نفرق بين أحد منهم »

ويصل القرآن الكريم فى تربيته المسلمين الى الحد الذى يطالبهم فيه بمغالبة عواطفهم وعدم الانطلاق مع الطبيعة البشرية المألوفة وهو أن يعتز كل انسان بامامه وقائده وبفضله على بقية القادة والأئمة فيطالبهم بأن « لا نفرق بين أحد منهم » وهو أمر سيتكرر فى ختام السورة « لا نفرق بين أحد من رسله » والقرآن الكريم قدوضح هذا المعنى وبين أصوله فما دام الأنبياء بعض عبيد الله اختارهم واختصهم فى اداء رسالته فهم جميعا متساوون من حيث تفضيل الله لهم .

لكل مقام معلوم :

ولا يتنافى ذلك مع كون الرسل درجات ومقامات .

فذلك مثل قولك بلغتنا المعاصرة « المواطنون سواء لدى القانون » أى أن لا فرق بين مواطن ومواطن ولكن ذلك لا يتنافى أو يتعارض مع كون هذا وزير له مكانة ومقام وهذا مواطن عادى ، وفى هذه الحدود يجب أن نفهم « لا نفرق بين أحدمنهم » فمن حيث الجوهر فهم صفوة الله المختارة، اما من حيث اتجاهنا بكل عواطفنا وحبنا لسيدنامحمد فهذا هو واجبنا والاقتداء به وحده هو ديننا والايمان بأن له مقام لا يرقى اليه نبى من الأنبياءفذلك ما يتضح من حديث المعراج ولكن ذلك كله لا يعنى بحال ان يغض المسلم من شأن أى رسول آخر فضلا عن أن يتناوله بالذم والقدح ، ذلك هو تربية القرآن لنا معاشر المسلمين ، وما يجب أن نجعله قاعدة فى سلوكنا كله حيال ما هو أقل من موضوع الرسل ، فليس يعنى حبنا لامام من الأئمة وتعظيمنا له أن نغض من شأن الآخرين فضلا عن أن نطعن فيهم .

« ونحن له مسلمون »

أى ونحن طائعون منقادون لله عز وجل فى كل أمورنا ما كبر منها أو صغر ، ما ظهر منها أو بطن .

« فان آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا »

هذه هى عناصر ايمان المسلمين ، فان آمن بهاكائنا من كان فقد اهتدى وعرف طريق الصراط المستقيم .

وان تولوا : أى ان اعرضوا وأبوا واستكبروا.

« فانما هم فى شقاق »

الشقاق : يعنى الخلاف أو العداوة . كلا المعنيين جائز فى هذا المقام ، فالذين لا يؤمنون بالحق الذى جاء به سيدنا محمد لا يمكن الا أن يختلفوا الى أن يعادى بعضهم بعضا .

فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم : يكفى بمعنى يقى من الوقاية .

أى فسوف يكفى الله رسوله والمؤمنين من بعده ويقيهم شر هؤلاء الأعداء ، وهذا وعد من الله ولن يخلف الله وعده ابدا كل الذى نريد أن نلفت اليه نظر المؤمنين ان لا يتعجلوا ويتشككوا وما عليهم الا أن يؤمنوا ويعملوا ثم يصبروا فلا يلبثون ان يروا تحقق وعد الله .

« وهو السميع العليم »

وهو السميع لكل ما يقال أو يهمس به أو حتى يجول فى الخاطر . العليم بما سوف يقع فى مقبل الزمان وقد تحقق هذا الوعد بطريق مباشر وناجز فى ايام رسول الله وكفاه شر المشركين واليهود وكل من تصدى لحرب رسول الله وسوف يتحقق الوعد حتى فى ايامنا هذه وان كنا نحن قد رأينا بشائره فسوف يمهد أبناؤنا تحقق وعد الله بالكامل شريطة أن يصدق عليهم وصف المؤمنين الذين اختصهم الله بوعده .

« صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة »

صبغة : لغة : التلوين ولكنها مجازا تعنى الدين وروى ابن كثير فى تفسيره حديثا عن ابن عباس ان بنى اسرائيل قالوا يا رسول الله هل يصبغ ربك ؟ فقال لهم : « اتقوا الله » فناداه ربه يا موسى سألوك هل يصبغ ربك ؟ فقال نعم انا اصبغ الألوان الأحمر والأبيض والأسود والألوان كلها من صبغى وانزل الله على نبيه (صبغة الله ومن احسن من الله صبغة) ولا تعليق لنا على هذا الحديث الا بما علق عليه ابن كثير من أن الله اعلم . دلنا النص القرآنى وليس ما يمنع أن يكون المراد بالصبغة معناها اللغوى أى التلوين ويكون معنى الآية لفت النظر الى ما فى الكون من جمال وبهاء يضفيه عليه تنوع الألوان وأننا لا ينبهر بجمال وبهاء يضفيه عليه تنوع الألوان وأننا لا ينبهر بجمال الطبيعة ويسبح بآلاء الخالق المبدع وان ما نراه من جمال هو (صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة) ولكن المعنى الذى يقتضيه السياق هنا حيث الحديث عن الأديان والمعتقدات أن نفهمها بمعناها المجازى فيكون معناها ان ما نحن عليه هو احسن واكمل من أى دين آخر لأن ما نحن عليه هو (صبغة الله ومن احسن من الله صبغة) .

« ونحن له عابدون »

هذه الجملة وأمثالها مما سبق من مثل (ونحن له مسلمون) فهى كما قدمنا الحجر المكين الذى يقف عليه المؤمن المخلص فى أنه فى مكان اعماله وحركاته وسكناته طائع منقاد شاكر لأنعم الله وفضله عليه .

« قل اتحاجوننا فى الله وهو ربنا وربكم »

اتحاجوننا : اى تجادلوننا وتناظروننا مع أن جوهر الديانة اليهودية قائم على التوحيد فليس هناك فى هذا الكون سوى اله واحد ولكنهم ظلوا اسارى المعتقدات الوثنية الفاسدة من أن الله يختصهم لمجرد كونهم يهودا بمزايا واعفاءات مما مر بنا كقولهم « لن تمسنا النار .. الآية » .

فاستمر القرآن الكريم فى تسفه تصـــوراتهم واحلامهم الفاسدة فيقول لهم كيف يستقيم هـــذا الذى تدعونه مع كون الله هو ربنا مثل ما هـــو ربكم ولنا اعمالنا الصالحة نثاب عليها مثل ما لكم اعمالكم (ونحن له مخلصون) اى أنه فوق اعمالنا التى نجتهد أن تكون خيرا كلها وان تكون صالحة كلها فان نوايانا مخلصة صادقة متفانية فى طاعة الله فكيف تجادلوننـــا أيها اليهود بعد ذلك فى مزاعمكم من أنكم الأفضل عند الله مهما اخطـــأتم واذنبتم وانحرفتم .

— أم تقولون ان ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط كانوا هودا أو نصارى : بلغ من مغالطة اليهود ومكابرتهم أن زعموا أن ابراهيم وولديه اسماعيل واسحق ومن بعد اسحق يعقوب وأولاده كانوا يدينون باليهودية التى جاءت بهـــا التوراة التى نزلت على سيدنا موسى بعـــد وفاة سيدنا ابراهيم واحفاده بعدة قرون ومع ذلك فقد زعم اليهود ما زعموا واضطر النصارى أن يفعلوا مثل فعلهم فزعموا بدورهم أن هؤلاء الرســـل المنوه بهم انهم كانوا نصارى وليس يهودا فكشفهم القرآن جميعا بالحجة البسيطة القـــوية من أن سيدنا ابراهيم كان سابقا فى الترتيب الزمنى على نزول التوراة والانجيل .

« يا أهل الكتاب لم تحاجون فى ابراهيم وما أنزلت التوراة والانجيل الا من بعده » والحقيقة فى سيدنا ابراهيم انه ما كان : « يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين » .

فاليهود عندما يزعمون ان جميـــع الانبيـــاء والرسل الســـابقين على ســـيدنا موسى يدينون باليهودية انما هو افك مبين .

أنتم أعلم أم الله ، وما كان لكم أن تدعوا أنكم من الله وقد بين لكم .

« ومن اظلم ممن كتم شهادة عنده من الله »

اى وليس احد اظلم ممن كتم الشهادة وقد كانت التوراة والانجيل يقرران ان ابراهيم واولاده لم يكن يهوديا ولا نصرانيا ، فأى ظلم وافتراء ان يخفى اليهود هذه الحقيقة ويجادلون سيدنا محمدا مدعين ما ادعو وما الله بغافل عما تعملون .

« وما الله بغافل عما تعملون »

وينذرهم القرآن الكريم بمعاقبة هذا الاجتراء على الله فالله الذى لا يخفى عن علمه مثقال ذرة فى السماء والأرض ما كان ليغفل عن هذه الجريمة والغافل هو الذى لا يفطن للامور . والغفلة : السهو والاهمال .

« تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم »

ويعود القرآن الكريم بأسلوبه البلاغى وايقاعه فى موســـيقى الالفاظ وجرســـها فى تكرار الآية المشتملة على احدى قواعد الاسلام الأساسية وهى أن « لا تزر وازرة وزر أخرى » وان كل نفس بما كسبت رهينة ، فليكن ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب ما كانوا ، فما هو شأنكم أنتم وذاك .

تلك أمة قد خلت اى (مضت) لها ماكسبت اى (عملت) .

وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾ ۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ

ولا تسألون عما كانوا يعملون

المقصود طبعا انكم ايها اليهود لن تستفيدوا باعمالهم الطيبة والصالحة فانما يرجع اجرها اليهم وحدهم ، اما انتم فمحاسبون بما تعملون .

سـيقول السـفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها قل لله المشرق والمغرب يهدى من يشاء الى صراط مستقيم .

السفهاء جمع سفيه وهو خفيف العقـل من قولهم ثوب سفيه اى خفيف النسـج وهى هنا بمعنى كل من انكر تحول القبلة سـواء كان من اليهـود المعاصرين او مشركى قريش او كل من يقول بهذا القول فى كل زمان ومكان وقد ذهب بعض المفسرين بان القرآن الكريم استخدم صيغة الاستقبال حكاية لما سوف يقوله السفهاء ليكون وقعه خفيفا على المسلمين عند حدوثه بالفعل . (قاله الزمخشرى وآخرون) بينما قال القرطبى « سيقولون بمعنى قالوا جعل المستقبل موضع الماضى دلالة على استدامة ذلك » .

موضع تغيير القبلة :

وسـواء كانت « سـيقول » تعنى الماضى او المستقبل فالذى لا شك فيه ان التعبير بصـيغة الاستقبال يفيد ان هذا الاعتراض على تحول القبلة كان وسيبقى حديث السـفهاء الجاهلين المغرضين من اعداء الاسلام يلوكونه فالمستشرقون فى عصرنا الحاضر (واغلبهم من اليهود) يتخرصون فيقولون ان سيدنا محمدا عندما وصل المدينة اراد ان يتالف اليهـود فصـلى الى بيت المقدس طمعا فى اسلامهم فلما ان يئس منهم عاد الى قبلتة القديمة نحو الكعبة ، فسوف ترى ان

هذا القول تهدمه الحقائق الثابتة والآيات القرآنية ويكون ما حكاه القرآن عن السفهاء فى كل زمان ومكان من انهم سيتخذون من موضوع تغيير القبلة مجالا للقيل والقال هو احد معجزات القرآن ، والآن فلنبدأ بعرض الواقعة مبتدئين بحديث البخارى فى الموضوع .

حديث البخارى عن تحول القبلة :

حدثنا البخارى فى صحيحه عن البراء : « ان النبى صلى الله عليه وسلم ، كان اول ما قدم المدينة ، صلى الى بيت المقدس ستة عشر شهرا ، أو سبعة عشر شهرا وكان يعجبه ان تكون قبلته قبل البيت ، وانه صلى اول صلاة صلاها : صلاة العصر ، وصلى معه قوم فخرج رجل ممن صلى معه فمر على اهل مسجد وهم راكعون فقال أشهد بالله لقد صليت مع النبى ، صلى الله عليه وسلم ، قبل مكة فداروا كما هم قبل البيت » .

وقد تعددت الاحاديث بهذا المعنى ويشير بعضها الى ان المسجد المعنى فى حديث البخارى هو مسجد قباء ، على أنه يوجد الآن فى ضواحى المدينة المنورة مسجد يطلق عليه اسم مسجد القبلتين . والمهم الآن ان الواقعة مؤكدة يرويها القرآن ويذكر لنا سببها وعلتها وملابساتها فأصبح الامر ليس محلا لاجتهاد المفسرين فى التماس العلة ورحم الله بعض كبار قدامى المفسرين فقد كان الايمان والاسلام قويا وعميقا فى انفسهم فترخصوا فى ذكرى بعض العبارات بدون أن يدور فى خلدهم ان هذه العبارات بالذات سوف تتخذ نكالا للمرجفين والمشككين السفهاء ومن هذه العبارات عبارة أنه صلى الى بيت المقدس فى بادىء الأمر تاليفا لليهود كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم — يتصرف فى هذه الأمور التعبدية عن امره واجتهاده ، وهو ما لا يجوز تصوره خصوصا ونحن بازاء نص قرآنى محدد ينسب اختيار القبلة الاولى (الى بيت المقدس) الى الله عز وجل « وما جعلنا القبلة التى كنت عليها ... » .

فبطل اذن ولم يعد من الجائز القول بأن سيدنا محمدا صلى الى بيت المقدس باجتهاده فقد تم ذلك بتوجيه من الله شأنه فى ذلك شأنه فى جميع مايتصل بالعبادات وسنزيد الموضوع شرحا ونكمله باذن الله فى الآيات التالية .

« قل لله المشرق والمغرب يهدى من يشاء الى صراط مستقيم » .

لا نسخ :

واذا كنا قد توقفنا مؤقتا عن استكمال موضوع القبلة وتحويلها وسبب ذلك فذلك تمشيا مع منهج القرآن الكريم ذاته والذى اوقف الحديث عنها ليؤكد اولا وقبل كل شىء ان لا علاقة بهذا التحول وبين ما سبق وقرره من ان الله سبحانه وتعالى منزه عن الجهة وانه فى كل مكان فقد ذكرنا ونحن بصدد تفسير آية « ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله » .

ان المعنى الذى انطوت عليه هذه الآية لايجوز أن ينسخ ، وها نحن نرى أن الآيات التى تحدثنا عن تغيير القبلة تبدأ اول ما تبدأ بتاكيد الحقيقة من ان لله المشرق والمغرب مستخدمة ذات الالفاظ ليكون اقوى فى التاكيد .

« يهدى من يشاء الى صراط مستقيم » .

فالهدى هدى الله والمسلم يتوجه فى كل ركعة من صلاته الى الله طالبا منه الهداية « اهدنا الصراط المستقيم » .

فلا تتصوروا أيها المؤمنون الا أن ما حدث فى موضـــوع القبلة قد تم بهداية من الله نحو الطريق المستقيم .

« من يشاء » وتعليق المشيئة بارادة الله هوما يجـب ان يتمثله المؤمن المســـلم فى كل لحظة وآن .

وكذلك جعلناكم امة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا وما جعلنا القبلة التى كنت عليها الا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه وان كانت لكبيرة الا على الذين هدى الله وما كان الله ليضيع ايمانكم ان الله بالناس لرؤوف رحيم .

قال الشاعر ، هم وسط يرضى الأنام بحكمهم .

وفى الحديث الشريف « خير الأمور أوسطها » .

عقبيه : العقب مؤخر القدم ويكون معنى يرتد على عقبيه . أى يرجع الى الخلف كناية لمن يرتد عن دينه بعد أن ختمت الآية السابقة بما يفيد أن التحول عن القبلة كان بهداية من الله وانه الطريق المستقيم (الذى لا عوج فيه).

جاءت هذه الآية تطمئن قلوب المسلمين الى مكانتهم بين أصحاب العقائد والملل الاخرى وان هذه المكانة هى خير المقامات كلها وعبر عن هذه الأفضلية « بالواسطية » لان وسط اى شىء هو افضله ومحوره ونقطة ارتكازه والوسط هو النقطة التى يتحقق عندها التوازن ، فالكون كله قائم على التوازن ، والتـــوازن لا يتحقق الا نتيجـة التوسط .

ولما كان الانسان فردا كان أو جماعة هو بعضا فى الطبيعة ، فان صلاحه تم خلال التوســـط فى كل أمور مادية كانت أو معنوية ، فالانسان على سبيل المثال اذا اراد ان يتحفظ بصحة جيدة فعليه بالتوسط فى كل أموره من طعام وشراب وســـكون وحركة ونوم ويقظة بالنســـبة لكيانه المادى ، وكذلك الشأن فى أموره المعنوية ومنذ أقدم العصـــور والفضيلة هى كما عبر ارسطو « وسط بين طرفين » كل منهما رذيلة ، فالشجاعة على سبيل المثال وهى فضيلة وسط بين الجبن من ناحية والتهور من الناحية الآخرى . والكرم وسط بين الشح والتبذير وهكذا بقية الفضائل الانسانية ، ليست فى حقيقتها الا وسط بين طرفين .

الاسلام الوسط :

ومن هنا جاءت تعاليم الاسلام وسطا فى كل شىء ابتداء من تصورات العقل حتى طريقة انفاق المال « والذين اذا انفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما » .

ولعله لا يبرز أن التوسط حتى فى العباده هو جوهر الاسلام من الحديث الذى يصف لنا كيف أنكر رسول الله على نفر من الصحابة آلى احدهم على نفسه أن يظل صائما طول عمره وآلى الثانى على نفسه أن لا ينام بالليل ابدا وان يقومه متهجدا لله تعالى ، واخذ الثالث على نفسه أن لايقرب النساء ، فاستدعاهم رسول الله وانكر عليهم فعلتهم ، ولم يقف عند حد الانكار ، بل ضرب المثل بنفسه من أنه يصوم ويفطر ويقوم الليل ويرقد ويتزوج النساء ، ثم أنزل الجزاء الرهيب على من يخرج على هذه القاعدة بقوله « فمن رغب عن سنتى فليس منى » .

ويطول بنا القول اذا مضينا فى تتبع الوسيطة فى كل شىء من شئون الاسلام والذى يقوم على التوازن الدقيق بين المادة والروح بين الدنيا والآخرة ، وســـيعرض لنا هذا الموضـــوع فى

مناسبات شتى ، والذى يعنينا الآن تقريره ، أن امة الاسلام شاءها الله ان تكون بما تقوم به من صالح الاعمال بالاضافة الى عقيدتها السليمة «خير امة أخرجت للناس» . ومن هنا فقد جعلهم شهداء على الناس سواء فى ذلك من عاصرهم أو سبقهم من الامم . روى البخارى فى صحيحه عن سعيد الخدرى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يدعى نوح عليه السلام يوم القيامة فيقول نعم فيقال لأمته هل بلغكم فيقولون ما أتانا فيقول نعم فيقال لامته هل بلغكم فيقولون ما اتانا من نذير ، فيقول من يشهد لك فيقول محمد وامته فيشهدون انه قد بلــغ ويكون الرســول عليكم شهيدا فذلك قوله عز وجل « وكذلك جعلناكم امة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا » .

وثمة احاديث أخرى تضيف زيادات بنفس المعنى الذى أورده البخارى ، وهكذا يشهد سيدنا محمد على امته وتشهد امته على بقية الامم بما تعلمته على يد سيدنا محمد من آيات القرآن الكريم .

وما جعلنا القبلة التى كنت عليها الا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه .

فى هذه الآية الكريمة اعلام من الله تعالى عن السر فى تحويل القبلة ، وان صلاة سيدنا محمد نحو القبلة الأولى (الى بيت المقدس) كان بتوجيه من الله سبحانه وتعالى « وما جعلنا » وانه اريد به الاختيار لصحابة رسول الله وابتلائهم ليعلم سيدنا محمد علم اليقين مدى عمق ايمان اصحابه به لاينطــق عن الهوى ، ومدى اســتجابتهم وطاعتهم لأوامره فى غير تردد باعتباره رسول الله ، قد رأينا كيف ان جماعة المصلين بمجرد ان جاءهم الخبر على لسان الثقة الأمين ان رسول الله قد حول القبلة حتى لم يضعوا لحظة واحدة فضلا عن ان يتساءلون عن سر هذا التغيير ، بل بادروا بالتحويل وسط الصلاة نحو القبلة الجديدة واكملوا الصلاة . وهكذا علم سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام من هم اصحابه حقا وصدقا ممن يستطيع الاعتماد عليهم فيما هو مقبل عليه من جليل الاعمال فلن يلبث سيدنا محمد ان يمتشق وجماعة المؤمنين السيف دفاعا عن الاسلام ، فكان لا مناص من أن يعرف مقدما « من يتبع الرسول ممن ينقلــب على عقبية » ولا يجب أن يجــب ان يســتوقفنا طويلا تعبير القرآن الكريم بكلمة « نعلم » فالله سبحانه وتعالى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ويعلم ما كان وما هو كائن وماسوف يكون ولكنه تعبير طالما تكرر فى القــرآن الكريم مثل قوله : « وليعلم الله الذين آمنــوا ويتخذ منكم شهداء ! » أو « ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين » . ومثل ذلك كثير ، فلا يجب أن يفهم منه بحال ان الله يعلم بعد ان لم يكن يعلم ، حاشا وكلا ، ويجب فهم المقصود من كلمة « نعلم » فى كل حالة وقد روى القرطبى عدة اقوال ذهب اليها المفسرون :

«فقيل المعنى لنميز أهل اليقين من اهل الشك» حكاه ابن فورك وذكره الطبرى عن ابن عباس ، وقيل المعنى « الا ليعلم النبى واتباعه ، واخبر تعالى بذلك عن نفسه كما يقال ، فعل الامير كذا وانما فعله اتباعه » ذكره المهدى وهو جيد .

وقيل معناه ليعلم محمد فأضاف علمه الى نفسه تعالى تخصيصا وتفضيلا . انتهى كلام القرطبى.

وقال أشياخنا فى تفسير الوسيط :

« والله سبحانه يعلم ما كان وما يكون فالمراد بالعلم التمييز بالاتباع الفعلى » ومن ناحيتنا نرى أن المقصود من هذه القضية كلها هو اختبــار المسلمين وابتلاؤهم وتدريبهم على السمع والطاعة استعدادا لما هو آت من جلائل الأعمال ولذلك فنحن نطمئن الى قــول من اول المعنى على أنه « لكى يعلم محمد » .

لا نوافق :

بقى ان نثبت هنا رأينا فى قول من قال ان صلاة سيدنا محمد نحو بيت المقدس اول ما وصل الى المدينة كان بقصد تأليف اليهود ، فلما يئس منهم عاد الى استقبال الكعبة ، ورأينا اننا لا نوافق على هذا القول جملة وتفصيلا . فقد كان هذا القول يمكن ان يكون فيه شبهة احتمال لو ان الرسول صلوات الله عليه لم يكن يصلى نحو بيت المقدس فى اول الدعوة بمكة مع ان الثابت المحقق الذى لا مرية فيه ان سيدنا محمدا كان يصلى فى مكة بين الركنين (الحجر الاسود والركن اليمانى) ومعنى هذا انه كان يستقبل بيت المقدس فلم تكن الكعبة قبلته وان توسطت بينه وبين قبلته البعيدة ، ولو كانت الكعبة هى قبلته لجازت الصلاة حولها من اى جانب كما هو الشأن الآن بعد أن اعتبرها القرآن الكريم هى القبلة فأصبحت بأركانها الأربعة قبلة ومن حيث تقع العين عليها فهى قبلة ، فلو كانت قبلة سيدنا محمد الأولى لما قيد نفسه باتجاه خاص ، وهو الصلاة بين الركنين لتكون صلاته نحو بيت المقدس .

بقى أن نضيف أن بيت المقدس وكونه مسرى الأنبياء لم يكن بعيدا عن سيدنا محمد والقرآن الكريم يقول لنا : « سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى » .

وقصة الاسراء كلها تدور حول الرحلة الى المسجد الأقصى وصلاة سيدنا محمد بالأنبياء والرسل فى بيت المقدس .

فالقول بأن سيدنا محمدا انما صلى الى بيت المقدس تألفا لليهود يخالف الحقائق الثابتة وليس ادل على ذلك من ان جمهرة صحابة رسول الله من المهاجرين قد سبقته الى مكة ، وكانوا يصلون كما كان الاسلام متفشيا فى المدينة ، ولم يقل قائل انهم كانوا يصلون الى الكعبة ، فلما ان وصل الرسول طلب منهم أن يتحولوا من الصلاة نحو الكعبة الى بيت المقدس تألفا لليهود ، وانما مضى المسلمون وعلى رأسهم سيدنا محمد يصلون حيث اعتادوا أن يصلوا نحو بيت المقدس ، ويدهشنا أن المفسرين القدامى لم ينتبهوا لذلك فيقعون فى هذا التصور الذى استغله اليهود أسوأ استغلال .

والخلاصة انه لم يحدث الا تحول واحد فقط فى القبلة مذ شرعت الصلاة من بيت المقدس الى الكعبة ، كما يدل على ذلك صريح القرآن .

حول موضع النسخ :

ومما يجدر تسجيله بهذه المناسبة ان ليس فى القرآن آية تدعو الى الصلاة الى بيت المقدس حتى يقال انها نسخت بالأمر بالصلاة الى الكعبة ، وانما كان العمل قد جرى على الصلاة الى بيت المقدس حتى نزل الأمر بالتوجه فى الصلاة شطر الكعبة مما جعل الأئمة يجمعون على أن القرآن الكريم ينسخ السنة وهو الدليل القاطع على صدق رسول الله وانه كان يصدع على الفور بأمر الوحى القرآنى وسنزيد الأمر تفصيلا بمناسبة آية « قد نرى تقلب وجهك فى السماء » .

« وان كانت لكبيرة الا على الذين هدى الله »

اى ان عملية تحويل القبلة مسألة هينة لينة بالنسبة للمؤمنين الصادقين ذلك انهم يعرفون أن له المشرق والمغرب وأنهم حينما ولوا وجوههم « فثم وجه الله » ومن هنا رأينا كيف تحولوا على الفور نحو القبلة الجديدة على ما روى البخارى وهم فى صميم الصلاة ولكن ضعاف

النفوس والمنافقين وكل من لم يدخل الايمان الى قلوبهم هم الذين اعتبروا القبلة سببا لارتدادهم عن دين الاسلام .

« وما كان الله ليضيع ايمانكم »

روى البخارى فى صحيحه أن البراء بن عازب قال : وكان الذى مات على القبلة — قبل أن تحول الى البيت — رجالا قتلوا لا ندرى ما نقول فيهم فانزل الله عز وجل قوله « وما كان الله ليضيع ايمانكم » انتهى حديث البخارى .

اى أن الله عز وجل ما كان ليغمط حق من صلى الى بيت المقدس قبل أن تحول القبلة فقد فعل ما فعل طاعة لله ورسوله وتبقى الحقيقة الخالدة الأزلية « فأينما تولوا فثم وجه الله » « ان الله بالناس لرؤوف رحيم » واذا كان الله سبحانه وتعالى يغفر الذنوب والاساءات فكيف يتصور متصور أنه لن يتقبل صلاة من صلى الى بيت المقدس قبل أن تتحول القبلة والله بالناس رؤوف رحيم . والاتفاق على أن الرأفة درجة أشد من الرحمة وقيل اكثر وفى الحديث ما معناه ان الله أرحم بعباده من الأم على اطفالها .

قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام .

معجزة القرآن :

القرآن الكريم معجزة سيدنا محمد الدالة على نبوة سيدنا محمد وان هذا القرآن لا يمكن ان يكون من صنع بشر وانما هو تنزيل من رب العالمين وسيبقى الى ابد الدهر يتحدى باعجازه البشر من اى ناحية نظروا اليه من خلالها وقد كان آخر ما سمعناه من هذا القبيل ان عالمين فرنسيين اقتنعا بذلك من خلال ما اشار له القرآن من الحقائق العلمية التى كان يستحيل على بشر أن يدركها وهى لم تعرف الا فى عصرنا الحاضر بعد ان تطورت الآلات الى ما تطورت اليه ، وقد سبق هذين العالمين الفرنسيين علماؤنا المسلمون الأجلاء . ونحن لسنا من علماء الفلك أو الطبيعة وحرفتنا الكتابة والأدب والتاريخ واستقراء النفس البشرية .

وبهذه الامكانيات المتاحة لنا نرى بوضوح كما لو كنا نرى ضوء النهار كيف ان هذه الآية التى نحن بصددها لا يمكن أن تكون من صياغة سيدنا محمد ولا يمكن الا أن يكون مبلغا أمينا لما أنزل عليه من وحى فهو يؤديها كما هى دون تبديل او حذف أو اضافة غير عابىء بما تحدثه من نتائج فهو رسول وما عليه الا البلاغ .

رغبة سيدنا محمد :

فهذه الآية الكريمة تكشف عن طوية سيدنا محمد وانه كان يهوى ويرغب ان تكون قبلته نحو الكعبة .

تقلب وجهك فى السماء : اى ترددك وتطلعك الى السماء .

فلنولينك قبلة ترضاها : اى فلنولينك قبلة تحبها .

فأنت ترى من هذا النص انه يكشف عن رغبة سيدنا محمد فى أن تكون القبلة الى الكعبة ولكن هذه الرغبة وهذا التمنى لم يكن له دخل فى عمل سيدنا محمد الذى ظل يصلى حيث وجهته السماء الى أن يصلى بصرف النظر عن ما يحب هو أن يختار وكل الذى كان يفعله هو أن يتطلع

الى السماء بالتطلع والتمنى الى ان اجاب الله رغبته بتحويل القبلة فهنا وهنا فقط وعندما نزل الأمر بذلك تحولت القبلة والآن لنصل الى الدليل النفسى القاطع ان هذا القرآن تنزيل على سيدنا محمد قام هو بتبليغه الى البشر والا فلو كان من صنعه هو لمـا كان هناك ما يلجئه الى الافصاح عن ذلك كان هو ما يتمنـاه ويصبـو اليه حتى لا يتقول المتقولون ويتخرص المتخرصون (وهو ما حدث بالفعل) ان تحويل القبلة تم لأن هذه رغبته ولكن سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم لم يكن يحفل بما قيل ويقال انما كان هو الصادق الأمين فى ابلاغ ما يوحى اليه وقد مر بنا وسوف يمر آيات كثيرة تكشف عن طوية سيدنا محمـد ونزول الوحى بما يخالف أو يوافق رغبته ممـا يدل على وجود محمد الانسان ومحمد الرسول الذى يصدع بما يؤمر ولو كان على خلاف ما يحب ويسجل القرآن الكريم كلا الأمرين لانه التنزيل .

فول وجهك شطر المسجد الحرام : اى فليكن وجهك فى الصلاة شطر اى (ناحية) المسجد الحرام ووصف المسجد بأنه حرام لان القتال ممنوع فيه على مدار السنة وكان للعرب اربعة اشهر فى السنة يحرم القتال فيها ويحل فى باقى اشـهر السنة ما عـدا مـكة حيث توجـد الكعبـة فقد كان القتال فيها محرما طـوال العام ومن هنا جاءت التسمية «المسجد الحرام».

احاديث عن القبـلة :

روى عن رسول الله قوله : ما بين المشرق والمغرب قبلة .

وانه صلى الله عليه وسلم قال : البيت قبلة المسجد والمسجد قبلة لأهل الحرم والحرم قبلة لأهل الأرض فى مشارقها ومغاربها من امتى .

وحينما كنتم فولوا وجوهكم شطره : طالمـا ذكرنا ان كل تكليف يكلف به سـيدنا محمد فهو تكليف لأمته الا ان يدل دليل على ان الأمر خاص برسول الله ولكن موضـوع القبـلة بالذات وتحويلها من بيت المقدس الى الكعبة كان محلا للقيل والقال كما قدمنا فقد حرص القرآن الكريم على تثبيت الأمر وتأكيده بما يرفع كل لبس او غموض ومن هنا بعد أن خوطب النبى صلوات الله عليه وسلامه أن يجعل المسجد الحرام قبلته وجه الأمر الى كافة المسلمين فى كل زمان ومكان.

« وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره » .

وسوف نرى ان هذا الأمر سيتكرر ثانيـة وثالثة فى الآيات المقبلة وما ذلك الا امعانا فى التأكيد لان موضوع القبلة فى تصورنا هو مسالة تنظيمية أريد بها جمع المسلمين فى صف واحد وهو ما تحقق بالفعل عبر القرون فكانت القبلة الواحـدة اقـوى رابطة روحيـة ربطت وتربط وسوف تربط المسلمين الى ابد الآبدين .

وان الذين اوتوا الكتاب ليعلمون انه الحق من ربهم : اى ان اليهود والنصارى والمقصود هنا هم يهود المدينة المعاصرين لسيدنا محمـد بخاصـة فقد كانوا هم الذين قالوا واشـاعوا وتزعموا حركة السفهاء الذين قالوا « ما ولا هم عن قبلتهم التى كانوا عليها » واجابوا على هذا السؤال بما فتح به الشيطان عليهم ، مع أن هؤلاء اليهود بالذات يعلمون ان تحويل القبـلة هو الحق من ربهم ، ولسنا نجـارى المفسرين الذين راحـوا يتسـاءلون وكيف كان اليهـود يعرفون ويجيبون على ذلك باجتهادات تخطىء وتصيب اما نحن فنقف عند النص القـرآنى الواضح الصريح من ان « الذين اوتوا الكتاب ليعلمون انه الحق من ربهم » .

وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟

وما الله بغافل عما يعملون : وهذا انذارلكل من يكيد للاسلام والمسلمين ، وقد تدمنا ما تعنيه كلمة « الغافل » اى الساهى وغير الفطن مأخوذ من الغفلة اى السهو والاهمال .
والمعنى ان الله عالم بما يكيدون ويدبرون .

ولئن اتيت الذين اوتوا الكتاب بكل آيةما تبعوا قبلتك وما انت بتابع قبلتهم وما بعضهم بتابع قبلة بعض : يسرى الله سبحانه وتعالى عن رسوله لعناد اليهود وعدم ايمانهم وفى كل ما مر بنا حتى الآن من سورة البقرة هى صور من تعنت اليهود وعنادهم بالباطل فلا تتصور يا محمد انك لو جئتهم بأى آية ، والآية قد تكون حجةوبرهانا عقليا وقد تكون معجزة كونية وقد تكون آية قرآنية ، انك واصل الى اقناعهم ان يتبعوا قبلتك التى يعرفون انها حق من حق ، وانت بعد ان عرفت ذلك فلن تتبع قبلتهم « وما بعضهم بتابع قبلة بعض » اى ان النصارى لن يتبعوا قبلة اليهود والعكس بالعكس .

ولئن اتبعت اهواءهم من بعد ما جاءك من العلم انك اذن لمن الظالمين :
اهواء : جمع هوى احبه ومال اليه يقال هويت الشىء وهوته نفسى واكثر ما يستعمل الهوى فى الميل الى الباطل وما ليس بحق . ويأتى الهوى فى معنى الشهوات وما تميل اليه النفس فى المذهب والاعتقاد ونحو ذلك وهكذايحذر القرآن سيدنا محمدا بظاهر القول ويحذر اتباع محمد الى يوم الدين بأن يميلوا الى جانب المعتقدات اليهودية والنصرانية « بعد ما جاءت من العلم » اى من القرآن والدين الاسلامى عامة « انك اذن لمن الظالمين » .
اى تظلم نفسك بتعريضها للنار وتظلم الحقيقة
والاتفاق على انه وان كان الحديث موجها للنبى فالمقصود به امته واستعمل القرآن هذا الأسلوب للتشديد والتغليظ على المؤمنين ووجه التغليظ فى انه اذا كان سيدنا محمد وهو المعصوم بنص القرآن « وما ينطق عن الهوى » يخاطب بمثل هذا الأسلوب ولو بظاهر القول فكيف الحال معنا نحن الضعفاء ، اننا اذن لنكونن ظالمين وظالمين وظالمين .
الذين آتيناهم الكتاب : تعنى اليهود والنصارى .
يعرفونه : جرى الخلاف حول الضمير فى يعرفونه فذهب فريق الى انه يعود الى الموضوع محل الحديث وهو « تحويل القبلة » وان أهل الكتاب يعرفون انه حق بينما اختار اشياخنا فى تفسير الوسيط ان الضمير فى يعرفونه يعود الى رسول الله ، والمعنى المقصود واحد فى كلا المعنيين فعلمهم بأن سيدنا محمداً رسول من رب العالمين من شأنه ان يجعل تحويل القبلة قد تم بوحى من رب العالمين .

كما يعرفون ابناءهم :

اى أن معرفة اليهود والنصارى المعاصرين لسيدنا محمد هى معرفة يقينية وليست على سبيل الحدس والتخمين من نوع معرفة الآباء لأبنائهم .

وان فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون :

يفهم من الآية الكريمة أن بعض اليهود والنصارى آمنوا بالفعل بسيدنا محمد بناء على ما كانوا يجدونه عندهم فى التوراة والانجيل بينما اصر البعض الآخر على كتمان هذه الحقيقة عن جماهيرهم ولقد اشرنا من قبل الى انه لم يكن يوجد فى اى مجتمع يهودى سوى نسخة وحيدة من التوراة يحتكر (الأحبار) حق تلاوتها ، وحيث اعترف بعض احبار اليهود وعلى راسهم عبد الله ابن سلام برسالة سيدنا محمد انكرها الآخرون .

وهم يعلمون ، طالما لفتنا النظر الى ان القوانين الجنائية المعاصرة التى يتشدقون بأنها قمة ما انتهت اليه الحضارة الانسانية تشترط لتجريم اى شخص ركن « العلم » فانظر يرعاك الله كيف سبق القرآن الكريم المدنية الحديثة بأكثر من الف سنة فى تقرير هذا الركن من اركان الجريمة وهو « العلم » .

« الحق من ربك فلا تكونن من الممترين »

اى أن تحول القبلة هو الحق من ربك فلا تكن أيها « المؤمن » الموجه اليه الخطاب احد المتشككين امترى فلان (فى) كذا اذا اعترضه اليقين مرة والشك مرة ، ويقول القرطبى : الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم والمراد امته .

بينما يحرص بعض المفسرين على أن يخرجوا مما يتصورونه حرجا فيقولون « الممترين » تعنى المجادلين .

ويهمنا أن لا يستشعر احد اى حرج من ذكر هذه الكلمة او تلك فقد اختار الله سبحانه وتعالى أن يخاطب العرب بلسانهم فاستخدم كلماتهم واستعمل شتى الأساليب البلاغية التى درجوا على استعمالها وما كان يمكن أن يكون الأمر غير ذلك ومن هنا راينا القرآن ينسب شتى الأعمال والانفعالات الى الله سبحانه كنسبة الكيد او المكر او الغضب او الحب وكل هذه الفاظ لم تستعمل لمعناها الحرفى وانما المعنى الكلى المستفاد من مجموع القول من ان هذا الأمر أو ذاك خير وهدى وواجب الاتباع وان هذا الأمر على عكس ذلك وبالمثل فقد تضمن القرآن الكريم انذارات وتحذيرات لسيدنا محمد فلا يجب أن نستشعر حيالها بأى حرج فما دام قد شاء سبحانه وتعالى ان يستخدم هذه الصيغة او تلك فمهمتنا ان نفهم المقصود والمراد منها وهو هنا أن موضوع تحول القبلة هو كسائر ما نزل على سيدنا محمد « الحق من ربك » فلا تجعل الشك يتسلل الى نفسك من هذه الحقيقة .

« ولكل وجهة هو موليها فاستبقوا الخيرات » .

الوجهة : هى الجهة والوجه والكل بمعنى واحد والمراد القبلة .

موليها : اى متجه اليها .

فاستبقوا الخيرات : اى بادروا وسارعوا الى الخيرات واذا كان الحديث هنا يدور حول القبلة فقد ارتأى بعض الفقهاء ان الخيرات تعنى الصلاة ، ومن راينا ان لا يخصص العام الا بمخصص فيجب أن تظل الخيرات عامة تشمل كل خير والدعوة عامة الى المسارعة والمبادرة الى فعل الخير .

يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ

« اينما تكونوا يات بكم الله جميعا »

ويذكر الله سبحانه وتعالى وهو يدعوللمسارعة بعمل الخير بالمكافاة والثواب يوم القيامة للأخيار والخيرات. والعقاب والنار للاشرار وكل ذلك يستفاد من الاشارة الى البعث « اينما تكونوا يات بكم الله » اى حيثما واينما كنتم ايها الناس مهما تباعدت الأمكنة والأزمان ومهما تصورتم أن أجسادكم تلاشت واصبحت ذرات فى مهب الريح فان « الله على كل شىء قدير » .

« ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وانه للحق من ربك وما الله بغافل عما تعملون . ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره » .

هاتان الآيتان تكرار لما سبق من الأمر بالتوجه فى الصلاة شطر الكعبة وتكرر هذا الأمر بعينه ثلاث مرات هنا :

١ — ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام .

٢ — ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام .

٣ — وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره .

ونحسب ان ليس لهذه الحالة مثيل آخر فى القرآن من حيث تكرار المعنى بنفس الالفاظ تقريبا فى بضع آيات متقاربة وما ذلك الا بقصد التاكيد والتثبيت فلا عجب ان يظهر القرآن معجزته الخالدة فى هذه الناحية من حيث انفراده بالتاثير بل بالسيطرة على آلاف الملايين من البشر الذين يتجهون بقلوبهم فى مشارق الأرض ومغاربها نحو الكعبة خمس مرات فى اليوم الواحد ثم يظلون يهفون اليها بقلوبهم حتى يرونها رأى العين فتتدفق مئات الآلاف كل عام لأداء فريضة الحج وهناك فى المسجد الحرام وحول الكعبة يصلون ويا له من مشهد رهيب وانى لأنقل هنا ما كتبته عن المشهد فى كتابى «مشاهداتى فى جزيرة العرب» ذلك أنه نتيجة هذا التوجيه الربانى للمسلمين شطر الكعبة وتكرار ذلك وتاكيده .

صـــلاة الجماعة فى الحرم :

اننى رجل طوفت كثيرا فى الدنيا ورايت مناظر ورايت حشودا من النـــاس فى شتى الصـــور والاشكال ولقد راعتنى كثيرا من التجمعات هنا وهناك ، ولكنى اشهد ان ليس فى الدنيا كلها حشد كهذا الحشد المتجمع فى الحرم الشريف اذا حضرته الصلاة سواء من حيث الغاية التى اجتمع من اجلها ، او النظام الذى تحتذيه الجماعة ، لقد رايت بضع مئات من الالاف يحتشدون فى صعيد واحد لمشـــاهدة احتفالات رياضـــية فى تشيكوسلوفاكيا ورايت عـــددا اقل وان كان يتجاوز المائة الف يشـــهدون فى انجلترا احدى مباريات كرة القدم ولقد راعنى استطاعة هذه الجموع أن تجتمع وان تنصت دون أن يقع حادث وراعنى ما هى عليه من نظام وانسجام حتى ليصل بهـــا الأمر الى ان تنشد كلها نشيدا واحدا فى صوت واحد وكانهم رجل واحد . ولقد رايت جموعا اخرى تناهز العشرة آلاف وقد احتشدت فى قاعة واحدة لتشهد حفلة موسيقية وقد راعنى منها هذا الصمت العميق الذى يشبه ان يكون صلاة وهم يستمعون لنغمات الموسيقى حتى ان الرجل يكاد أن يحبس انفاسه خوفا من أن يحدث صوتا يعكر هذا الصمت الرهيب الذى لا يجب ان تسمع فيه سوى أصوات الموسيقى التى قد تخفت حينا لتتحول الى همس او الى ما يشبه حفيف النســـمات .

كل ذلك رايته وسمعته واعجبت به ومع ذلك فاشهد ان ليس هناك ما يمكن ان يصـــل او يسمو الى بعض مرتبة هذا الحشد فى الحرم المكى ابان الصلاة الجامعة فى موسم الحج . فهؤلاء اناس ليسوا من شعب واحد ولا أمة واحدة ولا يتكلمون بلغة واحدة ، ولا ينتمون الى جنس واحد ، انهم خليط من كل شعوب الأرض ابيضها واسودها واصفرها واحمرها، وقد جاءوا جميعا من كل فج عميق رجالا وعلى كل ضامر جاءوا على متون الطائرات او على ظهور البواخر او ســـيرا على الاقدام ، عشرات الآلاف ومئاتها جاءوا يشقون ويكدحون الأيام الطوال والاسابيع والشهور لا ليلتمسوا ربحا او تجارة ، لا ليلهوا او يرفهوا عن انفسهم ولكن ليعبدوا الله مخلصين له الدين متجردين من كل شىء الا الرغبـــة فى اظهار الطاعة والخشوع امام عظمته . انها غاية تتضاءل الى جوارها اعظم الغايات فهذا الحشد الضخم لا مثيل له فى العالمين لا فى القديم ولا فى الحديث فليس سوى الاسلام من استطاع ان يجمع النـــاس على اختلاف اجناسها وشعوبها وتباعد اماكنها فى صعيد واحد . فاذا هتف المؤذن (حى على الصلاة) توافدت الجموع فى لحظات واصطفت كلها فى حلقات حول الكعبة وليس لهـــا منظمون او مشرفون . وليس لهـــا من يأمر أو يوجه ، وانما الجميع مسلمون يعرفون من امر الصلاة انها نظام وصفوف فهم يتراصون من تلقاء انفسهم وفى غمضة عين ترى ربع مليون من البشر او يزيد وقد وقفوا جميعا فى حلقات متتـــالية ولقـــد كنت انظر اليـــهم من كوتى وكانى انظـــر الى بســـتان جميل بديع قـــد صاغه الله من أبدع الألوان ، فالملابس الزاهية الحمـــراء والخضراء والبيضـــــاء والصـــفراء والبنفســـجية والقرمزية والزرقاء تتلألأ كلهـــا وتتمازج وتتماوج تحت اشعة الشمس فى النهار

او فى اضواء الكهرباء الساطعة بالليل ، والكعبة شـــامخة سامقة عالية البنيان بكسائها الاسود المقصب ويكبر الامام تكبيرة الاحرام فاذا الجميع يكبرون ثم يقفون خشعا كأن على رؤوسهم الطير ، ويسود الصمت العميق على هذا الحشد الهائل ، حتى لتوشك أن تسمع نبضـــات القلوب . ويرتل الامام القرآن فينصت الجميع ويستمعون بالروح كلهـــا ، حتى اذا ختم التلاوة وكبر راكعا ركع الجميع ثم أذا كبر ساجدا سجد الجميع . وانى اتحدى ان يكون لذلك مثيل او شبيه فى اى قطر أو مصر من أمصار العالم فى أى زمان أو مكان او عصر من العصور قبل التاريخ او بعد التاريخ أو فيما يجد من الزمان ، اتحدى ان يكون لذلك شبيه او قرين ان يتجمع نصف مليون من البشر فى مسجد واحد وان يصلوا مجتمعين تحت قيادة امام واحد . انهـــا معجزة الاسلام الخالدة والتى لا يتسامى اليها دين من الأديان .

« لئلا يكون للناس عليكم حجة الا الذين ظلموا منهم » .

اى ان هذا التوجه نحو الكعبة لا يجعل لأحد عليكم حجة سواء من أهل الكتاب او المشركين فهؤلاء واولئك يقرون ان ابراهيم هو أبو الأنبياء هو الذى بنى الكعبة لتكون بيتا لعبـــادة الله فالتوجه نحوها فى الصلاة هو الحق ، وليس يجادل فى هذه الحجة .

« الا الذين ظلموا منهم » اى من اهل الكتاب والمشركين .

« فلا تخشوهم واخشونى »

اى فلا تلقوا بالكم لأقوالهم وتخرصاتهم .

كان اليهود يقولون لو كان نبيا ما تحول عن بيت المقدس وكان كفار قريش يقولون ليست عودته الى القبلة الا مقدمة لعودته لدين آبائه واجداده . فيقول الله تعـــالى لنبيه ولجماعة المؤمنين فى كل زمان ومكان ان لا يخشوا اى لايخافوا من كيد الكافرين ومزاعمهم وانما يجعلون كل خشيتهم من الله وهذا هو شـــأن المؤمن « ولأتم نعمتى عليكم ولعلكم تهتدون » .

أى عندما تجعلون تقوى الله وخشيته بطاعته وطاعة رسوله فسوف اتم نعمتى عليكم .

وقد وفى الله سبحانه وتعالى بوعده للمؤمنين عندما صـــدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فأنزل على رسوله ما قيل انه آخر آية نزلت من آيات القرآن .

« اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا » .

« كما أرسلنا فيكم رسولا منكم »

تواصـــل الآية الكريمة تعديدها للنعم التى اسبغها الله على جماعة المؤمنين وكيف ان كبرى النعم هى فى ارساله سبحانه وتعـــالى سيدنا محمدا عليه الصلاة والســـلام من بينهم اى من بين العرب الذين كان يوجه اليهم الخطاب ساعة نزول القرآن ، اما بعد أن عم نور الاسلام الدنيا لا فرق بين عربى او عجمى الا بالتقوى ، وبعد ان نص القرآن الكريم على « ان اكرمكم عند الله اتقاكم » فيجب ان نفهم أن النعمة قـــد حلت بالجنس البشرى كله ان بعث الله من بين الناس بشرا رسولا .

ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ * إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ

« يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة » ويزكيكم : اى ليطهركم من الدنس والفواحش التى ترديتم فيها من مثل عبـادة الأصنام والتخلق بالأخلاق السيئة .

الكتاب : هو القرآن الكريم .

الحكمة : الحكمة بمعناها العام اصابة الحق والصواب والغوص الى حقائق الأمور والتمييز بين الغث والسمين وهى من كبرى نعم الله عندما يهبها لانسان ما . جاء فى القرآن الكريم « ومن يؤت الحكمة فقد اوتى خيرا كثيرا » .

هذا هو معنى كلمة الحكمة بعامة اما هنـا وفى هذا الموضع بالذات فهى مرادفة للسنة النبوية اذ هى منسوبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم « ويعلمكم الكتاب والحكمة » ولما كان الكتاب يعنى القرآن فقد اصبح ما زاد على ذلك ــ من قول او فعل لرسول الله ــ يعـد من السنة ، ومن هنا تحدد معنى كلمة الحكمة هنا بأنها السنة النبوية .

تسمية القرآن بالكتاب احدى معجزاته :

بقى ان نلفت النظر الى ما فى تسمية القرآن منذ الوهلة الاولى بانه كتاب بمفهومنا الحاضر عن الكتاب هى احدى معجزات القرآن وعندما يقلب المسلم العادى فى العصر الحديث القرآن الكريم بين يديه وهو يراه مطبوعا ومجلدا قدلا يدرك كيف ان تسـميته بالكتاب هى احدى معجزاته ذلك انه لم يكن عند العرب كتاب من اى نوع كان قبل القرآن ، وعندما نزل القرآن الكريم فهو لم ينزل على صورة كتاب ، وانما كان ينزل آيات منجمة حسب المناسـبات ، واذا كانت قلة قليلة جدا من الصحابة ممن يعرفون الكتابة كانوا يسجلون الآيات المتفرقة على الرقاع وقطع من العظم (ولحاف النخل) اى الأجزاء العريضة من جريد النخل فان ذلك كله لم يجمع ليأخذ صورة الكتاب فى مفهومنا العصرى الا بعد وفاة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، حتى ان سيدنا ابا بكر الصديق رضى الله عنه توقف عندما اقترح عليه « جمع القرآن » وكان رده على هذا الاقتراح « افعل شيئا لم يفعله رسول الله ؟ » فكان رد سيدنا عمر « هو والله خير » وتمضى كتب التاريخ تحدثنا لماذا لم يقتنع ابو بكر بالفكرة حتى شرح الله صدره للموضوع فأذن

به ، وفى زمن سيدنا عثمان نسـخ القرآن فى بضع نسخ بعث بهـا الى الآفاق فكان هـذا المصحف الموجود فى ايدينا على هذه الصورة . . صورة الكتاب بمعناه المتعارف والمألوف ومن هنا قلت فى تسمية القرآن بالكتاب أنها معجزة بالنسبة « لمفهومنا العصرى » لمعنى كلمة الكتاب (وكان العرب يطلقون كلمة كتاب على « الخطاب » ولا يتصور متصور ان ذلك يقلل من شأن المعجزة بل هو الدليل على أن الفاظ القرآن الكريم ستظل تشع الايمان والحكمة على مر العصور مهما تبدلت الاسـتعمالات الاصطلاحية لمفهوم هـذه الألفـاظ .

« ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون »

وهذه منة أخرى يمن بها القرآن الكريم على المؤمنين المخاطبين ساعة نزول القرآن من انه يزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة : « ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون » ولكن الخطاب سيظل موجها الى ابد الآبدين من أنه يعـلم المؤمنين ما لا يعلمون . واغترف علماء المسلمين من هذا العلم فحققوا عصر النور حيث كانت اوروبا فى الظلام الذى لم تخرج منه الا بعد أن نقلوا علوم المسلمين .

« فاذكرونى أذكركم واشكروا لى ولاتكفرون »

اى فاذكرونى فى احوالكم وتصرفاتكم ، اذكرونى لكل ما أمرتكم به والانتهاء عن كل ما نهيتكم عنه ، اذكرونى بجوارحكم والسنتكم ، فأما ذكر الجوارح فبتقوى الله فى السر والعلن وأما ذكر اللسان فبالحمد والثنـاء وافرادى بالالوهية وتسبيحى وتكبيرى ما استطعتم الى ذلك سبيلا والقول ذو سعة فى كل ما يعنيه ذكر العبد لله واما عن ذكر الله لعبده المؤمن فيكون بالثواب فى الدنيا أحيانا ولكنه فى الآخرة فى كل الاحوال كما أعلمنا الله ، والأحاديث كثيرة فى فضل ذكر الله نجتزىء منها بحديثين رواهما ابن ماجه عن عبد الله بن بسر قال : « ان اعرابيا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ان شرائع الاسلام كثرت على فأنبئنى منها بشىء اتشبث به قال : « لا يزال لسانك رطبا بذكر الله عز وجل » .

وخرج عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « ان الله عز وجل يقول أنا مع عبدى اذا هو ذكرنى وتحركت بى شفتاه » .

وطالما دار التسـاؤل : أيكون الذكر بالقلب أو اللسان ؟ وعندنا أنه يجب أن يكون بالاثنين فالذكر باللسـان دون القلب أشـبه بالجسد بغير روح والعكس صحيح فالذكر بالقلب دون اللسـان اشبه بروح بغير جسد والحياة تقوم على الاثنين معـا .

« واشكروا لى ولا تكفرون »

الشكر معرفة الاحسان والتحدث به فشكر العبد لله ثناؤه عليه بذكر احسانه والله سبحانه وتعالى غنى عن العالمين لا يضيره فى كثير أو قليل ان يشكره العباد او يجحدوه وانما المؤمن عندما يشكر يحس للشكر بحلاوة تحتاج بدورها الى شـكر أما الجحود (والعياذ بالله) وهو ما عبر عنه القرآن الكريم بالكفر فيملأ النفس مرارة وضيقا وقلقا وهو ما نلمسـه فى اى مجتمع عندما يشيع فيه الكفر اذ يعم السخط وينعدم الرضا الذى تصبح الحياة بدونه جحيما فشكر الله هو ذكر الله وهو لخير الانسان أولا وأخيرا .

ومن أجمل ما طالعت عن كيفية الشكر ما ذكره أشياخنا فى تفسير الوسيط فقالوا : والشـكر يكون بتوجيه الجوارح الى ما خلقها الله له وبذل المـال فيما أباحه وندب اليه ونشر العلم فيما

ينفع لوجهه تعالى — فشكر العالم نشر العلم ، وشكر القوى مساعدة الضعيف ، وشكر الغنى الصدقة ، وشكر الحاكم العدل والتواضع ، وهكذا وقد وعد الله الشاكرين بموالاة نعمه عليهم : « لئن شكرتم لازيدنكم » انتهى ما جاء فى الوسيط والآية الكريمة اذ قرنت الذكر بالشكر فلانهما من طبيعة واحدة فذكر الله شكره وشكر الله ذكره .

روى ابن كثير فى تفسيره :

ان موسى عليه السلام قال : يارب كيف اشكرك ؟ قال له ربه : « تذكرنى ولا تنسانى ، فاذا ذكرتنى فقد شكرتنى واذا نسيتنى فقد كفرتنى » . وآخر ما نختم به هذه الفقرة ان نورد حديثا رواه الامام احمد بسنده عن انس رضى الله عنه : « قال الله عز وجل : يا ابن آدم اذكرنى فى نفسك اذكرك فى نفسى وان ذكرتنى فى ملأ ذكرتك فى ملأ خير منه وان دنوت منى شبرا دنوت منك ذراعا وان دنوت منى ذراعا دنوت منك باعا وان اتيتنى تمشى اتيتك هرولة » ا.هـ .

وغنى عن البيان ان ذلك كله يقال على سبيل المجاز .

« يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة ان الله مع الصابرين ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله أموات بل احياء ولكن لا تشعرون » .

« يا أيها الذين آمنوا »

ذكرنا من قبل انه قد قيل ان كل آية يوجه فيها الخطاب الى الذين آمنوا فهى آية مدنية حيث كان الخطاب فى الآيات المكية يوجه الى الناس بعامة ، ذلك أن مجتمع المدينة قد تفشى فيه الاسلام ووجدت مشاكل من نوع جديد للمؤمنين لا عهد لهم بها فنزل القرآن الكريم يعلمهم كيف يواجهون هذه الشدائد الجديدة وان يجعلوا سلاحهم لمواجهتها هو الصبر والصلاة ولعل الآيات السابقة التى تتحدث عن تحويل القبلة وما دار حولها من قيل وقال تكشف عن بعض هذه المصاعب التى بدا يلقاها المؤمنون فمن حملة تشكيك ضارية يشنها المنافقون واليهود الى سوء الأحوال المعيشية ، الى غموض ما يمكن ان ينتهى به المستقبل ، وليس فى جماعة المهاجرين الا من ترك آله وذويه وامواله بمكة ، أما مسلمو المدينة من الأنصار فلابد ان يكون اليهود — شأنهم فى أى زمان ومكان — قد بدأوا يستخدمون سلاح المال للتضييق عليهم ، ولابد ان يكونوا قد اغرقوا جماعة المؤمنين بالدسائس والاراجيف وبالجملة فلابد ان يكون الجو فى هذه المرحلة قد أصبح مسمما جدا فنزل هذا التوجيه لجماعة المؤمنين كيف يواجهون هذه المصاعب .

« استعينوا بالصبر والصلاة »

ومواجهة الشدائد والخطوب من أى نوع كان تتم بسلاحين : الصبر والصلاة ، والصبر فضيلة عامة عرفها البشر مذ كانوا بشرا واذا كان أى فرد من الافراد أو جماعة من الجماعات قد حققوا لأنفسهم أى خير من أى نوع فقد تم ذلك بفضيلة الصبر فليس يتعلم متعلم الا من خلال الصبر والعامل أى عامل لا يمكن أن ينجز عمله الا بقدر من الصبر وتتفاوت حظوظ الناس بقدر مايطيقون من الصبر وبلغ الأمر بأعظم مخترع فى القرن التاسع عشر ان يقول « العبقرية هى الصبر » وتعريف الصبر وماهيته ككل التعاريف والماهيات أمر متعذر ، ولكن الذى ندريه من أمر الصبر هو مظاهرة ذات الوجهين السلبى والايجابى فأما السلبى فهو الثبات والايجابى هو المثابرة فالثبات فى وجه العواصف والزوابع والمحن والكوارث وكل صنوف المكاره من مثل التى ستعددها الآية التالية ، كالخوف ونقص الأموال والأنفس والثمرات ، فاحتمال ذلك كله فى ثبات وفى غير تراجع هو وجه الصبر السلبى ولذلك فهو اذا وقف عند هذا الحد فلا يكون صبرا كاملا

وقد يختلط بالاستسلام ومن هنــا يأتى الوجه الآخر الذى يؤلف مع الثبات فضيلة الصبر وذلك هى المثابرة بمعنى مواصلة الانسان لمـا بدأ به الى أن يتحقق فليس يكفى الانسان أن يقف ــ أى يثبت ــ بل ينبغى عليه أن يثابر على ما بدأ به لكى يتقــدم .

هذا الصبر بمفهومه العام هو الذى دعى اليه جماعة المؤمنين ثم أضيف ســلاح آخر خاص بالمؤمنين ليستعينوا به فى وجه ما يعترضهم من مشاق وصعاب وهو « الصــلاة » باعتبارها الوسيلة الكبرى للاقتراب من الله والاستعانة به على تحمل الاعباء التى يفرضها الصبر « اياك نعبد واياك نستعين » .

« ان الله مع الصابرين »

وهذا وعد الله سبحانه وتعالى للصابرين ان يــكون معهم اى فى عونهم لتحقيق ما يرجــون تحقيقه من اغراض طيبة خيرة بطبيعة الحال وذلك مفهوم بالبديهة فالله طيب لا يقبل الا الطيب والله خير لا يقبل الا ما هو خير فهو ليس مع مطلق الصابرين وانما الصابرين المصلين .

« ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله أموات بل احياء ولكن لا تشعرون » .

من ضروب الاعجاز البلاغية ان يبدأ القــرآن بالذروة ثم منهــا الى الســفح لأنه اذا ثبتت القضية بالنسبة للأعلى فثبوتها على الأدنى والأقل يصبح من باب أولى فسوف تحدثنا الآية التالية عن ضروب من المكاره ، على المؤمن أن يصبر عليها فبدأ القرآن الكريم بأعلى صنوف المكاره وهو الموت فالكائن البشرى بحكم الطبيعة التى أودعها الله فيه ليس عنده مصيبة تعلو على مصيبة الموت فهو لا يكره شيئا فى الدنيا كراهيته للموت ولا لوم عليه فى ذلك أو تثريب فما دام الله قد منحنا الحياة فذا هو الدليل على ان الحياة خير فمن الطبيعى جدا أن نحزن لفقدان هذا الخير بالموت ، ومن هنــا جاء القرآن الكريم يؤكد لنــا ان الموت فى سبيل الله ليس موتا من نوع الموت المكروه وانما هو استمرار للحياة وهذا مشاهد وملموس فما أكثر ملايين الملايين من البشر الذين ماتوا ولانعرف عنهم شيئا قل أو كثر ، حيث تعرف كل شىء عمن ماتوا فى ســبيل الله وبخاصة من ماتوا فى سبيل الدعوة الاسلامية ابتداء من عهد الرسول حتى اليــوم ويجب أن تفسر « فى ســبيل الله » بمعناها الواسع فالله هو الحق فكل من قتــل فى سبيل الحق فهو من الاحياء والله هو العدل فكل من قتل فى ســبيل العدل فهو من الاحياء وهكذا شريطة أن يكون الحق أو العدل مما يعتبره الله كذلك .

حياة نؤمن بهـا ولكنا نجهل كيفيتها :

وهذا النوع من الحيــاة مما أشرنا اليه فيما سبق باعتباره نوعا من كل من قتــل فى ســبيل الله بعد موته انما سقناه باعتباره شاهدا محسوسا ملموسا ولكن الحيــاة التى تحدثنــا عنهــا الآية هو شىء غير ذلك وفوق ذلك فقد زادنا الله تفصيلا عنها فى آية أخرى .

« ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل احياء عند ربهم يرزقون » الآيات ! .

فدل ذلك على أن أرواح من قتلوا فى سبيل الله موجودة تمارس ألوان الحيــاة من رزق وفرح واستبشار .. الخ . فيجب أن نؤمن ايمانا غيبيا بأنهم أحياء عند ربهم بكيفية مجهولة كسائر امور الغيبية .

« ولكن لا تشعرون »

وهذا ما يؤكده القرآن بنفى استطاعة مشاعرنا ادراك هذا الأمر فلزم الوقوف عند حد القرآن فنؤمن بأن من قتل فى سبيل الله لم يمت ولكنه حى دون أن نشعر أو ندرك الكيفية .

« ولنبلونكم بشىء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات » .

ولنبلونكم : اى لنختبرنكم ونمتحنكم ، بعد ان بدأ القرآن الكريم بالتحدث عن ذروة المكروه الذى يعرض للمؤمن وهو الموت وبين أن هذا الموت اذا كان نتيجة القتل فى سبيل الله فهو الحياة التى لا تطاولها حياة ، ومن ثم فجدير بالمؤمن ان لا يجزع بحال من القتل فى سبيل الله ، ومن هنا كان المقاتل فى سبيل الله يقول احيانا وهو يلفظ انفاسه : « وعجلت اليك رب لترضى » بعد أن بين القرآن الكريم هذه الصورة انتقل الى تعداد بعض المحن الأخرى التى يتعرض لها المؤمن كأى انسان آخر من عنت الدنيا وشرورها فتكون آية المؤمن انه اذا حلت به هذه البلايا صبر ولم يجزع وزادته ايمانا بالله فاسترجع (انا لله وانا اليه راجعون) وبهذا يكون المؤمن قد اجتاز امتحانه بنجاح واستحق المثوبة التى وعده الله بها « وبشر الصابرين » اما نوع هذه المحن التى قد تعرض للمؤمن كلها او بعضها فهى :

— الخوف .
— الجوع .
— نقص المال .
— نقص الانفس .
— نقص الثمرات .

والخوف غريزة انسانية ومن لا يعرف الخوف لا يكون انسانا سويا ، وفارق ما بين المؤمن وغير المؤمن ، انه بالرغم من توفر دواعى الخوف واحساس المؤمن بالخوف فعلا فان ذلك لا يجعله ينكص على عقبيه او يتردد فى فعل الواجب فالخوف من وقوع القتال مثلا لا يجعل المؤمن يقبل ما لا ينبغى عليه أن يقبله اما غير المؤمن فهو لا يكاد يشعر بشىء من الخوف حتى يجبن فيتراجع أو يهرب او يعدل عن عمل ما كان ينبغى عليه ان يعمله .

فليفهم المؤمن هذا المعنى بكل دقة وانه لا عيب فى أن يحس بالخوف فهذه هى الطبيعة البشرية ولكن هذا الخوف لا ينبغى بحال ان يثنيه عن عمل الواجب بعد ان يأخذ للامر عدته ويحكم التدبير ما استطاع تاركا النتيجة بعد ذلك لله .

(والجوع) هو بعض المحن التى تعرض للمؤمن وغير المؤمن ويكون فارق ما بين الاثنين ان المؤمن اذا جاع لم يفقد صوابه فيبيع ايمانه ومبادئه وقيمه فى سبيل لقمة عاجلة وانما يتذرع بالصبر ولا يفقد الأمل فى « ان بعد العسر يسرا » . اما غير المؤمن فانه لا يكاد يرى شبح الجوع يتراءى عن بعد او حتى على سبيل الوهم حتى ينتابه الجزع ويفقد اتزانه . ونقص الأموال هو سمة المؤمنين الأساسية ، وهذا لا يعنى أن لا يكون كثير المال فقد وجد بين أقرب المقربين الى رسول الله من كانوا كثيرى المال مثل عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف ، وكثرة المال هى ابتلاء من نوع آخر وقد اجتاز عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف هذا النوع من الابتلاء بنجاح ولكن الاغلب والاعم أن يكون المؤمن قليل المال وغاية مبتغاه أن يكون مستور الحال ذلك أن الدنيا لا تفتح و لاتعطى الا من اقبل عليها وعبدها فضحى بكل القيم والمبادىء ، ومن هنا كان اليهود على سبيل المثال من اغنى الأغنياء لأنهم لا يتورعون عن ارتكاب اى دنية فى سبيل المال ، وقد كان المسلمون الأوائل حول رسول الله ممن خلفوا اموالهم فى مكة ليهاجروا بدينهم الى المدينة مع رسول الله وهكذا نقصت اموالهم وما كانوا يحصلون عليه من ثمرات كل شىء ، ذلك بالنسبة للمهاجرين ، اما بالنسبة للانصار اى سكان المدينة فقد كان المال فى يد اليهود وحلفائهم من المنافقين .

النقص فى الأنفس :

كان من المحن التى ابتلى بهــا المؤمنون اول ما قدموا الى المدينة انها كانت ارض وباء وحمى مما جعل البعض يموت ، وبعضا آخر يمرض حتى دعا رسول الله ربه فحسن مناخها واعقب ذلك ما وقع من الغزوات التى كان يسقط فيها بعض الشهداء .

الى ابد الآبدين :

وهذا الذى خوطب به المؤمنون حول رسول الله هو ككل خطاب فى القرآن موجه الى المؤمنين المجاهدين فى كل زمان ومكان وقد كانت هذه الآية الكريمة هى سلوتى وسلوة سائر المجاهدين وستظل كذلك الى ابد الآبدين فعلى كل مؤمن ان يعد نفسه للجهاد فى سبيل الله وان يوطد نفسه على احتمال الخوف والجوع والنقص فى المــال والانفس والثمرات .

« وبشر الصابرين »

وجزاء الصبر على هذه « المكاره » البشرى بتحقيق المراد والمقصود فى الدنيا فى اغلب الأحوال وفى الاخــرة فى كل الأحوال ففى الدنيــا يظفر الصابر دائما بأن يرى ما صبر من اجل تحقيقه سواء بالنسبة لنفسه او باعتباره واحــدا فى مجموعة وقد شهد المؤمنون الذين كانوا حول رسول الله وكانوا اول من خوطب بهذه الاية البشرى التى وعد الله بها الصابرين عنــدما انتصر الاسلام وعز وساد .

قال الله تعالى « واخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب » .

ما الذى يعنيه الابتلاء ؟

والقرآن الكريم ملىء بمثل هذه الاية الكريمة التى تتحدث عن الابتلاء والذى يعنى الاختبــار والمفسرون متفقون على صرف الكلمة عن معناها الظاهر فالله سبحانه وتعالى يعلم من احوال عبــاده كل شىء .

وعندنا ان كل ما يقوله القرآن للمؤمنين اياكانت الالفاظ المستعملة قد اريد به خير المؤمنين انفسهم بالتهذيب والتدريب على صالح الاعمال والحث عليها مما جعل المسلمين الاوائل نجوم الدنيا واعلامها وهو ما يكون من نصيب اى مؤمن يتخلق بخلق القرآن ويتادب بادبه ويزاول توجيهــاته ومن بينها هــذه الاية الكريمة التى حددت ضروب المكاره التى قد يتعرض لها المؤمن فاذا اجتازها بنجاح فبشرى له وقد بينت الاية التالية علامة الصابرين الناجحين .

(الذين اذا اصابتهم مصيبة قالوا انا لله وانا اليه راجعون) .

فى هذه الاية الكريمة يبين الله عز وجل سمة المؤمن الذى اجتاز الامتحان بنجاح حيث لا يقف فقط عند حد تلقى مختلف الضربات ، فان ضربات القدر ونوائبه تحل بالمؤمن كما تنزل بغير المؤمن ولكن المؤمن اذا نزلت به مصيبة (مكروه) ذكر الله على الفور وعلم ان كل شىء مقدر على الانسان وان ما قد نكرهه اليوم ونتصوره كارثة قد يكون هو مصدرا لخير كبير وهو على كل حال ســوف يوفى للمؤمن يوم القيامة اجر صبره واحتسابه ومن هنا كان المؤمن الصابر يبادر الى ذكر الله معتقدا ان اليه مرجع الأمور كلها « انا لله وانا اليه راجعون » كلمة عظيمة عندما يتلفظ بها اللسان تصديقا لمــا ينطوى عليه القلب « انا لله » اى ما نحن الا بعض خلق الله يتصرف فينا كيف شاء حيث شاء وانى شــاء ويبقى بعــد ذلك متفضلا علينا ، نعمه لا تعد ولا تحصى ، حتى الابتلاء نفسه ليس الا نعمة اذ وعدنا بالمكافاة عليه اذا عرفنا كيف نصبر ، روى مســلم عن

رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله : « ما من عبد اصابته مصيبة فيقول انا لله وانا اليه راجعون اللهم آجرني ، الا آجره الله في مصيبته واخلف له خيرا منها » .

فانظر يا رعاك الله الى هذه العبارة ما أروعها وانظر كيف اصبح الناس يرددونها على سبيل العادة دون ان يتدبروا كيف انها تلخص الايمان كله .

« أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون » .

جزاء الصابرين المبشرين :

— عليهم صلوات من ربهم .
— ورحمة .
— وأولئك هم المهتدون .

وصلاتنا نحن المخلوقين الى الله هي دعاؤه والتوجه اليه بالعبادة اما صلاة الله على عباده فالاكثرون على انها الرحمة والمغفرة .

أما نحن فنميل الى ترك صلوات الله على عباده الصابرين مطلقة من اى معنى محدد الا ما تشيعه الكلمة في النفس من انها اعظم درجات التكريم والحظوة والمقامات العالية التى لا يرقى اليها الا الصابرون واقرأوا ان شئتم « انما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب » وكذلك الشأن بالنسبة لاستعمال كلمة « الرحمة » في هذا الموطن ووصف الصابرين بأنهم هم المهتدون فهذه التعبيرات في تواليها ونسقها ما يقلل من جلالها اذا حاول الانسان ان يوجه مدلولها لهذا المعنى أو ذاك وحسب الانسان ان يكررها « اولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة واولئك هم المهتدون » .

دفع شبهة :

وأريد قبل أن أفرغ من آيات الصبر أن ادفع وهما يقع فيه الكثيرون عندما يتصورون ان الحزن والبكاء عند وقوع بعض المصائب كموت اب أو أم . الخ شيء مكروه واقرب الى المعصية وهو على كل حال ينافى الصبر ، فكما قلنا عن الخوف انه غريزة جبلية في طبع الانسان وان الشجاع ليس هو المجرد بطبيعته من الخوف فلو صح هذا لما كانت الشجاعة فضيلة وانما تبدأ الشجاعة حيث يحس الانسان « بشيء من الخوف » ولكنه مع ذلك يخوض القتال ويثبت فيه ولا يفكر في التراجع أبدا فكذلك الشأن بالنسبة للحزن فهو تأثر لا يمكن الفكاك منه في بعض المواقف شأنه في ذلك شأن الفرح أما البكاء بمعنى انحدار الدموع من العينين فظاهرة عضوية لا قبل للانسان بدفعها ومن هنا فالحزن على فقد عزيز وذرف الدموع لا ينافى الصبر اذا لم يكن لهذا الحزن أو البكاء اى اثر في ايمان الانسان بأنه « انا لله وانا اليه راجعون » .

تدمع العين ويحزن القلب :

روى الشيخان من حديث أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بكى يوم وفاة ابنه ابراهيم فلما روجع في ذلك اخبر انها الرحمة ثم قال : « ان العين لتدمع وان القلب ليجزع ولا نقول الا ما يرضى ربنا وانا على فراقك يا ابراهيم لمحزونون » .

فلعل الذين يلخصون الرجولة في عدم ذرف الدموع يدركون الآن ان ذلك ليس من الرجولة في شيء وانما هو الى التحجر والقسوة أقرب وان الدموع عند فراق الأحبة بالموت هو من قبيل الرحمة التى ان نزعت من قلب انسان فقد انسانيته .

فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ

« ان الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت او اعتمر فلا جناح عليه ان يطوف بهما ومن تطوع خيرا فان الله شاكر عليم » .

ادى سياق الحديث عن القبلة وتحويلها الى مكة الى لفت انظار المسلمين الى ما سوف يلقونه من عنت سواء من مشركى مكة او من اهل الكتاب ودعاهم الى الصبر ومن قبل تحدثت الآيات عن بناء سيدنا ابراهيم للكعبة واشارت الى مناسك الحج ، ومن بين هذه المناسك السعى بين الصفا والمروة وهما جبلان من جبال مكة بالقرب من الكعبة يبعدان عن بعضهما مسافة ٧٦٠ ذراعا ونصف وجاء فى حديث بناء الكعبة ان السيدة هاجر عندما تركها سيدنا ابراهيم هى وابنها اسماعيل راحت تبحث عن الماء فيما حولها فارتقت قمة الصفا وبحثت عن الماء فلم تجد ولكنها رات على البعد قمة « المروة » فنزلت من فوق الصفا وهرولت الى المروة وعندما تلفتت من فوق قمته لم تجد ماء ولكنها رات الصفا فعاودها الأمل فى ان تعثر على الماء فهبطت من المروة وسعت نحو الصفا وظلت تسعى بين الصفا والمروة سبعة اشواط حتى هبط جبريل عليه السلام وفجر لها عين زمزم وسوف نثبت نص الحديث الذى يشير الى هذه الواقعة .

وقد حدث فى الجاهلية ان وضعوا صنمين (اساف ونائلة) احدهما فوق الصفا والثانى فوق المروة وكانت طائفة من المشركين يسعون بين الصفا والمروة فلما جاء الاسلام تحرج المسلمون من السعى بين الصفا والمروة ، فجاءت هذه الاية الكريمة لترفع عن المؤمنين هذا الحرج ولتبين لهم ان الصفا والمروة من شعائر الله مثلهما فى ذلك مثل باقى شعائر الحج الأخرى ، وشعائر جمع شعيرة او شعار وهو ما يطلق على مكان او شىء يشعر بأمر له شأن واطلقت الكلمة على معالم الحج ومواضع النسك ـ جاء فى الصحاح :

« الشعائر اعمال الحج وكل ما جعل علما لطاعته عز وجل » .

اما ابن كثير فيختصر الطريق بقوله :

من شعائر الله اى مما شرع الله تعالى ، وطبقا لهذه الآية : فمن قصد مكة حاجا او معتمرا والحج هو هذه الفريضة الاسلامية على كل من استطاع اليه سبيلا وهو موقوت بالتاسع من ذى الحجة

حيث يجب الوقوف بعرفة الى آخر مناسك الحج . اما العمرة فهى زيارة مكة بقصد النسك فى اى وقت من أوقات السنة .

« فلا جناح عليه ان يطوف بهما »

اى فلا اثم عليه فى أن يسعى بينهما . وقد ادى التعبير برفع الحرج عمن يسعى بين الصفا والمروة الى اختلاف الائمة حول السعى بين الصفا والمروة فهو عند مالك والشافعى ركن وعند الحنفية واجب .

وروى عن الامام احمد انه يراه مندوبا ، وكل قد استند فى رايه الى ما صح عنده فالثابت ان رسول الله قال فى حجة الوداع « خذوا عنى مناسككم » وثابت ايضا انه سعى بين الصفا والمروة فاصبح السعى مسألة مؤكدة بالسنة والتواتر وما جرى عليه العمل منذ ايام رسول الله حتى اليوم .

فائدة :

وتنطوى هذه الآية على فائدة أو بالأحرى قاعدة وهى أن لا يتسرع انسان فيحاول ان يفسر القرآن بما يصح فى فهمه هو ويبنى على ذلك احكاما فى شئون الدين ، قال الامام أحمد : ان عروة روى عن عائشة قالت : « ارايت قول الله تعالى (ان الصفا والمروة من شعائر الله .. الآية) .

قلت . فوالله ما على احد جناح ان لا يتطوف بهما فقالت عائشة : بئسما قلت يا ابن اختى انها لو كانت على ما أولتها عليه كانت « فلا جناح عليه ان لا يطوف بهما » .

والحديث بطوله ورد فى الصحيحين كذلك والذى يعنينا هنا هو شرح السيدة عائشة لمدلول الآية فعبارة « فلا جناح عليه ان يطوف بهما » هى لرفع الحرج الذى كان يحس به فريق من المسلمين تصوروا منهم أن السعى هو من اعمال الجاهلية فجاءت هذه الآية لتقرر ان الصفا والمروة من شعائر الله فاذا اضيف الى ذلك فعل رسول الله من انه سعى ، فقد حسمت القضية .

« ومن تطوع خيرا فان الله شاكر عليم » .

التطوع : هو العمل الاختيارى اى أن من اقدم على الطاعة والتعبد لله عن طواعية واختيار ، فان الله شاكر عليم .

يثيب على القليل بالكثير عليم بقدر الجزاء وبكل عمل اريد به التقرب اليه « ان الله لا يظلم مثقال ذرة وان تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه اجرا عظيما » .

حديث هاجر :

والآن فلنثبت نص الجزء من الحديث الذى يشير الى سعى هاجر بين الصفا والمروة (قال ابن عباس قال النبى صلى الله عليه وسلم : يرحم الله ام اسماعيل لو تركت زمزم — أو قال لو لم تغرف من الماء لكانت زمزم عينا معينا) .

وارضعت ولدها فقال لها الملك : لا تخافوا الضيعة فان ها هنا بيت الله ، يبنيه هذا الغلام وأبوه وأن الله لا يضيع اهله . وكان البيت مرتفعا من الاراضى كالرابية تاتيه السيول فتاخذ عن يمينه وشماله فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من جرهم (أو أهل بيت من جرهم) مقبلين

من طريق كداء . فنزلوا فى اسفل مكة فراوا طيراعائفا فقالوا : ان هذا الطير ليدور على ماء . لعهدنا بهذا الوادى وما فيه ماء . فأرسلوا جريا او جريين فاذا هم بالماء فأخبروهم بالماء فأقبلوا (قال) وأم اسماعيل عند الماء فقالوا : اتأذنين لنا ان ننزل عندك فقالت : نعم ولكن لا حق لكم فى الماء . قالوا نعم ، (قال ابن عباس قال النبى صلى الله عليه وسلم) فألفى ذلك أم اسماعيل وهى تحب الأنس . فنزلوا وارسلوا الى اهليهم فنزلوا معهم حتى اذا كان بها اهل ابيات منهم وشب الغلام (اسماعيل) وتعلم العربية منهم وانفسهم واعجبهم حين شب . فلما ادرك زوجوه امراة منهم وماتت أم « اسماعيل » فجاء ابراهيم بعد ما تزوج اسماعيل يطالع تركته فلم يجد اسماعيل . فسأل امراته عنه . فقالت خرج يبتغى لنا ثم سألها عن عيشهم وهيئتهم فقالت نحن بشر . نحن فى ضيق وشدة فشكت اليه . قال اذا جاء زوجك فاقرئى عليه السلام وقولى له يغير عتبة بابه — فلما جاء اسماعيل كأنه آنس شيئا فقال : هل جاءكم من احد ؟ قالت : نعم جاءنا شيخ كذا وكذا فسألنا عنك فأخبرته . وسألنى كيف عيشتنا فأخبرته انا فى جهد وشدة . قال : فهل اوصاك بشىء ؟ قالت : نعم . امرنى ان اقرا عليك السلام ويقول غير عتبة بابك . قال ذلك ابى وقد امرنى ان افارقك الحقى بأهلك . فطلقها وتزوج أخرى . فلبث عنهم ابراهيم ما شاء الله ثم اتاهم بعد فلم يجده . فدخل على امراته فسألها عنه فقالت خرج يبتغى لنا . قال كيف انتم وسألها عن عيشهم وهيئتهم . فقالت نحن بخير وسعة واثنت على الله . فقال ما طعامكم . قالت اللحم . قال فما شرابكم . قالت الماء . قال اللهم بارك لهم فى اللحم والماء . (قال النبى صلى الله عليه وسلم ولم يكن لهم يومئذ حب ولو كان لهم دعا لهم فيه . قال فهما لا يخلو عليهما احد بغير مكة الا لم يوافقاه) قال فاذا جاء زوجك فاقرئى عليه السلام ومريه يثبت عتبة بابه . فلما جاء اسماعيل قال هل أتاكم من احد قالت نعم ، اتانا شيخ حسن الهيئة — واثنت عليه فسألنى عنك فأخبرته فسألنى كيف عيشتنا ، فأخبرته انا بخير . قال ما أوصاك بشىء . قالت نعم هو يقرا عليك السلام ويأمرك ان تثبت عتبة بابك . قال ذلك ابى وانت العتبة امرنى ان امسكك ثم لبث عنهم ما شاء الله . ثم جاء بعد ذلك واسماعيل يبرى نباله قريبا من زمزم ، فلما رآه قام اليه فصنع كما يصنع الوالد بالولد والولد بالوالد . ثم قال يا اسماعيل . ان الله امرنى بأمر ، قال فاصنع ما أمرك ربك ، قال وتعيننى . قال واعينك قال فان الله امرنى ان ابنى ها هنا بيتا — واشار على اكمة مرتفعة على ما حولها قال فعند ذلك رفعا القواعد من البيت . فجعل اسماعيل يأتى بالحجارة وابراهيم يبنى حتى اذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر (يعنى المقام) فوضعه له فقام عليه وهو يبنى واسماعيل يناوله الحجارة وهما يقولان « ربنا تقبل منا انك انت السميع العليم » قال : فجعلا يبنيان حتى يدورا حول البيت وهما يقولان « ربنا تقبل منا انك انت السميع العليم » انتهى حديث البخارى.

« ان الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس فى الكتاب اولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون الا الذين تابوا واصلحوا وبينوا فأولئك اتوب عليهم وانا التواب الرحيم » .

فهم المخاطبون بهذه الآية عند نزولها ان المقصود بها هم اليهود والنصارى فقد سبقت الكتب التى انزلت عليهم وعلى راسها التوراة والانجيل والقرآن الكريم فى تبيان الحجج والبراهين الدالة على وحدانية الله وانه رحمة بالبشر يرسل اليهم الأنبياء والرسل ليهدوهم سواء السبيل ، وقد ذكر لنا القرآن الكريم وقوله الحق ان صفة النبى صلى الله عليه وسلم

كانت موجودة لديهم فى التوراة والأنجيل وقدكانوا قبل بعثة النبى صلى الله عليه وسلم يرددون هذه الصفات ويبشرون بقرب بعثتــه وأنهم سيحاربون العرب تحت لوائه وينتصرون على ما حكاه القرآن الكريم ومر بنا فيما سبق من آيات ، فلما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بالفعل نكصوا على أعقابهم وانكروا ما كانوا يقولون من الحق ، فنزلت هذه الآية لتندد بهم فيما فعلوه وتحذرهم وتنذرهم بأن فعل ذلك يؤدى الى استحقاق لعنة الله (اى يطردهم من رحمته) ويلعنهم اللاعنون وقيل ان اللاعنين هم الملائكة والنــاس ودواب الأرض وقيل ان هذه اللعنة تحل بهم يوم القيامة وعندنا ان لا محل لهذا التقسيم او اختصاص اجناس معينة فان اللعنة تشمل كل ذلك فمتى لعن الله شيئا فقد لعنته السموات والأرض والانس والجن والملائكة وكل ما فى الكون من كائنات فى الحاضر والمستقبل اعاذنا الله من ان نطرد من رحمته .

الآية عــامة :

واذا كانت الاية الكريمة قد نزلت اول ما نزلت بمناسبة ما فعله اليهود والنصارى المعــاصرون لرسول الله فقد جاءت شأن آيات القرآن عامة تنطبق على كل زمان ومكان ولذلك فقد اعجبنا قول أشياخنا فى تفسير الوسيط : « فكل من أتاه الله علما وجب عليه ان يبذله للمحتاجين اليه ولا يكتمه والا كان آثما » .

وقد روى ابن ماجة فى سننه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « من سئل عن علم يعلمه فكتمه الجمه الله يوم القيامة بلجام من نــار » .

فاشاعة العلم الذى يصفه الله بـ « البينات والهدى » ويصفه بعد ذلك بأنه « بينه للنــاس فى الكتاب » وجنس الكتاب هنا يعنى التوراة والأنجيل والقرآن ولكننا كمسلمين نلتزم بكتابنا القرآن وقد احاط القرآن بكل شىء على سبيل الاجمال والاشارة .

« الا الذين تابوا واصلحوا وبينوا فأولئك اتوب عليهم وانا التواب الرحيم » .

وكشــأن الله الرحمن الرحيم فى كل آيــات التحذير والانذار ، فلا يكاد ينذر ويحذر من عاقبة غضبه حتى يبادر بفتح باب الرحمة والمغفرة على مصراعيه وانه لا يصد عنه احدا من عباده ، ولمــا كان الوعيد هنا مخيفا تنخلع القلوب من هوله (يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون) .

فقد جاءت البشرى للتائبين بنفس القــوة (فأولئك اتوب عليهم وانا التواب الرحيم) غير ان هذه الرحمة الســابغة من نصيب الذين ــ تابوا ــ اى رجعوا عن الذنب .

ــ واصلحوا ــ اى اصلحوا ما افسدوه بأثمهم قدر استطاعتهم وان يعوضوا ما لم يستطيعوا اصــلاحه .

ــ وبينوا ــ اى يبينوا ما ارتكبوه من خطأ وما عملوه لاصلاحه فان ذلك فقــط هو آية التوبة والعهد الذى يقطعه المذنب على نفسه أن لا يعود لارتكاب ما تاب عنه .

« ان الذين كفروا وماتوا وهم كفار اولئك عليهم لعنــة الله والملائكة والنــاس اجمعين خالدين فيهــا لا يخفف عنهم العــذاب ولا هم ينظرون » .

بعد أن استثنى القرآن الكريم من تاب وصدق التوبة ممن كتموا بعض الكتاب بأن رجعوا عن خطيئتهم واصلحوا ما افسدوه وبينوا ما ارتكبوه عاد ليشدد على من يكتم الحق ولكن بصيغة

عامة شاملة يدخل فيها كتمان ما أنزل الله الذي هو عمل بعض اهل الكتاب او الذين يعبدون الأصنام وغير ذلك من صور الكفر فعاد القرآن يشدد ويغلظ على هذا النوع الذى لم يتب اى لم يرجع عن كفره وظل مصرا عليه حتى مات ، هذا الصنف :

— عليهم لعنة الله والملائكة والناس اجمعين .

— لا يخفف عنهم العذاب .

— ولاهم ينظرون — اى لايؤخرون ساعة بغير عذاب — مأخوذ من الأنظار بمعنى التأخير .

« والناس اجمعين » .

اجهد بعض المفسرين انفسهم فى الوقوف امام عبارة — والناس اجمعين — فقالوا كيف يتاتى ذلك وقوم الكافرين لا يلعنونهم ؟ مع أن السياق جد واضح من انهم متى استحقوا لعنة الله (اى طردوا من رحمة الله) فلا يعود هناك فى الدنيا مكان يسعهم ويصبحون بالتالى ملعونين من كل شىء من الملائكة والجن والأنس وشتى الكائنات ولا يلزم أن يكون ذلك بالقول وانما بلسان الحال . « وان من شىء الا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم » .

« والهكم اله واحد لا اله الا هو الرحمن الرحيم »

ولا يكاد القرآن الكريم يفرغ من معالجة اى مسالة من المسائل بما تستحقه من التوضيح حتى يعود لذكر قضية القضايا ومحور القرآن وجوهر الرسالة المحمدية وهى توحيد الالوهية وتنزيهها عن الشرك .

« والهكم اله واحد » وقد انحى الامام محمد عبده باللائمة على قول من قال ان هذه الآية نزلت ردا على قول المشركين لسيدنا محمد « انسب لنا ربك » على اساس ان التوحيد هو لب الدعوة الاسلامية وليس يتوقف على سؤال يسأله المشركون ، ونحن مع موافقتنا لهذا الراى ولكننا لا نوافق على الأدلة العقلية التى كان يكثر من استخدامها لرد امثال هذه المسائل فنحن نتلقى ديننا عن طريق العقل والنقل معا فعلى من يريد ان يبطل نقلا ان يفعل ذلك عن طريق نقل افضل او على الاقل نقل مماثل أما الاكتفاء باستعمال الحجج العقلية وهى ذاتية عند كل شخص فهو مالا نوافق عليه ، ورواية ان المشركين قالوا لسيدنا محمد «انسب لنا ربك» ليست مستحيلة،وليس هناك ما يمنع ان يكونوا قالوها بعد ذهاب سيدنا محمد الى المدينة ، ان من التعنت نفى ذلك لمجرد انه لا يتفق وتصورنا ، والمهم اننا نتفق على ان لا تلازم بين هذه الآية التى تتردد فى سور القرآن وبين أ ن يقال نزلت ردا على قول مشركى قريش « انسب لنا ربك » فان الأجدر ان يكون الرد على هذا القول هو سورة الاخلاص « قل هو الله احد . الله الصمد . لم يلد . ولم يولد . ولم يكن له كفوا احد » .

ذلك أن السؤال فى النسب يحمل معنى السؤال عن الآباء والأجداد فنزلت سورة الاخلاص تنفى عنه انه كالبشر يولد ويلد ولعل الذين قالوا ان قريشا قالت لسيدنا محمد « انسب لنا ربك » قد نقلوها من ذلك الموضع الى هنا .

« لا اله الا هو »

ويرى بعض اهل التوحيد ان عقيدة التوحيد لا تتمثل اقوى تمثيل الا باستعمال هذه الصيغة التى يتحقق فيها (النفى والاثبات) اثبات ان الله واحد وانه لا اله غيره فنفى الالوهية عن سواه تأكيد لوحدانيته .

العلم المادى انتهى الى التوحيد :

ومن أراد أن يعرف أن الدين السماوى يجب أن يعلو على العلم المادى فسيجد مصداق ذلك فى قضية وحدانية الله فقد أكد القرآن هذه الوحدة وجلاها وأعلاها فليس فى الكون سوى القــوة الالهية الواحدة هى التى خلقت وهى التى تحيى، وتميت ، ثم انحرف العلم المادى الحديث فراح يتحدث عن هذا الكون وكيف انه تكون من المادة والطاقة اى انه أرجع الخلق والتكوين الى قوتين متغايرتين هما المادة والطاقة حيث انتهت آخــر معطيات العلم المادى الى ان الطاقة ليست سوى مادة متفجرة وان المادة ليست سوى طاقة مجمدة اى ان العلم المادى البحت انتهى الى ان مصدر القوة « واحد » ونحن نقول : ان العبرة هى بما اوحى به الى سيدنا محمد وليس بالعلم الا عندما يدعم ما جاء به الوحى اما عندما يتعارضان فالأصل والحق هو ما قال به الوحى .

« الرحمن الرحيم »

صيغتان من صيغ اللغة العربية يعنيان المبالغة فى الرحمة ولكن التعبير بلفظ « الرحمن » لا يطلق الا على الله سبحانه وتعالى ولكن صفة «رحيم» تسير طبق الاشتقاق العادى من الرحمة ولذلك يمكن أن يوصف الانسان بأنه رحيم .

ولقد اختار الله سبحانه وتعالى ان يقــرن الى وحدانيته صفته بأنه رحمن رحيم ولقد افضنا فى هذا المعنى عند تفسيرنا لفاتحة الكتاب ..

آية كونيـــة :

« ان فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بمــا ينفــع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون » .

مفردات :

السموات : جمع ســماء والسماء هى كل ما علا الانسان .

ولقد ثبت الآن (ولا اقول علميا) بل بالتجربة المحسوسة والمشاهدة بالعين المجردة ، ان ما نراه فوقنا ليس الا « السماء الدنيا » وان رواد الفضاء لا يكادون يخرجون من الغلاف الأرضى حتى يرون عالما آخر غير مضاء بأشعة الشمس وحيث تبدو لهم الأرض كما يبدو لنا القمر فى الليل .

وليس هذا العالم الذى لا يزالون يتجولون فى قشرته الا عالم الشمس والتى تمثل بكل كواكبها وحدة من وحدات المجرة التى هى بدورها وحدة من عديد المجرات التى لا يعلم حدودها الا الله ، وهكذا لم يعد الأمر أمر هذه السماء الدنيا التى نقف عند حافتها وانما يمتد الكون الى ما لا ندرك ولا نعلم ، فهى سماوات وليست سماء واحدة . « واختلاف الليل والنهار »

يتسع هذا التعبير لمحيط من المعانى ابتداء من تعاقب الليل والنهار حتى اختلافهما فى الطــول والقصر من فصل الى فصل ، بل من يوم الى يوم وغــير ذلك من عديد المعانى التى يتســع لها التعبير .

وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿١٦٧﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا

(والفلك التى تجرى فى البحر) : الفلك هى السفينة . وقد ورد هذا اللفظ فى القرآن بما يفيد انه جمع وانه مفرد وانه مذكر وانه مؤنث كما هو الحال فى هذه الآية التى نحن بصددها (التى تجرى) وورد اللفظ مذكرا مفردا « فى الفلك المشحون » . وجاء اللفظ جمعا « حتى اذا كنتم فى الفلك وجرين بهم » فانظر هذا الاختصاص الذى اختص به هذا اللفظ ، وتأمل كيف تنوعت بالفعل اصناف ماخرات البحار فمن مراكب شراعية وسفن بخارية وبواخر عابرات للمحيط تشبه ان تكون مدنا عائمة وبوارج ومدمرات وغواصات فلا يستطيع الانسان الا ان يسبح بعظمة الله وهو يستعمل فى القرآن لفظا ينفرد من بين سائر الالفاظ ليتسع لكل ماكان وسوف يكون من مراكب تجوب البحار .

(بما ينفع الناس) : اذا علمنا ان مياه البحار والمحيطات تؤلف حوالى ثلثى الكرة الأرضية قدرنا على الفور انه لا غنى للحضارة والمدنية عن استعمال البحر لنقل المتاجر من قارة الى أخرى ومن قطر الى قطر وعبر القرآن بأسلوبه المعجز عن هذه الظاهرة الانسانية بقوله : « بما ينفع الناس » .

لطيفة من كتب التفسير :

وقد أورد القرطبى فى تفسيره ما يمكن ان يوصف بانه « لطيفة » وهو عندما يمثل قاعدة ومبدأ فقد تحدى أحد الراغبين فى التشكيك فى قدسية القرآن وأنه وحى سماوى فقال : تقولون فى كتابكم « ما فرطنا فى الكتاب من شىء » فأين ذكر التوابل المصلحة للطعام من الملح والفلفل وغير ذلك ؟ فقيل له فى قوله « بما ينفع الناس » وقد كانت التوابل على ايام القرطبى هى أهم ما تحمله السفن وقد لا يعلم الكثيرون أن الفلفل كان يباع فى العصور الوسطى بمثل وزنه من الذهب ، فلا عجب وقد كان للفلفل كل هذه الخطورة أن يتساءل السائل اين ذكره فى القرآن ، ونحن نعلم اليوم أن الفلفل والتوابل كلها لم يعد لها هذا الخطر فى حياة البشر . ولما كان القرآن جاء لكل الأزمنة فانظر الى تعبيره الجامع المانع «بما ينفع الناس» وعلى هذا النسق يجب أن نفهم أن القرآن الكريم

قد تضمن الاشارة لكل شيء كان او هـو كائن وسوف يكون وحول كل اشارة من هذه الاشارات يمكن ان توضع مئات والوف المجلدات فى كل زمان بشتى اللغـات ثم لا تخـرج عن نطـاق هذه الاشـارة .

« وما انزل الله من السماء من ماء فاحيا به الأرض بعد موتها » .

اشارة الى المياه العذبة الهابطة من السـماء الى الأرض فتحيى كل شيء وباستطاعتنـا ان نتوسع فى فهم احياء الأرض بعد موتها الى آخر اجتهادات العلم وذلك على ضوء آية اخـرى « وجعلنا من الماء كل شيء حى » وقد بقى ان تعرف ان كل ما هو على سطح الأرض من الماء سواء على شكل انهار او عيون وبحـيرات او بحـار ومحيطات قد تكونت من هذه الميـاه الهابطة من السماء على شكل امطار فلا عجب وهذا شانها ان تكون العنصر الأساسى فى ايجاد الحياة .

« وبث فيها من كل دابة » .

الدابة : كل ما يدب على الأرض اى يمشى على الأرض ، ابتداء من اتفه الحشرات وادقهـا حتى اضخم الحيوانات التى تعرف او لا تعرف اليوم وبالأمس وفى الغد والحديث عن خلق الدواب وبثها فى الأرض عقب التحدث عن انزال المطـر يوحى بالتلازم بين الماء وانتشـار كل صـنوف الحياة ، كما يوحى اللفظ « بث » بالكثير مما لايمكن التعبير عنه الا بهذا اللفظ .

« وتصريف الرياح » اى تقليبها وتوجيههـا وتحويلها من شرقية الى غربية ومن شـمالية الى جنوبية والعكس ومن حارة الى باردة والعكس .

« والسحاب المسخر » : اى السحاب المنقاد الموجه لغاية لا يعلمها الا الله عز وجل ليهطل المطر حيث يشاء هو .

« بين السماء والأرض » : وهـو المشـاهد والملحوظ فتكون الشمس طالعة ويمر السحـاب فيحجب ضوءها ثم لا يلبث أن ينقشـع . والذين يسافرون الآن بالطائرات يرون السـماء فوقهم والسحب اسفل منهم .

« لآيات لقوم يعقلون » : كل هذه الظواهـر الطبيعية التى تشكل الكون بما فيه الحياة تنطق باجلى بيان عن وجود الخالق لكل ذلك وقدرتـه ووحدانيته .

عظمة القرآن وخلوده :

وهذه الآية التى لها شبيه ونظائر فى القرآن مما اسميه « الآيات الكونية » هى الناطقة بعظمة القرآن التى لا يحدها حد وكيف أنه لايمكن ان يكون من صنع انسان ولما كان من جاء به وجرى على لسانه قد قال لنا وهو الصادق الأمين انه من وحى رب العالمين فليس يسعنا الا ان نقول آمنا وصدقنا فاكتبنا مع الشاهدين .

احاطة الآية وشمولها :

اما موضع الاعجاز الذى لا يحده حد فهـو ان الآية الكريمة فى كلمات قليلة اشـارت الى كل مظاهر الطبيعة وما انطوت عليـه من اسرار ، ويصول العقل البشرى ويجول ويضع الفلاسفة والعلماء الوف الكتب والشروح والأبحاث وملايين الملايين من الكلمات تنتهى كلها الى ما انطوت عليه الآية من أن ظواهر الطبيعة كلها تشـهد بقـدرة الخالق ووحدانيته ، ولننظر الآن فيما اشارت له الآية الكريمة .

اولا ، عملية الخلـق التى ابدعت الســموات والأرض بكل هذه الأبعاد التى يصـــاب العقـل بالدوار اذا حاول أن يتصورها .

ثانيا : من التعميم بذكر السموات والأرض الى التخصيص بالاشارة الى بعض الظواهـــر وعلى راسها كلها ظاهـــرة الظواهـــر بالنسبة للجنس البشرى المخاطب بهذا القرآن ظاهـــرة تعـــاقب الليل والنهار ، ويتصور بعض البسطاء (السذج) انه بمجرد أن يقولوا : ان الليل والنهار ينشآن من دوران الأرض حول نفسها أمـــام الشمس وأن تفاوتهما على مدار السنة بالطول والقصر ينشأ عن دورانها حول الشمس وعن ميل محورها ، يتصور هؤلاء البسطاء والسذج أن اللغز قد انحل ولم يعد فى الأمر ما يدعو الى الانبهار بعظمة الخالق الصانع لكل هذا ، وينسون ان القضية ليست كيف يحدث الليل والنهار وانما القضية هى لماذا يحدث كل هذا ومن الذى احدثه ؟

ثالثا — وما ينطبق على ظاهرة الليل والنهار من انه لا يغض من دلالتها على قدرة صانعها أن نعرف كيف تحدث فهذا هو الشأن بالنسبة لهـــذه المراكب والسفن والبواخر التى كانت تسير يوما بقوة المجداف ثم أصـــبحت تسير بقـــوة الشراع فالبخار الناتج عن احراق الفحم فالبترول ، وغدا بالقوة النووية ، ليس يهم ذلك كله وأنها تســـير طبقا لقانون الأجسام الطافية فهذه وسائل تتبدل بمرور الزمن والمهم أن غايتها على الدوام هـــو منفعة الناس والأهم من ذلك كله من الذى أودع الطبيعة هذه القوانين التى متى اكتشفها الانسان عادت عليه بالنفـــع ، وبقى أن نلفت نظرك الى ما تضمنته هذه الاشارة الى كل ما يتصل بعلوم البحار والتجارة وصناعة السفن .

رابعا : وكانت الاشارة الرابعة الى الأمطـــار وثمة كلمة نريد ان نسوقها على ذكر الأمطار فمرة أخرى يتصـــور الماديون والملحـــدون أنهم متى فسروها فلا حاجة بهم بعد ذلك للتســـاؤل عن صانعها والأمطار عندهم تحدث نتيجة تبخر مياه المحيطات والبحيرات وكل السطوح المائية ، حتى اذا صعدت للأجواء العليا الباردة تحول البخار من جديد الى ماء .

وهذا صحيح بعد أن تكونت المحيطات بالفعل على ظهر الأرض وتوافر الماء على سطحها ولكن قبل ذلك عندما لم تكن هناك محيطات هنا . ويقول لنا الجيولوجيون أن الأمطار ظلت تهبط من السماء الى الأرض الوف الوف السنين وهكذا عدنـــــا الى نقطة البداية التى تشير لها الآية من الأمطار الهابطة من السماء هى التى أوجدت الحياة على الأرض .

خامسا — الحياة والموت والبعث وهو « فأحيابه الأرض بعد موتها » وتشير الآية فيما تشير له من ظواهر الكون الى الحياة والموت والبعث وقد يتصور البعض أن الاشارة قاصرة على الأرض والزراعة ولكن الاشارة فى تصورنا أعم واشمل وطالمـــا قرب القرآن للأذهان حقيقة البعث بعد الموت بما يحدث للنبات حيث يعود للحياة بعد أن يكون قد مات فى الظاهر ونحن نعلم اليوم ان النبات كائن حى فيه كل مظاهر الحياة من تنفس وتغذو نمو وتكاثر وموت فهو اذا كان يبعث من جديد فليس الا غر جاهـــل من ينكر البعث بالنســـبة للانسان وهو يرى الآية تتكرر أمـــام عينيه على الدوام .

ايمان المزارعين :

ومن هنا كان ايمان الفلاحين وسكان الغابات والجبال وكل من يعيشون الى جوار الطبيعة اشد الناس ايمانا بقدرة الخالق وعظمته ووحدانيته . ويؤمنون كما آمن المصريون منـــذ اقدم العصـــور بالبعث والنشور والحساب والعقاب لأنهم يرون ذلك راى العين وكيف تتحول الأرض الســـوداء

(المشققة) الجرداء الى ارض تفيض بالحياة والخضرة والثمر الذى به يحيون وكالنبات يموتون ثم يبعثون .

سادسا ـ الرياح والسحب :

وتشير الآية فى النهاية الى العاملين الفاعلين فى كل ما يجرى على سطح الكوكب الأرضى من تطورات ونعنى بهما « الرياح والسحب » وستعرض لنا آيات فى المستقبل تتضمن اشارات الى الرياح والسحب وان كانت مجملة كما هو شأن القرآن الا انها تكشف عن آخر معطيات العلم(١) وحسبنا ان نقرر الآن ان العلماء يرجعون تشكيل الكواكب الأرضى على ما هو عليه الى هذين العاملين « الرياح والسحب » .

« لآيات للموقنين » :

نصل الآن الى الغاية من هذا العرض وهو ان التأمل فى الطبيعة كفيل بأن يؤدى الى معرفة الخالق وقدرته ووحدانيته وهو ما انتهى اليه الماديون باسم العلم فراحوا يحدثوننا عن الطبيعة الواحدة القادرة على كل شىء وخالقة كل شىء ولكنهم يتحدثون عن طبيعة جامدة عمياء تعمل لغير هدف أو غاية ولو صح هذا الذى يقولون لكانت هذه الدنيا عبثا فى عبث ولما استحقت أن يحياها الانسان لانها بغير معنى ولكنا نحن المؤمنين نقول مع القائلين سبحانك « ما خلقت هذا باطلا » .

« ومن الناس من يتخذ من دون الله اندادا يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبا لله » .

« أندادا » : جمع ند وهو النظير والشبيه وتذهب البعض الى أن المقصود بالانداد هنا الأوثان ونحن نرى انذلك تخصيص بغير مخصص ، وعندنا أن الانداد هنا تعنى كل معبود سوى الله سواء كان وثنا او صنما او انسانا ، او كما يحدث فى وقتنا الحاضر حيث يعبد أقوام الدولار يقسمون به ويفعلون من اجله كل شىء ويموتون فى سبيله .

فيجب تفسير الآية على معناها الواسع والأعم فيجب افراد الله بالألوهية والربوبية وبالتالى تخصيصه بالعبادة التى تصل الى الذروة فى حب الله سبحانه وتعالى وعدم اشراك كائن من كان فى هذه الدرجة من المحبة التى تستوجب الطاعة لكل ما أمر به أو نهى عنه .

اهل الظاهر والباطن :

ويدور نقاش طويل وحاد وعنيف بمناسبة هذه الآية بين اهل الظاهر والباطن ، او بتعبير آخر بين اهل الشريعة والحقيقة ، يغالى كل من الطرفين فى تدعيم وجهة نظره ناسين ان الفضيلة كل الفضيلة تنهى عن التطرف فى كل شىء وانها وسط بين طرفين وقد سمى المسلمون امة وسطا لأن دينهم قائم على الاعتدال فى كل شىء ونتمسك بمنهاجنا وهو تجنب امثال هذه المباحث التى تفرق بين المسلمين حيث كتاب الله جاء ليوحد .

دفع مقولة خاطئة :

ولكننا نكون مقصرين فى اقدس واجب لنا وقد أخذنا على عاتقنا أن نستلهم المعانى القرآنية اذا لم ننبه لبعض الأخطاء التى يقع فيها عوام المسلمين بحسن نية ، فمن ذلك القول بأنك تلتمس عند الملوك والكبراء « الواسطة » لتتقرب اليهم بها ، ويقيمون على ذلك حاجاتهم الى « الواسطة »

---

(١) من أراد أن يشبع نهمه للمعرفة فى امثال هذه المباحث فعليه بمطالعة كتب الاستاذ جمال الدين الفندى .

لتقربهم الى الله ، فمثل هذا التصـــور يجب أن يرفض شكلا وموضوعاوان يستنكر انكارا ذلك أن الكبير لا يكون كبيرا اذا كان لا يتوصل اليه الا بواسطة ، ومقياس استشراء الفساد فى اى مجتمع لا يتجلى فى شيء قدر تجليه فى انتشـــار « الوساطة » وان صاحب الحاجة « لاتقضى حاجته الا عن طريق « وسيط » تعالى الله وتنزه عمـــا يقولون علوا كبيرا ، والقرآن كله يدور حـــول دحض هذه الفرية التى ابتدعها نفر من اتبـــاع الديانات الأخرى ممن اطلقوا على انفسهم «الكهنة» وانهم الوسطاء بين العبد وبين الرب فجـــاء القرآن الكريم يدحض هذه الفرية ويؤكد ان ليس بين العبد والرب حجاب « واذا سألك عبادى عنى فانى قريب أجيب دعوة الداع اذا دعان » .

ولكى يؤكد القرآن الكريم عدم جدوى الوساطة ضرب لنا العديد من الأمثلة فجعل ابن نوح غير صالح فرفض الله سبحانه وتعالى شفاعة سيدنا نوح من أجله ونحن نعلم مقدار حب الأب لابنـــه وكذلك كان الشأن بالنسبة لوالد ابراهيم ولزوجة لوط ولعم سيدنا محمد (ابو طالب) .

اى أنه لاينجى الانسان ولا يقربه من الله الا عمله الصالح اولا واخيرا . ولا شك ان محبة اولياء الله الصالحين هى بذاتها من الأعمال الصالحة ولكن حذار حذار من التصـــور انها من قبيـــل الواسطة البشرية لدى الحكام والرؤســـاء تنزه الله وعلا عما يقولون علوا كبيرا .

« والذين آمنوا أشد حبا لله » :

وأيا كان حب الكفـــار لأصنامهم وأوثـــانهم أو رؤسائهم فان ذلك كله لا يقارن بحب المؤمن الحق لله ذلك أن المحبة تجاوب بين المحب والمحبوب، وحب صنم أو وثن لا يضر ولا ينفع ، أو اى انسان فان مصيره الى الموت لا يمكن أن يقارن بحب الله الخالد الدائم القادر وقد وعد الله المؤمنين الذين يحبونه بأنه سيبادلهم الحب « يحبهم ويحبونه » وناهيك بحب الله وهو حب يليق بكماله ولا نعرف من كنهه الا انه سبحانه وتعالى قد شـــاء أن يستعمل ذات اللفظ « الحب » وفى المقام الذى نحن بصدده نستدل من حب الله لعبيده المؤمنين لماذا كان حبهم لله اشد من حب من يجعلون لله اندادا لان هؤلاء الاخيرين قد جعلوا موضوع حبهم « الفانى » الذى لا يملك لنفسه شيئا فضلا عن انه يضر أو ينفع ، حيث كان موضوع حب المؤمن هو « الكمال والمثل الاعلى » فمن الطبيعى ان يكون هذا هو الحب الحق وبالتالى الأشد .

« ولو يرى الذين ظلموا اذ يرون العذاب أن القوة لله جميعا وان الله شديد العذاب » والذين ظلموا هنا هى وصف لكل من جعل لله ندا يتوجه اليه بالسؤال والطلب . ويجعله محور حب العبادة الذى لا يكون الا لله وحده ، فلو شاء الله وكشف عن اعينهم الحجاب ليروا بأبصارهم راى العين ما أعد لهم من عذاب يوم القيامة لما فعلوا هـــذا الذى فعلوه ولعلموا علم اليقين أن الله « وحده » هو صاحب القوة المطلقة والقدرة التى لا حد لها وانه شديد العذاب لمن يشرك به ويجعـــل له اندادا ، ولكن شاءت حكمته التى اختص هو بها أن يمد للجاهل والعاصى والمنحرف والكافر من بنى الانسان فيبقيه على جهله وعمايته وليكون السعيد من عرف الله بقلبه واحبه بنور اليقين .

« اذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الاسباب وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرءوا منـــا كذلك يريهم الله اعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار » .

الاســـباب : جمع ســـبب وهى كلمة معروفة وشائعة وتعنى اصل الشيء الذى به كان ولكن معناها اللغوى « الحبل » ذلك أن الحبل يربط الاشياء ويوصلها ببعضها فعندما يقال « وتقطعت بهم الاسباب » أى تقطعت كل الصلات والوشائج فيما بينهم واصبحوا غرباء عن بعضهم .

كرة : اى رجعة الى الدنيا وعودة

حسرات : جمع حسرة وهى أشد درجات الندامة . والمعنى العام ان هؤلاء الذين اتخذوا اندادا من دون الله يتبراون يوم القيامة من الذين تعلقوا بهم فى الحياة الدنيا وينكرون ما عملوه ، وهو ما يرجح كون الانداد لا يقتصرون على الاصنام بل يدخل فيهم الرؤساء فيرد على ذلك الاتباع بأن يتمنوا لو انهم يعودون الى الحياة الدنيا من جديد ليتبراوا بدورهم من هؤلاء الذين تعلقوا بهم وأحبوهم ، ولكن هيهات فقد اضاعوا فرصتهم وانتهى الامر وليس امامهم الا العذاب يرونه رأى العين فأحسوا بالندم وتأوهوا بالحسرات ولكن ذلك كله لم يعد ينفعهم وليس امامهم غير النار يصلونها وبئس المصير .

ظاهرة انسانية لأهل الباطل .

وهذا الذى تتحدث عنه الآية الكريمة انه سيكون يوم القيامة حيث ينقلب الشركاء فى الاثم على بعضهم ويتناكرون ويتبرأ كل منهم من الآخر هو احد سنن الله سبحانه وتعالى فى اهل الباطل فى هذه الدنيا . فالترابط فيما بينهم باق ما بقيت مصالحهم قائمة رائجة . فاذا توقفت هذه المصالح فضلا عن أن يتعرضوا للمتاعب كأن يقعوا فى قبضة القانون فسرعان ما ينقلب بعضهم على بعض ،وينكر بعضهم بعضا . ويتبرأ بعضهم من بعض.وهكذا يرينا الله سبحانه وتعالى لمحات تقرب الى اذهاننا مواقف يوم القيامة « يا ايها الناس كلوا مما فى الأرض حلالا طيبا » ذكرنا من قبل أن بعض المفسرين قالوا ان كل آية يوجه فيها الخطاب الى الناس فهى مكية وها نحن اولاء بصدد آية من سورة البقرة وهى مدنية بالاجماع وقد توجه فيها الخطاب الى الناس ، ومن هنا كان منهاجنا قائما على وحدة القرآن كما هو والاحكام تستمد من كل آياته على الدوام سواء المكى منها أو المدنى ، والدعوة هنا الى بنى البشر كافة ان يجعلوا مأكلهم مما على ظهر الكوكب الأرضى حلالا طيبا سواء كان المأكول حيوانا او نباتا .

وتوجيه الحديث هنا الى الناس مقصود من غير شك فسواء كانوا مؤمنين او غير مؤمنين فلا اقل من أن يكون طعامهم « حلالا طيبا » ولا يثير كون الطعام « طيبا » اى صعوبة فى تحديده فالطيب ضد الخبيث والطعام الخبيث تعافه النفس ولا تستطيبه كأن تكون رائحته نتنة او مذاقه كريها ، فالله سبحانه وتعالى ينهى البشر عن تناول مثل هذا الطعام غير الطيب لانه يؤذى الانسان بوجه من الوجوه .

ولكن ما يثير الصعوبة هو تعبير « الحلال » فى هذه الآية بالذات .

فالحلال هو كل ما احله الشرع وهو ضد الحرام والحرام هو ما حظره الشرع والحلال يعنى أن الشرع قد حل عنه عقدة « الحظر » وسوف يرد علينا فيما بعد الآية التى اشتملت على ما يحظر من اصناف الطعام اى اصبحت حراما وقيل ان الامر فى « كلوا » للوجوب وقال آخرون انما هو للاباحة وعندنا انه لا يكون كذلك الا اذا فصلنا كلمة « كلوا » عما بعدها فهنا وهنا فقط يمكن أن يفهم معنى القول « انه للاباحة » أما عندما يكون الامر «كلوا مما فى الأرض حلالا طيبا» فلا يمكن أن يكون الاكل من الحلال الطيب الا وجوبا ، وعلى هذا يتعين ان يكون الاكل .

١ — مما يرد عليه حظر من الشرع .

٢ — وأن يكون طيبا من الناحية المادية والمعنوية معا ، بمعنى أن لا يكون مصدره « سرقة او غش او رشوة او غصب أو ربا » وبالجملة كل ما يتعلق به حق للغير .

مِمَّا فِي ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ

« ولا تتبعوا خطوات الشـــيطان انه لكم عـــدو مبين » .

الخطوات جمع خطوة ، وهى حركة القدم الى الامام عند الشروع فى السير والمقصود بتتبـــع خطوات الشيطان هو عدم الاصغاء لوسوسته وتزيينه باطل الاعمال ، والشيطان هو رمز الشر وقد شاء الله سبحانه وتعالى لحكمة أرادها أن يجعل الحياة صراعا بين الخير والشر ، وجنود الخير هم عباد الله الصالحون أما جنود الشر فهم اتباع الشيطان ، والشيطان هو كل من يدفع الانسان لارتكاب الشر سواء كان من داخل النفس بطريقة غيبية « الوســـواس الخناس » أو من الخارج عن طريق مؤثرات شخصية وقد أشار القرآن الكريم فى أكثر من مناسبة الى أن الشيطان كما يكون من الجن أى الكائنات غير المرئية فانه يكون كذلك من الكائنات المرئيـــة أى البشر قال تعالى « شياطين الانس والجن يوحى بعضـــهم الى بعض زخرف القول غرورا »

وصار حتما على الانسان أن يســـتعيذ من الاثنين معا « من الجنة والناس »

« انه لكم عدو مبين » .

أما لماذا يحذرنا القرآن الكريم من الشيطان فلانه عدو الانسان المبين وقد استهلت سورة البقرة على ما مر بنا بقصة خلق آدم وبدء نشأة الشر فى الحياة فى صورة ابليس الذى اخذ على عاتقه أن يكيد للانسان فكان أن أخرج آدم وحواء من الجنة وهو لا يفتأ بالمرصاد لذرية آدم ليخرجهم أول ما يخرجهم من نعيم الخير والمحبة والاستقامة والرضا والقنـــاعة الى جحيم الشر والكراهية والاعوجاج والتمرد .

« انما يأمركم بالسوء والفحشاء »

وقد لخص القرآن الكريم كل ضروب الشر التى يوعز بها الشيطان فى هاتين الكلمتين « السـّــوء والفحشاء » والسوء معنى عام شامل فى كل ماتسوء عواقبه أى تحزن الانسان باحداث ضرر به من أى نوع كان والسوء مصدر للفعل ساء يسوء سوءا أو مساءة اذا احزنه .

أى أن عاقبة ما يدعو اليه الشيطان هو الحزن فى جميع الاحوال .

الفحشـــاء : تعنى لغة « قبـــح المنظر » ثم استعملت فيما يقبح من الأعمال والمعانى وذكرها

بعد لفظة السوء هو تخصيص بعد تعميم ولذلك اصبحت ترمز الى كبريات ما نهى عنه الشرع ، وقد حاول البعض أن يحصر معنى الفحشاء في «الزنا» وعندنا أن من الاعمال الأخرى الشيطانية مايرتقي الى مستوى الزنا، فيجب ترك اللفظ حيث اراده القرآن بكل ما يشع من معاني الافعال القبيحة .

« وأن تقولوا على الله ما لاتعلمون » .

ولا شك أن اكبر ما يمكن أن يوسوس به الشيطان للانسان وان يوعز به اليه لمساعته وضرره هو أن يحمله على التقول على الله بغير الحق وهو ما يبدأ من تحريم ما أحل الله او تحليل ما حرم ونسبة ذلك الى الله عز وجل الى حد الكفر به وانكاره .

وعندنا أن التعبير يتسع لكل ذلك باعتباره أفحش ما يمكن أن يأمر به الشيطان « واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون » .

التقليد والتجديد والمحافظة على التراث

نصل الآن الى آية كريمة من آيات القرآن التي تكررت بلفظها تقريبا وبمعناها اثما والتي تعتبر احدى أسس الاجتماع والعمران والمدنية ومن هنا نتوقف قليلا امامها لنتحدث ببضع كلمات عما تثيره من معان حول التقليد والتجديد والتراث ونبدأ بتحديد معنى الآية فقد كان المخاطبون بالقرآن عند نزوله سواء كانوا عربا مشركين أو يهودا وسواء كان ما يدعوا له القرآن من الاصول كالتوحيد أو الفروع فيما هو حلال أو حرام فكان هؤلاء واولئك يردون بجواب واحد لا ثاني له وهو أن يقولوا « بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا » . أي نتبع ما وجدنا عليه آباءنا من قبل والتعلق بما سار عليه الآباء هو غريزة انسانية ، هو احدى سنن الحياة فاتباع الابناء لآبائهم هو اكبر ركائز الاجتماع البشري وبه انتقلت الحضارة والعلوم والمعارف والاخلاق الرفيعة والقيم . ومن هنا جاء القرآن الكريم لا ليهدم هذا الاساس (كما يتصور البعض خطأ) ولكن ليضع له الضوابط والقيود وينظمه شأنه في ذلك منهاجه حيال اي غريزة فهو لايصادرها ولا يلغيها بل ينظمها ويضع لها الاحكام فهو لا يصادر الغريزة الجنسية مثلا وانما ينظمها عن طريق الزواج وهكذا فهو لا يحظر تقليد الآباء والسير على منوالهم بل يضع له القواعد واول هذه القواعد مطابقة الشيء لاحكام العقل والفكر السليم ويستفاد ذلك من القول « أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون » فالانكار ليس منصبا على تقليد الآباء ولكنه منصب على ما خالف العقل والرشد ، فهو دعوة للانسان كل انسان أن لا يسير في اي شأن من شئونه وهو مغمض العينين بل يجب أن يكون دائما مفتوح العينين يقظ الفكر مرهف الحس (قدر امكانياته بطبيعة الحال) .

ولا جدال أن هذه الدعوة التي دعا بها القرآن كانت هي السبب الذي ارتفع بالعرب الذين كانوا كما مهملا عبر التاريخ الى أمة أضاءت ظلمات العصور الوسطى وتحولوا الى اساتذة لشعوب عريقة وما ذلك الا لانهم اعملوا عقولهم وشحذوا افكارهم حيث جمد الآخرون واطفأوا نور عقولهم.

التقليد والاجتهاد :

وقد حاول أقوام أن يتخذوا من هذه الآية وامثالها حظر التقليد بصفة عامة وطالبوا بأن لا يتبع الانسان أي أمر من أمور الدين الا بعد معرفة دليله وحجته ومصدره من الكتاب والسنة وراحوا يذمون التقليد ما وسعهم الجهد ، بينما ذهب فريق الى الطرف الآخر وهو ضرورة التقليد وقفل باب الاجتهاد . والصواب دائما هو الوسط بين الطرفين والقاعدة الاساسية التي تحكم

الموضوع هى قوله تعالى « لا يكلف الله نفساً الا وسعها » فنحسب انه تكليف بما لا يطاق ان يطلب من كل صاحب حرفة او مهنة يشقى ويكدح طول يومه لكسب قوته وقوت اولاده ان يتفرغ للبحث عن هذا الامر او ذاك فيجرى وراء المصادر ويبحث وينقب ويحلل وقد يكون قبل ذلك كله امياً لا يقرأ ولا يكتب. فليس امام مثل هذا الشخص الا ان يبحث عن الثقة الامين فيتبعه ، ويكون واجبه فى هذه الحالة هو ما يدعوه اليه القرآن وهو ان لا يتبع من يتبعه وهو مغمض العينين معطل الفكر ويصبح واجبه التحقق من استمرار العناصر التى جعلت من اتخذه قدوة له محل ثقته وتقديره ، فالقرآن الكريم يدعو الى اليقظة الفكرية والروحية الدائمة ويحذر من الوقوع فى الغفلة . هذا هو ما ينطبق على سواد الناس ، اما العلماء والمفكرون وبخاصة من توفروا على التماس العلم فهؤلاء هم المطالبون بطبيعة الحال بمعرفة الدليل على كل ما يقولون ويفعلون ولابد من اقتناعهم بهذا الدليل وترجيحهم له عما سواه من الادلة ولا يقبل منهم (بحسب قدرتهم وامكاناتهم) ان يقولوا بصرف النظر عن صحة الدليل او عدمه فنحن نختار هذا الراى لانه قول فلان او علان لان مثل هذا القول يرده انكار القرآن الكريم « او لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون » ولا يقول قائل ان هذا خاص بالمشركين والكافرين ، فنحن لم نشأ تخصيص الخطاب وانه للمشركين فقط فقد كانت حجة اليهود كذلك انهم يتمسكون بدين الآباء والاجداد وعلى اية حال فمتى اشتمل القول القرآنى على الحجة المنطقية فقد اصبحت ملزمة للكافة فى كل زمان ومكان وقد اشترط القرآن لاتباع من سبق، عدم منافاته للعقل ، وما يحمله القول الجديد من نور الرشد .

القول الفصل فى القديم والجديد .

والحق ان هذا هو جملة ما يقال فى القديم فلايتصور متصور ترك القديم جملة لمجرد كونه قديما ولا يؤخذ الجديد جملة انه جديد وانما المعيار فى المحافظة على القديم هو ذات المعيار الذى يؤخذ به الجديد وهو النفع والصلاحية وفقا لما شهد به العقل والوجدان السليم .

المحافظة على التراث

ومن هنا كانت المحافظة على التراث القديم والانتفاع بالصالح منه هو اقدس واجبات المجتمعات ، من ذلك على سبيل المثال ان العرب فى الجاهلية رغم ما كانوا عليه من سوء الحال قد ظل فى تراثهم منسك الحج من شريعة سيدنا ابراهيم فأقر الاسلام هذا المنسك بعد ان صححه واذهب عنه غواشي الوثنية فدل ذلك على ان القديم لا يلغى لمجرد كونه قديما فها هو ذا الحج عند العرب من شريعة سيدنا ابراهيم ، ولما كان الحج مقدسا بحسب مصدره السماوى ، نافعا ومفيدا فى التطبيق من حيث جعل المسلمين امة واحدة فقد جعله الله سبحانه وتعالى ركنا من اركان الاسلام .

وقد اعجبنا فى تفسير الوسيط لعلماء الازهر ان ختموا تعليقهم على هذه الآية بقولهم « ونعتبر هذه الآيات مصدرا لتكوين الشخصية المستقلة الجديرة بالمسلم بحيث لا يكون امعة او تابعا لسواه دون روية او تفكير » .

« ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لايسمع الا دعاء ونداء صم بكم عمى فهم لا يعقلون»

« ينعق » يصيح ، والنعيق : الصوت على البهائم .

« دعاء » : الاستدعاء للقريب .

« نداء » : الاستدعاء للبعيد ولذلك ســمى الاذان للصلاة نداء لانه دعوة للبعيد « اذا نودى للصلاة » .

« صم » : من الصمم وهو انعدام السمع .

« بكم » : من البكم وهو انعدام النطق .

« ومثل الذين كفروا » : اى فى ضلالهم وجهلهم وعمايتهم عن اتباع الحق .

وذهب قوم الى أن المعنى : انك يا محمد تشبه فى دعوتك للكفار مثل الذى ينعق بالحيوانات التى لا تسمع (مجرد الاصوات بغير وعى) ولا تنطق ولا تعقل .

وذهب آخرون الى ان المشبه به هو دعوة الكفار الى الاصنام التى لا تسمع ولا تبصر فضلا عن ان تعقل وأيا كان المعنى فالقول واضــح وصريح فى أن الكفار لا يسمعون الحق ولا يبصرون الرشد ولا ينطقون بالخير وبالتالى فقد ســدت عليهم حواس السمع والبصر والنطق فأصبحوا لا يعقلون فهم كالبهائم او هم اضل ، فالبهائم وان كانت لا تعقل ولكنها تسمع بنوع من السمع وتبصر بنوع من البصر . أما الكفار فقد حرموا حتى من السمع ومن البصر ومن النطق ، اعاذنا الله من هذا الوصــف الذى يهبط بالانســان الى دون الحيوان .

« يا ايها الذين آمنــوا كلوا من طيبات مــارزقناكم واشكروا لله ان كنتم اياه تعبدون » .

دين الحياة — أو التوازن بين المادة والروح

فى هذه الآية الــكريمة يدعو الله ســبحانه وتعالى المؤمنين الى ما سبق ان دعا اليه الجنس البشرى كله من أن يأكلوا من طيبــات الأرض « حلالا طيبا » ولكنه يختص المؤمنين بأن يشكروا واهب هذه النعم ، والحق ان شكر واهب النعمة هو الحد الفاصل بين الكفر بالله والايمــان به فالكافر يأكل كما يأكل اى حيوان يجد الاكل فيأكل اما المؤمن فهو يأكل ولكن فى وعى كامل بخالق هذا الاكل وبوجوب الشكر له .

وهذه الآية الــكريمة تثير مبحثين : أولهما : خصيصة الاسلام من أنه دين الحياة فاذا كانت الحياة لا يمكن أن تقوم ابتداء فضلا عن ان تقوى وتتطور الا « بالغذاء » اى عن طريق تنــاول الطعام بالنسبة للانسان ، فالقرآن الكريم هنا يأمر بالاكل أمرا بل ويزيد على ذلك ان يصف الاطعمة بانها « طيبات » والاسلام فى ذلك ينفرد عن كثير من المعتقدات البشرية الخاطئة من ان صــفاء الروح وطهارتها وبالتالى ســموها لا يكون الا باضعاف الجسد بالامتناع عن الطعام ما امكن والذى لا شك فيه أن الافراط فى الاكل كما يؤدى الى التخمة المؤذية فهو يؤدى كذلك الى انطفاء توهج الروح والى بلادة الحس ، ولكن الذى لا شك فيه ايضا ان الامتناع عن الطعام يضعف الجسد وينتهى باعدامه كلية وحيث لا جسد فلا روح كذلك والامر المطلوب لسلامة الجسد والروح معا هو التوســط والاعتدال فى الأكل وهو ما يندرج فى الجزء الاخير من الآية « واشكروا لله ان كنتم اياه تعبدون » وهو ما يؤدى بنــا الى المبحث الثــانى الذى تثيره الآية الــكريمة وهو حقيقة الشكر

يتصور أقوام أن مجرد التلفظ بكلمة الشكر والحمد هو كل المطلوب ولا عليهم بعد ذلك ان يفعلوا ما يشاءون وهو وهم اذ يكفى ان ينطق الانسان حامدا الله لكى يرتب ذلك عليه العديد من الالتزامات .

أن كل ما يأمرنا به الله انما يأمرنا به لمصلحتنا نحن اولا واخيرا فهو غنى عن العالمين وهو فوق

المؤثرات ، فعندما يقول لنا « واشكروا لله » فهو لا يعنى ترديد الكلمة باللسان لانها ستدخل السرور عليه شأننا نحن البشر عندما نشكر وانماهو يطالبنا بما يعود علينا نحن اولا وقبل كل شيء بالنفع وعلى هذا الضـوء يجب أن نفهم معنى« شكر الله » فشكر الله يعنى الايمان به والايمان به يقتضى التعبد له «ان كنتم اياه تعبدون» وعبادة الله تكون بالائتمار بأوامره والانتهاء عن نواهيه.

وعلى رأس هذه الاوامر فى موضوع الطعام قد مر بنا وهو أن يكون بحسب مصدره « حلالا طيبا » وبحسب كميته « معتدلا » قال تعالى : « وكلوا واشربوا ولا تسرفوا » .

وهكذا لا يحرم القرآن الانســان المؤمن من الاستمتاع بطيبات الحياة ولكنه يضع لذلك القيود والضوابط كما قدمنا « انما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما اهل به لغير الله فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا اثم عليه أن الله غفور رحيم»

بعد أن وجه الله عباده أن ياكلوا « حـلالا طيبا » ذكر للمؤمنين بعض الوان من الطعـام يخرجها من كونها طيبة أو انها حلال وبذلـك اصبحت محظورة « اى حراما » على المؤمنين بمعنى أن لا ياكلوها وبعض هذا المحظور غير طيب وبعضه غير حلال .

فأما غير الطيب ماديا ومعنويا فهو الميتة والدم.

وغير الطيب حرام لأنه لحم الخنزير وما اهل به لغير الله ــ اى ذكر ــ عند ذبحه انه لهذا الوثن او هذا الصنم أو اسم اى معبود آخر غير الله سبحانه وتعالى ، والاهلال فى الاصـل يعنى الصياح .

وعندما يحرم الشرع أمرا من الامور فيجب الانصياع له فورا دون اجتهاد فى البحث عن حكمة التحريم ، ذلك أن تحديد الحكمة فى أمر من الامور قد يفتح الباب امام الجدل فى توفر هذه الحكمة أو عدم توفرها وقد يتشدق البعض بقول المناطقة من ان العلة تدور مع المعلول وجودا او عدما فلو قال قائل أن حكمة تحريم الخنزير هذا الامر أو ذاك لما عدمت من يقول أن الامر لم يعد كذلك اليوم .

ولذلك فنحن نقف عند نص التحريم الذى جاء بصريح اللفظ دون أن نلتمس له حكمة وحسبنا انه بذلك أمر الله عز وجل فهو اعلم بما لا نعلم.

وعلى هذا فالمحظور كل ما كان ميتا حتف انفه ويخرج منه السمك لوجود اباحة له فى القرآن الكريم « احل لكم صيد البحر » وهذا نص يدعمه ويفسره ويقويه ما جرى عليه قول الرســول وفعله .

وثانى المحظورات هو الدم وقد حددته آية اخرى بانه « الدم المسفوح » .

فخرج بذلك الكبد والطحال لانهما وان كانا دما ولكنه متجمد يؤلف جزءا من الجسم وفى تفسير القرطبى وكتب الفقه تفصيلات لاحوال هــذه المحرمات .

وتحريم الخنزير معروف ومشهور .

واخيرا ما ذبح لغير الله .

« فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا اثم عليه ان الله غفور رحيم » .

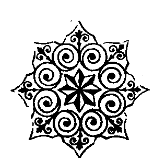
ذكرنا فيما سبق كيف أن الاسلام دين الحياة لا يصادرها ولا يلغيها بل يعمــل كل ما يدعمها ويزكيها أى أن الاصل هو صيانة الحياة .والاحكام الدينية انما تهدف لتحسين حياة الفرد والجماعة فاذا توافر الظرف الذى يجعل اتباع حـكم من الاحكام يؤدى الى اتلاف الحياة نفسها ترفـق

الشارع الحكيم فأباح للانسان التحلل من التحريم، ومن هنـــا سن الفقهاء قاعدة كليـــة وهى ان الضرورات تبيح المحظورات » وذلك استنادا على هذه الآية التى نحن بصددها وشبيهات لها فى القرآن الكريم ومن هنا فان الله ســـبحانه وتعالى والذى يعلم ضعف الانسان رفع عنه الحرج وقت الضرورة ، والضرورة تقاس بظروفها وهى تقاس حسب قدرة كل انسان وطاقته والمهم أن الله سبحانه وتعالى طالب من يعتبر نفسه مضطرا أن لا يبالغ فى تقدير هذه الضرورة وان لا يتخذها عذرا وتكأة كى يعتدى على الاخرين ويبغى عليهم ، أى يتجاوز الحد هذا هو ما نفهمه نحن من الآية ونرجحه على قول من قال أن رفع الحظر قاصر على أن لا يكون الشخص المضطر قاطع طريق أو معتد على الناس فالتشريع عندما يصدر فهو يضع قاعدة عامة للمكلفين كافة ، وقطاع الطرق والمعتدين لهم عذاب وخزى فى الدنيـــا والآخرة ، ومفهوم بالبداهة أن من أجرم واعتدى وبغى فليس هو المقصـــود برفـــع الحرج عنه بطبيعة الحال ، وقد اورد ابن ماجه احاديث نقلها عنه ابن كثير نرى ان نثبتها هنا لانها خير تطبيق لهذه الآية من ناحية ، ولأنها تكشف عن تضامن المسلمين وتكافلهم بما لم تستطع كل الصيحات الحديثة من اشتراكية أو شيوعية التوصل اليه، روى ابن ماجه بسنده عن رسول الله : « أصابتنا عاما مخمصة فأتيت المدينة فأتيت حائطا فأخذت سنبلا ففركته وأكلته وجعلت منه فى كسائى فجاء صاحب الحائط فضربنى واخذ ثوبى فأتيت رسول الله فأخبرته فقال للرجـــل : ما أطعمته اذ كان جائعا ولا ساعيا ولا علمته اذ كان جاهلا فأمره فرد اليه ثوبه وأمر له بوسق من طعام أو نصف وسق » .

واورد ابن كثير حديثا آخر يدعم هذا الحديث « سئل رسول الله عن الثمر المعلق فقال : « من اصاب منه من ذى حاجة بغية غير متخذ خبنة فلا شىء عليه » .

اى من كان محتاجا فله أن يأكل حتى يســـد جوعه ، ومادام لا يأخذ معه شيئا ويقف عند حد اشباع حاجته ، فلا شىء عليه ونقل القرطبى فى تفسيره أقوال الفقهاء باستفاضة مما لا يخرج على ما قدمنا وقد بقى أن تعرف أن هذا كان هو التقليد المتبع فى الريف حيث كان باستطاعة اى عابر سبيل أن يتناول من أى حقل أو شجرة مايسد جوعه دون أن يأخذ معه .

« ان الله غفور رحيم » اشارة الى أن الله سبحانه وتعالى رفع الاثم فى حالة الضرورة لا لان العمل أصبح مباحا ولكن لأنه رحيم بعباده يغفر لهم ما فعلوه مكرهين مضطرين .



فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾ * لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ

« ان الذين يكتمون ما انزل الله من الكتاب ويشترون به ثمنا قليلا أولئك ما يأكلون فى بطونهم الا النار ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب اليم ● أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة فما اصبرهم على النار ● ذلك بان الله نزل الكتاب بالحق وان الذين اختلفوا فى الكتاب لفى شقاق بعيد ! :

ايقاع القرآن :

ذكرنا من قبل أن الموسيقى تقوم على الايقاع ، والاجماع منعقد على ان للقرآن موسيقاه اللفظية، ولكن معايشتنا للقرآن الكريم جعلتنا نحس (من ناحيتنا) ان هناك ايقاعا للمعانى بمعنى ان معنى ما يتكرر خلال معالجة قضية من القضايا وفى كل مرة يحتل المعنى مكانه ليؤدى المقصود منه وفق الموضوع المعين ، من ذلك على سبيل المثال هذه الآيات التى نحن بصددها والتى تتحدث عمن يكتم « ما انزل الله من الكتاب » وكانت تشير (فيما تشير) ابان نزولها الى احبار اليهود الذين كانوا يخفون عن اتباعهم احاديث التوراة عن صفة سيدنا محمد كما شرحناه فيما سبق وقد راح هذا المعنى يتكرر بمناسبة موضوع « القبلة » وها هو ذا يتكرر بمناسبة الحلال والحرام من الطعام .

« ويشترون به ثمنا قليلا » اى ان هؤلاء الأحبار على زمن النبى صلى الله عليه وسلم ، واى كائن يفعل فعلتهم الى ابد الابدين بمعنى أن يكتم (يحجب) عن الناس « ما انزل الله » فان اى مغنم يحصل عليه من جراء ذلك هو ثمن بخس اذا قورن بما سوف ينالونه من العذاب .

« أولئك ما ياكلون فى بطونهم الا النار » واى ثمن يمكن ان يحصلوا عليه من جراء هذه « الفعلة الشيطانية ونعنى بها كتم ما انزل الله » هو بمثابة من يأكل النار ويتغذى بها فى الحال (اى فى الدنيا) وفى المآل (اى فى الآخرة) .

« ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب اليم » كناية عن اعراض الله عنهم وغضبه « ولا يزكيهم » اى لا يطهرهم « ولهم عذاب اليم » .

« أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة » .

هذا هو تجسيد للصفقة المغبونة التى يعقدها كل من يكتم ما انزل الله ليتلاعب بأحكامه فان شانه شان من باع الهدى (النور) وقبض ثمنا له الضلال (الظلام) وباع غفران الله ورضوانه الجنة وقبض ثمن ذلك عذاب الله (جهنم) .

« فما أصبرهم على النار » صيغة بلاغيــة بيانية تظهر اعجاز القرآن وهو يستخدم لغة العرب . واللغويون يقولون : انه استفهام يحمل فى ثناياه « التعجب » اما نحن فنرى فيها السخرية والتبكيت والزجر وان اخذت صورة الاستفهام والتعجيب .

« ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق وان الذين اختلفوا فى الكتاب لفى شقاق بعيد » .

والكتاب هنا هو القرآن الـكريم وذهب بعض المفسرين الى جنس الكتب التى انزلها الله، ولكننا لا نأخذ بهذا القول ، فعندما يذكر القرآن الكريم كلمة الكتاب معرفة بأل فلا يمكن الا ان يكون المقصود بها هو القرآن الكريم وقد بدئت سورة البقرة بـ « ذلك الكتاب لا ريب فيــه » « وهو هنا يقرر انه نزل بالحق » لكل من يعاند او يكابر او يتشكك ، وقد عبر القرآن عن ذلك كله بعبارة « اختلفوا فيه » .

ووصف الله سبحانه وتعالى كل من يفعل ذلك « لفى شقاق بعيد » والاصل فى الشقاق ، الخلاف والمعاداة ، بحيث يصبح كل فريق فى « شق » هذا هو المعنى اللغوى ولكن وصف هذا الشقاق بأنه « بعيد ! فقد أصبح يشع من المعانى كل الوان (التعادى والتباغض والاحقاد فى الدنيا (اما المصير فى الآخرة فهو بحيث لا يحتاج الى مجرد الاشارة .

« ليس البر أن تولوا وجوهكم قبـل المشرق والمغرب ، البر : كلمة جامعة لكل صنوف الخير وقد عددت الآية صورا من هذا الخير .

الاسلام ليس دين طقوس :

تعتبر هذه الآية احدى آيات القرآن المحكمة التى وصفها القرآن الكريم نفسه بأنهـن « أم الكتاب » ففضلا عن كونها قد لخصت جوهـر الايمان ورسمت صوره للمسلم الكامل ، فقـد فصلت بهذا الجزء من الآية بين الاسلام وبين سائر ما عرفت البشرية من اديان ، فما من دين عرفه البشر الا وهو يقوم على « الطقوس » اى أشكال وصور معينة وترتيبات خاصة يتولاهـا أشخاص بعينهم « كهنة » ويترتب على اقل اخلال او اضطراب فى هذه الصور والاشكال ، ان تبطل العبادة ولا يتقبل الله عبادة المتعبدين .

من كتاب الموتى حتى الكتاب المقدس :

هذه السمة سمة « الطقوس » هى طابع كل ما عرفت البشرية من اديان ابتداء من كتاب الموتى عند قدماء المصريين حيث يتألف من مجموعة من الطقوس ومرورا بكتاب « الفيدا » الهندى اساس الديانة « البرهمية » وانتهاء بما يطلقون عليــه كتاب « العهد القديم » ونعنى به كتاب اليهود فهو ملىء بالطقوس التى تجعل طائفة « الاحبار » اى رجال الدين من اليهود شرط لازم لصحة اى عمل من أعمال الدين والدنيا معا ، وقد لا يعلم الكثيرون ان مشكلة المشاكل فى اسرائيل هى هذه القضية . قضية وجوب توفر الطقوس فى كل شىء ويعنى غياب هذه الطقوس ، كأن يلبس رجل الدين لبسا معينا ويمسك بيده عصا معينة ويتلفظ بكلمة معينة ، يعنى عدم قيام هذه الصور على وجه الدقة وقوع الكل فى المعصــية ، وجـاء الاسلام يحرر البشر من هذا الاعتقاد الفاسـد الوثنى والذى يشوه الكمال الالهى .

النظام لا يعنى الطقوس :

ولا يخطئن احد فيتصـور أن النظـام الذى يشترطه الاســلام والهيئة الخاصة التى يتطلبها للصــلاة مثلا ، أو الأعمال التى يتطلبها لأداء منسك الحج ، ان ذلك من قبيل الطقوس ، فكل

ما فرضه الاسلام من قواعد وانظمة فقد اريد بهفائدة الانسان ذلك انه لايمكن ممارسة اى نشاط انسانى الا من خلال بعض القواعد والنظموليس ادل على انالاسلام لا يجعل الأساس فى العبادة هوظاهر الأمور وشكلياتها الحديث الشريفالذى اعتبره الامام البخارى وسائر الفقهاء عمدة الدين وجوهره « **انما الأعمال بالنيات ولكل امرىء ما نوى** » .

وليست هـذه الآية التى نحن بصـددها الامصداق ذلك كله .

فقد استغل اليهود المعاصرين سيدنا محمـدوكل خصوم الدعوة آنذاك موضوع تغيير القبلة مجالا للقيل والقال والتهجم على دعوة الرسـول فقـد كانوا غارقين فى الطقوس على ما قدمنـا فزعموا ان تغيير القبلة يبطل الصلاة كما ولابد ان يكون مشركو قريش قالوا بدورهم ان محمدا قد عاد الى قبلتنا وتصوروا ان ذلك نجاحا لهمفجاءت هذه الآية الكريمة لتبطل ذلك كله ولتعلن للبشر كافة فى كل زمان ومكان ان العبرة ليستفى الشكل ولا فى الصورة وانما فى الجوهر اى فى الأعمال الخيرة التى تؤدى الى صـلاح الفـردوالمجموع .

الشرق والغرب ليسا الا كناية

ويسارع بعض قدامى المفسرين المولعين ولعا مفرطا بتحديد كل لفظ وربطه بحادثة معينةفقالوا ان اليهود كانوا يصـلون الى الغـرب حيث بيت المقدس والنصارى يصلون الى الشرق حيث مطلع الشمس وهو خلط كما ترى ، فبيت المقدس يقعشمال المدينةالمنورة ونحننعلم اليوم بعد ان عرفنا ان الأرض كروية وانها تدور ان ليس ثمة ما هوشرق ابدا وما هو غرب ابدا ، ومن هنا اشـار القرآن الكريم الى « **المشارق والمغارب** » ومن هنا فلا يجب ربط هذه الآية بصلاة اليهود الى هذا الاتجاه او ذاك وانما هو قول عام اريد بهالدعوةالى عدم تلخيص «**البر**» فى التوجه الى هذا الجانب أو ذاك ، وقد سـبق فيما مضى « ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله » .

« ولـكن البر من آمن بالله واليـوم الآخروالملائكة والكتاب والنبيين » .

حقيقة البر ـ او الأعمال الخيرة :

وبعد أن حسمت الآية الـكريمة أن الخـيروالصلاح الذى هو جوهر الأديان لا يقوم على : كليات أو صور راحت تحدد عناصر الخير التى هى الغاية من الاسلام وسوف يرى انها تقـوم على دعائم ثلاث :

- سلامة العقيدة
- تربية الفرد لنفسه
- علاقة الفرد الطيبة بالمجتمع

ويشمل هذا القسم من الآية الـكريمة الركن الأول ونعنى به العقيدة وقبل أن نستعرضعناصر هذه العقيدة قد يكون من الخير أن أمهد لها بكلمةعن الاعتقاد وضرورته .

حول الاعتقاد والايمان :

من الحقائق الثابتة التى ترى بالعـين وتلمسباليد وليس من يمارى فيها الا جاهل يلقى الكلام على عواهنه ، ان الانسان مـكون من عنصرين « الروح والجسد » فاما الجسد فنحن نعـرفه ونصاحبه منذ يولد الكائن الحى الى أن يموت ،ونحن نرى بالحس والمشاهدة أن الجسد ينمو ويكبر بالغذاء من منتجات الأرض ويتنفس الهواء الذى هو من ملحقات الأرض حتى اذا جاء الموت

انحل هذا الجسد وتفكك وعاد الى عناصره الأولى بعض مكونات هذه الارض اى الى تراب وغازات وفارق بين ان يكون الجسد حيا يموج بكل صنوف انشطة الحياة وبين ان يتحول الى تراب هو ان يفارقه هذا الجوهر الذى نشهد آثاره دون ان ندرك كنهه ونعنى به « الروح » وان جهل كل شىء عن ماهية الروح الا ان نقر بوجودها ونتتبع آثارها طبيعى جدا لانها من أمر الله الذى نقر بوجوده ونشهد آثاره دون أن ندرك كنهه .

ولكى يصح الجسد فلابد له من مقومات تتناسب مع وجوده الحسى كاستنشاق الهواء النقى والنظافة والتغذية والبعد عما يعرضه للتلف .

وكذلك الشأن بالنسبة للعنصر الثانى ونعنى به الروح فهو بدوره بحاجة الى الغذاء والى النظافة والى تجنيبه المهلكات والمعاطب .

غير أنه لما كانت الروح كما قدمنا من عالم الغيب فان غذاءها ونموها وطهارتها وسلامتها تتحقق من الايمان بالغيب على ما تحدده الكتب السماوية بعامة والقرآن الكريم بخاصة .

وعلى هذا العمل المزدوج من اجل الروح والجسد يقوم صلاح الانسانية وويل للبشر الذين يضلون سواء السبيل فيتصورون الحياة مادة فقط فيعنون بالجسد ويهملون الروح . ان حياتهم تتحول الى قلق واضطراب وفزع مستمر من الموت ، فليس سوى الايمان بالغيب من يحقق الكائن البشرى توازنه ويحميه من القلق والفزع ويتم عليه نعمة الرضا .

عناصر الايمان بالغيب :

والايمان بالغيب يبدأ وينتهى بالله ثم يتناول السلسلة التى تنحدر منه سبحانه وتعالى حتى تصل الى الانسان ، وقد فصلت الآية الكريمة كل ذلك فبدأت بأن جعلت الغيب كل الغيب يبدأ بالله وينتهى به .

« من آمن بالله واليوم الآخر » .

فلا يمكن لهذا الكون بما فيه الانسان الا ان تكون له بداية وهذه البداية هى مشيئة الله فى ان خلقه وماله بداية فلا يمكن الا ان تكون له نهاية ونهاية الانسان والكون كله منوطة بمشيئة الله كذلك وهذا هو « اليوم الآخر » والكفر باليوم الآخر هو بمثابة الكفر بالله تماما ، فلم تكن مشكلة قريش الكبرى انهم ينكرون أن يكون لهذا الكون خالق فقد حكى عنهم القرآن الكريم فى اكثر من آية انهم لا يمارون فى أن الله هو خالق السموات والأرض انما كانت مشكلة المشاكل عندهم « فوق الشرك انهم رفضوا الايمان باليوم الآخر وعناصره « من بعث وحساب وعقاب وثواب وجنة ونار » والحق أن الايمان بالله والوقوف عند هذا الحد لا يكون له اى جدوى او ثمرة او نفع من أى نوع كان الا اذا كان مشفوعا على الفور بأننا راجعون اليه وان بيده مصيرنا النهائى، ان المادى والملحد والكافر لا يمكن أن ينكر ان لهذا الكون بداية مهما يكن الاسم الذى يطلقه على هذه البداية « الدهر ، الطبيعة ، المادة ، الصدفة » وانما الذى يكفر به أن يكون للانسان رجعة ، وهذا الايمان بالرجعة الى الله فى اليوم الآخر هو ما يضفى على الدين ضرورته للانسان فى تنظيم سلوكه بما يعود على الفرد والجماعة باطيب الثمرات لانه يوجد فى كل نفس من يراقبها ويحاسبها وعبثا كل الهراء الذى يقولونه عن الدولة وقوانينها وحراسها واحسب انه لاحاجة بنا فى الاطالة فى هذه الناحية فما من انسان الاوهو يشهد الخراب والدمار حيث ينعدم الوازع الدينى او بالأحرى الايمان باليوم الآخر وانا الى الله وانا اليه راجعون محاسبون على اعمالنا ان خيرا فخير وان شرا فشر .

« والملائكة والكتاب والنبيين »

وينبثق فورا من الايمان بالله وانه هو خالق الانسان والمحاسب له يوم القيامة انه لا يمكن الا ان يكون قريبا من الانسان وعلى صلة مستمرة به وان يحدد له ما سوف يحاسبهم عليه ، ولما كان الله سبحانه وتعالى شيئا يخالف كل المخالفة للطبيعة الانسانية ، بل أى طبيعة « ليس كمثله شيء » فقد كان لا مناص من أن يوجد سبحانه وتعالى نوعا من كائنات غير انسانية يكون بقدرتها التلقى عن الله ونقل ارادته أو تنفيذ مشيئته فى الانسان وهؤلاء هم الملائكة .

ولسنا نريد أن نقع فيما وقع غيرنا فنحاول أن نصف الملائكة بأى نوع من الأوصاف كأن نقول انهم اجسام شفافة أو نورانية أو روحية ، كل ذلك لا غنى فيه فالملائكة قسم من هذا الغيب الذى نؤمن به لأننا تلقيناه عن الصادق الأمين ونقف بصدد الملائكة عند حد ذكر القرآن لهم ، كل الذى نسمح لأنفسنا به ان نقرب للعقول انطواء الكون على كائنات غير انسانية لم يستطع على مر العصور الا أن يعترف بوجودها من حوله .

كائنات غير انسانية :

ففى القديم جدا تحدث البشر عن الآلهة ، آلهة لكل شيء الى أن جاء التوحيد فانما هو اله واحد وان كانت هناك قوى اخرى تعمل فى هذا الكون فهم بعض خلقه ويصدعون بأمره وفى القرنين التاسع عشر والعشرين عندما انتشرت باسم العلم التعاليم المادية ، وجد العلماء أنفسهم ظواهر غير انسانية وغير مادية معا فنادوا بما يسمى علم الأرواح وكان استاذنا محمد فريد وجدى صاحب باع طويل فى نقل ما راح العلماء فى أوربا وامريكا يقولونه عن الأرواح .

وفى عصرنا هذا راح الذين يكفرون بكل شيء غير مادى يحدثوننا عن الكائنات غير الانسانية التى راحت تهبط من العالم الخارجى الى الأرض ولا نستطيع رؤيتهم ولكنا نشهد آثارهم ونحن نعيذ أنفسنا من أن نقول أن هذه الأقوال دليل على وجود الملائكة فنحن نؤمن بالملائكة بغير حاجة الى دليل ، انهم بعض هذا الغيب الذى تلقيناه ونؤمن به كما هو ولكننا ذكرنا ما سبق لنكشف عن جهة هذا الذى يتصور باسم العلم انه لا يجب أن يصدق الا بالمحسوس والملموس فهاهم جهابذة العلماء لا حظوا وانفهم راغم ان فى الكون ظواهر لا يستطيعون لها تفسيرا فراحوا يحدثوننا عن الأرواح وعن الوافدين من الكواكب الأخرى — أما نحن المسلمين فنؤمن بالملائكة كبعض مخلوقات الله .

والكتاب : والكتاب هنا يعنى فى الدرجة الأولى « القرآن » كما يعنى ما قرره القرآن نفسه من أن الله سبحانه وتعالى أنزل من السماء كتبا « كالتوراة والانجيل » والمسلم مطالب بنص القرآن أن يؤمن بأن الله سبحانه وتعالى انزل « كتابا » على سيدنا موسى وآخر على سيدنا عيسى وأن جوهر الكتابين من حيث التوحيد والايمان باليوم الآخر هو عين ما جاء به القرآن فاذا كان فى هذين الكتابين المتداولين الآن ما يخالف ذلك فيكون من نوع التحريف الذى حدثنا عنه القرآن .

والنبيين : هؤلاء هم آخر حلقات السلسلة التى تصل بين الله وبين الانسان ومن يكفر بوجودهم فهو يكفر بالله ، ذلك انه مادام الله موجودا ومادام هو خالق البشر فلا يمكن ان يكون خلقهم عبثا فيتخلى عنهم ، ومن هذا بعث بتعاليمه ووصاياه لرعاية الانسان والعناية به وضمن هذه التعاليم والوصايا ما اسماه الكتب ، وخلق « الملائكة » ليكون من مهامهم ايصال

كتبه الى البشر ممثلين فى بعض افراد اختارهم واعدهم اعدادا خاصا لتلقى الرسالة من الملائكة، على أن لا يخرجهم ذلك من طبيعتهم البشرية ليظل بقدرتهم الاختلاط ببقية البشر وتعليمهم باللغة والأسلوب الذى يفهمونه لتتحقق الغاية التى ارادها الله سبحانه وتعالى وهى أن يعرفه الانسان ويعبده عن طريق الوجدان والعقل حتى يتميز الانسان عن بقية خلقه .

فالايمان بالأنبياء هو آخر حلقة من حلقات الايمان بالغيب بعد ان يتحول الغيب الى ظاهر محسوس وهذا الظاهر المحسوس الملموس هو الذى يؤدى بنا الى الايمان بالغيب فالايمان بالنبى يعنى الايمان بما أوحى اليه وكيفية الوحى به ومن هو الذى اوحى به فهى سلسلة متصلة الحلقات كما راينا يؤدى انكار اى حلقة منها الى انكار باقى الحلقات ، ومن هنا اعتبر القرآن ان الايمان بالله وملائكته وكتبه يستتبع حتما الايمان برسله فلا يكون مؤمنا بالله « على سبيل المثال » من لا يؤمن برسالة سيدنا محمد ، أيا كان دينه .

وقد سئل السيد المسيح من اتباعه على ما روى الأنجيل ان سيكون بعده انبياء كذبة فكيف يعرفونهم فأجاب « من ثمارهم تعرفونهم » فثمرة اى انسان هى الدالة عليه فالشرير لا يثمر الا شرا والقبيح لا ينتج الا قبحا ، والكاذب لا يثمر الا لغوا ومن هنا فقد تنبأ على سبيل المثال بعد وفاة النبى صلوات الله عليه وسلامه بضعة نفر تصوروا منهم انه بحسبهم ان يدعوا هذه الدعوة كذبا فكان ان قتلوا واهم من ذلك ان لعنوا ولم يبق الا اسماؤهم فى بطون الكتب ليلعنهم اللاعنون، وما ذلك الا لأن ما قالوه كان كذبا وافكا ولغوا ، أما سيدنا محمد اضاء بنور رسالته ويضىء وسيظل يضىء العالمين ما بقيت السماء سماء والأرض ارضا ، فانكار رسالته على ما كررنا اكثر من مرة هو انكار للغيب كله ولله سبحانه وتعالى ، وفى هذه النقطة يكمن تفوق المسلم على غير المسلم ، بحيث يؤمن المسلم بالنبيين « كموسى وعيسى » فان غير المسلم لا يؤمن بسيدنا محمد ، هادما بذلك أساس عقيدته فى الله .

« وآتى المال على حبه »

وانتقلت الآية الكريمة بعد ذلك الى الأعمال الخيرة التى تنبثق فورا من الايمان بالغيب وهو أن يصبح الانسان اداة خيرة تحسن الى الناس لاصلاح احوالهم ، ويهمنا بالذات ان نلفت النظر الى هذا الترتيل من ان الآية الكريمة جعلت الاحسان الى الناس اول مظهر عملى لصدق الايمان بالغيب فقد أصبح حب المال واقتنائه احد غرائز الانسان ولا لوم فى ذلك ولا تثريب فقد غرس الله فى الكائن البشرى وجوب المحافظة على بقائه ولما كان المال قد اصبح سبيلا للحصول على ضروريات الحياة، فقد اصبح حب المال والمحافظة عليه جبلة فى طبعه ، ومن القواعد الأصولية انه « ما لا يتم الواجب الا به فهو واجب » والاسلام فى موضوع المال يسير على نهجه من أنه لا يصادر الغرائز ولكنه يهذبها ويضبطها فهو لا يدعو الى كراهية المال والانصراف عنه وسيرى بعد قليل انه سيسميه « خيرا » وهو هنا فى هذه الآية الكريمة يقرر حب الانسان للمال دون أن يشعرنا بأن فى ذلك غضاضة ولكنه يوجهنا على الفور بما يصلح شأننا بالرغم من حبنا « الغريزى » للمال وهو أن لا نستأثر به ، بل نشرك فيه معنا كل من هو فى حاجة اليه ومتى فعلنا ذلك فلا علينا ان نحب المال وان نسعى فى استكثار ما لدينا من مال ما دمنا سنشرك فى الانتفاع به معنا المحتاجين من غير القادرين ، ثم راحت الآية الكريمة تفصل انواعا من المحتاجين غير القادرين ممن سنعرض لهم بالتفصيل ولكنا قبل ذلك نقول كلمة عن صلة هذا الانفاق وعلاقته بالزكاة فقد حاول البعض أن يصور هذا الانفاق المشار اليه بأنه هو عين « الزكاة » المفروضة وقد عودنا قراءنا أن ندع المباحث الفقهية للمتخصصين فيها ، ولكننا فى

ذات الوقت متى انشرح صدرنا لمعنى نستخلصه من الآية اثبتناه وعندنا : انه سبحانه وتعالى لن يلبث ان ينص على الزكاة بصريح اللفظ « واقام الصلاة وآتى الزكاة » فاذا علمنا ان الزكاة ركن من اركان الاسلام لا تجب الا فى نصاب معين وبعد زمن معين « مرور عام على هذا القدر من المـــال » ادركنا أن ذلك تخصيص بوضـــع معين متى تحقق يصبح المسلم آثما اذا لم يؤده على الوجه الاكمل ، اما هنا فنحن بازاء وصف عـــام لحقيقة البر اى الخير وانه يبدأ اول ما يبدأ ببذل المـــال للمحتاجين فى كل زمان ومكان وبدون قيد او شرط وان ذلك مظهر من مظـــاهر الـــكمال الانسانى وآية على صدق ايمانه بالغيب ، والآن فلنستعرض الطوائف التى خصها الاسلام بالانفاق عليها من القادرين على ذلك وسنرى كيف يعيش المجتمع فى تعاطف وتعاون ومحبة ما سار عليها واتبعها ، وكيف يتحول الى مجتمع يفيض بالبؤس والحقد والشقاق ما ابتعد عنها وتجاهلها .

« ذو القـــربى »

واول مصادر الانفـــاق البار هو ما ينفقـــه الانسان على ذوى القربى وهم اقرباء الانسان اى افراد اسرته على مدى اتساعها على أن يشمل الانفاق الأشد قربا فالأقرب وهكذا وطبقا لحاجة هذا القريب والقدرة على معاونته ، وهذا التضامن والتكافل الذى يبدأ بالأسرة هو سر قوة المجتمع وثباته واستمراره ، ويا شقاء المجتمع وما اضعفه واسرعه الى الفوضى والانحلال اذا اصاب هذا المبدأ الأســـاسى الوهن ومن اراد أن يقف على سبب ما اصبحت تعانيه بعض المجتمعـــات من بؤس وتمزق واضطراب ، فان ذلك يرجـــع الى ضعف الروابط العائلية والتى اصبحت تقتصر بكل صعوبة على الأبناء ، فأصبحت العائلات لا تكاد تعرف بعضها والعائلة هى الخلية الأولى للمجتمع والمجتمع كأى جسد واحد قوى ما قويت خلاياه ضعيف ما ضعفت هذه الخلايا .

واليتامى : اليتيم — هو من فقد اباه باعتبار ان الأب هو المتكفل بالانفاق على ابنه وعندنا ان الطفل الرضيع الذى فقد امه هو امعن فى اليتم فالام بالنسبة للطفل هى كل شىء ، وقد جـــاء اليتامى فى ترتيب استحقاقهم للنفقة عليهم بعـــد ذوى القـــربى ، فان كان اليتيم من ذوى قربى الانسان فالانفاق عليه أوجب ، وغنى عن البيان ان النفقة تقدر أولا بحاجة اليتيم وبقدرة المؤمن على انفاق ما يزيد عن حاجته من ناحية ثانية .

والمساكين : ويأتى بعد ذوى القربى واليتامى « المساكين » والمســـاكين تكاد تنطبق على ما اصـــبحنا نعبر عنهم فى لغتنا المعـــاصرة « بالكادحين » وهم كل من يشقى ويكدح للمحافظة على حياته ولا يكاد يحصل من عمله على ما يفى بحاجاته الا بشق النفس ، وكل هذه المعانى لكلمة « المسكين » نستمدها من قول القرآن الـــكريم « اما الســـفينة فـــكانت لمساكين يعملون فى البحر » .

وزاد سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام هذا المعنى تأكيدا ووضوحا بقوله فى الحديث الصحيح « ليس المسكين بهذا الطواف الذى ترده التمرة والتمرتان ، واللقمة واللقمتان ولكن المســـكين الذى لا يجد غنى يغنيه : ولا يفطن له فيتصـــدق عليه » قال تعالى « يحسبهم الجاهل اغنيـــاء من التعفف » .

« ابن السبيل » واذا كان تعبير المســـاكين يشمل قطاعا عريضا من النـــاس فيكاد التعبير « بابن السبيل » يشمل قطاعا اعرض . فهـــو كل مسافر الى بلد « المتصدق » او مار به ، فهو كل مغترب عن بلده لسبب مشروع (مبـــاح) وله احكام فى كتب الفقه .

« والســـائلين »

يعتبر الانفاق على السـائلين هو غاية البربصورة عامة لم يوضع لها وصف ولا تحديد من اى نوع كان وهو كل من « يسالك » ان تتصدق عليه ، وليس هناك ما يكشف عن مدى تقـدير القرآن الكريم للكرامة الانسانية من هذا النص ، فقد خلق الله الانسان وكرمه تكريما « ولقد كرمنا بنى آدم » وغرس فى النفس البشرية اعتزازها بنفسها واحساسها بكرامتهـا ومن هنـا كانت الطبيعة البشرية تأنف من أن تكشف عن ضعفها وعجزها ، فاذا خالف انسان هذه القاعدة وهذا المبدأ فهو الدليل على أنه لم يفعل ذلك الا مضطرا وتحت ضغط الحاجة ولمـا كان الاسلام حريصا على الكرامة الانسانية وعلى الحفاظ على أمن المجتمع وسلامه عن طريق تكافله وتضامنه فقد جعل مجرد السؤال مؤديا الى استحقاق الاستجابة (ودائما عند القدرة بطبيعة الحال) .

المحترف ليس سائلا

ويخرج بطبيعة الحال من هذا الوصف من احترف التسـول (اى السـؤال) فليس ذلك الا انحرافا ككل صنوف الانحرافات وقـد نهى عنه رسول الله بقوله « لأن يأخذ احدكم حبـله فيحتطب خير له من أن يسأل الناس ، اعطـوه او منعوه » .

« وفى الرقاب » وينتهى التعداد بذكر طائفـة قد لا توجد فى بعض المجتمعات بالصورة التى كانت عليها حتى قرن وأحد خلا ، ولكنها ستظل ناطقة فى القرآن وشاهدة وداعية الى ان الاصل فى الانسان هو الحرية وأن فقدان الحـرية أمر عارض ينبغى مقاومته كالمرض سواء بسواء فكما ان الصحة هى الأصل ويجب العمل بكل الوسائل على دفع المرض ، كذلك فقدان الحرية ، ومن هنا فان الاسلام جعل من اكبر القـربات الى الله « فك الرقبة » اى تحرير العبد ، بل جعـل فك الرقبة كفارة عن اعتى الذنوب كالقتل خطـأ . وفى ذلك الاشارة الالهية انه ليس يعوض قتـل نفس عن طريق الخطـأ ، الا باحياء نفس عن طريق تحريرها من العبودية وسنعود للحديث عن هذا الموضوع مرات ومرات حيث ستقابلنا آيات فك الرقبة ومناسباتها .

« واقام الصلاة «

اى ادى الصلاة بأركانها وشرائطها .

وآتى الزكاة : اى أعطى الزكاة المفروضـة لمستحقيها .

اداء الفرائض شرط لازم للامتياز

ومما هو جدير بالملاحظة هنا أن الآية الكريمة وهى تتحدث عن درجة عالية من صنوف البر من نوع ما مر بنا وما هو آت قد حرصت ان تذكر بأن اى عمل من اعمال البر مهما علا وسما فيجب أن يبدأ أولا وقبل كل شىء من اداء الفرائض فهى الأساس اللازم لاقامة البناء الشامخ .

والموفون بعهدهم اذا عاهدوا : وبعد أن ذكرت الآية الكريمة بالصلاة والزكاة ، استانفت سردها لصـنوف البر والحـق فكان النص على الوفاء بالعهد ، فعندما يحدثونك « أيها الشاب » على أن مظهر المدنية والحضارة الغربية اليوم فى التعامل انما تقوم فى الدرجة الأولى على ما يسـمونه الوفاء « بالالتزامات » فقل لهم سبق الاسلام الى ذلك منذ اربعة عشر قرنا فحض المسلمين على أن يكونوا عند شروطهم بمعنى أن يفوا بما تعهدوا به ، فكان ان استقامت احوالهم ، وشـهدوا الحضارة الاسلامية الزاهية ، فاذا رأينا اليوم القـوة والحضـارة والعلم قـد أصبحت فى الغربيين ، حيث دالت دولة المسلمين ، فليس ذلك الا آية نصاعة التعاليم الاسلامية وانها ينبـوع التحضر والتمدن والقوة ، فقد عز الأوربيـون وسادوا عندما استمسكوا بقاعدة الوفاء بالعهد ،

عندما جعلوا الصدق الأساسى فى التعــامل ،عندما تحلوا بالنظافة وهى التعاليم الاســلامية والتى انحدر المسلمون عندما تخلوا عنها .

وما فتىء القرآن الكريم يأمر بالوفاء بالعهد فىجميع صوره واشكاله ، سواء على مســتوى الفرد (فى معاملاته والتزاماته) او على مستوىالجماعة فى معاهداتها وسيرد علينا اذا قيض الله لنا الحياة حتى نصل الى سورة براءة كيف ان اللهسبحانه وتعالى بعد أن تبرأ من المشركين ودعا الى حربهم ، استثنى من ذلك من كان بينهم وبينالمسلمين « معاهدة » فأمر باحترآم المعــاهدة والوفاء باحكامها حتى تنتهى مدتها ، وهكذا علمالله المسلمين ، ان الوفاء بالعهود ركن جوهرى لتحقيق الحضارة والعمران « واوفوا بالعهد انالعهد كان مسئولا » .

ومن هنا فقد نزع رسول الله صفة الايمــانعمن يخون العهد سواء فى القول او العمل ودمغ من يفعل ذلك بالنفاق فقال « آية المنافق ثلاثاذا حدث كذب واذا وعد اخلف واذا اؤتمن خــان » .



بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۗ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ

« والصابرين فى البأساء والضراء »

البأساء ، الفقر والشدة والمعاناة فى الحياة.

والضراء : المرض والشيخوخة وكل صــنوف البلاء وقد افضنا من قبل فى موضوع الصبر .

« وحين البــأس »

ويصل الصبر الى ذروته فى ساحة المعركة ،حيث يصبح قمة الفضائل كلها ومفتاح النصر .

« اولئك الذين صدقوا » اى اخلصوا .

« واولئك هم المتقون » اى الذين امتــلات قلوبهم من خشية الله حقا وصدقا وحرصوا على مرضاته فى السر مثل ما فى العلن ، فى العسر مثل ما فى اليسر .

الانســان الكامل :

وقد حرصت البشرية منذ اقدم عصورها سواء فى اديانها او فلسفاتها وآدابها على نشـــدان الكمال الانسانى ولكن كل محاولاتها باءت بالفشل شكلا وموضوعا ونعنى بالشكل عدم تحــديد العناصر اللازمة لتكوين الانسان الكامل (نسبيا بطبيعة الحال) وموضوعا من حيث انهــا لم تستطع أن تقدم نموذجا لهذا الكمال الانسانى ،وليس الا فى القرآن وفى تاريخ الاسلام من ستقابل نماذج الانسان الكامل (نسبيا) .

ففى القرآن الكريم سنرى التحديد الناصــع للصفات المطلوب توفرها فى الانسان لتحقيق هذا الكمال النسبى كما هو الشأن فى هذه الآية التى نحن بصددها وخاصة اذا ضم اليهــا آيات اخرى مماثلة . هذا من حيث الشكل ، اما من حيث التطبيق فالتاريخ الاسلامى ملىء بالنماذج الرائعة التى تأدبت بأدب القرآن وانتهجت سنة الرسول فى التخلق بخلق القــرآن ، فكان أن اضــاءت واشرقت ، وسعد بها البشر على اختلاف الامكنة ومرور الأزمان .

« يا أيها الذين آمنوا كتب عليــكم القصاص فى القتلى الحر بالحــر والعبد بالعبد والانثى بالأنثى فمن عفى له من أخيه شىء فاتباع بالمعروف واداء اليه باحسان ذلك تخفيف من ربكم ورحمــة فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب اليم » .

بدء مرحلة التشريع :

بهذه الآية الكريمة يبدأ التشريع الكامل للمجتمع الاسلامى والذى هو اعظم واكمل واشمل ما عرف البشر من تشريع ولا عجب فى ذلك فهو تشريع سماوى اوحى به الى رســول الله ، وسنرى تكامله فيما سيعرض لنا من آيات تبدأ من الآية الكريمة التى نحن بصددها حيث تتناول عقــوبة القتل ويمتد التشريع ويتفرع حتى ليتنــاول ادق التفاصيل وهو حيث سار وانى اتجه يمثل الكمال المطلق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه او من خلفه وسوف نعود لموضوع التشريع الاســلامى اكثر من مرة بمناسبة الآيات القادمة ، اما الآن فنقدم الحديث بما بدأت الآية سلسلة التشريع الاسلامى وهى جريمة القتل كبرى جرائم المجتمع ونرى قبل ان نتصدى لفهم هذه الآية الكريمة تدر

استطاعتنا أن نثبت ما جاء فى تفسير المنتخب الذى وضعه نفر من علماء المسلمين الاعلام تحت اشراف المجلس الأعلى للشئون الاسلامية فقالوا وبالله التوفيق :

« كان العرب فى الجاهلية لا يسوون بين الاشراف والضعفاء فاذا قتل زعيم لا يكتفى بقاتله، بل قد يترك القاتل ليقتص من زعيم قبيلة القاتل ، فالدماء عندهم ليست متساوية ، والنفوس ليست واحدة وما كان الاسلام ليسمح بهذا ، بل شرع القصاص فالنفس بالنفس ، فمن قتل يقتل فالحر ايا كان يقتل بالحر ، والعبد يقتل بالعبد والأنثى تقتل بالأنثى . فهذا واجب المساواة فى الدماء ليس هناك دم ازرق شريف ودم غير شريف . وتديفهم بالاشارة ان العبد لا يقتل بالحر او الحر لا يقتل بالعبد ، ولكن صريح القصاص فى آية اخرى. وفى احاديث نبوية تفيد ان القصاص فيه « النفس بالنفس » وهى شريعة خالدة كانت فى التوراة والانجيل والقرآن ، فقد قال تعالى : « وكتبنا عليهم فيها ان النفس بالنفس » راجع سورة المائدة ، والنبى يقول : «المسلمون تتكافأ دماؤهم» ويقول : (النفس بالنفس) ويلاحظ ان الاسلام فى القصاص للقتلى نظر الى امر لم ينظر اليه القانونيون وهو أنه جعل القصاص حقا لأولياء الدم شفاء لغيظ نفوسهم ومنعا لاهدار دم برىء ولذلك كان لهم حق العفو او القصاص ولم يمنع ولى الأمر من ان يقتل تعزيرا اذا راى فى ذلك مصلحة ولم ينظر الاسلام الى البواعث لأن القاتل ظالم مهما تكن البواعث وقد ادى النظر فى البواعث الى الرافة بالجانى واهمال المجنى عليه مما ادى الى اعادة الأخذ بالثار وتسلسل جرائم القتل لانه لم يشف أولياء الدم وان هذه النظرية الاسلامية تدرس الآن فى الجامعات الأوروبية .

بعد هذه العبارة الجامعة التى تفيض بالحماس العلمى والاخلاص الصادق نقول وبالله التوفيق .

القصاص : هو معاقبة الجانى بمثل ما ارتكب وهو مأخوذ من الفعل قص . قص الأخبار اى تتبعها ورواها ، وقص القصص : روى الأخبار ،واستعمل الفعل فى تتبع الأثر ، يقال قص الأثر اى تتبع الأثر ، وقص الشعر اتباع أثره ،واستعملت كلمة القصاص بالمعنى الاصطلاحى الذى قدمناه ، يقول القرطبى :

فكأن القاتل سلك طريقا من القتل فقص أثره فيها ومشى على سبيله فيها ومنه « فارتد على آثارهما قصصا » .

وايا كان المعنى اللغوى للكلمة فقد أصبح معناها الاصطلاحى او بالأحرى الفقهى « معاقبة الجانى بمثل ما ارتكب » .

والمعنى اللفظى للآية من ان الحر يقتل بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى لا يثير اى صعوبة او اشكال من اى نوع كان فهو تطبيق دقيق لفكرة القصاص وانما نشأ خلاف فى الراى فى التساؤل عن قتل الحر للعبد والرجل للأنثى فهل يقتلان مع أن منطوق الآية فى هذه الحالة لا ينطبق ونحن كما يعلم القراء لا نخوض فى المسائل الفقهية ولكننا نكتفى بايراد الراى الذى نميل اليه . ومن هنا صدرنا البحث بما قاله علماء المنتخب خاصة وهو الراى الذى قال به الامام ابو حنيفة وآخرون ، ولكن الامام الشافعى والامام مالك لا يرون رأيه ،وما نريد أن ننبه له هو أن الكل قد استندوا فيما قالوا به من رأى من أحاديث صحيحة وأعمال ثابتة رويت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فليرجع الى كتب الفقه من يرغب فى الاستقصاء ،وآخر ما نختم بحثنا فى هذه النقطة هو أن ننقل ما قاله البيضاوى فى تفسيره لهذه الآية واهمية قول البيضاوى لا تجىء فقط من شهرة تفسيره . ولكنها تجىء من كونه أحد كبار علماء الشافعية الذين يخالفون الامام ابا حنيفة فى قوله من ان « النفس بالنفس » ايا كان الجانى والمجنى عليه ،يقول البيضاوى فى تفسير الآية :

« كان فى الجاهلية بين حيين من أحياء العرب دماء وكان لأحدهما طول على الآخر فاقسموا

لنقتلن الحر منكم بالعبد والذكر بالأنثى فلما جاء الاسلام تحاكموا الى الرسول صلى الله عليه وسلم فنزلت هــذه الآية وامرهم ان يتبراوا ، ولا تدل على الا يقتل الحر بالعبد والذكر بالأنثى كما لا تدل على عكسه فان المفهوم يعتبر حيث لم يظهر للتخصيص غرض سوى اختصاص الحكم» انتهى كلام البيضاوى .

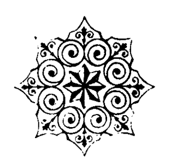
فمن عفى له من أخيه شيء : بعد ان قرر القرآن الكريم مبدأ القصاص مما سنعود للكلام عنــه بمناسبة الآية التالية « ولكم فى القصاص حيــاة » فتح القرآن الكريم بابا آخر من أبواب العلاج لبعض حالات القتل ، حيث أجاز المصالحة بين اهــل القتيل والقاتل اذا راوا فى ذلك مصلحة لهم ، فسن شريعة « الدية » كنوع من التعويض يؤدى الى تحقيق السلام والمصالحة . وجعل أولياء الدم هم أصحاب الكلمة الأولى والأخيرة فى هذا الشأن ، فان شاءوا طلبوا بالقصاص العادل كما شرعه الله سبحانه وتعالى ، وأن شاءوا لظروف خاصة بهم ان يقبلوا « الدية » فهم فى ذلك « أصحاب الشأن الا ان يرى الامام خلاف ذلك على تفصيل فى كتب الفقه ، كأن يكون القــاتل مجرما شريرا اعتاد القتل ، وقد قدمنا أنه عندما يشرع الله سبحانه وتعالى فهو اعرف بما يصلح البشر ، ومن التزيد الذى لا غناء فيه التماس الحكمة فى هذا الشيء او ذاك ، انما تلتمس الحكمة عندما يسكت الشرع فاذا أفصح وتكلم فقد أصبحت الحكمة كل الحكمة هى فى ما أمر به أو نهى عنه ، نقول ذلك بمناسبة ملاحظة نسوقها راجين أن لا يفهم من ســوقها اننا نلتمس حكمة ، اما هذه الملاحظة فهى عادة الأخذ بالثأر فى الصعيد والتى استعصت على كل علاج أو دواء ، وهى ليست سوى نتيجة حتميــة لاغفال العمل بهذا التشريع السماوى فعند دخول الانجليز الى مصر وفعلوا ما فعلوه فى القضــاء والمحاكم عطلوا العمل بهذا المبدأ الالهى وقصروا حق أولياء الدم على المطالبة بالتعويض المدنى دون أن يتدخلوا فى موضوع القصاص فكانت النتيجة هى هذه السلسلة التى تكاد لا تنتهى من عمليات الأخذ بالثأر حيث لا يشفى غليل نفس أولياء الدم الا ان يقتلوا قاتل من هم أولياؤه وتجــاهل هذه الطبيعة الانسانية لا يمكن الا ان يؤدى الى شر أى شر وقد روى البخارى عن ابن عباس فى تشريع الدية قال : « كان فى بنى اسرائيل القصاص ولم تكن فيهم الدية فقال الله تعالى لهذه الأمة : « كتب عليكم القصاص فى القتلى الحر بالحر والعبــد بالعبد والأنثى بالأنثى فمن عفى له من اخيه شيء » فالعفو أن يقبل الدية فى العمد .

« فاتباع بالمعروف واداء اليه باحسان »

ومتى تقرر مبدأ العدول عن القصاص الى الدية ، فيجب ان يكون طلبها بالمعروف ، وعلى المعفو عنه أن يؤدى الدية الى أهــل القتيل باحســان ، أى بالمعروف كذلك ، فانظر يرعاك الله يؤدبنا الله ويعلمنا الله مقتضيات كل موقف نتخذه فى هذه الحياة فلا يتداخل العنف فى موقف يقوم على الرفق وهكذا ، أشهد ان هذا القرآن بكل هذا الجــلال والكمال لا يمكن ان يكون الا من وحى السماء فهو يعلمنا هنا اننا وقد نحينا مبدأ القصاص وهــو (النفس بالنفس) واخترنا جانب المصالحة فيجب أن تكون كل تصرفاتنا مؤدية الى ذلك ويبدأ القرآن باشعار الطرفين بالوشائج التى اصبحت تربط بين أولياء الدم وبين القاتل وانها اصبحت اخــوة « فمن عفى له من اخيه شيء » . وما دامت العلاقة الجديدة قد اصبحت علاقة اخوة ، فيجب أن يتم التعامل بالمعروف والحسنى التى هى المدخــل الحقيقى للعفو والصفح .

« ذلك تخفيف من ربكم ورحمة » : أى ان هذا التشريع الذى يقرر اخذ (الدية) انما أريد به صلاحكم والرحمة بكم بوضع حد لتوارث الأحساد والأحقاد .

ويقابل هذا التشريع الالهى ما تطلق عليه الانظمة القانونية « الوضعية » الاوروبية (الظـروف المخففة) ذلك ان المجتمعات قد اكتشفت من خلال التجارب ان قاعدة قتل كل من قتل لا يمكن ان تطبق على اطلاقها والا ادت الى مضرة اشد ومن هنا اخترعوا حكاية (الظروف المخففة) بحيث يتفادون اعــدام كل من قتــل . ولكنهم سرعان ما افسدوا ثمرة هذه الظروف المخففة اذ اناطوا تقديرها للقاضى او المحلفين فأصبحت تشـجع على القتل لا أن تقلل منه اذ اصبح القاتل مطمئنا الى انه قد يفلت من الاعدام عندما يتقدم لقضائه بالدوافع التى ادت به الى القتل ، اما لو كان كل قاتل يعرف أن مصيره سيكون رهنا بارادة اولياء الدم فان شاءوا أصروا على القصــاص منــه (اى اعدامه) لقل عدد الذين يقتلون ، ومن ناحية اخرى ان يخفف القاضى حكم الاعدام الى السجن لأى سبب من الأسباب دون رضاء أولياء الدم لن يكون له اى اثر الا زيادة الأحقاد والدمار الاجتماعى ويتصور بعض (السذج) أن عادة الاخذ بالثار تزول بانتشـــار التعليم والحضارة وهو تصـــور وصفناه بأنه ساذج لأن التعليم والمدنية لا يمكن ان تلغى الغرائز واقصى ما يمكن ان تفعله أن تتطور بها وتعطيها اشكالا جديدة ولكنها لا يمكن ان تلغيها ابدا ، وشعور الانسان اى انسان بالانتقـام ممن أزهق روح انسان عزيز عليه هو مسـألة جبلية غريزية لا يمكن مقاومتها والذى يحدث الآن ان أوليـاء الدم فى اى مجتمع عندما لا تشـفى صدورهم باعدام من أعدم عائلهم ، يتحولون الى اعداء لهذا المجتمع نفسه كل المجتمع فانظـر (يرعاك الله) مرة اخرى كيف يعالج التشريع الالهى الداء من اساسه وذلك بانفـاذ مشـيئة أولياء الدم اولا لأنه بهذا ، وبهذا فقط يمكن حصر الضرر الذى وقع فى اضيق نطاق . ان الشقشقة التى يقول بها واضعو القوانين العصرية من ان جريمة القتل تقع فى الدرجة الأولى على المجتمع هو قول لغو تكذبه التجربة فهى تقع فى الدرجة الأولى وبطريق مباشر على أولياء الدم ثم يأتى تأثيرها على المجتمع فى الدرجة الثانية ، وهــو ما قرره القرآن الكريم بقوله « من قتل نفسا بغير نفس اوفساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعا » ولما كان قتل الناس جميعــا هو على ســبيل المعنى والكناية فلا يجب بحــال ان يبطل مفعول القتل الفعلى المباشر ، واول اثر لازهاق روح بشرية بعد ازهاقها هو نشوء اولياء الدم والذى يتوقف على ارضائهم وشفاء غليلهم أولا وقبل كل شىء أمن المجتمع وسلامه ، ولمــا كان الله سبحانه وتعالى هو خالق البشر ويعلم كل ما فيه صلاحهم فقد جعل مناط الأمر اولا الى اولياء الدم ، فان شاءوا طالبوا بالقصاص وان شاءوا (لظروف ما) ان يقبلوا الدية ، ونظم القرآن الكريم كما قدمنا مقتضيات كل حالة ومرة اخرى تنبه الى ان العمدة فى تحديد هذه المسائل هى من اختصاص كتب الفقه اولا وأخيرا ، لأنها لا تقف عند حد النصــوص القرآنية وانما تضيف الى ذلك ما ثبت لها من سنة الرسول صلوات الله عليه وسلامه وعمل الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم .



بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى الْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَ مَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾ فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾ يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى

« فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب اليم »

بعد أن قرر الله سبحانه وتعالى الحدود والاوضاع التى ينبغى اتباعها فى كل ما يتصل بجريمة القتل ، اعتبر كل تجاوز لها بمثابة عدوان يجازى الله عليه بالعذاب الاليم وقد حاول بعض المفسرين أن يقصروا المعنى على من يقبل الدية ثم يعود لقتل القاتل ولكننا من رأى من قالوا انها تشمل هذه الحالة وغيرها والعذاب الاليم قد يكون فى الدنيا ولكنه مؤكد ومحقق فى الآخرة .

« ولكم فى القصاص حياة »

وختم تشريع جريمة القتل ببيان أن القصاص احد سنن الحياة للمحافظة عليها وبالتالى ازدهارها ، وهذه الآية الكريمة تؤكد ما ذهبنا اليه فيما سبق من أننا لا نحبذ محاولات اظهار الحكمة وراء هذا التشريع او ذاك فالآراء البشرية فيما يعتبر حكمة أو لا حكمة يتغير حسب الزمان والمكان ويكون من المتعين على المؤمن أن يتبع اوامر الله سبحانه وتعالى لمحض كونها اوامر الهية .

أما لماذا نقول عن هذه الآية التى نحن بصددها انها تعزز رأينا فى هذه القضية فذلك لأن الله سبحانه وتعالى عندما يشاء أن يكشف عن حكمته فهو يقرر ذلك كما هو الشأن فى هذه الآية ، والحكمة هنا لا تتغير حسب الزمان والمكان فهى احدى نواميس الحياة التى لا تتغير ولا تتبدل من أن شريعة القصاص هى السبيل للتقليل من جرائم القتل بحيث تجعلها من الأمور النادرة التى لا يقدم عليها انسان عاقل مسئول .

الدعوة لايقاف حكم الاعدام :

ومن الدعاوى التى تتردد فى العصر الحديث فى بعض المجتمعات حكاية ابطال عقوبة الاعدام ويؤسفنى ان كنت انا شخصيا ممن دعوا الى هذه الفكرة الزائفة . فى كتابى « فى ظلال المشنقة » وعزائى أننى استغفر الله اليوم واتوب اليه . واننى فيما دعوت اليه ظللت فى نطاق القرآن أستوحى آياته ومعانيه ووقفت طويلا أمام دعوة القرآن الكريم للعفو والصفح . « وليعفوا وليصفحوا الا تحبون أن يغفر الله لكم » .

وهنا يبدو الفارق الشديد بين ما نحن عليه نحن البشر من نقص يتجلى فى أنظمتنا وتشريعاتنا وبين الله سبحانه وتعالى وهو الكمال المطلق عندما يشرع لمصلحة الانسان ، فنحن لا ننظر لأى أمر من الأمور الا من خلال زاويتنا الضيقة فنقول بهذا الشىء أو ذاك فيأتى اى تشريع انسانى ناقصا لا يصلح (ان صلح) الا فى زمان معين وفى بيئة محددة ، أما التشريع الالهى فهو غير مرتبط بالزمان والمكان أنه صادر ممن خلق الانسان وهو وحده الذى يعرف ما فيه صلاح الانسان ، ومتى قال لنا القرآن الكريم « ولكم فى القصاص حياة » فلا محل بعد ذلك لأى تعليق أو تعقيب حتى ولو كان ذلك من قبيل التحبيذ والتأييد فمتى قال الله تعالى فليس لنا من قول الا صدق الله العظيم .

القتل أنفى للقتل :

لعل الذين يتابعوننا قد لاحظوا اننا نســتخدم ارق العبارات وابسطها وابعدها عن التجريح عندما نرغب فى تنحية بعض ماجاء فى كتب المفسرين القدامى ومع ذلك فلست استطيع الا ان اقرر ان حلقى غص بمبحث حفلت به كتب التفسير القديمة كلها تقريبا ، حيث عقدوا مقارنة بين « ولكم فى القصاص حياة » وبين جملة عربية شهيرة وهى قولهم (القتل انفى للقتل) وطبعا كانت المقارنة دائما تنتهى الى تفوق التعبير القرآنى وامتيازه .

وكان السيوطى المفسر الكبير ممن اورد فى كتابه « الاتقان » عشرين وجها لتفضيل العبارة القرآنية قلت ان حلقى غص بهذه المقارنة ولولا التزامى بالاشارة الى ما جاء فى كتب التفسير لاسقطت هذا الموضوع جملة ، واصبح لا مناص من ان ابدى احساس فى القضية وعندى ان عبــارة القتل انفى للقتل تعكس المجتمع الجاهلى قبل الاسلام بكل وحشيته حيث كانوا يقتلون ويبالغون فى الولوغ فى الدماء ثم صكوا هذه العبــارة على ســبيل التبرير وانهم يقتلون ليمنعوا المزيد من القتل مع ان الواقع الذى جرى بالفعل ان « القتــل ادى للقتل » ولذلك جاءت الجملة انعكاسا لذلك فراحت تقعقع بكلمة القتل وتصك الأذن بجرسها الثقيل فأين ذلك من عبارة « ولكم فى القصاص حياة » وهكذا جاء التعبير ليعكس . الحضارة والتمدن الاسلامى وان هدفه وغايته هو « الحيــاة » فى ظل العدل .

« يا أولى الألباب »

وختمت الآية الكريمة بلفت النظر الى ان هذه السنة الالهية من ان القصاص هو السبيل الى الحياة ، لا يفهمها ويعيها الا ذووا الألباب .

والألباب جمع لب وهو العقل ، واذ اباح الله سبحانه وتعالى أن نستجلى حكمته عن طريق الفكر فقد أصبح المجال مفتوحا امامنا للتأمل .

وعندى أن سر ما وقعنا فيه من سفسطات هو اننا نظرنا الى شخص الجانى فتأخذنا الشفقة عليه حينا ، والرغبة فى الابتعاد عن فكرة الانتقام حينــا آخر والدعوة الى العفو والصفح حينا ثالثا واغفلنا فى ذلك كله أمن الجماعة وسلامها فليس فى الحياة ما يحرص عليه الانسان اى انسان ، انه سوف يخسر هذه الحياة اذا هو قتل فلن يقدم على القتل ، أما ما هو دون القتــل فلن يكون له اثر الا فى زيادة عدد من يقتلون ويشقشقون أنه فى بعض المجتمعات التى الغت عقوبة الاعدام لم تزد جرائم القتل ، وهى ليست بحجة لأنه لو قامت عقوبة الاعدام لا نخفض اكثر واكثر عدد من يقدمون على القتل .

« لعلكم تتقــون »

قدمنا أن التقوى معناها « الاتقاء » اى الاحتراز وتجنب كل ما يعرض لغضب الله ولكن القرطبى يخصص معناها فيقول « المراد هنا تتقون القتل فتسلمون من القصاص ثم يكون ذلك داعية للتقوى فى غير ذلك » .

ونحن لا نرى هذا الرأى ونراها عامة فى الدعوة الى طاعة الله لــكل ما يأمر به او ينهى عنه ، والله تعالى أعلم .

« كتب عليكم اذا حضر احدكم الموت ان ترك خيرا الوصية » .

الوصية : من الفعل وصى : يقال : وصــاه بكذا : رغب اليه فى ان يعمل بما فيه خير وصلاح، فاذا صدرت التوصية من الله سبحانه وتعالى ،فهى أمر ، ايجاب .

يقال وصى فى ماله أو ولده بشىء ، اى عهدفى ذلك بما يرى ان ينفذ بعد موته ، كان يعهد ان يعطى فلانا كذا من ماله اذا توفى . (معجم الفاظ القرآن) .

خيرا : الخير معروف وهو ضد الشر ، ولـكن الكلمة هنا تستعمل بمعناها المـادى وهى كل ما يحوزه الانسان من أشياء نافعة لاشباع حاجات الانسان وهو تعبير واسع تندرج النقود وغيرها تحته ، وقد اشترط البعض أن يزيد المـال عن قدر معين حتى يصح أن يوصف بانه خير فقالوا يجب أن يبلغ الف دينـار وقال بعض آخر تكفى خمسمائة لكى تسمى خيرا وعندنا ان المـال (وهو كل متقوم) ذكر فى القرآن فى اكثر من آية بلفظ « الخير » كقوله تعالى : «وما تنفقوا من خير » ، وقوله : « وانه لحب الخير » .

ولذلك فانه يصبح من التحكم اشتراط قدر معين ليوصف المال بانه خير ويدخل فى ذلك من اشترطوا ان يكون المال كثيرا (اى بدون تحديد قدر معين) لكى يوصف بأنه خير ، ومثل هذه الأبحاث اذا كانت ضرورية فى موضوع الفقه لاستنباط الأحكام ، فمن حقنا ونحن فى مجال بسط ما نفهمه من معانى القرآن وهو علم آخر غير علم الفقه ، لأن الفقه يؤخذ من القرآن والسنة ، فمن حقنا أن نقف عند المعنى العام وتكون كلمة « خير » المنصوص عليها فى الآية تعنى المـال بمعناه العام اى نقودا وغير نقود مما هو لازم لاشباع حاجات الانسان .

« اذا حضر احدكم الموت »

اى اذا توافر لديكم الاحساس بأسباب الموت ودنو الأجل وبما أن الانسان لا يعرف متى يوافيه الأجل فتكون الآية فى مفهومنا انها تذكير للانسان بواجبه نحو والديه فى الدرجة الأولى ثم ذوى قرباه بعد ذلك وأن البر بهم لا يقف عند حد بقاء الانسان حيا ، بل يجب أن يبر ابويه وذوى قرباه فى الحياة وبعد الممات .

« بالمعروف حقا على المتقين »

اى أن تـكون الوصـية للوالدين والأقربين « بالمعروف » اى بالعدل لا غبن فيـه ولا شطط ، ولـما كان ذلك يلقى عبء الاجتهاد على الانسان وقد يكون غير قادر على الاجتهاد فقد جاءت آية المواريث فى سـورة النسـاء تتولى هذا العبء فحددت أنصبة لكل مستحق فى تركة المتوفى .

تشريع الوصـية :

وتتناول هذه الآية كما رأينا تشريع الوصـية وقد ذهب جمهـور الفقهـاء أنهـا نسخت بآية المواريث ، بينما يرى البعض أن لا تعارض بين الآيتين ، ونحن لا نخوض فى هذه الأبحاث ، فليرجع الى كتب الفقه من يريد الاستقصاء ولكننا من الناحية الأخرى لا نستطيع الا أن نلفت النظر الى مبدأين لا مناص من ذكرهما اذا ذكرت الوصية ، وهذان المبدآن يستندان الى أحاديث نبوية اما المبدأ الأول فهو « لا وصـية لوارث » والمبـدأ الثانى أن « لا وصية الا فى الثلث » والثلث كثير على ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن المسائل الفقهية مليئة بالاجتهادات ممـا يترتب عليـه خلافات .

« حقـا على المتقين »

حاول القرطبى أن يستخرج من هذا التعبير حـكما فقهيا فقال : يعنى ثابتـا ثبوت حظـر وتحصين لا ثبوت فرض ووجوب ، بدليل قوله على المتقين وهـذا يدل على كونه « ندبا » لانه لو كان فرضا لكان على جميع المسلمين ، فلمـا خص الله من يتقى اى يخاف تقصيرا دل على انه غير لازم الا فيما يتوقع تلفه ان مات . . الى آخر ما قاله القرطبى ونحن مع اكبارنا لشيخنا القرطبى

لا نشاطره اجتهاده ونختار عبـارة اشياخنا فى تفسير « الوسيط » مما يفهم منه أن المتقين هنا شأنها شأن المتقين فى اى موضع آخر وهم جماعة المؤمنين المخاطبون بالقـرآن قالوا حفظهم الله وأثابهم : حقا على المتقين اى هذه الوصية جعلها الله حقا يلتزم به من اتقى الله وراعاه .

« فمن بدله بعد ما سمعه فانما اثمه على الذين يبدلونه »

هذه الآية اعلام من الله عز وجـل ان ارادة الموصى شىء مقدس واذا كان اى شاهد مطالبة بأن يؤدى الشهادة على الوجه الأكمل فان واجبه هنا اشد ومن هنا خصصه القرآن الكريم بالاشارة اليه ، وان مجرد التبديل فى ذكر أجزاء الوصية على الوجه الذى سمعه الشاهد يعتبر اثما ، والاثم هو ارتكاب الذنب .

« ان الله سميع عليم »

ويحذر الله سبحانه وتعالى من انه يسـمع كل شىء ويعلم كل شىء .

فمن خاف من موص جنفا او اثما فاصلح بينهم فلا اثم عليه .

الجنف : الجور والميل عن الحق .

والمعنى أن كل من يكون قد علم أن انسانا ماوهو بصدد عمل وصيته ينتوى أن لا يعدل بين ورثته كأن يوصى بأمواله او الجزء الأكبر منها الى جهة ما أو الى شخص بعينه لا يرغب من وراء ذلك الا النكاية بالآخرين من ورثته فتدخل بنيـة الاصلاح وحمل الموصى على العدل فانه لا يكون آثمـا بحمله الموصى على تغيير وصيته مادامت انصرفت نيته الى تحقيق الخير والصلاح وذهب بعض المفسرين ان رفع الاثم ينصرف على من يبدل فى الوصية بعد وفاة الموصى بنية العدل والاصلاح، ونحن نستبعد ذلك بل (لا نتصوره) فان من سمع وصية فيجب أن يؤديها كما سمعها وبكل دقة فذلك اصل من الأصول التى لا تحتمل اى اجتهاد لأى سبب من الاسباب ، ولا مانع بعد ان يؤدى الامانة كما سمعها أن يتدخل لاصلاح ما قد يعتور تنفيذ الوصـية من جور ومضرة ، وبغير ذلك تضطرب الأمور وتختل .

وأغلب الظن أن ما شجع على هذا الفهم هو عبارة « فلا اثم عليه » فاستدلوا من ذلك أن الله سبحانه وتعالى يرفع الحرج عمن يبدل فيما سمعه من الوصية اذا كان يقصد من وراء ذلك الاصلاح ورفع الظلم وقاسـوا المسألة على اباحة الله سبحانه وتعالى للمضطر ان ياكل بعض ما حرم الله ، وفاتهم الفارق الكبير بين الحالتين بل لا وجه للمقارنة أصلا ، فان يخالف المضطر (غير باغ ولا عاد) امرا من أوامر الله فهو يفعل ذلك فى شأن أمر بينه وبين الله وحده أما هنا فالامر متعلق بارادة الموصى وقـد تعلق بهـذه الارادة حقوق لاشخاص آخرين وان كان فى الامر ظلم فان وزر ذلك يقع على عاتق الموصى وليس على عاتق سامع الوصية الذى يجب أن لا يبدل فيما سمعه حرفا واحدا . أما عبارة « فلا اثم عليه » فلا يمكن الا ان يكون المقصود منها رفع الحرج عمن يتدخل لتعـديل ارادة الموصى بما يزيل عنها « جنفا أو اثمـا » عن طريق المصـالحة والتراضى بين المستحقين .

ذلك هو المعنى الذى لا يمكن أن نتصور معنى غيره ، لأن القول بأن للشاهد أن يبـدل ما سمع بغرض الخير يفتح الباب على مصراعيـه ان يتصرف اى شاهد فى أمر من الأمور حسبما يتصور أنه الحق والعدل لا طبقا لما سمع أو شاهد على وجه الدقة .

ان الله غفور رحيم : والاشارة هنا الى مغفرة الله فهى لا تنصرف هنا الى الشاهد الذى « يكذب » للمصلحة كما يقول الآخرون بهذا التفسير وانما هو ينصرف فى (تصورنا) الى ما هم به الموصى

من « اثم » فجـاء فاعل الخـير ممن عمل على الاصلاح ونجح فيه ففى هذه الحالة يرفع الاثم عن الموصى نفسه .

وأيا كان المقصـود بها فنحن نصر ونلح على وجوب استبعاد كل تصور من ان الآية ترخص لمن سمع الوصـية ان يبدل فيها لأى سبب من الاسباب وان كان رفع الظلم .

فالوصية يجب ان تؤدى اولا حسبما سمعت، ولا مانع بعد ذلك للتداخل بين الأطراف المعنيين عن طريق التراضى بما يصـلح معوجها وتغيير ارادة الموصى هنا لا تكون اثما فالله غفور رحيم.

الصـوم :

بمعنى الامساك عن الطعام ظاهرة انسـانية لا حظها الانسان منذ كان انسانا ، فاذا كان قد ادرك بغريزته ان لابد له من الطعام لكى يحيا ، فقد اكتشف كذلك عن طريق الممارسة ان الكائن الحى قد يموت من التخمة اى من الافـراط فى تناول الطعام ، واصبحت الفضيلة هى ما دعا اليه القرآن الكريم « وكلوا واشربوا ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين » ، الحمية : اى الامتناع عن تناول الطعام واكتشف الانسان كذلك من اقدم العصور ان « الحمية » اى الامتناع عن الطعام لفترة قد تكون علاجا لبعض الأمراض ، ولما كانت الأديان السـماوية قد نزلت لخـير الانسان فقد تضمنت كلها وبغير استثناء فريضة الصوم على اتباعها ولهذا التكليف يشير القرآن الكريم بقوله تعالى : « كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم » .

وكتب : اى فرض

والصوم : لغة الامساك ومنه حكاية القرآن الكريم عن السيدة مريم « انى نذرت للرحمـن صوما فلن اكلم اليوم انسيا » ولكن كلمة الصوم اخذت مدلولا شرعيا فاصبحت تعنى الامتناع عن الطعام والشراب واتيان النساء من طلوع الفجر حتى غروب الشمس بنية الصوم لله تعالى .

فريضة الصوم :

وقد أصبح الصوم احد فرائض الاسلام بموجب هذه الآيات من سورة البقرة التى نزلت بالمدينة وتعين شهر رمضان من كل عام وقتا لأداء هذه الفريضة كما سوف يرد علينا .

وقبل نزول هذه الآيات كان المسلمون يمارسون نوعا من انواع الصيام تشير له الآيات القادمة.

ونحن نرى أن هذه الآيات الخاصة بالصوم آيات محكمة مترابطة فى معانيهـا بحيث تنظم كلها « ركن الصوم » ولكن المولعين من القدامى « بالناسخ والمنسوخ » يجزئون الآيات فيفسرون اجزاء منها على معنى معين ثم يعتبرون اجزاء أخرى ناسخة ، وعندنا ان ذلك تكلف لاغناء فيه، فالآيات الكريمة وحدة واحدة لا خلاف بين جزء وآخر وان ما جاء فى أولها من تعميم فقـد جاء آخرها بالتخصيص .

والشىء المحقق عندنا ان المسـلمين ظلـوا يمارسون الوانا من العبادة والتصرفات الى ان ينزل القرآن بحدود هذه المسالة او تلك فتصبح هى الشريعة ، وتكون الكيفية التى مارسها بها الرسول هى السنة الواجبة الاتباع طبقا لمـا حددتها كتب الأصول المعتمدة من الفقه .

والصوم لا يقف عند حد كونه فريضـة من فرائض الاسلام بل ان رسـول الله صلى الله عليه وسلم قد جعله ركنا من اركان الاسـلام ومفهوم الركن انه احد المقومات الأساسية الذى لا يقوم الشىء الا به ، جاء فى الحديث الصحيح وعليه الاجماع :

« بنى الاسلام على خمس : شهادة ان لا اله الا الله ، وان محمدا رسول الله واقام الصلاة ، وايتاء الزكاة وصوم رمضان والحج » .

والاحاديث فى اهمية الصوم وخطورته فى حياة المسلم كثيرة ، نكتفى بذكر حديثين . روى الشيخان البخارى ومسلم عن رسول الله انه قال : « من صام رمضان ايمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه » وجاء فى الحديث القدسى : « كل عمل ابن آدم يضاعف الحسنة بعشر امثالها الا الصوم فانه لى وانا اجزى به » رواه مسلم .

وهذا معناه ان الله سبحانه وتعالى جعل الصوم من العبادات التى يكافىء عليها الى مالا نهاية .

المسلمون والصوم على مر العصور :

ويكاد يكون شهر رمضان واستقبال المسلمين له المرآة التى تعكس مدى ما هم عليه من تقدم او تخلف فعندما كان المسلمون « هم الناس » بمعنى ان كانوا هم ائمة الهدى ومبعث الضياء وقادة الحضارة ، فقد كانوا يتهيأون لرمضان بالتوبة والكف عن المعاصى ، فاذا اقبل اقدموا على كل صنوف الطاعات والتقرب الى الله سبحانه وتعالى بالصلاة والاحسان كل فى حدود طاقته ، وبالجملة فقد كان الشهر الذى يحاول فيه المسلمون ان يغسلوا فيه ادرانهم وان يعيدوا فيه اصلاح نفوسهم ومن هنا عز المسلمون وسادوا ، فالانسان بخير ما توقف من حين لآخر لمحاسبة نفسه .

وتخلف المسلمون :

وجاء وقت تخلف فيه المسلمون وهى الفترة التى لا تزال مستمرة حتى الآن ولكن من حسن الحظ انها اوشكت على نهايتها وفى هذه الفترة وان ظل السواد الاعظم من الناس يحترمون شهر رمضان الاحترام الواجب ويقومون بحقه، فان الجمهرة العظمى من القادرين قد حولوا هذا الشهر الى شهر :

١ — الافراط فى الطعام .

٢ — السهر فى اللهو المباح .

٣ — التوقف او على احسن تقدير التباطؤ فى العمل وبالتالى الانتاج .

وانا اتحدث عما يجرى فى مصر بخاصة حيث تعلن الارقام ان كميات ما يستهلك فى شهر رمضان وحده يكاد يساوى ما يستهلك على مدار السنة ، وحقا ان جزءا من هذه الزيادة يذهب الى عمل الخير ، ولكن الصحيح ايضا ان الجزء الاكبر من هذه الزيادة يذهب الى بطون الصائمين الذين قلبوا آية الصوم فجعلوه عكس المقصود منه ، والكلام ذو سعة فى هذا الموضوع ولذلك نكتفى بهذه الاشارة ، كذلك بالنسبة للموضوعين الاخيرين ونعنى بهما موضوع الملاهى وتعطل الانتاج فقد اصبح شهر رمضان موسما لكليهما ولكننا نعود لنؤكد ان السواد الاعظم من المسلمين بخير ويستقبلون رمضان ويعايشونه بما هو اهل له ، عرفت انسانا توفى الى رحمة الله كان مدمن خمر ، ولكن اذا جاء رمضان كف عن شرب الخمر واقبل على الصلاة ويقول لى لا جدوى من الصيام بغير صلاة .

العاشر من رمضان :

واذا كنت قد أشرت فيما سبق أن مظاهـر تخلف المسلمين كما يعكسها شـهر رمضان قد

اذنت بالزوال فانى استمد تفاؤلى هذا مما حدث فى العاشر من رمضان عام ١٣٩٣ هجرية حيث عز الاسلام فى هذا اليوم المجيد حيث تمكنت قواتنا من العبور وانتصرنا فى هذا اليوم الخالد تحت هتـاف « الله اكبر » على الاسرائيليين ، وسيكون هـذا اليوم بدء البعث الاسـلامى ان شاء الله .

« لعلكم تتقـون »

وختمت الآية بالصيغة القرآنية التى تستعمل كلمة « لعل » التى تفيد لغويا معنى الترجى ولكن القرآن الكريم « فى تصورنا » يستعملها للتعبير عن الندب والحث على التقوى ، والتقوى هنا بمعناها العام اى ذروة الايمان بالخوف من الله واتقاء عذابه بالامتثال لأوامـره والانتهـاء عن نواهيه .

« أياما معـدودات »

قدمنا أن الصوم يعنى فى اللغة الامساك ولكن القرآن الكريم وقد جاء ليشرع الفرائض للناس جميعا ، بطريقة سمحة فى الاستطاعة اداؤها فى نطاق من اليسر ، بادر بتحديد الصوم وأنه لن يكون على مدار القسم الأكبر من السنة ، وانما سيكون محصـورا فى ايام معـدودات من كل سنة ، ثم لم يلبث القرآن الكريم أن حدد هذه الأيام المعدودة بشهر رمضان اى ان فريضة الصـوم وقف على جـزء من اثنى عشـر جزءا من السنة اى ثلاثين يوما من ٣٦٠ وهو ما نتصور انه تفسير « أياما معدودات » .

ولكنك ستجد فى التفاسير القديمة من يقول لك . ان المسلمين كانوا يصومون ثلاثة ايام ويوم عاشوراء ثم نسخ هذا فى هـذه الأمة بشـهر رمضان وقال معاذ بن جبل : نسخ ذلك « بأيام معدودات » ثم نسخت الأيام برمضان .

فأما أن المسلمين كانوا يصومون بضعة أيام على وجه ما قبل تقرير صوم رمضـان فهـذه حقيقة متفق عليها ، وقد روت كتب السيرة المعتمدة ان سيدنا محمدا عندما هاجر الى المدينة وجد اليهود يصومون يوم عاشوراء باعتبـاره اليوم الذى اكرم فيه الله سيدنا موسى ومن معه فقال سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم : نحن احق بهذا منهم فصام يوم عاشـوراء وصـامه المسلمون بالتـالى ، هذه وقائع روتهـا كتب السيرة .

ولكن النص القرآنى الذى امامنا ينصرف الى تفصيل فريضة الصوم ، كما انتهت اليه ونرى من التكلف تخصيص صـدر الآية لفترة زمنية محددة ، واعتبارها ناسخة لشىء ما ، ثم اعتبارها منسوخة بدورها بالآية التى تليها ومن حسن الحظ ان عمدة التفسير واشياخه لم يأخذوا بهذه الأقوال واعتبروا الآيات منذ بدايتها حتى نهايتها حديثا عن فريضة شهر رمضان .

ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿١٨٥﴾ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ أُحِلَّ لَكُمۡ لَيۡلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمۡۚ هُنَّ لِبَاسٞ

- **« فمن كان منكم مريضا او على سفر فعـــدة من ايام اخر »**

قدمنا أن البعض يرون أن الحديث عن الصوم فى هـــذه الآية منفصل عن الحديث عن صـــوم رمضان مع أن هذا القسم من الآية يفيد :

١ — أن الصوم فى أيام عدة وأنهـــا كانت محددة ومعروفة .

٢ — أن الافطار فيها لعذرى المرض والسفر جائز شريطة تعويضها بأيام اخرى .

ولم تنقل لنا أحاديث صحيحة ما هى هـــذه الأيام المحددة ، وكل ما قيل هو انها ثلاثة ايام من كل شهر عربى « فى وسطه » وليس أمامنا الاصوم شهر رمضان بكامله فهو الذى يتسع لهذا التعبير فى يسر « فمن كان منكم مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر » .

- **رخصة الافطار فى المرض والسفر :**

وفى تفسير القرطبى كما فى كتب الفقه : الكثير عن رخصة الافطار فى حالتى المرض والسفر ، ولكننا فى حدود التفسير اللفظى للكلمات ومعانيها الظاهرة نثبت هنا نص ماجاء فى « التفســير الوسيط » لأشياخنا علماء الأزهر تعليقـــا على هذه الرخصة ، قالوا : » فمن كان منكم مريضا او على سفر فعدة من أيام أخر » :

اى فمن مرض منكم أو سافر فله أن يفطر مدة المرض أو السفر ، ثم يقضى أياما بعدة ايـــام فطره . وتقدير المرض والسفر ، فيه خلاف بين الفقهاء . فقد ذهب بعضهم : الى ان اى مرض او سفر ، يبيح الفطر . وذهب الجمهور الى ان المرض المبيح للفطر . هو الذى يشق احتمال الصيام معه ، ولا يحتمل عادة . ومثل المرض الشديد والخوف من استمراره ، أو زيادته ، أو توقع حدوثه ان صام ، بحكم عادة أو مشـــورة طبيب عادل . وهذا هو الراجح . وقيل : غير ذلك . وأما السفر ، فحدده بعضهم بثمـــانية واربعين ميلا ، بينما نزل به البعض الآخر الى ثلاثة اميال .

وقيل : غير ذلك . ويشترطون فيه الا يكون سفر معصية وعلى المسلم ان يحتاط فى تقـــدير المرض ، فالصوم أمانة بين العبد وربه ، كمـــا عليه ان يحتاط فى تقدير مشقة السفر ، وبخاصة فى هذا العصر الذى توافرت فيه سبل الراحة بالمواصلات السريعة . وحسبه قوله تعالى ، « وأن تصوموا خير لكم ان كنتم تعلمون » فينبغى له ان يصـــوم كلما امكن الصـــوم ، وان انطبقت

عليه الرخصة . واذا أفطر المترخص بالسفر او المرض فلا ينبغى ان يعيب عليه من صام، مع وجود الرخصة لهم . فقد روى الشيخان عن انس رضى الله عنه : « كنا نسافر مع الرسول صلى الله عليه وسلم فلم يعب الصائم على المفطر ، ولا المفطر على الصائم » .

« وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين »

يطيقونه : ماخوذ من الطاقة وقد جاء فى معجم الفاظ القرآن ما يلى :

الطاقة : اقصى الغاية اى ما يمكن فعله بمشقة بعدها العجز فتصعب مزاولته وليست الطاقة القدرة ولا الوسع لانها ادنى درجات القدرة والوسع ما تتسع له القدرة .

ومعنى يطيقونه : تصعب عليهم مزاولته .

جاء فى بعض كتب التفسير التى تعنى كثيرا بالناسخ والمنسوخ ان هذه الآية كانت تخير المسلمين بين ان يصوموا وبين ان يفتدوا صومهم باطعام مسكين فكان من شاء صام ومن شاء افطر ويفتدى حتى نزلت « فمن شهد منكم الشهر فليصمه » فنسختها . وقد قررنا من قبل ان المسلمين صاموا وفق قواعد معينة قبل فرض الصوم حتى نزلت هذه الآيات وعندنا انها كل متكامل مترابط تزيد كل آية على ما قبلها فى التخصيص والتفصيل فى حدود ما جاء فى أولها « كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم » .

ومن هنا اخترنا قول من قال ان لا نسخ فى الآيات وجئنا بتعريف المجمع اللغوى لكلمة « يطيقونه » وانها تعنى «يصعب عليهم مزاولته» اى يصومون فى جهد ومشقة فيصبح واجبا عليهم اذا افطروا اخراج فدية طعام مسكين ويدخل فى هؤلاء — اى من يصومون بمشقة — الشيخ الضعيف والحامل والمرضع ونحوهم .

وقد حدد الفقهاء الحد الادنى لاطعام المسكين الذى يجزىء فى هذه الحالة عن الصوم . مما قدره بعض الباحثين من الفقهاء بنصف قدح من القمح ، وعندنا ان الاطعام يجب ان يكون من نوع، وقدر طعام المفطر ، على ان المرجع فى ذلك هو كتب الفقه .

« فمن تطوع خيرا فهو خير له » اى فمن زاد على قدر الفدية فأطعم على سبيل المثال مسكينين بدلا من مسكين واحد فهو خير له .

• « وان تصوموا خير لكم ان كنتم تعلمون »

بعد ان منح الله عز وجل الرخصة للمريض والمسافر وكل من يصوم بمشقة ، نبه الى ان الصيام فى جميع هذه الاحوال هو الاحسن والأفضل شريطة ان لا يتعرض الصائم بصومه الى الخطر يقول أصحاب الوسيط ففى مثل هذه الحالة الفطر واجب بالاجماع لقوله تعالى : « ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة » .

« شهر رمضان الذى انزل فيه القرآن »

واختار الله عز وجل من بين شهور السنة الاثنى عشر ، شهر رمضان ليكون هو الأيام المعدودات التى يزاول فيه الصوم ثم بين لنا سبحانه وتعالى انه اختار هذا الشهر ليظل يذكر المسلمين الى الابد انه فى مثل هذا الشهر وفى ليلة من لياليه نزل القرآن الكريم أول ما نزل على سيدنا محمد ، وسمى الله سبحانه وتعالى ليلة نزوله بأنها ليلة القدر وانزل فى افضليتها سورة تشع حروفها ومعانيها بموسيقى من نوع خاص تهتز لها ارواح المؤمنين فقال وقوله الحق :

« انا أنزلناه فى ليلة القدر . وما ادراك ما ليلة القدر . ليلة القدر خير من الف شـهر . تنزل الملائكة والروح فيها باذن ربهم من كل أمر . سلام هى حتى مطلع الفجر » .

فالقرآن الكريم نزل أول ما نزل على سيدنا محمد فى احدى ليالى رمضان . فشاء الله سبحانه وتعالى اختصاص هذا الشهر بفريضة الصوم التى هى عامة فى سائر الأديان لفضائلها .

نزول القرآن :

وثمة أقوال لبعض أجلاء الصحابة تتحدث عن انزال القرآن جملة واحدة من اللوح المحفوظ الى سماء الدنيا ، فى ليلة القدر ، ثم نزل به جبريل بعد ذلك على سيدنا محمد منجمـا فى ثلاثة وعشرين عاما بحسب المناسبات ، ونحن فى هذه القضية من رأى الشيخ الامـام محمد عبده وتلميذه الفقيه الشيخ رشيد رضا على ما جاء فى تفسير المنار من أن ذلك من الأمور الغيبية التى نفوض علمها الى الله عز وجل ، ونقف عند حد القرآن الكريم فى قوله تعالى : « بل هو قـرآن مجيد ● فى لوح محفوظ ● » .

والآية الواحدة من القرآن تسمى قرآنـا ، وقد تحدثت أكثر من آية على انزال القرآن على قلب سيدنا محمد قبل أن يكون القرآن كله قد نـزل .

القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان :

القرآن : اسم لكلام الله الذى نزل به جبريل على قلب سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو بمعنى المقروء ، وقيل ان الكلمة من الناحية اللغوية هى مصدر قرأ يقرأ قراءة وقرآنا .

جاء فى التنزيل : « وقرآن الفجر ان قرآن الفجر كان مشهودا » اى قراءة الفجر .

هدى : ارشاد وبيان .

اى ان القرآن الكريم أنـزل على رسـول الله لارشـاد البشرية لما يصلحها وينفعهـا فى الدنيا والآخرة .

« وبينات من الهدى والفرقان »

البينات جمع بينة من بان الشىء اذا وضح والفرقان هو ما فرق بين الحق والباطل ، وهذا القسم من الآية هو التخصيص بعد التعميم ، فان القرآن كله هدى وارشاد للناس .

ثم خص الله بالذكر ما تضمنه القرآن من حلال وحرام ومواعظ واحكام وكل ما تضمنه مما يفرق بين الحق والباطل .

« فمن شهد منكم الشهر فليصمه »

وهكذا بعد أن قرر القرآن فريضة الصـوم وحدد لها شهر رمضان تشريفا له وتعظيمـا ، باعتباره الشهر الذى نزل فيه القرآن ، فكان نقطة التحول فى البشرية ، بعد هذا التمهيد انزل الله سبحانه وتعالى أمره واضحا صريحا « فمن شهد منكم الشهر فليصمه » .

وشهد هنا بمعنى حضر فى « المصر » بـدأ الشهر وعلم بكافة طرق العلم بظهور هـلال بدء الشهر ، فقد أصبح من الواجب عليه ان يصدع بأمر الله سبحانه وتعـالى فيصـوم رمضان .

ويرى بعض المفسرين ان كلمة « الشهر » هنا تعنى الهلال وكانت العرب تعبر عن الهـلال بالشـهر .

وقد روى الشيخان الحديث القاطع الشافى متى يبدأ صـيام رمضان « صوموا لرؤيته وافطروا لرؤيته فان غم عليكم فاكملوا عدة شعبان ثلاثين يوما » .

وكانت قد ثبتت فى فترة ما فكرة من يعتمد على الحساب بوجه عام لتحديد بدء شهر رمضان باعتبار انه أصبح اليوم من العلوم والمعارف « التكنولوجيا » ما يغنى عن الرؤية البصرية ، وعندنا أن ذلك مرفوض شـكلا وموضوعا ، فالاحكام الدينية كما رسم حدودها رسول الله لا تعود قابلة للاجتهاد « وسخافة » تحـكيم العقل والعلم ، فان التسليم بذلك يفتح بابا من الشر مستطيرا ، ويجب أن يكون مفهومـا أن اربعة عشر قرنا تمر على المسلمين وهم يتبعون نظاما معينا مطابقا لكتاب الله وسنة رسوله يصبح تقليدا راسخا صالحا لا تنطوى مخالفته الا على شر .

ولذلك اعجبنا ما قضى به مؤتمر مجمع البحوث الاسلامية فى قرار حديث : الاعتماد على الرؤية فى حالة الصحو والاعتماد على المراصد الفلكية فى حالة الغيم اذ الرؤية فيها رؤية .

أى ان علماء المسلمين قد التزمـوا بشرط الرؤية وغنى عن البيـان انه اذا كانت رؤيه الشخص بالعين المجردة مقبولة مادام « عدلا » فمن باب اولى عندمـا يرى المختص الهـلال بواسطة آلات الرصـد والمهم ان مؤتمر مجمع البحوث اسقط « ونرجو ان يكون الى الأبد » فكرة الاعتماد على الحسابات حيث تمكن الرؤية البصرية سواء بالعين المجردة او بالآلات الرصد، اما حيث تصبح الرؤية متعذرة ، وربما ممتنعة تماما ، كما هو الشأن فى المناطق الشمالية فضلا عن الدائرة القطبية مثلا ، فهذه يصـبح لهـا احكامها الخاصة التى تتناسب مع ظروفها ، وبقى أن تعرف أن الفقه الاسلامى والحمد لله لم يغفل امثال هذه الحالات وقد اشار اليهـا تفسـير المنـار .

« ومن كان مريضا أو على سفر فعدة من أيام اخـر »

وها هو — ما يرجع ما قدمناه من وحدة الحديث عن فريضة الصوم منذ بدأت بقوله تعالى : « كتب عليكم الصيام » الآية وان شهر رمضان هو المقصود منذ البداية ثم عاد القرآن الكريم ليؤكد الرخصة « للمريض والمسافر » أن يفطر فى رمضان على أن يصوما بعدد أيام افطارهما فى وقت لاحق « فعدة من أيام اخر » .

جاء فى الوسيط :

« والأيام الاخر ، تتم فى غير رمضان والعيدين ويكون صيامها بعد ايام الفطر » .

« يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر »

ويكشف الله عن حكمته فى الترخيص للمريض والمسافر فى الافطار أيام المرض والسفر على أن يصوموا بعد زوال السبب ، كما رخص من قبل على ما رأينا لمن يجهدهم الصوم ويهددهم بضرر أن يطعموا مسكينا ، كل ذلك وامثاله فى كل احكام الاسلام كثير ، انما شرعه الله سبحانه وتعالى لأنه لا يريد أن يقسو على البشر ويكلفهم بمـا يشق عليهم فضلا عن أن يعذبهم أو يؤذيهم فما جاء الدين الا لصلاح البشر وخيرهم كما جاء فى القرآن الكريم :

— « يريد الله ان يخفف عنكم وخلق الانسان ضعيفا » .

— « وما جعل عليكم فى الدين من حرج » . وقال عليه الصلاة والسلام .

« يسروا ولا تعسروا » .

واليسر بمعنى السهولة ، والعسر المشقة ضدذلك . وقد اشتق الفقهاء قاعدة أصولية تبنى عليها الاحكام « المشقة تجلب التيسير » .

« ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم »

ولتكملوا العدة : ذكرت آية سابقة ان الصوم« أياما معدودات » وبينت آية ثانية أن يكون ذلك فى شهر رمضان ، وهذا النص أمر باستيفاءالصوم طوال شهر رمضان اداء أو قضاء — فى حالة الرخصة —وفى كتب الفقه تفصيل ما يتبع فى عد أيام رمضان .

« ولتكبروا الله على ما هداكم »

أمر من الله تعالى أن تكون استجابة المسلملهداية الله ، بالتكبير أى بقول « الله اكبر » ومن هنا سن التكبير منذ فجر يوم العيد .

« ولعلكم تشكرون » على ما وفقكم الله اليه من العمل الصالح ، وهذا هو ما ينبغى ان يكون عليه احساس كل مؤمن صالح وهو أن يدرك ان اداءهفرائض الدين على الوجه الاكمل هى نعمة من الله جديرة بأن يشكر العبد ربه ان وفقه اليها .

« واذا سألك عبادى عنى فانى قريب اجيب دعوة الداع اذا دعان » .

الحديث عن فريضة الصوم لم ينته بعد وستردعلينا الآيات التالية لتكمل حدود الفريضة ، ويكون تخلل هذه الآية عن الدعاء وسط آيات الصوم ،اظهار للعلاقة الوثيقة بين صوم رمضان وبين الدعاء وقد روى الترمذى بسنده قول رسول اللهصلى الله عليه وسلم « الصائم لا ترد دعوته ».

الدعاء هو العبادة :

ولعل الايمان بالله وقدرته على عمل كل شىءوعنايته بالانسان لا يتجليان فى شىء قدر تجليهما فى الدعاء فالانسان لا يدعو الا قادرا ، ولا يدعو الا من يتصور انه سيستجيب .

ومن هنا جاء فى الحديث الصحيح « الدعاء هو العبادة » وفى صيغة أخرى « الدعاء مخ العبادة » والآية التى نحن بصددها تشير الى سؤال « واذاسالك عبادى عنى » .

وقد روى ان اعرابيا سأل رسول الله :« اقريب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه ، قيل فسكت النبى صلى الله عليه وسلم فانزل الله عز وجل هذه الآية » .

حديث المتكلمين :

وقد دار كلام كثير بين المتكلمين حول القربالمنسوب لله فقالوا ان المقصود بالقرب هو الاحاطة والعلم ويروى لنا الشيخ رشيد رضا :ان ذلك هو راى السلفيين كذلك ، وعندنا ان القرب والبعد بالنسبة لوجود الله او علمه ليسمشكلة على الاطلاق ذلك ان القرب والبعد سواء فى الزمان او المكان هما أمران خاصان بالانسانجاء نتيجة نقصه وعجزه فلأن أيامه فى الحياة معدودة فقد راح يحصى هذه الايام ويقسمها فكانالزمن ، ولأنه عاجز فى قدرته كان تصوره للمكان، أما بالنسبة لله سبحانه وتعالى الذىهو الكمال المطلق والقدرة المطلقة فلا وجود للزمان او المكان بالنسبة اليه وقد فصلنا هذا الموضوع فى كتابنا « تأملات » فكل حديث فى القرآن عن قرب الله من مثل قوله « ونحن اقرباليه من حبل الوريد » أو « ونحن اقرب اليه منكم ولكن لا تبصرون » كل ذلك هو حديثبمفاهيمنا الانسانية لنعلم أن عنايته وعلمه وقدرته محيطة بنا أقرب الينا مما يمكن أن يذهبله خيالنا أو تصورنا .

الدعـــاء :

وقد عالجنا موضوع الدعاء ومكانه بالنسبةللسنن الكونية فحددنا ما تصورناه شروطا لازمة لتحققه ، وافضنا فى ذلك ما شاء لنا الله ان نفيض فيه فى كتابنا « الطاقة الانسانية » ونكتفى هنا بنقل ما اثبتناه هناك . مما سماه الامام الغزالى « آداب الدعاء » ورأينا فى هذه الآداب انها تطبق لما تصورناه من السنة الالهية لتحقق الدعاءقال الامام الغزالى :

آداب الدعـــاء :

اولا : ان يترصد المؤمن لدعـائه الأوقات الشريفة كيوم عرفة من السنة ، ورمضان من الأشهر ، ويوم الجمعة من الاسبوع ، ووقت السحر من ساعات الليل .

ثانيا : أن يغتنم الأحوال الشريفة كزحـف الصفوف ، وعند نزول الغيث ، وعند اقـامة الصلوات ، ووقت السحر ، ووقت صفاء القلب وخلاصه وفراغه من المشوشات .

ثالثا : استقبال القبلة — ويرفع يديه بحيث يرى بياض ابطيه . « روى أنس انه صلى الله عليه وسلم كان يرفع يديه حتى يرى بياض ابطيه فى الدعاء » .

رابعا : خفوت الصوت بين المخافتة والجهـر « ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها » « ادعوا ربكم تضرعا وخفية » .

خامسا : أن لا يتكلف السجع فى الدعاء فان حال الداعى ينبغى أن يكون حال تضرع والتكلف لا يناسبه .

سادســا : التضرع والخشــوع والــرغبة والرهبة .

سابعا : ان يجزم بالدعاء ويوقن بالاجـابة ويصدق رجاءه فيه .

« لا يقل أحدكم اذا دعا الله اللهم اغفر لى ان شئت ، ليعــزم المسالة فانه لا مكره له .. ادعوا وأنتم موقنون بالاجابة واعلموا أن الله لا يستجيب الدعاء من قلب غافل » .

ثامنا : أن يلح فى الدعاء ويكرره ثلاثا . « قال ابن مسعود كان عليه السلام اذا دعا دعا ثلاثا ، واذا سأل سأل ثلاثا » « يستجاب لأحدكم ما لم يعجل ويقول دعوت فلم يستجب فاذا دعـوت فأسأل الله كثيرا فانك تدعو كريما » .

تاسعا : أن يفتتح الدعاء بذكر الله عز وجل .

عاشرا : الأدب الباطنى وهو الأصل فى الاجابة ، اى التوبة ورد المظالم ، والاقبال على الله عز وجل بكل الهمة فذلك هو السبب القريب فى الاجابة .

ذلك ما قاله الامام الغزالى فى كتاب الاحيـاء الجزء الاول .

أما هنا فى مجال التفسير فنقف عند حد الحديث الصحيح الوارد عن الرسول صلى الله عليه وسلم « على ما رواه مالك فى الموطأ » :

« ما من مسلم يدعو الله بدعوة ، ليس فيها اثم ، ولا قطيعة رحم ، الا اعطاه الله — تبارك وتعالى — احدى ثلاث ، اما أن يعجل فى الدنيا : واما أن يدخر له ، واما أن يكف عنه السوء بمثلها ، قالوا : اذن نكثر ، قال : الله اكثر » .

« فليستجيبوا » : اى فليطلبوا اجابتى بالدعاء بالتوجه الى وحدى فى كل شئونهم .

« وليؤمنوا بى » : بكل صفاتى ووحدانيتى وقدراتى المطلقة على الاستجابة لدعائهم .

« لعلهم يرشدون » : فهذا هو طريق الرشد ، والرشد والرشاد ضد الفساد .

« احل لكم ليلة الصيام الرفث الى نسائكم هن لباس لكم وانتم لباس لهن علم الله انكم كنتم تختانون انفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم فالآن باشروهن وابتغوا ماكتب الله لكم » .

الناسخ والمنسوخ :

يفيد هذا السياق على وجه القطع واليقين انه كان هناك مفهوم وقواعد للصوم سار عليها المسلمون قبل نزول هذه الآيات ، ومن هنا فلم ننازع ابدا ، وما كان لنا ان ننازع فى امر اجمع عليه المسلمون من أن هناك بعض العبادات والأحكام سار عليها المسلمون فترة من الوقت ثم نزل القرآن بحكم يخالف ما جرى عليه العمل حتى ساعة نزوله ، قلنا ذلك بمناسبة التحول عن القبلة ، فقد جرى العمل ، قبل ان يأمر القرآن بالتوجه صوب المسجد الحرام ، على التوجه صوب بيت المقدس فجاء القرآن بتحويل القبلة الى الكعبة فهذا نسخ لما جرى عليه العمل بالفعل لفترة ما ولكنك لن تجد فى القرآن ابدا دعوة الى اتخاذ بيت المقدس قبلة ، وكذلك الشأن فيما نحن بصدده من موضوع الصوم فالآية تنطق « كما تقدمنا » بأنه كانت هناك ممارسة فعلية للصوم وفق قواعد معينة ومحددة وجاءت هذه الآية الكريمة تعدل فى هذه القواعد وتخفف من شدتها ، ولكنك لن تجد فى القرآن ابدا اى امر لهذه القواعد التى عدل عنها ، ومن هنا اخترنا القول الذى ينفى ان يكون فى القرآن ناسخ ومنسوخ ولكن هذا لا يعنى بحال ولا يمكن ان يعنى اننا ننفى النسخ بعامة فالنسخ وجد وقام كما هو المستفاد من هذه الآية حيث تحدث عن توبة الله وعفوه لبعض اعمال قام بها المسلمون ، قبل نزول هذه الآية ، والعفو والتوبة لا يكونان الا بالنسبة لخطأ وقع بالفعل ، فنزلت الآية الكريمة لترفع عن هذا الفعل الخطر وتبيحه .

الوحى القرآنى :

وكما عودنا قراءنا من الشباب ومن المتشككين نقف امام هذه المسائل لتظهر ما فيها من دلالة على أن سيدنا محمدا لم يكن يسمى قرآنا الا ما اوحى اليه بواسطة جبريل فها هى الوان من العبادة مارسها المسلمون بالفعل على صورة ما ، حتى ينزل الوحى على سيدنا محمد بالقرآن فيحدد حدودها ، اما قبل ان ينزل بها الوحى فلن تجد لها نصا فى القرآن مع انها كانت تمارس بالفعل .

« احل لكم ليلة الصيام الرفث الى نسائكم »

احل لكم : بمعنى ابيح فليس عندنا نص سابق يفيد التحريم ، ويرى بعض آخر انه تحليل بعد تحريم والنية واحدة على الحالتين وهو الاباحة .

ليلة الصيام : اى طوال ايام الصيام متى غربت الشمس وبدا بذلك الليل .

الرفث : ما لا يحسن التصريح به وينبغى ان يكنى عنه من قول او عمل .

وهى هنا تعنى « الافضاء الى النساء » اى الجماع .

وقد تكرر اللفظ فى القرآن بمعنى « الفحش فى القول » ! .

« فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج »

مناسبة نزول الآية :

وقد ورد كثير من الأحاديث عن المناسبة التى نزلت بسببها هذه الآية وادق هذه الاحاديث واوثقها هو ما اورده البخارى بسنده :

لما نزل صوم رمضان كانوا لا يقربون النساء رمضان كله ، وكان رجال يخونون انفسهم فانزل الله تعــالى : « علم الله انكم كنتم تختانون انفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم » .

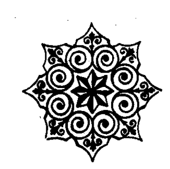
« خان واختان بمعنى الخيانة » .

وقد رويت أحاديث بنفس المعنى وبعضها يزيد الامر تفصيلا ويذكر اسماء محدده اشهرها اسم سيدنا عمر بن الخطاب ونكتفى بايراد ما اورده الطبرى :

« ان عمر رضى الله تعالى عنه رجع من عند النبى صلى الله عليه وسلم وقد سمر عنده ليلة فوجد امراته نامت فارادها فقالت له قد نمت ،فقــال لهــا ، ما نمت ، فوقــع بها وصــنع كعب بن مالك مثله ، فغدا عمر على النبى صلى الله عليه وســلم فقال : اعتذر الى الله واليك فان نفسى زينت لى فواقعت اهلى فهل تجد لى من رخصة ؟ فقال لى : « لم تكن حقيقا بذلك يا عمر »! فلما بلغ بيته . ارسل اليه فانباه بعذره فى آية من القرآن .

وكتب التفسير تورد عديدا من الاحاديث بهذا المعنى ، وقد تصدى الشيخ رشيد رضا فى تفسير المنار لهذه الأحاديث بالمناقشة والتحليل . ولنا الحكم الثابت فى الآية الكريمة من انه لا حرج من مباشرة النساء فى فترة الافطار فى ليالى رمضان « فالآن باشروهن » وهذا صريح فى انه ترخيص لشىء كان محظورا .

وما نفهمه نحن من كل ذلك ان اليهود فى المدينة كانوا قد حددوا قواعد الصوم واصبح الصوم لا يفهم الا طبقا لهذه القواعد فنزل القرآن الكريم يعدل ويحدد وييسر ما ظن انه متفق عليه .



لَكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ وَلَا تُبَـٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَـٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَـٰجِدِ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَـٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾ * يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ

« هن لباس لكم وانتم لباس لهن »

اللباس : الثوب ، فكما يحيط اللباس بالإنسان ويلامسه ويمتزج به حتى ليصبح وكانه جزء من الانسان فذلك هو شأن الانسان مع زوجته والتي تصبح بالنسبة له كالثوب او هي اقرب .

« علم الله انكم كنتم تختانون انفسكم » .

قدمنا انه كان مستقرا في مفهوم المسلمين ان غشيانهم لنسائهم في رمضان هو امر محظور ومع علمهم او تصورهم لذلك فقد غلبتهم الطبيعة البشرية ووقعوا فيما اعتبروه محظورا ، ولما كان القرآن الكريم كما اشرنا الى ذلك من قبل لا يحارب الغرائز ولا يكبتها بل ينظمها ويهذبها لانها سر الحياة ومن هنا فقد قرر القرآن الكريم هذه الحقيقة بانه من غير الطبيعي ان يحال بين الرجل وزوجته في الليل وهما يرقدان سويا في فراش واحد وكل منهما لصيق بالآخر شأن الثوب اللصيق بالجسد ، ولما كان الله سبحانه وتعالى هو الذي جهز الذكر بالشوق الذي لا يقاوم الى انثاه — اذ في ذلك سر الحياة وعمار الكون — فقد رخص القرآن بما رخص به ، ولما كان من مارسوا هذا العمل قبل نزول هذه الرخصة الصريحة ، فعلوا ما فعلوا وهم يتصورون انهم يفعلون حراما ، ويخونون انفسهم بمخالفة احكام الصيام فقد رفع القرآن الكريم عنهم هذا الحرج وانبأهم بانه « تاب عليهم وعفا عنهم » فاصبح ما وقع منهم كان لم يكن .

« فالآن باشروهن وابتغوا ما كتب الله لكم »

ولم يقف القرآن الكريم في تعبيره عند رفع الحرج ، ولكنه حرص على ازالة ما قد يكون لا يزال مستقرا في بعض النفوس من كراهية مباشرة النساء في رمضان ، فأمر امرا بمباشرتهن وابتغاء ما احله الله لهم والامر هنا لا يعني الوجوب عن قرب او بعد ، وانما هو يعني الاباحة ، اي انه اذا تحركت الغريزة فلا حرج ، فانما ذلك امر مشروع في الحدود التي ستبينها الفقرة التالية .

« وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الابيض من الخيط الأسود من الفجر » .

وبهذا الجزء من الآية تحدد صوم المسلمين بما يجعله مختلفا عن صيام مختلف الطوائف الدينية الأخرى فاصبح يقوم على مبدأ الامساك عن المباحات التي تستوجبها الغرائز من طعام وشراب ومباشرة جنسية منذ الفجر .

« ثم اتموا الصيام الى الليل » .

والليل هو غروب الشمس ، وهكذا تتحدد فترة الصوم بالمدة من الفجر « عند اول انبثاق للنور » حتى مغيب الشمس ، وهي مدة تتراوح حول الاثنتي عشرة ساعة زيادة ونقصا وهي

ليست بالأمر الشاق وانما تأتى المشقة التى يحسبها بعض الصائمين من اضطراب ما اعتادوه من تناول للطعام والشراب فى أوقات محددة ، فاذا جاء شهر رمضان احسوا بالصعوبة فى الأيام الأولى لاختلاف العادة والا فالجسم البشرى يؤدى وظائفه على خير وجه واكمله بطعام قليل ولو لمرة واحدة فى اليوم واكثر ما يتناوله الناس من الاطعمة انما هو على سبيل العادة وليس الحاجة .

ولما كان الاسلام يحرص دائما ان تكون أوامره التعبدية هى لصالح الانسان دائما وليس للاعنات فضلا عن التعذيب فقد تحدث القرآن الكريم بصيغة الامر للمسلمين أن « يأكلوا ويشربوا » .

وحث رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتعجيل بالافطار وتأخير السحور ورغب كثيرا فى وجبة السحور وذلك كله لارشاد المسلم المؤمن أن الامر كله أمر تنظيم وتدريب على الطاعة وهو عين المطلوب فى الصلاة والحج وهكذا يظل المسلم ، كل مسلم ، جنديا يقظا مستعدا على الدوام من خلال الطاعة والنظام لتلبية كل عمل يعود عليه وعلى الآخرين بالخير .

احد عباد النظام يبهره المسلمون فى رمضان

وما اكثر ما قيل وسيظل يقال عن فوائد الصوم من الناحية الصحية اذا ما اتبعت احكامه على الوجه الصحيح ، وهو مما لا احب الاسهاب فيه فما دام الصوم فريضة فرضها الله على الانسان فهى لا يمكن ان تكون الا خيرا ، ولكنى لا استطيع ونحن بصدد صوم شهر رمضان الا أن أسجل مدى انبهار دبلوماسى غير مسلم بمظهر المسلمين فى شهر رمضان ، قال لى الرجل وهو سفير المانيا فى مصر قبل الحرب العالمية الثانية مباشرة وكان الرجل قد اقام لى مأدبة ولما كنا فى شهر رمضان فقد جعل موعدها عند ساعة الافطار ، وفى ذلك الوقت الذى اتحدث عنه كان هتلر زعيم المانيا قد وصل بها الى سيادة أوربا كلها ، والالمان امة نظام ، واصبحوا فى ايام هتلر كالساعة الدقاقة ، ومع ذلك فلم يبلغوا فى ذلك شأو المسلمين فى رمضان ومن هنا فقد قال السفير ونحن على مائدة الافطار « ولكن ان يأكل كل المصريين فى لحظة معينة فهذا شىء عجيب وقوة رهيبة » .

فقلت : لا يقف الامر عند حد المصريين وانما ذلك شأن المسلمين فى طول الدنيا وعرضها اذا جاء رمضان اكلوا جميعا عند غروب الشمس ، وهذه هى عظمة الاسلام وروعته . وأقول اليوم أن يتدبر المسلمون حقيقة دينهم الذى يجعل منهم « خير أمة اخرجت للناس » .

وفى كتب الفقه تفاصيل احكام الصيام وما يفطر وما لا يفطر ، ومدته بالضبط ومتى يبدأ الفجر الذى يبدأ منه الامساك عن الطعام وبقية المحرمات وقد توهم أقوام على زمن سيدنا محمد عندما سمعوا قول القرآن الكريم « حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود » ان ذلك مقصود على الحقيقة وليس كناية عن انبثاق طلائع النور حتى أن بعضهم عمد الى عقالين أحدهما ابيض والآخر أسود ولا يبدأ صومه الا بعد أن يفرق بين لونيهما ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أن المقصود هو اللحظة المميزة بين انتهاء الليل وبدء النهار وزادت جملة « من الفجر » الأمر وضوحا وتأكيدا .

« ولا تباشروهن وأنتم عاكفون فى المساجد » .

الاعتكاف : فى اللغة الملازمة يقال عكف على الشىء اذا لازمه مقبلا عليه .

وقد أصبح للاعتكاف فى المسجد معنى خاص فى الشريعة ونبادر فنقول ان الاجماع على انه ليس بواجب وانما هو قربة . من القرب ونافلة من النوافل عمل بها رسول الله وأصحابه وازواجه.

ولما كان اعتكاف رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر ما يكون فى رمضان فقد جاءت الاشارة

الى الاعتكاف خلال الحديث عن صوم رمضان لكى يحرم على المعتكف رخصة مباشرة النساء فى الليل ، فاذا جاز هذا للصائم فانه غير جائز لمن لازم المسجد بنية الاعتكاف .

وليرجع من اراد الاحاطة باحكام الاعتكاف الى تفسير القرطبى او الى كتب الفقـه والذى يهمنا النص عليه هنا أن من الزم نفسـه بالاعتكاف فى المسجد فيجب أن يمتنع عن مباشرة النساء ما بقى معتكفا وذلك بصريح النص .

« تلك حدود الله فلا تقربوها » .

اى أن هذه الأحكام السابقة الخاصة هى حدود الله فلا تخالفوها والحدود فى اللغة الحواجز ، وحذر الله من الاقتراب منها ليظل آمنا على نفسه من مخالفتها وهى صورة قوية من صور التحذير .

« كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون »

وهكذا يوضح الله للناس العلامات الهـادية للحق « الآيات » رجاء أن يوفقوا لعمل الخـير والرشاد والتمسك بتقوى الله التى هى الهدف من كل العبادات .

« ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها الى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالاثم وأنتم تعلمون » .

آية محكمة من أمهات الكتاب

فى رأينا أن هذه الآية واحدة من الآيات المحكمات التى وصفها القرآن بقوله « منه آيات محكمات هن أم الكتاب » فهذه واحدة منهن حيث يقوم عليها سلامة المعاملات التى هى أساس لقيام الحضارة الانسانية وقد دعا القرآن كما أشرنا من قبل أكثر من مرة الى الاساس الذى تقوم عليه كل المعاملات الانسانية وهو الوفاء بالعهود ، اى الوفاء بما أخذ الانسان على نفسه ان يفى به ، وهو مـا يسـمى بلغتنا القانونيـة المعاصرة ، الوفاء بالالتزامات ، وتجىء هذه الآية الكريمة التى نحن بصددها ، لكى تصون سلامة المعاملات وتجعل من كل انسان رقيبا على نفسه لصيانة المعاملات وجعلها تسير كلها على أساس من الحق المتفق عليه بين الناس ، ويحذرهم من أكل أموالهم بينهم « بالباطل » .

يا ويل المجتمع اذا انعدم الوازع الدينى :

ونريد قبل أن نتعرض لشرح كلمات الآية أن نسجل أولا وقبل كل شىء ضرورة الوازع الدينى الذى يجعل كل انسان رقيبا وحسيبا على نفسه خوفا من الله والثواب والعقاب فى الآخرة وبين ما زعموه من ضمير أخلاقى تخلف التربية والتعليم والحوافز المادية من ناحية ، والقانون الصارم من ناحية أخرى ، وقد اثبتت التجربة افلاس هذا الزعم بحيث انعدم الوازع الدينى تحول المجتمع الى غابة تتلخص شريعتها أن القادر على شىء يفعله مادام هذا الشىء لا يعرضه مباشرة لسلطان القانون ، وانتشر الفساد حتى أوشك أن يكون عرفا جديدا ذلك أن القانون لا يستطيع أن يحدث تأثيره الا عن طريق الشرطة والمراقبين والمفتشين ومن أين يجىء بهؤلاء اذا كانوا بدورهم فقدوا الوازع الدينى ، انهم بدورهم سيكونون فى حاجة الى رقباء ومفتشين وهكذا الى ما لا نهاية فينتهى الامر كله الى الفوضى والى حياة الغابة واعماق البحار حيث يأكل القوى الضعيف ويسحق القادر غير القادر بدون رحمة أو شفقة وهو ما بات يحدث بالفعل فى المجتمعات التى يزعمون انهـا راقية وهى من الرقى براء ، فالرقى أعظم الرقى هو ان يعيش البشر مترابطين متراحمين متعاونين وهو ما لا يمكن أن يتم ويتحقق الا من الوازع الدينى الذى يجعل كل انسان كما قدمنا رقيبا ومحاسبا لنفسه وهو ما ترسى قواعده هذه الآية الكريمة « ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل » .

الباطل : ضد الحق والأصل اللغوى : الذاهب الزائل . ذلك لانه فى خاتمة المطاف لا يصح سوى الصحيح ، فيزول الباطل ويبقى الحق .

وعبر القرآن بأخذ ما ليس من حق الانسان انه بمثابة الاكل وفى آيات اخرى اعتبر ان مـــا يؤكل بهذه الكيفية انما هو « نار » .

وزاد سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم كماهو شأنه دائما الأمر تفصيلا وتبيانا لكل ما تقدم وفى الحديث الذى رواه الجماعة قال :

« انما انا بشر وانكم تختصمون الى ، ولعل بعضـــكم يكون الحن بحجته من بعض فاقضى له بنحو ما أسمع ، فمن قضيت له من حق اخيه شيئا فلا يأخذه فانما اقطع له قطعة من النار » .

وهكذا جعل سيدنا محمد ما ليس من حـــق الانسان هو قطعة من النار ، وجعل من كل انسان رقيبا على نفسه ، وبين على ســـبيل التعليم والارشاد أن حكم المحكمة « حتى ولو كان القاضى هو رسول الله نفسه لا يحول الباطل الى حق »وقد بينت احكام الشريعة الاسلامية كل ما يعتبر حقا فى المعاملات وما يعتبر الخروج عليه باطلا ،فليدرك ذلك جماعة المؤمنين ولا يتصورون انه بحسب القوانين الوضعية حتى لو خالفت مـــايعتبره القرآن حقا واعترفت بما يعتبره القرآن باطلا ، اقول لا يتصور جماعة المؤمنين الحريصين على دينهم ان الباطل ينقلب الى حق لمجرد انه ورد فى قانون وضعى وانما يشترط فى اى قانون وضعى أن لا تكون فيه مخالفة للاسلام .

وحدة المجتمع :

بقيت ملاحظة جديرة بالتسجيل لاظهار عظمة القرآن وكيف انه كان وسيكون ابدا صـــانع الحضارة والازدهار البشرى ، فهو يعتبر دائما الانسان المعتدى والخارج على الشريعة انمـــا يعتدى على نفسه فى الدرجة الأولى ففى آية يقول « ولا تقتلوا انفسكم » .

ويعنى بها قتل البعض ، وها هو هنا يحذر من اكل اموال الناس بالباطل ويعبر عنها بأنهـــا « أموالكم » .

فهل رايت هناك ما هو اروع واعظم من التعبير عن وحدة المجتمع وتضامنه وتكافله ، من هذا التعبير الذى يعتبر العدوان على الغير هو فى الدرجة الأولى عدوان على النفس .

« وتدلوا بها الى الحكام لتأكلوا فريقا من اموال الناس بالاثم وانتم تعلمون »

تدلوا ، اى تلقوا ، وهى مأخوذة من « الدلو » الذى يستخرج به الماء من البئر ، فقالوا : ادلى الرجل بحجته ، اى ارسلها .

فريقا من الناس : اى قطعة وجزءا .

والفريق : القطعة من الغنم تشذ عن معظمها.

بالاثم : اى بالظلم والتعدى . وانتم تعلمون بطلان ما اخذتم .

الرشوة .. الرشوة .. الرشوة

مذ وعينا لتلاوة القرآن ونحن لا نفهم من هذه الآية الا انها تتحدث عما نسميه فى عصرنا بالرشوة ولا نتصور أن لها معنى غير ذلك .

فالضمير فى « بها » يعود الى الأموال ويكون المعنى فى مفهومنا « ان لا تلقوا بأموالـــكم الى الحكام ، وهم كل من بيده سلطة التصرف فى أمرمـــا » .

لتاكلوا بهذا الأسلوب اموال البعض منـكم ظلما وعدوانا . اقول ان هذا هو ما فهمته دائما من هذه الآية ، ومن حسن الحظ اننى وجدت ان ذلك هو ما يقول به جمهرة المفسرين واخـذ به القرطبى فى تفسيره الجليل ونقل عن الصحاح قوله والرشوة معروفة والجمع رشى ، ويرشو ويرشى « بضم الراء وكسرها » . وقد رشاه يرشـوه وارتشى اخذ الرشوة ، واسترشى فى حكمه طلب الرشوة عليه .

لا تدلوا بالحجج الباطلة الى الحكام :

ومع ذلك فهناك من قال : ان المعنى لا تدلوا بحججكم الباطلة او خصوماتكم الى الحـكام لتبرروا اكل بعض اموال الناس ولكننا لا ناخذ بهذا الراى . ذلك لا يتوصـل اليه الا بفرض كلمات لا وجود لها يقدرونها بحسب مفهومهم وناخذ بالراى الأول وانها تعنى الرشوة .. والله تعالى اعلم .

« يسالونك عن الأهلة قل هى مواقيت للناس والحج »

الأهلة : جمع هلال ، وهو الجزء المضيء من القمر كما يرى من فوق سـطح الأرض فى أول الشهر العربى .

مواقيت للناس والحج : اى هى معالم زمنية يستطيع البشر بواسطتها ان يؤقتوا بها احوالهم المعاشية وشئونهم التعبدية كفريضة الحج ، وقد سبق بدء الصيام به فى شهر رمضـان وتوقيته بظهور هلال الشهر التالى .

صوموا لرؤيته وافطروا لرؤيته .

ليس كتاب علم بذاته :

مع ان الله سبحانه وتعالى قال لنا فى القرآن الكريم « ما فرطنا فى الكتاب من شىء » فليس معنى ذلك انه كتاب جغرافيا او طبيعة أو فلك .. الخ انه كتاب الكون كله ، بكل نواميسه وظواهره وعناصر مقوماته ، بما فى ذلك الانسان . وقـد سبقت الاشارة الى ذلك كله فى معرض الوعظ والارشاد الى عظمة الله وقدرته ووحدانيته ،وترك للنـاس أن يتدبروا فى هذه الاشارات الى السنن والظواهر والقوانين الى حيث تصل اليه عقولهم بما يعود عليهم بالنفع ، وهو ما يختلف من حين لاخر .

فالعلم ينقض اليوم ما اعتبره بالامس حقـا وسوف ينقض غدا بعض ما نعتبره اليوم حقائق علمية .

خذ على سبيل المثال ان البشر ظلوا يتحدثون قرونا على أن الارض ثابتة والشمس هى التى تدور حولها ، وكان هذا هو العلم ، ثم انقـلب العلم واصبحت الشمس ثابتة والأرض هى التى تدور حولها ، ونحن نعلم اليوم أن كلتيهما يدور ، فليس بشىء ثابت ابدا «وكل فى فلك يسبحون» .

الأجسام الطافية والأخف والأثقل من الهواء :

ويوما ما كان يستحيل عند العلماء ان يطفو فوق سطح الماء الا جسم بطبيعته اخف من الماء ولو قال احد أن سفنا مصنوعة من الحديد سيكون باستطاعتها ان تمخر عباب الماء لعد مجنونا أو على اقل تقدير جاهل وكذلك الشأن بالنسـبة للطيران حيث ظن ان لا يطير الا ما هو أخف من

الهواء ومن هنا بدات فكرة الطيران على اساس « البالون » الى ان اصبحت الطائرة اليوم مـــا اصبحت اليه .

وليس ذلك الا نموذجا لما يتكرر فى اى فرع من فروع العلم ، ففى الطب على سبيل المثال عالج الأطباء بأمر من الأمور ثم عالجوا بنقيضه وكان ذلك فى وقته يسمى علما ، كما يسمى آخر مـــا انتهوا اليه علما كذلك .

نهج القـــرآن الكريم :

سقنا هذه المقدمة بين يدى تفسير هذه الآية التى نحن بصددها .

ففى بعض الروايات أن اليهود اوعزوا بسؤال سيدنا محمد عن هذا الموضوع ، على أن الاشهر وما رددته كتب البلاغة بخاصة ، يقولون فى سبب نزول هذه الآية ان معاذ بن جبل وآخر ســألا رسول الله صلى الله عليه وسلم قالا : «يارسول الله ما بال الهلال يبدو دقيقا مثل الخيط ثم يزيد حتى يعظم ويستوى ويستدير ، ثم لا يزال ينقص ويدق حتى يعود كما كان لا يكون على حال واحد» فنزلت هذه الآية . والسؤال كما نرى يدور حول ما علمونا اياه فى المدارس تحت عنوان : « أوجه القمـــر » .

ومن هنا جـــاء اهتمـــام كتب البلاغة بهـــذا الموضوع فهم يعتبرون رد القرآن الكريم عن هذا السؤال بما اجاب به هو اسلوب الحكيم ، فحيث يدور السؤال حول معرفة الطبيعة والعلة جاء الجواب يتحدث عن الحكمة لانها هى الشىء المفيد والذى يجب أن يهتم به السائل .

ولنا من نص القرآن الكريم من أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن الأهلة اما ما هو نص السؤال فعلم ذلك عند الله وندع لائمـــة البلاغة ابحاثهم مكتفين باستخراج ما يدل عليه القول .

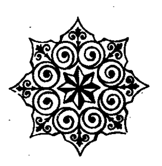
تحديد الزمن عن طريق القمر :

الف الناس فى وقتنا الحاضر التقويم الشمسى، وبالتالى تصوروا تفوق التقويم الشمسى ، ناسين أنهم لا يستطيعون تمييز الأيام فى ظل هذا التقويم الا بمعونة الدولة وحساباتها ، اما التقويم القمرى فهو الأسلوب الوحيد الذى يمكن الفرد العادى أن يعرف بمجرد النظر الى القمر فى الليل فى اى يوم هو من أيام الشهر وايام السنة ، حيث ينتقل القمر فى ابراج السماء المختلفة ، ولهذه الحقيقة أشار القرآن الكريم بقوله «والقمر قدرناه منازل» والذى يعنينا من ذلك كله أن لا يتصور متصور ان قياس الزمن بطريق القمر هو أمر قد عفا عليه الزمن ، بل ان القمر كان وسيبقى بالنسبة للرجل العادى من بنى البشر حيث يستطيع أن يرى نور القمر هو ادق واكمل اسلوب لتحقيق الزمن .

وقد بقى أن نلفت النظر الى ان الزمن هو شىء خاص بالانسان جاء نتيجة حياته المحدودة على الأرض وحاجته الى قياس فترة زمنية لفعل هذا الشىء او ذاك على ظهر الأرض ، واليوم وبعد ان خرج من نطاق الأرض فان هـــذا التوقيت الشمسى الذى يستعمله الآن لابد أن يطرا عليه التغيير ، ولعل هذا يكشف لنا عن دقة التعبير القرآنى من ان « الأهلة » مواقيت للناس والحج.

واذا كانت الآية الكريمة قد اختصت الحـــج فذلك اشعار بأهميته من ناحية ، وارتباطه ارتباطا وثيقا بحالة القمر فى الســـماء وتلك مســـألة لايستطيع ان يتبينها بوضوح الا من حج اكثر من

مرة ، فأيا كان حجه فى اى فصل من فصول السنة« صيفا او شتاء .. الخ » فسوف تكون ليلته فى المزدلفة « المشعر الحرام » واحــدة فى كل الأحوال وعلى مر الاعوام والدهــور ، اى ان اى مسلم قد حج منذ رسول الله صلى الله عليهوسلم والى أن يرث الله الأرض يســتطيع ان يكون متأكدا وهو فى المزدلفة فى ليلة العاشر منذى الحجة أن عينيه اذ تقعان على السماء والقمر انه ينظر الى ما نظر اليه رسول الله صلى اللهعليه وسلم ، واحسب انه لا يوجد فى الكون كله شيئا آخر نستطيع أن يقطع به مثل هذا الامروصدق الله العظيم وهو يقول لنا عن « الأهلة » اى القمر « هى مواقيت للناس والحج » .



بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ ۚ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ

« وليس البر بأن تاتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى »

ويعود القرآن الكريم ليؤكد قاعدة الاسلام الرئيسية من ان الاسلام ليس دين طقوس مما شرحناه بالتفصيل عند آية « ليس البر ان تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب » .

واذا كانت الآية السابقة قد نزلت ردا على من بداوا يلفظون « ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها » فقد نزلت هذه الآية الكريمة لترد على عادة كان يمارسها اهل المدينة عندما يحرمون للحج تصورا منهم أن ذلك من « البر » حتى نزلت هذه الآية تصحح لهم هذه الفكرة الخاطئة .

روى البخارى بسنده عن البراء ، قال : كانوا اذا احرموا فى الجاهلية ، اتوا البيت من ظهره، فانزل الله « وليس البر بان تاتوا البيــوت من ظهورها » الآية .

وذكر ابن جرير عن الزهرى فى سبب ذلك انهم كانوا يتحرجون من الدخول من الباب من اجل ان سقف الباب يحول بينهم وبين السماء .

« ولكن البر من اتقى »

ونزلت هذه الآية الكريمة تبين لهم خطأ ذلك وان البر الحق هو التقوى ، والتقوى هنا يجب أن تفسر بنفس التحديد الذى ورد فى الآية السابقة « ولكن البر من امن بالله واليوم الاخر .. » الآية

« وأتوا البيوت من ابوابها »

فليس البر أن تخالفوا طبائع الأشياء فقــد اعدت ابواب البيوت لتكون المدخل الطبيعى اليها فلا تدخلوا بيوتكم الا من ابوابها ، وقد سرى هذا الجزء من الآية الكريمة فى المجتمع الاسلامى سريان الروح فى الجسد فاصبحت مثلا شائعا ومعلما من معالم الحضارة الاسلامية وهو ان تعالــج الامور على وجهها الصحيح ، وان يدخــل من مداخلها الطبيعية الصحيحة .

« واتقوا الله لعلكم تفلحون »

اى فاجعلوا تقوى الله بمعنى الابتعــاد عن نواهيه والاقبال على كل ما يرضيه باطاعة اوامره هى شغلكم الشاغل رجاء أن تنجحوا وتفلحوا فى الدنيا والآخرة « ومن يتق الله يجعل له مخرجا » « ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا » .

« وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم »

بهذه الآية الكريمة يشرع القرآن الــكريم فى وضع القواعد الاساسية لتنظيم حالة الحرب وهى الوجه الثانى لحياة المجتمع البشرى فهو اما أن يكون فى حالة سلام او حالة حرب ، وما يعرف اليوم باسم القانون الدولى يحاول عبثا أن يصل الى بضع قواعد تتبعها المجتمعات والدول فى حالة الحرب ولكن هيهات أن يتوصلوا الى شىء من ذلك فالاقوياء دائما يفعلون ما يقدرون عليــه ماداموا مطمئنين الى قوتهم وان ليس فى استطاعة احد أن يردعهم .

ولكن القرآن الكريم وهو شرعة السماء اراد ان يجنب المسلمين هذا الانحراف والطغيان فوضع لهم سلسلة من القواعد والمبادىء التى تضيق من نطاق الحرب وتجعلها قاصرة على الدفاع عن النفس ولما كانت العقيدة هى اعظم مقومات النفس فقد أصبح الدفاع عنها جزءا لا يتجزأ من الدفاع عن النفس .

الحرب فى الاسلام :

ولقد بحثث موضوع الحرب فى الاسلام فى رسالة كاملة تفضل بنشرها المجلس الاعلى للشئون الاسلامية فليرجع اليها من يريد التفصيل.

وقد كررنا من قبل أن الاسلام لا يصادر الغرائز لأنها سر الحياة وقد ارادها الله على هذه الصورة وانما هو يهذبها وينظمها بأن يضع لها الحدود . والضوابط ، وعلى رأس الغرائز كلها غريزة حب البقاء ، والحرب عندما تكون دفاعا عن النفس والعقيدة تكون تعبيرا سليما عن هذه الغريزة ، ومن هنا قررها الاسلام ولكنه وضع لها الحدود التى تعمل فى دائرتها وأول هذه القواعد وحجر الزاوية هى هذه الآية الكريمة .

« وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم »

فالحرب ليست فقط مشروعة بل هى واجب مفروض بشرطين :

١ ــ ان تكون فى سبيل الله ، اى عن الحق .

٢ ــ ان يبداكم العدو بالقتال معتديا عليكم وعلى مقدساتكم ويكفى ان يبدأ العدوان فى اى وقت ليكون حق الرد لدفع العدوان قائما ابدا .

« ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين »

ولكى لا يجعل الله كون المسلمين لا يقاتلون الا اذا قوتلوا موضع شك جاء بالنص الصريح « ولا تعتدوا » ويتصور بعض الناس ، أن الاسلام شرع الحرب وسيلة لنشر الاسلام وهو ما ردده فى وقت ما أعداء الاسلام مع أن الله سبحانه وتعالى يقول : « لا اكراه فى الدين » ويتمسك اقوام بما ورد فى آية اخرى سنقول الراى فيها فى حينه وحسبنا الان دلالة الآية التى نحن بصددها وهو ان الله سبحانه وتعالى يأمر المسلمين امرا ان يقاتلوا من قاتلهم ، وينهاهم عن أن يعتدوا اى يكونوا هم البادئين بالقتال . وهذا المعنى لا يستفاد فقط من صريح التعبير ولكنه يستفاد من الآيات التالية التى تؤكد ما قيل عن مناسبة نزول هذه الآيات مما سيرد علينا ، ولكننا نريد ان ننتهى من تحديد ما نفهمه من قوله تعالى « ولا تعتدوا » فقد اراد بعض المفسرين ان يفسرها على ضوء وصايا النبى صلى الله عليه وسلم لقواده عندما كان يبعث بهم الى حرب ، أن لا تقتلوا الشيوخ والأطفال والنساء والمرضى ولكن ذلك كله مشروط بأن لا يشترك هؤلاء فى القتال بالفعل ، فاذا شاركوا فقد دخلوا فى عموم الآية « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم » ومن هنا فنحن ممن لا يذهبون فى تفسير « ولا تعتدوا » الى هذا المعنى ، وانما نفسرها تبعا لما سبقها وما سوف يتلوها من أنها تعنى أن لا تكونوا بادئين بالخصومة التى تفضى الى القتال ووصايا سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم هى اوامر يتعين اتباعها فى كل الأحوال ولكن الكلام هنا يدور على من يبدأ القتال .

« ان الله لا يحب المعتدين »

وهذا تأكيد من الله سبحانه وتعالى وتشديد وتغليظ انه لا يحب المعتدين فالحرب ضرورة قد

اقتضتها ظروف الدفاع عن النفس والعقيدة على ما سوف تشرح الآيات التالية فاذا لم تنشأ هذه الضرورة يصبح الكف عن الحرب والقتال هو الأصل وهو الأساس « وان جنحوا للسلم فاجنح لهـــا »

« واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم »

ثقفتموهم : وجدتموهم .

ومناسبة هذه الآيات كنا ذكرنا بالتفصيل المقدمات التى أدت اليها وذلك فى تفسير سورة الفتح التى نزلت بمناسبة صلح الحديبية ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قصد مكة ومعه الصحابة « ١٥٠٠ » وذلك للعمرة وكان ذلك فى أحد الشهور المحرمة فى العام السادس من الهجرة ولكن قريشا أخذتهم العزة بالاثم فتصدوا لسيدنا محمد وحالوا بينه وبين الدخول الى مكة وكاد ينشب القتال بين المشركين والمسلمين ، وبايع المسلمون سيدنا محمدا «بيعة الرضوان » مما سجلته سورة الفتح وذكرناه بالتفصيل وانتهى الامر الى عقد صلح الحديبية وبموجبه اتفق الطرفان على أن يرجع سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وصحبه عامهم هذا فلا يدخلون مكة على أن يعود فى السنة التالية فيخلى له المشركون مكة ثلاثة أيام ليدخلها الرسول ومن معه يزورون البيت ويعتمرون .

وحل الموعد المضروب فى العام السابع للهجرة كما اشتهر فى السيرة النبوية باسم «عمرة القضاء» ولكن قبل أن تتم العمرة بالفعل جرى التساؤل بين المسلمين حول سيدنا محمد ماذا يكون الموقف اذا نكثت قريش بعهدها وحاولت أن تصد المسلمين عن المسجد الحرام بالقوة ، أيردون على القوة بالمثل وما هو حكم الشرع فى هذه الحالة وسيكون القتال فى الشهر الحرام فى المسجد الحرام فنزل الشرع يرد على تساؤلهم ويبين لهم حدود واجبهم .

« واقتلوهم حيث ثقفتموهم »

وكشأن القرآن يلخص فى كلمات أقل من القليل ناموس أى ظاهرة من ظواهر الكون وقد كانت الحرب منذ كانت وستبقى الى أبد الآبدين بكل علومها وفنونها وتجاربها تتلخص فى قانون واحد وهو « كسر شوكة العدو » ولما كان الانسان والعقل الانسانى هو المصدر الاول والاكبر للحرب فقد دارت كل فنون الحرب وعلومه لتدمير شخص العدو ، وكل ما اخترعه الانسان من أسلحة أو سوف يخترعه يهدف فى الدرجة الاولى لتدمير الانسان ، هذا القانون الاساسى للحرب هو ما يلخصه القرآن الكريم فى هذه الكلمات الثلاث « واقتلوهم حيث ثقفتموهم » فالاسلام هو دين السلام ، والسلام هو غاية كل مسلم « تحيتهم فيها سلام » والمسلمون يتبادلون التحية باعلان السلام ، فاذا أبى أعداء المسلمين الذين لا يمكن الا أن يكونوا أعداء للبشرية الا الحرب ، تصبح الحرب لا مناص منها ، ومتى قامت الحرب فليس الا قانون واحد وهو أن تدمر قوة عدوك ، فتقتله حيث كان وأنى كان حتى يستسلم بعد أن تكسر شوكته وعندها يبدأ الاسلام بأخص خصائصه وهو السلام على ما سوف يعرض لنا سواء فى هذه الآيات أو آيات قادمة .

ارادة القتـــال :

والاصرار على تدمير العدو بقتله اذا لزم الامر والاستعداد بالموت لتحقيق هذه الغاية اذا لزم الأمر كذلك هو ما يمكن أن نسميه «بارادة القتال» التى ما توفرت فى جماعة الا عزت وسادت ، وما فقدت الا ذلت وهانت وقد تراوح حظ الجماعة الاسلامية بين الرفعة والهبوط بمقدار ما توفرت

فيهم أو تخلفت « ارادة القتال » . فعندما كانت متحققة بالكامل على عهد النبى صلوات الله عليه وسلامه وفى عهد خلفائه الراشدين فقد فتح المسلمون دنيا ذلك الزمان ابتداء من سور الصين شرقا حتى مياه المحيط الاطلسى غربا ، وعبرت جيوشهم المضيق الفاصل بين أفريقيا واوروبا واستقروا فى اسبانيا ونفذوا الى غرب فرنسا ،وعندما ضعفت ارادة القتال فى الغرب وقويت فى شرق أوروبا على يد الاتراك وصلوا فى زحفهم حتى أسوار فينا ، وضعفت ارادة القتال عند المسلمين وانتقلت الى معسكر أعداء المسلمين فعمل القانون الالهى عمله وهو أن يهون ويذل من فقد روح القتال عن نفسه وعقيدته .

واليـــوم

اذا كنت قد أصبحت ممتلئا بالتفاؤل واليقين بمستقبل المسلمين الزاهر فذلك لما اراه من عودة ارادة القتال عند المسلمين فى كل مكان ، والامثلة كثيرة بحيث تكفى الاشارة اليها ، وذلك فى الوقت الذى فقـد فيه أعداء المسـلمين ارادتهم على القتـــال .

« واخرجوهم من حيث أخرجوكم » .

واذا كان قانون تدمير العدو هو غاية كل حرب فان القرآن الكريم يقرر بعـد ذلك قانونا آخـر من قوانين ممارسة الحرب للوصول الى غايتها وهو قانون « المعاملة بالمثل » .

واذا كانت الآية الكريمة تشير الى وضع خاص وهو اخراج مشركى قريش للمسلمين من مكة ، فان الآيات التالية لن تلبث أن تؤكد مبدأ المعاملة بالمثل وتعمقه وتوسعه .

« والفتنة أشـد من القتل »

الفتنة ، من الفعل فتن .

ومعناه اللغوى الاحراق .

يقال : فتن الرغيف أى أحرقه وفتن الذهب والفضة أى اذابهما لتمييز معدنيهما وقد استعملها القرآن الكريم بهذا المعنى الحسى كما استعملها بمعنى الاختبار والابتلاء من مثل قوله تعالى « انما نحن فتنة فلا تكفر » .

ومن هنا لا نوافق على قول من قال انها تعنى هنا «الشرك» فلا الاصل اللغـوى للكلمة ولا استعمالات القرآن الكريم تفيد هذا المعنى عن قرب أو بعد بل ان سياق الآيات وما تهدف اليه ينفيه على وجه القطع واليقين فهو يطلب من المسلمين أن يقاتلوا المشركين اذا تعرضوا لهم وليس لأنهم مشركون .

والمعنى المقصود هو الرد على سؤال من تساءل كيف يقاتلون فى الشهر الحرام عند المسجد الحرام ، فجاء القرآن الكريم يذكر بأن ذلك لن يكون الا باعتباره معاملة بالمثل ، بل بما هو أقل وأخف من المثل ، فكيف يقاس القتل الذى يفقد وعى الانسان عند الضربة القاتلة بما تعرض له المسلمون الأوائل قبل الهجرة حيث كانت تنهال صنوف من التعـذيب والتنكيل على من أسـلم وبخاصة ممن كانوا أرقاء مثل بلال ، مما امتلا به تاريخ الدعوة الاسلامية قبل الهجرة ، وقد كان التعبير المجمع والمتفق عليه هو تسمية هذا الذى يحيق بالمسلمين انه « فتنة » .

فعندما يقول القرآن الكريم فى هذا الموضـع بالذات « والفتنة أشد من القتل » لا يكون لها سوى معنى واحد وهو ما أصاب المؤمنين الأوائل من عذاب .

« ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه » .

تدمنا أن العرب فى الجاهلية وقد كادوا يفنون بعضهم بعضا ، لاذوا بالمبدأ السماوى الذى لم يعلموا مصدره ، وهو ان تكون لهم بضعة شهور فى السنة « اربعة » لا يحاربون فيها ، وأن يكون القتال فى المسجد الحرام حراما على طول السنة .

وجاء الاسلام يعزز هذا المبدأ ويؤكده ، فجعل عدة الشهور عند الله اثنى عشر منها « اربعة حرم » وقرر حرمة المسجد الحرام على سبيل الدوام

ومن هنا كان الحرج الذى استشعره المسلمون ان يدور بينهم وبين المشركين قتال فى الشهر الحرام عند المسجد الحرام ، فجاء لهم القرآن الكريم بشرعة الحرب الاسلامية ، فالمسلمون لا يبداون العدوان ابدا ، فلن يكونوا هم الذين يحاربون فى الشهر الحرام ، وانما هم يذهبون الى مكة لتأدية العمرة بناء على اتفاق سابق ، فاذا ابى المشركون الا الحرب ، فعليهم وحدهم تقع مسئولية اهدار الشهر الحرام .

وينطبق ذلك بطبيعة الحال على الحرب عند المسجد الحرام ، ولكن القرآن الكريم يشدد على المسلمين ان لا يكونوا هم البادئين بأى حال من الأحوال ، اى بفرض أن المشركين بداوا القتال بالفعل خارج مكة أو حتى داخلها ، فيتعين على المسلمين ان لايتعرضوا لهم داخل المسجد ، فاذا اصروا على القتال حتى داخل المسجد المكى ، فعلى المسلمين ان يمضوا فيما شرعه الله لهم ، وهو أن يقاتلوا فى كل الأحوال ، من يقاتلهم ، بل ويشتدوا عليهم ليكونوا عبرة لغيرهم ، فلا يعتدون على المسلمين ، ومن هنا قال القرآن الكريم : « فان قاتلوكم فاقتلوهم » .

ويظهر التشديد فى كلمة « فاقتلوهم » اى انه اذا بلغ « الفحش » بالكفار ان يبداوكم بالقتال داخل المسجد الحرام ، فلا تترددوا لحظة فى ان تقاتلوهم ، اذ يصبح شأنهم فى ذلك شأن « العقرب » الذى لا علاج له الا بالقتل .

ونحن نفهم تماما لماذا استعمل القرآن الكريم فى أول الآية « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم » أما هنا فالصورة قد تغيرت واصبح الأمر قاطعا فى وجوب قتلهم ، ذلك ان المسلمين لا يمكن ان يدخلوا المسجد الحرام الا نتيجة أمرين اثنين :

الأول — اما ان يكون المشركون قد حاربوا بالفعل وانهزموا واستطاع المسلمون ان يصلوا الى المسجد الحرام فابتدأ المشركون الحرب من جديد .

الثانى — ان يكونوا قد تظاهروا بالسماح للمسلمين بدخول الحرم ثم حاولوا أن يغدروا بهم .

وفى كلتا الحالتين فان قتال المشركين لا يعدو ان يكون جريمة لا عقاب عليها الا « بالقتل » وهو ما عبر عنه القرآن الكريم بقوله : « كذلك جزاء الكافرين » .

اى أن القتل هو عقاب المجرمين ممن يعتدون على حرمات الله فيحاربون فى المسجد الحرام ، ويغدرون بالآمنين .

« فان انتهوا فان الله غفور رحيم »

هذا هو المبدأ الخاص بالحرب الاسلامية فهى اذا كانت مشروعة فلانها ضرورة تقاس بسببها ، فاذا زال السبب زالت الضرورة على الفور ، فقد اذن الله بالقتال فى الشهر الحرام عند المسجد الحرام ، اذا عاند المشركون وركبوا رؤوسهم وابوا الا قتال المسلمين ، أما اذا انتهوا وانصاعوا الى الحق ، فلا انتقام منهم أو عقاب على ما سبق من اعمالهم ، فان الله سبحانه وتعالى ليس

غفورا فحسب ، بل ورحيم ايضا ، وعلى عباده المؤمنين به ان يتصفوا بصفاته ، وهو ما فعله سيدنا محمد — صلى الله عليه وسلم — بالفعل عندما دخل مكة فاتحا ، عندما خاطب قريشا بقوله :

ماذا تظنون انى فاعل بكم ؟

قالوا : خيرا اخ كريم وابن اخ كريم .

قال : اذهبوا فانتم الطلقاء .

هذه روح الاسلام وسماحته تنبض بها كل آية من آيات القرآن ، انظر وهو يعود ليفسر للمسلمين لماذا امرهم بالقتال :



لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٩٣﴾ الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾ وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾

« وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله »

اى اننى اذا كنت آمركم بقتالهم اذا قاتلوكم فذلك لكسر شوكتهم وتدمير قوتهم فلا يعودون قادرين على فتنة المؤمنين بتعذيبهم وابتلائهم كما كانوا يفعلون ، ويصبح الطريق حرا آمنا أمام دين الحق ، دين عبادة الله الواحد الأحد ، وليس عبادة الاصنام والاوثان وشتى صنوف الشرك .
« فان انتهوا فلا عدوان الا على الظالمين »

وكما تحدد سبب القتال بعامة وأنه لكف المشركين عن قتال المؤمنين ، فضلا عن فتنتهم فقد تحدد كذلك وجوب الكف عنهم ، اذا كفوا من ناحيتهم « انتهوا » ومما هو جدير بالملاحظة تعبير القرآن بلفظ « العدوان » وصفا لمجازاة الظالمين وهو اسلوب بلاغى من اساليب العرب .
اتبعه القرآن الكريم وهو تكرار اللفظ « المكروه » حيث ينقلب الى عكس مفهومه الظاهر بعد أن يضاف الى جانب الحق أو الله ، مثل ما سوف يرد فى الآية التالية :

« فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه » ذلك انه اذا وصف الفعل الأول بأنه اعتداء فان دفع الاعتداء لا يكون اعتداء وهو ما يقتضيه الحال وقد تكرر ذلك فى القرآن الكريم .

« انهم يكيدون كيدا واكيد كيدا » .

« ومكروا ومكر الله » .

وتعالى الله عن الكيد والمكر ، ولكنه اسلوب العرب يسمونه « المشاكلة » نزل القرآن الكريم يخاطبهم به ليكون أوقع فى التأثير وأمعن فى التحدى عندما يعجزون عن محاكاته مع انه بلسانهم وطبقا لاساليبهم ، يقول الشاعر الجاهلى .

الا لا يجهلن احد علينا   فنجهل فوق جهل الجاهلين

فمن هذا القبيل تعبير القرآن الكريم « فلا عدوان الا على الظالمين » فما يعامل به الظالمون لكف عدوانهم لا يكون عدوانا وهذا مستفاد من وقوعه على الظالمين وذلك كله اخذا بالقاعدة « نفى النفى اثبات » ، فالرد على العدوان بالعدوان يكون حقا . وصدق الله العظيم اذ يقول « انا أنزلناه قرآنا عربيا » ، ومن هنا كانت الاحاطة باللغة العربية عند نزول القرآن ضرورى لادراك بلاغته واعجازه .

« الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص » مبدأ المعاملة بالمثل .

وينتهى القرآن الكريم الى صياغة هذا الذى دعا اليه الى تقرير قاعدة عامة من قواعد الحرب وهى المقابلة بالمثل وليس هناك ما يضع حدا لتصاعد اعمال الوحشية فى الحرب الا الخوف من المعاملة بالمثل ، وقد راينا مصداق ذلك فى الحروب التى عاصرناها وما نعيش فيه الآن ، فقد امتنع الطرفان المتحاربان ، على سبيل المثال فى الحرب العالمية الثانية عن استخدام الغازات

السامة مع قدراتهم على استعمالها خوفا من المعاملة بالمثل . وليس يمنع اليوم قيام حـــرب نووية الا خوف كل من الطرفين المعاملة بالمثل .

فالمعاملة بالمثل هى قاعدة اساسية فى الحروب،ومن هنا فقد علمها الله لجماعة المسلمين الى يوم القيامة ، وقد راينا فيما سبق مبدأ القصاص فى الجرائم « النفس بالنفس ... » الآية .

والقاعدة تنسحب على كل مظاهر الحياة فى السلم والحرب على السواء .

فاحترام الأشهر الحرم « ذى القعدة وذى الحجة والمحرم ورجب » أمر واجب وحتمى شريطة ان يتمســك به الطرف الآخر ، أما ان يتصور متصور أن يكون بقدراته ان ينتهك الشهر الحرام فيقاتل فيه وهو مطمئن الى ان الطرف الآخر لن يقاتل حتى لا ينتهك الشهر الحرام ، فان ذلك يكون بمثابة دعوة للاشرار الذين لا يرعون الحرمات أن ينقضوا على الأخيار فى الأشــهر الحرم وهم آمنون مطمئنون ، انهم سيفعلون بهم ما يشاءون .

للحيلولة دون هذا الوضع الشاذ غير المعقول نزل القــرآن الكريم يعلم المؤمنين ان احترام الاشهر الحرم بمعنى التوقف عن القتال فيها مشروط بالتزام الطــرف الآخــر للمبــدأ والا فـــ « الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص » .

والقصاص هو المقابلة بالمثل ، جاء فى القرآن الكريم :

« ولكم فى القصاص حياة » .

« والحرمات قصاص » .

« والجروح قصاص » .

« فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم »

ولا يفتأ القرآن الكريم يوضح ويؤكد ويعمق مبدأ المقابلة بالمثل باعتباره حجر الزاوية فى التقليل من شرور الحرب ومخاطرها ، وقد تحدثنا فيما تقدم عن أسلوب القرآن الكريم لاستعمال ذات اللفظ «للمشاكلة» حيث يختلف المعنيان ، فدفع الاعتداء هو غير الاعتداء ، ولكن اللفظ استعمل للتعبير عن الفعل ورد الفعل ، وقد وقف البعض طويلا امام عبارة « بمثل ما اعتدى عليكم » واجهــدوا انفسهم كثيرا فى ايجاب كل التماثل بكل دقة ، وهو أمر متعذر ان لم يكن مستحيلا ، فليس فى الطبيعة كلها أمران يتطابقان من كل وجه ، فيجب تفسير المماثلة بصورتها العامة ، فانتهاك حرمة الشهر يقابله انتهاك حرمة الشهر ، والقتال يقابله القتال، وازهاق الروح يقابله ازهاق الروح .

والمهم فى الحرب هو اخضاع العدو ، ودفعه الى الاستسلام ، فان فعل وتحقق النصر للمسلمين فهنا تبدأ أخلاقيات الاسلام وآدابه وسنة رسوله، وقد رأينا كيف عفا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — عن مشركى قريش بعد أن اظهره الله عليهم ودخل مكة فاتحا .

وقد حدث فى تاريخ الاسلام عنــدما فتــح الصليبيون بيت المقــدس أن خاضــت خيولهم فى دماء المسلمين واقاموا من جثثهم وجمــاجمهم جبالا ، فلما ان اظفر الله صلاح الدين بالصليبيين ودخل بيت المقدس فاتحا ، حقن دماء الصليبيين وعاملهم بالرأفة والرحمــة حتى لقد ســمح لمن يريد ان يغادر المدينة فى سلام أن يفعل بعد دفع مبلغ زهيد جدا « ديнارين » الأمر الذى جعــل بعض معاصريه ينتقدونه على هــذه الفعلة ،ولكن التاريخ اثبت بعد ذلك ان هذا التصرف الرحيم السمح من جانب صلاح الدين كان هو الذى كسر حدة الحروب الصليبية ، فلم يقم لهم بعدها قائمة فقد بدد تصرف صلاح الدين كل الدعايات الكاذبة ضد المسلمين .

وهكذا يجب أن يفهم روح الامر الالهى الذىيتضمنه النص .

« واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين » .

وليس ادل على ذلك من انه سبحانهوتعالى يعود فيذكر المؤمنين ان الاصل الذى يجب ان يحكم المؤمن فى كل تصرفاته هو تقوى الله ،وتقوى الله هو الخوف منه وخشيته ، وتجنب عذابه واتباع اوامره واجتناب نواهيه ، ولكنالتقوى اصبحت كلمة جامعة تشيع صفات الكمال كلها .

وهى هنا تختم هذه الآيات التى تتحدث عنالقتال ومقتضياته ، لتذكر المسلمين ان يجعلوا الله نصب اعينهم فى كل ما يعملون .

« وانفقوا فى سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة »

الانفاق فى سبيل الله : كل انفاق من اجلنصرة الحق والخير والمعروف هو انفاق فى سبيل الله ، ولكن النص على الانفاق فى مجال الحديث عن الحرب وقواعدها ومبادئها هو اشارة لعصب الحروب وهو المال ، فاذا كانت الحربتتطلب فى الدرجة الأولى اناسا امتلأوا بالايمان لشراء الاسلحة أو صنعها والانفاق على كل مايحتاجه الجيش من زاد وعتاد ، ومن هنا فقد اعتبر الله سبحانه وتعالى أن الجهاد فى سبيله كمايكون بالنفس فانه يكون بالمال كذلك ، بل ان القرآن الكريم قدم دائما ذكر المال على النفس :

« انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وانفسكم » (التوبة : ٤١)

« وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وانفسكم » (الصف : ١١)

« لكن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوابأموالهم وانفسهم « التوبة ٨٨ » .

وغير ذلك كثير فى القرآن الكريم ، فلا يكاد يذكرالجهاد فى سبيل الله الا ويكون الحديث عن ان ذلك يتحقق بالنفس والمال ويتقدم ذكر المال علىالنفس وذلك مسايرة للطبيعة البشرية فقد تجد الف مجاهد على استعداد ان يبذلوا ارواحهمفى سبيل الله ولكنك لن تجد الا واحدا فقط يبذل كل ماله . وعلى عهد رسول الله — صلىالله عليهوسلم — عندما احتاج مالا للانفاق على الجيش الذاهب الى تبوك ، كان سيدنا ابو بكر الصديقهو الوحيد الذى جاء بكل ماله ، فقال له رسول الله — صلىالله عليه وسلم — « هل أبقيت شيئا لعيالك » فرد بقوله : « أبقيت الله ورسوله » .

والذى يهمنا فى هذا المقام ان القرآن الكريمما فتىء يدعو الى بذل الأموال من اجل الجهاد فعندما يأمر هنا بالنفقة فى سبيل الله وهو بصددالتحدث عن الحرب ، يجب أن تفسر على ضوء مقتضيات الحال .

« ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة »

فهذا الجزء من الآية الكريمة مرتبط اشدالارتباط بالجزء السابق عليها وهو الدعوة الى الانفاق ، والآية كلها مرتبطة بالحرب والقتالوهى تحذير للمسلمين فى كل زمان ومكان انهم اذا قصروا فى الانفاق الدائم والمستمر على الاستعدادللحرب والجهاد فى سبيل الله ، فان من شان ذلك أن يعود عليهم بالهلاك والبوار ، وهو ماحدثفى التاريخ بالفعل ، فقد هان المسلمون وذلوا عندما تهاونوا فى شان الاستعداد للحرب وبخلوابأموالهم ان ينفقوها فى سبيل الله حتى اصبحت بلادهم فى يوم من الايام نهبا مباحا .

ان الكثيرين يتصورون انه اذا كانت اوربا تدغلبت المسلمين على امرهم يوما فذلك بفضل تفوقهم العلمى والالى ، او ما يطلقون عليه باسم العصر « التكنولوجيا » وهؤلاء ينسون انه عندما شرع أعداء المسلمين فى التفوق عليهم لم يكن عندهم هذا الذى نسميه اليوم « تكنولوجيا » ، فقد كان العلم والتفوق الحضارى لا يزال فى العالم الاسلامى ، ولكن الذى حدث انهم تهاونوا فى أمر الله لهم فتوقفوا عن الانفاق للاستعداد للحرب والقتال ، وحيث يأمرهم بالاعداد والحذر واليقظة ، غفلوا عن ذلك كله واقبلوا على ملذاتهم وشهواتهم ، فكان أن تحقق أمر الله فيهم ، فهلكوا اى هلكوا معنويا بضياع استقلالهم ، فضلا عن عزتهم وحضارتهم ، واليوم وقد بدأ المسلمون يثوبون الى رشدهم وينفقون ما ينفقون فى الاستعداد للحرب والقتال فى سبيل الله ، فالمستقبل مشرق ومزدهر باذن الله .

هذ النظر فى تفسير الآية يؤيده ما اوردته كتب الحديث « ابو داود والترمذى والنسائى وآخرون » « عن يزيد بن ابى حبيب عن اسلم ابى عمران قال : حمل رجل من المهاجرين بالقسطنطينية على صف العدو حتى خرقه ومعنا ابو ايوب الانصارى فقال ناس القى بيده الى التهلكة . فقال ابو ايوب نحن أعلم بهذه الآية انما نزلت فينا : صحبنا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وشهدنا معه المشاهد ونصرناه فلما فشا الاسلام وظهر اجتمعنا معشر الانصار فقلنا قد اكرمنا الله بصحبة نبيه — صلى الله عليه وسلم — ونصره حتى فشا الاسلام وكثر اهله وكنا قد آثرناه على الأهلين والأموال والأولاد وقد وضعت الحرب أوزارها فنرجع الى اهلنا وأولادنا فنقيم فيهم فنزل فينا « وانفقوا فى سبيل الله ولا تلقوا بايديكم الى التهلكة » فكانت التهلكة فى الاقامة فى الاهل والمال وترك الجهاد .

فانظر يارعاك الله ، كيف جهل المسلمون « عندما نكسوا على رؤوسهم » كل ذلك واتخذوا جملة « ولا تلقوا بايديكم الى التهلكة » لتكون ذريعة يتذرعون بها لكل نقائص الحياة فيرضون بالذل والمهانة والصغار ، ويتوقفون عن كل أمر بالمعروف والنهى عن المنكر ويبخلون ، وكل ذلك بدعوى أنهم يصدعون بأمر الله « ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة » وغنى عن البيان ان الامر الالهى يطبق فى عمومه شريطة ان يطبق تطبيقا صحيحا فلا يمتنع انسان على سبيل المثال عن انفاق المال فى سبيل الله بزعم ان ذلك يؤدى الى التهلكة مع أن فعل ذلك كما رأينا هو الذى ادى وسيظل يؤدى الى التهلكة .

« واحسنوا ان الله يحب المحسنين » .

وختمت الآية الكريمة بالدعوة الى الاحسان أعلى مراتب الطاعات ، مما سنفصله فى مناسبة قادمة ، وحسبنا أن نذكر الان الحديث الجامع المانع لخيرى الدنيا والآخرة وهو التفسير الذهبى لهذه الآية ، فقد نطق به سيد المرسلين : « ان الله يحب اذا عمل احدكم عملا أن يتقنه » .

كلمة لابد منها

يظهر أنه لزام على من حين لآخر أن اوضح حجم الدور المتواضع الذى أقوم به فى هذا التفسير فانا رجل ممن لا يحبون أن يحمدوا على ما لم يفعلوه ويعلم الله اننى اذ أقول ماسوف أقول فانا لا افعل ذلك بنوع من التواضع الكاذب ، وانما رغبة منى فى وضع الامور فى نصابها اليوم وغدا بعد موتى .

وقد حفزنى لكتابة هذه السطور ان اثنين من كبار شيوخ الازهر وأساتذته تفضلا بزيارتى

واسمعانى ما شاء قلبهما الكبير ان يسمعانى اياه من عبارات اخذتها على سبيل المجاملة ، ولما كان ذلك قد تكرر ، فقد بدأت اشعر بالقلق وعدم الارتياح خوفا من ان هناك من يتصور بالفعل اننى بكل هذا العلم الذى قد يرونه فى هذا التفسير ،وحقيقة الامر كما وضحته اكثر من مرة ان عملى لا يزيد عن كونى اطالع ما كتب الاقدمون والمحدثون من الاعلام وان اعرضه فانا لا اعدو ان اكون طالبا لشيوخنا الاعلام القدامى منهم والمحدثين . وكل الذى افعله ان انقل ثمرة علمهم وجهدهم ، فان صادف ما كتبت فى تفسير آيات الكتاب المبين توفيقا فهم اصحاب الفضل ، اما ان كانت الثانية واصابنى عدم التوفيق ، فيكون الذنب ذنبى كشأن اى طالب يتعثر لعدم احسانه الاختيار أو لتقصيره فى بذل الجهد اللازم للتحصيل .

ولكنى فى كلتا الحالتين حالة التوفيق وعدم التوفيق صادق النية حسن القصد ، ابغى الخير والهداية وحث الشباب على أن يخرج منهم من يكون اكثر استعدادا وكفاءة منى . ورحم الله امرأ عرف قدر نفسه ، وانى لأرجو ان اكون ممن يرحمهم الله .

عود الى الناسخ والمنسوخ :

ليعذرنى القراء الافاضل اذا عاودت الكتابة فى هذا الموضوع مكررا نفس المعانى التى طالعها البعض منهم ، فانا اكتب فى مجلة سيارة تقع فى كل مرة فى يد اشخاص جدد لم يطلعوا على ما كتب قبلا ، ولما كان موضوع الناسخ والمنسوخ من اخطر الموضوعات فى الشريعة الاسلامية فهو يعرض لنا على الدوام ونحن بصدد تفسير بعض آيات القرآن وخاصة ما كان يتصل منها بالاحكام .

وفى آيات الحج التى نحن بصددها ما يستفاد منها انها نزلت تنظم قواعد كان العمل قد سار على خلافها قبل نزولها ، فهى من هذه الناحية ناسخة لما جرى عليه العمل قبل نزولها . ولقد رأينا مثل ذلك بالنسبة لفريضة الصوم ، حيث تحدث القرآن الكريم عن بعض من كانوا يختانون انفسهم ، ووعدهم الله بالعفو والمغفرة عما ارتكبوه من خطأ ، وهذا قاطع فى ان هناك قواعد خولفت ، ولكن الذى نقوله ونؤكده انك لن تجد فى القرآن الكريم هذه القواعد التى الغيت بموجب النصوص القرآنية الجديدة وهو عين ما وقع بخصوص القبلة حيث نسخت الصلاة نحو بيت المقدس وأمر المسلمون بالتوجه صوب الكعبة ، ولكنك لن تجد فى القرآن الكريم امرا بالتوجه الى بيت المقدس .

ومن هنا قلنا ونقول ان حدوث النسخ امر لايحتمل الشك من حيث ان ينسخ القرآن ما جرى عليه العمل بالفعل ، ولكننا ممن يقولون انه « يستحيل » ان تلغى آية قرآنية حكم آية اخرى ، وانما تكملها أو توضحها او تخصصها ، او تحدد نطاقها فى احوال قليلة او نادرة ، ولكن التشريع القرآنى وهو بطبيعته ابدى يظل فاعلا حاكما فى هذه الحالات عند توفر ظروفها ، فلا نسخ فى القرآن .

سورة البقرة وما تضمنته من احكام دليل على ذلك :

يقطع بذلك من « وجهة نظرنا » ان الاتفاق تام على ان سورة البقرة اول سورة نزلت فى المدينة ، اى بدأ نزولها فى السنة الاولى من الهجرة ، ومع ذلك فها هى ذى آيات تتحدث عن ركن الحج والذى يقال انه فرض فى السنة التاسعة من الهجرة .

وثمة اشارات لما حدث فى صلح الحديبية الذى وقع فى السنة السادسة ، اى انه كان قد نزل فى خلال هذه المدة عديد من السور ، فلو كان هناك اى رغبة فى ان يحكم المتأخر المتقدم لما طلب

سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بتوجيه وتكليف من الوحى أن توضع آيات تأخر نزولها فى سور متقدمة تأكيدا لهذا المعنى بالذات وأن ليس فى القرآن متقدم ومتأخر ، فبعد أن حقق الله وعده لنبيه « ان علينا جمعه وقرآنه » فقد أصبح هذا القرآن الكريم الصورة الموجودة عليها بين أيدينا لهذا الترتيب وهذا النسق كله بكل آية من آياته ،وبكل حرف من حروفه عامل الى يوم الدين ، كل آية من آياته وكل حكم ينطبق عند توفر شروطه ومهمة علماء المسلمين وفقهائهم ومجتهديهم أن يحددوا الظروف والشروط التى يمكن أن تطبق هذه الآية أو تلك .

استغفر الله قد حمانى الله :

ولقد أشرت من قبل الى اثم وخطيئة كدت أقع فيهما لولا أن نجانى الله وحمانى ، ولم يبق أمامى الا أن أظل استغفر الله حتى أموت على ما كنت انتويت أن أقوم به ، والشىء الوحيد الذى يخفف عنى أن نيتى كانت حسنة ولعل هذا هو ما جعل الله سبحانه وتعالى يصرف عنى السوء . أما هذا الذى كنت قد هممت به قبل أن أدخل الى الشيخوخة ، فهو أن أرتب سور القرآن الكريم بحسب ترتيب نزول كل السور ، وفى أغلب المصاحف الموجودة بين أيدينا اشارة الى أن هذه السورة نزلت بعد تلك ، وهناك قوائم بترتيب السور ، وطالما سألت نفسى لماذا لم يرتب المصحف على هذه الصورة ، وسرعان ما أدى بى البحث الى استحالة ذلك ، فالسورة الواحدة قد يمتد نزول آياتها على بضع سنوات يكون قد نزل خلالها سور أخرى تتضمن آيات تتحدث عن وقائع محددة التاريخ كسورة الانفال مثلا التى تشير لغزوة بدر أو آل عمران التى تتحدث عن غزوة أحد ، ومع ذلك فان سورة البقرة المتول فى كل قوائم ترتيب سور القرآن أنها أول السور المدنية نزولا ومع ذلك فها هى ذى تتضمن الحديث عن الحج والعمرة ، والاجماع على أن تقرير الحج كركن من أركان الاسلام قد تم متأخرا جدا على ما قدمنا .

وهذا يدل بشكل قاطع على أن المقصود بأن هذه السورة أو تلك نزلت قبل سورة أخرى انما يعنى بعض أجزاء من السورة وليس كلها ،ويكون تكوين السور على صورتها الحاضرة ، انما هو مشيئة الهية ، نتصور أن الحكمة فيها هو اظهار وحدة القرآن ، وانه كله كلام الله القديم ، ليس فيه متقدم أو متأخر ، ينسخ المتأخر المتقدم . وشرح الله صدرى لهذا الفهم فأدركت هول ما كنت أوشك أن أتردى فيه ، وها أنذا أقر بذنبى علنا رجاء أن يغفر الله لى ، وأما لماذا هذا الاعتراف العلنى ، والقاعدة « انه اذا بليتم فاستتروا » فذلك لكى احذر غيرى من الوقوع فيما أوشكت أن أقع فيه ، فأنا أعرف أن كثيرين تراودهم هذه الفكرة بل أن أحد العلماء الافاضل المحدثين أصدر بالفعل تفسيرا حاول فيه تفسير السور بحسب ترتيب نزولها ، ومن هذا رأيت من الواجب أن أسوق هذا التحذير .

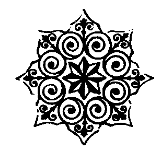
آيات الحج :

وقد دفعنا الى هذا الاستطراد ما نحن بصدده من آيات الحج ونزولها المتأخر على الرغم من اشتمال سورة البقرة عليها وهى أول سورة نزلت بالمدينة ، مما يقطع بأن الله أراده على هذه الصورة ، وقبل أن نشرع فى تفسير هذه الآيات ،نرى أن نثبت أولا ما جاء فى سورة الحج حيث تتكامل التوجيهات القرآنية ، ويفسر بعضها بعضا :

« واذ بوأنا لابراهيم مكان البيت أن لا تشرك بى شيئا وطهر بيتى للطائفين والقائمين والركع السجود » .

« وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق . ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الانعام فكلوا منها واطعموا البائس الفقير . ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق . ذلك ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه وأحلت لكم الانعام الا ما يتلى عليكم فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور » .

« حنفاء لله غير مشركين به ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير او تهوى به الريح فى مكان سحيق . ذلك ومن يعظم شعائر الله فانها من تقوى القلوب . لكم فيها منافع الى اجل مسمى ثم محلها الى البيت العتيق . ولكل امة جعلنا منسكا ليذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الانعام فالهكم اله واحد فله اسلموا وبشر المخبتين . الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم والصابرين على ما اصابهم والمقيمى الصلاة ومما رزقناهم ينفقون . والبدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير فاذكروا اسم الله عليها صواف فاذا وجبت جنوبها فكلوا منها واطعموا القانع والمعتر كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون . لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم كذلك سخرها لكم لتكبروا الله على ما هداكم وبشر المحسنين » .



وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٧﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا

« واتموا الحج والعمره لله » .

لابد ان يلاحظ القارىء هذا الفارق الاساسى بين تعبير « واتموا الحج » وبين تعبيرات القرآن الكريم الأخرى عن فرض الصيام مثلا اذ قال تعالى : « كتب عليكم الصيام » كما تكرر ذكر فرضية ركنى الاسلام : الصلاة والزكاة بالأمر المباشر بالاتيان بهما على سبيل الابتداء « واقيموا الصلاة وآتوا الزكاة» وليس الا بالنسبة للحج أن استعمل القرآن الكريم هذه الصيغة « واتموا » اى اذا نويتم او شرعتم فى اداء الحج أو العمرة فقد وجب أن تتموا ما بدأتم على الوجه الصحيح كاملا تاما.

والسبب فى هذه التفرقة بين تعبير القرآن الكريم عن اركان الاسلام الأخرى وتعبيره عن ركن الحج ، أن هذا هو الركن الوحيد الذى كان مفروضا من قبل منذ ارسى سيدنا ابراهيم القواعد من البيت ،ولكن شريعة الحج كانت قد غشيتها الغواشى ، وشابتها شوائب الوثنية وعبادة الاصنام ، وبعد أن كان الهدف من ذبح الاضحيات لله هو توزيعها على البؤساء والمحتاجين ، اصبحت غنما لكهنة الاصنام ، وتحول منسك الحج ليكون سبيلا لاستعلاء قريش على بقية العرب وادعاؤهم لانفسهم بامتيازات اختصوا بها من دون العالمين ، فنزل القرآن يصحح ويطهر ويقوم .

فريضة الحج والعمرة :

وقد وقع الخلاف بين الفقهاء فى وجوب العمرة مثل وجوب الحج ، حيث شمل الاثنين تعبير واحد « واتموا الحج والعمرة لله » ، ولكن من ناحية اخرى فقد ورد فى القرآن الكريم « ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا » .

ومن هنا وجد الفقهاء من فرق بين مقدار فرضية الحج والعمرة . ولنثبت هنا ما جاء فى تفسير الوسيط لاشياخنا علماء الأزهر قالوا :

« والحج فريضة » مرة فى العمر لمن استطاع اليه سبيلا . والعمرة عند الفقهاء بين مفروضة فى العمر مرة ، ومسنونة . يفرضها الشافعية والحنابلة ، ويسنها المالكية اما الحنفية فيقول بعضهم : بفرضيتها وبعضهم بسنيتها » أنتهى .

ومن حسن الحظ أن هذا الخلاف ظل فى دائرة النظر ، اما من حيث العمل والواقع ، فما من مسلم واحد يقصد الحج الا وهو يحج ويعتمر ،ذلك ان اركان الاثنين واحدة وهى الاحرام

والطواف والسـعي والحلق او التقصير ، ويزيد الحج كونه مقررا فى وقت معلوم فى السنة ، واحد اركانه الوقوف بعرفة ورمى الجمار . اما العمرة فتصح فى اى وقت من السنة .

والذى يحدث فى العمل ان المسلمين فى غـير شهور الحج يقصدون مكة للعمرة ، اما فى اشهر الحج فلا يخرج أمر اى حاج عن حالة من ثلاث :

١ ــ اما ان يحرم بنية الحج فقط ، على ان يتم العمرة بعد فراغه من الحج .

٢ ــ واما ان يحرم بنية العمرة ، ثم يتحلل حتى يبدأ اوان الحج فيحرم ثانية بنية الحج ويسمى فى هذه الحالة « متمتعا » .

٣ ــ واما ان يحرم بنية العمرة والحج معا وفى هذه الحالة يسمى « قارنا » .

« فان احصرتم فما استيسر من الهدى » .

احصرتم : حوصرتم وحبستم .

استيسر : سهل .

الهدى : ما أهدى من الانعام ليذبح بمكة ويوزع على الفقراء تقربا الى الله .

هذه هى الآية التى تشير « فى رأى البعض » الي ماوقع لرسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ عندما حالت قريش بين المسلمين وبين دخول مكة فى العام السادس من الهجرة وابرموا معه صلح الحديبية وهى مكان خارج مكة « يطلقون عليه الان اسم الشميسى » وموضوع الصلح هو ان يرجع ويكف عن دخول مكة عامهم هذا على ان يعود من « قابل » « اى من السنة التالية » فيخلون له مــكة .

والقرآن الكريم يقول للمسلمين فى كل زمان ومكان : اذا عرض لكم عارض من مثل ما تقدم حبسكم عن الوصول الى مكة ، فاذبحوا حيث عوقتم ما حملتموه معكم من «الهدى» ، والاحصار هنا على ما جاء فى تفسير الوسيط قاصر على منع العدو للحاج والمعتمر من المضى فى نسكهما وذلك عند مالك والشافعى لقوله تعالى : «فاذا امنتم» ولنزوله فى الحديبية وغير ذلك من الادلة . اما عند أبى حنيفة فهو شامل لكل مانع من النسك سواء كان المـانع عدوا او مرضـا او غيرهما « انتهى » . وقد استند ابو حنيفة الى عمـوم النص « لا خصوصية السبب » ، كما استند الى ادلة اخرى واحاديث نبوية صحت عنده فاصبح ملتزما بها ، وقد كان هذا هو شأن الائمة الاربعة، فمتى ثبت النص عند اى واحد فيهم ، لم يعد ثمة مجال للاجتهاد .

« ولا تحلقوا رؤوسكم حتى يبلغ الهدى محله » .

يبدأ منسك الحج والعمرة بالاحرام ، ويمتنع على المحرم ان يحلق أو يقص شعره ، وينتهى هذا الاحرام بتمام النسك واعتبر الحلق والتقصير هو الاذن والعلامة على انتهاء فترة الاحرام . وفى هذه الآية الكريمة امر لمن كان قد ساق معه هديا الى الكعبة أن لا يحلق راســه للتحلل من احرامه الا بعد ان يبلغ الهدى « محله » ومرة اخرى يختلف الفقهاء حول « محـل » الهدى الذى يجب أن يذبح فيه .

وعند جمهرة الفقهاء فى حالة الاحصار يكون المكان الذى حبس عنده المسلمون هو « محل » هذا الذبح ، فقد كان هذا هو ما فعله رسول اللهـ صلى الله عليه وسلم ــ عام الحديبية ، ولكن ابا حنيفة يرى أن « المحل » لايمكن الا ان يكون فى الكعبة فقد قـال تعالى « ثم محلها الى البيت العتيق » ونحن لا نريد أن نخوض فى هذا البحث الفقهى وانما اشرنا له لنظهرك ايها القارىء الكريم

على مدى تمسك الائمة بالنص عندما يتوفر . فهاهو ابو حنيفة رضى الله عنه من يعتبر زعيم مدرسة الرأى يتوقف توقفا كاملا اذا واجهه النص فيتبعه حتى لو خالف فى راى الكثيرين منطق العقل ، فاذا كانت الحالة ان الحاج قد منع بالقسر عن الوصول الى الكعبة ، فكيف يذبح هـديه عندها ، تلك مسالة يردها عليها ويناقشها ابو حنيفـة فليبحثها من شاء فى المطولات اما نحن فحسبنا ان نقرر ان الجمهور على خلاف ذلك وان ابا حنيفة توقف عن اطلاق العقل امام ما اطمأن الى انه نص صريح فى القضية .

« فمن كان منكم مريضا او به اذى من رأسه ففدية من صيام او صدقة او نسك » .

فارق ما بين الاسلام وبين سـائر ما عرفت البشرية من اديان ان كل اوامره عندما يأمر ، وكل نواهيه عندما ينهى ، انما تهدف الى خير الانسان وصلاحه وبالتالى خير الجماعة وصلاحها ، وهو ما ينبه اليه القرآن من حين لآخر .

« لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم » .

وهذه الآية التى نحن بصددها كعشرات غيرها من آيات الاحكام تجعل صحة البدن هى المهم الاول الذى يجب ان يحافظ عليه الانسان شريطة ان يكون الهدف النهائى لكل نشاط انسـانى هو تقوى اللـه .

تقر الآية الكريمة الاصل المقرر فى منسك الحج وهو ان جوهره يقوم على الاحرام ولكى تفهم سر « الاحرام » فعليك ان تستحضر « الصوم » فاذا كان الصوم هو الامساك عن الطعام والشراب لفترة معينة فان الاحرام هو الامساك عما اعتاده الفرد فى حياته المعاشـية من ملابس يتفنن فى صنعها وزينة يتحلى بها وعطر يستروح به ، ولما كان قص الشعر وغسله وتمشيطه هو احد متع الانسان فقد جاء نظام الحرمان من ذلك كله لفترة زمنية سبيلا لتربية الانسان واظهارا لنعمة الله عليه وهو يمارس هذه العادات يوميا ، ولكن الاسلام يعود ليذكرنا كما هو شأنه دائما ان ذلك لا يجب ان يصل الى حد ايذاء الانسان فضلا عن امراضه ، ومن جاء بالرخصة « فمن كان منكم مريضا او به اذى من رأسه » والمرض معروف ، والاذى يشرحه حديث نزلت بسببه على ما يروى الامام البخارى قال : « من حديث كعب بن عجرة قال : وقفت على رسول الله فى صلح الحديبية ورأسى يتهافت قملا « حسرة الرأس المعروفة » فقـال : يؤذيك هوامك قلت : نعم قال : فاحلق رأسك قال: فنزلت هذه الآية وذكرها ، فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ صم ثلاثة ايام او تصدق بفرق بين ستة ، او انسك بما تيسر » .

ولكى نتصور الواقعة فى هذا الحديث علينا ان نعود بالذاكرة اربعة عشر قرنا من الزمان حيث كانت الرحلة الى مكة من داخل الجزيرة العربية تحتاج الى اسابيع ، واحيانا الى ما هو اطول من ذلك وعلينا ان نتصور ما الذى كان يحدث عند البعض عندما يتركون شعر رؤوسهم بدون غسل وبدون حلق ، حيث كان حلق الشعر من جذوره هو الوسيلة «فيما يبدو» الوحيدة لتنظيف الرأس، فعندما شاهد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مدى ما وصلت اليه الحشرات فى رأس هذا الصحابى حتى لتظهر للعين المجردة وهى تتساقط لابد ان يكون قد اتجه الى ربه ، فنزلت هذه الآية الكريمة متسقة مع تعاليم الاسلام فى التيسـير والسماحة ، فاذنت بحلق الرأس فى هذه الحالة وامثالها من امراض « فروة الرأس » ، على ان يؤدى من تضطره الظروف الى استعمال مثل هذه الرخصة فدية والفدية هنا :

١ ـ صوم ثلاثة ايام .

٢ — أو اطعام ستة مساكين .

٣ — أو ذبح شاة والتصدق بلحمها .

وجمهور الفقهاء على ان كلمة نسك الواردة فى الآية تعنى « الشاة » .

« فاذا آمنتم فمن تمتع بالعمرة الى الحج فما استيسر من الهدى فمن لم يجد فصيام ثلاثة ايام فى الحج وسبعة اذا رجعتم تلك عشرة كاملة ذلك لمن لم يكن اهله حاضرى المسجد الحرام » .

« فاذا امنتم » اى بعدتم عن خطر العدوواحصاره لكم ، وهذا التعبير هو الذى يستند عليه القائلون بأن المقصود من « الاحصار » هواحصار العدو ، ولكن ابا حنيفة على ما قدمنا يجعل الاحصار بسبب العدو او لأى سبب آخر والحكمواحد .

« فمن تمتع بالعمرة الى الحج » .

وعندنا انه اذا كانت « فاذا امنتم » تشير الى عدو ، فان هذا القسم من الآية يبعدنا كل البعد ، عن حادث « صلح الحديبية » ويجعل القول عاما شاملا . والمهم فى الأمر ان التشريع قد وصف من يحل من احرامه بعد العمرة ليبداه من جديدبمناسبة الحج « متمتع » اذ انه تمتع فى المدة مابين العمرة الى الحج بكل المحظورات على من يحرم « كاللبس والاغتسال والتطيب ومقاربة النساء » وأمر تعالى من يستعمل هذه الرخصة اما :

١ — بالصوم عشرة ايام ، ثلاثة اثناء الحج ،وسبعة بعد ان يرجع الى اهله « اى ان ذلك لغير المقيمين فى مكة » . وذلك فى حالة ما لم يجد .

٢ — فما « استيسر من الهدى » اى ان الأصل هو ان يفدى الانسان مقابل استعماله رخصة « التمتع » ما تيسر من الهدى واقله شاة .

بين تجربتى الخاصة وهذا النص :

وقد شاءت الظروف ان يكون امامى فى أول حجة قمت بها زعيم من زعماء السنة كان مذهبه هو ان سيدنا محمدا — صلى الله عليه وسلم — وقد أمر فى حجة الوداع اصحابه ان يفسخوا حجهم الى عمرة « عدا من كان قد ساق الهدى » وهو حديث جابر كما رواه مسلم ، أقول ان هذا الزعيم السنى استنادا الى هذا الحديث كان ينكر ماعداه من النسك بحيث كان يحتم تحتيما وجوب التمتع، وقد تابعته على ذلك ، ليس فقط فى المرة او المرات التى تلازمنا فيها ، بل حتى بعد وفاته رحمة الله عليه .

ولكنى الآن وانا اقف امام هذه الآية الكريمة التى تفرض صيام عشرة ايام « كاملة » لمن يستعمل هذه الرخصة .

فقد اصبحت اتردد كثيرا فى هذا الذى كان صاحبنا يردده ونردد معه ان التمتع هو افضل حالات النسك .

ورضى الله عن الائمة الأربعة والذين كانوا اورع الناس واعلم الناس ، فليحذر من يتصور انه قادر بسهولة ان يرد قول اى منهم استنادا على حديث قراه هنا او هناك ، ولعل هذا ما جعلنى اسجل هذه التجربة الشخصية وكيف مارست عملا لا اقول انه خطأ وانما الخطأ فى تصورى ان من لم يفعل ذلك يكون مخطئا .

وجملة القول انه فليرجع من اعتزم الحج الى اقوال الائمة الأربعة وليختر من ايهم من يشير عليه باتباع نوع النسك الذى ينشرح له صدره .

« واتقوا الله واعلموا أن الله شديد العقاب » .

وككل آيات القرآن الكريم عندما تفرض فرائض وتضع أحكاما فانها تذكر المؤمنين المخاطبين بكلام الله بوجوب الانصياع الى أوامره وعدم تجاوز الحدود التى حددها لكل ما يكلفون به ، وينذر المخالفين بعقابه الشديد .

« الحج أشهر معلومات » .

هنا وقد بدأ القرآن الكريم فى التفرقة بين العمرة والحج ، فاذا كانت كل شهور السنة صالحة للعمرة ، فليس كذلك الحج الذى هو ركن الاسلام الخامس فقد خصه الله بوقت محدد من السنة وهذه الأشهر المعلومات هى : شوال وذو القعدة وعشرة من ذى الحجة ، وقد كان الاسلام هو الذى قصر الحج فى ذى الحجة على العشر الأوائل منه ، ذلك انه جاء فى الحديث الصحيح « الحج عرفة » ولما كان الوقوف فى عرفة يتم فى اليوم التاسع فقد قصر البعض شهر ذى الحجة على عشرة منه باعتبار أن من فاته الوقوف بعرفة لا حج له ، ولكن مناسك الحج كما سوف نرى تمتد الى ما بعد العاشر ولذلك فنحن من راى من اعتبر ذا الحجة كله من أشهر الحج . وتدل كلمة « معلومات » على أن هذه الاشهر الثلاثة كانت معروفة وذائعة بل ومتفق عليها ويدل اسم الشهر بالذات « ذو الحجة » على أنه هو ذروة الحج .مع مراعاة القاعدة السابقة من ان « الحج عرفة » .

« فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج » .

فمن فرض فيهن الحج : أى انتوى والزم نفسه بأداء هذه الفريضة .

« فلا رفث ولا فسوق »

الرفث : الجماع .

الفسوق : الخروج عن حدود الشرع بأى فعل محظور كان يقوم بالأعمال المتفق على انها تفسد الاحرام ، كالصيد والطيب والتزين بارتداء الملابس المخيطة ، أو تغطية الراس .. الى آخره .

ولا جدال فى الحج : كان من عادة قبائل العرب فى الجاهلية فى المواسم وعلى راسها موسم الحج ان يتفاخروا بانسابهم ويشيدوا بأعمال قبائلهم ، مما كان يؤدى الى منازعات وايغار الصدور ، فحظر الله سبحانه « الجدال » وهو المراء والمناقشة الحادة التى تؤذى المشاعر وتؤدى الى الخصام ، وغنى عن البيان ان المباحث العلمية وما قد يتخللها من مناقشات وخلاف فى الراى لا ينطبق عليها الحظر الا اذا تحولت الى منازعات ومخاصمات فتصبح جدلا محظورا .

روى البخارى بسنده ، عن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — « من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه » .

« وما تفعلوا من خير يعلمه الله »

والفضيلة ومكارم الأخلاق التى هى جوهر الدين لا تقف عند حد الأعمال السلبية بمعنى الانتهاء عما نهى الله عنه فقط ، فليس ذلك الا نصف الفضيلة ونصف مكارم الأخلاق ، وهذا هو ما غاب عن المسلمين فى بعض الفترات فأدى الى ضعفهم وتخلفهم اذ تصوروا أن التدين يقف عند حد « عدم ارتكاب المحظورات » كان لا يشرب المسلم الخمر أو لا يزنى ، أو لا يفعل هذا الشىء أو ذاك وصحيح أن ذلك من أوجب واجبات المسلم ، ولكنه ليس الا احد وجهى القضية والتى تقوم دائما على وجهين ، فالى جوار النهى عن اتيان أعمال فهناك الأمر بأداء أعمال :

« وقل اعملوا »

« وجاهدوا فى الله حق جهاده »

« اصبروا وصابروا ورابطوا »

« ولتكن منكم امة يدعون الى الخير »

وامثال ذلك كثير فى القرآن ومنها هذه الآية فهى بعد ان اشارت الى المحظورات ، ذكرت بين ميدان الأعمال الخيرة فسيح ، وان الله عالم بكل ماتفعلوه من خير ايها المؤمنون « وما تفعلوا من خير يعلمه الله » .

« وتزودوا فان خير الزاد التقوى » .

روى البخارى وابو داود والنسائى وغيرهم عن ابن عباس انه قال : كان اهل اليمن يحجون ولا يتزودون ويقولــون نحن متوكلون ثم يتقدمــون فيسالون فنزلت هذه الآية ، وليس معنى نزول الآية بهذه المناسبة انها تصبح وقفا عليها ، فالعبرة كما يقال دائما هى بعموم النص لا بخصوص السبب ونحن بازاء نص عام يدعو الى « التزود » والتزود كما يكون ماديا يكون معنويا . جاء فى معجم الفاظ القرآن : الزاد : الطعام يكون فى السفر ، وتزود المسافر اتخذ زادا للسفر .

فانت ترى أن ما ذكرتــه الاحــاديث والمعنى اللغوى للكلمة لا يتعارضان ولذلك فقد استوقفنا ماجاء فى تفسير المنار ، نقلا عن الشيخ محمد عبده استبعاده بطريقة جازمة المعنى المــادى لكلمة « تزودوا » وراح يقول كلاما طويلا عريضا لنفى ان يكون المقصود من الآية هذا الذى جاءت به الأحاديث سببا لنزول الآية ، مما جعل تلميــذه الشيخ رشيد رضا وكان اشد احتفالا منه بالاحاديث النبوية الشريفة يقول بعد أن اورد كلام استاذه : اقول : ويدخل فى فعل الخير والطــاعة الاخــذ بالأسباب كالتزود وتحامى وسائل الحــاجة الى السؤال المذموم .

وهذا الذى يقوله الشيخ رشيد رضا هو عين الصواب والعلم .

والذين يتابعوننا فى هذا التفسير منذ بدائــاه يعلمون أنه مع اكبارنا للشيخ محمد عبده وتقديرنا للدور العظيم الذى قام به فى خــدمة الاســلام والمسلمين ، فاننا نخالفه فى الأسلوب والمنهج وربما كان مضطرا اليه فى عصره ، اما فى عصرنا حيث انتشرت المادية والالحاد فلم يعد هذا الاسلوب مقبولا .

واذا كنا نتوقف هنا فذلك لكى نحذر البعض من ان ينهجوا هذا الأسلوب .

فعندما تجمع الأحاديث ولا يوجد ما يعارضها على ان هذه الحادثة او تلك كانت السبب فى نزول آية معينة ، وعندما يكون التفسير اللغوى يدعم الأمر فيكون من التكلف نفى ماقال به القــدامى اعتمادا على مجرد ما يفهمه « انسان كائنا من كان » على فهمه الخاص ، وكما يقول الشــيخ رشيد رضا بحق أن التزود بالطعام « أو ثمنه كما هو الحال فى الوقت الحاضر » ، يدخــل فى عموم النص .

« فان خير الزاد التقوى »

وأيا كان تزود الانسان بالمادى من الأمور فان أعظم ما يتزود به الانسان قبل كل شىء وبعد كل شىء هو « تقوى الله » اى اتقــاء غضــب الله وسخطه وعدم رضائه بعمل اوامره والانتهاء عن نواهيه .

« واتقون يا أولى الألبــاب »

واولوا الألباب هم كل انســان عاقل رشــيد يسعى لتحقيق الخير لنفسه .

مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾ * وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ

« ليس عليكم جناح ان تبتغوا فضلامن ربكم فاذاافضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعرالحرام واذكروه كما هــداكم وان كنتم من قبله لمن الضـــالين » .

ليس عليكم جناح : اى لا اثم عليكم .

الجناح : الاثم .

ان تبتغوا فضلا من ربكم : المراد طلب الرزق وكل ما يلتمس من نعم الله على الانسان على ان يكون ذلك بالمعروف . اى فى حدود الاعتدال ،ولا يكون هو الهدف الأول من الحج والمقصود بالذات .

فاذا افضــــتم من عرفـــات : اى اندفعتم من عرفات ، بعد فراغكم من الوقوف ، ويطلقون فى الاستعمال على هذا العمل « بساعة النفرة » .

فاذكروا الله عند المشعر الحرام : المشـــعر الحرام حسبما حدده رسول الله صلى الله عليه وسلم كما كانوا يفعلون مما ستشير اليه آية تالية .

واذكروه كما هـــداكم وان كنتم من قبـــله لمن الضالين .

والذكر هنا تساوى كلمة « الشكر » على توفيق الله للحاج وهدايته الى الخير العميم الذى ناله باتمام الركن الخامس للاسلام ، وخروجه نهائيا مما كان عليه قبل حجه .

دين العمل والسعى :

ليس اثقل على النفس من اقوام جهلوا دينهم واندفعوا نحو افكار وآراء نادى بها يهودى شان اليهود فى كل زمان ومكان وهو ان يخربوا النفوس ويهدمونها ليتسلطوا هم ويســـودوا العـــالمين ، واعجب لشباب مسلم يغمض عينيه ويغلق نافذة عقله ويروح يردد كالببغاء كلمات هى الافك والكذب بعينه ، وهذه الآية التى نحن بصددها مصـــداق ذلك ، فقد زعم هذا اليهودى المخرب ان الدين يجعل الشخص المتدين ينصرف عن العمل والسعى ليتفرغ للآخرة وان الدين لهذا السبب هو من صنع طبقة لتسيطر على طبقة اخرى حتى زعموا ان الدين افيون الشعوب ، فانظر يارعاك الله الى ضخامة هذه الأكذوبة وكيف تهدمها هذه الآية الكريمة فهانحن اولاء بصدد منسك من مناسك الاسلام وشعيرة من اكبر شعائر الاسلام وهو الحج فقد تصـــور المسلمون الأوائل ان الاتجار والتماس الرزق خلال موسم الحج فيه منافاة للعبادة والنسك فتحرجوا وتاثموا من فعل ذلك ، فنزلت هذه الآية الكريمة

لتبين للناس أن العمل الشريف والكسب الحلال الذى هو قوام حياة الانسان هو من صميم الدين.

روى البخارى بسنده عن ابن عباس : «كانت عكاظ ومجنة وذو المجاز اسواقا فى الجاهلية فتأثموا أن يتجروا فى الموسم فسألوا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — عن ذلك . وقرأ ابن عباس الآيـــة . . .

واخرج احمد بن حنبل فى مسنده وابن جرير والحاكم وغيرهم عن أبى أمامة التيمى قال : قلت لابن عمر انا نكرى — أى الرواحل للحجاج — فهل لنا من حج ؟ فقال ابن عمر : جاء رجل الى النبى — صلى الله عليه وسلم — فسأله عن الذى سألتنى عنه فلم يجبه حتى نزل جبريل عليه بهذه الآية — وذكرها — فدعاه النبى صلى الله عليه وسلم فقال : « أنتم حجاج » وفى رواية : الستم تلبون ؟ الستم تطوفون بين الصفا والمـروة ؟ الستم ، الستم ؟ ثم ذكر ما تقدم .

« فاذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض » .

واباحة القرآن الكريم لابتغاء الرزق لا يقف عند حد السماح به فى منسك الحج بل بتأثره عند كل عبادة وعند كل شعيرة من شعائر الدين ، انظر اليه وقد طالب المسلمين للتـوقف عن العمـل والتجارة « اذا نودى للصلاة من يوم الجمعة » فلا تكاد الصلاة تؤدى حتى يكون الأمر بالانتشار والسعى لطلب الرزق « فاذا قضـيت الصـلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله » .

وهكذا تدور تعاليم الاسلام كلها حول هـذين المحورين : العمل والانتاج لأنه السبيل لصـلاح جسد الانسان والتدين الذى هو لازم لصلاح روح الانسان فلا يخطئن احد ويتصور أن الانسان يمكن أن يسير بتجاهل روحه ، كما لا يمكن ان يسـير بتجاهل جسـده .

وعندنا أن هذا هو واجب المدرسين والمعلمين فى المرحلة القادمة أن يغرسوا فى نفوس الصبية حقيقة التعاليم الاسلامية ومدى حثها على العمل والكسب الحلال ، لكى يلقموا من يزعم لهم أن الدين صارف عن العمل ، أقول يلقموه حجـرا ويقولون له أن ما تدعيه هـو من افك يهودى مخرب .

« فاذا أفضتم من عرفات »

قدمنا أن الحديث الشريف قد نص على أن الحج عرفة وها هى ذى الآية الكريمة تتحدث عن النزول بعد الوقوف على عرفـات كأمر مقـرر وسوف تؤكده الآية القادمة . وقد سمى الجبل والوادى فى سفحه الذى يقف فيه الحجاج يـوم التاسع من ذى الحجة « عرفات » كما سمى هذا اليوم العظيم يوم « عرفة » .

ويقول الشيخ رشيد رضا أن احسن ما قيل فى أصل هذه التسمية أن فى هـذا المكان يتعـرف الانسان ربه بالعبادة أو أن الناس تتعـارف فيه الى بعضها على أن من الأقوال الشـائعة والتى سيسمعها كل حاج اذا سأل ، أو اذا فتح أى تفسير من كتب التفسير القديمة الشهيرة ، وليس بنافع اغفال الأمر جملة . فهم يقولون انه سمى عرفات لأن حواء وآدم بعد أن افترقا لأول نزولهما على الأرض فقد تقابلا من جديد يوم عرفة ومن هنا سمى المكان « عرفات » ولكن هذا القـول لا أصل له صحيحا يستند اليه .

« ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس واستغفروا الله ان الله غفـور رحيم . فاذا قضـيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشـد ذكرا فمن النـاس من يقول ربنا آتنـا فى الدنيا

وماله فى الآخرة من خلاق . ومنهم من يقول ربناآتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار . اولئك لهم نصيب مما كسبوا والله سريع الحســـاب » .

« ثم افيضوا من حيث افاض الناس »

روى البخارى عن عائشة ام المؤمنين — رضى الله عنها — قالت : كانت قريش ومن دان دينها يقفون بالمزدلفة وكانوا يسمون الحمس وكان سائر العرب يقفون بعرفات ، فلما جاء الاسلام أمر الله نبيه — صلى الله عليه وسلم — أن يأتى عرفات ثم يقف بهـــا ثم يفيض منهـــا فذلك قـــوله :

« من حيث افاض النـــاس » .

وعندنا الى هذا نص نلتزم به فى تفسير الآية .وعلى ذلك فوجود « ثم » لا يثير عندنا اى اشكال ومن اراد استقصاء ما دار حول « ثم » فى هذا الموضوع فعليه بمن اغرقوا فى تفسير القرآن بحكم قواعد اللغة ، أما نحن فنفهم الآية الكريمة على ضوء ماقالته السيدة عائشة ، فقــد ذكرت آية سابقة « فاذا أفضتم من عرفات » وقلنا حيالها انها اقرار لمـــا جرى عليه العمـــل من الوقوف بعرفة ، ثم حدثتنا السيدة عائشة ان قريشا كانت لا تفعل ذلك .

ومن هنا فنحن نتصور أن القرآن الكريم اراد أن يشجب هذا التقليد الوثنى والذى يفرق بين البشر وان البعض يتمتع بامتيازات ومسموحات دون البعض الآخر فنص على أن المؤمنين شأنهم شأن بقية البشر يلتزمون جميعا بقاعدة واحدة ،ومنسك الحج شأنه كبقية شـــعائر الاســـلام ، يتساوى فيها البشر فقـــال وقوله الحـــق « ثم افيضوا من حيث أفاض الناس » .

« واستغفروا الله ان الله غفور رحيم » كل مافى القرآن موجه الى المسلمين فى كل زمـــان ومكان فنحن ازاء دعوة عامة موجهة للحجاج أن يستغفروا فالحج موطن التوبة والاستغفار ولكن ذلك ليس بمانع بأى حال من الأحوال من أن يحس من يعرف تاريخ الدعوة الاسلامية وعلى ضوء حديث السيدة عائشة ، جمال ذكر الاستغفار فى هذا الموطن وكأنه يطالب قريشا بالاستغفار عن خطيئة الاستعلاء على الناس . « ان الله غفور رحيم » اى انه يقبل التوبة ويغفر برحمته للخاطئين المنحرفين ، متى صدقوا النية والعزم ان لا يعودوا لمـــا كانوا عليه « فاذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكرا »

المناسك . العبادة . جمع نسك ، وهى أفعال الحج وقد ذكر لنا القرآن الكريم كما مر بنا من هذه المناسك .

— الطواف حول الكعبة .
— السعى بين الصفا والمروة .
— الصلاة فى مقام ابراهيم .
— الوقوف بعرفة .
— الدفع « الافاضة » من عرفة الى المشعر الحرام « المزدلفة » .
— أيام التشريق « كما سيأتى » .
— الاحرام بنية الحج أو العمرة .
— متى احرم الحاج فلا رفث ولا فسوق ولاجـــدال .
— سوق الهدى ونحر الذبائح .

— التحلل عن طريق حلق الراس .

— حظر الصيد اثناء الاحرام .

هذه الأمور كلها من مناسك الحج قد أشـــار اليها القرآن الكريم . اى الى نسك كان يمارس بالفعل . فجاء القرآن يصحح ويرفع الغواشى التى طرات على هذه العبـــادة .

ولكن بعض مناسك الحج « كرمى الجمار »لم يرد لها ذكر فى القرآن فمن اين جاءت ؟ جاءت من فعل الرسول صلوات الله عليه وسلامه فقدحج حجة الوداع فى السنة التاسعة من الهجرة وقال : « خذوا عنى مناسككم » .

وهذا ما جعل البعض كما قدمنا يعتمد على فهمه واجتهاده فيطالع حديث الرسول صلى الله عليه وسلم ويستغنى به عما عداه .

مع أن الائمة الأربعة الذين ارتضت بهم الأغلبية العظمى من المسلمين كانوا يبنون احكامهم على القرآن والحديث واعمال الصحـــابة باعتبـــارهم المصدر لمعرفة اعمال رسول الله ومقاصده فلزم على كل من يتصدى للفتوى أن لا يغفل شـــيئا من ذلك .

« فاذكروا الله كذكركم آباءكم او أشد ذكرا » .

نعود للتنبيه الى ما قلناه بصدد الدعـــوة الى الاستغفار وان ذلك عام بالنسبة الى كل حـــاج ومع ذلك فان هذا لايمنع المطلع على تاريخ العرب فى الجاهلية بالاحساس بنوع الذنب الذى ارتكبوه.

ذكر الله :

والدعوة الى ذكر الله فى كل وقت وآن هـــو ما يجب ان يكون شـــغل الحاج الشاغل والذى سافر وارتحل لهذا الغرض ولكن بالمقارنة بين ذكر الله وذكر الآباء يجعلنا نستحضر بعض ماكان يقوم به العرب فى الجاهلية على ما روى الرواة ،فقد كانوا اذا فرغوا من مناسك الحج يدخلون فى مباراة من التفاخر بذكر الاحســـاب والأنســـاب وما كان الآباء يفعلونه بخاصة . فجـــاء القرآن الكريم ليخص الله وحده بالذكر وبأشد مما كانوا يفعلونه فى الجاهلية بالنسبة لآبائهم .

وما أروع ما نقل عن رســـول الله صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع اذ قال فيمـــا قال : « أيها الناس ان ربكم واحد ، وأن اباكم واحد ،الا لا فضل لعربى على عجمى ولا لعجمى على عربى ، ولا لأحمر على أسود ولا لأسود على احمر الا بالتقوى » .

« فمن الناس من يقول ربنا آتنا فى الدنيا وماله فى الآخرة من خلاق » .

خلاق : اى نصيب وحظ .

تباركت ربى وتعاليت .

هانحن ازاء وصف لفريق من البشر لا يعرف هما لنفسه او شغلا او هدفا سوى الدنيا ومادياتها، فاذا علمت أن هذا النص انزل على رســـول الله صلى الله عليه وسلم منذ اربعة عشر قرنا علمت جهل وغرور هؤلاء الذين يدعون سواء كانوا من الشرق او الغرب . أن الدعوة الى ماديات الدنيا هى آية الحضارة البشرية التى وصل اليها العقل البشرى بعد ان كمل نضجه ووصل الى ماوصل اليه من علوم ومعارف ، مع أنها حالة مزمنة ان يوجد دائما فريق من البشر يتصور ان هذه الدنيا هى كل شىء ويكفر بما وراءها « وماله فى الآخرة من خلاق » .

« ومنهم من يقول ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار » وفى مقابل هؤلاء

الكفرة الذين لا يعترفون الا بالدنيا ــ يجيء المسلمون ليعملوا من اجل الدين والدنيا ، من اجل العاجلة والآجلة فيقولون : « آتنا فى الدنيا حسنة » فالمسلم لا يعزف عن الدنيا والله تعالى يقول له : « ولا تنس نصيبك من الدنيا » ولكنه فى ذات الوقت ــ وهذه نقطة تفوته ــ يعمل أيضا من اجل الآخرة بالاحسان فى هذه الدنيا « وفى الآخرة حسنة » .

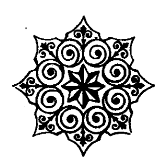
« وقنا عذاب النار »

هذه هى دعوة المؤمن يسال الله ان يجنبه عذاب النار وياويل المجتمعات التى ينعدم فيها من النفوس الخوف من عذاب النار يوم القيامة ، لن تكون النتيجة الا هذا الذى نراه على طول الدنيا وعرضها .

« اولئك لهم نصيب مما كسبوا والله سريع الحساب » يقصر بعض المفسرين « اولئك » على جماعة المؤمنين الذين يطلبون فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة ، ولكننا مع رأى من يقول انها اشارة الى الصنفين من الناس من كان يقصر كل همه على الدنيا ومن كان يعمل من اجل الدنيا والآخرة ، فتنص الآية الكريمة على ان كلا سينال ما يستحق ويقوى فى انفسنا الاحساس بأن الاشارة الى الطائفتين ، ان الآية الكريمة ختمت بـ « والله سريع الحساب » وهى الى الوعيد والانذار اقرب .

ويدعم هذا النظر ان المعنى الذى يقضى بأن الله يعطى كلا بحسب نيته قد تكرر فى القرآن الكريم : « من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله فى الآخرة من نصيب » .

ويكون المعنى ان كل انسان يحصل على بعض ما يريد بأذن من الله كنتيجة لعمله وهذا هو الكسب . ثم يحاسبه يوم القيامة على ما اتجهت اليه ارادته وعمل على تحقيقه .



فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۖ لِمَنِ ٱتَّقَىٰۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِۚ فَحَسۡبُهُۥ جَهَنَّمُۖ وَلَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٢٠٨﴾

« واذكروا الله فى ايام معدودات فمن تعجل فى يومين فلا اثم عليه ومن تاخر فلا اثم عليه لمن اتقى » .

تشير هذه الآية الكريمة الى ما يطلق عليه فى مناسك الحج « ايام التشريق » وهى ايام يقضيها الحاج عقب انصرافه من عرفات ثم المزدلفة ، فيستقر فى « منى » لمدة يومين او ثلاثة .

وهذا الاجراء ككل اجراءات الحج منقول عن فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم .

روى أصحاب السنن والامام احمد وغيرهم « ان ناسا من اهل نجد اتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو واقف بعرفة فسألوه فامر مناديا ينادى : الحج عرفة ، من جاء ليلة جمع — اى مزدلفة — قبل طلوع الفجر فقد ادرك ، ايام منى ثلاثة فمن تعجل فى يومين فلا اثم عليه ومن تأخر فلا اثم عليه » .

وايام منى « التشريق » هى الحادى عشر والثانى عشر والثالث عشر من ذى الحجة وهذا ما جعلنا لانفهم كيف وقت من قالوا بأن اشهر الحج تنتهى يوم عشرة ذى الحجة ؟ الا اذا كان مرادهم ان يقولوا ان الاحرام بالحج لا يكون بعد هذا التاريخ فيكون هذا نظرا صحيحا لما قدمناه من ان الحج عرفة . ولكن فى هذه الحالة كان يتعين القول « بنهاية اليوم التاسع من ذى الحجة » وهذا ما جعلنا ناخذ بقول من قال ان ذا الحجة كله من اشهر الحج بمعنى أن مناسك الحج تستمر فيه الى بعد العاشر من ذى الحجة . على اننا نعود لنلفت النظر الى ان العمدة فى ذلك هى لكتب الفقه المعتمدة فليرجع اليها من اراد التثبت من هذه القضايا .

ايام التشريق — المؤتمر الاسلامى العالمى — :

والقرآن الكريم يقف عند الأمر بذكر الله فى ايام التشريق تاركا التفصيل لسنة الرسول صلى الله عليه وسلم ، والمأثور عن رسول الله انه كان يذكر الله بالتكبير .

الله اكبر ، الله اكبر كبيرا .

وفى صحيح البخارى عن ابن عمر ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يكبر بمنى تلك الأيام وعلى فراشه وفى فسطاطه وفى مجلسه وفى ممشاه فى تلك الأيام جميعها .

وعندنا ان مؤتمر الاسلام العالمى السنوى انما هو فى ايام منى ، ذلك انه فى عرفات يكون يوم دعاء وابتهال الى الله حيث كل مشغول بنفسه يسأل حاجته من ربه ، ان يوم عرفة هو صورة مادية دنيوية لما يمكن ان يكون عليه الحال يوم الحشر وليس الا فى ايام منى تطمئن النفوس

وتتفاعل ويغمرها الرضا باتمام فريضة الحج ، فايام منى ايام صفاء ومحبة وتآخ لا يعرفهـــا الا من أدى فريضة الحج ، وقد اتيح لى اناشخصياان اشهد مولد النهضة الاسلامية الحديثة على يد المغفـــور له عبد العزيز آل سعود حيث جعل بالفعل ايام منى مؤتمرا اسلاميا حيث كان اساطين المسلمين يجتمعون فى حضرته ويتحدثون بقضياهم وشكاواهم وآلامهم وآمالهم وكان ذلك منذ قرابة خمسين سنة . واحسب ان ذلك من اسرار الاقامة فى منى .

ايام التشريق — يومان او ثلاثة ؟ :

ان النص القرآنى الذى نحن بصدده لا يسمح بتفضيل مدة على مدة ، فقد رفع الاثم عن هذا وذاك ، فعلى من يريد مزيدا فعليه بكتب الفقه والذى شاهدته فى العمل ان الجمهرة العظمى من الحجاج تكتفى بيومين « غير يوم العيد بطبيعة الحال .

« لمن اتقى واتقوا الله واعلموا انكم اليه تحشرون » .

اى ان العبرة فى اطالة ايام التشريق الى ثلاثة او قصرها على يومين انمـــا يرجع الى النيـــة الخالصة الصـــادقة التى تبتغى مرضاة الله فى كل ما تقول او تفعل وعندما يطلق لهـــا الخيار فى أمر من الأمور تختار الأحسن والأنفع لدينهـــا ودنياها تبعا للظروف التى تحكم لحظة الاختيار .

ويحذر الله ويذكر — بما لا يجب ان يغفل المؤمن عنه طرفة عين وهو انه سوف يبعث يوم القيامة.

نشوء ظاهرة النفاق فى مجتمع المدينة

الاجماع على ان سورة البقرة سورة مدنية كما قدمنا ، بل هى اول سورة نزلت بالمدينة وقد مر بنا كيف راحت تناقش اليهود فى ادق تفاصيل دينهم والانحرافات التى شابت معتقداتهم وسجلت عليهم الجحود والعناد والمراوغة ، كما تعرضت السورة الكريمة لاركان الدين الجديدة التى فرضت لأول مرة فى المدينة كالصوم او صححت كالحج وفريضة القتال التى كتبت على المسلمين فى المدينة وغير ذلك وها هى ذى السورة الكريمة تشير لأول مرة الى طراز من الناس جديد وهم معاشر المنافقين ، وقد ظلت طائفة المنافقين تقوى وتشتد حتى خصهـــا القرآن الكريم بســـورة كاملـــة « المنافقون » وبين القرآن الكريم كيف أن المنافقين اشد خطرا على الدعوة من الكافرين انفســـهم ولذلك جعل عذابهم اشد هولا فقضى ان يكون مكانهم « الدرك الأسفل من النار » وحدد رسول الله صلى الله عليه وسلم صفة المنافق فقـــال وقوله الحق والصدق :

« آية المنافق ثلاث : اذا حدث كذب واذا عاهد غدر واذا خاصم فجر » والسؤال الذى يرد على الذهن لماذا وجد النفاق فى المدينة ولم يوجـــد فى مكة ؟ والسؤال الثانى لماذا كان النفاق اشد خطرا من العداء الصريح ؟ .

لمـــاذا فى المدينـــة ؟

أما لماذا نشأ النفاق فى المدينة ولم يكن قبل ذلك فى مكة فذلك لأن المسلمين فى مكة كانوا هم القلة المستضعفة حيث كانت الكثرة الغالبة ومن بيدهم سلطة الحل والعقد هم من غير المسلمين الذين كانوا يضـــطهدون المسلمين اضـــطهادا ، فكان يستحيل ان يظهر انســـان ما الاسلام فى الظاهر وهو يبطن خلاف ذلك . لأن ذلك ما كان يفيده شيئا بل يعرضه للاضطهاد .

أما بعد أن هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المدينة وهو لم يفعل ذلك الا بعد ان كان الاسلام قد فشا فى المدينة وبايعه زعمـــاء الأوس والخزرج ، وكان أن قامت فى المدينـــة

السلطة الاسلامية التى لا تعلوها سلطة واصبحت أوامر سيدنا محمد تنفذ على الفور ، ومن هنا وجدت ظاهرة النفاق لأول مرة حيث ظاهر قوم بالاسلام ليظلوا متمتعين باحترام آلهتم وذويهم ، الذين اعتنقوا الاسلام واصبحوا بذلك أعداء لكل من لا يدين بالاسلام .

« ان المنافقين فى الدرك الأسفل من النار » .

أما لماذا كان المنافقون أشد خطرا من العدو الصريح فذلك لأنك تعرف عـدوك فتأخذ حذرك منه وتتجنبه وتتقيه ، أما المنافق فهو بحكم مـايتظاهر به من ود وصـداقة فهو يقترب منك ويخالطك . وهو بحكم ما يضمر فى دخيلة نفسه من حقد وضغينة لا يتردد فى أن يغـدر بك ويطعنك فى الصميم اذا استطاع الى ذلك سبيلا .

ومن هنا قال بعضـهم : فليحمنى اللـه من أصدقائى اما أعدائى فأنا كفيل بهم . وهو تعبير سقيم وغير دقيق ولكن معناه مفهوم ، فالقائل يعنى بالأصدقاء المنـافقين ، ويريد أن يقول انه يستطيع مجابهة الأعداء والخصوم ويعرف الطريق الى ذلك ، أما بالنسبة للصديق الغادر فلا سبيل أبدا للاحتراز منه لأننا لا نعرف أين يضرب ولامتى يضرب ، وعندما يضرب فان ضربته تـكون شديدة موجعة وأحيانا قاتلة .

دفـع شـبهة :

وهنا نريد أن نقف قليلا لنحدد ما هو النفاق الخطر ، وبين مظهر من مظاهر الحضارة وهو أدب المجاملة . وأن نفرق بينهما فان من الأقوال الشائعة والتى تعنى أن قائلها يريد أن يصف نفسه بالصراحة والبعد عن النفاق وذلك بقوله « أنا أقول للأعور انه أعور فى عينه » وهو قول خاطىء وقد ينطوى على ذلك اثم كبير اذا كان المقصود به الايذاء ، ففى المجتمع المتمدين حيث يتعايش الناس لابد من أن يتبعوا مـع بعضهم البعض قواعد السلوك التى تقوم على الاحترام المتبادل وعدم جرح احساس الآخرين فليس فى كل ما يقال من هذا القبيل نفاقا وانما هى آداب مجاملة مندوب اليها وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه استؤذن فى أن يقابله شخص ما فعندما سمع اسم الرجل . قال : بئس أخو العشـيـرة هو ، وعندما دخل الرجل هش رسول الله فى وجهه وبش ، فبعد أن انصرف الرجل قالت السـيدة عائشة : عجبت لك يا رسول الله تقـول على الرجل بئس أخو العشيرة هو ، حتى اذا دخل عليك اقبلت عليه هاشا باشا ، فقال سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم : يا عائشة ماكان محمـد فحاشا .

فاكرام الضيف والأدب فى الحديث وجبر الخواطر ليس نفاقا وانما من مكارم الأخلاق .

وانما يبدأ النفاق عندما تقر صاحب سلطة — من أى نوع كان — على باطل ينادى به أو ظلم يرتكبه وذلك لتغتنم من وراء ذلك كسبا . أو أن تعلن المحبة فى الظاهر وأنت تنطوى على الحقد والضغن وتتحين الفرصة لكى تغدر ، وبالجملة أن ينشأ عن موقفك ضرر . فهذا هو النفاق كما تصوره لنا الآية الكريمة التى نحن بصددها . فحيث يسيل اللسان بالقول المعسول الذى يخلب السامع فلا ينطوى القلب الا على الضغن والحقد الذى يصل الى حد اهلاك الحرث والنسل اذا استطاع الى ذلك سبيلا واليك النص :

« ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويشهد الله على ما فى قلبه وهو الد الخصام . واذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهـلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد . واذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالاثم فحسـبه جهنم ولبئس المهاد » .

مفردات :

« ومن الناس من يعجبك قوله » : يقال اعجبه الشيء اذا راقه واستحسنه .

« فى الحياة الدنيا » : اى ان هذا الاعجاب والاستحسان لا يكون الا فى الحياة الدنيا ، حيث يتأثر البشر بما يرون ويسمعون .

« ويشهد الله على ما فى قلبه » : ومما يعزز به هذا النفر اقوالهم الزائفة أنهم يشهدون الله على انهم يقولون الصدق وأنه يعلم ما تنطـوى عليه قلوبهم من خير أو محبة أو كائنا ما كان مما يعلنوه.

« وهو الد الخصام » : اى وهو يضمر عكس ما يقوله على خط مستقيم ، فاذا اعلن الخير فهو يضمر الشر ، واذا اعلن الصداقة فهو يضـمر العداء ، واذا أعلن السلم فهو يضمر الحرب ،
« الألد » شديد الخصومة والعداوة . جاء فى الحديث عن السيدة عائشة رضى الله عنها
« أبغض الرجال الى الله الألد الخصم » .

وهو احد صفات المنافق « واذا خاصم فجر ».

«واذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها» : واذا تولى : لا يمكن ان تعنى هنا الا الوجه الآخـر لتصرف المنافق فهو عندما يكون فى حضرة ومواجهة من ينـافق ، يقول ما يقول من ادعائه الخـير والصـلاح والمحبة ، فـاذا تولى عن حضرة أو مواجهة من ينافقه ، اى انصرف وادبر :

« سعى فى الأرض ليفسد فيها » اى كان حاله وغاية قصده هو الافساد فى كل شيء اذا استطاع الى ذلك سبيلا ، والفساد ضد الصلاح وكمـا يكون الافساد ماديا بالتخريب والتدمير والضرب والقتل الى آخره ، يكون معنويا كذلك بالايقاع بين الناس واثارة الفتن ، وقد عبر القرآن الكريم عن كليهما بالصورة البيانية .

« ويهلك الحرث والنسل »

الحرث : لغة الشق ومنه المحراث لانه يشق الأرض .

والنسل : ما خرج من كل أنثى من ولد واصله الخروج والسقوط ومنه نسل الشعر اى سقط .
واصبح التعبير باهلاك الحرث والنسل معنى شاملا لكل ضروب الافساد التى تقع على المزروعات والحيوانات والبشر وكل ضروب الافساد المـادى والمعنوى وغنى عن البيان ان ليس بلازم أن يفعل ذلك المنافق كل الفعل ، ولكن الشيء المحقق أن ذلك هو ما ينتهى اليه سعيه (عمله) لو انه نجح وهو فى كل الأحوال لا يتورع عن تمنى ذلك لو كان هو السبيل المؤدى الى النجاح .

« والله لا يحب الفسـاد »

وهذا هو الهدف النهائى للايمان ان ندرك أن الله طيب لا يحب الا ما هو طيب ، أن الله خير وكمال فلا يمكن أن يحب الشر والسوء ، وليس الفساد الا شرا وسوءا ونقصا فتعالى الله عن ان يحب الفساد .

« واذا قيل له اتق الله اخذته العزة بالأثم »

هذه الآية الكريمة هى التى جعلتنا نرجح ، انها من اول الآيات نزولا بشأن المنافقين فى المدينة حيث كان بعضهم لايزال يتصور أن بيده من الأمر شيئا (وقد كان كبير المنافقين عبد الله بن ابى بن سلول يطمع فى أن يكون سيد المدينة) ولابد ان يكون له نظراء وهؤلاء كانوا يتظاهرون بالاسلام كما قدمنا ويبطنون عكس ذلك ووقفـوا موقف المتربص بالإسلام والمسلمين ، فكان يحدث أن يلفت أنظارهم بعض صادقى الايمان فعلا بما فى هذا التصرف أو ذاك ما يناقض التعاليم الاسلامية (نصا او روحا)

وذلك بأن يقال لهم « اتق الله » فاذا بهم يعودون لجاهليتهم وعنجهيتهم ، ويكبر على نفوسهم ان يذكرهم مذكر بتقوى الله مع أن سمة المؤمن ان يرحب دائما بمن يدعوه لتقوى الله ، وليس الا منافق من تحول كبرياؤه عن سماع هذه الكلمة فيغضب اذا قيلت له . وقد قيلت يوما لعمر بن الخطاب وهو أمير المؤمنين وسيد الدنيا ، فكان رده « لا خير فيكم ان لم تقولوها ولا خير فينا ان لم نسمعها » .

« فحسبه جهنم ولبئس المهاد »

فمثل هذا المنافق او الطاغية ، او كائنا من كان ممن يتصور ان عزته وكبرياءه أو مقامه يحولان بينه وبين أن يدعى الى تقوى الله فمصيره جهنم يصلاها ولبئس المهاد .
(المهاد) الفراش يأوى اليه للراحة .

« ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله »

يشرى : بمعنى باع وقد مرت بنا اكثر من مرة بمعنى باع . وقد ورد الحديث عن صفقة البيع بين المؤمنين وبين الله سبحانه وتعالى من انهم باعوه أنفسهم وكل ما يملكون فى آية ناطقة بكل اركان البيع من انه « موضوع » للبيع ، ومقابل «الثمن» وقبول من الطرفين لعملية التبادل وذلك فى قوله تعالى : « ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم واموالهم بأن لهم الجنة » وذلك جريا على نسق القرآن الكريم ، فقد شاءت ارادة الله سبحانه وتعالى أن يكون باللغة العربية وأن يكون عرب الجاهلية أول من يخاطب به ، وكان العرب قوم تجارة يمارسون البيع والشراء سعيا وراء الربح والكسب فدلهم القرآن الكريم على أن التجارة اعظم تجارة والتى لا يمكن ان تبور ابدا وتعود على صاحبها بأكبر غنم متصور ، هو بيع النفس وما تملك لله وذلك بالجهاد فى سبيله وكل ما يفيض من معانى الخير والحق والعدل .

واذا كانت الآية الكريمة عامة تتحدث عمن يبيعون انفسهم لله ابتغاء الفوز برضوانه فى كل زمان ومكان فان المناسبة التى نزلت الآية الكريمة بصددها جديرة بأن تسجل وان تروى الى ابد الآبدين . فهى نموذج رائع لما بذله هذا الرعيل الأول من صحابة رسول الله وكيف علا حبهم لله وايمانهم به عن كل ماديات الحياة التى يلهث الناس خلفها .

روى ابن عباس وجمهرة من الصحابة ان الآية نزلت فى صهيب بن سنان الرومى . ذلك انه لما اسلم بمكة واراد الهجرة منعه الناس من أن يهاجر بماله وان احب ان يتجرد منه ويهاجر فعل ، فتخلص منهم واعطاهم ماله فنزلت هذه الآية ، فتلقاه عمر بن الخطاب وجماعة الى طرف الحرة « اى عند مدخل المدينة » فقالوا له : ربح البيع فقال : وانتم فلا اخسر الله تجارتكم وما ذاك ؟ ، فأخبروه ان الله انزل فيه هذه الآية ، ويروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له : «ربح البيع صهيب » .

« والله رءوف بالعباد » : اى انه سبحانه وتعالى بمحض كرمه وحنانه وعنايته بعبيده المخلصين لايمكن الا أن يقبل بيعهم ويكافئهم عليهم خير مكافأة وهى الجنة كما افصح عنها فى الآية الكريمة الأخرى « ان الله اشترى .. » الآية .

« يا أيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة » : الاسلام دين السلام بغير شك او تردد ومع ذلك فنحن مع الجماعة عندما يقولون ان كلمة «السلم» هنا تعنى الاسلام ووجوب الاخذ بجميع عرى الاسلام وشرائعه والعمل بجميع اوامره وترك جميع نواهيه « قدر الاستطاعة بطبيعة الحال »

وهذا هو معنى « كافة » وهناك بعض من المفسرين قالوا : « ادخلوا فى السلم » أى فى الطاعة ، والنتيجة واحدة فان طاعة رسول الله فى كافة المجالات هو دخول الاسلام من أوسع الابواب .

أما لماذا رجحنا واخترنا أن يكون السلم هنا بمعنى الاسلام وليس بمعنى السلم الذى هو ضد الحرب ؟ ، فذلك لسببين :

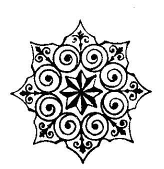
الأول : ما جاء بعد ذلك من النهى عن اتباع خطوات الشيطان وقد تكلمت آيات اخرى عن خطوات الشيطان « انما يأمركم بالسوء والفحشاء وان تقولوا على الله مالا تعلمون » .

وفى آية اخرى « انما يدعو حزبه ليكونوا من اصحاب السعير » .

وحقا لا ينفى ذلك كله أن دعوة الشيطان الى الحزب يندرج تحت ذلك . وهنا يأتى السبب الثانى الذى جعلنا نرجح ان السلم هنا بمعنى الاسلام .

السبب الثانى : مقام الحال . فقد كانت فريضة الحرب هى آخر ما كتب على المسلمين ، وقد تحدثت عن الحرب آيات سابقة تحض عليه فى ظروف معينة ولن تلبث الآيات التالية ان تحدثنا عن الحرب كذلك فامتنع اذن أن يكون المقصود هنا هو الدعوة للدخول فى السلم بدون قيد أو شرط، نجد المعنى بأن المقصود هو الاسلام .

« انه لكم عدو مبين » وعداوة الشيطان للانسان مسألة أرادها منذ الأزل قضى بها فى قديم علمه لتتحقق حكمته من خلق الانسان ، وما فتىء القرآن الكريم يذكرنا بهذه الحقيقة ويحذرنا منها .



فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾ سَلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ ۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢١١﴾ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّۦنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟

« فان زللتم من بعد ما جاءتكم البينات »

زللتم ـ ضللتم : تنحيتم عن طريق الاستقامة . اصل الزلل فى القدمثم استعمل فى المعتقداتويقول القرطبى أن اصل الفعل زلق .

« من بعد ما جاءتكم البينات » اى من بعد ما جاءكم من القرن ورايتم من المعجزات .

« فاعلموا أن الله عزيز حكيم » : تحذير للمؤمنين ان هم ضـلوا وتنكبوا عن الطريق المستقيم ، والتحذير مستفاد من وصف الله بالعزة والحكمةفى هذا الموضع ، فلم يقل مثلا « ان الله غفور رحيم » بل قال « عزيز » وهو الذى لا يمتنع عليه ما يريده .

« حكيم » فيما يفعله وكل شىء عنده بمقدار .

« هل ينظرون الا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام والملائكة وقضى الأمر والى الله ترجع الامور » .

جاء فى تفسير المنتخب الذى اصدره المجلس الأعلى للشئون الاسلامية بصدد هذه الآيةمايلى:

« وهل ينتظر هؤلاء المعرضون عن الاسلامليقتنعوا ان يروا الله تعالى جهرة فى غمام مع الملائكة وقد قضى الأمر بقطع مطامعهم لان الشئونجميعها فى قبضة الله يصرفها هو حيث يشاء وقد قضى فيها قضاءه الذى سينفذ لا محالة ؟ » .

وقال القرطبى من القدامى فى تفسير الآية :

« يعنى التاركين الدخول فى السلم وهل يرادبه هنا الجحد ، اى ما ينتظرون الا ان يأتيهم فى ظلل من الغمام والملائكة . نظرته وانتظرته بمعنى والنظر الانتظار » هذا ما استهل به القرطبى تفسيره ، وتقتضينا الأمانة ان نقرر انه عاد فقال :

«ويقال يوم القيامة ، وهو اظهر. اما لماذا ستنابين يدى ما سوف نقوله قول اشياخنا مفسرى المنتخب ، ولم نكتف بذلك فسقنا ما قاله القرطبىفى مطلع تفسيره للآية ؟ ، ذلك انه جريا على اسلوبنا عندما يكون لنا فهم يخالف فهم الجمهورلا نجرؤ على التصريح به الا بعد ان نستوثق ان

آخرين من الثقات قد فهموا مثل ما فهمنا . فنحن نرى من سياق الآيات وتدفقها أن الحديث هنا يساق على سبيل التحدى لهؤلاء الذين لايزالون يترددون فى اعتناق الاسلام ماذا ينتظرون ؟ هل ينتظرون ان يأتى الله والملائكة فى ظلل من الغمام . ولكن الكثيرين من ائمة التفسير القدامى وشايعهم تفسير المنار بافاضة ، يرون أن القول حديث عما سوف يكون يوم القيامة ويذكرون العديد من الآيات التى تتحدث عن مجىء الله سبحانه وتعالى يوم القيامة من مثل قوله تعالى : « وجاء ربك والملك صفا صفا » .

وفى مقابل ذلك ثمة آيات تحكى أقوال المشركين وانهم يطالبون سيدنا محمدا عليه الصلاة والسلام « ان تأتى بالله والملائكة قبيلا » .

كما يروى عن بنى اسرائيل قولهم لسيدنا موسى « ارنا الله جهرة » وهذا هو ما انتهى بنا الى هذا الفهم الذى فهمناه وزاد المعنى رسوخا فى عقلنا الآيــة التالية مبــاشرة ، حيث تذكر ببنى اسرائيل وانهم ظلوا على كفرهم وعنادهم بالرغم من رؤيتهم الآيات والمعجزات .

وللقارىء الكريم ان يختار ما يطمئن اليه قلبه فان اختار القول أن الآية الكريمة تصف الحــال يوم القيامة فهذا ما تقول به جمهرة المفسرين ، أما اذا اطمأن الى أن الآية « تبكت » المترددين عن الدخول فى الاسلام وتسألهم ماذا ينتظرون ؟ .. الخ فليطمئن الى انه وجد وسوف يوجد من فهم مثل فهمه .

ظلل : جمع ظلة وهى ما اظلك .

غمام : السحاب وقيده البعض بأن يكون أبيض وزاد آخرون فقالوا : وان يكون رقيقا .

« وقضى الأمر والى الله ترجع الأمور »

وعلى حسب فهمــك للآية يكون فهمــك لـ « وقضى الأمر » وأمر الله وقضاؤه نافذ فى الدنيا والآخرة معا وأنه مرجع الأمور كلها فى الدنيـــا والآخرة .

ويكون المعنى بحسب فهمنا ان لو اجبتم الى طلبكم لكان هذا نهاية الدنيا ورجوع الكون الى خالقه والله تعالى اعلم .

« سل بنى اسرائيل كم آتيناهم من آية بينة »

قدمنا أن هذه الآية التى جعلتنا نرجح أن الدعوة الى الدخول فى السلم تعنى « الاسلام » وانهــا نداء للذين لا يزالون يترددون او يتشككون ، أن يكفوا عن الاسلام « فى تبكيت » هل ينتظرون لكى يؤمنوا أن يأتيهم الله اولا ، وصدر سورة البقرة كله كما رأينا هو حديث عن بنى اسرائيل ومواقفهم مع نبيهم موسى عليه السلام فهل يريد المؤمنون « على عهد سيدنا محمد » أن يحــذوا حــذوهم وينسجوا على منوالهم « المقوت » ؟ وهنا يحذر الله سبحانه وتعالى معاشر المؤمنين بسوء العاقبة التى حلت ببنى اسرائيل ، وكل ذلك يستفاد من قوله تعالى : « سل بنى اسرائيل كم آتيناهم من آية بينة » وماذا كان موقفهم منها ثم تأتى الاشارة الى عاقبة ما انتهى اليه بنو اسرائيل وتحذير المؤمنين من قوله تعالى :

« ومن يبدل نعمة الله من بعد ما جاءته فان الله شديد العقاب » .

ولقد كان ظهــور سيدنا موسى من بــين بنى اسرائيل نعمة أنعم الله بها عليهم فلم يرعوها حق رعايتها فكان من أمرهم ما كان . وعلى المؤمنين ان يتعظوا بذلك كله ويعلموا أن بعثة سيدنا محمد

صلى الله عليه وسلم من بين صفوفهم هى نعمة كبرى فيحافظوا عليها ، وليعلم الكل الى ابد الابدين ، كتابيين أو مؤمنين « ان الله شـــديد العقاب » .

« زين للذين كفروا الحياة الدنيا ويسخرون من الذين آمنوا » .

تباركت ربنا وتعـاليت ، ما أصـدق كلامك وما اخلده ولا عجب فى ذلك فهو كلامك القـديم الأزلى الخالد ولكنك وقد سمحت لخليلك ابراهيم أن يسألك ليطمئـن قلبه فبواسع كرمـك وحلمك اسمح لنا أن نعبر عن انبهارنا بكلامك وان نشيدبه آناء الليل وأطراف النهار ليتعظ به الغارقون فى أوهامهم وضـلالاتهم ممن يتبعـون خطـوات الشيطان .

الماديون الملحدون المغرورون :

فالصيحة تتعالى اليوم من المـاديين الملاحـدة المغرورين . اننا نعيش اليوم فى زمن العلم ، وان الدين يمت للأزمان الماضية حيث كانت الانسانية لاتزال فى مرحلة الطفولة . أما اليوم وقد بلغت الانسانية مرحلة النضج فكل حديث عن الدين يجب أن يطوى كما تطوى بقية الخرافات ، هكذا يتخرص المتخرصون من دعاة المادية وهم بالتالى ينظرون باستعلاء « وقحة » على الأغلبية السـاحقة من البشر المؤمنين ويسخرون منهم باعتبـارهم غير « مثقفين » ومتخلفين .

وها هو القرآن الكريم المنزل على سـيدنا محمد صلى الله عليه وسلم منذ أربعة عشر قرنا ، يسجل هذه الظاهرة ، ظاهرة سخرية الكافرين من المؤمنين ، فأما نحن المؤمنين فنقول كما قلت آنفا « لا عجب فى ذلك فهو كلام الله القـديم » ولكنا نقول للماديين والملاحدة والكفرة بلغتهم التى يسمونها « علمية » : بطل اذن ما تزعمونه من أن سخريتكم من المؤمنين هى لأنكم تقدميون مثقفون بلغتم مرحلة النضج فانتم انما تفعلون فعل نظرائكم منذ أربعة عشر قرنـا .

« والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة » .

وسيكون القول الفصل يوم القيامة حيث يعلو المؤمنون أيا كان فقرهم وضـعفهم وقلة حيلتهم وهوانهم على الناس فى هذه الحياة الدنيا ، بينما يذل الكفرة أيا كان سلطانهم فى هذه الحياة الدنيا وأيا كان عزهم أو جاههم أو غناهم .

« والله يرزق من يشاء بغير حساب »

وتجىء الاشارة الى الرزق لتدلنا على موضوع « السخرية » فهو على الأغلب والأعم يتصل بموضوع المـال . فالكفرة الماديون والملاحـدة لا يقيسون الحياة الا بمقياس الأموال يقولون انظروا « هذه الدولة أو تلك » انظروا مستواها ، انظروا غناها مع أنهم كفرة وملاحدة ، قارنوا ذلك بمجتمعات المؤمنين وانظروا كم هم فقراء ومحرومون وليست هذه سوى نظرة سطحية غريرة . فهذه المجتمعات التى يتحدثون عن غناها تعيش فى جحـيم من العذاب النفسى والقلق الدائم ، وتحول الانسان الى مجرد آلة تعمل فى سبيل الانتاج والويل كل الويل لمن تدركه الشيخوخة أو تنقص قدرته على الانتـاج .

حدثنى كل من زار « بلدا معينا » انه استوقفه أن من يكنسون الجليد فى بعض المناطق ، من النساء العجائز فسأل عن السبب ، فكان الجواب لأن موت هؤلاء بسبب الالتهاب الرئوى أو السل يكون قليل الأثر على الانتاج مما لو اشتغل الرجال أو الشباب بخاصة فى مثل هذه الأعمال .

وفى الطرف الآخر من « المجتمعات الغنية » يكثر الجنون والانتحار والجرائم ، فأين ذلك كله

من مجتمع الايمان حيث تسود القناعة وبالتالى الرضا الذى هو اكسير التغلب على كل مصاعب الدنيا ومتاعبها .

لكل هذه المعانى تومىء الآية الكريمة وهى تدعونا لاخراج موضوع الغنى والفقر بالنسبة للمال من قضية تقييم البشر ، فقد شاءت ارادة الله لحكمة يعرفها هو أن يخرج موضوع الأرزاق عن اى مقياس يمكن أن يقيس به البشر الاشياء فهو يرزق من يشاء ، أنى يشاء ، وكيف يشاء بغير حساب . والمقصود طبعا بغير حسابنا نحن . وقياساتنا نحن . ويقول البعض « بغير حساب » اى لا يحاسبه احد ، ولكننا نؤثر المعنى الآخر .

« كان الناس امة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وانزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه » .

اختـــلاف :

اختلف المفسرون اختلافا وصل الى التناقض فقال بعضهم « أمة واحدة » على الايمان وقال الآخرون امة واحدة على الكفر ، وراح كل من الطرفين يسوق الشواهد على وجهة نظره ، فالذين قالوا « أمة واحدة » على الايمان اشاروا الى آدم عليه السلام وانه كان مؤمنا ، ولا يقولن قائل ولكن آدم فرد وليس جماعة ، ولكنا سوف نرى أن كلمة أمة قد يوصف بها الفرد الواحد ، وقال آخرون ان المقصود هم الناس بعد طوفان نوح فلم ينج الا المؤمنون .

وقال الآخذون بالراى الآخر من أن الناس كانوا جميعا كفرة بأن المعنى لا يستقيم بغير ذلك، لأنه اذا كان الناس جميعا مؤمنين ففيم كانت بعثة الرسل منذرين ومبشرين .

آية القرآن تفهم بما يؤدى اليه سياقها :

وعندنا أن الذين قالوا بأن أمة واحـــدة تعنى أنها واحدة فى الكفر ، قد وقفوا عند حد جزء معين من الآية ، ولكنهم لو نظروا الى وحدة المعنى فى الآية كلها لمـــا قالوا هذا القول ، ففى الآية تعليل لبعثة الرسل وانزال الكتب وأن ذلك « ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه » فدل ذلك على أن البعثة لم تكن للهداية ، فالهداية فطرة فطر الله الناس عليها . والحـــديث الشريف يؤكد هـــذه الحقيقة :

« كل مولود يولد على الفطرة » .. الحديث :

والاسلام دين الفطرة فدل ذلك على أن الايمان هو الأصل ، ولكن الناس تحت ضغط عـــوامل الحياة والاهواء والشهوات تنحرف عن الفطـــرة السليمة وتنساق أمام متاهات واتجاهات تؤدى فى النهاية الى الانحراف عن جادة الحق فبعث الله الرسل ليصححوا للناس مسارهم وعقيدتهم ، هذا هو ما تنطق به الآية وينطق به القرآن كله بل والأديان كلها .

ولا حجة فى القول أن الالفاظ فى صدر الآية لا تؤدى الى هذا المعنى فانه بتقدير كلمة واحدة محذوفة وهى « فاختلفوا » فان المعنى يصـــبح واضحا كالشمس فى رابعة النهار ، ونحن لسنا من أنصار تقدير الفاظ محذوفة ، ولكننا لا نوافق على ذلك عندما يتصور المفسر لفظا من عندياته ليتفق مع المعنى الذى يفهمه هو . أما هنا فى هذا الموضع فهذا اللفظ الذى نقدر معناه انمـــا نصت عليه الآية نصا وان تأخر ذلك بقولها « ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه » فدل ذلك على وجه القطع واليقين ، أن الناس كانوا امة واحـــدة فاختلفوا ولما كان لا يمكن ان تكون بعثة الرسل

لتحكم فى الخلافات بين صنوف الكفر . فقد اصبح المعنى واحدا لا فكاك منه . وهو ان الناس بداوا جميعا بداية سليمة تقوم على الايمان والهداية وان الانحراف والزيغ بكل صنوفه يطرأ بعد ذلك وهذا واضح كل الوضوح بالنسبة لأى طفل ، فأنت امام البراءة والطهارة والبعد عن كل ما هــو شرير وسيء ، وليس الا بعد أن يكبر الطفل وتتجــاذبه مؤثرات البيئة وعوامل الوراثــة ، ان يشرع فى الاختلاط بغيره فهذا أبيض وهذا اسود وهذا سيد وهذا عبد وهذا غنى وهذا فقــير ، وليس سوى الهداية والارشاد الالهى من يعيدنا الى الطريق المستقيم ولذلك فقد اخترنا قول من قال « أمة واحدة » اى على حالة واحدة وهى حالة « ملة » « الفطرة السليمة النقية » .

كلمة امة من الناحية اللغوية :

بقى أن نلفت النظر ان كلمة « الأمة » قد اصبح لها فى وقتنا الحاضر مفهوم محدد وهو « الجماعة من الناس ترتبط بروابط معينة» ولكن القرآن الكريم كما استعملها فى هذا المعنى فقد استعملها بعدة معان أخرى ، وقد بحثنا هذا الموضوع باستفاضة فى كتابنا « الأمة الانسانية » ولكننا ننقل لك هنا ما ورد فى معجم ألفاظ القرآن الكريم : امة : وردت فى اربعة واربعين موضعا بمعنى الجماعة من الناس .

« ومن ذريتنا أمة مسلمة لك » . وجاءت فى موضعين بمعنى الحين ، لقوله تعالى : « ولئن اخرنا عنهم العذاب الى امة معدودة » .

« وقال الذى نجا منهما وادكر بعد أمة » وجاءت فى موضعين بمعنى الدين لقوله تعالى : « انا وجدنا آباءنا على أمة » .

وجاءت فى قوله تعالى « ان ابراهيم كان امة قانتا لله » . اى بمعنى قدوة ومعلم للخلق .

فأنت ترى أن القرآن الكريم قد استعمل اللفظ لعديد من المعانى وكان السياق هو الذى يحدد المعنى المقصــود ، وعلى هذا الأساس رجحنا مارجحناه فيما سقناه آنفا .

« وما اختلف فيه الا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم » .

الطبيعة البشرية :

وتعود الطبيعة البشرية التى تنزع مع مرور الوقت وضغط الظروف واثر البيئة الى الخلاف والفرقة ، ويصبح مجيء الرسل المرشدين والدعاة الى الحق الواحد ، هو بذاته عنصر جديد يؤجج الخلاف ويضاعف فى الفرقة فيتحول اتبــاع اى رسول او عقيدة من العقائد الى عدة فرق مختلفة بل ومتناحرة ، ناهيك بما يقع بين اتباع كتاب وكتاب آخر ، كما كان الشأن بين اليهود وبعضهم وبين اليهود والنصارى وبين الفريقين من ناحية وبين المسلمين من الناحية الأخرى ، ولقد فعلوا ذلك بعد أن جاءتهم الحجج والبينات التى ترشدهم وتدلهم على الطريق المستقيم كما رسمه لهم الأنبياء والرسل وخط فى الكتب السماوية ، ومن هنا فقد سمى الله سبحانه فعلهم هذا بغيا وظلما ، فقد ظلموا أنفسهم قبل كل شيء لغضب الله سبحانه « فهدى الله الذين آمنوا لمــا اختلفوا فيه من الحق باذنه » .

ويجيء دور المسلمين من هذه الخــلافات المثارة بين اصحاب الديانات السماوية السابقة على الاسلام فقد أرسل الله سيدنا محمدا ليهدى به المؤمنين الى الحق الذى جــاءت به الــكتب الســابقة وهو حق واضح صريح لا يحتمل الخلافات والانحرافات التى غرق فيها الكتابيون كقولهم ان الله ثالث ثلاثة ، أو من مثل ادعاءات اليهود التى اغرقت الدنيا فى طوفان من الفســاد .

تفوق المسلم على سائر معتنقى الأديان :

وليس هناك ما يدل على أن هداية الله المسلمين لعقيدتهم السليمة هو نعمة انعم الله بها عليهم ، أن تفوق أوربا العسكرى عليهم والذى وصل الى حد احتلال العالم الاسلامى كله « فى وقت ما» لم يستطع أن يحول مسلما واحدا عن عقيدته فى التوحيد والايمان برسالة سيدنا محمد وليس ذلك كله الا « بفضل » بنعمة من الله وبإذنه .

« والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم »

وستبقى الهداية الى ابد الآبدين منحة الهية ،فليشكر الله كل مؤمن أناء الليل واطراف النهار ان هداه الى الايمان والسير فى طريق الاستقامة،فحذار ثم حذار أن يتسرب الشيطان الى نفس اى مؤمن فيصور له « غرورا » أن من حقه أن يدل على الآخرين بهداه أو ايمانه فانما هى نعمة انعم الله بها عليه ، وأول مظاهر شكر النعمة هو التواضع وطلب الهداية للآخرين .

مفـــردات :

« أم حسبتم أن تدخلوا الجنة » : اى اظننتم ان تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم. اى اظننتم أن تدخلوا الجنة قبل أن تمتحنوا بما امتحن به كل مؤمن قبلكم « على مدى التاريخ » . «مستهم البأساء والضراء وزلزلوا» : وكان امتحان المؤمنين دائما يتمثل فيما يعانونه من جهد ومشقة نتيجة الابتلاء بكل صنوف المحن . ويحدد بعض المفسرين « البأساء » بأنها تعنى شدة الفقر و «الضراء» بأنها تعنى المرض ، ولكننا نؤثر المعنى العام الذى يشع من اللفظين معا من أنهما يعنيان شدة المحن ، ويعزز رأينا اللفظ الثالث « وزلزلوا »والزلزال معروف وهو اهتزاز الأرض وتحركها الشـــديد فى بعض الأحيـــان وفى بعض الأماكن بخاصة نتيجة تحرك الغازات فى باطن الأرض على ما يقول الجغرافيون وقد استعير هذا المعنى المادى الى ما تصـــاب به النفـــوس فى بعض المناسبات من اضطراب نفسى شديد ، وهو ماتظهره الجملة التـــالية « حتى يقول الرســـول والذين آمنوا معه متى نصر الله » فهذا التساؤل الذى ينم فى حقيقته على استبطاء نصر الله ، ليس الا آية ما استولى على الرسول والذين آمنوا معه من اضطراب نفسى شديد ، وكلمة الرسول هنا اسم جنس ، اى أنها لا تتحدث عن رسول بعينه وانما تطلق القول اطلاقا بالنسبة لأى رسول، وذلك مفهوم تماما ، فالله لم يبعث الى الناس ملائكة لهم طبيعة مغايرة وانما بعث الرسل بشرا يتصفون بالطبيعـــة البشرية والتى من اخص خصائصها القدرة المحدودة ، ومن هنا فقد تصل الأمور الى حد يتجاوز قدرة الرسول والذين آمنوا معه الى حـــد التساؤل الذى هو فى حد ذاته آية الايمان « متى نصر الله » ويجيب الله سبحانه « الا ان نصر الله قريب » .

الابتلاء جزء لا يتجزأ لاستحقاق الجنة :

والابتلاء بمعنى معاناة الشدائد والصبر عليها هو الشرط الأساسى لاستحقاق الجنة فهى لا تكون لغير المتقين ، ولغير الصابرين والتقوى ليست الا كبح جماح النفس عن الاستسلام لشهواتها وفرض شتى صنوف القيود على تحركاتها والصبر هو ذروة ذلك فثمن الجنة هو اجتياز ضروب الابتلاء ولهذا أشـــار القرآن الكريم أكثر من مرة فقال تعـــالى :

ـــ « أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمناوهم لا يفتنون . ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين » العنكبوت

ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ
وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ
لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾
يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ
أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ
ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ
أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ

— « أم حسبتم ان تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم » آل عمران .

ومن هنا فنحن لا ناخذ بقول من قال انها نزلت بمناسبة غزوة الخندق او بمناسبة غزوة احد ، ذلك ان الحديث عن غزوة احد ورد فى القرآن بالتفصيل فى سورة آل عمران ، وبالنسبة لغزوة الخندق فقد ذكرت بالتفصيل فى سورة الاحزاب وتكون هذه الآية التى وردت فى سورة البقرة تتحدث عن ظروف المؤمنين لأول عهدهم بالهجرة الى المدينة ، فقد كانت حياتهم مجموعة من الشدائد والمصاعب ، فهم قد اخرجوا من ديارهم وسلبوا اموالهم واصابتهم الأمراض مما سمى وقتها حمى المدينة ، وفوق ذلك كله فقد ناصبهم اليهود العداء ، يعاونهم عديد من المنافقين ، وهكذا تحالف الفقر والمرض والضعف على المؤمنين ، فنزل القرآن يشد من عزائمهم ويعدهم بقرب النصر ، وهو ما تحقق بالفعل فى غزوة بدر ، والتى كانت اقرب مما يتصورون ، واضخم مما كان يطوف بخيالهم .

التمحيص والمعاناة احد الادلة على صدق الرسالة :

والسؤال الذى يمكن ان يرد على الخاطر ، هو لماذا يتعين على الرسول ان يقاسى ويعانى هذه المعاناة ، وعندنا ان ذلك جزء من الرسالة فهو دليل صدقها امام الدنيا كلها الى ابد الآبدين ، ذلك ان الكذابين والمنافقين والمخادعين وأصحاب الأغراض الشخصية من اى نوع كان ، انما يفعلون ما يفعلون لجر المغانم والمنافع والرفاهية والهناء ، فهم لا يمكن ان يحتملوا المتاعب فضلا عن الآلام فليس ذلك هدفهم ، ومن هنا كانت الآلام وصنوف الاضطهاد التى يتحملها الرسول صابرا هى الشهادة عند الناس انه الصادق الأمين .

« يسألونك ماذا ينفقون قل ما انفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل وما تفعلوا من خير فان الله به عليم » .

نزلت هذه الآية على ما يقولون فى اسباب النزول فى عمرو بن الجموح وكان شيخا كبيرا فقال : يا رسول الله ان مالى كثير فبماذا اتصدق وعلى من انفق ؟ ، فنزلت وذكرت روايات اخرى اكثر تفصيلا ، وهى كلها تدور حول هذا المعنى .

والذى يهمنا ابرازه فى الدرجة الأولى أن المال انما يجمع لكى ينفق ، لا لكى يكنز ويحبس عن التداول ، والاقتصاديون فى طول العالم وعرضه منذ وضع علم الاقتصـــاد منذ مائتى سنة فقط يركزون على ان محور ازدهار المجتمعات يقوم على اساس الانفاق وقد سبقهم ابن خلدون فى تقرير هذه الظاهرة منذ بضعة قرون وابن خلدون فى هذا الذى توصل اليه بالمشاهدة والملاحظة كان قد تلقاه قبل ذلك من كتاب الله ، فقال ما قال عن وجوب الانفاق لازدهار المجتمع دون أن يتصور انه اكتشف أمرا ، على خلاف الأوروبيين الذين عندما قال لهم رجالهم هذا القول طلعوا به على الدنيـــا باعتباره كشفا رائعا عن قوانين الاقتصاد وما يؤدى الى ازدهـــاره ، ولازلنا حتى الآن ندرس ذلك فى جامعاتنا باعتباره العلم الرائع الذى تعلمنا اياه أوروبا ، حيث ها هو القرآن يأمرنا به أمرا لتصلح به دنيانا وآخرتنا وليست هذه الآية التى نحن بصددها الا تكرارا لمـــا سبق أن مر بنا من آيات مماثلة وما ســـوف يجىء .

اوليـــات الانفـــاق :

والآية الكريمة ترتب اوليات الانفاق ، بعد حذف الضرورى والمعلوم بالبداهة ، حيث يقول الحديث : « ابدأ بنفسك ثم بمن تعول » ويقول ما معناه يؤجر المرء حتى على اللقمة يقدمها لزوجته ، فهذه الأقوال وأمثالها جاءت لتفسير وتبيين ما اجمل القرآن .

وخص الوالدين بالذكر :

وكما سكت القرآن الكريم عن ذكر الانفـــاق عن النفس لحصوله بالضرورة ، فكذلك سكت عن الاشارة الى الأولاد والزوجة مكتفيا بالتعبير بكلمة « الأقربين » وليس أقرب الى الانسان من زوجه وولده ، ولكنه خص الوالدين بالذكر ، لأن غريزة البقاء تدفع الانسان دفعـــا لينفق على أولاده ، وليس كذلك بالنسبة لوالديه ، ومن هنـــا ، وبالرغم من أن الوالدين بنفس الدرجة من حيث القرب الى الانسان ، فقد اختصهما بالذكر ، بل وقدمهما فى وجوب الانفاق عليهما ، ان كانا فى حاجة الى هذه النفقة .

وسيبقى المجتمع بخير وسلام ما اتبع هذه الأوامر والتوجيهات الالهية والويل كل الويل ان هو فرط فيها .

والأقربين : ويأتى بعد الوالدين أقرباء الانسان الأقرب فالأقرب .

الحيـــاة العـــائلية :

ولقـــد عاشت البشرية آلاف السنين على اعتبار أن العائلة بفروعها هى قوام المجتمع وأن القادر فى كل مرة هو الكفيل بمساندة أفرادها ومعاونة كل فرد فيهم . واليوم وقد بدأت صيحات ترتفع بأن الدولة هى الكفيلة برعاية أفرادها ،وقـــد بدأ الكثيرون تحت الضواغط الاقتصادية يتحللون من الروابط العائلية ، فمن واجبنا ونحن بين كتاب الله ، ان نذكر بأن كل ما يقال خارج ما يقول به القرآن الكريم لا يمكن الا أن يؤدى الى الخراب والدمار ، فليعط كل قـــادر ذوى قرباه قبل أن يفكر فى اعطاء غيرهم ، ولا يتعلل بأن الأجانب عن الانسان يشكرون اذا اعطاهم

اما القريب فيستقل العطاء ، انما علينا السمع والطاعة وقد جعل الله اعطاء الاقارب المحتاجين وخاصة من ذوى الأرحام الأولوية ، فيجب اتباع التوجيه الالهى .

واليتامى : ويأتى اليتامى ، وهم الصغار الذين فقدوا عائلهم ، وليس لهم من يتكفل بهم فى الدرجة الثانية .

والمساكين : ويأتى بعد الصغار الذين لا عائل لهم الكبار من غير اقرباء الانســـان متى كانوا مساكين ، وطالما عرفنا المساكين ، ليسوا هم من لا يصـــل المـــال الى ايديهم او الذين يحترفون التسول ، فهؤلاء ليسوا مساكين ، وقد جاء فى القرآن الكريم « أما الســـفينة فكانت لمساكين يعملون فى البحر » فكل كادح يحصل على قوته الضرورى بشق النفس هو مســـكين ، وتكون التوسعة عليه والترفيه عنه من أعظم القربات الى الله ولذلك كان من تقاليدنا التى اوشـــكت على الزوال ونرجو ان تزدهر من جديد توزيع الطف انواع الحلوى والمـــأكولات على المحرومين فى المناسبات والأعيـــاد .

وابن السبيل : وقد شرحناها فيما سبق ، وهى تعنى من اغترب عن بلده بسبب مشروع أو بحكم الضرورة كاللاجئين مثلا .

« وما تفعلوا من خير فان الله به عليم » .

وتختتم الآية بما يشعر كل فاعل للخير ان عمله مراقب ومقدر من الله سبحانه وتعالى وانه سوف يكافأ عليه بأحسن الجزاء .

كلمة خير :

وقد ورد لفظ « خير » مرتين فى الآية فاما الاولى « وما أنفقتم من خير » وهنـــا قد تحدد معناها بأنها وصف للمـــال ينفق فيما هو طيب .

وذكرت مرة ثانية فى قوله تعالى : « وما تفعلوا من خير » وهى هنا بمعناها الأعم والأشمل لكل ما هو طيب وحسن ونافع قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تصدقوا ولو بكلمة طيبة » .

« كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون » .

نصل الآن الى آية مما وصفها القرآن الكريم كما وصف امثالها بأنهن من « أم الكتاب » ليس فقط لأنها تتضمن فريضة القتال وكل آية اشتملت على أمر وتكليف فهى « أم الكتاب » ولكن لأنها اشتملت وهى فى معرض الحديث على فرض القتال على قاعدة عامة هى احدى سنن الحياة والفارق بين الانسان المحدود العـــلم بالزمان والمكان وبين علم الله سبحانه وتعالى المطلق الذى لا يحده حد من زمان أو مكان .

أما هذه القاعدة والسنة الالهية ، اننا نكره بعض الأحداث عند وقوعها ، ونحب اشـــياء واحداثا اخرى عند وقوعها ثم يتبين لنـــا على المدى الطويل ان ما احببناه لم يلبث ان تحول الى ينبوع شر أو أذى كبير وان ما كرهناه كان مصدر الخير والفلاح الذى اصابنا ، وسبب ذلك ان الانسان ينفعل تحت وطأة اى حـــادث للتو واللحظة التى يقع فيها ، ولـــما كانت نتيجة اى حادث فى عالم الغيب المجهول ، فان الانسان ينشـــغل بحاضره المحقق ، فيفرح او يحزن ، ويكره أو يحب بمجرد وقوع المقدمات ، ويعلمنا الله سبحانه وتعالى ، ان ليس كل ما نكره حقيقا

بالكره وليس كل ما نحب حقيقا بالحب ، وانما العبرة فى كل عمل هو بالنتائج والتى قد تجىء عكس مشاعرنا من حب او كره وتلك ظاهرة مرت وتمر بحياة كل انسان فرد او جماعة انسانية ، والله سبحانه وتعالى اذ يقرر هذه السنة التى لن تجد لهـا تبديلا ، فهو يقررها بمناسبة فرض القتال على المسلمين وتكليفهم به تكليفا وقـد حـاول بعض قدامى المفسرين ومحدثيهم على السواء أن يستبعدوا أن يكره المؤمنون الأوائل « القتال » ما دام قد كتب عليهم فراحوا يؤولون المعانى ويلتمسون للكراهية مخارج غير تلك التى تتبادر للذهن من أن الكراهية لذات القتال ، وكل ذلك لا عنـاء فيه ، فالمؤمنون والرسـول على رأسهم هم بشر بكل خصائص البشر ، والحرب كما تعنى النصر فهى تعنى الهزيمة وهى فى كلتا الحالتين تقترن بفكرة الموت وتوقعه ، وقد جبل الانسان على كراهية الموت ، والمؤمنون لا يشذون عن هذه القاعدة ، وفارق ما بين المؤمن وغير المؤمن ان المؤمن بالرغم من كراهيته للحرب لانها قرينة الموت ، فهو يقـدم عليها راضيا مرتاحا لأنها تكليف من الله مؤمنا بانه اذا مات فسوف يكون شهيدا يحيا حياة الشهداء عند الله ، ومؤملا قبل ذلك وبعد ذلك فى نصر الله : « واخـرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب » .

بين تفسير القرطبى وهذا التفسير :

لابد أن يكون الذين يتابعوننى فى هذا التفسير قد لاحظوا حرصى على اتبـاع تقاليد التفسير القديمة ، ومقدار فرحى الشديد اذا عن لى فهم جديد لبعض الآيات أن أرانى سبقت اليه بمعرفة بعض القدامى ، ومن هنـا فلست اخفى على القارىء الكريم ، انه على كثرة ما تلقيت من اشارات الرضا على تعليقاتى واستطرداتى الى كثير من المباحث ، فقد ظلت نفسى فى قلق لاتباع نهج جديد ، وكان يعزينى ويشجعنى على المضى فى مناهجى ، اننى اكتب فى مجلة سيارة مهمتها الأولى الوعظ والارشاد والتبيين لمعاشر المسلمين فى أنحاء العالمين ، واحسب انه لا مجال أوسع ولا أرحب لذلك من فرصة عرض آيات القرآن الكريم وتفسيرها .

أما الأمر الثانى فهو اننا نواجه اليوم موجة من الالحاد والمادية والكفر بكل قيم روحية وخلقية ما جعل لزاما علينا ان نقف عند كل مناسـبة لنتحدث عن هذه القيم ونندد بكل انحراف عنها.

كان ذلك هو عزائى وهو ما يشجعنى على المضى ، ومع ذلك فقد ظل فى نفسى شىء .

بين ٦ اكتوبر وكارثة المسلمين فى الاندلس :

من ذلك على سبيل المثال اننى طالمـا اشرت فى هذا التفسـير الى نصر الله لنـا فى معركة العاشر من رمضان « ٦ اكتوبر » وذلك ايمانا منى بأن مثل هذا الحدث العظيم يجب ان يسجل فى ثنايا حديث القرآن عن اليهود وشـناعات اليهود ، وباستطاعتك أن تقدر مقدار فرحى بأن القرطبى قـد سبقنى الى ذلك فسـجل كارثة ما وقع للمسلمين فى الاندلس ، واذن فلم اكن فيما فعلت مبتدعا واليك ما قاله القرطبى شرحا لهذه الآية وتعليقه عليها :

والمعنى عسى ان تكرهوا ما فى الجهاد من المشقة وهو خير لكم فى انكم تغلبون. وتظفرون وتغنمون وتؤجرون ، ومن مات مات شهيدا ،وعسى ان تحبوا الدعة وترك القتال وهو شر لكم فى انكم تغلبون وتذلون ويذهب امركم .

قلت : وهذا صحيح لا غبار عليه ، كما اتفق فى بلاد الاندلس ، تركوا الجهـاد وجبنوا عن القتال واكثروا من الفرار ، فاستولى العدو على البلاد ، واى بلاد؟؟ واسر وقتل وسبى واسترق، فانا لله وانا اليه راجعون ! .

« يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير » .

الشهر الحرام : هو احد الاشـــهر الأربعة الحـــرم وهى رجب وذو القعدة وذو الحجـــة والمحرم .

قتال فيه كبير : اى ان القتـــال فى الشـــهر الحرام عظيم الوزر كبـــير الاثم . والمفسرون متفقون على أن هذه الآية الكريمة نزلت بسبب سرية عبد الله بن جحش التى اوفدها رســـول الله صلى الله عليه وسلم لتقوم بمهمة حددها لها على ما سوف يجىء فكان ان قتلت هـــذه السرية واسرت وغنمت وعادت لرســـول الله صلى الله عليه وسلم بالغنائم غير انه لـــما كانت الحادثة قد وقعت فى احد الاشهر الحرم ، فقد شنع المشركون من ناحية على المسلمين وانهم خرقوا التقاليد المقدسة ، ومن الناحية الأخرى فقد سأل المسلمون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن حكم القتال فى الشهر الحرام فنزلت هذه الآية تقرر ان الحكم على ما سار العمل عليه من أن القتال فى الشهر الحرام محظور فهو اثم كبير ولكنها ردت على المشركين بما سيرد فى بقية الآية الكريمة بأن مافعله المشركون ويفعلونه اكبر اثمـــا واعظم وزرا عند الله ، ولكننا قبل ان نعرض لبقية الآية نثبت اولا واقعة عبد الله بن جحش الذى يقولون ان الآية نزلت بســـببه كما قدمنا .

اخرج ابن اسحاق وابن جرير وابن ابى حاتم والطبرانى فى الكبير ، والبيهقى فى سننه من طريق زيد بن رومان عن عـــروة قال : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن جحش — وهـــو ابن عمته — فى ثمـــانية من المهاجرين فى رجب مقفله من بدر الاولى ، وكتب له كتابا يعلمه فيه اين يسير فقال : « اخرج انت واصحابك حتى اذا سرت يومين فافتح كتابك فانظر فيه فما أمرتك به فامض له ، ولا تستكره احدا من اصحابك على الذهاب معك » فلمـــا سار يومين فتح الكتاب فاذا فيه .. ان امض حتى تنزل نخلة فأت من اخبار قريش بما اتصل اليك منهم ، ولم يأمره بقتال . فقال لاصحابه — وكانوا ثمانية — حين قرأ الكتاب : ســـمعا وطاعة ، من كان منكم له رغبة فى الشـــهادة فلينطلق معى فانا ماض لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن كره ذلك منكم فليرجع ، فان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد نهـــانى ان استكره منكم احدا ، فمضى القوم معه حتى كانوا بنجران اضل سعد بن ابى وقاص وعتبة ابن غزوان بعيرا لهما كانا يتعقبانه فتخلفا عليه يطلبانه ، ومضى القوم حتى نزلوا نخله ، فمر بهم عمرو بن الحضرمى والحكم بن كيسان وعثمان بن عبد الله بن المغيرة واخوه نوفل بن عبد الله ، واشرف لهم عكاشة ابن حصن — وكان قد حلق رأسه — فلما رأوه حليقا قالوا : عمار ليس عليكم منهم بأس ، وائتمر بهم اصحاب رسول الله صلى الله عليه وســـلم وكان آخر يوم من جمادى ، فقالوا : لئن قتلتموهم انكم لتقتلونهم فى الشـــهر الحرام ، ولئن تركتموهم ليدخلن فى هذه الليلة الحرم فليمتنعن منكم ، فاجمع القوم على قتلهم ، فرمى واقد بن عبدالله السهمى عمرو بن الحضرمى بسهم فقتله ، واستأسر عثمان بن عبدالله والحكم ابن كيسان ، وافلت نوفل واعجزهم ، واستاقوا العير فقدموا بها على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لهم : « والله ما أمرتكم بقتـــال فى الشهر الحرام » فأوقف رسول الله صلى الله عليه وسلم الاسيرين والعير فلم يأخذ منها شيئا ، فلما قال رسول الله ما قال : ســـقط فى أيديهم « اى ندموا » وظنوا أن قد هلكوا ، وعنفهم اخوانهم من المسلمين ، وقالت قريش حين بلغهم أمر هؤلاء : قد سفك محمد الدم الحرام ، واخذ المـــال وأسر الرجال واستحل الشهر الحرام ، فنزل قوله تعالى: «يسألونك عن الشهر الحرام» الآية ، فاخذ النبى صلى الله عليه وسلم العير وفدى الاسيرين .

قدرة الرسول العسكرية التى لا تعالى :

ويستوقفنا فى هذه الواقعة واقعة سرية عبد الرحمن بن جحش مسألة نستطيع ان نقف امامها طويلا وطويلا جدا لتوضيح دلالتها ونعنى بهذه المسألة مسألة تسليم رسول الله صلى الله عليه وسلم تعليمات كتابية لأحد رجاله المكلفين بمهمة عسكرية مع ابقاء هذه التعليمات سرية حتى بالنسبة للقائم بها الى ان يبلغ مكانا معينا فهذا الاجراء هو ما تفتحت به عبقرية القيادة العسكرية فى الحروب الحديثة ، فأصبحوا يسلمون قادة سلاح الطيران او البحرية او غيرها تعليمات مكتوبة سرية داخل اغلفة مغلقة ويأمرون بفضها بعد وقت معين او عند مكان محدد ، نقول ان ذلك هو آخر ما تفتقت عنه عقول عباقرة العسكريين حديثا امعانا فى المحافظة على السرية فعندما يفعل ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ الف واربعمائة سنة وسط اقوام لا عهد لهم بالقراءة او الكتابة فضلا عن فنون الحرب الحديثة التى لم تمارس الا بعد اربعة عشر قرنا فمسألة لا تحليل لها ولا تعليل الا انه رسول رب العالمين وانه هو الذى يعلمه عن طريق الوحى ، ومن هنا فنحن نرد كل ما يقال عن عبقرية محمد وبطولة محمد ، فكل هذه وامثالها الفاظ ونعوت اطلقها المستشرقون ليعتبروا سيدنا محمدا بطلا بين غيره من ابطال التاريخ وعبقريا بين العباقرة ، ولكن ذلك مرفوض شكلا وموضوعا ، فسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم هو رسول الله واعماله لا تفسير لها الا على هذا الاساس ، وقد عرفت البشرية رجالا عدوا عباقرة وابطالا فى الحروب ولا شىء زيادة ، وعرفت عباقرة واعلاما فى الحكمة او التشريع ولا شأن لهم فى القتال ، وعرفت عباقرة اسسوا دولا ومجتمعات ولكن العالم لم تعرف فى تاريخها الطويل رجلا اذا نطق بالحكمة كان اعظم الحكماء واذا جاء بالتشريع كان اعظم المشرعين ، واذا خاض الحرب كان اعظم المحاربين فان ذلك مستحيل بالمقاييس البشرية ومن هنا كان هراء ما بعده هراء محاولة قياس سيدنا محمد بالمقاييس التى توضع لقياس البطولة او العبقرية فانما هو رسول رب العالمين عن طريق الوحى الهابط من الله وليس مسلما من لا يؤمن بذلك .

« وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام واخراج اهله منه اكبر عند الله والفتنة اكبر من القتل » .

وبعد أن قرر القرآن الكريم قاعدة أن القتال فى الشهر الحرام فى هذا الظرف الذى وقع فيه فهو اثم كبير ولكن ما ارتكبه المشركون ويرتكبونه من آثام ، هو اشد جرما واثما وشناعة ، وهى جرائم كما نقول بلغتنا الحديثة « جرائم مستمرة » بمعنى انها جرائم قائمة ابدا وعلى سبيل الاستمرار سواء فى الأشهر الحرم او غير الحرم فهى عدوان مستمر وهذه الجرائم هى :

١ — الصد عن سبيل الله .

٢ — الكفر به بعبادة الأوثان .

٣ — وما استتبع ذلك من الحيلولة بين المسلمين والوصول الى الكعبة على سبيل العمرة او الحج ، وقد مر بنا كيف حيل بين المسلمين ، وبين دخول مكة معتمرين « حادث صلح الحديبية » .

٤ — وما اقدموا عليه قبل ذلك من اكراه المؤمنين من مغادرة وطنهم لينجوا بأنفسهم ودينهم . فكل هذه الجرائم أكبر عند الله ، وهى جرائم مستمرة كما قدمنا فى الأشهر الحرم وغير الحرم .

« والفتنة أكبر من القتل »

وواجه القرآن الكريم صيحات المشركين بأن اصحاب محمد قد قتلوا ، بأن ما فعلوه وكانوا يفعلونه من تعذيب المؤمنين بشتى صنوف العذاب لاخراجهم من دين الاسلام واعادتهم الى الشرك، فهذه الجريمة وحدها أشد من القتل ، ذلك انه اذا كان القتل هو اعدام الجسد فان الفتنة بمعنى اخراج المؤمن عن ايمانه تحت وطأة العذاب فذلك قتل لروح الانسان .

الكفر ملة واحدة :

وما أشبه اليوم بالبارحة وصدق من قال « الكفر ملة واحدة » فنحن نشهد اليوم نفس هذه الصورة ، صورة كفار قريش الذين ارتكبوا كل صنوف الجرائم والآثام فقتلوا وعذبوا وطردوا ، حتى اذا سقط لهم قتيل ملأوا الدنيا صياحا وعويلا واحتجاجا بمقولة ان انتهاكا وقع فى الشهر الحرام هذه الصورة هى التى تتكرر اليوم من اسرائيل فقد اخرجوا شعبا بأكمله من دياره ، وقتلوا ونهبوا ويرتكبون كل يوم من الجرائم ما تضج له الأبالسة والشياطين فاذا ضربتهم المقاومة الفلسطينية ابسط الضربات صاحوا وملأوا الدنيا ضجيجا وعويلا على قتل الأبرياء بغير ذنب .

هذا هو عين ما فعله المشركون فنزل القرآن الكريم بالحق ، فلم يجز القتل فى الشهر الحرام ، ولكنه فى ذات الوقت أشار الى أن ما يفعله المشركون أكبر شناعة واثما .

« ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم ان استطاعوا » .

وانتقل القرآن الكريم يوجه الحديث للمسلمين يحذرهم ان لا ينخدعوا بدعاوى الكفار وان يكونوا على ثقة من ان الكفار لا يألون جهدا فى اخراج المؤمنين عن دين الاسلام ، اذا استطاعوا الى ذلك سبيلا .

وهذا قول موجه للمسلمين فى كل زمان ومكان ان يحذروا من الكفار ومحاولاتهم التى لن تنقطع لاخراج المسلمين عن دينهم .

« ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت اعمالهم فى الدنيا والاخرة واولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » .

حبطت اعمالهم : أى بطلت وفسدت ويصل التحذير القرآنى للمسلمين الى ذروته فيقول ان من يرتد منكم عن دينه بمعنى ينسلخ منه ويكفر به ويجحده فقد خسر الدنيا والدين معا ، ففى الآخرة هو — حتما وعلى وجه القطع واليقين — من اصحاب النار الخالدين فيها ، ويقف بعض المفسرين عند حد القول بأن الأعمال السابقة الصالحة تحبط بمعنى تفسد حتى مات المرتد وهو كافر ، ولكننا نفهم هذا من القول ونفهم فوق ذلك أن هذه الفعلة ، فعلة الكفر بعد الايمان تجعل صاحبها يخسر فى الدنيا والآخرة معا لأنه يصبح مذبذبا لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء ويفقد ثقة الناس جميعا وبدون استثناء ، كل هذا بالاضافة الى الجزء المحقق انه من أصحاب النار هم فيها خالدون .

رَحْمَتَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾ * يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾ وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ

« ان الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا فى سبيل الله اولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم » .

مفــردات :

المهاجرة : مفارقة الأوطان والأهل وهى من الهجر ضد الوصل .

جاهدوا : من الجهد وهو المشقة وليس خاصا بالقتال .

وهذه الآية هى التى تدل « فى رأينــا » على أن هاتين الآيتين قــد نزلتا فعلا بسبب حادث عبد الله بن جحش وقتل سريته لأحد المشركين فى الشهر الحرام ذلك ان الآية الكريمة بعد أن راحت تعدد صفات المؤمنين الصادقين من انهم اثبتوا ايمانهم بالهجرة والجهد فى سبيل الله ختمت بالاشارة الى مغفرة الله ورحمته ، والمغفرة لاتكون الا عن ذنب قد ارتكب ، مع أن الآية الكريمة لم تشر الا الى ذروة الأعمال الصالحة ، ومن هنا فهى تكاد تنطبق انطباقا كاملا على عبد الله بن جحش ومن معه وما وقع منهم فهم مؤمنون مهاجرون مجاهدون فى سبيل الله وهذا الذى وقع منهم ليس الا اجتهادا اريد به نصرة الله ورسوله، ولذلك فعندما عاتبهم المؤمنون على فعلتهم وتوقف الرسول صلى الله عليه وسلم عن اخذ نصيبه من الغنائم ، ظل عبد الله بن جحش ومن معــه « يرجون رحمة الله » فنزلت الآية تقطع بقبول الله لرجائهم وغفرانه لذنبهم الذى ارتكبوه بحسن نية فانه « غفور رحيم » لمن اخلص النية بطبيعة الحال ، وتاب وأناب .

« يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما اثم كبير ومنافع للناس واثمهما اكبر من نفعهمـــا ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون » .

نصل بهذه الآية الى موضوع شغل المسلمين وسيظل يشغلهم الى يوم الدين ولنا فى موضوع الخمر آراء عبرنا عنها يوما ما بالاقوال والاعمال التى ساقتنا الى محكمة الجنايات ، ووصلنا اليوم بعد أن ازددنا معرفة وتجربة الى بعض الآراء والافكار ، ولكننا نبقى الحديث المطول عن ذلك كله — مد الله فى أجلنا — حتى نصل الى آية التحريم فى سورة المائدة « انما الخمر والميسر .. الآية » اما الآن فنقف عند حد تفســير الآية التى نحن بصددها لا نعدوها .

« يسألونك عن الخمر والميسر »

والسائلون هم جماعة المؤمنين ويدل سؤالهم على انهم كانوا فى قلق من أمرهما وادركوا بحسهم المرهف أن لابد ان يكون للدين الذى جاء لصلاحهم قولا فى موضوع الخمر وقد قدمنا اكثر من مرة

ان سورة البقرة سورة مدنية ، فهى لا تتحدث الاعن امور وقعت فى المدينة بعد هجرة المسلمين اليها ، وذلك طبيعى ومفهوم ، فالشغل الشاغل للدعوة المحمدية « الاسلام » فى مكة قبل الهجرة كان تثبيت جوهر الاسلام وهو التوحيد ، والدعوة للانصراف عن الشرك بعبادة الاوثان ، وهو ركن الاسلام الركين ، وكان ما عدا ذلك من القضايا يأتى فى الدرجة الثانية وهو تعليم وارشاد من الله سبحانه وتعالى وهو أن أى أمر من الأمــور يساس بالحكمة التى تتطلب ترتيبا فى الأوليات وتقديم الاهم على المهم « ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة » ومن هنا لم يرد فى مكة نهى عن تعاطى الخمر ولكن وردت اشارة تدل بالمفهوم العكسى انها شىء « غير حسن » فنزل فى سورة « النحل » بمكة الآية التقريرية الآتية :

« ومن ثمرات النخيل والاعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا » .

وهكذا فرق القرآن الكريم بين اكل العنــب والبلح وما يتصل بهما فسمى ذلك رزقا حسنا ويخص افراد « المسكر » بالذكر حتى لا يندرج تحت الرزق الحسن فدل ذلك بمفهوم المخالفة على ان « الشراب المسكر » ليس حسنا وما هو ليس بالحسن فهو ردىء ، ومع ذلك فنظرا لان شغل المسلمين الشاغل كان هو التوحيد والصبر على اضطهاد المشركين للمؤمنين فقد ظلت الخمــر وتعاطيها مسألة مستمرة لمن اعتاد عليها ، وتغير الموقف بعد الهجرة اذ استقر امر التوحيد فى هذا المجتمع الاسلامى ومن هنا بادر المسلمون بسؤال رسول الله صلى الله عليه وسلم عن حكم الدين فيما اعتاده العرب من شرب الخمر ولعب الميسر ، فنزل القرآن الكريم يبين انهما من الناحية الشرعية حرام ، عبر عن ذلك بقــوله تعالى «فيهما اثم كبير » وكل اثم حرام فكيف اذا وصف بانه كبير .

وقرر القرآن الكريم الأمر الذى كان واقعا بالفعل من أن عديدا من الناس ينتفعون بعملها والاتجار فيها ، تماما كما نشهده فى حياتنا المعاصرة حيث تقوم مجتمعات ضخمة على ما تنتجه من زراعة العنب وتحويله الى خمر كفرنســا وايطاليا « فاقتصاد هذين البلدين يقوم فى الدرجة الأولى على صنع الخمر » ، ومثل ذلك يقال بالنسبة « للميسر » حيث تقوم دولة مثل « موناكو » على ادارة ناد للميسر فى « مونت كارلو » ومثل ذلك فى أمريكا « لاس فيجاس » فالآية التى نحن بصددها تقرر واقعا قائما فى كل زمان ومكان من أن عددا كبيرا من البشر تقوم حياته على الارتزاق من جراء الخمر والميسر ولكن القرآن الكريم مع تقريره هذا الواقع فهو يؤكد للمؤمنين ان الخمر والميسر فيهما آثام وضرر بالانســان الفــرد والجماعة يفوق ويزيد على المنافع .

ولــا كان اى شىء فى هذه الدنيا كائنا ما كان ينطوى على منافع ومضار فالحكم على اى شىء نافع أو ضار انما يكون بغلبة احد الوجهين على الآخر فعندما يقول القرآن الكريم « واثمهما اكبر من نفعهما » فذلك هو حكم على الخمر والميسر بأنهما « اثم كبير » .

وسميت الخمر خمرا لأنها مأخوذة من الفعل خمر اذا ستر ومنه خمار المراة وكل شىء غطى شيئا فقــد خمره ، فالخمر تخمر العقــل اى تغطيه وتستره ، وقيل غير ذلك ولكن هذا هو المعنى الذى نختـــاره .

والميسر مشتق من اليسر أو السهولة فلاعب القمار قد يربح فى يسر وبسهولة بينما سنة الله فى خلقه أن يحصلوا على رزقهم بالعمل والجهد والانتاج لا من دورات عجلة أو قذف (نرد) أو كشف ورقة .

وقد اكتشفت المجتمعات الحديثة ما فى الخمر والميسر من نتائج مدمرة فقامت مجتمعات ضخمة

فى دولة مثل أمريكا لتحريم الخمر وقامت بمحاولات جبارة من أجل تحقيق ذلك ولكنها باءت بالفشل فاستسلمت لمضار الخمر والميسر فكانت النتيجة أن تحول المجتمع الى مجتمع الجريمة ، فأين ذلك من انتصار الاسلام على استئصال شأفة الخمر من المجتمع الاسلامى ؟ . واذا كانت قد تسربت مرة أخرى الى المجتمعات الاسلامية ، فقد حدث هذا فى ظل خراب الاستعمار وما نشهده الآن هو من مخلفات هذا الماضى الحزين .

أما لماذا فشلت أمريكا فى تحريم الخمر حيث نجح الاسلام فذلك لان أمريكا استندت الى قانون من وضع الانسان يعتقد كل انسان ان من حقه أن يستهين به اذا استطاع الى ذلك سبيلا أما فى الاسلام فقانون تحريم الخمر قانون سماوى ليس فى حاجة الى شرطى وسجون ومحاكم ففى نفس كل مؤمن ما يردعه عن عصيان الله .

« ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو »

مر بنا حث القرآن الكريم على الانفاق ، وقد أشار الى من ينفق عليهم مما فصلناه سابقا ، وقد كان المسلمون الأوائل اذا تلقوا أمرا الهيا نفذوه على الفور ونفذوه بالكامل وحتى آخر ما يؤدى اليه المعنى ، فما دام الأمر الالهى قد نزل بالانفاق فقد أنفقوا كل شىء ، وربما لم يبقوا لأنفسهم شيئا فنزل القرآن يبين لهم أن الانفاق يكون فيما زاد عن الحاجة .

و « العفو » هنا فى هذه الآية وفى هذا الموضع: ما سهل وتيسر وفضل ولم يشق على القلب اخراجه ويصبح المعنى « انفقوا ما فضل عن حوائجكم ولم تؤذوا فيه انفسكم فتكونوا عالة » .

عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « خير الصدقة ما كان من ظهر غنى واليد العليا خير من اليد السفلى وابدأ بمن تعول » .

وقد كان هذا هو توجيه رسول الله صلى الله عليه وسلم الدائم فعندما عرض عليه بعض الصحابة أنه يرغب فى الوصية بكل ما له لأعمال البر والخير طلب منه أن لا تزيد وصيته عن ثلث ماله وأضاف : « والثلث كثير » ثم أبان عن الحكمة فى ذلك بقوله: « لأن تترك أولادك أغنياء خير من أن تتركهم عالة يتكففون الناس » وليس ذلك كله الا تطبيقا لنص هذه الآية ، ولو أن كل مسلم أنفق ما زاد عن حاجته وفضل عن قوته وقوت أولاده ، لما وجد فى المجتمع الاسلامى محروم واحد فضلا عن جائع أو عريان .

« كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون »

وهكذا ما سئل الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، فى شأن من الشئون « فى الدنيا والآخرة » الا وأنزل الله سبحانه وتعالى الآيات القرآنية تبين وتفصل وتهدى وترشد ابتداء من السؤال عن الحرب والقتال ، حتى حيض النساء كما سوف ترى فى آية قادمة .

اختلاف القرآن عن الانجيل :

واختلاف القرآن عن الانجيل فى هذه الناحية هو ما أوقع ويوقع بعض المولعين بالنقل عن الغرب فى قياس خاطىء ، ففى الغرب حيث تسود المسيحية بعامة ، يعتمدون على ما أسموه « بالعهد الجديد » وهى التعاليم التى جاء بها السيد المسيح وهى خلو من تنظيم الحياة المعاشية الجارية ، حقا : ان السيد المسيح قال «ما جئت لأنقض الناموس بل لأكمله » مشيرا بذلك الى أن التوراة تظل هى المصدر للتعاليم والتشريعات فيما سكت عنه ولم يغيره وهو ما يعبر عنه القرآن على لسان سيدنا عيسى :

« ومصدقا لما بين يدى من التوراة »

ولكن الأوربيين منذ اللحظة الأولى لم يلقوا بالهم لأحكام التوراة وأطلقوا عليها اسم العهد القديم واكتفوا بالاستناد الى العهد الجديد ، ومن هنا فقد قام كل تحرك فى أوربا — فضلا عن نهوض وتقدم — على أساس القوانين والنظم الوضعية التى حاولوا فيها أن يسدوا الفراغ .

ومن هنا وجد دائما فى أوربا منذ العصور الوسطى من دعا الى فصل الدين عن الدنيا ، فالدين خاص بالعقيدة ، أما الدنيا فتحتاج الى قوانين ونظم موضوعة .

ولما كان هذا الكلام يتردد على الدوام فى أوربا فان البعض يحاول أن يردده فى مصر جهلا منه بحقيقة الاسلام الذى لا يقف عند كونه عقيدة وانما هو عقيدة وشريعة وضعت الأسس لكل شىء ، تاركة التفاصيل لاجتهاد المجتهدين شريطة أن تظل داخل الاطار الأساسى للشريعة الاسلامية التى تستمد أصولها من كتاب الله وسنة رسوله .

فارق أساسى فى تجربة أوربا وتجربة المسلمين

ثمة فارق أظهرته التجربة التاريخية بالنسبة لأوربا والمسلمين ، فأوربا لم تنهض نهضتها الحديثة الا على أساس الاصطدام بالبابوية والتعاليم الكنسية كما كانت تطبق فى أوروبا فى العصور الوسطى ، والثورة الفرنسية التى أضاءت أوربا منذ مطلع القرن التاسع عشر قامت على أساس انكار الخضوع لما أسموه أفكارا قديمة ، ومن هنا فلا عجب أن كان الغرب مناخا للالحاد والمادية وعكس هذا هو ما حدث فى المجتمع الاسلامى فقد وصل بتعاليمه الى أن أصبح نور الدنيا ومشعل الحضارة الانسانية ، واذا كان المسلمون قد تدهوروا ، فهذا راجع لاهمالهم جوهر الاسلام وتعاليمه ، فالذين ينقلون عن أوروبا ، مرددين أقوالها من فصل الدين عن الدنيا «ينفخون فى قربة مقطوعة» ومقضى عليهم بالفشل المحقق ، فكل مسلم يعلم أن قرآنه قد نظم الدنيا كما نظم الآخرة ، وأن عصر المسلمين الذهبى كان عندما اتبعوا هذه القاعدة ونفذوها ، وفقدوا قوتهم وسلطانهم وزعامتهم وأصبحوا فى المؤخرة ، عندما أغفلوها وجهلوها وراحوا يلتمسون ما يصلح أحوالهم من خارج كتاب الله وسنة نبيهم .

« فى الدنيا والآخرة »

فى ظل هذه المعانى يجب أن نفهم قوله تعالى: « كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون » . ثم تبدأ الآية التالية على الفور بعبارة « فى الدنيا والآخرة » أى أن آيات القرآن الكريم قد نزلت لاصلاح شئونكم فى الدنيا والآخرة وما عليكم الا أن تستعملوا عقولكم فترون مصداق ذلك .

« ويسألونك عن اليتامى قل اصلاح لهم خير وان تخالطوهم فاخوانكم » .

وتمضى الآية الكريمة فى اظهار أن كل ما ينزله الله من آيات هو لاصلاح شئون المؤمنين فى الدنيا والآخرة .

حماية اليتامى :

وفى المجتمع الجاهلى حيث كان يقوم على القوة الغاشمة ، كان النهب والسلب أحد قوانين البادية نزل القرآن كله رحمة وحنانا وبرا بالضعفاء ، وقد كان الأيتام وهم من فقدوا آباءهم ، نهبة لكل طامع فنزل القرآن الكريم منذ اللحظة الأولى يوصى بهم « فأما اليتيم فلا تقهر » ويحذر من اغتيال حقوقهم ، فقال وقوله الحق : « ان الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما انما يأكلون فى بطونهم نارا . . » الآية .

فلما نزلت هذه الآية بهذا التهديد الصـــارم تحرج المؤمنـــون ممن كان بعض اليتــامى تحت رعايتهم .

أخرج النسائى وابو داود وغيرهما عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : لمـــا انزل الله تعالى « ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتى هى احسن » « ان الذين يأكلون اموال اليتامى » الآية : انطلق من كان عنده يتيم فعزل طعامه من طعامه وشرابه من شرابه ، فجعل البعض يفضل من طعـــامه فيحبس له حتى يأكله ، او يفسد فيرمى ، فاشتد ذلك عليهم فذكروا ذلك لرسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فانزل الله تعالى « ويسألونك عن اليتامى قل اصلاح لهم خير » الآية ، فخلطـــوا طعامهم بطعامه وشرابهم بشرابه « اللفظ لابى داود » .

وهكذا قرر القرآن الكريم ، كما هو شأنه دائما أن الهدف والقصد من اوامر الدين ونواهيه هو تحقيق الخير والاصلاح وفى هذا النطاق تدخل اوامره فيما يتصل باليتامى فليس المقصود « كما سوف يصرح » أن يشق على المؤمنين ، ويكلفهم ما لايطيقون ، وانما كل غايته ان يحافظ على حقوق اليتامى بعمل كل ما من شأنه اصلاح احوالهم .

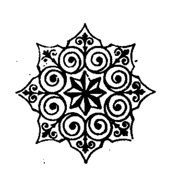
« وان تخالطوهم فاخوانكم »

واشار القرآن الكريم الى هذا التصور الخاطىء الذى ادى الى عزل اليتيم ، فبين ان لا حرج فى خلط امور اليتيم المعاشية مع امور من يتولاه بالرعاية ، فاليتيم لم يخرجه اليتم عن كونه اخا لمن يتولى رعايته ، بينهما روابط الاخوة .

« والله يعلم المفسد من المصلح »

ويذكر القـــرآن الكريم المؤمنين بسر الايمان العاصم من كل ســـوء وهو علم الله بالنـــوايا وما تضمر النفوس « **يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور** » فما دام المؤمن لا يبغى من وراء تصرفه الا لمـــا فيه خير لليتيم واصلاح فليكن مطمئنا الى أن الله عليم بالنوايا ، عالم بمن يريد الاصلاح ومن لا يبغى سوى الفســاد . « ولو شاء الله لأعنتكم » اى لو شاء لشق عليكم وكلفكم ما لا تطيقون ولكن الله وهو الرحمن الرحيم الرءوف بعباده قال : « وما جعل عليكم فى الدين من حرج » .

ان الله عزيز حكيم : والعزيز هو الغالب على كل شىء لا يعجزه اى امر يشاؤه ولكن حكمتـــه اقتضت ان لا يكلفكم ما لا تطيقون .



وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُوْلَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾ وَلَا تَجْعَلُواْ ٱللَّهَ

« ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن ولامة مؤمنة خير من مشركة ولو اعجبتكم ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو اعجبكم أولئك يدعون الى النار والله يدعو الى الجنة والمغفرة باذنه ويبين آياته للناس لعلهم يتذكرون » .

مفـردات :

تنكحوا المشركات : تتزوجوا الكافرات عابدات الوثن .

الأمة : المراة المملوكة .

تطبق هذه الآية الكريمة احد اصول الاسلام الوطيدة والتى رفعته وستظل ترفعه الى يوم الدين مكانا عاليا يعلو به ، على كل ما عرف العالم اوسوف يعرف من الحضارات ، وذلك هو مساواته المطلقة بين البشر ، لا يفرق بينهم جنس او لون او مال او طبقة فالكل ابناء آدم ، ولا يميز احدهم عن الآخر الا عمله الصالح وتقواه « ان اكرمكم عند الله اتقاكم » وهذه الآية التى نحن بصددها تطبيق لهذا المبدأ الكلى من مبادىء الشريعة الاسلامية ففى مجتمع يقوم أول ما يقوم على الأحساب والأنساب ، ولا يجد العربى ما يفتخر به ويعتز أكثر من انتمائه الى هذا الفرع أو ذاك ، جاء القرآن الكريم ليقول للمسلمين : لا تتزوجوا المشركات حتى يؤمن فما لم تعتنق المشركة الاسلام تصبح اى جارية مسلمة خيرا منها ، ولاتزوجوا بناتكم ونساءكم لأى رجل مشرك ايا كان حسبه ونسبه أو ماله وغناه فما لم يؤمن بالله فان اى عبد مؤمن يكون خيرا منه .

سبب التنزيل :

والآية الكريمة كما رأينا واضحة وصريحة ، وقد ذكرت روايتان باعتبار كل منهما كانت المناسبة التى نزلت بسببها الآية وتقول احدى الروايتين انها نزلت بخصوص صحابى يسمى « مرثد بن ابى مرثد » بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم الى مكة مكلفا اياه بمهمة وكان بمكة امراة جميلة تسمى « عناق » كانت على صلة به قبل ان يسلم ، فعرضت عليه ان يتزوجها ، فلما استشار رسول الله فى الأمر نزلت الآية .

وثمة رواية ثانية تقول ان الآية نزلت بسبب الصحابى عبد الله بن ابى رواحة كانت له جارية سوداء وانه غضب عليها فلطمها ، ثم فزع من فعلته فعرض الأمر على رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله عن حالها ، فأثنى عليها وعلى ايمانها وتقواها ، فحكم لها سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بأنها مؤمنة فاعتقها عبد الله بن ابى رواحة وتزوجها ، وتقول الرواية ان هذا العمل لم يرق

للبعض ، فنزلت هذه الآية الكريمة لتبين أن الأمة «الجارية» ما دامت مؤمنة فهى تعلو المشركات ذوات الحسب والنسب وحتى الجمال وذلك بين من قول الآية الكريمة « ولو اعجبتكم » .

الزواج بالكتابيات :

وقد اعتاد المفسرون ان يبحثوا موضـــوع الزواج بالكتابيات فى هذا الموطن ولكنا نرجىء هذا البحث حتى يرد علينا فى سورة المـائدة« أولئك يدعون الى النار والله يدعو الى الجنة والمغفرة باذنه » .

وتقدم الآية الكريمة التعليل فى تحريم زواج المشركين والمشركات ، فالمسالة فى هذه الدنيا لم تعد مسألة احساب او انساب ومال وجمال ،وانما اصبحت تتلخص فى ايمان بالله ووحدانيته وهذا الايمان يــؤدى الى الجنة ، أو كفر باللهواشراك به وهو ما يؤدى الى النار ، وبين الجنة والنار الاختيار واضح ومحقق ولا مجال للترددفيه ، والمشركات والمشركون يوصلون الى النار .

التكريم الالهى :

ويسير السياق فى هذه الآية الكريمة على المقابلةبين المشركين والمؤمنين ثم ذكرت الآية انالمشركين والمشركات يؤدين الى النار ، ثم وضــع ذاته فىمقابل ذلكوانه يؤدى الى الجنة والمفهوم طبعا ان ذلك يتم بالزواج بالمؤمنين والمؤمنات ويبين ذلكمن كلمة « باذنه » « ويبين آيته للنـــاس لعلهم يتذكرون » والله سبحانه وتعالى فى كل ما يأمربه أو ينهى عنه انما هو يهدف خيرهم وصلاحهم وما عليهم الا أن يتدبروا ويفكروا فى احكام اللهليروا الصلاح كله والخير كله .

« ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء فى المحيض »

آية جامعـــة :

قد يبدو لأول وهلة أننا ازاء سؤال وجوابه ،ولكنك سترىأننا ازاء آية كريمة تثير اكبر القضايا وأعمقها وأكثرها حساسية وهو موضوع المراةوعلاقتها بالرجل ودورها الحضارى فى المجتمع ولكننا قبل أن نخوض فى هذه الأبحاث نلفت النظر اولا الى ما فى الآية من اعجاز يرتفع بالقرآنالكريم الى انه يستحيل أنيكون من صنع البشر ولا يمكنأن يكون الا كلام الله القديم فهو يلم بكل حقائق اى شىء .

المحيض : مصدر الفعل حاض ، يقال حاضتحيضا فهى حـــائض والمحيض يطلق على مكان الحيض كما يطلق على زمانه .

ومعنى أن تحيض الانثى أن تكون قد نضجتأنوثتها واصبحت مستعدة للحمـــل « الانسال » وعنـــدما تتوقف المراة عن الحيض « حـــوالى الخمسين سنة » فانها تتوقف عن الانجاب .

والحيض هو هذه الدورة الشهرية التى هىمن طبيعة الأنوثة وهو دم يتسرب الى رحم المراة فاذا كان الحيوان المنوى الخـــاص بالرجل قداستطاع ان يلقح بويضة الأنثى وشاءت ارادة الله أن يتم الحمل فان الرحم يسد ويحتفظ بهذا الدميتدفق الى الرحم ليتغذى به الكائن الجديد وينمو ، اما اذا كانت ارادة الله لم تشا الحمل بعد ، فان الـــرحم لا يغلق وبالتالى يظل الـــدم يتسرب الى الخارج ، وهو ما يسمى باللغة العلمية الدورةالشهرية عند النساء وباللغة الدارجة « العادة » وغنى عن البيان انه ما لم يتم اتصال جنسى بين الذكر والأنثى فاننزول هذا الدم فىدورتهالشهرية يظل منتظما فى مواعيده وكميته ، ويكون اى خللفى المواعيد او الكمية فضلا عن التوقف علامة على وجود خلل ما ويطلق على هذه الحالة الخاصةبالنســـاء « الحيض » وقد اســـتعيرت له كلمة

« الطمث » والتى تعنى فى الأصل الفساد ليعبربها عن الحيض ولعل هذا الشرح الموجز للعملية قد كشف عن الفارق الاساسى والرئيسى فى وظيفة الرجل والمراة بالنسبة للحياة ولكننا قبل ان نتحدث عن ذلك نرى أن نشير بداءة ذى بدء الى الاعجاز القرآنى فى هذا الموضوع .

بين الافراط والتفريط :

حيض المراة جزء من الطبيعة البشرية بمعنى انه كان مذ وجدت المراة وقد وقف الرجال حيال هذه الظاهرة الى فريقين ، فريق لا يأبه بها فيظل يتابع اتصاله الجنسى ما استطاع الى ذلك سبيلا ، وفريق لا يتوقف فقط عن المباشرة الجنسية بل انه يعتبر المراة فى حالة الحيض نجس ودنس تدنس كل من يلامسها فيصبح هو بدوره نجسا ، كما هو الشأن عند اليهود جاء فى الفصل الخامس عشر من سفر اللاويين فى العهد القديم « كتاب اليهود المقدس » .

— كل من مس الحائض فى ايام طمثها يكون نجسا .

— كل من مس فراشها يغسل ثيابه بمـاء ويستحم ويكون نجسا الى المساء .

— كل من مس متاعا تجلس عليه يغسل ثيابه ويستحم بماء ويكون نجسا حتى المساء .

— ان اضطجع معها رجل فكان طمثها عليه يكون نجسا سبعة ايام وكل فراش يضطجع عليه يكون نجسا .

وتعاليم اليهود ووصاياهم كان يتبعها — الى حد كبير — سكان المدينة قبل وصول سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام اليها ، ولسنا نعرف ماذا كان العمل يجرى عليه فى قريش وبقية العرب ولكن لم يذهبوا مذهب اليهود بطبيعة الحال .

ونزل القـرآن :

وسأل المسلمون سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم ما يكون موقفهم حيال المراة الحائض فنزل القرآن الكريم منذ الف واربعمائة سـنة يعلم البشر أن الحيض « أذى » ولدفع هذا الاذى يتعين على الرجل ان يتوقف عن مباشرة المراة وهى حائض وسنرى بعد قليل ان هذا هو كل المطلوب فقد فهم بعض الصحابة من قول القرآن الكريم « فاعتزلوا النساء فى المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن » فهموا من هذا القول ما يقرب مما الفوه من وصايا اليهود ولكن سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم بين لهم المقصود بالآية الكريمة على ما سوف نبينه .

ويجب تحديد كلمة « المحيض » فى هذا الموضع انها مكان الحيض .

« اذى »

ولكن لنقف أولا أمام كلمة « اذى » لنرى ما فى ذكرها من اعجاز .

قال اساتذتنا خبراء المجلس الاعلى للشئون الاسلامية فى تفسير المنتخب تعليقـا على هذه الكلمة .

« اثبت العلم الحديث ان الحيض فيه اذى ، ذلك أن المهبل فى أوقات الحيض يكون ميدانا مفتوحا لغزو أسراب من مختلف الجراثيم وقد ثبت أن الاتصال الجنسى فى زمن الحيض هو العامل الاكبر فى وصول هذه الجراثيم المرضية الى المهبل حيث تجد الوسط المهبلى الدموى صـالحا كل الصلاحية لنموها وتكاثرها فتصيب المهبل بمختلف الالتهابات وشتى الأمراض التى قد تمتد الى جميع الجهاز التناسلى وتحمل المراة ما لا قبل لها به من الالام والمضاعفات التى قد تؤدى الى العقم .

وتعود العدوى الى الرجل عن طريق قناته البولية وقد تمتد العدوى كذلك الى المثانة والحالبين بل الى قاعدة الكليتين حتى تصاب البروستاتة والحويصلتان المنويتان والخصيتان بما قد يصيبه بأشد الآلام ويصاب بالضعف الجنسى ويؤدى به الى العقم وقد تكون العدوى التى يصاب بها الرجل ناشئة من المهبل ذاته فقد تكون فيه جراثيم كامنة فى حالة خمود فتثار فى الحيض وتصيب الرجل عند أول اتصال جنسى . هذا ما اشار اليه القرآن وما كان عند الناس علم به ولكن كان علمه عند الله خالق كل شىء » .

انتهى كلام المنتخب ..

اكرام المراة :

وهكذا فى كلمة واحدة لخص القرآن الكريم موضوع « حيض النساء » وانه اذى وطالب الرجال والنساء معا بتجنب ايذاء انفسهم بالامتناع عن الاتصال الجنسى فى هذه الفترة ، ولكن المراة تظل هى المراة ذلك المخلوق المكرم كرامة الانسان ذكرا كان او انثى فهى لا تتحول الى شىء دنس يتنجس كل من أقترب منه ، ولقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم من الصحابة : ما الذى يحل لهم من زوجاتهم فى فترة الحيض فكان جوابه كما هى العادة واضحا صريحا شافيا « اصنعوا كل شىء الا الجماع » رواه أحمد ومسلم وأصحاب السنن أى انه للرجل أن يقبل زوجته ويعانقها ويلامسها بكل صنوف الملامسة ، والأمر الوحيد المحظور هو الاتصال الجنسى لما فيه من ضرر وقد لايعرف نساء الوقت الحاضر وسط الضجيج والعجيج أنه فى الوقت الذى كان فيه القرآن يكرم المراة هذا التكريم فلا يعتبر تعرضها لوظيفة طبيعية « فسيولوجية » أنه رجس من عمل الشيطان يحولها الى شىء دنس ، كانت بعض مؤتمرات الكنيسة تبحث فى العصور الوسطى فيما اذا كان للمراة روح كالرجل ، وسواء كان لها روح أو لم يكن فهى أحبولة الشيطان وغير ذلك من الاوصاف والاحكام التى تهبط بها الى مرتبة دون الحيوان حيث جاء الاسلام منذ اللحظة الاولى يعلى من شأن المراة ، بحيث أصبح من القواعد الأصولية فى الفقه ان كل ما خوطب به الرجل فهو موجه كذلك للمراة ما لم يقم الدليل على ان الأمر بهذا الشىء او ذاك يختص بأحد الجنسين .

والمساواة فى الواجب تعنى المساواة فى الحق .

فليتذكر ذلك جيدا هؤلاء الصاخبات بأقوال يرددن فيها كالببغاوات اقوالا جاهلة متخبطة يسمعنها من بعض نساء الغرب ، دون أن يدركن الفارق بين المراة المسلمة وغير المسلمة ، فقد راينا غير المسلمة وكيف كانت ولا تزال حتى الآن تعانى آثار هذا الماضى .

بقى أن تدرك المراة المسلمة ان المساواة فى الحقوق والواجبات لا تعنى بحال المساواة فى الوظيفة وليس يعنى اختصاص الرجل ببعض الوظائف الغض من شأنها فقد خلق الله المراة واعدها اعدادا خاصا لانتاج اعظم شىء فى هذه الدنيا بمساعدة الرجل ، فجعلها تنتج الانسان وأشرف شىء فى هذه الدنيا وأجمل وأكرم هو الأمومة ، ومن هنا فكر الانسان الوثنى دائما فى عبادة الأمومة فكانت «ايزيس» وكانت «منرفا» وكانت اللات والعزى ، وتكاد تكون جميع الظواهر الكبرى فى الطبيعة مؤنثة فالسماء والأرض والشمس كلها مؤنثة اشارة الى تكريم البشر للأنوثة ، وقد استحقت الانوثة هذا التكريم لأنها الأمومة ، فليس الا جهلا وتخطبا ومن نوع الفوضى والانحلال الذى يتجه اليه العالم الغربى أن تتمرد المراة على دورها المقدس الذى اعدتها الطبيعة لتقوم به ونعنى به الأمومة لتشتغل بأعمال فى الدرجة الثانية لمجرد ان تقلد الرجل زاعمة أن لا فرق بين الرجل والمراة ، ولعل هذه الاية التى نحن بصددها خير من يذكر ان المراة

هى المراة والرجل هو الرجل وان الأمر ليس امرسباق أو منافسة فضلا عن صراع وانمـــا هو « تكامل » بين الرجل والمراة ، لا تقوم الحضارة ،بل لا تقوم الحياة اصلا الا عليهما معا ، فما من رجل كائنا من كان الا وقد جاء من أنثى وما من انثى الا وكان السبب فى وجودها رجل ، فالذكور من الاناث والاناث من الذكور وسبحان القائل :

« يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم »

فلنقف عند حدود الله كمـــا رسمها رجالا كنا او اناثا .

« ولا تقربوهن حتى يطهرن فاذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله ان الله يحب التوابين ويحب المتطهرين نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم » .

ادق الأمور الجنسية :

تعالج هذه الآيات كما نرى ادق الأمور الجنسية واكثرها حساسية وخطورة ، ومع ذلك فلســنا نرى الا ايماء وكناية والفاظا رقيقة مما اعتادت الآذان ســماعها حتى ولو كانت آذان العذارى مثل « ولا تقربوهن » .

فدل ذلك على أن الحضارة الانسانية ، منتهى الحضارة ، يعلمنا الله اياها ، وتتلخص فى انه بعد وضع العلاقات الجنسية بين الرجل والمراة داخل اطار من التنظيم والشرعية عن طريق الزواج وبناء الأسرة ، فان مزاولة الاتصال الجنسى بين الرجل وزوجته ، يجب أن تظل فى دائرة البعد عن العلانية ، العلانية عن العين والأذن معا ، فاذا كان لابد من بعض التوجيهات فالقرآن يؤدبنـــا ويعلمنا ان هذه التوجيهات يجب ان تساق فقط لدفع الممارسة التى قد ينجم عنها ضرر ، وابطال المعلومات الشـــائعة « الخاطئة » كمـــا سوف نرى ، على أن يترك بعد ذلك كل خوض فى الأمور الجنسية للتعليم الالهى الذى نسميه بالغرائز ، فالغريزة هى اعداد الهى يجهز به الله ســبحانه وتعالى الكائن الحى ليساعده على الحياة ، وكل ما هو غريزى لا يحتاج الى تعليم أو ارشاد ، فهو يتم تلقائيا ، وعملية التناسل من بين الغرائز التى جهز بها الكائن الحى لضمان استمراره وتكاثره .

الثقافة الجنسية :

وما أكثر ما صدعنا دعاة «الحضارة الغربية» بما اسموه الثقافة الجنسية وضرورة نشر الوعى الجنسى ، وراحوا تحت هــذا الستار ينشرون الفوضى والاباحية ، ويتنادون بضرورة تدريس « الجنس » للصبية والمراهقين وغير ذلك مما برع فيه اليهود لافساد البشر ،وقد كان آخر من عرفناه منهم فى العصر الحديث « فرويد » الذى جعــل الأحلام تدور على الجنس ولا شىء غير الجنس ، ومن الأحلام الى اليقظة ، فكل نشاط انسانى مذ يولد فهو جنس ، فالطفل عندما يلتقم ثدى أمه فهو يباشر عملية جنسية وهكذا الى آخر هــذه التخريفات وينقلها قوم مسلمون باعتبار ان ذلك علم ، نهاية العلم وتشيع الفاحشـــة ، ويدب الانحلال الى المجتمعات التى تتعلق بهذه السخافات والأدران .

القرآن ذلك النور المبين :

وها هو القرآن الكريم يرسل نوره المبين الذى لو اهتدى به الناس فلن يضلوا بعده ابدا فمن الحق أن لا حياء فى العلم ، ولا حياء فى الدين ،ولكن عندما يكون المقام مقام الرغبة فى الاحتراز الدينى بالفعل ، او فى مقام التعليم والتعلم كما هو الشأن فى هــذه الآيات فقد كان صــحابة

الانصار يعيشون فى مجتمع تفشت فيه الآراءاليهودية والتى اشرنا اليها فيما سبق من اعتبارهم المراة اذا حاضت اصبحت رجسا ينجس كل من يلمسها ، فكان من الطبيعى ان يتوجهوا بالسؤال لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم عن وجه الحق فى هذه المسألة ، فجاء الحق فيها على ما قدمنا ، ومدة الحيض عند النساء تختلف من واحدة الى اخرى ، ما بين الثلاثة والعشرة أيام على الأغلب والأعم وتعرف كل أنثى متى تنتهى دورتها الشهرية بانقطـاع الدم . وامر الاسلام — وطابعه النظافة المادية والروحية معا — أن تتطهر المراة اذا انتهى حيضها ، فاذا انتهى الحيض وتطهرت المراة حل قربها وارتفع كل محظور ، وفى كتب الفقه تفضيلات لكل ما يتصل بهذا الأمر فليرجع اليهـا من يريد التفصيل .

« فأتوهن من حيث أمركم الله »

والأمر هنا هو للاباحة ورفع المنع أى انه متى تطهرت المراة فلكم الحق فى ممارسة ما خولكم حق ممارسته لاستدامة الحياة واستمرارها وفى كتب التفسـير القديمة كلام كثير حول عبـارة « فأتوهن من حيث أمركم الله » كمـا دار حول الآية القادمة « نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم انى شئتم » .

وقد أثار هذا الكلام الكثير عقيدة خاطئة كان اليهود يشيعونها من ناحية ، وآفة تردى فيها افراد من البشر منذ تكاثر الانسان ، ويكفى لنعرف ان هذه الآفة ضد الطبيعة ، انه لا يوجد فى الدنيا حيوان واحد على اختلاف الازمنة والأمكنة قـد اقترف هذه الآفة وهى آفة « اللواطة » وهى تعنى الاتصال الجنسى بين افراد النوع الواحد ، وقـد اطلقت كلمة اللواطة نسبة الى قوم نبى الله «لوط» وقد حكم الله عليهم بالفناء لارتكابهم هذه الجريمة وقد قص القرآن الكريم قصة قوم لوط اكثر من مرة واصفا ومذكرا باللعنة التى استحقوها جزاء وفاقا لاغضابهم الله سبحانه وتعالى .

فرية اليهود :

هذا عن الآفة اما الفرية التى اشاعها اليهود وتاثر بها سكان المدينة قبل الاسـلام فتحديدهم صورة محددة للاتصال الجنسى ، ووضعا معينا ، وشددوا النـكير على من يخـالف هذا الوضـع وزعموا أن الاتصال الجنسى على هذا الوجه يأتى بولد ذكر وعلى هذا الوجه يأتى بالأنثى .

وللقضاء على هذه الشائعات الكاذبة ، وعلى هذه الآفة البشرية نزلت الآية الكريمة « نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم » وعلى اسلوب القرآن الكريم فقد اغنت كلمة « حرث » عن قول الكثير والكثير جدا فشبه عملية الاتصال الجنسى بين الذكر والأنثى بعملية « الزرع » حيث تغيب البذرة فى الأرض المجهزة لقبولها فيكون النمـو والثمر ، ونحن نعلم اليوم أن النبات كالانسـان والحيوان يتناسل ، ونحن نعلم اليوم ان للنبـات جهازا تناسليا كاملا ، حيث تنتقل حبوب التذكير الى المواضع المخصصة لها عند أنثى النبات فيتم التلقيح فعندما يصف القرآن الكريم الاتصـال الجنسى بأنه حرث اى زرع فهذا لا يعنى سـوى شىء واحد لا ثانى له ، وهو أن يتم الاتصـال الجنسى بين الذكر والأنثى فى الموضع الذى هيـأه الله لذلك ويكون هذا هو تفسير قوله تعـالى : « من حيث أمركم الله » فكل شىء طبيعى خلق مع الانسان فهو أمر الله وقد جهز الذكر بجهـاز تناسلى خاص ، وخص الأنثى بجهاز خاص للحمل والولادة ، ويكون كل خروج على الطبيعـة هو عصيان لأوامر الله ، ونحسب بعد ذلك اننـا فى غنى عن خوض مباحث اشتملت عليهـا كتب التفسير القديمة حيث شـتشق البعض بجـواز ممارسة ما اسميناه باللواطة مع زوجة الانسان، ولكنها تنتهى كلها الى ما انتهينا اليه وشـجب ما عدا ذلك .

« ان الله يحب التوابين ويحب المتطهرين »

وتنتهى الآية الأولى بالاشـــارة الى حب الله للمتطهرين اى الذين يتطهرون فى الظاهر والباطن، فى الظاهر عن طريق النظافة وليس ثمة موضع من جسد الأنثى جدير بالتنظيف اكثر من المحيض حيث كان يسيلُ الدم بما فيه من ميكروبات وجراثيم .

أما نظافة الباطن فتكون بتنفيـذ أوامر الله والانتهـاء عن نواهيـه وعلى من اغفل ذلك ان يستغفر الله وان يتوب بمعنى أن يعقد العـزم على ان لا يعود مرة أخرى للمعصية ، فيغفر له الله ويحبه فان الله يحب التوابين .

« وقدموا لأنفســكم واتقوا الله واعلموا أنكم ملاقوه وبشر المؤمنين »

وكما انتهت الآية الأولى بالدعوة الى الطهارة والتوبة ، فقد انتهت الآية الثانية بعد ان كمـل الموضوع الخاص بكيفية الاتصال بالنساء وأوانه ، فقد ختمت الآية بما يختم به آيات الأحكام فى الأغلب والأعم من الدعوة الى التقوى اى خشية الله والخوف منه بعمل كل ما هو صالح كما رسم الله وحدد ، وكل عمل صالح يقوم به الانسان فى هذه الدنيا هو عمل يتقدمه ويسبقه لينفعه يوم القيامة حيث تعرض كل أعماله على الله سبحانه وتعـالى .

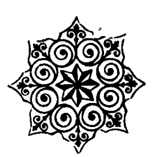
واعلموا انكم ملاقوه : والويل كل الويل لمن غفل عن هذه الحقيقة حقيقة الحياة الآخـرة ، فهى جوهر الايمان وفارق ما بين الملحد والكافر والمادى وبين المؤمن ، فقد تجد واحدا من هؤلاء يسلم فى نهاية الأمر بأن لهذا الكون خالقا :

« ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله »

ولكنك لن تجد ابدا كافرا او ملحدا او ماديا ، وكلها بمعنى واحد ، من يؤمن بالحياة الآخرة واننا راجعون الى الله فمـلاقوه فمحاسـبون على ما قدمت ايدينا .

« وبشر المؤمنين »

هذا هو الوعد الالهى بأن من آمن بهذه الحقيقة وعمل فى حياته على اساسها فيا بشراه .



عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ أَن تَبَرُّواْ وَتَتَّقُواْ وَتُصْلِحُواْ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ۖ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُواْ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓاْ إِصْلَٰحًا ۚ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ

« ولا تجعلوا الله عرضة لايمانكم ان تبروا وتتقوا وتصلحوا بين الناس »

مفتاح هذه الآية الكريمة كلمة « عرضة » على وزن غرفة ، اذ يتوقف على معناها تحديد الأمر المطلوب، جاء فى معجم الفاظ القرآن للمجمع اللغوى « والعرضة » ما يجعل معرضا للشىء وورد فيها: « ولا تجعلوا الله عرضة لايمانكم » .

ولكن كتب التفسير اوردت للكلمة اكثر من معنى ففى التفسير الوسيط لأشياخنا علماء الأزهر :

عرضة : أى معترضا وحاجزا ويكون معنى الآية أن لا تجعلوا ايمانكم بالله مانعا يحول بينكم وبين عمل الخير « ان تبروا وتتقوا وتصلحوا بين الناس » وقد وردت عدة أحاديث تفيد هذا المعنى على ما سوف نرى ، على أن ثمة معنى آخـــر اختاره البعض وهو أن معنى كلمة « عرضة » مأخوذ مما يعرض للشىء كأن ينصب هدف ليكون عرضة للسهام يقال فلان عرضة للناس اذا كانوا يقعون فيه ويعرضون له بالمكروه ، ويكون المعنى لا تجعلوا الله هدفا لأيمانكم ، جاء فى القرآن الكريم « ولا تطع كل حلاف مهين » فان من اعتاد الحلف فقد الثقة فى نفسه ، وسرعان ما تفقد النـــاس الثقة فيه وتستهين بما يحلف به ، ويكون معنى بقية الآية: أنكم ان فعلتم ذلك وتجنبتم الحلف بالله تبروا وتتقوا وتصلحوا بين الناس ، وأن يكون عدم الحلف بالله عنوان البر والتقوى مفهوم ، ولكن أن يكون ذلك سبيلا للاصلاح بين الناس فلسنا نتبين الصـــلة بين الأمرين ولذلك نرجح المعنى السابق وهو أن لا تجعلوا حلفكم بالله مانعا يحول بينكم وبين ان تفعلوا الخير بكل انواعه ، كأن يطلب من انسان ان يصل بعض أقربائه فيرد بأنه أقسم بالله ان لا يفعل ويكون الأمر الوارد فى الآية هو : أن لا يمتنع احد عن فعل الخير لأنه اقســـم الا يفعل .

وتكثر الأحاديث النبوية وتتظاهر على تأكيد هذا المعنى ، جاء فى الصحيحين وغيرهما قوله صلى الله عليه وسلم « من حلف على يمين فرأى غيرها خيرا منها فليأت الذى هو خير وليكفر عن يمينه »، وفى حديث للسيدة عائشة رضى الله عنها رواه ابن ماجة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من حلف على يمين قطيعة رحم أو معصية فبره أن يحنث فيها ويرجع عن يمينه » وفى هذا المعنى احاديث كثيرة وهى تقوم شاهدا على المعنى الذى اخترناه من أن لا نجعل الحلف بالله مانعا يحول بيننا وبين فعل الخير . وهناك قوم قالوا برأى لا نأخذ به بل ونستبعده فهو تقدير « لا » فيصبح المعنى لا تحلفوا ولا يستفاد تقديرها على ســـبيل القطع من كلام او عبارات متأخرة ، اما هـــذا المعنى الذى نرفضه ونســـتبعده فهو تقـــدير « الا » فيصبح المعنى لا تحلفوا بالله الا أن تبروا وتتقوا ، اما لمـــاذا نستبعده ، فهو فضلا عن انه يضيف ويقدر مالا وجود له ، فالمعنى العام غـــير

مستساغ فعندما يحلف الانسان لا يعلم ان كان سيكون قادرا على البر بيمينه ، ومن هنا كان المعنى الذى اخترناه هو الأكمل والأوفق والذى وردت بمعناه الأحاديث .

سبب النزول :

ويضيف البعض أن سبب نزول هذه الآية هو تأكيد لهذا المعنى المختار وهو ان لا يكون الحلف بالله مانعا من عمل الخير ، وهو أن سيدنا ابا بكر الصديق رضى الله عنه اقسم أن يترك الانفـــاق على واحد من ذوى قرباه وهو « مسطح » عقابا له على خوضه فى حديث الافك حيث تقول المتقولون على السيدة عائشة رضى الله عنها ، فنزلت فى سورة النور التى تحدثت عن هذا الموضـــوع آية « ولا يأتل اولو الفضل منكم والسعة ان يؤتوا اولى القربى » .

« والله سميع عليم »

وذكر السمع والعلم الالهيين هنا هو تحـــذير ووعيد ليحاسب كل انسان نفسه على ما يقع منه من ايمان ويؤمن بأن الله قد سمع ما خرج من فمه وهو عالم بما فى النوايا والضمائر وعليه ان يتصرف دائما فى حدود تقوى الله وفيه الخير والصلاح .

« لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم والله غفور حليم »

وكلمة اللغو هنا هى موضع الدقة فما هـــو اللغو وما الذى يعتبر لغوا ومالا يعتبر ؟ جاء فى معجم ألفاظ القرآن : اللغو من الكلام مالا يعتـــد به لعدم صدوره عن روية وتدبر وقد يسمى كل كلام قبيح لغوا .

ويطلق اللغو على ما لا يعتد به ولا جدوى فيه من قول أو عمل كاللعب ، واللغو فى الايمـــان من انواع اللغو بمعناه العام وهو انتفاء القصـــــد الصريح أو النية الصادقة عند اليمين بحيث يصدر من المرء صدورا عاديا اثناء الحديث المتصل بدون عزم أو نية وقد قيل كلام كثير حول ما يعد لغوا ومالا يعد وقد لخصها أشياخنا فى تفسير الوسيط فلننقلها عنهم «يمين لغو : لا يعتد به ولا مؤاخذة عليه ، وهى اليمين التى تجرى على الألسنة فى الحديث لمجرد التأكيد مثل لا والله وبلى والله » وهذا هو المروى عن السيدة عائشة فى تفســـير يمين اللغـــو .

ويرى آخرون انه القسم الذى يعتقد المقسم انه صحيح ثم تبين خطأه ويرى بعضهم انه قسم الغضبان الذى يخرجه الغضب عن اتزانه ويعده بعضهم يمين المكره او الذى يقسم وينسى قسمه فيخالف ما اقسم عليه وهذا كله لا كفارة فيه ، على ارجح الآراء « انتهى » .

« ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم »

وعندنا أن المرجع فى نهـــاية الأمر هو الى « ماكسبت قلوبكم » وكسب القـــلوب هو النوايا والضمائر . وما يهمنا أن نبرزه هنا ان لا يتصور متصور انه اذا نوى فى ضميره أن لا ينفذ ما حلف عليه فان ذلك يكون اثما عظيما وخاصة اذا قصد به خداع او غش احد ويبلغ الاثم من الكبر بمقدار ما يتسبب عن اليمين اللغو من ضرر .

« والله غفور حليم »

يغفر لمن نطق بيمين لغو شريطة ان لا يكون قد تعلق بهذا اليمين اللغو حق لانســـان ـــ لأن اول شروط التوبة اداء الحقوق .

« حليم »

وذكر حليم هنا اشارة الى كراهة الأيمان حتى وهى لغو واذ يصفح الله عنها فهو لانه حليم يتجاوز عن السقطات غير المقصودة .

ابغض الحلال :

لست اعرف تعبيرا جامعا مانعا فى موضوع الطلاق بمعنى انهاء الرابطة الزوجية ، اروع واكمل وادق من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ابغض الحلال عند الله الطلاق » فالطلاق ضرورة انسانية يقتضيها سلام المجتمع وتفرضه الكرامة البشرية فهو من هذه الناحية أمر مباح أحله الله سبحانه وتعالى لعبيده ، ولكنه من ناحية أخرى قد تترتب عليه فى الأغلب والأعم آثار ضارة على افراد الأسرة وبالتالى على المجتمع ككل ، ومن هنا فقد حذر الله سبحانه وتعالى على لسان نبيه ، من استعمال هذا الأمر المباح « الحلال » الا فى أضيق الحدود وطبقا للضرورة التى الجأت اليه ، وسنرى روح ذلك كله فى هذه الآيات التى نظمت تشريع الطلاق وجعلت — وهى تنظم كيفية فك الاسرة — تبرز جوهر الحياة الزوجية وانها يجب أن تقوم أولا واخيرا على الود بين الزوجين والتعاون على الخير وفى الخير وبالخير فاذا انعدم هذا الأساس ، فقد أصبح استمرار الحياة الزوجية اشد ضررا على الزوجين وعلى كل المحيطين بهما من فض الشركة الزوجية بالطلاق .

الطلاق بين الرضا والكره :

وطبيعى أن تكره عامة النساء المسلمات الطلاق فقد اسىء فى وقت ما استعماله من قبل بعض الأشخاص ، ولكن أساءة البعض فى استعمال الحق فى بعض الظروف والأحوال ، لا يعنى بحال المساس بهذا الحق عن قرب او بعد ، فضلا عن التفكير ، مجرد التفكير فى الغائه اذا كان مجرد حق نظمته القوانين الموضوعة بمعرفة الانسان ، اما اذا كان هذا الحق هو تنزيل من الله عز وجل ، فليحذر اى انسان كان أن يتصور أن تمتد يده الى ما شرع الله الا فى حدود ما يفهم ويستخلص من النصوص القرآنية ، أن ما يطلق عليه اسم « قوانين الأحوال الشخصية » تعبير لا شأن لنا به وهو دخيل فى حياتنا مذ وقع المسلمون فى براثن استعمار غير المسلمين ، ففرقوا بين قوانين وقوانين ، ولكن بالنسبة للاسلام والمجتمع الاسلامى ، فليست هناك قوانين احوال شخصية وغير شخصية ، وانما هناك التشريع الاسلامى المنظم لكل شىء وواضع القواعد التى لا يصلح المجتمع الا بها ، والقائمة على كتاب الله وسنة نبيه ، وعلى راس هذه القواعد موضوع الطلاق كأساس لتنظيم الأسرة الاسلامية ووجوب قيامها على حرية الارادة التى يشترطها الاسلام فى تصرفات اى انسان حر .

فليتكلم من شاء أن يتكلم فى موضوع الطلاق على أن يظل حديثه فى دائرة الكتاب والسنة اذا أراد أن ينطق باسم الاسلام ، مخاطبا من يؤمنون بالاسلام .

انصار الاسلام فى موضوع الطلاق :

يعلم الذين يتتبعون ما نكتب اننا لا نحاول أن نظهر فوائد هذا الشىء أو ذاك لحث القرآن عليه فمتى كان الأمر تكليفا الهيا سواء بالأمر أو بالنهى فقد وجب اداؤه مع الايمان انه كان كذلك لخير الانسان أولا ، والجماعة فى مجموعها ثانيا غير انه نظرا لارتفاع بعض الأصوات والصرخات من حين لآخر ، تشجب نظام الطلاق ، ذاكرة ومتمثلة ببعض حالات شاذة ، ومن هنا فقد رأينا أن

نستهل تفسيرنا لآيات الطلاق بذكر كلمة عامة طالما نبهنا اليها طول حياتنا ، وكيف ان نظـام الطلاق فى الاسلام هو مظهر عظمة هذا التشريع وكماله وانه لا يمكن أن يكون من صنع انسان .

اوروبا كانت تحظر الطلاق :

كانت قوانين أوربا طوال بضـعة قرون ماضية ، تحظر الطلاق بصفة عامة تطبيقا للمبدأ المسيحى الذى يحرم الطلاق الا لعلة الزنا ، فماذا كانت النتيجة ؟ ، كانت النتيجة ان نشأ نظام المحظيات وأصبح تقليدا متبعا حتى فى بلاط الملوك ، وفى انجلترا حيث وجد ملك مزواج « هنرى الثامن » عندما رفض البابا مطالبه فى الطلاق لجأ الى اسلوب اعدام زوجاته بتهمة انهن يتآمرن عليه وذلك لمجـرد الرغبـة فى التخلص منهن ، وانتهى به الأمر الى أن فصل الكنيسة الانجليزية جملة عن تبعيتها لبابا روما ليستطيع ان يتمتع بالسلطان المطلق .

هذا الذى فعله هنرى الثامن هو الذى كان يفعله أى زوج أو زوجة يضيق أو تضيق بشريكها فكان كل منهما يقتل الآخر اما عن طريق السم أو الخنق أو الاحراق ما دام أن ذلك هو السبيل الذى لا سبيل غيره لفك الرابطة الزوجية .

ولسنا نريد أن نسهب طويلا فى تصوير الجرائم وصـنوف الفساد التى غص بهـا المجتمع الأوروبى وحسـبنا أن نقـرر أنه فى مقـدمة أوجه الاصـلاح « البروتسـتنتى » هو اباحة الطلاق ، وظلت الكاثوليكية تحاول التمسك بحظر الطـلاق ، ولكنها استسلمت فى النهـاية لما اعتبره العالم كله هو مقياس لكرامة المرأة بخاصة وللحضارة بعامة وهو « نظام الطلاق » وتمادى الأمريكان فى موضـوع الطلاق الى حـد العبث والسـفه .

والذى يعنينا أن يسـتقر فى ذهن كل امراة مسلمة ان حظر الطلاق الذى تتصـوره نعمة ، انتهت البشرية ــ شرقها وغربها ــ الى أنه أعظم نقمة قد تصاب بها الزوجة اذ تحول حياتها الى جحيم ، ومن هنا فليس يوجد فى الدنيا كلهـا مجتمع متحضر لا يأخذ بنظام الطلاق بصورة أو بأخرى .

الطلاق فى الاسـلام :

فعندما يقرر الاسلام منذ أربعة عشر قرنا هذا الذى انتهت البشرية اليه بعد طول التجـارب فيجب أن يفهم من ذلك ما لم يكن يفهم ان الله سـبحانه وتعالى « وحـده » هو الذى يعلم ما يصلح للانسان وما لا يصلح ، وقد بقى أن نشرح للسيدات المسلمات لماذا كان نظام الطلاق كما نظمته هذه الآيات وغيرها هو آية احترام الاسلام للمرأة وتكريمها ؟ .

ذلك أن الاسلام يبنى المجتمع السليم على الأسرة فهى خلية المجتمـع الأولى يقوى بقوتهـا ويضعف بضعفها وينحل بانحلالها ، وقطبا الأسرة اللذان يكونانها هما الرجـل والمرأة ، وليست الأسرة مجرد علاقات جنسية يباشرانها ، وانما هى تعاون وتساند وتكاتف لحل مشاكل الحياة وهو ما يحتاج الى المحبة والثقة المتبادلة وشعور كل من الاثنين بالطمأنينة والأمن فى كنف الآخر فقـال تعـالى :

« ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة » .

فالأسرة الاسلامية تقوم على الود المتبادل بين الزوج وزوجته وعلى التراحم فيما بينهما ، وأولا وقبل كل شىء ، على الشعور بالأمن والطمأنينة والراحة بعد التعب ، وهو ما عبر عنـه بكلمة واحدة تعبر عن هذه المعانى كلها ونعنى بهـا كلمة « السـكن » .

هذا هو قوام الأسرة الانسانية وأساسها المكين ، فاذا انهار هذا الأساس لم يعد للأسرة معنى فضلا عن قوة .

ومن هنـــا اشترط الاسلام الارادة الحرة لكلا الزوجين لامكان قيام الحيـــاة الزوجية فاشترط الاسلام رضا كل من الزوجين .

وهذا الرضا بكل الحرية والاختيار ليس لازما فقط لقيام الحياة الزوجية،بل هو لازم لاستمرارها ودوامها كذلك ، والا تحولت الرابطة الزوجية الى رابطة رق وعبودية وهو ما رفضه الاسلام فكان نظام الطلاق لتظل الحرية هى اساس الرابطة ، ويخطىء الكثيرون اذ يتصورون أن حق الانفصال عن الشريك الآخر قد أعطى للرجل دون المراة ولكنهم سيرون فى الآيات التى نحن بصددها أن هذا الحق قد أعطى للمراة كذلك فى ظروف معينة واطلق عليه فى الفقه كلمة « الخلع » ويرجع الى الصفات الخاصة لكل من الذكر والأنثى ، الخلاف فى اجراءات الطلاق بين استعمال الزوج له ومطالبة الأنثى له ، فعسى أن نكون بهذا التمهيد لآيات الطلاق ، قد أعدنا الرشد لمن يتكلمون عن جهل بالحقائق ويتخذون من بعض الحالات الفــردية والشاذة ما يريدون به أن يصوغوا تشريعات على هواهم ، ناسين أن الله لم يشأ لهم الا الأكمل ، ومنذ مئات ومئات من الســنين يقوم المجتمع الاسلامى فى ظل نظام الطلاق ومع ذلك فقد كان المجتمع الاسلامى هو نور الدنيا كلها ، وعاشت مئات الملايين من الأسر قوية راسخة لأنها تقــوم على الارتباط الحر وليس القسر .

وبعد ذلك نستعرض الآيات وبالله التوفيق .

« للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة اشهر فان فاءوا فان الله غفور رحيم . وان عزمـــوا الطلاق فان الله سميع عليم »

مفردات :

يؤلون : يقسمون ومنه آلى ، بمعنى اقسم يقال آليت على نفسى ، والالية : اليمين .

والايلاء شرعا : هو أن يقسم الرجل أن لا يقرب زوجتـــه .

تربص : انتظـــار .

فاءوا : رجعوا ، فاء الرجل الى زوجته أى رجع اليها بعد أن اقسم الا يقربها .

المعنى :

الحياة معاناة قال تعالى : « لقد خلقنا الانسان فى كبد » والحياة الزوجية لا تخلو ولا يمكن أن تخلو من معاناة ، وهذه الآية الكريمة تنظم ضربا من ضروب الخلاف بين الزوجين ، وانه قد يكون خلافا عابرا ، كما قد يكون خلافا أساسيا ينتهى بالانفصال ، وفى كلتا الحالتين يجب أن يتصرف المؤمن طبقا لحدود الله التى سوف يحددها . فعندما يقسم الزوج أن لا يقرب زوجته أبدا فاما أن يكون قد قال ذلك فى حالة غضب أو عن غير روية وتدبر فيما يترتب على قسمه هذا من نتائج ، وفى كل الأحوال فان القرآن الكريم يحدث أثر هذا اليمين ولا يلغيه تأكيدا للارادة البشرية ، ولكنه يحدد مدة سريان القسم بأربعة اشهر فقط ، وهذه الفترة اما أن تكون بمثابة امتحان لمدى ما فى هذا القسم من عزم واصرار ، أو تكون كعقوبة جزاء على التسرع فى حلف يمين يحرم الانســـان فيه على نفسه ما أحله الله له مهدرا فى نفس الوقت على زوجته حقا شرعه الله لها ، وقد يكون الأمر بخلاف ذلك فالله أعلم بمراده والمهم هو أن الحكم الشرعى فى حالة ما لو اقسم رجل على زوجته أن لا يقربها فان الشارع قد حدد لمثل هذا القسم حدا وهو أربعة اشهر ينظر الحالف بعد ذلك

الى نفسه ، فاذا عدل عن عزمه وعاد ليقارب زوجته فان الله سبحانه وتعالى يغفر له حنثه بيمينه الأول فالله يريد لعباده الخير وقد قال وقوله الحق « والصلح خير » واما اذا ظل الحالف على عزمه وتصميمه من أن لا يقرب زوجته ، فان هذا يعنى ان استمرار الحياة الزوجية أصبح متعذرا، ويتعين على الزوج الذى تأكد عزمه ان يطلق ان يمضى فى انفاذ عزمه بالطلاق حتى لا تضار الزوجة ، بأن تبقى زوجة ولا زوجة .

وتثير هذه الآية ثلاثة مباحث اختلف فيها الفقهاء .

المبحث الأول : هل الايلاء « حلف الرجل أن لا يقرب زوجته » .

معناه ان يحلف الرجل ويقول لزوجته والله لا اقربك اربعة أشهر او اربعة اشهر فصاعدا او لا اقربك على الاطلاق ؟

والمبحث الثانى ، هل يعتبر الزوج الذى فاء الى زوجته بعد الشهور الأربعة حانثا فى يمينه فتلزمه الكفارة ؟ أم أن يمينه يكون من نوع الحلف على أمر باطل فتصبح كفارته هى العدول عنه ؟.

والمبحث الثالث : هل تصبح المرأة التى استمر زوجها لا يقربها بعد الشهور الأربعة طالقا بالفعل، أم أن الأمر يحتاج الى اجراءات الطلاق ؟ .

فليرجع الى كتب الفقه من أراد الوقوف على الأحكام اما نحن فنقف عند حد ما نفهمه من النص القرآنى ، حيث تتحدد الأحكام الفقهية بنصوص القرآن وما ثبت لدى الأئمة رضوان الله عليهم من سنة صحيحة .

بقى اننا نفهم من الآية الكريمة ما سار عليه الامام الشافعى رضى الله عنه ، وفى تفسير الوسيط لأشياخنا علماء الأزهر تلخيص لآراء الفقهاء فى هذه المباحث الثلاثة .

« والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء ولايحل لهن ان يكتمن ما خلق الله فى ارحامهن ان كن يؤمن بالله واليوم الآخر وبعولتهن احق بردهن فى ذلك ان ارادوا اصلاحا » .

مفـردات :

يتربصن : ينتظرن

قروء : جمع قرء ويطلقه البعض على الحيض، حيث يعتبر آخر أن المقصود بالكلمة هو الطهر منه .

بعولتهن : جمع بعل وهو الزوج .

المطلقات : جمع مطلقة : المرأة التى أوقع عليها يمين الطلاق : والطلاق هو حل العقد القائم بين الزوجين بألفاظ مخصوصة .

المعنى :

بهذه الآية الكريمة يستهل القرآن الكريم احكام الطلاق وسوف ترى أن ألفاظ الآيات وروحها تنطق كلها بحرص الاسلام على الاسرة ووجوب صيانتها من التفكك والانحلال وهو ما لا يتحقق الا بحسن العشرة بين الزوجين فاذا تحول حسن المعاشرة الى مساءة مقصودة ومضرة فقد أصبح الطلاق هو أخف الضررين .

الطلاق يقع بمجرد التلفظ بالكلمة الدالة عليه ويقع الطلاق بمجرد تلفظ الزوج بالكلمة الدالة على أن ارادته اتجهت اليه ، ويتشدق أقوام قائلين : كيف ان مجرد النطق بكلمة تترتب عليه

كل هذه الآثار ؟ وهؤلاء المتشددون ينسون ان هذا هو الطريق الذى لا طريق غيره للافصاح عن ارادة الانسان وهو أن ينطق بكلمة ، فأنت تبيع وتشترى بملايين الجنيهات اذا لزم الأمر بمجرد التلفظ بكلمة موافق او غير موافق فيكون بيع أو شراء أو لا يكون ، والرجل يعدم او لا يعدم طبقا لكلمة يتلفظ بها القاضى ، وهذا هو شأن اى تصرف فى الحياة يتم بلفظ .

قد يقال ولكننا فى البيع والشراء قد نكتب ونتبع سلسلة من الاجراءات وهذه كلها امور تختلف بحسب الظروف والأحوال ، واجراءات لازمة للاثبات ، ولكنها كلها تأتى بعد تمام التصرف الذى يتم بمجرد التلفظ بالكلمة الدالة عليه « بعت ، اشتريت ، وهبت .. الخ » .

والعقود كلها فى الشريعة الاسلامية ، «كآخر ما انتهت اليه ارقى التشريعات واكملها وما لم تتوصل اليه اوروبا وامريكا الا فى عصور متأخرة تتم بمجرد الايجاب والقبول » ، بمعنى ان يعرض انسان فيقبل انسان آخر فيقوم العقد وعقد الزواج كسائر العقود يقوم على الايجاب والقبول .

احاطة الطلاق بضمانات :

ولكن اذا كان قيام العقود وانهاؤها يتم بكلمة فقد اخرج الله سبحانه وتعالى موضوع الطلاق عن هذه القاعدة التى سنها لكافة العقود ذلك انه وهو خالق الانسان يعلم كل شيء من امره ، يعلم أنه قد يقدم على أمر فى تسرع وغير روية تحت تأثير انفعال أو نزوة طارئة ثم يعود فيندم على ما بدر منه وهذا الندم لا يفيد فى أمر قضاه الانسان وابرمه الا فى موضوع الطلاق فقد اتاح الله سبحانه وتعالى لكل زوج ان يراجع نفسه ، بعد ان تلفظ بالطلاق ، فلا تترتب آثاره على الفور ولا بد من انقضاء فترة يثبت فيها اصرار الزوج على ارادة الطلاق .

« يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء »

فلم تعد الرابطة الزوجية تنتهى على الفور بمجرد تلفظ الزوج بكلمة « انت طالق » وانما يتعين على الاثنين ان ينتظرا — قبل ان يصبح الطلاق نافذا — فترة زمنية معينة اطلق عليها شرعا اسم « العدة » وفى سورة الطلاق أمر الله الزوج أن لا يخرج زوجته المطلقة قبل انقضاء عدتها ، وفى هذه الآية التى نحن بصددها يأمر القرآن الكريم الزوجة المطلقة ان تنتظر بدورها ثلاثة قروء ، وعدة الزوجة المطلقة لها احوال مفصلة فى الفقه فى حالة ما اذا كانت تحيض أو لا تحيض، حامل او غير حامل .. الخ .

والحالة التى نحن بصددها فى هذه الآية هى حالة الزوجة المدخول عليها ، والتى لا تزال تحيض ففى هذه الحالة يتعين عليها الانتظار قبل أن تعتبر نفسها انها اصبحت فى حل نهائى من عقدة الزوجية « ثلاثة قروء » وسواء كانت كلمة القرء تعنى الحيضة أو الطهر منها فالفارق فى الحالتين لا يعدو بضعة أيام .

« ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله فى ارحامهن ان كن يؤمن بالله واليوم الآخر »

لايقف كثيرون أمام هذه الآية ويرون مدى ما فيها من تكريم بالغ للمرأة اذ يجعلها مؤتمنة على احوالها الخاصة ولا يجعل عليها رقيبا الا ايمانها بالله وخوفها من اغضابه ، فالقول ما قالت ليس لأحد ان يعقب عليها فضلا عن ان يكذبها واذا كان اى شأن من شئون الحياة يستلزم لاثباته شاهدين أو أكثر فالقاعدة الشرعية ان الزوجة مصدقة فى قولها اذا قالت انها حاضت أو لم تحض ، حامل أو غير حامل على تفصيل يتلمس فى كتب الفقه ، والمهم هنا أن الله سبحانه وتعالى ينوط بالزوجة المطلقة ان تروى حالتها بصدق وامانة، ويخوفها اذا هى لم تفعل ذلك ان لا تكون مؤمنة

بالله ، فقد تكون احدى المطلقات حاملا ولكن لشدة رغبتها فى التخلص من الزوج سريعا لتتزوج آخر ، فتدعى انها ليست حاملا وانها حاضت بالفعل ثلاث حيضات ، ففى مثل هذه لن يكون امام كل صاحب اى شأن الا ان يأخذ بقولها ، ولكنها فى هذه الحالة سوف تخرج من زمرة المؤمنين بالله واليوم الآخر وبالتالى غضب الله .

« وبعولتهن احق بردهن فى ذلك ان ارادوا اصلاحا »

يكشف هذا الجزء من الآية على شديد حرص القرآن الكريم على الاسرة واستمرار الحياة الزوجية واستقرارها فيجعل من حق الزوج خلال مدة العدة ان يرجع عن طلاق زوجته ولا يستطيع كائن من كان أن يحتج عليه بانه طلق وانتهى الأمر ، ان هذا الطلاق ينتهى بمجرد ان يفصح الزوج عن ارادته بالرجوع عن الطلاق فى حدود ستبينها الآيات التالية والمهم ان القرآن الكريم يثبت للزوج حقه المطلق وغير المنازع فيه فى الرجوع الى زوجته خلال مدة عدتها .

« ان ارادوا اصلاحا »

قدمنا أن الاسلام شديد الحرص على سلام الأسرة وقوتها وان ذلك لا يتأتى الا على حسن المعاشرة بين الزوجين ، والا فالانفصال هو الاقل ضررا ، ومن هنا فقد أعطى الزوج حق مراجعة زوجته لا يحول بينه حائل مادامت فى العدة ، ولكنه من الناحية الاخرى أوعز الى الزوج ان يكون هدفه من هذا الرجوع هو الاصلاح لا رغبة فى الكيد والاساءة على تفصيل سيرد علينا بعد قليل .

« ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة » .

المساواة لا تعنى الفوضى :

قلنا وكررنا واكدنا ان الرجل والمراة سواء امام الله عز وجل وهو القائل «بعضكم من بعض» والدين الاسلامى كله يخاطب به الله المراة خطابه للرجل وان كان جريا على اسلوب اللغة العربية قد استعمل اسلوب التغليب فجعل الحديث موجها للرجل والمقصود به الاثنان معا وفى بعض المناسبات كشف عن حقيقة رغبته فراح يكرر مؤنث اى صفة من الصفات لابراز هذا المعنى وتأكيده فقال وقوله الحق :

« ان المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات » . سورة الاحزاب .

ومثل هذه الآية يتكرر فى القرآن الكريم اشعارا من الله سبحانه وتعالى انه لا يضيع اجر من احسن عملا وانه لا فضل لذكر على انثى الا بالتقوى والعمل الصالح على ان هذه المساواة لا تعنى الفوضى بحال من الاحوال فمتى تزوجت المراة فقد تألف من زواجها مجتمع صغير وهو الأسرة خلية المجتمع ولا يستغنى اى مجتمع لكى ينصلح حاله عن النظام واول مظاهر النظام ان يكون هناك شخص يقول الكلمة الأخيرة بالنسبة لاتخاذ القرارات ، وبغير ذلك تختل الأمور وتنقلب الى فوضى .

ومن هنا كان لابد للأسرة أن يكون لها رئيس وقد اعد الله سبحانه وتعالى الرجل ليقوم برئاسة الأسرة ، ذلك فان دور المراة كأم وما تتعرض له قبيل الولادة واثناءها وفى أعقابها ما يخرجها عن دائرة العمل النشيط ويستوجب لها الحماية وهذا هو دور الرجل ، ولا عبرة بالحالات الشاذة حيث ينقلب الوضع وتكون الأنثى هى الأقوى فالتشريع انما ينظم الأغلب والأعم والاستثناء دائما يؤكد القاعدة .

وقد اشرنا فيما سبق الى ان اوروبا فى العصور الوسطى هبطت بمكانة المراة حتى جعلتها غير اهل للتكاليف الدينية ، وانعقدت بعض المؤتمرات « الكنيسة » لتبحث هل للمراة روح كالرجل ، وسواء كانت لها روح او لم يكن فهى أحبولة الشيطان .

وقد ظلت هذه النظرة سائدة فى أوربا ، حتى بعد قيام الثورة الفرنسية منذ اقل من مائتى سنة والتى جاءت تبشر بالحرية والمساواة عندما جاءت تقنن وتشرع ايام نابليون ، وصدر القانون المدنى الفرنسى يقول : « الرجل هو سيد الأسرة » وراح ينظم هذه السيادة والتى تجعل المراة بمجرد زواجها قاصرا لاتملك حق التصرف حتى فى اموالها الخاصة الا باذن من زوجها وقد نعود لهذا البحث بشىء من التفصيل فى مناسبة اخرى، اما الآن فحسبنا ان نلفت النظر للتعبير القرآنى الخالد لانه ليس من صنع الانسان « ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف » ولكى لا يتحول الأمر الى فوضى فى الاسرة قال القرآن الكريم هذا التعبير البليغ الرقيق « وللرجال عليهن درجة » .

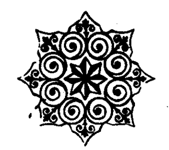
وفى معرض آخر وهو يصف هذه الدرجة بانها قوامة كشف عن السر فيها من حيث مسئولية الرجل عن الانفاق الذى هو اول واهم ضروب الحماية والرعاية . فقال وقوله الحق :

« الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما انفقوا من اموالهم » . فالمراة لا يغض من شانها ، ولا يمس كرامتها ، فضلا عن ان ينال مكانتها وقدرها ان تخضع لهذا التنظيم الالهى الذى لا تستقيم الحياة بغيره .

« ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة » .

وقد جاء الحديث الشريف ليفسر ويجلى ويبين فقال :

« كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته الامام راع ومسئول عن رعيته والرجل راع ومسئول فى أهله عن رعيته ، والمراة راعية فى بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها » رواه الشيخان .



دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾ الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٢٩﴾ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا

« والله عزيز حكيم » .

وختمت الآية بما يذكر المخاطبين بعزة الله وجلاله وقدرته وانه عندما يشرع ويحدد الحدود الى ابد الآبدين ، يحذر كل من تحدثه نفسه للخروج عن هذه الحدود انه سيدمر حياته ويفسدها لأن الله سبحانه وتعالى الذى نظم هذا الكون بحكمته هو واضع هذا التشريع .

« الطلاق مرتان فامساك بمعروف أو تسريح باحسان » . الطلاق بمعنى فض الشركة الزوجية ناموس قديم من نواميس الحياة الانسانية الاجتماعية فالطبيعة كلها تقوم على الشيء وعكسه، بين المد والجذر ، بين التخلخل والتكاثف ، بين الحل والتركيب ، وتكوين الاسر يقابله حل اسر وهكذا فالاسلام لم ينشيء الطلاق ، فهو قائم فى سائر المجتمعات على اختلاف العصور ودور الاسلام شأنه فى كل ما تعرض له ان يضع النظام « الأمثل والاكمل » لما هو قائم بالفعل .

فكان العرب على سبيل المثال قبل نزول هذه الآية اى فى الجاهلية وفى ظل الاسلام لا يقفون بالطلاق عند حد فكان الرجل يطلق امراته ويراجعها ولو مائة مرة « من الناحية النظرية على الأقل » فتدخل التشريع الالهى لينظم هذا الأمر . ويحدد الحدود ، ويروون عن السيدة عائشة رضى الله عنها حديثا يعتبرونه السبب المباشر لنزول هذه الآية قالت :

« لم يكن للطلاق وقت ، يطلق الرجل امراته ثم يراجعها مالم تنقض العدة وكان بين رجل من الانصار وبين اهله بعض ما يكون بين الناس فقال والله لاتركنك لا ايما ولا ذات زوج . فجعل يطلقها حتى اذا كادت العدة ان تنقضى راجعها ففعل ذلك مرارا فانزل الله عز وجل فيه « الطلاق مرتان فامساك بمعروف أو تسريح باحسان » .

وهكذا لم يلغ القرآن الكريم الطلاق وانما وضع له الحدود والقيود والضوابط فللرجل ان يطلق زوجته ويراجعها قبل انقضاء عدتها بدون معقب على تصرفه ، ولا يحق للزوجة ان تعارض مشيئة الزوج فى مراجعتها لان الله سبحانه وتعالى يمد له طريق الاصلاح واستمرار الحياة الزوجية ، اما اذا اقدم الزوج على الطلاق مرة ثالثة فهنا يتدخل المشرع ليضع حدا لهذا الاجراء البغيض فيقول ، لمن طلق ثلاثا «حسبك، لقد بانت زوجتك عنك بينونة كبرى ، ولم يعد بقدرتك ان تعيدها الى عصمتك الا بعد اجراء خاص » وعلى ذكر البينونة الكبرى فلا مناص من توضيح تعبير « البينونة الصغرى » فقد اشرنا فيما سبق أن باستطاعة الزوج أن يراجع امراته بارادته المنفردة اى بغير توقف الأمر على رضاء أحد ، فاذا انقضت العدة « الثلاثة قروء » ولم يراجع الزوج زوجته فهذا هو مظهر ارادة الانفصال وعلى ذلك يقع الطلاق « بائنا » وهذه هى« البينونة الصغرى » اى انه لا يزال بقدرة الزوج ان يرجع الى زوجته ولكن الأمر هنا يخرج عن ارادته ، فلابد أن يتم هذا الرجوع بعقد زواج جديد يشترط فيه كل ما يشترط فى عقد الزواج فاذا تكرر هذا الطلاق مرتين ففى الثالثة يصبح الطلاق بائنا بينونة كبرى اى لا يكفى فيه مجرد عقد جديد مع نفس الزوج الا بعد ان تتزوج المراة انسانا آخر ، على ما سوف نرى .

« الطلاق مرتان » فاين الثالثة ؟ :

هنا ويتساءل بعض القراء ، أن أمامنا نصا صريحا هو : « الطلاق مرتان » فكيف جعلتموه ثلاثة وقد دار هذا التساؤل على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فروى عن انس بن مالك رضى الله عنه قال : « جاء رجل الى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ذكر الله الطلاق مرتين فأين الثالثة ؟

قال امساك بمعروف او تسريح باحسان » .

فانظر يارعاك الله الى هـذه « الصـياغة الالهية » للتحذير من مغبة الاكثار من الطلاق عن طريق الأسلوب فى التعبير فالقرآن يقول للمسلم ان من حقك ان تطلق مرتين دون أن يتدخل احـد بينك وبين زوجتك حتى لتستطيع ان تراجعها بعد كل مرة بدون اى اجراء الا مطلـق ارادتك اذا كانت العدة لم تنقض . وبعقد جديد اذا كانت قد انقضت ، فاذا استوفيت حقك فى هاتين المرتين، فاما أن تحرص على حسن معاشرة زوجتك والا فان الطلاق فى المرة الثالثة « وقد سماه القرآن تسريحا » فسـوف يترتب عليه احكام جديدة ولن يكون بقدرتك أن تستعيد زوجتك بغير عقد او حتى بعقد .

ونحن نرى القرآن الكريم على خلاف عادته يكرر فى آيات متعاقبة كما رأينا وما سوف نرى « فامساك بمعروف أو تسريح باحسان » اى أن علاقة الزوجين يجب ان تظل علاقة كريمة سواء اثنـاء المعاشرة الزوجية او حتى بعد انقطاع هذه الرابطة وكلمة « الاحسان فى الدين الاسـلامى تمثل ارفع درجات السلوك ، وهـكذا يعلمنـا القرآن ويؤدبنا : كيف يعامل الزوج زوجتـه حتى وهو ينفصل عنها .

« ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئا الا أن يخافا الا يقيما حدود الله فان خفتم الا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به » .

عـدم استرداد شيء :

واذا كانت ضروب الاحسان عند الانفصال لايمكن أن تحد فان الله سبحانه وتعالى قد اختار احد ضروب هـذا الاحسان ولم يشأ ان يتركه لمحض اختيار الزوج فجعله امرا الهيا يتعين على الزوج الانصياع له وهو ان لا يطالب زوجته عند طلاقها بشيء يكون قد دفعه اليها عند الزواج عينا او نقدا « ولا يحل لكم ان تأخذوا مما آتيتموهن شيئا » ذلك أن كل ما دفع للزوجة على سبيل المهر كشرط للزواج وعلى سـبيل النفقة أثناء الزواج هو فى مقابل « المعاشرة الزوجية » فاذا شاء الرجل ان يطلق لم يعد يجوز له أن يسترد شيئا . وقد اكد القرآن الكريم هذا الأمر فى آية أخرى « وآتيتم احداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شـيئا » .

فالقاعدة انه متى طلق الرجل زوجته فلا يحل له — بمعنى لا يحق له — أن يسترد من زوجته المطلقة شيئا يكون قد دفعه لها .

« الا أن يخافا الا يقيما حدود الله » .

لن نفتأ نذكر القارىء الكريم اننا هنا لا نقرر حكم الفقـه فى تصرف من التصرفات ، ذلك أن الفقهاء يستخلصون الأحكام الشرعية من القرآن والسنة وغير ذلك ، وهو الأمر الواجب ، اما نحن هنا فنقف عند حد فهمنا للنص القرآنى الذى نحن بصدده ، فمن أراد الحكم الفقهى فعليه تلمسـه فى موضعه وليس فيما نقوله هنا .

وقد ذكرنا أن المبدأ العام هو أن لا يأخذ الزوج الذى طلق زوجته شيئا مما دفع ،ولكن ها هو القرآن الكريم سوف يستثنى حالة « خوف الزوجين من الا يقيما حدود الله » وعندنا أن ذلك الاستثناء خاص بالزوجة عندما تستشعر الخوف من أنها لن تقوم بحق الزوجية فتخص زوجها بالحب والطاعة أولا وقبل كل شىء بالأمانة على ماله وشرفه وعرضـــه ، هنــا ، يستثنى القرآن الكريم هذه الحالة ، فهى لا يمكن الا أن تكون خاصة بالزوجة ويبيح القرآن لهــا أن تفتــدى نفسها أى تتفق مع الزوج على طلاقها فى مقابل شىء ما على ما سوف يجىء .

أما لمــاذا نعتبر الحديث خاصا بالزوجة فذلك لأن الله سبحانه وتعالى قد خول الزوج حق الطلاق بارادته المنفردة فأصبح الأمر الالهى نافذا بالنسبة له وهو أن لا يسترد شــيئا يكون قد دفعه فى كل الظروف والأحوال ، فاذا حاول أن يسىء الى زوجته ويكرهها بأى وجــه من الوجوه فتدفع له شيئا أو تتنازل له عن شىء ، فان ذلك يكون اثمــا وبهتانا كبيرا لا يمكن أن يكون هو المقصود بالاستثناء ، فلم يبق الا أن يكون الأمر خاصا بالزوجة ، فأعطاها الحــق اذا هى استشعرت من نفسها الخوف الا تقوم بواجب الزوجية أن تتفق مع الزوج بالانفصال فى مقابل شىء ما يتفقان عليه .

« فان خفتم الا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به » .

هــذا هو الحكم الذى جاء به القرآن الكريم يعطيه للمرأة فى مقابل حــق الزوج فى الطلاق ويسمى الفقهاء هذا الحق الذى يمكن للزوجة أن تلجــأ اليه عند الضرورة بــ « الخلــع » .

وكما وصف رسول الله صــلى الله عليه وسلم الطلاق بأنه « ابغض الحــلال » لينفر الزوج المؤمن منه ويجعله لا يلجأ اليه الا عند الضرورة القصوى فكذلك حذر وندد بالمرأة اذا هى طلبت الطلاق فى غير ضرورة ، جاء فى الحديث الشريف « أيما امرأة سألت زوجها الطلاق فى غير ما بأس ، فحرام عليها ريح الجنة » وجاء فى الحديث كذلك « المختلعات هن المنافقات » وغنى عن البيان أن المقصودات بذلك هن من أردن الانفصال عن أزواجهن « فى غير ما بأس » كما جاء فى الحديث الخاص بطلب الزوجة للطلاق .

واقعة زوجة ثابت بن قيس :

وليس هناك ما يوضح حالة ما ، تطلب الزوجة الانفصال عن زوجها من واقعة زوجة ثابت بن قيس . جاء فى البخارى وفى الموطأ وغيرهما من كتب الأحاديث قال البخارى ، قال ابن عباس : ان امرأة ثابت بن قيس بن شماس أتت النبى صلى الله عليه وسلم فقالت يا رسول الله ، ما أعيب عليه فى خلق ولا دين ولكن أكره الكفر فى الاسلام فقال رسول الله صــلى الله عليه وســلم « أتردين عليه حديقته » ؟ قالت نعم ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اقبل الحديقة وطلقها تطليقة » . وزاد البخــارى فى بعض روايات الحديث التى أوردها قولها ، أى زوجة ثابت بن قيس (لا أطيقه) يعنى بغضا ، فها نحن أمام زوجة اعتبرت أن استمرار حياتها الزوجية مع زوجها توشك أن تؤثر على ايمانها وخافت أن تكفر فأصبح الطلاق فى هذه الحالة هو أخف الضررين .

الخلع يتم بالرضاء أو القضاء :

وعندنا أن استعمال القرآن الكريم للفظ « خفتم » بعد استعماله لفظ « يخافا » والضمير فى « يخافا » يعود الى الزوجين ، وفى « خفتم » هو ضمير المخاطب بالقرآن وهم جماعة المؤمنين

بكل انظمتهم ، فأصبح الزوجان يدخلان فى المخاطبين ، فان اتفقا وتراضيا فاتفاقهما صحيح ونافذ ولا اثم فيه ، كما أن الخطاب موجه للوسطاء والولاة والحكام بحيث تستطيع المراة أن تلجأ لهم وأن يفصلوا هم فى موضوع «الخلع» على تفصيل تراه فى كتب السنة حيث صور المباحث حول المقدار الذى يمكن أن تدفعه الزوجة ويقبله الزوج فى غير اثم ولا حرج ، ايجب ان يظل فى حدود ما دفع أم يمكن أن يطلب ويأخذ زيادة ؟ .

وثمة مبحث آخر يدور حول طبيعة الخلع أهو طلاق يحسب فى عداد الطلقات الثلاث وتسرى عليه احكام الطلاق ؟ فليتلمس من يود معرفة فى موضعه من كتب الفقــه .

دفع شنشنة وسفسطة :

اما نحن فنكتفى بدفع الشنشنة والسفسطة التى يرددها المتشدقون فى عصرنا الحاضر : لماذا كان من حق الرجل ان يطلق بارادته المنفردة حيث لا تســتطيع المراة ذلك ولابد لهـا من الحصول على موافقة الزوج أو حكم من المحكمة ؟ ، والرد على ذلك سهل وميسور وتعرفه كل أنثى من نفسها ، فقد خلق الله المراة واعدها لأهم واقدس وظيفة فى الحياة وهى « الأمومة » ولكى تؤدى المراة رسالتها فى الحياة جعل العاطفة هى أقوى ما عندها ، فلو اعطيت المراة حق الطلاق لمـا علم سوى الله ماذا تكون النتائج ، وحقا قد يوجد من الرجال من تغلب على تصرفاته العاطفة ولكن الرجال بصفة عامة اكثر تحـكما فى عواطفهم ، فضـلا عن انه بموجب الشريعة الاســلامية أن يدفع الزوج المهر وان ينفق على زوجته وقد رأينـا كيف يحـرم الله عليه أن لا يسترد شيئا مما دفع ومن هنا فسوف يفكر مرتين قبل أن يطلق .

فليس الا من قبيل السفسطة محاولة تجاهل الفوارق الطبيعية والاجتماعية ، والمهم ان الله سبحانه وتعالى فتح الطريق امام المراة « لفض الشركة الزوجية » فى حالة الخوف من عـدم اقامة حدود الله .

« تلك حدود الله فلا تعتدوها ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون » .

اى تلك هى شرائع الله التى شرعها لكم فحذار أن تتجاوزوها فتكونوا معتدين على الحدود التى وضعها الله .

جاء فى الحديث الصحيح : « ان الله حد حدودا فلا تعتدوها وفرض فرائض فلا تضيعوها وحرم محارم فلا تنتهكوها وسكت عن اشــياء رحمة بكم غير نسيان فلا تسألوا عنها » .

فعندما يفصل القرآن الكريم احكام الطلاق فهى احـكام ابدية لكل زمان ومن يخــرج عن نطاقها فقد ظلم نفسه فى الدنيا والآخرة ، فى الدنيا بأنه لن ينشـأ عن مجاوزة حدود الله الا كل فساد ومضرة وفى الآخرة نتيجة العدوان على حـدود الله .

« فان طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غـيره فان طلقها فلا جنــاح عليهما أن يتراجعا ان ظنا أن يقيما حدود الله » .

ذكرنا فيما تقدم ان الطلاق ثلاث مرات فلما سأل سائل من اين جىء بالثالثة مع أن الآية صريحة فى أن الطلاق « مرتان » فكان الجواب فى قوله تعالى « أو تسريح » وها هى ذى الآية الكريمة تتحدث عن التسريح بعد الطلقتين بأنه عين الطلاق ، ويؤكد ما ذكرناه من انه بعد هذه التطليقة الثالثة فقد انقطعت كل صلة بين المراة وزوجها نهائيا فلم يعد بقادر على أن يراجعها بغير عقد أو حتى بعقد جديد .

تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوۡجًا غَيۡرَهُۥۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۗ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوۡمٍ يَعۡلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾ وَإِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمۡسِكُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍۚ وَلَا تُمۡسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعۡتَدُواْۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوٗاۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡحِكۡمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿٢٣١﴾ وَإِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحۡنَ أَزۡوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوۡاْ بَيۡنَهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمۡ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۗ ذَٰلِكُمۡ أَزۡكَىٰ لَكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾ ۞ وَٱلۡوَٰلِدَٰتُ يُرۡضِعۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ حَوۡلَيۡنِ كَامِلَيۡنِۖ لِمَنۡ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَۚ وَعَلَى ٱلۡمَوۡلُودِ لَهُۥ

« حتى تنكح زوجا غيره فان طلقها فلا جناح عليهما ان يتراجعا ان ظنا ان يقيما حدود الله » .

هذه هى الحالة الوحيدة التى احل الله سبحانه وتعالى فيها ان تعود الزوجة الى زوجها الأول . والآية الكريمة تضع لذلك شروطا ثلاثة :

١ — أن تتزوج المطلقة ثلاثا زوجا آخر .

٢ — أن يطلقها الزوج الجديد وتنقضى عدتها .

٣ — أن يتراضى الطرفان على الزواج مرة اخرى اذا تصور انه قد انصلح حالهما ولن يعودا الى هذا الذى كانا فيه والذى ادى الى ما ادى اليه .

« ان ظنا أن يقيما حدود الله » .

وهكذا يعود القرآن الكريم لاظهار شديد حرصه على الحياة الزوجية السليمة المستقرة القائمة على حسن المعاشرة فبعد ان حرم المراة على زوجها الذى تكرر منه ايقاع الطلاق عليها ، عاد فاحلها له بعد ان تكون قد تزوجت انسانا غيره ثم انفصلت عن هذا الزوج الجديد فقد جعلها ذلك انسانة اخرى غير التى كانت ، كما ان زوجها الاول يكون قد راجع كل ما سلف منه، وأصبح امامه امراة غير تلك التى عرفها من بعد ان عرفت انسانا غيره وعاشرته معاشرة الأزواج ، فاذا راى الزوج الاول ان يعود لها بالرغم مما حدث فهذا هو الدليل على انه راجع نفسه وندم على ما سلف منه ونوى الا يكرر فعلته ، فاذا ما تراضى الزوجان على ان يستانفا حياتهما الزوجية بعد هذه التجربة ، فالصلح خير . ومن هنا فنحن نرى ان ما كان قد فشا فى بعض المجتمعات الاسلامية « فى فترة تدهورها » من اختراع نظام « المحلل » فيحضرون شخصا ليتزوج المطلقة ثلاثا ويشترطون عليه ان يطلق ، اقول ان ذلك تلاعب باحكام الدين وهو استمرار لحالة العبث التى اراد الله سبحانه وتعالى ان يردعها ونعنى بها كثرة الطلاق ، اما لو قبلنا فكرة «المحلل المتفق عليه» فيكون هذا هو عكس ما اراده الله سبحانه وتعالى ، وينقلب الى تشجيع على الطلاق الى ما لا نهاية ، ما دام ان اجراء شكليا بحتا يعيد المطلقة ثلاثا الى زوجها ليطلقها ثلاثا من جديد وهكذا ومن هنا تواترت الاحاديث عن رسول

الله صلى الله عليه وسلم بلعن المحلل والمحلل له، واجمع الفقهاء على بطلان عقد الزواج الذى يشترط فيه الطلاق لتعود الزوجة الى زوجهـا الاول . فلا خلاف على أن افتعال الزواج ليكون سبيلا « للتحليل » هو اجراء ملعون لعنه رسول الله .

المعـاشرة الزوجية :

ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم اشترط فى حالة الزواج الثانى حتى لو حصل بغـير تدبير أو اتفاق ان تتم فيه المعاشرة الزوجية ،وقد كنى عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم بأسلوبه الذى يكتفى فيه بالاشارة التى تغنى عن التصريح فقال ابن عمر : « سئل النبى صلى الله عليه وسـلم عن الرجل يطلق امـرأته ثلاثا فيتزوجها آخر فيغلق الباب ويرخى السـتر ثم يطلقها قبل ان يدخل بها هل تحـل للأول قال لا حتى تذوق العسيلة » .

ويبـدو ان اقواما ارادوا التثبت من معنى العسيلة فقالت السيدة عائشة رضى الله عنها قال رسـول الله صلى الله عليه وسـلم « العسيلة هى الجماع » اى أن الزوج الجـديد يجب أن يجامع زوجته فهذا هو بيت القصيد من هـذا الزواج الجديد ، تجربة جديدة ودنيـا جديدة ، يختبر فيها الزوج الذى طلق ثلاثا والزوجة التى تزوجت رجلا جديدا ، اذا طلقت من جديد أهى على استعداد أن تعود لزوجها الاول ، كما يسـائل الزوج الأول نفسـه أهو على استعداد بعد أن عاشر شخص غيره زوجته معاشرة الأزواج ثم طلقها ، أهو مستعد رغم ذلك أن يستأنف معها الحياة الزوجية ؟ فاذا استوثق الاثنان من نفسيهما فلا مانع من أن تعود الحياة الزوجية ، والقول بغير ذلك يكون لونا من ألوان العبث وتنزه الله سبحانه عن العبث ومن هنا اشـترط رسول الله صلى الله عليه وسـلم استيفاء الزواج الجديد بالمعـاشرة الزوجيـة المعتـادة .

وتلك حدود الله يبينها لقوم يعلمون :

لا نحسب أن التذكير بحدود الله ووجوب مراعاتها وعـدم تجاوزها قـد تكرر فى أمر تكرره فى هذه الآيات اشارة من الله عز وجل لخطورة موضوع الزواج والطلاق وان كل ما يتصل به يجب مراعاته بكل دقة « لقوم يعلمون » أى لمن تلقوا العلم بهذه الحـدود وعرفوها وما دام القرآن قائما يبين هذه الحدود فالعلم بها فرض على المسلمين والعمل بها وعـدم تجاوزها من أوجب الواجبات .

« واذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف » .

بعد ان فصل القرآن الكريم حكم الزوجة التى طلقت ثلاثا وكيف تحرم على زوجها الا بعد أن تتزوج انسانا آخر وتطلق منه ، عاد ليفصل بعض أحكام الطلاق قبل « الثلاث » فقضى أنه عقب التطليقة الأولى أو الثانيـة حيث لا تزال والنتائج الزوجية قائمة الى حد ما ، فالقرآن الكريم يطالب الزوج — الذى طلق — بواحد من اثنين :

— امساك بمعروف

— أو تسريح بمعروف

والامساك بالمعروف يعنى مراجعة الزوجة الى عصمة الزوج قبل انقضاء عدتها واستئناف الحياة الزوجية فى ود وتعاون وحسن معاشرة ،والا فان كانت الثانية وعزم الزوج على ضرورة

الطلاق فالقرآن الكريم يأمره — حتى فى حالة الانفصال — أن يحسن معاملة زوجته السابقةوقد مر بنا هذا التوجيه الالهى فى الآية السابقة « فامسكوهن بمعروف او سرحوهن بمعروف » ، ونفهم من هذا التكرار ان المعاملة بالمعروف والاحسان واجبة فى كل الاحوال وان الله سبحانه وتعالى ينهى عن كل انواع الاساءات ويخص بالذكر لونا من الوان المساءات اعتاد بعض الأزواج فى كل عصر ومكان ان يفعلوه كيدا فى نسائهم فيقول تعالى وقوله الحق : « ولا تمسكوهن ضرارا لتعتدوا ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه » .

جمهور المفسرين على أن هذه الآية الكريمة اشارة الى الحالة التى كان البعض يتبعها من تطليق زوجته ومراجعتها قبل انتهاء العدة بيومين أو ثلاثة ثم يعود فيطلقها وبهذا تطول عدتها وقالوا ان الآية الكريمة نزلت لهذا السبب ، أما نحن فقد شرح الله صدرنا للمعنى العام الذى تنطق به الآية الكريمة ، ذلك ان هذا المعنى الخاص « بتطويل امد العدة » قد تكفلت به الآية السابقة عندما نصت على أن الطلاق « مرتان » وبهذا حالت دون تكرار هذه المضرة أكثر من مرتين ، وتكون هذه الآية بمعناها العام المستفاد من الفاظها فالزوج مدعو اذا اختار ان يمسك بزوجته ويبقيها فى عصمته ، ان يفعل ذلك بنية حسنة وهى انه سيحسن معاشرتها ويقوم بواجبها وهذا هو معنى الأمر « فأمسكوهن بمعروف » اى لا يكون الامساك ، بمعنى مراجعة الزوجة مقصودا به مجرد الايذاء والمعاندة والمكايدة فالأساس فى العشرة الزوجية هو المعروف ، والمعروف هو الود والتراحم والتعاون بين الزوجين ، فاذا انعدم هذا الأساس فقد تحولت الحياة الزوجية الى اكبر منغص فى الحياة ، وهو يصف الزوج الذى لا يبقى على زوجته الا للاضرار بها بالاعتداء وذلك مستفاد من قوله تعالى : « ولا تمسكوهن ضرارا لتعتدوا » .

ذلك هو المعنى العام الذى فهمناه بتوفيق من الله من الآية على خلاف ما قاله القرطبى وآخرون من أن نزول الآيتين المذكورتين كان فى معنى واحد متقارب .

« ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه »

أى أن كل زوج لا يبقى على زوجته الا للاضرار بها « بصفة عامة » فذلك اعتداء ويكون الزوج قد « ظلم نفسه » لانزاله على نفسه عقوبة المعتدى « ان الله لا يحب المعتدين » .

« ولا تتخذوا آيات الله هزوا »

ويمضى القرآن الكريم ليبين للناس قدسية الزواج وانه يجب معالجة كل أمر يتصل به عن قرب أو بعد على سبيل الاحتراز والجد فلا يصح للمؤمن أن يتلاعب بالفاظ الزواج والطلاق، فقد قالوا فى سبب نزول هذه الآية : ان الرجل كان يتزوج ويطلق ثم يقول انما كنت لاعبا ، فنزلت هذه الآية الكريمة تحذر من فعل ذلك ثم جاء الحديث الشريف بما يؤكد معناها فى صدد الزواج والطلاق وانه لا هزل فى الزواج والطلاق .

أخرج أبو داود عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

« ثلاث جدهن جد وهزلهن جد ، النكاح والطلاق والعتاق » .

وروى هذا الحديث بصيغ أخرى ولكن الصيغ كلها نصت على أن الزواج والطلاق لا يجوز العبث بالفاظهما .

عمومية الآية :

وغنى عن البيان أن ورود هذه الآية الكريمة « ولا تتخذوا آيات الله هزوا » وسط الحديث عن الزواج والطلاق ، لا يجعلها قاصرة على هذا الموضوع بل هى عامة شاملة لكل شىء فلا يجوز اتخاذ آيات الله هزوا أى « سخرية » سواء فى موضوع الزواج أو غير الزواج .

« واذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به » .

يذكر الله المؤمنين — فى كل زمان ومكان الى ابد الآبدين ما بقى قرآن يتلى — بنعمة الهداية الى الاسلام ونزول القرآن الكريم على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ليكون مع سنة النبى التى هى شرح وتبيان لما جاء فى الكتاب ، فسنة سيدنا محمد هى نور من نور الله وهى ذروة ماعرف البشر من حكمة وما اراد الله سبحانه وتعالى من ذلك كله الا خيرنا وصلاحنا نحن عندما نتبع أوامره وننتهى بنواهيه « يعظكم به » .

« واتقوا الله واعلموا ان الله بكل شىء عليم » .

فمتى آمنتم بأن بعثة رسول الله حق وان مخاطبتنا بالقرآن المنزل من السماء هو فضل من الله ونعمة اريد به هدايتنا وخيرنا فليكن شكر النعمة بتقوى الله اى بالبعد عما يغضبه ويعرضنا لعذابه وذلك يكون باتباع كل ما يأمرنا به .

« واعلموا ان الله بكل شىء عليم » .

اى عليم بالنوايا وما تخفى الصدور فلا يتصورن متصور انه قادر على ان يضمر فى نفسه خلاف ما يعلن فيغيب ذلك عن علم الله .

« واذا طلقتم النساء فبلغن اجلهن فلا تعضلوهن أن ينكحن ازواجهن اذا تراضوا بينهم بالمعروف ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر ذلكم ازكى لكم واطهر والله يعلم وأنتم لا تعلمون » .

تعضلوهن : اى تمنعوهن من العودة الى ازواجهن .

اكثر المفسرين والفقهاء يكتفون باستخلاص ما فى هذه الآيات من احكام فيقررونها دون ان يلاحظوا المعنى العام طويلا امام موضوع الطلاق ، وسوف ترد علينا الآية التالية لتقرر قواعد الرضاعة لتعود الآيات من جديد لتعالج موضوع الطلاق من شتى زواياه وآثاره ، وذلك كله اشعار من الله سبحانه وتعالى لنا بخطورة الطلاق .

وقد بين الله تعالى حق الزوج فى مراجعة زوجته بارادته المنفردة ما دامت لا تزال فى مدة « العدة » وليس للزوجة — فضلا عن اى انسان آخر — أن تحول دون ذلك ما دام الطلاق لم يزد عن مرتين فاذا تجاوز الطلاق ثلاث مرات فهنا لم يعد بقدرة الزوج أن يراجعها الا بعد ان تتزوج انسانا آخر ثم ينفصل عنها بالطلاق أو الموت فهنا اباح الله سبحانه وتعالى ان تعود لزوجها الأول طبقا للتفصيل الذى مر بنا .

« فاذا بلغن اجلهن »

اما هذه الآية الكريمة التى نحن بصددها فهى تشير الى حكم الزوجة بعد ان تستوفى « العدة » ففى هذه الحالة يسقط حق الزوج فى مراجعتها بالارادة المنفردة ويصبح الطلاق

بائنا بينونة صغرى على ما يقول الفقهاء بحيث لا تعود الى زوجها الا بعقد جديد وذلك مستفاد من قول الآية « اذا تراضوا بينهم بالمعروف » اى ان رضا الزوجة فى هذه الحالة اصبح شرطا للعودة الى زوجها ، حتى لو اراد ان يراجعها قبل انتهاء العدة ، لما توقف هذا على رضاها. ومتى تراضى الزوجين على استئناف الحياة الزوجية فهذا التراضى هو العقد وحيث يقول القرآن الكريم « وبعولتهن احق بردهن » فهو هنا يحذر كل ذى شأن ان يحول بين الزوجة وبين أن تعود لزوجها .

وقد روى البخارى وغيره فى سبب نزول هذه الآية عن معقل بن يسار قال : « كانت لى اخت فأتانى ابن عم لها فانكحتها اياه فكانت عنده ما كانت ثم طلقها تطليقة ولم يراجعها حتى انقضت عدتها فهويها وهوته ثم خطبها مع الخطاب فقلت له : يا لكع .. اكرمتك بها وزجتكها ثم طلقتها ثم جئت تخطبها والله لا ترجع اليك ابدا ، وكان رجلا لا باس به وكانت المراة تريد ان ترجع اليه فعلم الله حاجته اليها وحاجتها الى بعلها فانزل الله هذه الآية ، قال ففى نزلت هذه الآية فكفرت عن يمينى وانكحتها اياه » .

وهذا السبب يوضح القاعدة التى اصبحت ازلية ، وهو ان لا يحال بين الزوجة وبين ان ترجع الى زوجها اذا تراضيا « بالمعروف » .

« ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر ذلكم أزكى لكم واطهر والله يعلم وانتم لا تعلمون » .

غنى عن البيان أن القرآن اذ يخاطب بأمر فهو يأمر المؤمنين باسلوبه البلاغى الذى يصل به الى قلوب المؤمنين فهو هنا يذكر بالايمان بـ « اليوم الآخر » وما فيه من حساب وثواب وعقاب ويزيد على ذلك ان التصرف على هذا الوجه هو الأزكى والأطهر لقلوبكم .

« والله يعلم وانتم لا تعلمون » .

أى يعلم ما فيه الخير لكم وما يقوم عليه صلاح امركم ما لا تعلمونه .

مبحث عام فى آية الارضاع :

السؤال الذى يرد على الخاطر بمجرد سماع الآية الأولى الخاصة بالارضاع ، من هن المخاطبات بهذه الدعوة الى ارضاع ابنائهن ؟ ، أهن مطلق الامهات زوجات كن او مطلقات ؟ ام ان الخطاب خاص بالمطلقات ؟ وقبل أن نجيب على هذا التساؤل من وجهة نظرنا نريد أن نلفت النظر أولا وقبل كل شىء أن لا يستند قارىء على ما سوف نقوله لاستخلاص الحكم الشرعى فى موضوع الرضاعة وكل ما يتصل بها، فالاحكام الشرعية لها مصادرها ومذاهبها الأربعة الكبرى وغيرها .

فليلتمس من يريد الحكم الشرعى من مصادره، ، اما نحن فنقف عند حد ما نفهمه من الآية التى نحن بصددها ، ونحن لا نسمح لانفسنا بأن نفهم ما نفهمه الا على ضوء قول من سبقونا بتفسير القرآن ممن اعترف لهم بالعلم والتقوى معا ، وعلى هذا الأساس فقد اخترنا قول من قال : ان الخطاب هنا موجه للمطلقات ، حيث يرى آخرون ان الخطاب موجه بصفة عامة لكل أم سواء كانت مطلقة او غير مطلقة .

يقول القرطبى فى تفسيره :

« ولمـا ذكر الله سبحانه النكاح والطلاق ذكر الولد لأن الزوجين قد يفترقان وثم ولد ،فالآية اذن فى المـطلقات اللائى لهن أولاد من أزواجهـن ،قاله السدى والضحاك وغيرهما .

اى هن احق بارضاع اولادهن من الأجنبيات لأنهن أحن وارق ، وانتزاع الولد الصغير اضرار به وبهـا وهذا يدل على ان الولد وان فطم فالأم احق بحضانته لفضل حنوها وشفقتها وانما تكون احق بالحضانة اذا لم تتزوج على ما يأتى » .

واذا كان هذا هو قول البعض من القدامى فقد اختاره كذلك من المحدثين الشيخ رشيد رضا فى تفسير المنـار .

ولا نرى من وجهة نظـرنا اى تعارض من الناحية العملية بين ان القول موجه الى الأمهات بعامة أم الى المطلقات منهن بخاصة ، ففضلا عن أن نص العبـارة عام مطلق « والوالدات يرضعن » فالقول بأن المقصود بالخطاب هن المطلقات فان انسحاب القول على غير المطلقات يصبح من باب اولى ، لأنه اذا كان على الأم أن ترضع طفلها بالرغم من انفصالها عن زوجها بالطلاق وما قد يسببه ذلك من خلاف بين الزوجين فان الله سبحانه وتعالى يطالب « الأبوين » أن لا يمتد هذا الخلاف الى الطفل بأى حال من الأحوال ، فحق الأم هو فى ان ترضع طفلهـا فى كل الأحوال ، وهو واجب كذلك فى بعض الأحوال « يحددها الفقه » .

لماذا نخص الخطاب بالمطلقات :

ويصبح من حق القارىء أن يسألنا ، لمـاذا اخترنا ان يكون القول موجها للمطلقات ما دامت النتيجة واحدة والحكم ينسحب على كل الأمهات ؟ والجواب على هذا التساؤل هو ان سياق الآية « فى فهمنا » يصور لنـا علاقة مستقلة بين الأب والأم نتيجة الطلاق بحيث جاءت الآية « فى حدود فهمنا والله اعلم » لتنظيم هذه الحالة عندما يكون الأمر خاصا « بطفل رضـيع » فجاءت الآية لتحدد :

١ ــ ان أم الطفل هى صاحبة الحق الأول فى ارضاعه .

٢ ــ وانها تستحق على « المولود له » فى مقابل ذلك رزقها وكسوتها بالمعروف .

٣ ــ وان اقصى المدة فى هذه الحالة « حولين كاملين » .

٤ ــ ان الأب والأم يستطيعان اذا اتفقا « عن تراض منهما وتشاور » ان يقصرا هذه المدة ويفطما الولد قبل الحولين .

٥ ــ ان باستطاعتهما كذلك ان يتفقا على أن ترضع الطفل مرضعة اخرى غير الأم .

٦ ــ ان العمدة فى ذلك كله ان لا يضـار الطفل أو احد من الابوين .

ونحن نرى أن كل هذه الأحكام هى حدود وتشريع منظم لفض المنازعات ، ومن هنـا فهى اقرب الى الانطباق فى حالة الطلاق حيث الخلاف متصور . أما عند قيام الزوجية فلا نحسب ان موضوع ارضاع الطفل ومن يتولاه وما هى مدته فهو أمر تنظمه الغريزة الجبلية ، والمولود هو محور حياة الأبوين بالفطرة والمراة تقوم بوظيفة الارضاع لا عن طريق الأوامر والتشريع وانما عن طريق الطبيعة البحتة ، فلا تكاد الأم تلد طفلها حتى يمتلىء ثدياها باللبن ، والطفل قبل ان يرى او يسمع ، يعرف بالطبيعة كيف يلتقم ثدى أمه وكيف يفرغه من اللبن وتصاب الأم بآلام لا تطاق اذا لم يفرغ الطفل ما فى ثدييها من لبن انزله الله خصيصا لارضاع المولود ، ومن هنـا

فقد اخترعوا فى العصر الحديث اجهزة بتخليص الأم التى لا ترضع طفلها من اللبن الذى يملأ ثدييها بمجرد ميلاد الطفل .

فعملية ارضاع اى ام لطفلها تتم بحكم الطبيعة ولا تقوم الحياة الا عليها ، والام لا تستحق هذه المكانة العالية ، الا بمقدار ما حملت الجنين فى احشائها ثم بعد ان ولد امدته بالغذاء من ثدييها وهذا هو الذى جعلنا نختار قول من قال ، ان الحديث موجه الى المطلقات وهو بعد ذلك عام يشمل جميع الأمهات ، ولنتتبع الآن الفاظ الآية واحكامها .

« والوالدات يرضعن أولادهن »

آلينا على انفسنا مذ شرعنا فى هذا التفسير ان نقف دائما امام كل ما يظهر ان هذا القرآن ليس الا تنزيلا من رب العالمين ، وان سيدنامحمدا صلى الله عليه وسلم تلاه على البشر بكل أمانة وصـــدق .

فنحن نعلم من سيرة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم انه كانت له مرضعة ، هى السيدة حليمة السعدية وذلك جريا على التقليد الذى كان يتبعه اشراف مكة ، وهو أن يعهدوا باطفالهم الى المراضع من أهل البادية ومع ذلك فها هى الآية الكريمة تقرر الأصل الجبلى الطبيعى وهو أن الأمهات يرضعن اطفالهن والقول على ان الآية ــ وأن جاءت باسلوب الخبر ــ فالمراد انها على جهة الوجوب عند عدم وجود المانع . وفى عصرنا الحـــديث حاولوا تحت ضغط اشـــتغال المرأة الأوروبية والأمريكية بالأعمال وعدم تفرغها وبالتالى عدم قدرتها على ارضاع طفلها ، أن يتفلسفوا باسم العلم وان يتحدثوا عن تغذية الطفل باللبن الصناعى وانهـــا تساوى التغذية الطبيعية عن طريق لبن الأم ، بل وتطرفوا فى وقت من الأوقات فقالوا ان اللبن الصناعى المعقم والمضاف اليه عناصر حيوية « فيتامينات » يفوق لبن الأم ، واخيرا انتهت هذه السفسطات وقررت المؤتمرات أن لا يعدل لبن الأم شىء فى العـــالم ابدا وانه لا يمد الطفل بالغـــذاء الكافى والملائم لطبيعته فحسب ، بل انه يحصنه فوق ذلك من « النزلات المعوية » وشتى صنوف الأمراض المماثلة ، وهكذا يثبت القرآن دائما انه اذا نطق فهو ينطق بالحق الابدى والازلى ويشرق العلم ويغرب لينتهى الى ما انتهى اليه القرآن الكريم من أن اصل الأصول هو أن ترضع الأم طفلها حولين كاملين لمن اراد أن يتم الرضاعة .

الحول : السنة ، والأصل اللغوى من حال الشىء اذا انقلب فالحول منقلب من الوقت الاول الى الثانى ويكون معنى الآية ان الرضاعة الكاملة للطفل تستغرق عامين كاملين اى اربعة وعشرين شهرا ، ولـــا كان القرآن الكريم قد ذكر فى آية اخرى « سورة الاحقاف » « وحمله وفصاله ثلاثون شهرا » ولما كان الأغلب والاعم فى حالة الحمل هى تسعة أشهر . فأن مدة الارضاع فى هذه الحالة تكون واحدا وعشرين شهرا فقط فدل ذلك على ان التعبير بـــ « حولين كاملين لمن اراد ان يتم الرضـــاعة » قد أريد به حســـم النزاع فى موضوع الارضاع عند الخلاف فجعل حده الأقصى فى كل الأحوال « حولين كاملين » فلا يعود يحق للأم التى ترضع المطالبة بالرزق والكسوة فى مقابل الرضاعة فيما زاد على الحولين وهو ما نص عليه الجزء التالى من الآية .

رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ

« وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف لا تكلف نفس الا وسعها »

المولود له : اى الأب والد الطفل .

رزقهن : أى الانفاق عليهن .

بالمعروف : اى بالمتعارف وما جرت به العادة

وسعها : اى طاقتها وقدرتها .

كان هذا التكليف بفرض النفقة على والد الطفل للأم التى ترضع طوال عامين من الاسباب التى جعلتنا نختار ان الحديث هنـا خاص بالحالة عند الطلاق حيث يصبح من المتعين على الأب « المولود له » ان ينفق على الأم مقابل ارضاع الطفل ، بالرغم من حصول الطلاق ، ذلك ان نفقـة الأم فى حالة قيـام الزوجية واجبة فى كل الأحوال سواء ارضعت او لم ترضع وعندنا ان هذه الآية الكريمة تتضمن ذات الحكم الوارد فى سورة الطلاق حيث يقول تعالى عن المطلقات :

« وان كن أولات حمل فانفقوا عليهن حتى يضعن حملهن فان ارضعن لكم فآتوهن اجورهن وائتمروا بينكم بمعروف » .

ويكون التعبير بكلمة « اجورهن » هو عين المقصود « برزقهن وكسوتهن » فالاجر معناه كل ما يكفى للنفقة من طعام وشراب وملبس ، وذلك فى حدود المتعارف ، وبما لا يخرج عن طاقة المكلف بالانفاق .

ومراعاة « الوسع » بمعنى الطاقة والقـدرة أصل من الأصول الثابتة فى كل شىء ابتداء من العبادات وانتهاء بالمعاملات .

« لا يكلف الله نفسا الا وسعها » .

وهذا الوسع بمعنى الطـاقة يتحدد بقدرة الأب « المولود له » قال تعالى فى سورة الطلاق : « لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله لا يكلف الله نفسـا الا ما آتاها » .

« لا تضار والدة بولدها ولا مولود له بولده »

يتحدث هذا الجزء من الآية ، عن الضرر الذى يمكن ان يصيب احد الأبوين من ميلاد الطفل ويقرر القاعدة الأساسية فى الشريعة الاسلامية « لا ضرر ولا ضرار » وهذا ما جعلنا نقرر منذ

البداية ان سياق الآية جعلنا نفهم ان الآية الكريمة تخاطب الزوجين بعد الطلاق والانفصال ذلك ان المولود عند قيام الزوجية هو غاية الغايات من الزواج ، وهو قرة عين الأبوين ومصدر سعادتهما وموثق الرابطة بينهما ، وانما تقوم المظنة فى أن المولود قد يسبب ضررا فى حالة الانفصال ومن هنا يقرر الله سبحانه وتعالى أن لا يكون الطفل مصدر اضرار بأحد الأبوين ، على أن ذلك لا يعنى بحال الاضرار بمصلحة الطفل فمصلحة الطفل هى التى يجب أن تراعى فى الدرجة الأولى واذا كان القرآن الكريم قد سكت عن الاشارة الى ذلك فلأن رعاية الأبويين للطفل الى حد التضحية بالذات « أحيانا » غريزية وانما الذى اراه جديرا بالتنبيه اليه أن لا يكون الطفل مصدر ضرر لاحد من أبويه ، وغنى عن البيان ان المبدأ « لا ضرر ولا ضرار » ينص عليه هنا بمناسبة موضوع « الارضاع » فيجب أن يتم اى ترتيب خاص بارضاع الطفل بما يحقق :

— مصلحة الطفل فى الدرجة الأولى « وهذه مسألة تتم بحكم الطبيعة اى سنة الله فى خلقه .

— على أن يتحقق هذا بحيث لا يكون مصدر ضرر بواحد من الأبوين .

« وعلى الوارث مثل ذلك »

اى انه على « الوارث » رزق الأمهات اللواتى يرضعن وكسوتهن بالمعروف ، وقد دار خلاف كبير بين المفسرين والفقهاء حول من هو المقصود بـ « الوارث » فقال البعض : وارث الأب اذا مات ، « ونحن الى هذا الراى اميل » وقال بعض آخر انما المقصود هو الطفل نفسه ، بينما ذهب البعض الى حد القول بأن المقصود هو وارث الطفل ونحن نرى أن ذلك كله من مباحث الفقه ، ولكن ما نفهمه من القول الذى نحن بصدده ، هو ما اشرنا اليه من قبل وهو أن المقصود بالوارث ، من يرث الأب المكلف بالنفقة « رزقهن وكسوتهن » .

« فان ارادا فصالا عن تراض منهما وتشاور فلا جناح عليهما » .

فى فهمنا أن لا يزال سياق الآية يتحدث عن حالة زوجين فرق بينهما الطلاق ، حيث ثمة طفل رضيع ، فبعد أن حددت الآية حدا نهائيا لأقصى الرضاعة « حولين كاملين » مضت الآية الكريمة لتبين ان ذلك ليس امرا الهيا لا تجوز مخالفته ، فاذا شاء الابوان ان يتفقا على فطام الطفل « عن تراض منهما وتشاور » أن يقصرا من مدة الرضاعة « فلا جناح عليهما » اى فلا اثم عليهما .

الشورى من روح الاسلام :

ولابد ان نفرد فى مناسبة قادمة بحثا مطولا عن الشورى فى الاسلام ومع ذلك فليس يسعنا الا أن نلفت النظر هنا بكل قوة الى ان مجرد عملية «فطام طفل» عن الرضاعة يحتاج الى تشاور واتفاق بمحض الرضا الكامل ، وهذا ما يجعلنا نتصور أن الحديث للابوين بعد أن استقل كل منهما عن الآخر فأصبح لا مناص من أن يتشاورا ويتراضيا عن اى أمر يتعلق بأرضاع الطفل ليس فقط بالنسبة للفطام ، ولكن بالنسبة لأن تتولى ارضاع الطفل امراة اخرى .

« وان أردتم أن تسترضعوا أولادكم فلا جناح عليكم اذا سلمتم ما آتيتم بالمعروف » .

انتقلت الآية الكريمة الى ذكر حالة ما لورؤى لأى سبب من الأسباب ان يعهد « لأجنبية » بارضاع الطفل ، فهنا لا مناص بطبيعة الحال من رضاء الطرفين واتفاقهما فحق الأم فى الارضاع

حق مقرر « والوالدات يرضعن أولادهن » ولكن الله سبحانه وتعالى كما اجاز الانفاق على نظام الطفل فى اقل من عامين ، متى اتفق على ذلك بين الأبوين عن « تراض منهما وتشاور » فقد الحق بذلك حـالة ما اذا اتفق الأبوان على أن تتولى أجنبية « الارضـاع » وفى هذه الحالة اشترط الله سبحانه وتعالى أن يسلم « الأب » فى هذه الحالة اجر الرضاعة لمن قبلت ارضاع الطفل « بالمعروف » مع كل ما تحتمله كلمة « بالمعروف » من معان واشعاعات ، أى باللطف والسماحة ، وقال بعضهم أى بالمتعارف عليه أى اجر المثل وكل ذلك مفهوم ومطلوب رعاية لصالح الطفل من ناحية وتطمينا لقلب الأم من ناحية اخرى وهى أن المرضعة « الظئر » التى ستقوم بارضاع الطفل ، ستفعل ذلك عن رضا وارتياح بعد أن استوفت اجرها « بالمعروف » .

« واتقوا الله واعلموا ان الله بما تعملون بصير »

وتنتهى الآية بما تنتهى به آيات الأحكام وهى التخويف من اغضاب الله باتقاء عذابه وناره والتذكير بأن كل أعمال الانسان الظاهرة والخفية حتى النوايا وما تنطوى عليه خفايا النفس ، فان الله سبحانه بصير بذلك كله أى محيط به عن طريق علمه اللا نهائى .

« والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهن اربعة اشهر وعشرا فاذا بلغن أجلهن فلا جناح عليكم فيما فعلن فى انفسهن بالمعروف » .

مفـــردات :

والذين يتوفون منكم : أى يتوفاهم الله . ويذرون ازواجا : أى يتركون زوجات . يتربصن أى لا يتزوجن .

اعلاء شان المراة وتاكيد شخصيتها :

وهذه آية اخرى من الآيات التى جاء بهـا القرآن الكريم وسط مجتمع كان يهبط بالمراة الى دون مستوى الحيوان فكان يعتبرها شيئا يتصرف به الرجل كيف يشاء حتى لقد كان الابن يرث فيما يرث زوجات ابيه الى غير ذلك مما مر أو سـيمر بنـا كواد البنات وهن اطفال للتخلص من عارهن ، ومن هنا نستطيع أن نتصور ما الذى كانت عادات الجاهلية تفرضه على المراة العربية اذا مات زوجها ، وفى تفسير المنـار اورد الشيخ رشيد رضا نماذج لمـا كان يتبع ، وحسب المراة أن يتذكر الحال عند الهنود مثلا حيث يحرقون ارملة المتوفى مع جثة زوجها ، وكل ذلك يصـور لنـا نظرة المجتمع الانسانى القديم بعامة الى المرء يتذكر الحال عند الهنود مثلا حيث المجتمعات حتها فى الحياة من بعده . وجاء الاسلام ونزل القرآن فانظر الى أى مكانة رفع اليها شأن المراة وأكد لهـا شخصيتها واستقلالها وحريتها ، فاذا مات زوج المراة فقد وجب عليها أن « تحد » على زوجهـا « اربعة اشهر وعشرا » وتحد هنـا أى تعتد ويسمون هذه الفترة عدة من مات عنها زوجها . ولكن الآية الكريمة استعملت لفظ « يتربصن » واصبح معناها « أن لا يتزوجن ثانية » ويضيف البعض أن يلازمن بيت الزوجية لا يبرحنه ، وثمة خلافات وتفصيلات فى كتب الفقه حول تحديد البيت الذى يلازمنه وعن الأحوال التى تبيح لهـا الخروج ، وهل الممنوع عليهـا هو الزواج فقط أم مجرد التزين والتطيب وهذه كلها من مباحث الفقه التى لا نخوض فيها ، ونكتفى بايراد الحديث الثابت عن رسـول الله فروى البخارى ومسلم عن أم عطية قوله صلى الله عليه وسلم : « لا تحد امراة على ميت فوق ثلاث الا على زوج اربعة اشهر وعشرا ولا تلبس ثوبا مصـبوغا الا ثوب عصب ولا تكتحل ولا تمس طيبا الا اذا طهرت نبذة من قسط أو اظفار » .

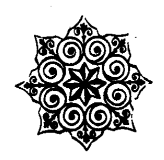
وثوب العصب هو نوع خاص من برد اليمن .

والنبذة : الشيء اليسير والقسط والاظفارنوعان من البخور .

كما روى البخارى حديث ام حبيبة وفيه انهاسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لا يحل لامراة تؤمن بالله واليوم الآخر ان تحد على ميت فوق ثلاث الا على زوج اربعة اشهر وعشرا » .

وهكذا بعد ان كانت المراة التى توفى عنهازوجها قد تحولت الى شيء كريه منبوذ ، فجعلها الاسلام سيدة نفسها من جديد بمجرد انقضاءاربعة اشهر « قمرية » وعشرة ايام ، فاذا بلغن اجلهن : اى بمجرد انتهاء هذه المدة ، فلا جناح عليكم فيما فعلن فى انفسهن بالمعروف ، اى لم يحق لأحد كائنا من كان ان يتدخل فيما يخترنه لانفسهن من زواج جديد ، او الانتقال من مكان الى مكان ، وغنى عن البيان انه يدخل فى ذلك « اى فى حرية المراة فى التصرف » ان لا تتزوج ثانية ، او ان تظل حزينة على زوجها المتوفى مدة اطول ، والمهم انهـا عندما تفعل ذلك تفعله بمحض اختيارها والشرط الوحيد أن يكون ذلك فى حدود المعروف .

والله بما تعملون خبير : وكما هو الشـأن دائما عقب اى تعليمات او توجيهات الهية يذكر القرآن الكريم بقدرة الله على معرفة كل شيءوحسابه عن كل شيء وهذه هى التقوى .



أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾ لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾ حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ

« ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء او اكننتم فى انفسكم علم الله انكم ستذكرونهن ولكن لا تواعدوهن سرا الا ان تقولوا قولا معروفا » .

مفـــردات :

لا جناح عليكم : لا اثم عليكم .

فيما عرضتم به : التعريض عكس التصريح وهو هنا بمعنى « التلويح » .

من خطبة النساء : الخطبة « بكسر الخاء » هى طلب الرجل المراة للزواج بالوسيلة المتعارف عليها بين الناس .

او اكننتم فى انفسكم : اى اخفيتم فى انفسكم .

علم الله انكم ستذكرونهن : يبين الله سبحانه وتعالى سبب رفعه الحرج ، ان هذا الذى يجول فى انفسكم ، يعلمه الله من ناحية ولا تملكون منعه من ناحية اخرى .

ولكن لا تواعدوهن سرا : ذهب المفسرون مذاهب شتى فى المقصود بهذه المواعدة فى السر ، وان المقصود بها هو الامتناع عن مجرد التكلم بالفحش فى حضرتهن الى حد مقارفة الزنا ولكننا نختار الراى الذى يقول : « لا تواعدوهن سرا » اى لا تتفقوا معهن على الزواج ، لان هذا المعنى هو الذى يتسق مع ما سبق هذه الجملة وما لحقها ، فقد رفع الحظر والاثم عن التلويح ، ثم نص فيما تلاها على امكان الزواج فاصبح المحظور هو الحديث الصريح عن الزواج فى اثناء « العدة » وعبر عن الزواج بالسر وهو تعبير مالوف ورد فى اشعار العرب واحاديثهم .

الأدب الالهى :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ادبنى ربى فاحسن تاديبى » وسئلت السيدة عائشة رضى الله عنها عن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فقالت : « كان خلقه القرآن » .

وفى هذه الآية التى نحن بصددها طرف من هذا الأدب الالهى وخلق القرآن الذى تادب به سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، ونتمسك به ونتحدى به الدنيا كلها التى تسارع نحو الدمار والخراب باساغتها الفوضى الجنسية وشيوع الفاحشة واعتبار ان اشباع الغرائز

واطلاقها على سجيتها هو اصل الاصول ، مع ان ذلك هو الحيوانية وقد افترق الانسان عن الحيوان عندما بدأ يضع الأنظمة لحياته ويضع القيود والحدود لممارسة هذا الشيء او ذاك ، هنا وهنا فقط بدأ الانسان يضع قدمه على سلم الحضارة والرقى الانسانى ، فالاستهتار المشاهد الآن على الصعيد العالمى بأنظمة الزواج والاسرة واطلاق العلاقات الجنسية من القيود هو ردة للهمجية ، ومن هنا فواجبنا نحن المسلمين ان يشهر فى وجه هذا الانحلال والتدهور ادبنا القرآنى واخلاقنا القرآنية .

حرمة العلاقات الزوجية :

وقد مر بنا وسيظل يمر علينا ونحن نستعرض سور القرآن مقدار تقديس القرآن للحياة الزوجية وها هو هنا بعد ان اعاد للزوجة التى مات عنها زوجها حرية ارادتها فى ان تبدأ حياة زوجية جديدة ، نراه حرص فى ذات الوقت على ان يظل الأمر فى حدود الكرامة والمحافظة على جلال ذكرى المتوفى والحرص على الآداب العامة .

فكان الادب الالهى الذى تضمنته هذه الآية والتى حظرت مخاطبة المراة التى مات عنها زوجها فى شأن الزواج مرة أخرى فور وفاة الزوج ، وأمر ان يتأخر ذلك « حتى يبلغ الكتاب اجله » أى حتى تنتهى المدة المحددة « العدة » ولكن لأن الله سبحانه وتعالى هو خالق الانسان والعالم بما هو عليه من ضعف ، علم أن البعض قد ينتوى فى نفسه زواج ارملة ، فراح القرآن الكريم لا يصادر هذا العزم ، ولكن يحوطه بالكرامة والمحافظة على الآداب العامة ونظام المجتمع ، فأباح مجرد التلميح بأكثر الألفاظ تهذيبا واحسانا وبعدا عن التصريح مما يدخل فى قوله تعالى : « الا ان تقولوا قولا معروفا » وهو أمر يختلف فى كل زمان ومكان والعمدة فى ذلك كله هو تقوى الله ، والالتزام بأوامره والانتهاء عن نواهيه ، وهو ما بينته الآية فى جزئها الاخير : « ولا تعزموا عقدة النكاح حتى يبلغ الكتاب اجله واعلموا أن الله يعلم ما فى انفسكم فاحذروه واعلموا ان الله غفور حليم » .

وهذا القسم من الآية يوضح ويؤكد ما جاء فى أولها من ان لا جناح على التلميح والتعريض فى حدود الأدب المتفق عليه فى المجتمع « الا ان تقولوا قولا معروفا » ولكن الاتفاق على الزواج فضلا عن اتمام الزواج بالفعل هو الحرام شرعا ولا يصبح حلالا الا بعد ان « يبلغ الكتاب اجله » اى بعد انتهاء مدة العدة « اربعة اشهر وعشرا » .

« واعلموا ان الله غفور حليم « .

والتحذير الذى تضمنته الآية من ان الله يعلم ما فى انفسكم قد تقدم الحديث عنه ، ولكن الاضافة التى اشتملت عليها الآية الكريمة من « ان الله غفور حليم » جديرة بأن نقف امامها قليلا ، فالله سبحانه وتعالى هو العالم بضعف الانسان وخاصة فى كل ما يتعلق بالغريزة الجنسية فهو يفتح الباب واسعا نحو توبة كل من اخطأ او تجاوز بتذكيره بأخص صفات الله فى حسابه لعبيده من انه غفور حليم .

« لا جناح عليكم ان طلقتم النساء ما لم تمسوهن أو تفرضوا لهن فريضة ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعا بالمعروف حقا على المحسنين » .

مفـــردات :

لا جناح عليكم : لا اثم عليكم .

ان طلقتم النساء : اى فصمتم عرى الزوجيةبانهاء عقد الزواج .

ما لم تمسـوهن : اى قبل أن تعاشروهنمعاشرة الازواج بالاتصال الجنسى ، وقد نبهنا فيما مضى كيف يؤدبنا الله ويعلمنا فيكتفى بالكناية عن الاتصال الجنسى بأرق الألفاظ والطفها وهو يكنى هنـا عن « الجماع » ، « بالمس » جاءفى القرآن الكريم على لسان مريم العذراء على سبيل التعجب عندما أخبرها جبريل أن سيكونلها ولد :

« انى يكون لى ولد ولم يمسسنى بشر » .

أو تفرضوا لهن فريضة : اى تزوجتموهن قبلان تحددوا مقدار المهر .

ومتعوهن : هذا هو الطلب الالهى فى حالةطلاق الزوجة التى لم يدخل عليها بعد ، أو لم يكن قد اتفق على مقدار مهرها ، ففى هذه الحالةيصبح من المتعين على الزوج « على خلاف بين الفقهاء » ان يمتع مطلقته ، والمتعة فى هذه الحالةهى مبلغ من المـال تعطاه المطلقة التى تحقق فيها هذان الشرطان« عدم الدخول بها وتسميةمقدار مهرها » .

« على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعا بالمعروف »

اى أن هذا القدر الذى يعطى من المال يجبأن يتناسـب وقـدرة الزوج من حيث اليسر والاعسار « الموسع » اى الغنى « والمقتر » اىالفقير ، ويستفاد من ذلك ان الزوج حتى ولو كان فقيرا فان هذا لا يعفيه من المتعة وكل ما فى الأمر أن تصغر الى حد قدرته ، فان دفع المتعة مظهر العرف والتآلف والفضل الذى يجب ان يسود علاقات المؤمنين .

« حقـا على المحسنين »

اتخذ بعض الفقهاء من تعبير « المحسنين »باعتبار ان الاحسان درجة رفيعة من درجات الاسلام قد لا يرقى اليها اى مسلم ، اقول انهماستندوا الى هذا التعبير لكى يقولوا عن المتعة انهـا مندوبة وليست واجبة وذلك من مباحثالفقـه ، ولكننا فى حدود الألفـاظ والتعبيرات القرآنية التى تواجهنا نرى أن التوجيه الالهى فىهذه الآية هو بذاته وبدرجته فى كل التوجيهات التى سبقت أو التى ستلحق فى موضوع الطلاق .

تأمل عام فى الآية الكريمة :

وقد دار بحث حول المقصود من رفع الجناح« الاثم » الذى بدات به الآية ، ما هو المقصود به ، واجمل ما طالعناه فى هذا الصدد هو أنرسول الله صلى الله عليه وسلم — على ما مر بنا — رغب عن الطلاق حتى وصل الى حد القولبأن « ابغض الحلال عند الله الطلاق » فلا عجب وهذا هو الأمر ، أن يتحرج مؤمن من الطلاق ،ولكن من ناحية اخرى فقد شرع الله الطلاق لمـا ينطوى عليه من حكمة وهو أن تقـوم الأسرةوتستمر على الارادة الحرة المختارة على سبيل الدوام ، ومن هنـا فهو يرفع الاثم عن الزوجالذى راى لسبب ما ، أن يطلق زوجته ، قبل ان يدخل عليهـا ، اذ لا جدوى من قيام حياةزوجية لا تكون قائمة على اساس مكين فأباح الطلاق .

ولـكن ...

وهنا يظهر سمو هذا التشريع الالهى الذىيبغى خير البشر ، وحصر الضرر فى اضيق نطاق ، فلا جدال ان طلاق اى امراة قبل الدخول بهـا— فضلا عن أنه سوف يسبب لهـا خيبة أمل

وحزن ، — وقد يصل الأمر الى حـد الانكسار والامتهان ، فقد يثير حولها القيل والقال ، حيث يتساءل النـاس عن السـبب الذى أدى الى الانفصال حتى قبل بدء الحياة الزوجية ، فجاء هذا التوجيه الالهى « بالمتعة » وان على الزوج « المحسن » فى هذه الحالة ان يطيب خاطر مطلقته بما يدفعه لهـا من « متعة » والحديث بقية فى الآية التالية :

« وان طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم الا ان يعفون او يعفو الذى بيده عقدة النكاح وان تعفوا اقرب للتقوى ولا تنسوا الفضل بينكم ان الله بما تعملون بصـير » .

نصف المهـر :

افترضت الآية السابقة أن يتم الطلاق قبل الدخول على الزوجة وقبل أن يكون قد اتفق على تقدير المهر فطلب من الزوج أن يمتع زوجته المطلقة وفى هذه الآية ينص على حالة ما اذا كان مقدار المهر معلوما وقد اتفق عليه ، ففى هذه الحالة يصبح من حق الزوجة المطلقة التى لم يدخل بهـا نصف المهر « المطلقة التى دخل بهـا تستحق المهر باكمله » .

« الا ان يعفون أو يعفو الذى بيده عقدة النكاح وان تعفوا أقرب للتقوى » .

لاحظنا حتى الآن مذ بدأ حديث القرآن الكريم عن الروابط الأسرية ، أنه جعل محورها يقوم على تفاهم الزوجين ورضاهما فجاءت التوجيهات الالهية لحسم النزاع اذا امتد وتفاقم ولكنه يعود فى أكثر من حالة الى رضاء الزوجين واتفاقهما واجازتهما ، أما فى هذه الحالة التى نحن بصددها فهو يعطى الزوجة المطلقة قبل ان يدخل بهـا نصف المهر المسمى ، ولكنه يقرر ان ذلك ليس الزاما لا تجوز مخالفته اذا اتفق الطرفان بمحض الحرية والاختيار على التنازل عن حقهما بالنقص أو بالزيادة ، وهذا هو ما نفهمه من « الا أن يعفون أو يعفو الذى بيده عقدة النكاح » وعندنا أن كلمة « يعفون » تعنى الزوجة وكل ما يتصل بهـا ، ومن له الحق والولاية فى أن يتكلم باسمها ، ويكون التعبير بعبارة « من بيده عقدة النكاح » يعنى الطرف الآخر وهو الزوج ، على أن فى الفقه خلافا حول ذلك فهناك من يقول ان المقصـود به « من بيده عقـدة النكاح » هو ولى المرأة الشرعى ونحن نفهم من سياق الآية ما قدمناه وان الله عز وجل بعـد أن فرض للمطلقة غير المدخول بهـا نصف المهر بين أن المقصود من ذلك هو جبر خاطر المطلقة ، ومن هنا أباح لهـا أن تتنازل عن هذا الحق اذا شاءت كما أن للزوج أن يتنازل عن المهر كله اذا شـاء .

« وأن تعفوا أقرب للتقوى ولا تنسوا الفضل بينـكم » .

وفى هذه الآية جوهر الفارق بين تشريع السماء والتشريع الوضعى ، فهذا الأخير لا يهدف الا للحسم وفض النزاع من ان يتطور نحو العنف ، مغفلا ما يثور فى النفوس نتيجة هذا الحل أو ذاك من كراهية فى النفوس أو ألم . وأما التشريع الالهى فهو يهـدف الى معالجة جروح النفس كذلك ، فها هو يدعو الزوجين — حتى وهما فى حالة انفصال — الى التسامح وعمل كل ما من شأنه تطييب النفوس وان ذلك هو ما تقضى به تقوى الله ، وان المجتمع فى كل الأحوال لايجب أن ينسى ان التعاون والمودة والعفو والتسامح هى مقومات المجتمع وقد عبر القرآن الكريم عن ذلك كله بقوله : « ولا تنسوا الفضل بينكم » .

« ان الله بما تعملون بصير » .

وكما هو شأن القرآن الكريم يعمق الاحساس بتقوى الله عن طريق التذكير ابدا بانه عليم خبير بصير بما يدور فى السر والعلن .

كلمة عامة عن الصلاة :

الصلاة هى لب وجوهر الأديان وكل صنوف العبادات التى عرفها البشر مذ كانوا بشرا ، ذلك أن الانسان قد وجد نفسه فى هذا الكون ولا ارادة له فى هذا الوجود وهو يبرح هذا الكون ليس فقط بغير ارادته ولكن بغير ارادة الدنيا كلها لو اجمعت على ضرورة بقائه ، فدل ذلك على أن الحياة والموت بيد ارادة علوية هى التى تحيى وتميت ، وانبنى على ذلك أن الانسان لا يمكن أن يحفظ توازنه النفسى والروحى عبر الحياة ما لم يكن على صلة دائمة بهذه القوة العلوية الغيبية والتى بيدها ملكوت كل شيء .

هذه هى الفكرة الأساسية فى الصلاة وهى ان يكون الانسان على صلة دائمة بخالقه ونعنى به رب العالمين كما علمنا القرآن الكريم ، فالصلاة ليست كما يتصور بعض المصلين انفسهم غرما وتكليفا « واذا قاموا الى الصلاة قاموا كسالى » ، وانما هى نعمة أنعم الله بها على عباده المؤمنين ليشعروا على سبيل الدوام وفى سائر اعمالهم واحوالهم بالليل والنهار ، فى اليقظة والمنام فى السكون والحركة ، فى الراحة مثل ما فى التعب ، فى العسر مثل ما فى اليسر ، فى المرض مثل ما فى الصحة انهم لا يقفون وحدهم وانهم لم يخلقوا عبثا ولا سدى ، وان وراء وجودهم حكمة وغاية يعرفها العزيز الحكيم القادر على كل شيء ، وهكذا ما بقى الانسان ممسكا بهذا الحبل المتين فلن يسقط فى هوة الشقاء والتعاسة ابدا وسيظل ايمانه نورا يهديه فى الظلمات وبلسما يشفى الجراحات وأملا وسط أعتى الخطوب والملمات .

والصلاة هى التى تبقى هذا الايمان متوقدا متوهجا ، وهنا يبدو تفوق الاسلام على سائر الأديان من أنه فرض على الانسان خمس صلوات فى اليوم والليلة ، وقد دعى المؤمن للعمل والسعى والانتاج ، ولكنه فرض على المسلم أن يدع ذلك كله وان يقطعه اذا حان وقت الصلاة حتى لا يلهيه العرض عن الجوهر ونعنى به الاتصال بخالقه هذا الاتصال الذى هو سر الوجود كله وهو ما لا يتحقق الا فى الصلاة .

« حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى »

حافظوا على الصلوات : أى قوموا بتأديتها على الوجه الأكمل ، فى مواعيدها الخمسة « الفجر والظهر والعصر والمغرب والعشاء » وان يؤديها على الوجه الأكمل قياما وتلاوة وركوعا وسجودا وذلك فى خشوع ووقار ، حتى تؤدى الصلاة دورها فى حياة المؤمن بأن تحول بينه وبين الفحشاء والمنكر من ناحية « ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » ولكى تحقق له السكينة والرضا فى حياته من ناحية أخرى « قد أفلح المؤمنون . الذين هم فى صلاتهم خاشعون » .

وهيئة الصلاة وما يقال فيها ، وعدد مراتها فى اليوم والليلة وصلتنا بالتواتر الذى لم ينقطع يوما واحدا خلال الف واربعمائة سنة وهو أمر لا يوجد فى تاريخ البشر ما يشبهه وهو آية اعجاز الاسلام .

« وما آتاكم الرسول فخذوه »

وبهذه المناسبة أريد أن أحذر من خطأ وخطيئة وقع فيها صديق لنا ، ولما كنت اعرف فى الرجل ايمانه وتقواه ، فانى ارجو أن يشمله الله برحمته وغفرانه فقد أخطأ صاحبنا خطأ جسيما ولكن رحمة ربى أوسع ، وهو القائل « ورحمتى وسعت كل شيء » ولكنى أرى لزاما على أن انبه لهذا الذى تردى فيه صاحبنا ، حتى لا يقع فيها وتقع فيه أحد .

القرآن والسنة :

لقد زعم صاحبنا ، أن القرآن الكريم دعا الى الصلاة ولكنه حرص أن لا يفصل هيئتها ، ولا أن ينص على عدد مراتها ، وعن عدد الركعات فى كل مرة ، حيث نراه فى موضوع « الوضوء » مثلا قد فصل ، ونراه فى موضوعات اخرى يلجأ الى امعان فى أدق التفاصيل ، فدل ذلك على أن اشارة القرآن المجملة للصلاة أمر مقصود ، وخـرج صاحبنا بهذا التفسـير « التعس » عن جـادة الصواب والحق ، وذلك نموذج لكل من يخـرج على الجماعة ويعجبه عقله ، فيتصور انه يستطيع أن يشطح . والحق أن بعض العلم الناقص الذى يؤدى بصاحبه الى الغرور قد يكون اخطـر من الجهل .

فأما عن عدد الصلوات فى اليوم الواحـد وكيفيتها وهيئتها ، فكل ذلك مذكور بأجلى بيان فى القرآن ، غير انه لـما كانت الصلاة هى بعد الشهادتين أول ركن فى الاسلام ، فقد تلقـاها سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم منـذ الأيام الأولى لتلقى الرسالة فعلمها سيدنا جبريل لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم والذى علمها بدوره للسيدة خديجة رضى الله عنها ولسيدنا على وزيد رضى الله عنهما ، ولسيدنا ابى بكر الصـديق رضى الله عنه ، وكل من كان يدخل فى الاسـلام بعد ذلك كان يتعلم أول ما يتعلم بعد أن ينطق بالشهادتين ، كيف يصلى كما كان يصلى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، والمسلم لا يكون مسلما الا باتباع ما يأمر به رسول الله ، والانتهاء عما نهى عنه « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » فالصلاة كانت شيئا مقررا وعبادة تمارس بالفعل منذ اليوم الأول ، وقرر عدد مراتها فى ليلة الاسراء والمعراج ، فالقرآن الكريم عندما ظل ينزل طوال ثلاث وعشرين سنة ، كان ينزل بالمناسبات ليقرر أمرا أو ينهى عن امر ولـكى يوضح ويحدد الحدود وليرفع اللبس ، ويفصـل فى بعض القضايا ، ولـما كانت الصـلاة أمرا يمارس بالفعل ، فلم يتعرض القرآن لتبيـان تفاصيلها فلم يكن أمرها فى حاجة الى شىء من ذلك ، وعندما جد فى أمرها جديد كتحويل القبلة « مثلا » فقد ذكر القرآن ذلك واوجب أن تكون نحو الكعبة أينما كان الانسان ، وعندما شرعت صلاة الجمعة فى المدينة نزلت سورة الجمعـة ، وعندما رخص فى قصر الصلاة ، وشرعت صلاة الخـوف وصـلاة القتـال ، نزل فى كل ذلك قرآن ، ويكون سكوته عما هو جار بالفعل هو الأمر الطبيعى ما دام ما يجرى هو عين ما يريده الله وما علمه لنبيه تعليما .

وليس أقطع بذلك كله انه ما من حركة نؤديها فى الصلاة الا واشار اليها القرآن أمرا أو وصفا أو تقريرا وتأكيدا لـما كان يمارس بالفعل فالقيام والركوع « واركعوا مع الراكعين » والسجود « واسجد واقترب » والتلاوة سواء الجهـرى منها ، أو السرى « وقرآن الفجر ان قرآن الفجر كان مشهودا » « ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا » .

فالمحافظة على الصلوات « ان الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا » وكيفيتها وهيئتهـا كل ذلك أشار اليه القرآن الكريم ، حتى العبارات التى نكررها فى ركوعنـا « فسـبح باسم ربك العظيم » أو فى سجودنا « سـبح اسـم ربك الأعلى » والفاتحة التى لا تصح الصلاة الا بهـا هى أول سورة فى المصحف .

بقى عدد الصلوات وكونها خمس ، فهـذه قد ذكرت فى القرآن بمواقيتها :

١ ــ وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفـا من الليـل .

٢ ــ أقم الصلاة لدلوك الشمس الى غسـق الليـل .

٣ ـ ليستأذنكم الذين ملكت ايمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات من قبل صـــلاة الفجر وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ومن بعد صلاة العشاء.

فأنت ترى أن القرآن الـــكريم يشـــير الى الصلاة باعتبارها امرا واقعا ويحدد مواقيتها ، فأصبح من المتمين أداء الصلاة والمحافظة عليها بالكيفية والأسلوب الذى كان يؤديها بها النبى صلوات الله عليه وسلامه ، وهو ما نقل الينـــا بأدق تفاصيله على سبيل التواتر الذى لم ينقطع ساعة من نهار طوال ١٤٠٠ سنة كما قدمنا فأصبح من يخرج عن ذلك فى خطر شديد .

لمـــاذا تفصيل الوضوء ؟

بقى التساؤل لمـــاذا ذكر الوضوء بكل هـــذا التفصيل دون الصلاة ؟ والجواب على ذلك من ايسر الأمور ، فوضوء سيدنا رسول الله كان يتم فى بيته بمعنى أن من يراه ويشهده عدد اقل من القليل ، أما الصلاة فى المسجد فكانت على ملا من المئات والألوف يوميا فضلا عن ان الوضوء والغسل والطهارة بالمـــاء كانت شيئا جـــديدا وعسيرا على اقوام يحصلون على المـــاء بشق الأنفس ، ولكن حرص القرآن الكريم على فرض النظافة والطهارة على المؤمنين جعله يفصـــل الأمر تفصيلا .

« والصلاة الوسطى »

هى صلاة « العصر » على ارجح الاراء وهو ما نختاره ونأخذ به ونعززه بتصـــور جـــديد نضيفه ، جاء فى الحديث الصحيح عن سيدنا على كرم الله وجهه أن سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم قال يوم غزوة الأحزاب « شغلونا عن الصلاة الوسطى : صلاة العصر : ملا الله بيوتهم نارا » وهذا نص يمنع الخلاف ومع ذلك فقـــد وجد من قال ان المقصود بها هو صلاة الفجـــر ومن قائل بل المقصـــود صلاة الظهر ، وقال البعض انها وصف للصلوات كلها بمعنى أن تكون الصلاة متوسطة لا هى بالقصيرة جدا ولا هى بالطويلة ، وعندنا أن هذه كلها اجتهادات قال بها من لم يعرف ويثبت عنده حديث رســـول الله ، والا فالحديث نص ولا اجتهاد مع وجود النص ، ووصف صلاة العصر بأنها وسطى هو ادق وصف لموقعها من باقى الصلوات ، اذ يسبقها الصبح والظهر ويليها المغرب والعشاء ، وقد اعجبنا تمثيل من مثلها بالأصبع الأوسط حيث يسبقه الابهـــام والسبابة ويليـــه الخنصر والبنصر ، ونفهم أن القرآن الكريم خصها بالذكر حتى لا يفرط احد فى ادائها على وجهها الأكمل فى الوقت المقرر لها ، وقد قام فى ذهننا تصور انشرح له صدرنا فلم نر بأسا فى ذكره ، ففى الآيات التى اشرنا اليها فيما سبق نص على صلاة الفجر بهذا الاسم ، ونص على صلاة العشاء وذكر لكلمة الظهـــيرة وتدخل صلاة المغرب فى آية « واقم الصـــلاة طرفى النهار » فالمغرب هى طرف النهار الأخير ، فلم تبق الا صلاة العصر لم يرد لها اشـــارة فى القرآن ، ومن هنا كان التنويه عنها فى هـــذا التعبير ويرى البعض أن « والعصر » هى اشارة لصلاة العصر ولكننا من القائلين بأنها تعنى « الزمن بعامة » .

وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ۖ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ۚ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِى مَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾ وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾ * أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ

وقوموا لله قانتين : اى خاشعين مستشعرين هيبة الله وانكم واقفون بين يديه ، روى الشيخان واصحاب السنن والامام احمد عن زيد بن ارقم قال : كنا نتكلم فى الصلاة ، يكلم الرجل منا صاحبه وهو الى جنبه فى الصلاة حتى نزلت « وقوموا لله قانتين » فأمرنا بالسكوت ونهينا عن الكلام .

« فان خفتم فرجالا أو ركبانا » :

فان خفتم : اى اذا حل بكم الخوف والفزع لأى سبب كان ، وغنى عن البيان ان الخوف هنا يجب أن يكون فى مجال يبعث الخوف بعامة ، كأن يكون الانسان فى الخلاء فيخاف من انقضاض الوحوش عليه أو قطاع الطريق أو غير ذلك من المخاوف التى قد تعرض للمسافر أو الانسان فى الخلاء وذلك يبين من التعبير ذاته .

« فرجالا أو ركبانا »

فهذا التعبير يشير الى المترجلين اى المشاة السائرين على الأقدام ، وركبانا — يقول اشياخنا علماء الأزهر فى تفسير الوسيط جزاهم الله عنا احسن جزاء « اى راكبين على الابل وغيرها مما يركب كالمصفحات والدبابات وغيرها » ويمضون فيقولون :

« ففى كل هذه الأحوال يصلى الخائف فردا بلا جماعة سواء كان راجلا اى ماشيا على قدميه ، أم كان راكبا على اية وسيلة من وسائل الركوب كالدواب وما استحدثه المخترعون من وسائل الانتقال المختلفة ، برا وبحرا وجوا وتكون قبلته حيثما توجه ويتقلب ويتصرف بحسب نظره فى نجاة نفسه ، ولا يلزمه ركوع ولا سجود اذا كان هذا يضره ، ويكفيه عنهما الايماء بالراس بطريقة لا تعرضه للتهلكة » انتهى كلام الوسيط ، وليس هناك ما يكشف عن كون الصلاة هى الصلة الدائمة بين العبد والرب ، من هذه الآية التى لا تعفى الخائف من الصلاة وان اعفته من التزام هيئتها ، ذلك أن الصلاة هى الدعاء لله سبحانه وتعالى والتقوى به عن طريق الاحساس بقربه ، والانسان اشد شعورا بحاجته الى الله ساعة الخوف ، فلم يسقط عنه فرض الصلاة .

« فاذا امنتم فاذكروا الله كما علمكم ما لم تكونوا تعلمون » اى فاذا زال خوفكم ، بأن زال سبب الخوف ووصلتم الى شاطىء الامان « فاذكروا الله كما علمكم ما لم تكونوا تعلمون » هنا ويفترق المفسرون الى قسمين ، قسم يرى فى جملة « فاذكروا الله » اى فاشكروا الله الذى علمكم كيف تنصرفون فى حالة الخوف وهو ما لم يسبق لكم معرفته من قبل ، وفريق من المفسرين « ونحن منهم » يرى أن المعنى المقصود : انه اذا امنتم فصلوا كما علمكم الله ان تصلوا .

ونحن نؤثر هذا المعنى باعتبار أن صـلاة الخوف كانت ضرورة بحيث جاز فيها مخالفة القواعد المفروضة ، فأما وقد زالت دواعى الخوف فالقرآن الكريم ينبه الى ضرورة التقيد بكل احكام الصلاة المفروضة .

« والذين يتوفون منكم ويذرون ازواجا وصية لازواجهم متاعا الى الحول غير اخراج فان خرجن فلا جناح عليكم فيما فعلن فى انفسهن من معروف والله عزيز حكيم » .

هل هنــاك نســخ ؟

مر بنـا من قبل امر القرآن الكريم لمن مات عنهـا زوجها ان تتربص بنفسها اربعة اشهر وعشرا على التفصيل الذى سبق ، وتتحدث هذه الآية عن توصية الازواج عند توقع الموت ، بالنفقة على زوجاتهم ، والسكنى فى بيوتهم عاما كاملا ، ومن هنا قال قوم بأن بين الآيتين تعارضا واعتبروا ان احداهما تنسخ الثانية ، ولمـا كانت القاعدة عندهم ان المتأخر ينسخ المتقدم ، فقد قالوا ان الآية السابقة — ولو انها فى ترتيب المصحف — تذذكرت متقدمة الا انهـا فى حقيقتها متأخرة فى النزول عن الثانية ، ونحن لا نخوض فى هذه المباحث من حيث كونها مناطا للتشريع ، فالعمدة فى ذلك كما قلنـا اكثر من مرة هم الفقهــاء المتخصصون ، اما نحن ففى حدود فهمنا للآيات التى نحن بصـددها وعلى ضـوء من سبقونا بالتفسير لا نرى اي تعارض بين الآيتين بل نرى ان القول فى كل منهما موجه لمكلف غير الآخر ، ففى الآية الاولى يوجه القول الى « الارامل » « يتربصن بأنفسـهن اربعة اشهر وعشرا فاذا بلغن اجلهن .. » الآية .

وغنى عن البيان ان الزوجة التى مات عنها زوجها هى المأمورة بالتربص ومن كانت احكام عدة المتوفى عنها زوجها .

اما فى هذه الآية الكريمة فتضيف اضافة جديدة وهى أن يوصى الزوج من ناحيته ان تلزم زوجته مسكن الزوجية بعد وفاته عاما كاملا بحيث لايجوز اخراجها من هذا المسكن وايقاف النفقة عليها ، الا اذا اختارت هى ان تغادر البيت بعد انتهاء عدة الوفاة والمقررة بأربعة اشهر وعشرة ايام .

ففى حدود هذه المدة لا يجوز لزوجة المتوفى ولا لاصحاب الشأن أن يخرجوها من بيتها ، ولكن اذا انقضت هذه المدة اصبحت الزوجـة الأرمل بالخيار ان شاءت استمرت حيث هى حتى نهاية العام وان شاءت خرجت من بيتها واختارت ما رأته خيرا لهـا ، وهنا يسقط حقها فى النفقة والسكنى .

ونحن نرى هذين المعنيين من الوضوح بحيث لا نستطيع أن نفهم من أين يجيء التعارض فالآية الأولى تقول :

« فاذا بلغن أجلهن فلا جناح عليكم فى مافعلن فى انفسهن بالمعروف » .

وهذه الآية تقول :

« فان خرجن فلا جناح عليكم فى ما فعلن فى انفسهن من معروف » .

ويكون من البديهى والطبيعى جدا أن يكون المقصـود من « فان خرجن » اى خرجن بعد انقضاء العدة التى فرضها الله عليهن ، فان لم يخرجن واخترن الانتفاع بالوصية فهذا حق فرضية الله لهن .

قول مشـــايخنا :

وكما هو راينا ان لا نقول براى الا اذا سبقنااليه فاننا ننقل هنا ما ورد فى تفســير الوسيط حيث ردد أشياخنا قول القرطبى فننقله عنهم كماجاء فى الوسيط : « وذهب آخرون الى عــدم النسخ ، وسلكوا طريقا آخر فى التوفيق بينهما .

قال القرطبى عن مجاهد : ان هذه الآية محكمةلا نسخ فيها . والعدة كانت قد ثبتت اربعــة اشهر وعشرا . ثم جعل الله لهن وصية منه :سكنى سبعة أشهر وعشرين ليلة — هى تمام الحول فان شاءت المراة سكنت فى وصيتها وانشاءت خرجت . وتلك الوصــية على ســبيل الاحسان والندب قائمة لم تنسخ . قال القرطبىما ذكره الطبرى عن مجاهد صحيح ثابت . خرج البخارى عنمجاهد « والذين يتوفون منكمويذرون أزواجا .. » قال كانت هذه العدة تعتد عند أهل زوجها واجبا فأنزل الله تعالى : « والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا » الى قوله : « منمعروف» قال : جعل الله لهـــا تمام السنة سبعة اشهروعشرين ليلة وصية : ان شاءت سكنت فى وصيتها وان شاءت خرجت وهو قول الله تعالى : « غير اخراج فان خرجن فلا جناح عليكم » .

« والله عزيز حكيم »

عزيز : صفة تقتضى الوعيد لمن يخالف حدود الله .

حكيم : يشرع لعباده كل ما فيه خير لهم :« وللمطلقات متاع بالمعروف حقا على المتقين » مر بنـــا ما أمرت به الآية (٢٣٦) من وجوبمنح المطلقة التى لم يدخل بهـــا ولم تكن قيمــة مهرها قد حددت أن تعطى مبلغا من المـــال على سبيل « تطييب قلبها » وقد اشترطت ان يناسب ما يعطى للمطلقة فى هذه الحالة مع درجةيسار الزوج واعساره « على الموسع قدره وعلى المقتر قدره » ، ثم ذكرت الآية (٢٣٧) حالةالزوجة المطلقة قبل ان يدخل بها ولكن بعد ان كان مهرها قد تحدد ، ففى هذه الحالة فرضلها القرآن الكريم نصف المهر ، وفى هذه الآية التى نحن بصددها فقد فرض القرآن الكريم المتعةلكل مطلقة على وجه التعميم « وبدون التعرض لأحـــكام « الفتوى التى من اختصاص الفقه » فنحن نفهم من هذا السياق أن ما يعطى هنـــا للمطلقة ليس متعينا على وجه التحقيق مثل :« فنصف ما فرضتم » ولا بشرط التناسب مع حالة الزوج غنى وفقرا ، وانما أرسل القول ارسالا« متاعا بالمعروف » .

وهذا هو الفارق بين التشريعات الوضعيةمهما بلغت من الدقة والأحكام والتشريع السماوى فكل ما تهدف اليه التشريعات الوضعية ان تحددالحدود التى تراها دون الاعتناء بالآثار الجانبية التى تترتب على أحكامها ، أما التشريع الالهىفهو يضع فى الاعتبار دائما صلاح البشر وسلامهم وخيرهم فى الدرجة الأولى من الاعتبار ، فاذا كان الطلاق شرا لابد منه فى بعض الأحوال لدفع شر أشد منه « على ما بينا فيما سبق » فان القرآن الكريم يطالبنا فى كل الأحوال ان لا ننسى الفضل فيما بيننا وان نعمل جهــد الاستطاعة لتضميد الجروح ، وأن تكون كل معاملاتنا فى حدود المعروف والاحسان والتقوى .

حقا على المتقين : والتقوى هنا هى كل جوهر الدين ولبه ، وهو أن نتصرف دائما فى حذر من الله وخشية فلا نقسو ولا نبطش ولا نتجبر أونتكبر حتى نؤمل دائما فى ان يحسن الله الينا كما نحسن نحن للناس .

« كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تعقلون » .

كل ما نزل به القرآن هو لخير البشر وصلاحهم ابتداء من تعريفهم بالله الواحد الأحـد الفرد الصمد » الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا احـد » ، حتى ما اشتمل عليه من وعظ وارشاد وحكمة ، الى احكام العبادات والتشريعات التى تنظم المعاملات ، فكل هذه لهـا غاية واحدة وهدف واحد عندما نفكر ونتدبر وهو أن نزداد ايمانا بالله وان يرتد هذا الايمان على سلوكنا فى الحياة بما يعود علينا وعلى الناس بالخير ،ومن هنا يدعونا الله سبحانه وتعالى كلما انزل لنا تشريعا ان نعمل عقولنا لنرى الترابط والوحدة فى كل ما انزله لنـا .

« الم تر الى الذين خرجوا من ديارهم وهم الوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم احياهم ، ان الله لذو فضل على الناس ولكن اكثر الناس لا يشكرون » .

يجهد صاحب تفسير المنار نفسه وغيره من بعض المفسرين فى اظهـار الترابط بين كل آية وما سبقتها ويحاولون أن يعللوا لماذا تكلم القرآن مثلا عن المحافظة على الصلوات وسط حديثه عن المطلقات والأرامل ، ولمـاذا انتقل هنا يحدثنا عن قصة ، ونحن — اذ نشكر هذه الاجتهادات — لا نستطيع ان نجاريهم فى ذلك ، بل ونعترض على المحاولة ، فنحن نعلم باتفـاق ان القرآن الكريم لم ينزل على سيدنا محمد دفعة واحدة وانما نزل « منجما » اى مجزءا بحسب المناسبات على مدى ثلاث وعشرين سنة ، وليس القرآن الكريم كتابا كبقية الكتب التى يضعها البشر ، فتعين علينـا أن نلتمس منطقا معينـا لترتيب آياته وتسلسل معانيه ، فالقرآن نسيج وحده ، وهو كلام الله الذى ليس كمثله شىء ، فعلينا ان نقبله كما هو ونستخلص منه ديننا واحكام شريعتنا جهد استطاعتنا ، وما زاد على ذلك فان نفع فى بعض الاحيان ، فقد يفتح بابا للجدل غير المفيد ، ومن هنا الزمنا انفسنا بعدم البحث عن الحكمة فى هذا الشىء او ذاك الا ان يكون القرآن الكريم قد افصح عنها بطريق مباشر أو غير مباشر .

انؤخذ هذه الآية بظاهرها المـادى ؟

وبعض المفسرين القدامى اخذوا هـذه الآية التى نحن بصددها على معناها المادى الظاهر من ان جماعة كبيرة جدا من الناس يختلفون فى عددهم حتى ليقول البعض كانوا ستمائة الف بينما يرى قول آخر ان عدتهم كانت ستين الفا وهبط بهم اقوام الى ثمانية آلاف فأربعة آلاف ، كما اختلفوا فى سبب خروجهم من ديارهم فقيل كان ذلك بسبب الطاعون ، وقيل بل فرارا من العدو ، ثم تأتى الصورة المـادية من ان الله اماتهم بالفعل حتى انتنت اجسادهم ثم احياهم بناء على دعوة نبى يسمى « حزقيل » ، وكل هذه اسرائيليات كثيرا ما تحدثنا عنها ، ودعونا مع كل داع لتطهير تفسير القرآن منها ، ونبادر فنقول ان الله قادر على كل شىء ، فعال لمـا يشاء انى يشاء كيف يشاء ، فعندما نحاول ان نفهم بعض الآيات على خلاف معناها المـادى الظاهرى فليس ذلك اسـتبعادا لقدرته وانما اعمالا لسننه التى يعلمنا هو انها لا تتبدل ولا تتغير ، ومن سنة الله ان الانسان لا يموت الا مرة واحدة « لا يذوقون فيها الموت الا الموتة الأولى » ، وليس ادل على أن سنة الله فى هذه المسألة لا تتحول ان يجعل خرقها على يد سيدنا عيسى عليه السـلام معجزة خاصة به لتنطق برسالته ونحن نؤمن بهـا لأن القرآن الكريم قد ذكرها على هذا الاعتبار .

أما عندما يختار القرآن الكريم صيغة الابهام ، فيتحدث عن الف أماتهم الله ثم احياهم ، وان يشفع ذلك على الفور بالدعوة الى القتال فى سبيل الله ، فلنا ان نفهم من ذلك ان الحياة

والموت هنا ليسا بمعناهما الحسى وانما بمعناهما المجازى والمعنوى ، ولن يكون ذلك الا تكرارا لاستخدام القرآن الكريم كلمتى الحياة والموت بمعناهما المجازى ، فالقرآن الكريم يتحدث عن احياء الأرض بعد موتها ، وعن حياة النفوس وموتها جاء فى القرآن الكريم :

« يا ايها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم » .

« او من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا » ومن هنا فنحن نميل الى الراى الذى قال به المفسرون المحدثون واخذ به بعض القدامى ان القول هنا يجرى مجرى المثل ، وقد تكرر بمعناه كثيرا فى القرآن :

« قل لن ينفعكم الفرار ان فررتم من الموت او القتل » . « اينما تكونوا يدرككم الموت » .

ويكون المعنى الذى نختاره لفهم الآية ، ان المسلمين — وكان الله سبحانه وتعالى قد بدأ يعدهم للحرب والقتال — اخذ يربى نفوسهم ويحصنها بتعميق الايمان بالله وانه هو يحيى ويميت ، فذكرهم بهذه القصة قصة قوم ملأ الجبن قلوبهم من ملاقاة غاز او فاتح ، ففروا من ديارهم على كثرة عددهم فكان ان ماتوا ماديا ومعنويا ، كما هى سنة الله فى خلقه : « فقال الله لهم موتوا » .

ثم احياهم ، اى أبقى فريقا منهم وخلف من بعدهم خلف وامتلأوا بالايمان والعزم فنجحوا وعزوا وسادوا وهذا هو معنى « ثم احياهم ».

« ان الله لذو فضل على الناس ولكن اكثر الناس لا يشكرون » .

والتحدث فى فضل الله على الناس ذو سعة « وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها » ، ولكن اكثر الناس فى غفلة عن هذا الشكر فمن قائل انه وصل بما وصل اليه وحازه من فضل بهمته واقتداره ، ومن قائل انه بفضل اتباعه لهذا المذهب او ذاك ، وليس سوى القليل المؤمن بأن الفضل كله لله فهو الذى يعطى بغير حساب فاللهم اجعلنا من عبادك الشاكرين المقدرين لنعمائك .

لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ

« وقاتلوا فى سبيل الله واعلموا ان الله سميع عليم » .

وعندنا ان هذا هو المقصود من ذكر الآية السابقة ، فمنذ انتقل سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام الى المدينة فقد نزل عليه الاذن من السماء بالقتال صيانة للنفس والعقيدة ، « اذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير » سورة الحج ، وبدأ القرآن الكريم يربى المسلمين ويعدهم نفسيا ومعنويا وروحيا للقتال ، ورأس هذا الاعداد هو الايمان المطلق الراسخ بأن الحياة والموت بيد الله والآجال مكتوبة ، لا يقدمها التعرض للمخاطر ولا يؤخرها البعد عن المهالك ، والأحجى للانسان المؤمن العاقل أن يؤدى واجبه فى كل الأحوال بما فى ذلك « القتال فى سبيل الله » وقد تكلمنا فيما سبق عن فريضة القتال فى سبيل الله وسوف نعود باذن الله للافاضة فى هذا الموضوع بمناسبة آيات كثيرة قادمة وحسبنا ان نوجز الأمر كله فى قولة قالها سيدنا أبو بكر الصديق رضى الله عنه غداة اختياره أول خليفة لرسول الله : « ما ترك قوم الجهاد الا ذلوا » .

« واعلموا أن الله سميع عليم » .

ويصور لنا استعمال كلمة « سميع » هنا الجو الذى احاط بفرض « القتال » أول مرة على المسلمين ، فلا شك ان المنافقين فى المدينة واليهود ومن كانوا لا يزالون على الكفر راحوا يشقشقون حول فرض القتال ، فنزل القرآن يحذرهم ان الله سبحانه وتعالى يسمع هذا الذى يقولونه فضلا عن انه عليم بذات الصدور .

« من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له اضعافا كثيرة » .

منذ كان الانسان انسانا وهو يأنس الى ان يكون فى صلة مباشرة مع الله ، فضل الطريق أقوام أقاموا النصب والأوثان والأصنام ليقتربوا من الله ، وذهب أقوام الى ان الله بنفسه قد

حل بين صفوفهم ، وكل ذلك يشعرك بمدى جوع الروح الانسانية من ان تكون على صلة بالله ، وجاء الاسلام العظيم فرفع الالوهية الى مكانها الحق ونزه الله عن الحلول والشريك والتجسد ، وجعل اتصال الله بالبشر يتم من خلال الوحى يهبط على قلب من يختاره الله لهذه المهمة فيبلغ رسالته للناس بلسانهم وبما اعتادوه من معان لغوية يفهمونها ويقدرون ابعادها ، وهنا افترق الناس الى فريقين : فريق من فى قلبه مرض فقد اخذوا هذه الاقوال بمعناها المادى واتخذوا منها بالتالى مادة للسخرية والتشكك والكفر ، فعندما نزلت هذه الآية قال هذا النفر ان رب محمد يستقرضنا ولا يقترض سوى الفقير ، فنزل القرآن الكريم ينبىء بنبأ هذا الفريق الذى كفر :

« لقد سمع الله قول الذين قالوا ان الله فقير ونحن اغنياء » .

اما الفريق الآخر من اهل السعادة وهم المؤمنون فقد فهموا القول على حقيقته فالله الكامل غنى عن العالمين ، وكل من وما فى السموات والأرض بعض خلقه وعبيده ، فاذا تحدث عن القرض او الشراء « ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم وأموالهم بان لهم الجنة » فليس ذلك الا تفضلا منه اذ يخاطبهم على قدر عقولهم وليحببهم ويستحثهم على عمل الخير والانفاق فى سبيل الله ، وعلى رأس الكل الانفاق على المقاتلين فى سبيل الله ، وجعل الله سبحانه وتعالى كل ما ينفق من هذا القبيل بمثابة قرض الى الله سبحانه وتعالى سوف يرد لصاحبه يوم القيامة اضعافا مضاعفة « جنة النعيم » ، وان يسترد المؤمن ما ينفقه فى سبيل الله اضعافا مضاعفة يوم القيامة فتلك مسالة مؤكدة بنص القرآن ، على اننا نشاهد فى اكثر الاحيان ان الفضل الالهى يتجلى على المنفق فى سبيل الله فورا وفى هذه الدنيا ، فيخلف عليه كل نفقة فى سبيل الله اضعافا مضاعفة .

كل اعمال الخير قرض حسن لله :

وقد حاول البعض أن يربط الاقراض لله سبحانه بالآية السابقة التى تدعو للقتال فى سبيل الله وان النفقة فى هذا الباب هى المعنية، وصحيح أن مجيء الآية عقب الآية السابقة يوحى بذلك ، فالقتال فى حاجة الى نفقات طائلة ، ولكن الأصح أن تؤخذ الآية على اطلاقها ويصبح كل انفاق فى سبيل الله سواء فى حالة الحرب أو السلم ، هو قرض الى الله تعالى مردود الى صاحبه اضعافا مضاعفة ، وفى هذا المعنى جاء الحديث القدسى على ما ورد فى البخارى ومسلم يقول : « يا ابن آدم مرضت فلم تعدنى ، واستطعمتك فلم تطعمنى ، واستسقيتك فلم تسقنى » قال : « يا رب كيف اسقيك وانت رب العالمين ؟ ! » قال : « استسقاك عبدى فلان فلم تسقه ، اما انك لو سقيته وجدت ذلك عندى » .

تباركت ربى وتعاليت ، ما اعظم ما تؤدبنا به وتهذب نفوسنا بان جعلت كل عمل من اعمال البر نقوم به يتجه اليك فورا وتكافىء عليه . وعلى ضوء هذه المعانى نشرح الآن الفاظ الآية الكريمة « من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا » .

القرض لغة اسم لكل ما يلتمس عليه الجزاء ولكن الاقراض فى الاصطلاح : اعطاء الشخص مالا لغيره ليرده اليه بعد حين .

قرضا حسنا : اى مبرءا من الشوائب وبنية خالصة لا يقصد به الا وجه الله .

« فيضاعفه له أضعافا كثيرة »

القاعدة المطلقة ان الله سبحانه وتعالى يكافىء على عمـل الخير كما يشاء بلا حسـاب فيستعمل القرآن الكريم هذه الصيغة العـامة التى لا حدود لها وهى ما يجب التعويل عليـه ويجب اعتبـار كل ما ورد فى القرآن من ارقام تفيد حسابا معينا ، فليس ذلك على سبيل المثال والتشويق لقوم خوطبوا بهـذا القرآن أول مرة وكانوا يحبون قياس أرباحهم بالحساب والأرقام وذلك من مثل قوله تعالى :

« مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم » ..

وهذا هو مصداق قولنا ان الأصل هو اطلاق المكافأة بغير حدود ، فبعـد أن قـدرت الآية بالحساب « ٧ فى ٧٠٠ » أضافت « والله يضاعف لمن يشاء » وفى الآية التى نحن بصـددها يجعل الأضعاف مضاعفة لاطلاق الأمر من كل حدود « والله يقبض ويبسط واليه ترجعون » .

المقصود من استعمال هذا التعبير هنا من ان الله « يقبض ويبسط » هو اشـعار المخاطبين بأن الله هو الذى يرزق فيوسع الرزق حينـا ويضيقه حينا على شخص واحد ، أو يوسـعه على انسان ويضيقه على انسان آخر ، والمهم انه هو وحده مقدر الأرزاق فلا يتردد انسـان فى الانفاق فى عمل الخير خوفا من الفقر ، فقد يتحـول الغنى فى لحظة الى فقـير والعكس بالعكس متى شاءت ارادة الله .

القابض الباسـط :

وثمة معنى عام آخر لا يفوتنا أن ننبه اليه فى هذه المناسبة وهو ان الله هو القابض الباسط ، وعلى هاتين الظاهرتين : القبض والبسط تقوم الطبيعة كلها فهم يردون الكون كله الى موجات من المـد والجـزر والتخلخل والتكاثف وليس ذلك بلغة القرآن الكريم سوى القبض والبسط.

« واليـه ترجعون »

وتختم الآية التى تحث على الانفاق فى سبيل الله الى أن المرجع والمآل الى الله سـبحانه وتعالى ليكافىء المحسن ..

الاخبار عن بنى اسرائيل وقصصهم :

تدخل بنا هذه الآيات فى أمور تتصل ببنى اسرائيل فى عصر احدث بكثير من عهد موسى وأعنى به عهد داود أبى سليمان . وقد سبق ان تحدثنا عن الاسرائيليات التى زج بها اليهود الذين أسلموا فى تفسير القرآن ، وقد تنبه الكثيرون من مفسرى القرآن القدامى لضرر هذه الاسرائيليات بل وخطرها فأنكروها وأثمرت الدعوة الى تنقية التفسير القرآنى من هذه الاسرائيليات فأصبحت أغلب التفسيرات الحديثة مبرأة بقدر الامكان من هذه الاسرائيليات ، على ان التخلص منها تماما غير مستطاع ، بل انها عادت للتسلل من جديد على أيدى علماء أفاضل من المسلمين بحسن نية باسم البحث العلمى الحديث ، ويرجع ذلك الى أن القرآن الكريم قد أشـار من حين لآخر

اشارات لبنى اسرائيل وبعض الوقائع الخاصة بهم كما هو الشأن فى هذه الآيات التى نحن بصددها ، وعندنا أن القرآن الكريم اذا كان قد ساق هذه الاشارات للأحداث فقد ساقها مجهلة عن الزمان والمكان مما دل على أن القرآن الكريم انما يشير الى الحدث لاستخلاص ما فيه من عظة وهو هنا يربى المؤمنين على عدم التخوف من الحرب والاقبال عليه فى جد وعزم فى سبيل الله مع الايمان بأن النصر هبة من عند الله يمنحها لمن صدقوا النية وصابروا وصبروا ، وفى رأينا أنه يجب الوقوف عند هذا القدر فى تفسير هذه الآيات وأمثالها ، أما أن يحاول محاول « كما فعل العالم الجليل الشيخ عبد الوهاب النجار فى كتابه قصص الأنبياء » أن يعود لكتاب العهد القديم — كتاب اليهود — ليربط بين ما جاء فى القرآن أو يقارن بين ما ذكره كلا الكتابين . فهو اجتهاد مشكور على كل حال ، ولكنه ليس من رأينا . اذ هو يفتح من جديد بـاب الاسرائيليات على مصارعه ، وليس بنافع أن يقال أن القرآن هو الذى يحكم على هذه الكتب ولا تحكم عليه ، فتلك قضية جدلية ، ومتى سمحت بالتكلم باسم التاريخ والبحث العلمى فلم يعد من الجائز أن يكون نصف الكلم علم تاريخ ونصفه الآخر غيبى تقريرى .

فعندما تقول الآية التى نحن بصددها أن بنى اسرائيل « قالوا لنبى لهم » فان ذلك يعنى أن اسم هذا النبى لا يهم فلسنا بصدد بحث تاريخى ، ويكون من التكلف الذى يفتح الباب أمام الخطأ وبالتالى التشكك والقيل والقال أن يقول قائل من المفسرين القدامى أن النبى المقصود هو « يوشع بن نون » فيرد عليه بعض القدامى بأن هذا وهم وخطأ ويستعمل تفسير المنار تعبيرا أكثر فيعزو ذلك الى الجهل ، ويقول لنا هؤلاء الأفاضل سواء كانوا من القدامى أم المحدثين أن يوشع بن نون هو تابع موسى ، أما النبى المقصود فهو صمويل ، وكما قدمنا نحن لا نوافق على هذا الاتجاه وهو أن نأخذ من العهد القديم أى معلومة فضلا عن حجة والا وقعنا مرة أخرى فى براثن الاسرائيليات وعلى ذلك فنحن نقف عند حد النص القرآنى لا نلتمس له تفصيلا من العهد القديم .

« ألم تر الى الملأ من بنى اسرائيل من بعد موسى اذ قالوا لنبى لهم » .

ألم تر : بمعنى ألم تعلم ، أو لم يأتك نبأ :

الى الملأ : حرف « الى » هو الذى حول فعل الرؤية من الابصار بالعين ، الى معنى العلم .

« والملأ » من القوم هم أشرافهم ، وهو اسم جماعة أى لا مفرد له من لفظه .

من بنى اسرائيل : أى أن المتكلمين هم جماعة من بنى اسرائيل .

من بعد موسى : هذا هو كل التوقيت الذى صرح به الله سبحانه وتعالى أن من تكلموا كانوا بعد زمن موسى عليه السلام .

اذ قالوا لنبى لهم : ولم يشأ القرآن الكريم لحكمة يعلمها الله أن يعين اسم النبى ، فأصبح من الفضول فى نظرنا أن ننقل من العهد القديم اسم « صمويل » مقررين أنه هو النبى المقصود ، وعندنا أن أقصى ما يمكن أن يسمح به العلم المجرد هو أن يقال « ويوجد فى كتاب العهد القديم ، قصة مفصلة تشبه هذه الواقعة التى يتحدث عنها القرآن الكريم » .

« ابعث لنا ملكا نقاتل فى سبيل الله قال هـل عسيتم ان كتب عليكم القتال الا تقاتلوا قالوا وما لنا الا نقاتل فى سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا فلما كتب عليهم القتال تولوا الا قليلا منهم والله عليم بالظالمين » .

وعندنا أن هذا هو المقصود من القصة التى يحكيها القرآن الكريم عن هذا النفر من بنى اسرائيل أن يحذر المؤمنين من أن يقعوا فيما وقع فيه بنو اسرائيل من قبل عندما غلبوا « فى فترة

ما » على امرهم ، وراوا ان لا مخرج لهم من محنتهم الا بالقتــال ، فلما فرض عليهم القتال بالفعل اذا هم ينكصون على اعقابهم « الا قليلامنهم » جبنا ومهانة ، وسترى لنــا القصة فيما بعد كيف انتصرت هذه القلة التى صدقت الله الوعد ، وكل هذا كما قدمنا كان تربية من الله عز وجل للمؤمنين الذين كانوا قريبى العهد بفرض القتال عليهم ، وكان بعض الانصار لا يزالون يتوجسون خيفة من الحرب وهو ما يبين من قوله تعالى يخاطب المؤمنين « كتب عليكم القتال وهو كره لكم » . فكانت هذه القصة والتى يجب ان يعتبر الحديث السابق عن هؤلاء الذين خرجوا من ديارهم حذر الموت (الآية ..) لتمهيد لهــا من حيث التذكير بأن لا فرار من الموت ، واذا كان الأمر كذلك فقد اصــبح حتما على العاقل ان يستقبل قدره المحتوم فى شجاعة .

« ابعث لنا ملكا نقاتل فى سبيل الله »

والأصل فى النظام الملكى ان لكى يكون الملك ملكا وتنصاع له بقية الجماعة وتطيع اوامره ان يكون اكفأ واقدر من فى الجماعة كلها على الحرب والقتال بحيث لا يقوى احد على منازلته فضلا عن التغلب عليه ، والا فان هذا الغالب يصبح هو الملك ، اى ان فكرة الوراثة « التى اصبحت من سمات الملكية » بدعة على النظام الملكى وهوما سوف تؤسسه هذه الآية الكريمة ، ويبين من نظم الكلام ان هذه الجمــاعة من بنى اسرائيل تاقت نفسها للخروج من المحنة التى كانوا فيها ولا يكون الخروج الا بالحرب والقتال ، فالتمسوا « من نبى لهم » ان يختار من بين صفوفهم باعتباره نبى الله الذى « يوحى اليه » ان « يبعث لهم ملكا » ليكون قائدا لهم ويعبىء صفوفهم ويحشدهم للحرب والقتال ، ولكن هذا النبى وكان يعرف من امر بنى اسرائيل كل هذا الذى مر بنــا مما سجلته عليهم سورة البقرة من اللجاج والعناد والشك والنزوع الى الكفر ، راى قبل ان يأخذهم بقولهم ويجيبهم الى طلبهم ، بأن يدعو الله سبحانه وتعالى ان يهديه لمن يصلح للقيام بهذه المهمة ، ان يستوثق ويشترط :

« قال هل عسيتم ان كتب عليكم القتال الاتقاتلوا » .

عسيتم : قاربتم .

اى ان نبى بنى اسرائيل أبدى تخوفه من أن يحجموا عن القتــال اذا فرض عليهم فاسرعوا يلزمون انفسهم بالقتال بمجرد أن يفرض عليهم ويوضــع على راســهم ملك لقيادتهم ، وذلك بقولهم :

« قالوا وما لنا الا نقاتل فى سبيل الله وقداخرجنا من ديارنا وابنائنا » .

اى ان اخراجهم من ديارهم وتشتيت اسرهم سبب كاف وملزم للقتال .

« فلما كتب عليهم القتال تولوا الا قليلا منهم »

وهكذا صح توقع نبيهم العارف بطبيعتهم فلم يكد يفرض عليهم القتال حتى نكصوا على اعقابهم « تولوا » اى تراجعوا وكان معنى ذلك ان يظلوا اسارى الذل الذى كانوا فيه لولا ان ارادة الله سبحانه وتعالى كانت قد شاءت لهم التبديل والتغيير نحو الأحسن فجعل القــلة المؤمنة كما هو الشان فى كل زمان ومكان تزداد أيمانا على ايمان وتستجيب للأمر الالهى فيتحقق لها النصر كما سوف نرى .

« والله عليم بالظالمين » .

وتختتم الآية بأروع ما يجب أن يتنبه اليه كل راض بالظلم والمهانة خوفا وجبنا ، ويصــفه الله بابشع ما تنفر منه البشرية وهو « الظلم » فيسمى القاعدين عن الدفاع عن حقوقهم وكرامتهم

ودينهم بالظالمين ، وقد نص القرآن فى آية اخرى على ان الظلم فى هذه الحالة واقع على النفس ، جاء فى القرآن : « ان الذين توفاهم الملائكة ظالمى انفسهم .. » وهم هؤلاء الذين لم يهاجروا ، ورضوا بالذل والهوان وعبثا يدافعون عن انفسهم انهم كانوا « مستضعفين فى الأرض » اى كانوا ضعفاء ولكن الملائكة لا تقبل منهم هذا العذر وتردبقولها : « الم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيهـا » .

وهكذا يبين أن الجبان الذى يرضى بالذل ليس فى حقيقته امام الله الا ظالم ظلم نفسه .

« وقال لهم نبيهم ان الله قد بعث لكم طالوت ملكا قالوا انى يكون له الملك علينا ونحن احق بالملك منـه ولم يؤت سـعة من المـال » . واسـتجاب نبى بنى اسرائيل لطلبهم تعـيين ملك لهم « بتوجيه من الله طبعا » وقال لهم « ان الله قد بعث لكم طالوت ملكا » وكان يتعين على بنى اسرائيل أن يفرحوا ويشكروا الله سبحانه وتعالى ان اجاب سؤلهم ، ولكنهم لو فعلوا ذلك لمـا كانوا يهودا كما صورهم القرآن وكمـاهم فى الطبيعة ، ولذلك نقـد اسرعوا يعترضون ويحتجون بل ويستنكرون « قالوا انى يكون له الملك علينا ونحن احق بالملك منه ولم يؤت سعة من المـال » .

هنـا ويقع بعض قدامى المفسرين فى اخطبوط الاسرائيليـات كما يقـع بعض المحـدثين بل « والمجددين » منهم فى الرجوع الى اقوال اليهود كما هى مثبتة فى العهد القديم ، فيقولون لنـا أن طالوت هذا شاول ، وان اليهود اعترضوا عليه لكونه ليس من نسل بنيامين « فرع سيدنا يوسف » ولم يكن من نسل لاوى « فرع سيدنا هارون » ولو صح ذلك لكان للمعترضين الحق كل الحق فى اعتراضهم ولو من الناحية الشكلية ، ولذلك قلنا ونقول انه من الخطأ الاستناد على ما جاء فى كتب اليهود لتوضيح ما جاء فى القرآن الكريم ، كأن يجتهد مجتهد أن يشرح لماذا سمى القرآن « شاول » باسم طالوت فيقول لأنه كان « اطول » بنى اسرائيل . ويعجبنا قول الشيخ محمد عبده : «لقد سماه الله طالوت فهو طالوت» ونزيد على قول الشيخ محمد عبده أن الاسماء لا تعلل . ويكون المستفاد من الآية الكريمة ان بنى اسرائيل طالبوا نبيهم ان يختار لهم ملكا فلم يكد يسميه لهم حتى اعترضوا وقالوا انهم : « احق بالملك منه » وليس من مهمة اى مفسر اسلامى للقرآن الكريم أن يستعرض الحج التى قالوها فما سكت عنه القرآن يجب ان نسكت عنه وما افصح عنه يجب أن نفهم ونستوعب .

« ولم يؤت سعة من المـال » .

ان جمال القرآن وكماله فى تصوير الخلق « اليهودى » يتجليان فى هذا التعبير ، فهم بعد ان تحدثوا عن الحق والحقوق للاعتراض على تمليك طالوت ، اضافوا انه فوق كونه لا حق له ، فلا يوجد عنده مال ، ذلك ان لا يوجد شىء عند اليهودى يعدل المال ، فالمال هو كل شىء ولا يوجد فى الحياة شىء لا يباع ولا يشترى وهذا هو سر تفوقهم فى دنيا المـال على مر العصور ، فما من انسان كائنا من كان الا ويقف عند اعتبار معين يعلو عنده على المـال ايا كان نوع هذا الاعتبار الا أن يكون « اسرائيليا » هنـا ولا يمكن أن يعلو اى اعتبار على المـال ، والآن انظر الى هذا التعبير القرآنى المعجز ، وهو يصوغ فى جملتين اثنتين هذا الذى كتبت فيه مئات والوف القصص والأبحاث التحليلية ، فهذا الملأ من بنى اسرائيل يقولون ان طالوت لا حق له ولكنهم لايقفون عند هذا الحد ، فلايوجد شىء لايستعاض عنه بالمـال الذى يعلو كل شىء ، فيضيفون « ولم يؤت سعة من المال » .

بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ
أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ
لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ
مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ
آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ
غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا
وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ

« قال ان الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة فى العلم والجسم » .

قال ، والقائل هو النبى الذى طلب منه بنو اسرائيل ان يختار لهم ملكا ، فذكرهم انهم طلبوا منه هذا الطلب باعتباره نبى الله الذى يوحى اليه ، والا فلو كان الأمر امر اجتهاد فلماذا طلبوا منه هو وبالذات ، أن يبعث لهم ملكا ، فأما وقدلجأوا اليه فيجب ان ينصاعوا لاختياره وهو اذ اختار لهم فلم يكن ذلك عن رايه وهواه وانما هو امر الله سبحانه وتعالى : « ان الله اصطفاه عليكم » فان يصل انسان الى أن يصبح على راس جماعة ما بحيث يصبح عقلها المفكر ولسانها الناطق وممثلها امام الجماعات الأخرى فتلك مسألة تتم بمشيئة الله ، وحقا لا يتم شىء كبر أو صغر فى هذه الدنيا الا بمشيئة الله ،ولكن الانسان جبل على الربط بين الأسباب والمسببات فما بقيت الأمور تسير فى مجراها العادى « الروتينى » فالانسان العادى لا يفكر فى مشيئة الله ، وليس الا عندما تتوقف الأحوال المعتادة يتحدث الناس عن مشيئة الله ففى الحياة والموت والصحة والمرض والنصر والهزيمة والظواهر الطبيعية غير المالوفة كالزوابع والزلازل والفيضانات .. الخ . يستحضر البشر مشيئة الله ويستسلمون باعتبارها المشيئة التى لا ترد ، ولا يشذ عن ذلك الماديون الذين لا يؤمنون بالله كل ما فى الأمر انهم يستسلمون لما اسموه « الطبيعة » والمهم انهم يعترفون بعجزهم امام قوة تعلوهم .

ووصول انسان الى موضع الرئاسة فى الأمة ليس مسألة عادية « روتينية » من المسائل التى يزاولها البشر فى كل يوم وفى كل ساعة ، ووصول أى انسان الى رئاسة جماعة لا يفسره فى خاتمة المطاف الا ان الأمر كله تم لأنه ارادة الله ،وليس الا بعد ان يصبح الرئيس رئيسا ان يروح البشر يلتمسون لذلك اسبابا يطمئنون اليها باعتبارها هى التى ادت الى ما ادت اليه وينسون انه فى اى علة يعللون بها وصول فرد ما الى الرئاسة ، فان هذه العلة قد تهيأت للكثيرين ،

وما من ميزة تنسب لمن ولى الحكم الا وفى الجماعة من يتوفر فيه اضعاف اضعاف هذه الميزة ، فمهما تحدثوا عن العلم او التجربة او الجدارة او الكفاءة او الشجاعة .. او .. او الى آخر هذا الذى اعتادوا ان يقولوه فيمن ولى حكما ، فسيبقى العنصر الأساسى بل العنصر الأوحد هو مشيئة الله ، ومن هنا قال لهم النبى « ان الله اصطفاه عليكم » وبعد ان تمت مشيئة الله ، راح النبى يعدد لهم بعض ما امتاز به هذا هذا الملك .

« وزاده بسطة فى العلم والجسم » .

والقرآن الكريم منذ اول كلمة فيه حتى آخر كلمة وهو يجعل العلم هو قمة القمم ، هو ذروة الذرى ، بالعلم وبالعلم فقط يصبح الانسان انسانا وكلما زاد فى العلم زادت مكانته ورفعته وفضله فى سلم الرقى البشرى « وقل رب زدنى علما » .

وها هو نبى فى معرض ابراز فضل من اصطفاه الله ليكون ملكا يرى فى علم طالوت الميزة الكبرى والأولى التى تؤهله للملك ولما كان بنو اسرائيل يريدون ملكا يقاتلون تحت لوائه فقد ذكرهم بميزته حتى فى هذه الناحية وان الله اعطاه بسطة فى العلم ، وبسطة فى الجسم هنا يجب ان تفهم على أوسع معانيها وانها تعنى التفوق المادى بكل فروعه وتفاصيله ، ابتداء من الصحة العامة والقوة البدنية ، والقدرة والخبرة على القتال والدربة ، والمهم اننا يجب أن نفهم من العبارة ان طالوت كان متفوقا أدبيا وماديا .

« والله يؤتى ملكه من يشاء » .

وحتى لا يعود بنو اسرائيل لمناقشة هذه المزايا وكما قدمنا ما من مزية تكون فى ولى الأمر الا وفى الناس من يتفوق فيها عليه ، فقد عاد ليذكرهم ان الأمر ليس امر مفاضلة فالملك هبة الهية يؤتيها الله لمن يشاء من عباده .

ولما كانت هذه الآية الكريمة الخاصة بتولية الملك سوف تتكرر فنحن نرجىء الحديث بالتطويل عنها الى مناسبة اخرى .

« والله واسع عليم »

يقول المفسرون ان « واسع » هنا بمعنى واسع الفضل ، ويقول بعض منهم : اى واسع التصرف والاقتدار ونحن نؤثر ان ندع الوصف الالهى بكل اشعاعه واطلاقه وما ينطوى عليه من غيب فهو واسع ، واسع أوسع من ان تعيه عقولكم واذا كان هذا الشىء هكذا .

انه واسع واسع عليم بكل شىء بما كان وما هو كائن وما سوف يكون ، انه عليم بالظاهر والباطن ، وليس امام البشر الا ان يذعنوا ويستسلموا ويرضوا ويقولوا ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين .

« وقال لهم نبيهم ان آية ملكه ان يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة ان فى ذلك لآية لكم ان كنتم مؤمنين » .

عنـــاد اليهود وجحودهم :

ولكن اليهود بما جبلوا عليه من عناد وجحود تشككوا فى كلام نبيهم ويبدو « والله اعلم » انهم طلبوا منه دليلا على صحة قوله من كون طالوت هو من اصطفاه الله ليكون ملكا فاجابهم نبيهم :

« ان آية ملكه ان يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة » .

والقرآن الكريم هنا يقص علينا ما قاله نبى بنى اسرائيل وسكت عما جرى بعد ذلك فالقرآن الكريم لا يذكر الا ما يريد أن يذكره لاستخلاص العبرة والموعظة ، فاذا جاز فى دنيا التفسير للقرآن الكريم ان نستخرج من الالفاظ مدلولها اللغوى والاصطلاحى ونحاول أن نبسط ما فهمناه من النص فكل ذلك امـر طبيعى ولا يحاسبنا الله عليه حتى لو اخطانا ، بل ويزيد على ذلك أن يمنحنا أجر الاجتهاد ما دمنا بذلنا الجهد بنيـة صادقة ، ولكنى لا اتصور ان يحاول محاول أن يحمل النص القرآنى اخبارا واضافات وتفصيلات مهما قال ، بعد ايرادها ، انها لا تلزم المسـلم الاعتقاد بها ، فسوف تحدث اثرها من البلبلة ، ولذلك فنحن نقف عندما وقف عنده القرآن الكريم من ان الحـديث عن التابوت ومحتـوياته وانه سيجىء تحمله الملائكة ، فكل ذلك قول حـكاه القرآن الكريم على لسان نبى بنى اسرائيل ، ولم يقل لنا اذا كان ذلك قد تحقق ام لا ، وكما يجوز أن نستنتج من صيرورة طالوت ملكا فكذلك يجوز الاستنتاج ان اليهود انصاعوا لأمر نبيهم دون انتظار وقوع الآية وانهـم ندموا على موقفهم المتردد والمتشكك ، والمهم عنـدنا ان لا نعود للاسرائيليات نلتمس منها ما سكت عنه القرآن فيكون هذا التخليط العجيب من وصف السكينة وانها مخلوق من الملائكة صفتها كذا وكيت ، وحواديت وحـواديت عن التابوت وكيف جاء والصورة التى جاء عليها فكل ذلك تزيد . يجب أن ينزه عنه تفسير كتاب الله ، وكل ما يحق لنا أن نفسر مدلول الالفاظ التى امامنا .

« ان آية ملكه ان يأتيكم التابوت »

والآية هى العلامة ، هى الدليل والبرهان ، والتابوت هو صندوق مقدس عند اليهود يصنع من خشـب من نوع مخصوص على تفصـيل دقيق مذكور فى كتاب اليهود ويطلقون عليه اسم تابوت الشهادة أو تابوت الرب بمقولة أن فيـه شهادة من الله عز وجل لبنى اسرائيل ، وسموه تابوت الرب باعتباره ما دام موجودا فى حوزتهم فالرب مقيم بينهم .

والآن قارن هـذه الخزعبلات بمـا يرويه القرآن الكريم عن محتويات هذا التابوت على لسان نبيهم :

— « فيه سكينة من ربكم » .

— « وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون » .

فأما السكينة فى اللغة ما تسكن اليه النفس ويطمئن به القلب ، وقد استعملها القرآن الكريم بهذا المعنى فى عديد من المناسبات وعلى هـذا يكون مجرد عودة التابوت الى بنى اسرائيل فيه

ما يسكن خواطرهم ويهدىء بالهم ويملأ قلوبهم طمانينة ، اما ما يحتويه التابوت ، من اشياء مادية : فبعض مخلفات مما « ترك آل موسى وآل هارون » .

تحمله الملائكة : كل شيء يتم في هذا الكون بمشيئة الله وارادته ، وقد علمنا القرآن انه خلق كائنات من نوع خاص وهى « الملائكة » لتنفذ مشيئته ، ولا ينبغى ان يبحث باحث عن كنه الملائكة او كيف يزاولون اعمالهم وكل ما نحن مطالبون به ان نؤمن بوجودهم وبدورهم ، ولا يتصورن مؤمن انه اذ يطلب منه الايمان بالملائكة وان الكون يقوم على ما يفعلونه باذن الله ، انه يطلب منهم شططا فالماديون « التقدميون » يتحدثون عن هذا الشيء او ذاك يحدث طبقا لناموس معين ، فالجاذبية ناموس « قانون » طبيعى وكل شيء يحدث في الطبيعة بنواميس وغنى عن البيان ان النواميس لا تعدو ان تكون كلمة لا يمكن ان يعرف كنهها ولماذا تعمل على هذه الصورة او تلك ، كل هذه مسائل لا يشغل المادى بها نفسه انه يقررها فحسب ، ناسيا انه وهو المادى لا يجب أن يؤمن بما هو غيبى .

فالملائكة هم بعض خلق الله ينفذون مشيئته « ان فى ذلك لآية لكم ان كنتم مؤمنين » .

وقد افترق المفسرون على رايين فمنهم من قال ان هذه العبارة بقية من كلام بنى اسرائيل وهو يحاج قومه ، ومنهم من قال بل هى خطاب من الله عز وجل للمخاطبين بالقرآن ينبههم الى ما فى ذكر سيدنا محمد لأحداث لم يكن يعرفها من قبل لا هو ولا قومه آية ودليل على نبوته ، ونحن الى الراى الذى يقول انها بقية قول نبى بنى اسرائيل اكثر ميلا والله اعلم .

« فلما فصل طالوت بالجنود قال ان الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس منى ومن لم يطعمه فانه منى الا من اغترف غرفة بيده فشربوا منه الا قليلا منهم فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده قال الذين يظنون انهم ملاقو الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين » .

مفردات لغوية :

فصل : معناه خرج بهم ، يقال فصلت الشيء فانفصل اى قطعته فانقطع واستعملت هنا بمعنى الخروج اذ انفصل الجنود عن قاعدتهم .

مبتليكم : والابتلاء يعنى الاختبار والامتحان .

النهر : معروف وهو مجرى الماء العذب ولكنه لغويا مشتق من « السعة » ومنه النهار .

الاغتراف : الأخذ من الشيء باليد او بآلة ومنه « المغرفة » والغرفة المرة الواحدة .

جاوزه : الضمير يعود الى النهر ، والكلمة هنا تعنى عبور النهر وتخطيه .

يظنون : اى يوقنون .

الفئة : الجماعة من الناس .

القصــة كما يرويها القرآن :

وتمضى القصة التى يرويهــا القرآن الكريمليغظ بهــا المؤمنين وليعدهم للقتــال الذى هم مقدمون عليه ، حتى كانت نبوءة كاملة لتصويرموقف المسلمين فى أول معركة واعنى معركة بدر على ما سوف نرى بعد الانتهاء من حديث حرببنى اسرائيل ، فمن سياق الآية نفهم ، ان الأمر قد انتهى بصيرورة طالوت ملــكا فقــاد جيشبنى اسرائيل لخوض الحرب التى كانوا يتطلعون اليها ، وكان طالوت وهو يعلم بمعارضة الكثيرينلتوليه الملك ، ويعلم من ناحية اخرى « جبن » اليهود التقليدى راى ان لا يذهب الىّ الحرب الا بمن كان قوى الايمان بالله وبالتالى يطيع كل ما يأمر به القائد ، أيا ما كان فى أمره من مشقة ،واذا كانت الجيوش فى المــاضى تقطع طريقها نحو أرض المعركة سيرا على الاقدام ، وبالتالىنستطيع ان نتصور مقدار ما يكونون عليه من ظمأ وماذا يفعلون اذا صادفوا فى طريقهم ماء ،ومن هنا كان اختبار طالوت لجنوده أيهم يؤمن بالله وينفذ تعاليمه أيا كانت شدتها وصرامتهافكان قوله للجنود ان الله سوف يختبرهم ماذا سيفعلون عندما يصلون الى النهر وحذرهم منأن يشربوا من ماء النهر ، وانذرهم بأنه برىء ممن يشرب « فليس منى » أما من لم يشرب فهوحبيبه وهو معه « ومن لم يطعمه فانه منى » .

ولكن طالوت استثنى من انكاره واعتراضــهمن اكتفى بقليل جدا من المــاء بما لا يزيد عن اغتراف غرفة واحدة بيده .

« فشربوا منه الا قليلا منهم »

وتدل الآية على أن الاكثرين عصوا الأمــر الصادر لهم أو تجاهلوه عمدا أو بغير عمد ولم يطع الأمر الذى صدر لهم الا الاقلون ، وهذهالقلة التى لم تشرب تتألف من قسمين .

١ — القسم الذى لم يشرب على الاطلاق .

٢ — والقسم الذى وقف عنــد حد اغترافغرفة واحدة .

وكلا القسمين ممن وصفهم القرآن الكريم بأنهم« آمنوا معه » وغنى عن البيان انهم مع اتحادهم فى الايمان ، فان القسم الأول هو الاقوى ايماناواشد رسوخا ولذلك سرعان ماتباين حكمهم على الموقف مرة اخرى ، بمجرد وصولهم الى ساحةالقتال ورؤيتهم العدو .

« قالو لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده »

ويفهم من السياق أن القائلين هم نفر منالمؤمنين الذين جاوزوا النهر مع طالوت ، فلمــا رأوا جالوت ومن معه من جند كثيف ، وجالوتهو اســم قائد الجيش المقاتل كمــا يفهم من السياق « لا طاقة لنا » أى لا قوة لنا .

« قال الذين يظنــون انهم ملاقو الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله » .

وهذا قاطع فى أن الايمان درجات ، فان منالمؤمنين من يتجسد الايمان فيصبح وكأنه شىء

مادى يلمسونه باليد ويشاهدونه بالعين وبهذا المعنى يجب ان نفسر كلمة « يظنون » هنا فهى لا يمكن ان تكون بمعنى الظن الذى يتضمن معنى « الاحتمال » بل هى تعنى ما هو اكثر من اليقين والجزم والقطع وهذا هو احد اسرار البلاغة القرآنية حيث يستعمل اللفظ فيدل سياق المعنى العام على انه يعنى المعنى المضاد ولا يمكن ان يكون الا كذلك ، فهذا الثبات الراسخ رسوخ الجبال والذى لم يؤثر فيه كثافة جند العدو ولا ما فى ايديهم من اسلحة وبرغم من قال : « لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده » من يرد على ذلك بقوله « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله » ويخوض المعركة بالفعل وينتصر ، فمثل هذا لا « يظن » ، وانما هو ينطوى على ما هو اكثر من « اليقين » وهو ما عبرنا عنه فى « مفهومنا » ان الايمان عنده قد تجسد فهو يشم عبير الجنة ، ويلسع جلده لفح جهنم لدى ادنى خطأ .

« باذن الله والله مع الصابرين »

هذا هو محور الايمان الذى فاز به المسلمون فى كل تاريخهم القديم والحديث ، وما سوف يفوزون به الى أبد الآبدين كلما امتلأت به قلوبهم وايقنوا أن النصر بيد الله .

« وما النصر الا من عند الله »

« ان ينصركم الله فلا غالب لكم »

« والله مع الصابرين » سيبقى الصبر « وهو قوة الاحتمال » امضى أسلحة النصر واقواها على الاطلاق ومن هنا كانت دعوة القرآن للمؤمنين بالصبر فى القتال .

« اذا لقيتم فئة فاثبتوا »

« اصبروا وصابروا ورابطوا » .

فالصبر هو سر النجاح فى أى امر من الامور ولما كان الحرب والقتال هو قمة الأمور كلها وعد الله بأنه سيكون عونا للصابرين .

« ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا افرغ علينا صبرا وثبت اقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين فهزموهم باذن الله وقتل داود جالوت » .

وتمضى القصة التى أوردها القرآن للوعظ والارشاد وتربية المسلمين الذين سيخوضون معركة حاسمة بعد قليل، فتعلمهم كيف يتصرفون اذا واجهوا الكافرين فى موقعة « ربنا افرغ علينا صبرا » .

« وانصرنا على القوم الكافرين » .

والصبر فى القتال هو ثبات الاقدام وهو ما يؤدى الى النصر .

وفى جعبة الذكريات قصة رويت لى منذ طفولتى لتصور سر النجاح فى الحرب اذكرها ليتعلمها الشباب ، فقد سأل سائل عنتر بن شداد عن سر نجاحه فى الحرب فقال له تعال اعلمك ، وطلب منه أن يضع كل منهما اصبعه فى فم الآخر ويضغط عليه بأسنانه ، فلم يكادا يفعلان حتى

صرخ الرجل بعد بضع لحظات ، فقال له عنترلو صبرت لحظة اخرى لكنتانا الذى صرخت».

وهذه هى الحرب، ينتصر فيها اكثرالمتحاربينصبرا ويسمونه فى عصرنا « النفس الطويل » وليس النفس الطويل سوى الصبر ، وهوالدرس الذى يلقيه القرآن الكريم على المسلمين وقد لا يعرف الكثيرون أن العرب فى الجاهليةلم يكونوا يعرفون فى الحرب الا أنها غارات سريعة يتفرق بعدها المغيرون بسرعة ، وليسالا فىظل الاسلام والجهاد فى سبيل الله ما نزل القرآن الكريم يقول « ان الله يحب الذينيقاتلون فى سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص »«.

وفى غزوة بدر راح رسول الله صلى اللهعليه وسلم يساوى الصفوف ، ذلك ان تكتل المحاربين « فى نظام الأسلحة البيضاء » يعينهمعلى الصبر والثبات ، ومن هنا حكى القرآن الكريم على لسان هذا النفر من المؤمنين قبلالاسلام ، وكيف دعوا الله ، ان يفرغ عليهم صبرا ويثبت اقدامهم وينصرهم على القومالكافرين » .

« فهزموهم باذن الله وقتل داود جالوت »

وكانت النتيجة الطبيعية للايمان العميق باللهوالصبر فى القتال ان هزم المؤمنون الكافرين باذن الله . يقول القرطبى : فهذه اسباب النصروشروطه وهى معدومة عندنا غير موجودة فينا فانا لله وانا اليه راجعون على ما اصابنا وحلبنا ، بل لم يبق من الاسلام الا ذكره ولا من الدين الا رسمه لظهور الفساد ولكثرة الطغيانوقلة الرشاد حتى استولى العدو شرقا وغربا وبرا وبحرا وعمت الفتن وعظمت المحنولا عاصم الا من رحم » ولقد نقلت عبارة القرطبى بنصها والتى كتبها يصور عصره منذبضعة قرون ، وها نحن اليوم وما زلنا نعيش فى الايمان والاسلام فعسى أن يخفف هذا القولالقديم من فزع من يتصورون أن الاسلام فى خطر كل الذى نطالب به كل مسلم ان عليه نفسه فىالدرجة الأولى يهذبها ويربيها وينميها على ضوء الاسلام وتعاليمه ومتى اشتغل كل انسانبعيوبه عن عيوب الناس فهذا هو السبيل للاصلاح المنشود .

« وقتل داود جالوت »

ويحدثنا القرآن الكريم ، ان داود قتل جالوتاما كيف قتله فلست على استعداد ان انقل لك ما جاء فى العهد القديم « كتاب اليهود » والاوقعت مرة اخرى فى براثن الاسرائيليات وافكها، وقد كان من مآسى الدهر التى تجرعناها أن « موسى ديان » كبير قادة اسرائيل شبه ماحدث فى حرب ١٩٦٧ وكيف هزمت اسرائيل مصروسوريا والأردن ، بأن ذلك تكرار لما حدث بين داود وجالوت ، واذ يقولون فى «هذيانهم»ان داود قتل جالوت بحجر تقذفه من « مقلاعه » وما فعله سلاح الطيران الاسرائيلى عام ١٩٦٧هو ضربة « مقلاع » داود مرة اخرى ، ونحن نعلم اليوم كيف نصرنا الله فى حرب رمضانونحن نهتف بذكر الله « الله اكبر » ومن هنا فمن رأينا ان لا نستشهد ابدا ولو على سبيلالحكاية والرواية بشىء ورد فى العهد القديم ، ولما كنت انا نفسى قد وقعت فى هذا الخطأ« بحسن نية » فها انذا انبه لذلك واستغفر الله واتوب اليه . « وآتاه الله الملك والحكمة وعلمهمما يشاء ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل علىالعالمين » .

وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾ * تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ۚ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ ۗ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ

« وآتاه الله الملك والحكمة »

اى ان الله سبحانه وتعالى بعد ان منح داود النصر على جالوت فقتله رفعه الى منصة الملك على بنى اسرائيل ومنحه الحكمة وعلمه ممايشاء .

« ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض » .

يقرر القرآن الكريم فى هذه الآية احدى سنن الاجتماع البشرى وهو كون الشىء المكروه قد يكون هو اساس الخير « وعسى ان تكرهوا شيئا وهو خير لكم » فالحرب وهى شىء مكروه وقد عبر عنها القرآن الكريم بـ « دفع الناس بعضهم ببعض » فهى سبب الحيلولة دون فساد المجتمع ، وقد افردت رسالة مطولة عن الحرب، وكيف انها احدى سنن الوجود الانسانى والتى تؤدى الى رقيه وتطوره وقد حاول بعض المفسرين ان يعطى لهذه الآية معنى غير معنى الحرب والقتال كما اراد الاكثرون أن يقصروها على حرب المسلمين على غير المسلمين ، ولكن رأينا أن الآية عامة المدلول فى أن المقصود بها هو الحرب بصفة عامة ، وقد جاء التعبير بكلمة « الناس » والناس هم البشر على اطلاقهم ، وهى ظاهرة شاهدناها نحن الذين عشنا طويلا فعندما يتعاظم الفساد والطغيان فى مجتمع من المجتمعات لا يوقفه عن التدهور ويعيده الى الجادة الا حرب تصدمه فتجعله يتنبه الى غفلته ويعود الى رشده .

وقد شهدت الدنيا فى القرن العشرين حربين عالميتين ، وكانا هما سبب انهيار امبراطوريات قامت على العسف والظلم وظفر العالم الاسلامى بحريته وكلنا امل فى أن ينهض ويسترد المسلمون مكانتهم باعتبارهم « خير امة اخرجت للناس » والعالم اليوم اصبح تتنازع السيطرة عليه قوتان كلتاهما تعيش من اجل المادة كل باسلوبه ، ولن ينجو البشر من هذا الفساد الذى اصبحوا غارقين فيه الا بحرب تقوم بين هاتين الكتلتين وهى قائمة باذن الله فيدمر بعضهم بعضا ويعود البشر الى طريق الله ، والحرب العامة الشاملة آتية لا ريب فيها بعد أن فتن الناس بما يسمونه التقدم العلمى والتكنولوجى وتصورهم ان ليس فى الكون سوى الانسان ، الانسان الذى اصبح قادرا على كل شىء وهنا يصدق قول العزيز الحكيم :

« حتى اذا اخذت الارض زخرفهـا وازينت وظن اهلها انهم قادرون عليها اتاها امرنا ليـلا او نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس » وهنا فقط تنشأ أجيال واقوام تؤمن بالله واليوم الآخر وتتقى الله فى كل اعمالها ، ذلك هـو ما نفهمه من قول القرآن الكريم بعد تعقيبه على معركة حربية « ولولا دفع الله الناس بعضهـم ببعض لفسدت الأرض » .

ولكننا لمـا كنا لا نفرض فهمنا على احد ، ولمـا كانت الأمانة العلمية تفرض علينـا من ناحية اخرى ان لا نحجب رأيا قيل ، فنحن نعرض الرأى الآخر ، فثمة قول يقول ان معنى الآية ان الله دفع بداود معرة الجبن عن اليهـود ، وان الله يدفع بالصالحين عن غير الصالحين ، والله تعالى أعلم بمراده .

« ولكن الله ذو فضل على العالمين »

وأيا كان المعنى المستفاد من الآية فكلها معان صالحة وطيبة وداعية الى المثل العليا وتهذيب النفس والايمان بأن كل ما يجىء من عند الله فهو فضل يفيض به على مخلوقاته .

« تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وانك لمن المرسلين »

يذكر الله عز وجل نبيه وجميـع من يتلون القرآن الى يوم الدين ، ان قص سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم لهذه الأحداث التى جرت لبنى اسرائيل هى آية نبوته ، فهو لم يكن يقرأ او يكتب حتى يمكن ان يقال انه طالعها فى كتاب ، ولا يمكن ان يكون تلقاها « بالسماع » عن اهل الكتاب والا لرواها كما يروونها ، وقـد رأى القراء كيف نتعفف عن مجـرد ايراد ما يقوله اليهود فهو تخليط وخرافة واحيانا يصـل الى درجة من الفحش يفزع لها الانسان .

والقرآن يذكر سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم ويعلمنا بالتالى الى ابد الآبدين انه رسول الله أوحى اليه ما أوحى ، فعلمـه ما لم يكن يعلم ، يقول تعالى :

« وما كنت بجانب الغربى اذ قضينا الى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين ، ولكنـا انشأنا قرونا فتطاول عليهم العمر وما كنت ثاويا فى اهل مـدين تتلو عليهم آياتنـا ولكنا كنـا مرسلين » .

ارهاص لمـا وقع بعد ذلك فى موقعة بدر

تضمنت سورة البقرة هذه الآيات ، والاجماع على أن سورة البقرة هى أول سور القرآن نزولا فى المدينة ، اى قبل أن تقع غزوة بدر التى تضمنت سورة الأنفال الحديث عنها ، ولم يفت قدامى المفسرين الرابطة بين هذه الآيات وبين ما حدث فى غزوة بدر ولكنهم قالوا كلاما لا سـند له الا الاسرائيليات كأن يشـيروا الى أن عـدد اصحاب النبى صلى الله عليه وسلم كانوا حول ٣٠٠ مقاتل ثم يضيفون « اى بعدة أصـحاب طالوت » وهذا هو ما نسميه مجرد قول لاظهار المشاكلة .

ولكننا وقد فرغنا لتونا من دراسة موقعة بدر اثنـاء اعدادنا الجزء الثانى من كتابنا « نبى الانسانية » فقد استوقفتنا على الفور هذه القصة وكيف أنها تشـكل احد اعلام النبوة قد انطبقت

على ما حدث بالفعل بعد ذلك فى موقعة بدر فقد سيق أصحاب طالوت للمعركة سوقا ، كان عددهم قليلا بالنسبة لعدوهم ، افتتحت المعركة بالمبارزة وكان لقتل داود لجالوت اثرا فى تحقيق النصر .

وهذه العوامل وغيرها هو ما تحقق فى غزوة بدر يقول القرآن الكريم :

« كما اخرجك ربك من بيتك بالحق وان فريقا من المؤمنين لكارهون ، يجادلونك فى الحق بعد ما تبين كانما يساقون الى الموت وهم ينظرون ». وكان عدد المؤمنين قليلا بالنسبة لاعدائهم وافتتحت المعركة بالمبارزة وصرع سيدنا على وسيدنا حمزة راسين من رؤوس الكفر فكان لهذا النصر المبكر اعظم الاثر فى تحقيق النصر النهائى وصدق الله العظيم اذ يقول لنبيه « وانك لمن المرسلين » .

مفردات :

تلك الرسل : قواعد اللغة العربية التى أرساها القرآن الكريم نفسه ، تعتبر اسم الاشارة «تلك» خاص بالمؤنث و « ذلك » خاص بالمذكر ، ولكن من اساليب القرآن الخاصة به ان « يعامل » المعنى فى لفظ محذوف وليس اللفظ المثبت .

ومن هنا قال اللغويون : ان اسم الاشارة هنا هو لكلمة « جماعة » وهى مؤنثة فلزم ان يكون اسم الاشارة مؤنثا ، وهو اسلوب خاص بالقرآن الكريم .

الرسل : جمع رسول وكل رسول نبى ، وليس كل نبى رسول . فكلاهما ينزل عليه وحى من رب العالمين ، ولكن الرسول يزيد على ذلك أن يكلفه الله برسالة الى قومه او الى العالمين « سيدنا محمد » .

فضلنا بعضهم على بعض : يقول القرطبى : « هذه آية مشكلة » ومن قبله ومن بعده يقف كثير من المفسرين امامها طويلا يحاولون أن يقرروا موضعها بالنسبة لما روى من أحاديث ثابتة ومتفق عليها من أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن تفضيله على اى رسول آخر « لا تخيروا بين الأنبياء » و « لا تفضلوا بين انبياء الله » .

وثمة احاديث كثيرة تدور حول هذا المعنى من نهى سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام عن المفاضلة والمقارنة ، هنا ويبادر قوم فيقولون أن ذلك كله كان قبل نزول الآيات التى تنص على التفضيل ، أما بعد نزولها فقد نسخت ما سبقها ، بينما قال آخرون انما قال سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ما قال من باب « التواضع » وقد تأسى به أبو بكر الصديق عندما قال فى أول خطاب له بعد الخلافة « وليت عليكم ولست بخيركم » مع انه خيرهم بلا جدال او شبهة . وذهب راى ثالث الى انه ليس للبشر أن يفاضلوا وان يدعوا التفضيل لله .

وقد قلنا من قبل وسوف نقول أن الأمر فى هذه القضية يفسره قولنا فى الدساتير الوضعية ، « المواطنون سواء لدى القانون » وقد سبق الاسلام الحنيف ذلك كله بتقريره « المسلمون

سواسية كاسنان المشط » وساوى القرآن الكريم بين جميع المؤمنين بأن وصفهم بالأخوة « انما المؤمنون اخوة » وربط بين البشر جميعا برباط القرابة والنسب « يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى » وذلك كله ليؤكد « وحدة الجنس البشرى » فلا دم أبيض لفريق ، ولا دم أزرق لفريق آخر ، ولا أبيض ولا أسود ، ولا جنسية ولا عصبية فالكل عبيد الله ، الكل من ولد آدم وآدم من تراب ، هذا هو المقصود من التسوية بين البشر فلا يستعلى احد على احد بسبب الجنس أو اللون أو الوضع الاجتماعى ولكن القرآن الكريم بعد أن قرر هذا المبدأ ، بين أن الناس بعد ذلك تتفاضل بالتقوى والعمل الصالح « ان أكرمكم عند الله أتقاكم » .

وزاد الأمر بعد ذلك تفصيلا فقال تعالى :

« يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين اوتوا العلم درجات » .

« نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذى علم عليم »

وتحدثت آيات عديدة فى القرآن الكريم عن الدرجات والتفاضل فى كل شىء من اعمال بنى الانسان ، على أن يبقى اصل الأصول أن البشر جميعا متساوون بحسب انسانيتهم .

تطبيق المبدأ على الرسل :

وعلى هذا الأساس يجب أن نفهم ماجاء فى القرآن الكريم من مثل « لا نفرق بين احد من رسله » وما قاله سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام حول هذا المعنى وآخذا بالأمر الالهى « فلا تزكو انفسكم » .

فجوهر النبوة واحد وجوهر الرسالات واحد، ومتى اختار الله سبحانه وتعالى انسانا ليبلغ رسالته فقد وصل هذا الانسان الى المرتبة التى لا تعلوها مرتبة ، ولكن حتى داخل هذه المرتبة الواحدة والعالية جدا ، فان الله سبحانه وتعالى يجرى سنته فى تدرج اى أمر ، ومن هنا تحدثنا الآية الكريمة عن التفاضل بين الرسل ، واذا كان المؤمن العادى أيا كانت الأعمال الصالحة التى قام أو يقوم بها ، فأمره الى الله سبحانه وتعالى ، فمن باب اولى يكون هذا هو شأن الانبياء والرسل ، فما كان سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم مهما علا قدره بالذى يزكى نفسه ، أو يفضل نفسه على غيره من الرسل وتكون كل الأحاديث الواردة عنه بهذا المعنى تتفق مع كماله الانسانى ومصداقا لقول العزيز الحكيم عنه « وانك لعلى خلق عظيم » ، فليس فى الأمر أى اشكال ان يقول سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ماقال ، وأن يكون فى ذات الوقت مفضلا عند الله .

سيدنا محمد وما ينبغى له :

وكل مسلم بحكم اسلامه يفضل سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم على كل من سبقه من الرسل والا لما تمسك بالاسلام ، وحسب الأفضلية انه خاتم الانبياء والمرسلين ، فهذا التأخر فى الزمن جعل رسالته تحكم من سبقها من الرسالات ولا تحكمها هذه الرسالات ، وجعل منه ومن امته شهداء على من سبق من الرسل والأمم ويبقى الأصل الثابت ان جوهر الرسالات واحد وان نوعية الرسل واحدة وهى امتيازهم جميعا على سائر البشر ، وان يكن ذلك ليس بمانع أن يفضل الله سبحانه وتعالى بعضهم على بعض .

« منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات » .

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى نموذجا لهـذا التفضيل ككلامه مع بعض الرسل ، وقد اشار القرآن فى أكثر من آية ان موسى هو كليم الله .

ورفع بعضهم درجـات ، اى درجـــات فى الأفضلية ، فكلهم فضلاء على درجات فى الفضل .

« وآتينا عيسى ابن مريم البينات وايدناه بروح القدس » .

واذا كان القرآن الكريم قد اعتبر كلام الله مع احد من الرسل هو آية فضله ، فقد نص على تفضيل « المسيح » عيسى ابن مريم بالاسم وان آية فضله هو ما أجراه الله على يديه من آيات بينات « معجزات » منذ مولده «حيث انطقه الله فى المهد» « حيث رفعــه » .

وايدناه : قويناه .

بروح القدس : اى جبريل .

فأنت ترى ان لاخلاف بين المسلمين والمسيحيين فى ان عيسى « يسوع » ابن مـريم كان مؤيدا « بروح القدس » حيث ترى العقيدة الاسلامية أن روح القدس « هو أو هى » بعض خلق الله ، حيث يرى المســيحيون أن روح القدس هـو « الاقنـوم » الثالث من أقانيم الله اسـلافه ولا يتصورون متصور اننا سنخوض فى جـدل حول روح القدس شغل المسيحيين انفسهم عدة قرون الى ان حسموه فى مؤتمر « موسكونى » واضافوا الايمان بروح القدس باعتباره المظهـر « الاقنوم » الثالث للالوهية « الواحدة » والذى يهمنا هنا باعتبارنا مسلمين ، ان عيسى ابن مريم « يسوع » كان مؤيدا بروح القدس الذى هـو جبريل عليه السلام .

« ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعـدهم من بعد ما جاءتهم البينات ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر » .

الله خالق كل شىء ومريد كل شىء

يتصور الانسان « غير المؤمن » أن الامور تجرى فى هذه الدنيا وفق مشيئته واجتهـاده وحساباته و « وتخطيطه » وحقـا خلق الله الانسان وزوده بالعقل الذى يستطيع الاختيار بين أمرين ، وعلى الانسان كما قلنا أكثر من مرة أن يحسن استعمال الملكة التى ركبها الله فى طبعه فيحسن الاختيار فيؤمن بدل أن يكفر ، ويمشى فى النور بدلا من السير فى الظلام ، على أن لا يغفل لحظة عن الايمان بأن الله سـبحانه وتعالى :

« خالق كل شىء »

« والله خلقكم وما تعملون »

وأن ارادة الانسان ومشيئته لا تكون الا بعد ارادة الله ومشيئته .

« وما تشاءون الا ان يشاء الله »

« ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم »

وتطبيقـــا لذلك فان الله سبحانه وتعـــالىيذكر المؤمنين الى ابد الأبدين ، أن البشر عندما يقتتلون فان ذلك يتم لأن الله يريد ذلك . خذعلى سبيل اقرب مثال لنا حيث يعمد قوم كانوا يتيهون على الدنيا كلها ، أنهم أصحاب حضارةتعلو على الحضارات لا تعرف تعصـــبا للدين أو للجنس أو القومية ، ولذلك فقد وصلوا الىقمة الازدهار والنجاح والغنى ، وفجاة نراهم وقد انقلبوا الى ضد ما اعتادوا أن يتباهوا به ،بل ويزيدوا على ذلك أن ينحدروا الى هـــاوية « اللا انسانية » وليس لهذا الا تفسير واحدهو « تلك مشيئة الله » وهو ما تقرره الآية التى نحن بصددها والتى تقرر أن قد جاء الناس من البينات والحجج الدامغة ما يجعلهم فريقا واحدا يؤمنون بالله ويعيشون فى سلام ولكنهم بدلا منذلك راح الفريق ينقسم وينقســـم ، ويقتتـــل الفرقاء .

« ولـــكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر » .

وهكذا تؤدى البينات الواضحة والادلة الدامغةالى اختلاف الناس ، فمنهم من يرى النور فيتبعه ومنهم من يؤثر التخبط فى الظلمات فيظل علىعمايته والاولون هم المؤمنون اما الاخيرون فهم الكافرون .

« ولو شاء الله ما اقتتلوا ولكن الله يفعلما يريد » .

هذا هو الأصل الذى يريد الله سبحانه وتعالىان يثبته ويعمقه فى نفوس المؤمنين من انه لو شاء لما اختلف الناس ولو شاء ما اقتتل الناسولو شاء لجعلهم امة واحدة ولكن الله يفعل ما يريد .

« فليترفق اقوام بأنفسهم وبالناس » .

ولذلك فليترفق قوم بأنفسهم عندما يقطعونأنفسهم حسرات رغبة منهم فى أن يروا النـــاس ويتصورونه هم ، ويجب أن يقفوا طويلا أمام هذهالآية وأمثالها فلوشاء الله ما اختلف الناس ، وما على من يضيق بهذا الخلاف أن يتجهبجهده اولا وقبل شىء نحو نفسه هو يتعدها بالتربية الاسلامية الحقة وان يهذبها بالعلم والمعـــرفةوان يضع نصب عينيه دائما قول الله تعـــالى لنبيه « انك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدىمن يشاء » واذا كان هذا قول الله لسيدنا محمد وهو من هو فليترفق أقوام بأنفسهم وليعلموا أنالخير اعظم الخير هو فى أن يقدموا للناس القدوة الصالحة .

« ياأيها الذين آمنوا انفقوا مما رزقناكم منقبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة والكافرون هم الظالمون » .

القتال فى حاجة للانفاق الكثير :

مما يلاحظ أن الحث على الانفاق كثيرا ما يردعقب التحدث عن الحـــرب مما جعـــل بعض المفسرين يخصص الانفاق على الجيوش المحاربةفى سبيل الله وهو تخصيص بغـــير مخصص ، ومادامت الآية عامة فيجب أن تظل عامة فلاتخصص بناحية محددة ، وغنى عن البيان أن

الانفاق فى سبيل الله على اعـداد جيـوش المسلمين للدفاع عن الاسلام والمسلمين ، ياتى على راس الانفاق فى سبيل الله ، اما من اين يصف الانفاق بانه فى سبيل الله حيث ورد الامر بالانفاق عاما ، فذلك لان الانفـاق على شخص المنفق مسالة تتم بالضرورة وليست فى حاجة الى امر الهى ، ثم ياتى تعبير « مما رزقناكم » اشارة الى ان كل ما تحت يد الانسان هو من « رزق الله » فاصبح شكر النعمة يقتضى انفاق بعض ما رزق الله فى سبيل الله ، وياتى فى نهاية الآية « والكافرون هم الظالمون » « من قبل ان ياتى يوم لا بيع فيه ولا خلة » . اى على المؤمن ان يعمل حسابا ليوم القيامة فيقوم وهو لا يزال قادرا فى هذه الحياة الدنيا بالاعمال الصالحة التى تثقل ميزان حسناته يوم القيامة .

لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة

لا بيع فيه : بمعنى ان يوم القيامة ليس سوقا يستطيع الغنى فيه او القادر ان يشترى مايريد.

ولا خلة : الخلة هى الصداقة والمودة القوية، ومعلوم اننا فى الحياة الدنيا نتقوى ونتنـاصر بالاصدقاء والاصحاب والخلان ، فاذا كان يوم القيامة فقد اصبح كل انسان فردا لا ينفعه ولا يغيثه الا عمله الصالح .

ولا شفاعة : الشفاعة هى الاستعانة « بشفيع مـا » للتوصل الى التجاوز عن السـيئات ، وسنتحدث عن الشفاعة فى الآية التالية .

« والكافرون هم الظالمون » كانت هذه الآية زمن نزولها تتحدث عن واقع محسوس ملموس يحسه كل مؤمن حيث كان الكافرون بالله يظلمون المسلمين بكل صنوف المظالم ، حتى لقد اذن الله سبحانه وتعالى للمسلمين بان يحاربو ليدفعوا عن انفسهم الظلم « اذن للذين يقـاتلون بانهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير » ولكن المؤمنين فى صدر الاسلام اذا كانوا قد فهموا هذا المعنى الخاص فنحن نتلقاه عنهم ، ونفهم المعنى العام الذى تشعه الآية وهو ان كل كافر ظالم ، ظالم لنفسه بداءة ذى بدء ، وظلم بعد ذلك للمجتمع ككل بانكاره الخالق الرحمن الرحيم ، وسلب البشر من اسمى نعمة فى الوجود وهى العزاء والأمل .

« الله لا اله الا هو الحى القيوم »

بهذا التعبير الدال على التوحيد تبدأ اشهر آية فى القرآن الكريم بين المسلمين ونعنى بها ماعرفت باسم « آية الكرسى » وذلك لورود لفظ « الكرسى » منسوبا الى الله وسوف نتحدث عنه فى حينه ، اما الآن فنقف عند حد الالفاظ التى نحن بصددها .

« الله لا اله الا هو »

اشمل واكمل تعبير عن توحيد الله ، فهو يبدأ بذكر اول الفاظ الجلالة « الله » ثم تعريفه بانه الاله الذى لا اله غيره ولا رب سواه ، فهـو واحد احد فرد صمد ، ولقد قلنا فيما سبق ونكرر أن صيغة التوحيد « لا اله الا الله » تتضمن الاثبات بعد النفى .

ذلك أن القضية عند البشر مذ كانوا بشرا لم تكن هى جحود الالوهية من اساسها فذلك معنى

لم يطرأ على عقول البشر الا بالنسبة لأفـــرادمعدودين وفى أزمنه محددة لا تلبث أن تزول ويعود الايمان بالله كأقوى ما يكون وانما تلخصانحراف البشر فى الأزمنة القديمة ، انهم كانوا يعبدون الى جوار الله شركاء له من شتى الأصناف،وكانت عبادة الأصنام هى آخر تطورات هذه الظاهرة، ومن هنا كان مشركو قريش يعترفون بأن خالق السموات والأرض هو الله « ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله » وكانوايبررون عبادتهم للأوثان بأنهم يفعلونها لانهاتقربهم « زلفى » أى واسطة وشفيع يشفع لهم عندالله ، وكان المشركون عندما يلبون تلبية الحج « لبيك اللهم لبيك » يقولون فيما يقولون « الاشريكا هو لك » فالقضية لم تكن هى نفىالالوهية وانما كانت فى الاشراك بها .

ومن هنا جاءت الدعوة الاسلامية تقول لهمولكل من له اذنان للسمع « لا اله الا الله » فنفت العقيـــدة الاســـلامية الالوهيـــة عن كائنمن كان اولا ثم اثبتتها لله وحده ، ثم كانت هذه الصيغة التى نحن بصددها فبدأت بذكر لفظالجلالةواردفت بتنزيهه عن ان يكون له شريك بأن عبرت عنه بضمير الغائب الذى لا يرجع الا اليه فأصبحتعبيرا بليغا كاملا محكما شأن كل آيات القرآن « الله لا اله الا هو » .

« الحى القيـــوم »

ثم يأتى اول صفة ترد الى الذات العليـــة بعدكونها واحدة وهى انها « حية » وتستمد هذهالصفة اهميتها وخطورتها من كونها فارق ما بين الايمانوالالحاد ، فالملحد بمعنى الكافر لا ينفى ولا يمكن أن ينفى ان يكون لهذا الكون سبب أول ولكنهيطلق على هذا السبب الأول الدهر او الطبيعة او الصدفة واذا كانت هذه كلها مجرد كلمات معنويةفان آخر المقولات الالحادية هو «المادة» باعتبارها سبب الأسباب فهى القديمة وهى الخالقة وهىالفاعلة وهى كل شىء ، وتكون الصفة الجامعة بين كل الوان الكفر قديمها وحديثها هو كونالسببالأول شىء اعمى لا هدف له ولا غاية وانما يخبط خبط عشواء ، وهذا هو الفارق بين الايمان باللهوبين الكفر فالمؤمن يرى فى سبب الاســـباب انه ليس شيئا مجردا ولا هو فرض عقلى وانما هوكينونة « ذات » وهذه الذات متصفة بالحيـــاة وما يتبع الحياة من سمع وبصر وعلم وقدرة فالله« حى » وهنا يظهر تفوق الايمان بالله على الكفر من الناحية المنطقية البحتة فمادام الإنسان وهواحد منتجات « مخلوقات » السبب الأول شيئا أعمى لا هدف له ولا غاية وانما يخبط متصفابالحياة ،والا فمن اين جاءت هذه الحياة والمنطق « الصارم » يقوم على أن فاقد الشىء لا يعطيه ،فاذا كان السبب الأول ليس حيا فمن اين جاءت الحياة ، واذا كان لا يسمع او لا يبصر او لا يدركفمن اين جاء الانسان بالسمع والبصر والادراك، هنا ويقول الماديون ان المادة تطورت فأصـــبحتتسمع وترى وتفكر فليكن هذا تصورهم يبررون به كفرهم فلنسأل الله لهم الهداية ، أما نحنالمؤمنين«فضلا من الله ونعمة » فنؤمن بالله « الحى » وما الحياة الانسانية هذا اللغز المحير المستعصىعلى الادراك الا مظهر هذا الا له الحى « فاذا سويته ونفخت فيه منروحى فقعواله ساجدين ». « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى ».

القيوم : « من الفعل قام وهى صيغة مبالغةبمعنى انه « شديد القيام بتدبير ما خلق » .

لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ
وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا
وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ
ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ
إِلَى ٱلنُّورِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا
خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِۦمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ
وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى

لا تأخذه سنة ولا نوم : ويقتضى كونه هــو القائم بشئون الكون ، انه اذا فتر لحظة او اختل ميزانه ، أو اصابه ملل او كلل أو خلل فى لحظة او ما دون اللحظة لانفرط عقد الكون وتناثر، « وهو عين ما يتشدق به الماديون عن الجاذبية، باعتبارها قوام هذا الكون ، فلو ان قانون الجاذبية تعطل لحظة او مادون اللحظة الى ادنى حد متصور لانفرط نظام الكون » ولكن القرآن الكريم عبر عن هذا المعنى بأن الله سبحانه وتعالى « لا تأخذه سنة ولا نوم » والسنة هى « النعاس » فى قول الجميع والنعــاس هــو الفتــور الذى يصيب عين الانسان اذا اوشك على النوم ، فاذا امتد هذا الفتور الى القلب او الى المخ او لى اى ماكان فهو « النوم » هذه الظاهرة التى تعترى البشر حيث تقتضى عليهم الطبيعة بالكف عن النشــاط والحركة والاخلاد الى السكينة ، ولما كان الله سبحانه وتعالى قد وصف نفسه بالحياة فقد بادر بالتنبيه على انها حياة غير الحياة البشرية التى نعرفها ، فهى وان كانت حقا وصدقا نفحة الهية من روح الله ، ولكنها اذا اختلطت بطين الارض لتكون هذا المخلوق الذى هو « الانسان » فقد اصبحت حياة انسانية لها خصائصها اما حياة الله سبحانه وتعالى فشىء خاص به ، لا مثيل له « ليس كمثله شىء » ومن هنا كان ان شفع نسبة الحياة الى الله انها شىء مختلف تماما عن هذه الحياة الانسانية التى تعرف والتى من اخص خصائصها أن يعترى الكائن الحى الوسن والنوم.

له مافى السموات ومافى الأرض : وتتكامل عناصر الايمان وتترابط ، فليس يكفى ان نؤمن بالله وانه واحد وان نعزوله ما نشاء من صفات بل يجب ان نؤمن انه لم يخلق هذا الكون ثم تخلى عنه كما زعم بعض فلاسفة الأغريق ، بل انه خلق الكون وهو قائم بتدبيره ابدا « قيــوم » وان بيده ملكوت كل شىء من النملة فما دونها فى الكائنات الحية ، حتى المجموعة الشمسية والجرات والأفلاك وكل « ما فى السموات وما فى الأرض » .

« من ذا الذى يشفع عنده الا باذنه »

حديث الشفاعة بمعنى التوسط عند الله لطلب التجاوز عن سيئات شخص آخر وشموله بالعفو الالهى حديث طويل جدا وسنظل نعود اليــه ما بقى فى العمر بقية ، وبقى الله سبحانه وتعالى ينعم علينا بنعمة تفسيرنا لكتابه المجيد ، وجملة ما يقال فى الشفاعة انها حق مقرر ومؤكد بنصوص القرآن والسنة فتعددت آيات القران الكريم التى تحظر الشفاعة بمعنى ان كل انسان محـــاسب بعمله ان خيرا فخير وان شرا فشر ، ولكنه ماذكر حظر الشفاعة الا واعقبها على الفور بأن الشفاعة عندما تتم فهى تتم بأذنه ، كما هو الشأن فى هذه الآية « من ذا الذى يشفع عنده الا باذنه » .

فالشفاعات تكون ولكن « باذن الله » وهى تكون عندما يأذن بها لمن يشاء من عبيده ويرضى عنهم قال تعالى : « وكم من ملك فى السموات لا تغنى شفاعتهم شيئا الا من بعد ان يأذن الله لمن يشاء ويرضى » وكقوله تعالى « ولا يشفعون الا لمن ارتضى » .

والشفاعة بعد ذلك خاصة لسيدنا محمد ، جاء فى حديث الشفاعة الذى هو اصل من اصـــول الاسلام من قول سيدنا محمد صـــلى الله عليه وســـلم : :

« آتى تحت العرش فأخر ساجدا فيدعنى ماشاء الله ان يدعنى ثم يقال ارفع راسك وقل تسمع واشفع تشفع قال فيحد لى حدا فأدخلهم الجنة » والذى يهمنا ان نثبته هنـــا فى موضـــوع الشفاعة انه جاء ردا على مشركى العرب عندما تصوروا ان اصنامهم ستشفع لهم يوم القيـــامة بأن قال لهم ان الشفاعة لا تتم الا باذنه .

الأمر الثانى الذى قصدت اليه الآيات الكريمة ان تحذر المسلمين الى ابد الآبدين ان لا يتكلوا على الشفاعة فانها فى خاتمة المطاف لن تكون الا لمن رضى عنه الله والطريق الى رضاء الله واضح ومحدد وهو فى صالح الأعمال .

« يعلم ما بين ايديهم وما خلفهم »

وبعد أن تحدثت الآية عن وحدانية الله وقدرة الله وان بيده ملكوت كل شىء تحدثت عن علم الله الذى هو عين قدرته فاذا كان البشر هم الكائن الحى الذى يعى هذا الكون فان الله يعلم كل ما ظهر وما بطن ، كل ما كبر وعلا ودق أو خفى من الكون والانسان ، كل ما اصطلح الانسان على تسميته بالماضى والحاضر والمستقبل معبــرا عن ذلك كله وما هو أبعد وأعمق منه بالعبارة الشاملة « ما بين ايديهم وما خلفهم » بكل ما تفيده « البينية والخلفية » من الزمان والمكان .

« ولا يحيطون بشىء من علمه الا بما شاء »

وبعد أن تحدثت الآية الكريمة عن علم الله الذى لا اول له ولا آخر تتحدث عن علم الإنسان وانه قبس من علم الله يدركه الانسان بأذن من الله وطبقا لمشيئته ، عن طريق الفطرة حينا حيث يولد الطفل وقد ركب فى طبعه قبس من المعرفة ، أو عن طريق المعاينة والمبــاشرة وهو ما نســميه بالتجربة ، او عن طريق الالهام ، او عن طريق الوحى « وهو خاص بالانبياء والرسل » كل هذه الطرق التى يحصل بها الانسان شعاعا من العلم والمعرفة انما يتم بارادة الله ومشيئته وبالقدر الذى يراه لازما ليستمر البشر فى اداء رسالتهم فى هذا الكون ، ويتصور بعض « المغرورين » فى العصر الحديث ، انهم وصلوا فى العلم الى منزلة فــوق المنازل كلها ، وهو وهم وخداع يغرق فيه كل جديد من البشر حتى تكشف العصور التالية ان ذلك لم يكن الا وهما وخداعا للنفس وأن الانسان مهما زاد علمه فانه يحس بضآلة ما توصل اليه .

« وما أوتيتم من العلم الا قليلا »

وقد كان نيوتن الذى اعتبره البعض اعلم علماء البشر لاكتشافه « قانون الجاذبية » كان يقول عن نفسه : انه يشبه أن يكون طفلا يلهو على الشاطىء بصدفة أو محارة او « زلطة » حيث يمتد أمامه الى ما لا نهاية بحر المعرفة فليس سوى الجاهل من يتصور أنه عالم ، اما العالم الحق فهو الذى يعلم ان علمه لا يزيد عن نقرة عصفور فى البحر ،وحتى هذا القدر الضئيل جدا جدا فهو لا يحصل الا بأذن ومشيئة الهيـــة .

« وسع كرسيه السموات والأرض »

« الكرسى » تلك هى الكلمة التى اطلقت على الآية فاصبحت تسمى « آية الكرسى » والكرسى فى اللغة هو « ما يجلس عليه » ولعل هذا هو مصدر التسمية بأنها آية للكرسى ورويت احاديث فى قدر الكرسى ونسبته الى العرش ، ولست ممن يحبون أن يخوضوا فى هذه المباحث وحسبى ان اعثر على قول من كبار الصحابة وقدامى المفسرين وشيوخهم اطمئن اليه ويطابق فهمى حتى آخذ به دون أن انعى على من يفهم القول بمفهومه على أن يظل فى حدود الايمان بتنزيه الله عن المكان والزمان، وأن ليس كمثله شىء والقول الذى اختاره قال به ابن عباس رضى الله عنه واخذ به ابن جـرير الطبرى وعززه أن كرسى الله اى علم الله يقول الطبرى : ومنه « الكراسة » اى كتاب العـلم وقال آخرون كرسى الله اى سلطان الله والمعنى واحد فعلم الله سلطانه والعكس بالعكس .

« ولا يؤوده حفظهما »

اى أن علم الله وسلطانه الذى يحفـظ ملك السموات والارض لا يثقل على الله ، اى لا ينال منه او يؤثر عليه ادنى تأثير .

« يؤوده : يثقله »

« وهو العلى العظيم »

فهو العظيم المتعال الذى يعلو كل شىء ، يعلو فى القدرة وفى الهيمنة والسيطرة ومن كان فى يده ملكوت كل شىء فهو اعلى من كل شىء ويجهد اقوام انفسهم فى القول بأن العلو هو فى القـــدر والاعتبار وليس فى المكان وقد قلنا ونقول ان الزمان والمكان هما شيئان خاصان بالانسان قدرهما نتيجة نقصه وعجزه ، اما بالنسبة لله وهو الكمال المطلق فلا زمان ولا مكان اى لا ماضى ولا مستقبل ولا فوق أو تحت وانما هو وجود ابدا ه اقتدار ابدا هو العلى العظيم .

« لا اكراه فى الدين »

وهو نصل الآن الى اصل من اصول الاسلام الثابتة وهو ان لا يكره احد على اعتناق الدين ذلك أن الدين أول ما يكون هو اعتقاده فى القلب،وهو ما لاحد من سلطان عليه قد يكون بقدرة حاكم ان يحمل الناس على التزام مظاهر معينة ولكنه لا يستطيع ان يصل الى موضع العقيدة الكامنة فى اعماق النفس ، ولقد كان سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم يعلم المنافقين ، وكثيرا ما اغراه أمناء اصحابه للبطش بهم ، فكان سيدنا محمد صلى الله وسلم يرفض ذلك بكل قوة ، انه يعرف ان العقيدة وصحتها مسألة باطنية » وقد أمره الله فى اكثر من مناسبة ان عليه ان يؤدى رسالته ويبلغ ما انزل اليه من ربه تاركا موضوع الهداية لله سبحـــانه وتعالى يهدى من يشاء .

— ليس عليك هداهم ولكن الله يهدى من يشـــاء .

— ما على الرسول الا البلاغ .

— فذكر انمـــا انت مذكر . لســـت عليهم بمسيطر .

— افأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين .

فأنت ترى أن النهى عن الاكراه فى الدين ، اصل من اصول الاسلام التى قامت عليها الحضــــارة الاسلامية وانتشرت بذلك فى ارجاء العالمين ، ومع ذلك فسوف نجد من الأقدمين عندما كان المسلمين هم القوة الغـــالبة من يقول لك أن هـــذه الآية نسخت ، ويقولون ان آية « ياايها النبى جاهد الكفار والمنافقين » .

ويشيرون الى حرب سيدنا محمد صـــلى الله عليه وسلم للمشركين من العرب وعدم قبوله منهم سوى دين الاسلام ، وعندنا ان الله سبحانه وتعالى عندما يقرر ان لا اكراه فى الدين ، فليس مما يرد عليه نسخ .

واذا كان الله سبحانه وتعالى قد أذن للمسلمين أن يدافعوا عن انفسهم وعقيـــــدتهم ومجتمعهم بالحرب والقتال ، فذاك لا دخل له فى اكراه الناس على الايمان الذى هو مسألة باطنية بحتة لاسلطان لأحد عليها وقد ألمع القرآن الكريم لهذا المعنى عندما خاطب البعض بقوله « لا تقولوا آمنا ولكن قولوا أسلمنا : ولما يدخل الايمان فى قلوبكم »وفى يدنا ما فعله سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه وهو خير من يفهم القرآن وهو الأمين على سنة رسوله ، عندما أوقف الحرب ضد الفرس وقد كانوا مجوسا يعبدون النار ومع ذلك فقد قتل منهم ان يدفعوا الجزية اسوة بالكتابين ، ولم يجبرهم على الاسلام . ذلك ان هذه الآية الكريمة « لا اكراه فى الدين » وامثالها ، واذا كان الفرس وغيرهم قد دخلوا بعد ذلك فى دين الله افواجا فقد كان ذلك بفضل هذه السماحة التى جعلها الاسلام للبشرية .

« قد تبين الرشد من الغى »

مفـــردات

تبين . اى اتضح وظهر

الرشد : اى السداد والهداية من الفعل رشد يرشد رشدا ورشادا فهو راشد ورشيد وهم راشدون والمعنى اللغوى اصاب وجـــه الأمـــر والطريق ، وهو نقيض الغى .

الغى : ضد الرشد اى الضلال

ويكون المعنى العام ان لا حاجة لان يكره احد على اعتناق الاسلام فهو بذاته اصبح واضـــح الحجة فى انه نور وهداية وخير كله وحق واستقامة وان ما عداه باطل وظلام وانحراف ، وهو ما تام اربعة عشرا قرنا الدليل القطعى عليه فــراح الاسلام ينتشر وينتشر بما انطو عليه من مبادىء انسانية وخلقية وحضارية ، بحيث انتشر بعد أن فقد المسلمون قوتهم العسكرية اضعاف ما انتشر قبل ذلك ولا يزال رغم سوء حال المسلمين اليوم وانهم يعدون من بين الشعوب المتخلفـــة ، فان الاسلام بمبادئه يغزو قلب كل من حاول أن يفهمه من ارقى الشعوب مهما علا مركزه .

« فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله قد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها »

الطاغوت : الشيطان وكل معبود سوى الله وهو من الطغيان مصدر الفعـــل طغى يطغى اى تجـــاوز الحد .

العروة : ما يتعلق به كالمقبض .

الوثقى : الاشد الأحكم .

لا انفصام : لا انقطاع لها .

فالاسلام ليس فى حاجة الى ان يكره عليه احدبأى نوع من الاكراه ، حتى ولو كان اكراها عقليا او فكريا ، ومن هنا كانت معجزته الكبرى وهى» القرآن « معجزة عقلية بحتة لتبقى على مر الزمن ليعيا كل من كان له اذنان يسمع بهما وعينان يبصر بهما وقلب وعقل يعى بهما ، ومن هنا تقول لنا الآية كما تقول آيات اخرى عديدة أن من اهتدى فقد اهتدى لنفسه ومن ضل فعليها ، وهنا تقول لنا الآية ان من يكفر بكل معبود سوى الله، ويؤمن بالله وحده فقد وقف على الصخرة المتينة، وتعلق بحبل النجاة ووصل الى شاطىء الامان فقد استمسك بالعروة الوثقى والتى لن تنقطع ابدا لا انفصام لها .

والله سميع عليم ، والله يسمع سركم ونجواكم ويعلم ظاهركم وخافيكم .

« الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور »

الولى : من يتولى أمور غيره ويقوده بالنصح والارشاد والهداية ، وقال البعض انها تعنى هنا الناصر ونحن نرجح المعنى الأول انه من الهداية ويدخل فيها معنى الانتصار على الشيطان والمعنى احد المبادىء الثابتة فى العقيدة الاسلامية وهى أن الهداية من الله فهو الذى يتعهد المؤمنين بهدايته فيخرجهم من ظلمات الجهل والضلال والكفر والباطل الى نور الحق واليقين والعلم وهو ما يتحقق باعتناق الاسلام الذى أسمته الآية نورا .

« والذين كفروا اولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور الى الظلمات »

وهذا القسم من الآية يقرر المعنى المضاد لما سبق، فالذين كفروا وليهم بمعنى قائدهم ومرشدهم ومتولى أمرهم هو الشيطان والشيطان كما يكون من الجن يكون من الأنس فيقودهم الشيطان كائنا ماكان ليخرجهم من نور الحق واليقين والايمان بالله الذى هو فطرة الخلق التى فطروا عليها الى ظلمات الكفر والجهل والتخبط .

« أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون »

ولن يكون مصير الكافرين الا النار يصلونها وبئس المصير .

كلمة عامة
عن الطغيان والطغاة :

ستقدم لنا هذه الآية التى تحدثنا عن محاورة جرت بين أحد الطغاة وسيدنا ابراهيم صورة من الحقيقة التى ينصرف بها الطغاة فى كل زمان ومكان، وهى كجل آيات القرآن تنطق بأن خالق الانسان يعلم كيف يتصرف الانسان فى جميع احـواله ، وحرية الانسان وكرامة الانسان وعزة الانسان التى يؤكدها القرآن ما يحدثنا القرآن عن كيفية خلق الانسان حيث جعل الملائكة تسجد له . وجدت التطبيق العملى فى نظام الحكم الاسـلامى حيث الشورى بين ولاة الأمور وخضوع المجتمع من اكبر كبير حتى أصغر صغير فيه لسلطان الشريعة (وهو ما يسمونه الآن سيادة القانون) هذا النظام الالهى القائم على الشورى وخضوع الكافة بدون استثناء للشريعة هو الذى يكون به صلاح المجتمع . وقد تضمن القرآن الكريم سورة كاملة اطلق عليها اسم « الشورى » ابرازا وتأكيدا لهذا الأصل من اصول الحكم فى المجتمع الاسلامى حيث وصف الله سبحانه وتعالى المؤمنين بأن امرهم شورى بينهم ، وأمر نبيه صلوات الله عليه وسلامه أن يشاور اتباعه « وشاورهم فى الأمر » وصدع النبى لأمر ربه فكان يشاور أتباعه فى كل ما يتصل بأمور الحـرب او السّلام فى كل مالم ينزل عليه فيه وحى ، ومواقف الرسول صلى الله عليه وسلم فى استشـارته المؤمنين من حوله كثيرة ومتعددة سنتعرض لبعضها بمناسبة بعض الآيات فى المستقبل ولكننا لانستطيع وقد عرضنا لنظام الحكم فى الاسلام الا ان نشير لهذا الموقف الضخم الكبير بلا حدود والذى أراد فيه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم (بتوجيه من الله بطبيعة الحال) ان يؤكد طبيعة الشورى وانها تقوم أول ما تقوم على رضاء المؤمنين على من يحكمهم وانه لم يصل الى ولاية المؤمنين الا باختيارهم الحـر .

رغبة سيدنا محمد فى ولاية ابى بكر من بعده :

لا تدع تصرفات سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فى الفترة التى سبقت وفاته اى شك من أنه كان شديد الرغبة فى أن يلى المسلمين من بعده سيدنا أبو بكر فجعله أمير الحج فى السنة التى مات بعدها ، وفى مرض موته أصدر أمرين :

الأول — أن يسد جميع الصحابة الذين لهم ابواب (خوخه) ينفذون منها الى المسجد واستثنى خوخة ابى بكر فلم يأمر بسدها والذين يسعدهم الله بزيارة مسجد الرسول فسيجدون تخليد هذا الحدث فى عبارة مكتوبة بماء الذهب مكان هذا الباب .

الثانى : أما الأمر الثانى الذى أصدره رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما دنت ساعته واحس بعدم قدرته على الخروج للناس ، فقال . مروا أبا بكر فليصل بالناس . وظل يكرر أمره ، بل وغضب عندما تجاوزت السيدة عائشة أمره فطلبت من سيدنا عمر بن الخطاب ان يؤم الناس ، واصر على أمره أن يكون أبو بكر هو الامام ، وصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه خلف ابى بكر تأكيدا للمعنى الذى يريد تثبيته وهو ان أبا بكر أولى المؤمنين بامامة المؤمنين من بعده.

ومع كل ذلك فلم يشأ سيدنا محمد (بتوجيه من الله) أن يقول كلمة واحدة يكون فيها فصل الخطاب ، وذلك لتعليم الناس وارشادهم انه فى شئون ولاية أمر المسلمين فهى شورى بينهم ، ولكى يزيد الله سبحانه وتعالى هذا الأمر تثبيتا فى نفوس المسلمين ، فقد انساهم كل هذه الاشارات النبوية، فلم يذكرها أحد ممن اجتمعوا فى السقيفة لاختيار خليفة لرسول الله ، وليس الا بعد ان تم اختيار سيدنا ابى بكر بالفعل أن بدا الجميع يتذكرون اشارات رسول الله وايماءاته .

القرآن والطغيان والطغاة :

واذا كان التشاور وتطبيق الشريعة على الحاكم والمحكومين هو الأصل فى الحكم ، ولما كانت سمة الطغاة فى كل العصور أن يتمردوا على هـذين الأصلين ، فينفردون بالرأى من ناحية ، ولايعترفون بخضوعهم للشريعة من ناحية أخرى ، فقد لعنهم القرآن الكريم كلما ذكرهم ووصمهم بالكفروجعل فرعون نموذجا للطاغية الذى يدفعه طغيانه الى انكار ان يكون هناك اله غيره ، والتأله بمعنى تصور الألوهية فى النفس هو طابع كل حاكم ينفرد بالسلطة ولا يتقيد بقانون ، اذ يتصور انه هو الذى يعز ويذل ويحيى ويميت ، وسرعان ما يطبق الصفة الأساسية للألوهية وهى انه « لا يسأل عمـا يفعل وهم يسألون » وما أكثر ما يحلو لنا ان ننبه الشباب الى ما فى آيات القرآن من اعجاز يجعلها فوق مستوى البشر فهى لا تكاد تشير الى أمر من الأمور حتى يكون هو كمال المعرفة البشرية ، وهانحن أولاء بصدد محاورة تدور بين سـيدنا ابراهيم واحد الطغاة ، فاذا بهذه المحاورة تكشف كما قدمنا عن نفسية الطغاة وسلوكهم الى ابد الآبدين . ولنطالع الآن الاية الكريمة على ضـوء ما قدمنـا .

« الم تر الى الذى حاج ابراهيم فى ربه أن آتاه الله الملك اذ قال ابراهيم ربى الذى يحيى ويميت قال انا احيى واميت قال ابراهيم فان الله يأتى بالشمس من المشرق فات بها من المغرب فبهت الذى كفر والله لا يهدى القوم الظالمين » .

الم تر : الم تنظـر ، الم تعـلم ، والجملة فى مجموعها استفهامية يقصد بها التعجب من الغرور الذى سيصل اليه الطاغية حسبما هو آت .

حاج ابراهيم فى ربه : حاج بمعنى جادل وقصة سيدنا ابراهيم السابقة على هذا الموقف منصوص عليها فى سور اخرى من سور القرآن وكيف انه حطم أصنام القوم التى كانوا يعبدونها فقبض على سيدنا ابراهيم وسيق للمحاكمة ، ويحتمل ان يكون هذا الحوار قد دار بهذه المناسبة ويحتمل ان يكون فى موقف آخر بعد ذلك بكثير ، ومن هنـا فنحن نقف عند حد ما وقف عنده القرآن حيث لم يخصص الواقعة بزمان او مكان معينين ، أو شخص طاغية بالذات ، ولذلك فقد أحسن أشياخنا من المفسرين المحدثين عندما لم يكرروا الأقوال التى تراهـا مبسوطة فى كل التفاسير القديمة من أن الطاغية الذى جادل ابراهيم فى ربه هو « النمروذ بن كوش بن كنعان بن سام بن نوح » وهى اقوال لم ترد عن المعصوم ولكنها منقولة عن احاديث اليهود .

أن آتاه الله الملك : اى ان سبب استعلاء هذا الطاغية الذى راح يجادل سيدنا ابراهيم فى الله وقدرته ، كون الله قد صيره ملكا فملاه ذلك غرورا وبدلا من أن يتضع لله ويشكره على هذه النعمة، تصور فى نفسه شأن كل كافر انه هو كل شيء والقادر على كل شيء ، ولابد ان يكون قول سيدنا ابراهيم : « اذ قال ابراهيم ربى الذى يحيى ويميت » لابد أن يكون ذلك جوابا لسؤال سابق « من هو ربك » ذلك أن الطغاة فى كل زمان ومكان لا يتصورون انه يوجد فى الكون سلطـان يعلو سلطانهم ، فأجاب سيدنا ابراهيم أن الله هو الذى يحيى الانسان ويميته فى اللحظة التى يحددها هو، واذا كان الكثيرون يلاحظون ساعة الوفاة ، فانما نريد أن نلفت اليه النظر ، ان لحظة الميـلاد مثل لحظة الوفاة تتم بهـذه الطريقة الغيبيـة فى اللحظة التى يشاؤها الله فمع أن ساعة الميلاد تكون معروفة ، وتدخل الأم فى مرحلة المخاض ،ومع ذلك فان الطبيب المولد ومعه كل اجهزة العلم الحديث ، عليهما ان ينتظرا « اللحظة الموعودة » التى قد تأتى بعد ساعة أو بضع ساعات ، أو قد لا تجىء أبدا فيلجأون الى الجراحة ، فالله سبحانه وتعالى هو مكون الحياة ومانحها ، وهو قابض منحته عندما يريد .

قال انا احيى واميت : وهذه الاجابة على لسان الطاغية تكتشف عن الاعجاز القرآنى عندما يصور الى ابد الأبدين كما تدمنا نفسية الطغاة عندمايتصورون انفسهم ، وليسوا الا احد الأسباب التى ارادها الله ، فيتصورون انهم هم سبب الأسباب ، ويقول المفسرون ، ان هذا الطاغية لكى يثبت قوله أمر بأن يؤتى له برجلين امربقتل احدهما فنفذ أمره على الفور وأمر باطلاق سراح الآخر ، وهكذا صور لنفسه ان من ارادله الحياة فقد عاش ومن اراد له الموت فقد مات، وايا ما كان الأسلوب او الواقعة التى حاول الطاغية ان يثبت بها وجهة نظره فان السياق يدلنا على ان سيدنا ابراهيم عندما راى ضالةعقل الطاغية وتصوره انه بهذه الفعلة او غيرها قد اثبت قدرته على الاحياء والأماتة لم يشأ ان يدخل معه فى جدل طويل حول حقيقة هذا الذى صنعه ، بل استغل محاولة الطاغية لاثبات قدرتهفأفحمه بالطلب الذى اعجزه .

« قال ابراهيم فان الله يأتى بالشمس من المشرق فات بها من المغرب »

ويعلمنا الله سبحانه وتعالى كل شىء حتى اسلوب الجدل وكيف ينبغى على العاقل اذا وجد مجادلة قد وصل الى دائرة المهاترة ان لا يجره اليها ،ولذلك فان سيدنا ابراهيم انتقل على الفور الى ميدان الطبيعة وسير الفلك حيث ينعدم اى وهم او غرور لدى أعتى الطغاة ، ان بقدرته ان يؤثر ولو بمقدار (انملة) على مجريات الطبيعة ، فقال للطاغية اذا كان الأمر على ما تقول وانك كالله تحيى وتميت ، فان الله يأتى بالشمس من المشرق فات بها من المغرب .

فبهت الذى كفر : بهت الرجل اى سكت متحيراوانقطعت حجته .

وهكذا الجم سيدنا ابراهيم الطاغية واشعره بعجزه ولابد ان يكون الطاغية قد تصرف كما يتصرف الطغاة فى مثل هذه المواقف وفى قصة سيدنا ابراهيم فى مواضع اخرى من القرآن الكريم ما يفيد ان سيدنا ابراهيم عليه السلام قدالقى به الى النار ولعل ذلك كان بعد هذا الحوار، وكيفما كان الأمر فان الطاغية الذى وصف بالكفرفلا يمكن لمن كان يؤمن بالله واليوم الآخر ان يكون طاغية ابدا ، نقول انه لايمكن الا ان يكون قد ختمهذا الحوار باجراء ظالم حيث تختتم الآية بقولها « والله لا يهدى القوم الظالمين » .

المسلم الجارف بدينه لا يمكن ان يكون اميا :

ولما كنت قد عودت القراء ان اسوق لهم بعض تجاربى الخاصةفانىلم اكد ارجع الىكتب التفاسير واقف منها على هذه القصة الخاصة بكيفية تصرف« النمرود » حتى تذكرت ان والدتى يرحمها الله منذ اكثر من ستين سنة قد قصت على هذه القصةووالدتى لم تذهب الى المدارس ولمتكن تقرا او تكتب ومع ذلك فهاأنذا اكتشف بعد هذا العمر الطويل ان ما قصته على والدتى هو ماجاء فى كتب التفسير ، فلابد ان تكون والدتى يرحمها اللهقد سمعت ما قصته على من هذا الفقيه الذى كان يتردد على البيت يتلو القرآن ، ولابد ان تكونوالدتى قد سألت الشيخ ويكون اجابها لما سألت عنه ، وهذا ما يجعلنى ازداد اقتناعا بان المسلمالذى يسمع القرآن ويفهم ما انطوى عليه منأوامر ونواه لايمكن ان يكون اميا بالمعنى الذى اصبح شائعا وهو ان الانسان الذى لا يقرا ولا يكتب ليس انسانا الا على سبيل التجوز ، وارجوا انلا يفهم احد اننى ادعو الى الجهل بالقراءة والكتابة فحاشاى ان افعل ذلك واول كلمة نزلت فى القرآن الكريم « اقرأ » .

وانما اريد فقط ان اقطع السنة القائلين انهمادام اكثر من ٨٠٪ من المصريين لا يقراون ولا يكتبون فنحن فى ذيل الأمم ، ذلك ان من استضاء بنور الاسلام ووعاه فقد اصبح انسانا كريما متحضرا وهاهى ذى سيدةلاتعرف القراءة والكتابةتقص على ابنها مالا يقراه الا بعد ستين سنة فى تعلم متصل .

كَفَرَ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾ مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ

او كالذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها قال انى يحيى هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوما او بعض يوم قال بل لبثت مائة عام فانظر الى طعامك وشرابك لم يتسنه وانظر الى حمارك ولنجعلك آية للناس وانظر الى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحما فلما تبين له قال اعلم ان الله على كل شىء قدير .

مفـــــردات :

او كالذى مر على قرية : بعد ان عرض القرآن الكريم قصة الحوار بين سيدنا ابراهيم واحد الطغاة انتقل فذكر قصة اخرى تكشف بدورها عن قدرة الله الذى يحيى ويميت ، وان من يقدر على الخلق اول مرة فهو على اعادة ما خلق اقدر ، وتدور القصة التى سترو ى لنا عن شخص (ما) سيدور فى نفسه هذا السؤال ، ولما كانت القصة تهدف الى ذات العرض الذى استهدفته القصة الاولى فقد ربط بينهما بحرف « او » فهو يفيد هنا « واو العطف » وهو هنا عطف معنى على معنى .

قرية : اسم يطلق على اى تجمع سكانى والاصل اللغوى للكلمة يفيد الجمع ومنه قرية النمل ، اى المجتمع ترابها وهى كما تطلق على مجتمع صغير فيمكن كذلك ان تطلق على المجتمع الكبير ، ولقد اطلق القرآن الكريم كلمة القرية وام القرى على مكة مع انها كانت اهم مكان فى الجـــزيرة العـــربية .

وهذا ما سمح لبعض المفسرين ، ان يقولوا ان القرية المقصودة هى بيت المقدس ولكنا نقف عند « وهى خاوية على عروشها »

خاوية : اى خالية ، يقال خوى المنزل خواء وقيل انها ساقطة من خوى النجم اذا سقط .

عروشها : العروش « السقوف » والمعنى ان الذى مر على القرية وجدها خرابا يبابا ، قد دمرت من اصولها ، وتناثرت احجارها وغار ماؤها ، وليس سوى القحط والجفاف والفناء وكانه اخذ بمظهر الخراب والدمار فاذا بلسانه يردد ، وربما حدثته نفسه ، والنص القرآنى الناطق بمعناه هـــو :

« قال أنى يحيى هذه الله بعد موتها »

هل كان هذا القول تعجبا من قدرة الله التى لا يحدها حد ، أم كان شكا فى هذه القدرة بمعنى أنه استبعد أن يحدث ذلك ؟ وجد من بين قدامى المفسرين من قال بذلك ، ولكن الجمهرة على أن صاحب هذا القول مؤمن بل لقد ذهب البعض الى حد تسميته وانه كان احد انبياء بنى اسرائيل ، فهو عزيز عند البعض وهو أرميا عند بعض آخر ، وكل ذلك من الاسرائيليات ، وعندما يغفل القرآن الكريم الأسماء والزمان والمكان ، فلم يعد من الجائز تحديد اسماء ، الا أن تكون قد ذكرت فى القرآن فى مواضع أخرى ويرى المفسر باجتهاده ، أن ثمة تفصيل لما أجمل فى موقع آخر ، أما بالنسبة لصفة القائل وهل كان من المؤمنين أم من الكافرين فنحن نرجح رأى الجمهور فقد ختمت الآية بما يدل على أن المعجزة التى رآه الله اياها قد زادته ايمانـــا على ايمان « فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شئ قدير » أما المعجزة التى أراه الله اياها :

فأماته الله مائة عام ثم بعثه : وتتلخص المعجزة فى أن الله سبحانه أمات هذا الشخص مائة سنة وليس بنافع أن يحاول مجتهد أن يقرب الحـــالة ليسهل هضمها على أصحـــاب « العقـــلانية » و « التكنولوجيا » فيقولون انه نوع من « السبات » أى النوم فسياق الآية كلها ينطق بأننا أمام معجزة البعث بعد موت حقيقى كما يدل على ذلك كل ما هو آت .

« قال كم لبثت قال لبثت يوما أو بعض يوم قال بل لبثت مائة عام » ويتساءل قدامى المفسرون من القائل ، من الذى قال ويذهبون فى ذلك مذاهب شتى والمعنى الظاهر للقـــول ، أن المتكلم هو الله سبحانه وتعالى على أن نفهم ذلك فى حدود المبدأ الأساسى المقرر فى القرآن الكريم وهـــو قـــوله تعالى :

« وما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحى باذنه مايشاء »

فظاهر الآية ناطق بأن المتكلم هو الله سبحانه وتعالى ، أما عن كيفية نقله الى المخاطب به فعلم ذلك عند الله .

الزمن أمر من صنع الانسان :

ولقد تحدثت من قبل وأكرر أن الزمان هو أمر خاص بالانسان لنقصه وقصر عمره فكان الزمان بقسميه الحاضر والمستقبل .

وقد اعتاد البشر أن يقسموا الزمن الى ماض وحاضر ومستقبل ، والواقع أن أى أمر من الأمور اذا وقع فقد أصبح ماضيا والا فهو مستقبل .

أما بالنسبة لله عز وجل وهو الكمال المطلق والقدرة المطلقة والبقاء المطلق فقد تنزه عن الزمان والمكان ، وفى هذه الآية التى نحن بصددها والتى تكررت بنفس المعنى مصداق ذلك ، فهذا الميت عندما بعث لم يتصور أنه نام الا فترة قصيـــرة طبقا لما أملاه عليه شعوره ، وفى حديث أهل الكهف لم يتصوروا كذلك الا أنهم ناموا بعض يوم ، بل ان البشر جميعا والذين عاشوا على الأرض منذ مئات الألوف من السنين عندما يبعثون يوم القيامة لا يتصورون بدورهم الا أنهم ناموا بعض الوقت

يحددونه بيوم أو بعض يوم فالزمن أمر خلق ليكون مقياسا يقيس به الانسان ، أما الله سبحـانه الذى لا أول له ولا نهاية فهو منزه عن الزمن كتزاهته عن المكان .

ونعود الى ما كنا بسبيله من ان الله سبحانه سأل الانسان الذى اختاره ليريه آية من آياته ، والسؤال هو على سبيل التعليم ، لأن الله سبحانه وتعالى يعلم الجواب وقد قاله حيث جهله المسئول وانه ليس يوما أو بعض يوم وانما هو مائة عام ، ولما كان الله سبحانه وتعالى يريد أن يظهر بطريقة حسية على الأرض قدرته على البعث لواحد من البشر فقد قال له :

« فانظر الى طعامك وشرابك لم يتسنه »

« وانظر الى حمارك ولنجعلك آية للناس »

يتسنه : اى يتغير بفعل السنين

وشاء الله سبحانه وتعالى ان يطلع هذا العبد المختار على قدرة الله على الابقـاء والافنـاء ، فطالبه أن ينظر الى طعامه الذى يحمله حيث لم تنل منه المائة سنة فلم يتغير ، حيث هلك الحمار وتحول الى عظام نخرة ملقاة ومبعثرة على الأرض، وهو ما نفهمه مما هو آت ، وقد أراد الله سبحانه وتعالى أن يكون لهذا العبد (المختار) آية للناس.

« وانظر الى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحمـا »

ننشزها : اى نرفعها ونركب بعضها الى بعض ونحن شخصيا لم نفهم من سياق الكلام الا انه يدور حول الحمار فحيث ظل الطعام على حاله لم يتغير (يتسنه) فان الحمار على عكس ذلك قد أصبح عظاما نخرة متناثرة على الأرض وبدات قدرة الله اثرها فتجمعت العظام لتأخذ موضعها من جسد الحمار ، ثم كسيت العظام باللحم وبعث الحمار حيا ، وهذا هو قول الجمهور ولا قول لنا غيره (الجمهور هنا بمعنى جمهرة المفسرين اى غالبيتهم) .

ولكن من بين المفسرين من ذهب الى أن الحمار بقى على حاله وان العظام جمعت وكسيت لحما هى عظام العبد المخاطب نفسه ، ومنهم من قال ان المقصود بالعظام هو عظام اهل القرية التى كانت « خاوية على عروشها » فتساءل المتعجب « انى يحيى هذه الله بعد موتها » .

وقد استطرد البعض فراح يتحدث عن عودة العمران الكامل الشامل للقرية المدمرة وعندنا أن عودة الحياة والنشاط الى مكان قد تخرب تماما مسألة تتم على مر العصور من حين الى آخر وفى أيامنا شهدنا بدنا تمسـح عن وجه الأرض مسحا ، وهى اليوم تمثل ذروة الازدهار والنشاط والحياة ، ومن هنا فنحن لا نتصور أن آية البعث قد قصد بها الى هذا المعنى فمات الرجل مائة عام ثم بعث ليشهد عودة الحياة الى القرية ، والا فقد كانت القرية خاوية على عروشها ولم يكن الأمر فى حاجة الى ان يميت الرجل مائة عام لكى يريه شيئا يمكن أن يريه على الفور ، فلم يبق سوى المعنى الواحد المفهوم ، وهى أن آية البعث هى ما جرت للرجل نفسه وطعامه وشرابه وحمـاره على التفصيل المتقدم والله تعالى أعلم .

« فلما تبين له قال اعلم ان الله على كل شيء قدير » :

فلما تبين : اى ظهر وتوضح ما اتضح ، قال العبد (الذى اختاره الله لتجرى هذه الآية على يديه) اعلم ان الله على كل شيء قدير ، وهومانفهم منه ان هذا الذى رآه لم يزده علما بقدرة الله، وان تغيرت نوعية هذا العلم فأصبح ما نسميه اليوم « بالعلم التجريبى » اى العلم المشاهد بالحواس حيث كان علمه الأول بالوجدان والفطرة .

وقد وصف قوم الرجل بالكفر لتساؤله فى أول الآية ، « أنى يحيى هذه الله بعد موتها » .

وعندنا ان هذا التساؤل لا يعنى اكثر من التعجب لفرط ماكانت عليه القرية من الدمار الشامل ، اما فى قرارة نفسه وروحه فلابد انه كان مؤمنا عميق الايمان ، وسيرد علينا فى الآية القادمة موقف لسيدنا ابراهيم يجب أن نفهم موقف العبد فى هذه الآية على ضوئه .

« واذ قال ابراهيم رب أرنى كيف تحيي الموتى قال او لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى قال فخذ أربعة من الطير فصرهن اليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ثم ادعهن يأتينك سعيا واعلم أن الله عزيز حكيم .

ابراهيم الخليل :

يستمد سيدنا ابراهيم عليه السلام اهميته العظمى فى الدين الاسلامى من كونه :

١ — أبو الأنبياء ووالد اسماعيل وجد النبى على الصلاة والسلام .

٢ — صاحب دين الحنفية السمحاء .

٣ — بانى الكعبة والداعى الى فريضة الحج .

واولا وقبل ذلك كله فقد وصفه القرآن بانه خليل الرحمن « واتخذ الله ابراهيم خليلا » .

والاصل فى « الخلة » الصداقة الخالصة « والخليل » هو الصديق المخلص الذى تخللت صداقته القلب ، أو هو الحبيب ، ولكن عندما نتحدث عن ابراهيم خليل الله فيجب ان نفهم منها ما يتفق مع جلال الله وكماله وتنزهه عن العواطف البشرية كما نفهما ، ويكون مفهومها ان الله قربه منه وادناه ، وسمح له بما لم يسمح به لاحد غيره ، ولعل هذه الآية التى نحن بصددها هى مصداق ذلك ، فها هو ذا يطلب من الله سبحانه وتعالى ما لم يطلبه منه نبى من قبل أو من بعد ، فأجابه الله لما طلب ، وسوف نستعرض بالتفصيل قصة سيدنا ابراهيم فى مناسبات قادمة ونكتفى اليوم بحدود ما اشتملت عليه الآية الكريمة .

« واذ قال ابراهيم رب أرنى كيف تحيي الموتى قال او لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى »

تثير هذه الآية الكثير من المصاعب للذين يأبون الا ان يشققوا الكلام ويفرعوه ويتناولوا بمباحثهم ما يجوز وما لا يجوز وما يليق وما لا يليق فتحدثوا عن شك سيدنا ابراهيم وتعلقوا بحديث روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وانه قال : « نحن أحق بالشك من ابراهيم » مع أن هذا الحديث لو ثبت قطعا ان رسول الله قاله لكان مانفهمه منه هو فى الشك عن سيدنا ابراهيم على

وجه القطع واليقين فسيدنا رسول الله يقول لو جاز ان يشك ابراهيم لكننا نحن احق بالشك منه ، واذ كان الشك فى الله يستحيل على فمن باب أولى يكون اكثر استحالة على سيدنا ابراهيم وهو ابو الانبياء وخليل الرحمن ، ذلك هو المعنى الذى لا يجوز الى جواره اى معنى آخر ، وقد جرت العادة أن نقول الكلمة ونحن نعنى بهـا العكس على خط مستقيم ويكون التلفظ بها كلون من الوان التانيب والانكار كأن يقول والد لابنه مثلا وهو فى حالة غضب « تعالى واضربنى أو اقتلنى » ومثل فى ذلك كثير وما كان أغنى الباحثين عن هذا الشطط والعدول عن المعنى الواضح المشرق ، للدخول فى متاهات الفروض والاحتمالات فقد سأل ابراهيم ربه سؤالا والله سبحانه وتعالى يعلم الدافع على هذا السؤال « رب ارنى كيف تحيي الموتى » ويعلم ما فى نفس ابراهيم ولكنه اراد بسؤاله ان يعلمنا ويرشدنا ، فسأل ابراهيم « أو لم تؤمن » اى هل دفعك الى هذا السؤال قلة ايمان فضلا عن الشك فى قدرتى ، فجاء الرد حاسما وناصعا « بلى » وهو التاكيد (بالايجاب) لما سبق المعنى المنفى ، اى آمنت ، ولكنى اسأل لكى « يطمئن قلبى » فاذا حكى الله سبحـانه وتعالى عن سيدنا ابراهيم ان سؤاله لا يعنى ان الشك قد داخله ، فلم يعد يجوز لكائن من كان أن يهجس فضلا عن ان يتصور أن سيدنا ابراهيم قد شك .

وبقى أن نتساءل فلماذا وجه السؤال والجواب على ذلك سهل وميسور والمسلمون جميعا مطالبون به .

وقل رب زدنى علما : فنحن مأمورون أن نغترف من العلم ما استطعنا الى ذلك سبيلا ، وقد سلك سيدنا ابراهيم هذا السبيل فاذا أنس من ربه هذه الحظوة فطلب من ربه أن يزيده علما ، وقد فطر الله البشر على ان يزدادوا ايمانا وتثبيتا كلما ازدادوا علما وهو ما عبر عنه بقوله « ليطمئن قلبى » وقد اعجبنا قول من قال انه اراد أن يترقى من علم اليقين » الى « عين اليقين » .

هذه الآية والحضارة الاسلامية :

وعندى أن هذه الآية بصفة خاصة وثيقة الصلة بما حققه المسلمون الأوائل من تفوق فى العـلم شيدت عليه الحضارة الاسلامية ، فنحن نشـهد ما يقرب من الاجماع بين علماء الغرب اشادتهم بالعلم الاسلامى ويسمونه بالعلم العربى ويقررون أن العرب (المسلمين) أول من ادخلوا التجربة فى العلم فأنشأوا علم الكيمياء وصححوا كثيرا من النظريات الأغريقية نتيجة تجاربهم واتصور أن هذا الحوار بين سيدنا ابراهيم وربه هو الأساس الذى قام عليه تقدم العلوم التجريبية عند العرب ، فها هو ذا سيدنا ابراهيم رغم ايمانه الشـديد الذى يؤدى الى العلم اليقينى ، ومع ذلك فقد تمنى لو يشهد بعينيه كيفية الاحياء ، ومشاهدة الكيفية عن طريق الحواس هى العلم التجريبى كما يسمونه اليوم ، فاذا كان المسلمون قد سبقوا به فأحسب أن هذه الآية كانت من العوامل التى شـجعتهم وربما دفعتهم دفعا نحو العلم التجريبى .

وجملة « لكى يطمئن قلبى » شـاهد على مدى تغلغل القرآن فى احاديث المسلمين اليومية فما اكثر ما يستعمل الناس هذا التعبير .

« قال فخذ أربعة من الطير فصرهن اليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ثم ادعهن يأتينك سـعيا » .

صرهن : تثير هذه الكلمة صعوبة كبيرة من حيث معناها اللغوى وما قال به الغالبية العظمى من

المفسرين القدامى بحيث لم يشذ عنهم فى القديم الا « ابو مسلم » وقد حكى الرازى عنه قوله ، واحتفى صاحب المنار كل احتفاء بقول ابى مسلم مما يدل على انه (والله اعلم) يميل الى هذا القول . والآن فلنعرض الأمر الذى نعتبره مشكلة . فشيوخنا فى التفسير الوسيط قالوا :

« فصرهن اليك » بمعنى فاملهن واضممهن اليك وقال الشيخ رضا فى تفسير المنار :

« فصرهن بضم الصاد : املهن من الامالة وجاء فى معجم الفاظ القرآن (للمجمع اللغوى) «فصرهن بضم الصاد أو كسرها بمعنى أماله اى وجههن اليك ومن تشديد الراء يكون من صر يصر اى جمع » .

فانت ترى أن الاجماع منعقد أن الكلمة تعنى فى اللغة العربية معنى الامالة او الجمع ، ومن ناحية اخرى فان المفسرين على ان سيدنا ابراهيم ذبح الطيور وقطعها ، ومن هنا فقد نقل القرطبى فى تفسيره قول من قال أن الكلمة تعنى بالسريانية « قطع » حيث يقول معجم الفاظ القرآن ان الكلمة بمعنى « التقطيع » قد تكون بالرومية او النبطية .

والواقعة كما نراها نحن ونفهمها قد جاءت فى معرض الحديث عن البعث وسؤال سيدنا ابراهيم عن « كيفية البعث » وانه يتمنى ان يرى بعينيه صورته ، فلزم عن ذلك أن يكون هناك حالة موت تعقبها حالة الاحياء . ومن هنا فلسنا نفهم محاولة ابى مسلم فى القديم الانصراف عن هذا المعنى الذى ينطبق به واقع الحال ، وما سبقه من آيات ، ان الحديث كله يدور حول قدرة الله سبحانه وتعالى على البعث وليس واقعة ذبح اربعة طيور وتقطيعهن وتوزيعها على رؤوس الجبال ، حتى اذا دعاهن سيدنا ابراهيم بعد ذلك يأتونه سعيا ، نقول ان ليس فى هذه الواقعة ما يزيد عن الواقعة السابقة (واقعة بعث الحمار بعد فنائه) ومن هنا فلم نفهم لماذا جهد ابى مسلم نفسه هذا الجهد لصرف الآية عن مدلولها ولم نفهم بالاكثر حفاوة صاحب المنار بما قال .

« واعلم ان الله عزيز حكيم »

وختمت الآية كما هو الشأن دائما بتوجيه نظر المخاطبين بالقرآن الى ابد الآبدين ان الله غالب لا يعجزه أى أمر وان قدرته لا يحدها حد ، حكيم فى كل افعاله يتغيى من ورائها غاية يريدها ، فالبعث ليس بعيدا عن قدرته ، وقد اراده لحكمة الحساب والثواب والعقاب ليستقيم حال البشر فى هذه الدنيا .

القرآن والبعث :

ولقد كانت قضية البعث من القضايا التى عنى القرآن الكريم بتثبيتها فى نفوس المؤمنين واعتبرها أول مقوم من مقومات الايمان ، ذلك انك لن تصادف كافرا او مشركا او ملحدا من اى نوع كان فى اى عصر من العصور لا يسلم لك بوجود قوة علوية تتحكم فى كل شىء وتهيمن على كل شىء ، فالايمان بالله كقوة غيبية علوية سابقة على كل شىء وهى سبب كل شىء ، أمر مسلم به وان اختلفت الاسماء التى تطلق على هذه القوة ، وانما يبدأ الخلاف الحقيقى بين المؤمن وغير المؤمن حول موضوع البعث ، فالكفار فى كل زمان ومكان مهما تعددت اسماؤهم وصفاتهم ، ينكرون البعث والحساب والجنة والنار ، ومن هنا كان الفارق الاساسى بين المؤمن وغير المؤمن هو كما قدمنا فى موضوع البعث ، فحيث يقول الكفار « ان هى الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين » يقول المؤمنون « وان الى ربك الرجعى » .

وقد عالج القرآن موضوع البعث ليعمقـــه فى نفوس المؤمنين الى انتهاج أساليب ثلاث :

١ — فالبعث من الأمور الغيبية التى يتلقاهـا المؤمن عن الصادق الأمين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فالمؤمن يقول دائما « ان كان قد قال فقد صدق » ويصف القرآن الكريم المؤمنين بقوله « ويؤمنون بالغيب » وهذا الايمان بهذه الصورة هو العلامة على التسـليم والانقياد والرضـا ، وتحقيقا لهذا الأسلوب تضمن القـرآن الـكريم العشرات من الآيات التى تقرر البعث كحقيقة ، وهاتان الآيتان اللتان نحن بصددهمـا من هـذا القبيل .

٢ — على أن الله سبحانه وتعالى وهو الذى انعم على الانسان بنعمة العقل وهو يتشوف دائما للفهم والوقوف على الكيفية ، فضمن القرآن الكريم اجوبة على بعض الأسئلة التى تراود العقل ، وأول هذه الأسئلة ينبثق من اسـتكثار العقـل و (استهواله) هذه المهمة ، ويراها من العظمة والشمول بحيث قد يستبعدها . وهنا يتصـدى القرآن الكريم لمخاطبة هذا العقل متسائلا، أليست عملية الخلق الأولى هى الأصعب والأشق فمن قدر عليها كان على غيرها اقدر ، ونحن فى حياتنا اليومية ، نبذل أعظم الجهد لعمل النموذج أول من اى شىء فاذا عمل هذا النموذج فان تكراره بعد ذلك يكون من أيسر الأمور ، ولسنا نريد ان نذكر أمثلة فهى أشهر وأعم من أن تذكر ، فمتى آمن الانسان بأن الله هو خالق كل شىء فلن يجد العقل بعد ذلك اى صعوبة فى تقبل أن من خلق أول مرة قادر على الاعادة ، واقرأوا ان شئتم :

« فسيقولون من يعيدنا قل الذى فطركم اول مـرة .

« وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو اهـون عليـه » .

ويتكرر هذا المعنى فى عديد من الآيات حتى يرسخ فى عقل الانسان وان من قدر على الايجاد الأول فهو على الثانى اقدر ولكن العقل البشرى يظل فى تشوفه وتطلعه ولما كان القرآن الـكريم معجزة عقلية لا يقف عند مخاطبة الوجدان متجاهلا العقل وطبيعته فقد قدم له مجموعة أخرى من الآيات تقرب الى فهمه صورة البعث وهذا هو .

٣ — مجموعة الآيات التى توجه العقل البشرى الى ملاحظة عملية البعث وانها تجرى امام ناظريه بدون انقطاع فهذه الأرض الترابية الداكنة اللون والتى تبدو ميتة ، سرعان ما ينبثق منها كل صنوف النباتات ما بين قطن ناعم كالحرير وثمار من كل لون وطعم وزهور تثير مختلف الروائح ما بين عطرى وآخر سام وسرعان ما يذوى ذلك ويموت وتعود الأرض الى جدبها ومواتها تنبعث منهـا الحياة مرة أخرى ثانية وثالثة وهكذا دواليك ، فما الذى يجعل العقل بعد ذلك ينكر بعث الانسان وليس بعثه بأعصى من تحول اى نواة الى شجرة سامتة تؤتى اكلها كل حين باذن ربها ، وما بقى فى العمر بقية ، وما بقى الله يقدرنا على متابعة التفسير فسوف نعود باذن الله الى موضوع البعث مرة أخرى ومرات فهو موضوع المواضيع وكلما ازداد الانسان علما كلما زدنا احاطة بموضـوع البعث حيث تتوالى الشواهد على تأكيده وليس استبعاده .

فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ٢٦١ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتۡبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنّٗا وَلَآ أَذٗى لَّهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٢٦٢ ۞ قَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞ وَمَغۡفِرَةٌ خَيۡرٞ مِّن صَدَقَةٖ يَتۡبَعُهَآ أَذٗىۗ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٞ ٢٦٣ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٦٤ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثۡبِيتٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ كَمَثَلِ جَنَّةِۭ بِرَبۡوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٞ فَـَٔاتَتۡ أُكُلَهَا ضِعۡفَيۡنِ فَإِن لَّمۡ يُصِبۡهَا وَابِلٞ فَطَلّٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ٢٦٥ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمۡ أَن تَكُونَ لَهُۥ

« مثل الذين ينفقون اموالهم فى سبيل الله كمثل حبة انبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم » .

الحث على الانفاق :

وقد تحدثنا وسوف نتحدث ان شاء الله باستفاضة عن حث الاسلام على الانفاق فى سبيل الله ، اى فى سبيل الخير وكل ما يعود على الجماعة بالنفع والاصلاح وعلى راس ذلك كله الانفاق على الجيوش المقاتلة فى سبيل الله .اما اليوم فنقف عند حـد الفاظ الآية التى نحن بصددها حيث شبهت الانفاق فى سبيل الله « بحبه » القمح الواحدة التى تزرع فى الارض الجيدة ويبارك الله فيها فاذا بالحبة الواحدة تنبت سبع سنابل وفى كل سنبلة مائة حبة ، اى أن الحبة الواحدة تصبح سبعمائة ضعف وقد شاء الله سبحانه وتعالى ان يقرر لنا ان هذه الارقام لم تذكر الا على سبيل التمثيل والتشبيه والتقريب للاذهان ، ولذلك فقد اضاف على النور « والله يضاعف لمن يشاء » وختم الآية بما يفيد بأن فيض الله وكرمه بغير حدود فقال تعـالى : « والله واسع عليم » .

ونعتبر من سقط الكلام ما رواه القرطبى فى تفسيره من ان طائفة من (العلماء !!) قالوا ان قوله تعالى : « والله يضاعف لمن يشاء » هى مبينة مؤكدة لمـا تقدم من ذكر السبعمائة وليس ثم تضعيف فوق السبعمائة .

تفوق مهنة الزراعة :

واعجبنا من القرطبى قوله : فى هذه الآية دليل على ان اتخاذ الزرع من اعلى الحرف التى يتخذها الناس ، وفى صحيح مسلم عن النبى صلى الله عليه وسلم : « ما من مسلم يغرس غرسـا او يزرع زرعا فيأكل منه طير او انسان او بهيمة الاكان له به صدقة » (انتهى) .

بأبى أنت وأمى يا رسول الله ترسل القـــول فيكون هو سيد الكلام لاقول بعده ، فعندى اذا كانت مصر كما يقول القول الشائع « محروسة بالأولياء » وهى فى الحقيقة محمية من الله عز وجل ومبارك فيها فذلك بفضل « فلاحيها ومزارعيها » الذين لا عمل لهم منذ الوف السنين كما وصفهم عمرو بن العاص (يغرسون الحب وينتظرون النماء من الرب) ففلاحو مصر بلغتنا نحن هم بركة مصر، أما بلغة العصر فهم الأساس والجدار الذى يقوم عليه الاقتصاد المصرى وكل ماعدا الانتاج الزراعى فهو مستند عليه لا يقوم الا به .

« الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله ثم لايتبعون ما انفقوا منا ولا اذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

مفـــــردات :

المن : ان يذكر المنفق لمن احسن اليه فضله عليه .

اذى : الأذى أن يتطاول المنفق على من أخذ الصدقة بالقول او العمل .

وقال اقوام أن المن هو تذكير من أخذ الصدقة بالاحسان اليه ، والأذى هو التحدث مع الغير عن اعطاء الصدقة لمن اعطيت به .

مكارم الاخلاق :

قال سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم « انما بعثت لاتمم مكارم الأخلاق » ومعنى ذلك ان هناك اخلاق ، وهناك درجة تعلوها وهى مكارم الأخلاق فليس يكفى المســـلم الحق أن يتحـــلى بالأخلاق بل ينبغى له درجة اعلى وهى أن يتحلى بمكارم الأخلاق (اذا اراد ان يكون من المحسنين) فاعطاء الصدقة من الأخلاق ولكن مكارم الأخلاق تستوجب فوق ذلك أن لا يمن المحسن على من أحسن اليه فضلا عن ان يؤذيه بالقول او الاشارة ذلك ان الله سبحانه وتعالى يجعل كرامة الانسان وعزة المؤمن مقدمة على كل اعتبار ولا جدال فى ان تذكير الانسان بحاجة الى الصدقة وفضل المتصدق عليه ، فيه ما يغض من كرامة التصدق عليه وعزته، ومن هنا وعد الله سبحانه وتعالى من لا يقع فى هذه الخطيئة « خطيئة المن والأذى » أن لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، أى انهم يصبحون فى أمان واطمئنان يوم الفزع الأكبر ونعنى به يوم القيامة، ولهم فوق ذلك أجرهم الذى يدخلهم الجنة ، اى الانفاق الطيب فى سبيل الله (وهو مالا يتبعه من ولا أذى) يؤمن صاحبه من عذاب النار ويدخله الجنـــة .

« قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعهـــا اذى والله غنى حليم » .

ها هو القرآن الكريم يقف وسوف يقف طويلا أمام هذا الوصف الذى يجب أن يتصف به المؤمن ليحقق فى نفسه مكارم الأخلاق ، ولا تقف هـــذه الآية عند حد ما قررته الآية السابقة عند حد الوعد بثواب المتصدق ثوابا عظيما اذا خلت صدقته من المن والأذى ، بل ذهبت الى حد التقرير بأن الكلمة الطيبة أفضل عند الله من الصدقة التى يعقبها المن والأذى وسوف نرى فى الآية القادمة أن الأمر سيذهب الى ما هو ابعد من ذلك كله ، الى حد ابطال الصدقة وازهاق ثوابها ، اما الآن فلنبق فى حدود الآية التى نحن بصددها .

وليس هناك ما يقرب معنى الآية (قولمعروف. الآية) من المثل الشعبى الذى يعكس صـفات المصريين وطبيعة تكوينهم ولست اعرف اذا كان هذا المثل الشعبى هو ترجمة لهذه الآية ، أم انه هو شيء أصيل فى طبع المصريين ورثـوه منـذ القدم وهو ما جعلهم يتعلقون بالاسلام اكثر من اى شعب آخر فقد وجدوا فيه مثلهم الاعلى ، ابتداءمن شئون العبادة (التوحيد والبعث والحساب والميزان والجنة والنار) وانتهاءا بمكارم الاخلاق والتى تمثل هذه الآية الكريمة شعبة من شعبها وانى على ثقة ان جمهرة القراء قد ادركوا الآن المثل الشعبى الذى اعنيه وهو قولهم « لاقينى ولا تغدينى » فالمصرى يؤثر ان تقـــابله بالبشر والترحاب وان تكرمه بالالفاظ ، على ان لا تحسن استقباله او تسمعه ما يكره وتقدم له بعد ذلك الطعام ، وذلك هو ذروة الحضارة الانســـانية التى تستند على المعنويـــات لا الماديات فـكرامة الانسان وعزته هى الأولى بكل تقدير واذا كانت أوروبا بشرقها وغربها وامريكا قبلها فى الطـــريق الى التدهور فذلك لأن الماديات قد اصبحت عندهم هى الكل فى الكل .

والآن فلنأخذ بما نحن بصدده .

« قول معروف » هو الدعاء والتأنيس والترحيب وبالجملة كل ما يدخل السرور على قلب المخاطب.

وفى ذلك يقول رسول الله صلى الله عليهوسلم على ما روى مسلم فى صحيحه : « الكلمة الطيبة صدقة ، وان من المعروف أن تلقى اخاك بوجهطلق » .

وقد قيل فى هذا المعنى شعر كثير نجتزىء منهببضعة ابيـــات :

تلقى الـــــكريم فتســـــتدل ببشره

وترى العبــوس على اللئيم دليـــلا

وقال الشاعر :

احســـــن مـــن كل حســــن

فى كـــــــل وقـــت وزمـــن

صــــــنيعة مربوبــــــــة

خاليـــــة مـــن المنـــــن

ومغفرة : ذهب البعض الى ان معناها هنا ان فضل الله عليك اكبر من الصدقة التى تمن بها ، اى أن مغفرة الله خير من صدقتكم التى تمنـــون بها ، ولكننا نأخذ بالتفسير الآخر الذى يرى ان المغفرة هنا معناها أن تغفر للسائل تجـــاوزه فى السؤال او الحاجة او غلظته الى آخر هذه الاخطاء التى قد يقع فيها السائل لأن هذا المعنى هو الذى يتسق مع قول المعروف وانه خير من الصدقة التى يتبعها المن والأذى .

والله غنى حليم : وعندما يأمر الله سـبحانه وتعالى بالصدقة والانفاق فى سبيله فذلك كله لخير العباد وصلاحهم ، خير المعطى والآخذ ، اما هو سبحانه وتعالى فهو الغنى المستغنى عن عباده ، تصدقوا او لم يتصدقوا ، « حليم » اى لا يعجل بعقاب من يؤذى .

بحث عـــام :

تثير هـــذه الآيـــات التى بـــدات بالآية ٢٦١ وتستمر خلال العشر آيات التى نحن بصددها ، ثم تتناول بعد ذلك اخطر موضوع فى دنيا المـــال واعنى به « الربا » ، اقول انها تثير فى نفسى العديد من الخواطر ولقـــد عـــودت قرائى ممن يصاحبوننى فى هذا التفســـير ان ابثهم هـــذه الخواطر ، فهى الناحية الوحيدة التى اشعر فيها اننى اقدم لشباب المســـلمين افكارا صيغت من نسيج عصرهم ، أما عن التفسير نفســـه فأعيذ نفسى ان اتصور ان يزيد دورى فيه عن مجرد مطالعة ما قال به بعض الاقدمين والمحـــدثين من مشايخنا وعلمائنا المتخصصين واختيـــار بعض اقوالهم ، فليس الا هذه الخواطر يثيرها فى نفسى مداومة التأمل فى كتاب الله الحكيم ، وارجـــو ان يتقبل الله منى هـــذه الخـــواطر حسب نيتى واننى لا اريد بها الا الاصلاح ما استطعت .

تغيير أسماء الجوهر الثابت :

واول ما اقول وبالله التوفيق ان هذه الآيات هى صميم ما يطلق عليـــه فى العصر الحـــديث « الاقتصاد » وقد شاعت أوربا الحديثة جـــدا « ابتداء من اواخـــر القـــرن الســـابع عشر او بالاحرى شاء لها اليهود ، ان تدعى انها انشأت علما جديدا هو علم الاقتصـــاد وذهبت انجلترا لتعزيز سيادتها على العالم الى الزعم بأن علم الاقتصاد يبدأ بكتاب صاحبهم آدم سميث « ثروة الامم » هـــكذا علمونا واعتبـــروا آدم ســـميث مؤسس مذهب الاقتصاد الحر ، ويعتبـــر فريق آخر من الاوروبيين ايضا أن كارل مـــاركس الذى جاء فى القرن التاسع عشر هو القطب المقـــابل لادم سميث ، بكتابه « راس المال » .

والذى يعنينا من ذلك أن الفريقين يزعمان ان العصر الحديث هو الذى انشأ علم الاقتصـــاد مع أن الاقتصاد ومبادىء الاقتصـــاد قديمة قدم المجتمع الانسانى ، فمنذ وجد الانسان فى جماعة فقد وجد على الفور تبادل المنافع ، فالفرد أى فرد ينتـــج لنفســـه ولاسرته وبمعـــاونتها كل ما يحتاجون اليه ، ولكنه لم يلبث ان اكتشف ان باستطاعته أن ينتج المزيد من بعض الاشياء التى تفيض عن حاجته ، وان بقدرته أن يبادل هذه الاشياء مع آخر ، أنتج بدوره اشياء تزيد عـــن حاجته وتحقق له هو نوعا من النفـــع . هـــذه العملية البدائية ، التى نشأت بالضرورة والغريزة والادراك السليم لما يعود على الانسان بالنفع ، هى كل ما يسمونه علم الاقتصاد بعد ان تطـــور المجتمع وتعددت انشطته واســـتقل بعضها عن بعض ، فانقسم الانتاج الى زراعة وصـــناعة وتجارة ، وتعددت التقسيمات والتعريفات ولكن الجوهر ظل هو هذا الجوهر البدائى وهو تبادل المنـــافع .

ولذلك فليس ســـوى ســـاذج من يتصور ان الاقتصاد هو علم جديد نشأ منذ الف آدم سميث كتابه ، بل ولا يمكن حتى أن نعتبره أول من الف كتابا وضع فيه بعض ملاحظه على عملية تبادل المنافع بين الافراد والجماعات ، فقبل آدم سميث بعدة قرون ، كان ابن خلدون يخصص الفصول الطوال فى مقـــدمته فى ذات الموضـــوعات التى سميت فيما بعد بعلم الاقتصـــاد ، ولست الآن بصدد ما قال ابن خلدون ، ولكنى فقط اكشـــف عن زيف الادعاء بأن آدم ســـميث اول من تكلم عن الامور التي يسمونها « اقتصادية » .

وابن خلدون لم يكن ســوى ابن من أبنـاء الحضارة الاسلامية التى لم تدع شأنا من شئون الحياة ، صغر أو كبر الا وتعرضت له بتفصيل واسهاب قد يضيق الانسان به لكثرة الاسراف فيه ، اسرافا وصل الى حد تجـاوز الواقع الى الفروض والخيالات التى لا تنتهى ، واعنى بذلك ما اشتملت عليه كتب الفقه من شروح وتعريفات.

القرآن يضع الحدود والقيود والمبادىء :

ومنذ نزل القرآن الكريم تبيانا لكل شىء ،ولوضع الاســس والمبـادىء اللازمة لسلامة المجتمــع البشرى وأمنــه ورقيــه ، فكان من الطبيعى جــدا ان يتعــرض لاخص خصــائص الاجتماع والعمران ، وهو التبادل الاقتصادى .

وسلك القرآن الكريم فى ذلك مسلكه فى سائر القضايا التى يزاولها الانسان ، فما كان منها مشروعا ولا غبار عليــه ولا يعود بالضرر على الفرد أو الجماعة ، فهو يسكت عنه ، وان كان فيه نفع حث عليه ، اما الضار والمؤذى فهــوينهى عنه ويحظره ، ويصل به الامر الى التغليظ الشديد مما سوف يرد علينا فى آيات الربا أو يرد بعد ذلك فيمن يكنزون المال ويحبسونه عن التداول، وقد حوى القرآن مئات الآيات « مثل هذه التى بعد ذلك فيمن يكنزون المال ويحبسونه عن التداول، أن احد اركان الاسلام هو « الزكاة » التى هى خاصة بموضوع « الانفــاق » الواجب على كل مسلم وتباين نسبة هــذا الانفــاق مع مختلف صنوف الانتاج ، كل ذلك قد جعل الفقهــاء ومن قبلهم مفسرو القــرآن ، وجامعو الاحــاديث ،يخصصون الابحاث الطويلة المضنية من اجــل ما يعرف اصــطلاحا فى الفقــه الاســلامى بــ« الخراج » واذا كان كتاب « أبو يوسف » عن الاموال ، من اشهر ما عرف فى هذا الباب فقد أهدانى زميل فاضل كتابا سبقه لاحد التــابعين بنفس هذا العنوان « الاموال » .

فمن يريد أن يعرف الاقتصاد الاســلامى فى مواجهة الاقتصاد الحديث اليهودى ، فعليه ان يلتمسه فيما ذكره الفقه الاســلامى دائما تحت باب الزكاة وباب الانفاق ، وما جمعــه البعض تحت عنوان « الاموال » ولست هنا بطبيعــة الحال بصدد عرض عناصر الاقتصاد الاسلامى ، وسوف تمر بنا عناصر من ملامح هذا الاقتصــادونحن متعرض الآيــات القــادمة ، ولــكننى لا استطيع حبس نفسى وانا فى المبحث العام عن ذكر أساسين من اصول الاقتصــاد الاســلامى والذى يقف بهما الضد والنقيض مما يمكن تسميته على قدمنا بــ « الاقتصاد اليهودى » .

والذى نجحوا فى ايهام الدنيا كلها ان كل شىء سيتوقف عن الدوران وسوف يموت النــاس جوعا ، لن ينتج المزارعون، لن يعمل الصانعون،لن ينشط التجار ، ما لم تكن هناك الفوائد على رأس المال ، والتى يسميها الله ربا ، والقرآن الكريم اذ يحرم الربا ويلعنه ، فذلك لإنه لا يعتبر سوى العمل والعمل فقط ، كمصدر للانتــاج وبالتالى القيمة .

« وقل اعملوا فسيرى الله عملكم »

« وان ليس للانسان الا ما سعى »

« فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه »

فالعمل والعمل وحده هو كسب الانســان الحلال الطيب ، اما الربا فهو مصــدر للكسب

من غير طريق العمل ، يقدم المرابى المال للانسان وهو قاعد لا يفعل شيئا ، ويعمل آخذ المال ويشقى ويخاطر لكى يعيد ما استدانه ويضيف عليها الفوائد للرجل القاعد الذى لا يعمل شيئا ولم يخاطر بشىء ويزداد المرابون غنى وتتدفق عليهم الاموال ، فلندعهم يثرثرون ويملأون الدنيا صياحا وجعجعة ، حول توقف الدنيا عن الدوران اذا انعدم الربا ، وحسبنا أن نقرر الآن ونحن بين يدى القرآن الكريم وبصدد تفسير آيات عن « انفاق الاموال » ان حجر الزاوية فى الاقتصاد الاسلامى « هو العمل وبالتالى فهو يحرم الربا لانه كسب من عمل الاخرين دون التعرض لما تعرضوا له من مخاطر .

نموذج من كلام القرطبى :

بقى لكى انتهى من هذه الكلمة العامة ان انقل بضع كلمات مما قال القرطبى بصدد بعض الآيات القادمة لأدلل بهذا النقل على امرين .

الاول : اننى لم اتجاوز حقى وأنا بصدد تفسير الآيات القادمة عندما مهدت لها بهذا البحث .

الثانى : ليجدوا مصداق كلامى فى أن كتب التفسير القديمة مثل كتب الفقه قد تعرضت لما يسمونه اليوم علم الاقتصاد .

قال القرطبى :

« الرابعة — قوله تعالى : « ومما اخرجنا لكم من الارض » يعنى : النبات والمعادن والركاز ، وهذه أبواب ثلاثة تتضمنها هذه الآية . اما النبات .. و .. الخ » ويمضى القرطبى فى تفصيل هذه الابواب الثلاثة ومدى ما يستحق على كل منها من الزكاة . وبعد هذا التمهيد ننتقل الى استعراض الآيات فنقول وبالله التوفيق .

يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والاذى .

المن : قيل أن معناه ان يذكر المحسن من احسن اليه باحسانه وقيل بل المقصود ان يوجب على من احسن عليه حقا .

الاذى : اعم واشمل من المن ، فقيل انه ذكر الاحسان على شخص ما للغير .

وقيل انه يعنى التطاول على من احسن اليه الانسان وعندنا أن المرجع فى ذلك كله على ما جال بنية الانسان .

وقد مر بنا فى الآية السابقة أن قول المعروف يفضل الصدقة التى يتبعها المن والاذى ، ويستفاد من هذا المعنى ان الصدقة يبقى لها بعد ذلك قدرها وان كان قول المعروف خيرا منها فجاءت هذه الآية لتحذر من ابعد من ذلك ، فالمن والاذى قد يقضى على اى ثواب فى مقابل الصدقة ، « لا تبطلوا » وهو ما يؤيد ما ذهبنا اليه من أن المعول دائما هو على النية فليس مجرد ذكر الاحسان يكون منا ، فقد يساق هذا الذكر مثلا فى معرض الدفاع عن النفس اثباتا لحسن النية

«وليس بقصد التعالى او التفاخر» وهو ماسوف يشير اليه قوله تعالى : « كالذى ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر » .

رئاء الناس : اى ليرائى الناس . فقد يتصدق البعض لا لان عمل الخير اصبح غريزة فى طبعه، او التماسا للاجر والثواب يوم القيامة ، فقد وعد الله المحسنين بالاجر جزاء احسانهم ، ويكون الاحسان فى هذه الحالة مظهر الايمان بالله واليوم الآخر بكل ما يعنيه من بعث ونشور وحساب وجنة ونار ، وانما هو يتصدق اذا تصدق ليرائى الناس ليشتهر بينهم بصفة معينة ليحقق من وراء ذلك منفعة ، واذا جاز لنا أن نضرب مثالا مما يحدث فى عصرنا ، فهو مثل هذا الرجل الذى لا يحسن الى اى انسان قط ، حتى اذا فكر فى ترشيح نفسه فى الانتخابات مثلا فتح بيته وبذل ماله وأطعم الطعام وساعد المعوزين ، فكل ذلك يكون خارجا عن دائرة الصدقة والاحسان الذى يدعو اليه القرآن الكريم ، فكل ما ينفق فى هذا السبيل هو لغير وجه الله ، وانما هو من أجل الهدف الذى صنع من أجله ، فلا اجر ولا ثواب عليه .

فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلدا لا يقدرون على شىء مما كسبوا :

صفوان : الحجر الاملس .

وابل : الوابل ، المطر الكثيف « عظيم القطرات » .

صلدا : الصلد الحجر الصلب .

اراد الله سبحانه وتعالى ان يقرب للاذهان كيف يكون ظاهر الاعمال المادية يؤدى الى نتيجة من نوع ما ، ولكن الباطن وحقيقة الحال تؤدى الى العكس تماما ، فلا يكاد المطر يهبط على الأرض حتى تنبت وتزهر وتثمر ، ولكن ماذا يحدث اذا هبط هذا المطر الشديد على حجر « وليكن جرانيت مثلا وبازلت وليكن هذا الحجر مكسوا بطبقة من التراب ، ان ما سوف يحدث هو ان هذا المطر الشديد « وابل » سوف يزيح التراب ويغسل الحجر ولا يبقى امامنا سوى حجر صلب لا يمسك الماء بل ينزلق عنه .

هذا المثل المادى المحسوس الملموس هو بذاته مثل من ينفق ماله مراءاة للناس ، والذى يتبع صدقته بالمن والاذى فكل ذلك مبطل لثواب الصدقة : « لا يقدرون على شىء مما كسبوا » اى لا ينالون أجرا على ما بذلوه فى الدنيا ، فقد استوفوا هذا الاجر جاها او شهرة او نفعا الى غير ذلك مما يسعى اليه المتصدقون رياء وسمعة.

« والله لا يهدى القوم الكافرين »

وهم كل من لا يؤمن بالله واليوم الآخر وقد كان كفار قريش يتصورون أن ما كانوا ينفقونه التماسا للشهرة والجاه والصد عن سبيل الاسلام يمكن ان ينفعهم فى يوم ما فنزلت هذه الآية لتبين للكافرين أن لن ينفعهم شىء الا أن يؤمنوا بالله .

« ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله وتثبيتا من انفسهم »

وكشأن القرآن الكريم ، اذا صور أو تحدث عن « الشر » ومرتكبيه فانه يشفع ذلك على الفور بذكر الصورة المقابلة وتعنى بها «الخير» والعكس بالعكس فنراه هنا على سبيل المثال بعد

أن صور لنا صورة مادية لصدقة المرائى أو من يتبع صدقته بالمن والاذى ، فقد بادر يصور لنا الصورة المقابلة ، صورة الذين يتصدقون «ابتغاء مرضاة الله » اى رغبة فى الحصول على « مرضات الله » ومرضات مصدر من رضى يرضى ، اى رضاء الله ، وقبل أن نعرض لهذه الصورة ، نقف قليلا امام نص « وتثبيتا من انفسهم » فقد اختلف الشراح فى معناها .

يقول القرطبى : « وتثبيتا » معناه انهم يتثبتون اين يضعون صدقاتهم ، قاله مجاهد والحسن وقيل معناه تصديقا ويقينا ، قاله ابن عباس وقال ايضا ما معناه واحتسابا من عند انفسهم، وقال آخرون : « وتثبيتا » معناه وتيقنا .

وراح القرطبى يناقش هذه الاقوال وانتهى تثبيتهم فى ذلك » .

وقال صاحب المنار : لتثبيت انفسهم وتمكينها فى منازل الايمان والاحسان حتى تكون مطمئنة فى بذلها لا يزعزعها زلزال البخل ولا اضطراب الحرص وقال شيخنا الكبير حسنين محمد مخلوف « تثبيتا اى تصديقا ويقينا بثواب الله » وقيل غير ذلك كثير ولكن المعنى الذى فرحنا به هو قول اشياخنا فى التفسير الوسيط :

« وتثبيتا من انفسهم » : اى وتثبيتا للبذل والانفاق فى انفسهم ، حتى يكون ذلك عادة لها فلا تتردد فيه .

كمثل جنة بربوة اصابها وابل فآتت اكلها ضعفين فان لم يصبها وابل فطل .

الجنة : البستان .

بربوة : الربوة : المكان المرتفع عن الأرض .

وابل : المطر الكثير كبير القطر .

فطل : الطل ، المطر الخفيف : الرذاذ .

كثيرا ما تحدثنا عن الاعجاز القرآنى وكيف يستحيل ان يكون من صنع بشر فهو لا يكاد يشير الى اى امر من امور البشر او الطبيعة ، حتى يصل الى ذروة ما يمكن للبشر ان يدركوه فى هذا الأمر وهو هنا يحدثنا عن الزراعة وكيف تجود فى الربوة وندع للمتخصصين الافاضة فى ذلك ، وحسبنا ان نلفت النظر الى ان آخر اساليب الرى هو بطريق رش النبات من اعلى على ان يكون الماء المتساقط رذاذا ، اى « طل » .

والمعنى ان الذين ينفقون اموالهم ارضاء لله سبحانه وتعالى يشبه عملهم هذا عندما تسقط الامطار الوفيرة على بستان كبير الخصوبة فاذا به يثمر ضعف ما اعتاد ان يثمره ، حتى ولو لم يكن المطر الذى هطل عليه غزيرا بل لم يزد عن كونه رذاذا فالنتيجة واحدة وهى عظم الثمر .

« والله بصير بما تعملون »

يعلم من ينفق ابتغاء مرضاته .

ومن ينفق ليرائى الناس ويتخذ من الصدقة سبيلا لتحقيق مآرب دنيوى .

جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلَّا أَن تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٢٦٩﴾ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾ إِن تُبْدُوا

« أيود احدكم أن تكون له جنة من نخيل واعناب تجرى من تحتها الانهار له فيها من كل الثمرات واصابه الكبر وله ذرية ضعفاء فأصابها اعصار فيه نار فاحترقت » .

ويحذر الله من ينفقون لغير وجه الله ويخوفهم من عاقبة ما يفعلون فيصور لهم صورة مادية كئيبة يفزع الانسان من تصورها وتخيلها ، وهى ان يكون للانسان اعظم ما يمكن ان يعتز به من ضروب الثروة وهى البستان العظيم تتخلله مجارى المياه واذ كان المخاطبون بالقرآن ساعة نزوله يرون فى النخيل « وثمرة من البلح » والعنب هما اعظم ما يمكن ان يضمه بستان ، فقد ذكرهما القرآن الكريم بالاسم ، غير أن القرآن الكريم اذ يخاطب البشر فى كل زمان ومكان . واذ كان المعنى الذى يريد تثبيته فى النفوس ، هو عظم شأن البستان فقد انتقل من التخصيص « النخيل والاعناب » الى التعميم والاطلاق « كل الثمرات » وفجاة يثور « اعصار » هو الريح العاصف فيأتى على البستان فيصبح كأن لم يكن ، ويتساءل بعض المفسرين عن «نار» اهى على وجه الحقيقة اى أن الاعصار ينطوى على نار تحرق البستان ، ويقول بعض آخر ان البرد الشديد « الصقيع » قد يوصف بأنه نار ، وعندنا ان المهم فى ذلك كله هو المعنى المقصود ، وهو ان الجنة تتحول فى لحظة الى اثر بعد عين، ولكى تزداد الصورة كآبة ووحشة فان هذا الحادث يقع للانسان فى اخريات حياته ، وأولاده صغار ضعاف لا يقدرون على شىء ، اى أن البستان قد هلك وبغير أمل فى امكان اعادة زراعته .

هذه الصورة الكئيبة الحزينة، بل المفجعة هى التى يحذر بها الله من ينفقون رئاء الناس ، او ان يتبعوا صدقاتهم بالمن والأذى حتى لا تحبط اعمالهم وهم لا يشعرون ، ويصبح كشأن من يحترق بستانه العظيم وهو فى اخريات عمره وذريته ضعاف لا يقدرون على شىء ، وتورد كتب التفسير حديثا أورده البخارى وقد دار فى زمن سيدنا عمر بن الخطاب بينه وبين بعض الصحابة حول هذه الآية لا مناص من اثباته بمعناه فقد سأل سيدنا عمر رضى الله عنه بعض صحابة رسول الله عن هذه الآية فقالوا الله ورسوله اعلم ، فغضب عمر وقال قولوا

نعلم او لا نعلم ، ويفهم من سياق الحديث أن ابن‌عباس كان حاضرا هذا المجلس ولد كان صغير السن فقد تردد فى ان يقول رأيه ولكن سـيدناعمر رضى الله عنه شجعه فقال ابن عباس .

« ضربت مثلا لعمل رجل غنى يعمل بطـاعةالله ثم بعث الله عز وجل له الشيطان فعمل فى المعاصى حتى احرق عمله ، وفى رواية ، فـاذافنى عمره واقترب اجله ختم ذلك بعمل من اعمال الشـقاء فرضى بذلك عمر وهذا المعنى العـام‌المستفاد من الآية يعززه حديث نبوى شريف : (يعمل احدكم عمل اهل الجنة حتى لا يبقى بينه‌وبين الجنة الا ذراع فاذا به من اهل النار .. الحديث) . فالعبرة دائما بالخواتيم ومن هنـاكان دعاء المؤمن اللهم احسن ختامى فالمعنـى الذى قال به ابن عباس داخل فى مفهـوم الآية‌ويبقى انها سيقت للتمثيل لمن يتصدق رياء ونفاقا لغير وجه الله او لمن يحبط صـدقته بالمن والاذى« كذلك يبين لله لكم الآيات لعلكم تتفكرون » .

وهكذا يضرب الله للبشر الامثال من كل صنف‌وطراز ، آيات كونية واخرى قولية معنوية ، وثالثة مادية من واقع حياتهم المادية فيضلوا عن‌طريق الفكر والتعقل الى الهدى والطريق‌المستقيم المؤدى الى سعادة الدارين فى الدنيا والآخرة .

« يا أيها الذين آمنـوا انفقوا من طيبـات‌ما كسبتم ، ومما اخرجنا لكم من‌الأرض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون‌ولستم بآخذيه الا ان تغمضوافيه واعلموا ان الله غنى حميد » .

حرص الاسلام على الكرامة البشرية :

للحضارة الاسلامية التى ازدهرت تحت تأثير‌القرآن سمات ومعـالم عـديدة ، تكلمنا عـن بعضها فيما سبق ، وسنعود للتحدث عن بعض‌آخر فى المستقبل وحسبنا الآن ان نتحـدث عما اسـتهدفته هذه الآيات من حـرص على كرامة‌الانسان التى هى اصل من اصول الاسلام « ولقد كرمنا بنى آدم » .

ويحلو للمستشرقين باسم المادية ، ان يلوكواالفاظا جوفاء باسم التمدن والتقدم ، فهم ضـد الصدقات والاحسان ، انهم يريدون العمل وليس‌الاحسان وليس كالاسلام ما رفع من شأن العمل وحث عليه فقال رسول الله صـلى الله عليـه‌وسلم على ما روى البخارى :

« ما اكل احد طعاما قط خيرا من ان ياكل من‌عمل يده) .

والأحاديث فى هذا الصدد كثيرة والقصص اكثرولكننا لا نستطرد حتى لا نخرج عن السـياق ، فاذا كان الانسان مطالبا بالعمل ، فثمة احوال‌كالشيخوخة او العجز أو المرض وغيره ، يصبح فيها الانسان غير قادر على العمل والكسب ،ومهمـا تحـدث المتحدثون والمتفلسفون عـن المؤسسات التى يجب ان تقيمها الدولة لرعـاية‌هؤلاء ، فان ذلك لن يغنى بحال من الأحوال عن لمسة الحنان فى العلاقات الانسانية المباشرة التى‌تقوم بين المحسن والمحسن اليه ، ولقد ارتنـا الآيات السابقة كيف يكون التعامل بين الاثنين وتذهب هـذه الآية التى نحن بصددها فتشترط فى الصدقة أن تكون من خير ما نحب « لن تنالوا البر حتى تنفقـوا مما تحبـون » وليس ذلك الا حرصا من القرآن الكريم وتعاليمه على الكرامة البشرية والسـمو والارتقاء بنفسية المعطى والآخذ على السواء فمن اراد ان يعطى ، فليكن‌عطاؤه « من طيبات ما كسبتم ومما اخرجنا لكم من الأرض » .

فاذا كان طعاما أو شرابا فمن خير ما ناكل اونشرب ، واذا كان كساء كان من خير ما نلبس ، وان كان من ثمرات الأرض فمن اجود ما اثمرت،وذلك كما اشرنا من قبل حرصا على نفسية المعطى والذى لا ينبغى ان يتصدق بما تعافهنفسه او تستر ذله ويقول ان المتصدق اليه سينتفع به على كل حال لحاجته . ان من يفكرهذا التفكير لا تكون صدقته لوجه الله وانما لشىء آخر .

ويجب ان لا يحقر الانسان انسانا آخر لفقره وحاجته وانما المؤمنون اخوة ايا كان شأنهم فيجب الاحتفاء بهم وتكريمهم ، وذلك لا يكون الا باعطائهم « عند العطاء » بطيبات ما كسبنا ومما تنبت الأرض .

« ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه الا ان تغمضوا فيه » .

ولم يشأ القرآن الكريم ان يترك مقدار جودةوطيب ما ننفقه للاجتهاد فحدد لنا عين المقصود وهو ان يكون ما نعطيه من نوع ما لا ناخذه لانفسنا الا بعد التحقيق والتدقيق .

تيمموا : تقصدوا .

الخبيث : عكس الطيب .

تغمضوا فيه : تتسامحوا فى قبوله ، وتغمضوامن الاغضاء وقيل من الغموض ، والمعنى هنا هو التسامح فى قبوله .

والمعنى هو ما ذكرناه سابقا اى لاتتخيروا لانفاقكم غير الطيب وهو كل ما لا يمكن أن تقبلوه لانفسكم واستعمالكم الشخصى الا بشىءمن التساهل والترخص ، فانظر يارعاك الله الى اى حد بلغ التشديد والتغليظ فى نوع الصدقة ،فحتى هذا الذى يمكن للانسان فى بعض الظروف ان ياخذه على سبيل التساهل ، سماه القرآنخبيثا ، ونهى ان تعطى منه الصدقة والتى يجب ان تكون من الأجود والأفضل دائما يدل على ذلكان الآية ختمت بقوله تعالى :

« واعلموا ان الله غنى حميد » .

اى ان الصدقة تعمل لوجه الله لا لشىء آخرونحن اذ نعمل الخير لوجه الله انما نعمله لانفسنا فيجب ان يكون كل ما نعمله ، على خيرما نحب اما الله سبحانه وتعالى فهو الغنى المستغنى عن كل أعمالنا « حميد » اى يحمد لناويكافئنا على اعمالنا .

قولان :

بقى أن بعض المفسرين يرون أن الانفاق والصدقة المقصودان فى هذه الآيات هما الزكاة ، ونحن لسنا من هذا الرأى وعندنا ان الاسلاميقوم على الاركان التى لا يكون المسلم مسلما الا بها ، ولكن المسلمين يتفاضلون بعد ذلكباعمالهم التى يتطوعون بها زيادة عن الفريضة فالزكاة يأثم المسلم بتركها اما الصدقات والانفاقفى سبيل الله فيعلو المسلم ويعلو كلما استكثر منها .

اما القول الثانى الذى قاله بعض المفسرين بصدد هـذه الآية فهى قولهم ان المقصـود من كلمتى الطيب والخبيث ، الحـلال والحـرام ، وعندنا ان ذلك يخرج بنا عن السـياق تمـاما ولا يتفق مع ما قبله وما بعده .

« الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا والله واسع عليم » .

آية الايمـان بالله وانه الرزاق تتمثـل فى الامتثال لاوامره ، فعندما يدعونا للانفاق فيجب ان نبادر باطاعة الامر والتوجيه الالهى وهنا يأتى دور الشيطان الوسواس الخناس فهو يخـوف ضعفاء الايمان من مغبة الانفـاق والتصـدق وما قد يجرانه على الانسان من الفقر وذلك فى الوقت الذى يأمر فيه بالفحشـاء وهى ارتكاب صنوف المنكرات والموبقات كالزنا ولعب الميسر وشرب الخمر ، ومجالسة خلان السوء الى آخر هذه الفواحش ، وكل هذه الموبقات تتكلف الكثير والـكثير جـدا ، ففى الوقت الذى ينهى فيـه الشيطان الانسان عن الصـدقة بتخـويفه من الفقر فهو يأمره امرا بالفحشـاء ، وقـد ذهب بعض المفسرين الى ان الفحشاء هنا تعنى البخل ، بمقولة ان العرب يسـمون البخل « فحشـا » ويسوقون على ذلك بيتا من الشعر الجاهلى ، وعندنا أن القرآن اطلق بعض الألفاظ على معان محددة فأصبح لزاما علينـا ان نلتزم باستعمال القرآن بالكلمة ، فعندما يقـول القرآن الـكريم « ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » فـان هذا يعنى ان الفحشاء بمعنـاها العـام الذى تدمناه .

« والله يعدكم مغفرة منه وفضلا »

وفى مقابل تخويف الشيطان لاوليائه من الفقر اذا هم تصدقوا ، فان الله سبحانه وتعـالى يعدكم امرين :

الأول : ان كل صدقة تتصدقون بها تنيلكم ثوابا من الله من شانه ان يكفر عن سيئاتكم ويؤمن لكم رضاء الله ومغفرته . وهذا هو الأمر المؤكد والمحقق .

الثانى : ويعد الله فوق ذلك بفضل منه يناله الانسان فى هذه الدنيا على الأغلب والأعم قال تعـالى : « وما انفقتم من شئ فهو يخلفه وهو خير الرازقين » .

ولنا ما تثبته التجربة الحسية فلم يحدث ابدا وان كان قد حدث فلم يصل الى علمنا ويكون امرا نادرا والنادر لا حكم له ، لم يحدث ابدا ان افتقر انسان بعد غنى لفرط ما تصدق واحسن ، وانما افتقر اقوام لأنهم قامروا ولأنهم اسرفوا فى انواع المنكرات ، او لانهم اخطأوا فى حساباتهم وتوقعاتهم ، ولكن لم يحدث ابدا ان افتقر انسان مهما تصدق او احسن وانما المشاهد والملحوظ انه يزداد قدرة على التصدق والاحسان .

روى البخارى ومسلم عن رسول الله صـلى الله عليه وسلم قوله : (ما من يوم يصبح فيه العباد الا وملكان ينزلان يقول احدهما : اللهم اعط منفقا خلفا ، ويقول الآخـر : اللهم اعط ممسكا تلفا » .

« والله واسع عليم » وما اجمل أن يذكر القرآن الكريم بواسع كرم الله وفيضه وهو فى معرض الحديث عن الانفاق فى سبيله وفضله على المنفق و « عليم » يعلم كل ما بذل ابتغاء مرضاته ويكافىء عليه .

« يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا وما يذكر الا أولوا الالباب » .

لابد لفهم هذه الآية من الوقوف أولا وقبل كل شىء على معنى لفظ الحكمة .

جاء فى معجم الفاظ القرآن الكريم :

— « احكم الشىء احكاما اتقنه فالشىء محكم وهى محكمة .

— الحكمة تطلق على كل ما يتحقق فيه الصواب من القول والعمل .

— الحكيم ذو الحكمة أو من يحكم الاشياء ويتقنها .

ونحن ناخذ بهذا التعريف ونفهم الآية على ضوئه ، ذلك انه قد وجد من المفسرين القدامى من قال بهذا المعنى ولكن منهم من قال كذلك انها النبوة ، وانها التفقه فى الدين ، ومعرفة السنة ، ولا جدال انه بعد نزول القرآن ومجىء الاسلام ، بمبادئه واحكامه وسنة رسوله ، أصبح المسلم لا يكون حكيما الا باتقان ذلك ولكن الحكمة فى هذا الموضع الذى نحن بصدده تتحدث عن معنى عام وجد فى الدنيا قبل ان يوجد القرآن ، بل لقد سجل القرآن نفسه عظة لقمان لابنه ولقمان هو الذى اشتهر بانه لقمان الحكيم، والاتفاق على أن لقمان لم يكن نبيا وكان سابقا على الاسلام .

ومن هنا فيجب أن ناخذ معنى الحكمة على اطلاقه وهو الاصابة فى القول والعمل وتقول لنا الآية الكريمة ، ان هذه الملكة نعمة من اكبر نعم الله متى انعم بها على عبد من عبيده فقد انعم بالكثير والكثير جدا « ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا » .

وعندنا ان الحكمة بهذا المعنى العام هى التى جعلت علماء المسلمين وهم المؤمنون الموحدون لا يرون حرجا فى ان ينقلوا علم المنطق عن ارسطو ويطلقون عليه اسم المعلم الاول وذلك لما رواه يثبت بالأدلة العقلية البحتة وجود الله ووحدانيته ، ورأوا أن ما قاله ارسطو فى هذا الصدد هو من الحكمة ، والحكمة هى ضالة المؤمن ولا يضره من اى وعاء خرجت .

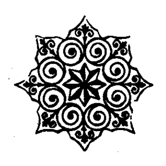
« وما يذكر الا أولوا الألباب »

أولوا الالباب : هم اصحاب العقول النيرة الواعية ، وتكون الاشارة اليهم وانهم هم وحدهم الذين « يذكرون » أى يتعظون بما يدور حولهم، نص على أن العقل السليم هو آلة الحكمة . والله تعالى أعلم .

« وما انفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر فان الله يعلمه وما للظالمين من انصار » .

اوردت هذه الآية حالة جديدة من الانفاق وهو الانفاق الذى يتعهد به الانسان امام نفسه وضميره ان يفعل كذا او كيت ويعلق ذلك على شرط وتوع هذا الشىء او ذاك ، ولما كان الاسلام كما أشرنا اكثر من مرة يحرص على كرامة الانسان واعمال ارادته ، فان هذه الآية قد اعلمت ان اى انسان يلزم نفسه بعمل ما ولوفى صريرة نفسه فان الله يعلم بهذا النذر ويحاسب صاحبه ان هو لم يقم بتنفيذ ما التزم به اذا كان من الاعمال الخيرة وعلى راسها الانفاق فى سبيل الله . اما اذا كان موضوع النذر ينطوى على شر محقق فان الخير كل الخير هو فى صرف النظر عنه ، وقد تحدثنا عن هذه المسألة عند تفسيرنا لقوله تعالى : « لا يؤاخذكم الله باللغو فى ايمانكم » .

وهذه الآية التى نحن بصددها اذ تحدثنا عن علم الله سبحانه وتعالى بكل نفقة ننفقها كبيرة او صغيرة فى السر او فى العلن فى امر خير او شر ، وتحدثنا فوق ذلك عن علم الله ومراقبته ومتابعته للقول يخرج من افواهنا نلزم فيه أنفسنا بفعل أمر معين ، فان الآية تنطوى على الوعد والوعيد ، فأما الوعد فهو مستفاد من سياق الحديث وما سبق وما سوف يلحق من مكافأة على الصدقات وعمل خير يعلمه ، فمن اين جئنا بالوعيد ؟ جئنا به من ختام الآية « وما للظالمين من أنصار » فقد دل ذلك على ان الله سبحانه وتعالى يحذر من الانفاق غير الطيب وكذلك النذور الشريرة ، ويعتبر كل من انفق فى وجه غير مشروع أو حتى نذر نذرا رديئا انه ظلم نفسه وانه لن يكون للظالمين « يوم القيامة » من انصار .



ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾ ۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟ ۚ فَمَن

« ان تبدو الصدقات فنعما هى وان تخفوهاوتؤتوها الفقراء فهو خير لـــكم ويكفر عنكم من سيئاتكم والله بما تعملون خبير » .

اثارت هـــذه الآية خلافا كبيرا بين المفسرين القدامى منهم والمحدثين على السواء حول ما هو افضل بالنسبة للصدقات : اخفاؤها او اعلانها .وفرق البعض بين الصدقة الواجبة « الزكاة » فقال ان اعلانها هو الأفضل لأن فى الاعلان عناداء الفريضة فيه اعلاء لشـأن الدين . أما فى صدقة التطوع فالبعد بها عن العلانية افضل ،ونحن عند راينا ان الصدقات التى تتحدث عنها هذه الآيات هى شىء غير الزكاة التى يتعين علىالمسلم اداؤها والا كان آثمـــا ولا يتغـــير الامر بالنسبة لكيفية ادائها فهى يجب ان تؤدى اولاوقبل كل شىء وطبقا للقدر المقنن لها ، ونحن نعلم الآن أن سيدنا ابا بكر الصديق رضى الله عنه قد عرض جيش المسلمين لأعنف حرب خاضها ، وهى حرب الردة لتوقف القبائل عن دفع الزكاةفالزكاة المفروضـــة هى حق المجتمـــع الواجب الأداء والذى لا تهم فيه السرية او العلنية بقدر مايهم واجب الأداء نفسه .

فالآية الكريمة عنـــدما تحدثنـــا عن اعـــلان الصدقات واخفائها فهمى تقصد من غير شـــك « فى تقديرنا » الى الصـــدقات الجـــارية التىيمارسها القادر عليها كل يوم تطوعا واختيارا .

الاخفاء افضل افضلية مطلقة :

ومن ناحيتى كدت اقول كما قلت من قبل انالعبرة بحسب الظروف ونية المتصـــدق ، ولكن الله ، وله الحمد والمنة ، سرعان ما انار بصيرتى فوجـــدت الآية صريحة ناطقـــة بأفضـــلية صدقة السر افضلية مطلقة بالنســـبة للمتصدقبحيث لم يعد ثمة مجال للاجتهاد .

وسرعان ما كشف لىالنص القرآنى انه لا يثير اى مفاضلة من اى نوع كان بين اعلان الصدقة واخفائها ، فقد اصـــدرت الآية الـــكريمة حكمامطلقا لا محل للمفاضلة فيه ســـواء فى حـــالة

الاعلان او الاسرار فابداؤها خير مطلق واخفاؤها الاعلان او الاسرار فابداؤها خير مطلق واخفاؤها خير مطلق كذلك بالنسبة للمتصدق ولا محل للمفاضلة بحسب الظروف والاحوال ، او بحسب نية المتصدق وما يهدف اليه من وراء اعلان صدقته فالنص صريح ولا يحتمل هذه الاجتهادات، ولنمض فى مطالعة الآية : « ان تبدوا الصدقات فنعما هى » .

ولفظ « نعما » هو الصيغة فى اللغة العربية للتعبير عن المدح والثناء على اطلاقه والحديث موجه لجماعة المؤمنين فى كل زمان ومكان .وفيه يقرر الله سبحانه وتعالى ان اعلان الصدقات هو خير فى حد ذاته « فنعما هى »وليتحدث من يريد أن يتحدث عن تأثير القدوة وان اعلان بعض الاشخاص عن صدقتهم فيه فائدة اذ يحث الاخرين على فعل نفس الشىء ، كل ذلك واكثر منه يدخل تحت النص الذى يثنى على اعلان الصدقة فى حد ذاته ، ايا كان شأن المتصدق وهدفه من وراء اعلان صدقته ، فهذه قضية تختلف تماما عن القضية الثانية .

« وان تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ويكفر عنكم من سيئاتكم » .

فاذا كان الشق الاول يتحدث عن اعلان الصدقة وانه خير مطلق فى حد ذاته ، فان هذا الشق من الآية يتناول المسألة من زاوية المتصدق نفسه وان الاخفاء واعطاءها للفقراء خير مطلق بالنسبة له حيث لا يقف الامر عند حد اعطاء الحسنات بل ان الامر يذهب الى حد تكفير السيئات فاعلان الصدقة خير فى حد ذاته« فنعما هى » أما اخفاؤها فخير مباشر للمتصدق « فهو خير لكم » .

« والله بما تعملون خبير »

وتختتم الآية بما يجب ان يستقر فى نفس كل مؤمن وهى أن كل تصرفاته وخلجات نفسه يعلمها ويقدرها العالم بكل شىء الخبير بكل شىء ولن نستطيع أن نختم التعليق على هذه الآية الكريمة دون ان نثبت الحديث الرائع « وكل احاديثه آية فى الروعة » روى الشيخان البخارى ومسلم ، ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (سبعة يظلهم الله تعالى فى ظله يوم لا ظل الا ظله امام عادل وشاب نشأ فى عبادة الله،ورجل قلبه معلق فى المساجد ،ورجلان تحابا فى الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل دعته امراة ذات منصب وجمال فقال : انى اخاف الله ، ورجل تصدق صدقة فأخفاها حتى لاتعلم شماله ما انفقته يمينه ، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه) .

« ليس عليك هداهم ولكن الله يهدى من يشاء وما تنفقوا من خير فلأنفسكم وما تنفقون الا ابتغاء وجه الله وما تنفقوا من خير يوف اليكم وانتم لا تظلمون » .

الانفاق على الفقراء :

تحدث بعض المفسرين عن جواز الانفاق على فقراء غير المسلمين بمناسبة الآية السابقة لاشتمالها على كلمة « الفقراء » عامة ومطلقة ،فدخل فيها كل فقير يعيش فى المجتمع الاسلامى حتى ولو لم يكن مسلما ، وعندنا ان هذا القول موضعه هذه الآية وليست السابقة ، ذلك ان كلمة الفقراء يمكن أن تخصص بفقراء المسلمين ،على اساس ان حذف المعلوم جائز وقد روى عن

رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله :(لا تصدقوا الا على اهل دينكم) فنزلت آية « ليس عليك هداهم » ومن هنا قرنا أن هذا المبحث بهذه الآية الصق ، فقد شاء سبحانه وتعالى أن يفرق بين العقيدة وبين الصدقة، فالصدقة ، حق للانسان الفقير بحكم انسانيته ايا كانت عقيدته ، وكما تطلع الشمس على سائر البشر ايا كانت اجناسهم أو عقيدتهم وكما ينعم الله على الانسان كل انسان بالسمع والبصر وسائر النعم، فكذلك ينبغى على المؤمن ان لا يحبس احسانه عن انسان محتاج ايا كانت عقيدة هذا الانسان ، وهو ماتقرره هذه الآية فى نصاعة ، اذ ترد على تصور من تصوروا أن الصدقة لا تجوز على غير المسلمين ، فوجهت الآية الكريمة نظر المؤمنين أن لا يربطوا بين الأمرين ، وجعلت التوجيه فى شكل خطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال ابن جرير بسنده : « كان الناس من الانصار لهم انسباء وقرابة وكانوا يبتغون أن يتصدقوا عليهم ويريدونهم ان يسلموا فنزلت هذه الآية « ليس عليك هداهم ولكن الله يهدى من يشاء » وهذا أصل من أصول الدين تحدثنا عنه بمناسبة الآية الكريمة « لا اكراه فى الدين » وليست هذه الآية التى نحن بصددها الا تطبيقا لهذا المبدأ. فحبس الصدقة عمن يحتاجها من غير ديننا هو نوع من الاكراه لاعتناق الاسلام وهو مالا يريده الله سبحانه وتعالى «قد تبين الرشد من الغى».

ويروى التاريخ لنا قصة ثابتة عن سيدنا عمر بن الخطاب فى خلافته ، فقد صادف فى الطريق شيخا يهوديا يتسول فى المدينة ، فقال له سيدنا عمر أولم انه عن ذلك ؟ فقال الشيخ اليهودى : لا تسألنى ولكن اسأل «السن والجزية والحاجة » اى انظر الى شيخوختى وما يجب أن ادفعه من جزية وحاجتى ، فما كان من سيدنا عمر رضى الله عنه الا أن وصل الرجل بما يسد حاجته من بيت المال وقال للمشرف عليه : « انظر هذا وامثاله فارفع عنهم الجزية ، فوالله ما انصفناه أن ناكل عافيته فى شبابه ونتخلى عنه فى شيخوخته » .

وعندنا ان هذه المواقف التى قررت مبادىء وقواعد مستوحاة كلها من القرآن الكريم هى التى تفسر للحيارى من علماء الغرب سر انتشار الاسلام المذهل واعتناق الشعوب التى دخلتها جيوش المسلمين للدين الاسلامى مهما كان تفوق هذه الشعوب السابق على العرب كالفرس والرمان والمصريين .

« وما تنفقوا من خير فلأنفسكم وما تنفقون الا ابتغاء وجه الله وما تنفقوا من خير يوف اليكم وأنتم لا تظلمون » .

وتمضى الآية الكريمة لتبين للمؤمنين السر فى أن فضل الانفاق « التصدق » متوفر فى كل الأحوال فالمتصدق عندما يتصدق فهو انما يتصدق بعمله وجه الله « اى الله » المستغنى عن كل شىء والمستعلى على كل شىء . فما ينفقه المتصدق انما ينفقه لاصلاح نفسه للارتفاع بها عن نقيضة الشح وتثبيت ايمانها بأن الله هو الرازق وأنه سوف يكافىء المحسن بالثواب العميم الذى لا ينقص مقدار ذرة عما أنفق بل يزيده اضعافا مضاعفة كما تحدثت الآيات السابقة ، وفى سائر الأحوال والظروف فأنتم « لا تظلمون » .

للفقراء الذين احصروا فى سبيل الله لا يستطيعون ضربا فى الارض .

وبعد أن بين القرآن الكريم أن الصدقة عامة، خص بالذكر قوما معينين ، جعل الاحسان اليهم يتقدم ، والمفسرون على أن الآية نزلت بشأن قوم معينين على زمن رسول الله صلى الله عليه

وسلم وهم « اهل الصفة » وسنعود للحديث عنهم بعد ان نثبت اولا ان العبرة فى القرآن دائما بعموم النص وليس بخصوص السبب فكل من تحقق فيه وصف الآية فى كل زمان ومكان فهو حقيق بالتصدق عليه اى بالانفاق لمعاونته على الحياة ونعود الى « اهل الصفة » فهم قوم من فقراء المهاجرين ، ممن وفدوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد استقراره فى المدينة وبنائه المسجد ، وبعضهم قد يكون ممن اصيبوا بجروح فى حروب رسول الله فاعجزتهم عن التكسب ، على أن فريقا ثالثا من اهل الصفة كانوا ممن حبسوا انفسهم على طلب العلم وحفظ القرآن ولعل ابا ذر الغفارى هو اشهر واحد من اهل الصفة . والصفة هى مكان معين من مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، اعتاد من وصفناهم ان يبيتوا فيه باذن من رسول الله ، فاشتهر مكان مبيتهم باسم « الصفة » واشتهروا هم باسم « اهل الصفة » والزائر الآن لمسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم سوف يرى مكانا معينا هو « الصفة » .

ولكن الآية كما قدمنا عامة فلنتتبع كلماتها :

« للفقراء الذين احصروا فى سبيل الله » : اى الاشخاص الذين حبسوا عن النشاط الذى اعتاده البشر للحصول على رزقهم وذلك بسبب كونهم ، اما يطلبون العلم الالهى ، او جندوا انفسهم للقتال فى سبيل الله ، او كانوا ممن أصبحوا عاجزين او غير ذلك من اسباب وعلل مماثلة .

لا يستطيعون ضربا فى الأرض : هذا هو السر فى استحقاقهم للانفاق عليهم وهو عدم قدرتهم على التكسب ، الضرب فى الأرض اى السعى فى الارض التماسا لطلب الرزق . وهذا العجز يجب أن يكون لسبب مشروع كهذا الذى اشرنا اليه من التوفر على طلب العلم او يكونوا مستعدين دائما للقتال او يكونوا قد اصبحوا عاجزين بسبب هذا القتال ، والجامع لذلك كله أن يكون فى سبيل الله .

« يحسبهم الجاهل اغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس الحافا » :

يحسبهم الجاهل اغنياء من التعفف : اى ان هذا الطراز من الناس الذين هم اولى الناس بالانفاق عليهم يبدون فى نظر القاصر غير المدقق والمحقق ، او فى نظر الغافل انهم اغنياء غير محتاجين وذلك لتعففهم اى ترفعهم عن السؤال تعرفهم بسيماهم : اى تعرفهم بعلاماتهم وقد اختلف المفسرون فى نوع هذه العلامة فيقول البعض انها رقة الحال ورثاثة الثياب ويقول بعض آخر ، انها صفرة الوجه « من الجوع » وعندنا ان ذلك كله يتعارض مع القول بان الرائى يتصورهم اغنياء ، فدل ذلك على ان العلامة لا يمكن ان تكون واضحة وتكشف بنفسها عن فقرهم .

لا يسألون الناس الحافا : الحافا يعنى الحاحا وقال البعض انهم لا يسألون أبدا ومن اجل ذلك جهل الناس حالهم ، وعندنا أن ذلك يخالف صريح النص ، فالسؤال موصوف بأنه الحافا اى الحاحا ، وغنى عن البيان ان هذا الطراز من الناس لا يسألون كل من هب ودب واذا سألوا فلا يسألون الا على سبيل التلميح والتعريض وان فعلوا ذلك لا يفعلونه الا مع من يأنسون اليه ويثقون به .

« وما تنفقوا من خير فان الله به عليم » :

ويعلم الله سبحانه وتعالى المؤمنين الذين ينفقون اموالهم فى الخفاء والسر على هذا الطراز من المحتاجين ، ان الله بما يفعلون عليم ، وانه بالتالى سيجزىء عليه العطاء والمكافأة .

« الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية فلهم اجرهم عند ربهم ولا خــوف عليهم ولا هم يحزنون » .

التعميم بعد التخصيص :

بعد أن بين الله سبحانه وتعالى فى الآيات السابقة ما يمكن ان نسميه أدب الانفاق فى سبيل الله ، أو الشروط اللازمة لاستحقاق الأجروالثواب ، جاءت هذه الآية الكريمة تطلق القول وتعممه فيمن أصــبح الانفاق فى سبيل الله قدأصبح بالنسبة لهم عادة وطبعا وجزءا من حياتهم اليومية فأصبحوا :

— ينفقون أموالهم .

— سرا وعلانية .

ومعنى هذا ان الأمر أصبح من طبعهم وشيمتهمفلم يعودوا يتوقفون عن الاعطاء انتظارا لتحقق أمر معين ، وانما يعطون كلما استوجبت الظروف ، يعطون بالليل وبالنهــار فى السر والعلن ، فمثل هؤلاء يقرر الله سبحانه وتعالى : « فلهماجرهم عند ربهم » وليس فى هذا جديد ، وانما الجديد ان الله سبحانه وتعالى اخبر من يفعلذلك بأنه وصل الى منطقة الأمان حيث لا خوف ولا حزن فى اليوم العصيب يوم القيامة والذىيشيب لهوله الولدان « ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

وقد قال بعض المفسرين ان هذه الآية نزلتفى سيدنا أبى بكر ، وقيل نزلت فى سيدنا عثمان ، وقيل بل فى سيدنا على ، وقيل غير ذلك وقدقدمنا ان أسباب النزول تتلمس اذا كانت تلقى ضوءا على الآية الكريمة بحيث تزيدنا فهما لكلماتها ومدلولها العام ولكن الآية والحمد لله ناصعة كل النصاعة وهى تختم آيات الانفاق والصدقةبهذا الحث العام على الانفاق بدون قيد أو شرط الا أن يكون فى سبيل الله ، حيث سينتقل بنــاالقرآن الكريم بعد ذلك الى مسألة المسائل وآفة الآفات فى الاقتصاد واعنى بها الربا .

نظــام الربا :

احمد الله سبحانه وتعالى أن جعلنى اعيش ،حتى اذا جاء أوان تفسير آيات الربا ، استطعت بضمير مطمئن ، وفى غير تظاهر بالتشدد أو المغالاة ، أن افسر آيات القرآن الكريم والسنة النبوية معا أنها تحــرم كل صنوف الربا بكل أشــكاله وألوانه ، وهو « أى الربا » هو ما نسميه فى أيامنا الحاضرة (فوائد) فكل عمــل أو تصرفدخلت فيه الفوائد فهو حرام أيا كان نوع هذا التصرف .

والفوائد تعنى تقرير مبلغ محدد يزاد علىالنقود باعتبارها فوائد لراس المال اما لماذا انا مغتبط ان يجىء تفسيرى فى ما أسميه الظروفالحالية ، فأحــكام القرآن الــكريم ثابتة خالدة لا تتغير بتغير الظروف وقد فهم الربا فى كل زمانومكان على انه محرم فى القرآن ولكن فى النصف الأول من هذا القرن بخاصة وتحت تأثير هزيمة المسلمين والعرب الساحقة وغلبة الأوربيين على الدنيا كلها عسكريا وسياسيا واقتصاديا وعلميا ،فان الاقتصاد الذى ســاد الدنيا هو الاقتصــاد اليهــودى فقد كان اليهــود « فى غيبــة الدينالاسلامى » قد استطاعوا ان يســيطروا على أوربا بأسلوبهم ، وبالتالى صــاغوا الحضــارةالأوروبية وجعلوا فائدة راس المــال هى جوهر

كل نشـــاط اقتصادى ، بحيث اســتطاعوا انيجعلوا الشــعوب تشقى وتكــدح من اجل ان يجلسوا هم وراء الستار يقبضون ثمار هــذاالشقاء والكدح دون أن يعملوا شيئا او يخاطروا بشيء زاعمين انهم يتقاضون فوائد راس المــالواصبح علم الاقتصاد يقوم على ان راس المــال هو احد عناصر الانتاج ، ولو قلت ان المــال ايا كان نوعه ورقا او ذهبا او فضة لا يمكن ان ينتج شــيئا بذاته لا نتهــم بالجهــل فحسبوانما بالكفر ، وقامت البنوك وغمرت الدنيــا واصبحت هى هياكل ومعابد الدين الجديد ، دينالمادة ، وجلس كهنة هذا الدين يقبضون الأموال تلو الأموال ويحكمون من نشاط العالم ويسيطرونعلى اقدار البشر من خلال اقراض المال وقبض الفوائد بلا عمل أو مخاطرة ، وتنبهت المجتمعاتواحدة بعد اخرى الى وقوعها فى براثن اليهود ، فكان ان نكلوا بهم ولكنهم هربوا من اوربا ليبداوافى العالم الجديد « امريكا » ولكن امرهم الى زوال كما هو شأنهم فى اى مجتمع آخر ، وما علىالعرب والمسلمين ، الا ان يعلنوا اقتصــادهم الاسلامى فى مواجهة الاقتصاد اليهــودى لكىتزول هذه اللعنة التى فرضها اليهود على العالم لعنة اعتبار فائدة رأس المال احدى حقائق الحياةكالشمس والقمر والليل والنهــار مع أن هــذه الفائدة ملعونة فى القرآن باعتبــارها من كبرىالآفات المدمرة للسلام الاجتماعى .

اجتهادات الأمس القريب :

وقد حاول نفر من علماء المسلمين فى يوم ما بعد أن وقعت مصر فى براثن الاستعمار البريطانى ان يرضخوا للواقع كما نجح اليهود فى فرضهعلى العالم ، فراحوا يبحثون فيما تصوروه علة لتحريم الربا « وهذا ما يجعلنا نرفض دائمــامحاولة تعليل الأحكام القرآنية الا ان يــكون القرآن نفسه قد صرح بهذه العلة ، أو ورد فيهاحديث صحيح يكشف عن العلة » .

وموضوع الربا « فائدة رأس المــال » كانمن هذه الموضوعات التى راح بعض المجتهدين يغوصون فيها وخرجوا من اجتهاداتهم أن بعضصور الفائدة فى العصر الحديث ليست من الربا المحــرم شرعا ، واستندوا فى اجتهــادهم الىامرين :

١ ـــ آية قرآنية تقول :

« لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة »

واستخلصوا من هذا التعبير ان المنهى عنه هو « الربا الفاحش » .

٢ ـــ واعتبروا الآية الكريمة خاصة بالصورةالتى كان يجرى عليها العمل عند العرب عنــد نزول آيات الربا ، حيث كان الرجل يقترض الىاجل فى مقابل زيادة معينة ، فاذا حل الأجل ولم يستطع المدين الوفاء تأجل السداد فترة جديدةفى مقابل مضاعفة المبلغ وهكذا ، هذا اللون من الاستغلال الفظيع هو الذى حرمه القرآن أشدالتحريم ، وانتقل الاجتهاد خطوة ثانية ، فعندما يقترض الانسان المحتاج ، فاستغلال هذه الحاجةلجلب فوائد ، فهذا هو الربا الملعــون والمنهى عنه ، أما أن يأخذ المــال « قوى » لكى يستثمرهويكثره وليكن هذا القوى هو الدولة نفســها ، ففى مثل هذه الحالة لا تكون الفوائد التى يدفعهاهذا القوى القادر ربا وعلى هذا الأساس ابيح لمصلحة البريد أن تنشيء صناديق التوفــير وانتدفع فوائد عن الودائع بدون أن يعتبر ذلك ربا محظورا شرعا وكمــا قدمت فانا التمس لهؤلاءالمجتهدين عذرا فقد صور لهم الأمر على أن الدنيا ستنهار وسوف تخرب اذا لم يؤخذ بهذا المبدأ ،مبدأ الفوائد على رأس المال ، ومن اللطيف أن بعض المجتمعات الحديثة التى قامت للقضاء علىرأس المال وتلخص دينها الحديث على محاربة

راس المـال وفوائد راس المـال ، سرعان ماوقعت هى نفسها فى عبادة اله المـال فراحت تتقاضى فوائد على ديونها اذا تأخر سـدادها ،ولا عجب فى ذلك فالاله واحد فى العالمين ، عالم الراسمالية وعالم الماركسـية وهو اله المـادةوعبادة المادة والكفر بالغيبيات ، اى بالجنـة والنار والثواب والعقاب فى عالم آخر ، فأصبحمن غير المفهوم وبالتالى غير المقبول ان يتم تعامل من اى نوع كان بغير مقابل مادى وفى هذه الدنيابالذات ، ومن هنـا يظهر الفارق الاسـاسى والجـوهرى بين الاقتصـاد اليهودى المـادىوالاقتصاد الاسلامى الذى يعتمـد على المـادة والروح معاً فاستطاع ان يخلق حضـارة زاهيةفيها نشاط وانتاج وعمل ، فيها زراعة وصناعة وتجارة تجوب البحار والقفار فى ذروة النجاح ،دون ان يكون فى المعـاملات ربا ، وعاشت الف سنة سيدة للدنيا ، حيث لم تستطع الحضـارةالأوربية المـادية أن تعيش ثلاثة قرون ولا أمل للمسلمين ان ينهضوا من كبوتهم الا فى أن يعودوالبنـاء اقتصـادهم الاسلامى ، ويعرضـوا عن الاقتصاد اليهودى ، وسيرون أن الدنيا ستتابعهمفى ذلك للتحرر من نير اليهود الذين سيفتقدون كل سلطانهم .

تحريم الربا هو سر ازدهار المجتمع الاسلامى :

لقد أخطأ الذين تصوروا أن الاسلام قد حرمالربا لمـا ينطوى عليه من استغلال فانزلقوا الى القول بأن الربا الفاحش هو وحده المحظور ،فاذا انتفى الاسـتغلال كأن كان المقترض هو الدولة او « البنوك » للاستثمار فلا يكون هذاهو الربا المحظور .

ونحن ممن لا يجتهدون فى فهم العلة فى أمرمن المحظورات اذا لم يصرح بها القرآن نفسه ، وانمـا نمتثل لأمره أيا كانت العلة التى احتفظالله سبحانه وتعالى بعلمها ، ولكن من حقنـا « بما أودعه الله فينا من عقول » أن نفهم وندركالفوائد التى عادت على المجتمع الاسـلامى من تحريم الربا فلا نسمى ما نفهمه بانه علة ، لأنالعلة هى التى يدور معها المعلول وجودا وعدما ، بمعنى انه اذا زالت العلة زال المعلـول علىالفور ، ومن هنا فنريد ان نلفت النظر الى أن ما سوف نقوله ليس هو علة حظر الربا فالرباحرام لأن القرآن حرمه وهذا يكفينا ، وبعد هذا نقول وبالله التوفيق .

العمل والسعى :

قدمنا ان الاسلام يعتبر العمل وحده هو سبيلالكسب او بلغة عصرنا « الانتاج » ، وقد استعمل القرآن الكريم لفظا آخر للكسب وهو السعى ،واذا كان العمل مجهودا بدنيا ومعنـويا ، فان السعى يضيف الى العمل عنصرا جديدا وهـو المخاطرة ، فاذا كان العامل يلزم مكانا معينا ، ويؤدى أعمالا محددة ، فان السـاعى فى مناكبالارض فى طلب الرزق يخاطر بماله وامنه واحيانا يخاطر بروحه كلها التماسا للمعايش ، وهو اذيفعل ذلك ، يفعله وفى نفسه، ايمان عميق بأن الله سبحانه وتعالى هو مقدر كل شىء ومسببكل شىء وانه هو الرزاق ذو القوة المتين ، وبهذا الايمان سعى المؤمنون فى طول الدنيا وعرضهافكان منهم هذا الذى كان اى ان المسلمين على أيام سيدنا محمد صـلى الله عليه وسـلم وفىالصدر الأول من الاسلام ، فهموا من القرآن انه يحضهم على العمل والسعى بما ينطوى عليـهالسعى من مخاطرة ، وعلى ضوء هذا الفهم من تصرف المسلمين الأوائل ، نستطيع أن نتبينكيف ان الربا « اى فائدة راس المـال » يخلو من هذين العنصرين :

١ — العمل .

٢ — المخاطرة .

فالمرابى يقدم المـــال ويطلب عليه ربحا ، ولايعنيه ماذا حل بالمدين ربح أم خسر ، نجـــح أم فشل عاش أو مات فهو يريد ماله والفـــوائد المستحقة عليه ، اى انه يكسب دون عمل أو حتى مجرد المخاطرة ، وليس ادل على ذلك من أن اى بنك لابد ان يربح وتتزايد ارباحه حيث لا يعمل شيئا ولا يخاطر بشىء ، فهو يتسلم قروض الناس ويدفع عنهـــا فوائد ثم يعيـــد اقراضها للناس بفوائد اكبر ، فانمـــا هو الفـــارق بين الفائدتين ، ويشـــقى هؤلاء وهؤلاء « ســـواء المقرضـــين للبنك أو المقترضـــين منه » ليربح أصحاب البنوك .

وهذا هو ما لم يعرفه المجتمع الاسلامى فى كل عصوره بسبب تحريم الربا ، فالربا هو الحصول على المـــال بغير عوض حيث الصدقة هى اعطاء المـــال بغير عوض وعلى هذين الأصلين ، حظر تقاضى اموال زائدة بغير عوض والانفاق فى سبيل الله بغير عوض « فى الدنيـــا » قام الاقتصـــاد الاسلامى وعاش المجتمع وازدهر . وقبل أن تعرف الدنيا « الحديثة » مسئولية الجماعة عن تعليم الكافة وعلاج المرضى ، وإطعـــام الجميع واغاثة الملهوف كان المجتمع الاســـلامى يزدهر بهـــذه المؤسسات فكانت المدارس والجامعات والمستشفيات ، وكم صدعونا بقول من قال ان التعليم يجب أن يكون كالهـــواء والمـــاء وليس ذلك الا تقليدا اسلاميا بحتا حيث لم يكن طالب العلم يجد ما يحول بينه وبين طلبه ، وانما يجد عكس ذلك تماما وهو كل ما يمكنه من تحصيل العلم ، فيجد المأوى والمأكل والملبس .

وســـوف نرى عنـــدما نعرض للآية الكريمة بالتفصيل أن القرآن الكريم قد ربط بين النقيضين « الربا والصدقات » فقال وقوله الحق :

« يمحق الله الربا ويربى الصدقات » .

لا خطر على المشاركة فى الأرباح والخسائر :

بقى لكى نختم هذه العجالة عن الاقتصـــاد الاسلامى ، أن نلفت النظر الى أن الأمر المحظور فى الاسلام هو قبض ربح رأس المال دون الاشتراك فى الخسارة ، اما عندما يعطى الانسان ماله لآخر على سبيل الاشتراك فى الكسب والخسارة ، فهذا مشروع وحلال وأسمى الفقهاء مثل هـــذا العقد بأنه « عقد المضاربة » والفرق واضح كل الوضوح بين أن تقرض مالك فى مقـــابل فائدة ثابتة (ربا) وبين أن تشارك به فى عمـــل مثمر يكســـب او يخسر فأنت عند ايمـــانك بأن الله سبحانه وتعالى هو الرزاق فاذا شـــاء لك أن تربح فسوف تربح وان شاء أن تخسر فســـوف تخسر وباستطاعتك دائما أن تكسب مثوبة الله سواء فى حالة الكسب والخسارة بأن تتصرف فى كلتا الحالتين بما يتفق معها .

أما فى حالة تقاضى الفوائد الثابتة المحققة فأنت تخرج « الله » من الموضوع وتحاول ان تحقق الضمان لنفسك .

فى المشاركة فهم ودراسة :

وأضيف على توفر الايمان فى حالة المشاركة وانتفائه فى حالة قبض الفوائد الثابتة ، انك لن تشارك الا فى أمر تعرفه وتفهمه وقد تدرســـه وتعمل فيه وكل هذا من « السعى » أما عندما تقدم مالك ليقتصر عملك على ان تقبض فوائده فلست فى حاجة أن تفهم فضلا عن أن تدرس أو تعمـــل .

فلتتدبر هذا الدول الاسلامية التى اصبحت تقدم بلايين الدولارات فى مقابل أن تحصـــل على فوائد ثابتة قلت او كثرت فهذا هو الربا الذىانذره الله بالمحق وليستثمروا أموالهم عن طريق المشاركة فى الارباح والخسائر فيكسبوا فى الدنياوالآخرة ويزدادوا علما وخبرة وبصر بالأمور .

« الذين يأكلون الربا لا يقومون الا كما يقومالذى يتخبطه الشيطان من المس ذلك بأنهم قالوا انما البيع مثل الربا واحـــل الله البيـــع وحـــرم الربا » .

مفردات :

الذين يأكلون الربا : اى من يتعاملون بالرباوينتفعون بثماره ، وعبر عن ذلك بـــ « الأكل » .

والربا : من ربا يربو اى زاد والربا هو الزيادة .

لا يقومون الا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس .

يتخبطه الشيطان من المس : كناية عن الجنون .

والمعنى ان من يتعـــاملون بالربا « المعطى والآخذ على السواء الا ان يكون هذا الاخير فى حالة ضرورة » يقومون من مرقدهم يوم القيامةوهم يحملون بصمات الشيطان على وجـــه من الوجوه ، ولا تعارض بين هذا الفهم الذى تدعمهالأحاديث الشريفة ، وبين ما يضيفه البعض من أن مصير المرابى فى الدنيا ينذر بكل سوء وادنىدرجات هذا السوء هو كراهية الناس له وحقدهم عليه وخوفه هو بالتالى على نفسه وماله ، وكلذلك مشـــاهد ومحسوس عنـــدما كان المرابون افرادا اما بعد ان نجحوا فى تحـــويل الأمر الىمؤسسات وانظمة اعتبرت هى سر الحضارة ، فقد اصبح التعامل بالربا « الفوائد » مسألة تكادتكون من البديهيات التى لا تثير اهتماما خاصـــا ولكن الله سبحانه وتعالى الذى لا يخفى عنـــهشىء فى الأرض ولا فى السموات سوف يحاسب على كل هذا الذى يجرى ، وتبقى آية القـــرآنالكريم ، ككل آيات القرآن خالدة على مر الزمن وتنذر كل من « يأكلون » يتعامل بالربا (المعطىوالآخذ على السواء بأنه سيبعث يوم القيـــامة « كمن يتخبطه الشـــيطان من المس » . اخرجالطبرانى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثا جاء فيه النهى عن أكل الربا فقال : « فمن اكل الربا بعث يوم القيامة مجنونا يتخبط ، ثم قرا الآية » .

« ذلك بأنهم قالوا انما البيع مثل الربا »

وتثير كلمة (ذلك) هنا بعض الخلاف بين قدامى المفسرين ، حيث قال البعض انهـــا تعنى أن آكلى الربا قد استحقوا هذا الوعيد بسبب قولهم« انما البيع مثل الربا » وقد ترتب على هـــذا التصور أن كان بعض المسلمين ممن « يأكلون الربا » يقرر انه يؤمن بأن الربا حرام ، ولكنه يزاوله كخطيئة مثل سائر الخطايا التى يقع فيها الانسان ، ويتصور بذلك انه قد نجا من المصير الذى ينتظر آكل الربا فهو لم يقل أن الربا حلالبل قرر انه حرام وهذا هو خطر استخلاص اى حكم من تفسير احدى الآيات ولذلك فقد حرصنادائما على أن ننبه أن يرجع دائما لمعرفة الأحكام الى قواعد الفقه حيث يبنى الحكم على مجموعما اشتمل عليه القرآن الكريم من آيات خاصة بالموضوع وكيف فسرها رسول الله صلى اللهعليه وسلم قولا أو فعلا ، وكيف فهمها صحابته من بعده .

وعندنا أن الحكم قد تقرر فى صدر الآية من أن « الذين يأكلون الربا لا يقومون الا كمـــا يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس » وليس يعنى ذكر لفظ (ذلك) انه للتسبيب .

وانما تمضى الآية الكريمة فتروى بعض ما كان يقوله المرابون .

« انما البيع مثل الربا » والملاحظة اللطيفة هنا انهم لم يشبهوا الربا بالبيع ، بل عكسوا القضية امعانا فى اظهار تصميمهم فى التعـــامل بالربا فجعلوه هو الأصل فى التعامل واعتبروا البيع شبيها بالربا ، ويقف قدامى المفسرين عند ابثات هذه الملاحظة فلم يدر بخلدهم أن سيجىء زمن « ايامنا الحاضرة » سيصبح فيه الربا بالفعل هو الأصـــل الذى تنسب اليه جميع المعاملات ، فكيان الدنيا الاقتصادى يقوم اليوم اول ما يقوم على « البنوك » المصارف ، ثم تتسلل بعد ذلك باقى العمليات الاقتصـــادية ، من بيـــع وشراء وانتـــاج وبالجملة كل صـــنوف المعاملات التى اصبحوا يتصورونها مستحيلة فى غـــير ظل نظام الربا .

« وأحل الله البيع وحرم الربا »

وفى جملة حاسمة فرق الله بين البيع والربا فجعل الأول حلالا على الاطلاق والثـــانى حراما على الاطلاق ، وكلمة البيع هنا يجب أن تفسر بمعناها الواسع الذى يتسع لكل ضروب النشـــاط. النشـــاط الاقتصادى الذى يقوم على المعارضـــة بين شيئين كل منهما نافع فى حد ذاته فالتجارة بكل ضروبها « الشرعية » حلال ، واستثمار المال فى الزراعة والصناعة وكل ضروب الانتاج ممـــا يعود على الناس بالنفع « الا ما حـــرم الشرع كانتاج الخمر أو تربية الخنازير » ولست هنـــا نحاول ان نستقصى ما هو مشروع وما هو غير مشروع فمرجع ذلك الى الفقه ، وانما اردنا فقط أن نلفت النظر الى ان البيع يجب أن يفسر على كل معاوضـــة فى شأن من الشـــئون خالية من « فائدة راس المال » وعلى ذلك فكل البيـــوع بالتقسيط والتى تقدر فيها فوائد على التقسيط هى عين الربا ، بل كان البيع بالتقســـيط هو الخديعة التى خدع اليهود بها الدنيا كلها ليوقعوا الأفراد العاديين فى براثنهم ويسلبوهم جزءا من أموالهم .

فقديما وقبل ان يقع الناس فى براثن الاقتصاد اليهودى ، كان اى انسان يريد الحصول على سلعة فمـــا عليه الا ان يدخر حتى يجمـــع ثمن السلعة التى يريدها فيحصل عليهـــا بعيدا عن الربا ، ومن يريد ان يبنى بيتا او يشترى ارضـــا فما عليه الا ان يدخر حتى يتكامل له ما يريد ولم توقف نشـــاط البشر لحظة واحـــدة « بغير حاجة للربا » الى أن جاء الاقتصـــاد اليهودى وحكاية البيع بالتقسيط ، أنت تريد تليفزيون أو ســـيارة ، أو تريد أن تبنى بيتا ، انا اعطيك ما تريد فورا على أن تعطينى الثمن بالتقسيط مضافا اليه الفوائد على أن لا تملك الشىء المباع الا بعد ان تســـدد آخر قسط وهكذا اصبحت العالمية العظمى فى بلد مثل امريكا تشقى وتكدح لتسدد الأقساط وفوائد الاقســـاط لقوم كسالى لا يعملون شيئا أو يخاطرون بشىء الا ان يقبضوا الأموال ويقرضونها ثانية للأفراد والشركات والدول ويتقاضون الربا ، ومن هنا فنحن نفهم قوله تعالى « وحرم الربا » .

جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾

« فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وامره الى الله »

تبارك ربى ما اعظمه واوسع رحمته ومغفرته فيها هو ذا يقول لنا ولأمثالنا الى ابد الآبدين ممن تسلل الربا الى حياتهم بطريقة أو بأخرى وهم لا يشعرون ، ان من بين له الأمر وجاءه العلم بأن الله قد حرم الربا فانتهى عن كل اشكاله وصوره « فله ما سلف » وحيث يعد الله فى كثير من مثال هذه الذنوب بالعفو والمغفرة ، فهو سبحانه وتعالى يتوقف عن قطع هذا الوعد مقررا ان « أمره الى الله » ان شاء عفا وغفر وان شاء حاسب ، وغنى عن البيان ان الله سبحانه وتعالى اراد ان يبقى الأمر معلقا ليقضى فيه على ضوء تصرف الشخص فى المستقبل بعد ان عرف وتبين ان الربا حرام . ويظهر ذلك بوضوح فى ختام الآية :

« ومن عاد فأولئك اصحاب النار هم فيها خالدون »

فهو ينذر من يعود لمزاولة الربا بجهنم يخلد فيها الى ابد الآبدين ونحن لا نخوض فيما خاض فيه البعض عن المقصود هنا بالخلود ويفهم منه ان الله سبحانه وتعالى يشدد ويغلظ فى المسألة وسوف نرى بعد قليل ، انه سبحانه لن يقف عند حد الوعيد بما سوف يحدث يوم القيامة ، بل سوف يكلف رسوله بشن الحرب على المرابين .

« يمحق الله الربا ويربى الصدقات والله لا يحب كل كفار أثيم » .

المحق ، لغة النقص والذهاب ، ولكن القرآن يستعمل اللفظ فيأخذ معنى جديدا فى سياق القول ولذلك فالمحق هو بمعناه الذى نستعمله وهو لا يبعد عن المعنى اللغوى ولكنه يشدد فيه فأصبح المحق يفيد السحق والابادة فعندما يقول تعالى انه يمحق الربا فنحن نفهم من ذلك انه يبيده وينسفه نسفا ، فى الآخرة على وجه التحقيق ، وفى الدنيا على اكثر الأحوال وسوف تنهار الحضارة الأوروبية باذن الله لقيامها على الربا .

ويربى الصدقات : اى يبارك فيها بالزيادة وانظر الى البيان القرآنى ، حيث يستعمل اللفظ الواحد فهو يمحقه بمعناه الاصطلاحى « الربا » وهو يستعمله بمعناه اللغوى « الزيادة والنمو » ليحث فيه على الصدقة ، اى الانفاق فى سبيل الله وقد نجح الماديون فى التشنيع بكلمة الصدقة لان ذلك يتمشى مع فلسفتهم فى عدم الايمان بالله ، وانه يحث على الصدقة ويثيب عليها وراحوا يبغضون الناس فى الكلمة ويكرهونهم فيها بمقولة انها اسلوب « الرجعية » وخدعة « بورجوازية » الى آخر هذه الترهات والسخافات التى حذقوها ونجحوا فى ترويجها مع ان « الزكاة » التى هى احد اركان الاسلام كانت تسمى بالصدقات ، ولقد حارب سيدنا ابو بكر من منع هذه الصدقات « الزكاة » ومن هنا فقد ذهب بعض المفسرين للقرآن الكريم لاعتبار الكلمتين « الزكاة و الصدقات »

اصبحتا بمعنى واحد بعد تقرير تشريع الزكاة ،ولكننا لم ناخذ بهـذا الراى وعندنا ان كلمـة الصدقات تشمل الزكاة التى هى ركن وتشـمل ايضا صدقة التطوع التى يدعو القرآن الكريم المسلمين لبذلها سرا وعلانية بالليل والنهـارونعود الى شقشقة الماديين ، فاما عن الدعوة لكراهية اخذ الصـدقة بمقولة مساسها بكرامة الانسان ، فقد سبقهم الى ذلك الاسلام باربعة عشر قرنا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم« اليد العليا خير من اليد السفلى » وقال « لأن يأخذ احدكم حبله فيحتطب خير له من ان يسـال الناس اعطوه ام منعوه » .

وقد تضافر القرآن والسنة على ما قدمنا على حث كل انسان على العمل ومـع ذلك فكم من الناس معرض لنوائب الزمن التى تقعـده عن العمل والكسب بسبب ما ، وهنا عجز الشيخوخة عن العمل بعامة فاصبح اعطاء الصدقات امرا لا غنى عنه ، والتشدق بان ذلك امر تتولاه الدولة وتنظمه عن طريق الضرائب فهو ما يفعله بيت المـال ، ولكن ذلك لا يغنى ولا يمكن ان يغنى عن دفء العلاقات الانسانية حيث يصل القادرون من يحيطون بهم بما سماه القرآن الكريم الصدقات فليتصدق القادرون فليتصدقوا ما استطاعوا الى التصدق سبيلا ، ولنرجع اذا استطعنا لتقاليدنا القديمة ، لنطعم من لم يعودوا يعرفون «اللحم» الا بالمنظـر ، وليفعل من استطاع فعـل الآباء والأجداد عندما كانوا يطعمون الناس « الثريد واللحم » وبالجمـلة فلنرجع الى كل صـنوف الصدقات جاء فى صحيح مسلم « ان صـدقة احدكم لتقع فى يد الله فيربيها كمـا يربى احدكم فلوه » او فصـيله حتى يجيء يوم القيـامة وان اللقمة لعلى قدر احد واحد هو الجبل المعروف بجوار المدينة .

« والله لا يحب كل كفار اثيم »

والله لا يحب : اى لا يرضى .

كل كفار : والكافر هو من يسـتحل الربا ولا عجب فى ان يكون المـرابى كافرا فالمسـلم لا يكون مسـلما الا اذا اقام اركان الاسـلام الخمسة ، واحد هذه الأركان كما نعرف هو الزكاة اى اعطاء المـال بلا عوض ، والمرابى يعكس الآية ، ولقد تحرج الكثيرون فى عصرنا الحـديث من اعتبار المرابى « كافرا » ولكنه كافر بموجب كل الكتب السـماوية التى حـرمت الربا بدون استثناء ، فاستحلال الربا بمزاولته محليا هـو كفر وانسلاخ من دين الله .

اثيم : وابى الله سبحانه وتعالى الا ان يصف المرابى بانه كافر ولمـا كان الكفر امرا يتصـل بالعقيدة ، فقد زاد الله عليها بانه « اثيم » والاثيم يكون امره ظاهرا للناس بفعل ما نهى عن فعله جاء فى القرآن الكريم « ان شجرة الزقوم طعام الاثيم » ..

« ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات واقاموا الصـلاة وآتوا الزكاة لهم اجـرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

وكشأن القرآن الكريم كما مر علينا فى كل ما تقدم لا يكاد يعرض لاحدى صور الشر وتوعد بالصورة العكسية وهى صورة الخير ، فاذا كان الذين يزاولون الربا ، ولم ينتهـوا بالرغم من كل من يقدم عليهـا فهو يشفع ذلك على الفـور تحريم الله له اصبحوا فى عداد الكفار الآثمين ، ففى الناحية الأخرى كل .

— من آمن ..

وعناصر الايمان معروفة : بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر .

ـ وعملوا الصالحات : والعمل الصالح يجب ان يفسر بمعناه الواسع وهو كل ما من شانه ان يعود بالخير على الناس ابتداءا من شخص الانسان العامل نفسه واسرته وانتهاء بخير الجماعة والناس اجمعين ، وقد حاول البعض فى فترات ضعف المجتمع الاسلامى ان يفسروا الأعمال الصالحة بانها الامور التعبدية فقط كالصلاة والصوم ، وهذا غير صحيح بدليل ان الآية ذكرت الأعمال الصالحة ثم ذكرت الصلاة والزكاة .

ومن هنا اعتبر فقهاء المسلمين كل الأعمال النافعة للمجتمع فضلا عن الأعمال التى لا يقوم المجتمع الا بها ، فان القيام بها يصلح من فروض الكفايات ، بحيث يأتم كل أفراد المجتمع الاسلامى ان لم يوجد بهذه الأعمال ، كما صاغ الفقهاء أيام الازدهار الاسلامى قاعدة « ما لم يتم الواجب الا به فهو واجب » وهكذا ادخلوا كل ضروب الاصلاح التى تمكن من اداء الواجبات فى باب الواجب .

« واقاموا الصلاة وآتوا الزكاة »

فصلنا القول من قبل عن الصلاة والزكاة وسنعود الى مزيد من ذلك متى امتد بنا العمر وقدرنا الله على استعراض كتابه العزيز ، ولكننا نقف اليوم عند اثبات ملاحظة سبق ان نبهنا اليها ، وهى انه بعد تقرير تشريع الزكاة فى المدينة لم تعد الصلاة تذكر فى القرآن الا مشفوعة بذكر الزكاة تعريفا من الله سبحانه وتعالى الى انه اذا كانت الصلاة تحقق لنفس العبد الطمأنينة لشعوره بانه متصل برب هذا الكون ، فان الصدقة وهى حق غير القادرين فى المجتمع فى اموال القادرين « وفى اموالهم حق معلوم للسائل والمحروم » فاداء هذا الحق يوفر بدوره لمؤديه الطمأنينة والأمن ، وعلى هذين القطبين معا « الصلاة والزكاة » يبنى مأمن وسلام الفرد والجماعة .

دفع شبهة :

ونريد هنا ان ندفع هنا شبهة ان الضرائب الحديثة هى البديل « العصرى ؟ !! » للزكاة ، فالضرائب ليست سوى احد تطبيقات المذهب المادى ، الذى لا يسيغ بذل اى شىء فى غير مقابل مادى تتقاضاه فى هذه الدنيا بالذات ، فنحن ندفع الضرائب للدولة فى مقابل ما تقوم به الدولة من خدمات محققة ، مثل توفير الأمن وشق الطرقات . .الخ .

اما الزكاة فهى شىء يخالف ذلك تماما انها العطاء لأن الله امر به واذا كان المعطى يلتمس على ذلك ثوابا فثوابه عند الله فى الآخرة . « لهم اجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

فليست المسألة مسألة ضرائب تتقاضاها الدولة لأداء خدمات وانما هى للفقير والمحتاج كما قدمنا ، وما اسعدنا ان نعيش حتى نجد موجبات التفاؤل بمستقبل المسلمين فلم يكد بنك ناصر ينشأ وينظم سبيلا لدفع الزكاة حتى فوجىء القائمون عليه بكمية الأموال التى راحت تتدفق عليه ، واصبحت مشكلته الأولى هى فى البحث عن المصارف الشرعية لهذا المتحصل لديه من الزكاة وهكذا دفع الناس زكاة اموالهم فى الخفاء غير منتظرين جزاء ولا شكورا من احد بل دون ان يعلم من شأنهم احد . ان دموعى لتنسكب وانا اخط هذه الكلمات من فرط التأثر ، ان المسلمين بخير « ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » واذا كانت الآية الكريمة تقطع بأن هؤلاء « الذين آمنوا وعملوا الصالحات واقاموا الصلاة وآتوا الزكاة » سوف ينالون مكافآتهم يوم القيامة « اجرهم » امنا وطمأنينة وجنة ونعيما ، فان آيات اخرى تعدهم بالنصر والتمكين فى هذه الدنيا ، وما عليهم الا ان يمضوا فيما هم عليه من كريم الأعمال .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ
وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ
وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ
وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ
كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِي عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ
وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِي عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ ۚ
وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ
إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ۚ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْ ۚ وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا
إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ ۖ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ

« يا ايها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا ان كنتم مؤمنين » .

اذا كانت هذه الآية الكريمة قد بدات بتوجيه الخطاب الى المؤمنين مما جعل البعض يرجح ان لا تنافى بين الايمان وبين تعاطى الربا ، فان بعضا آخر « ونحن منهم » يرون ان ختام الآية قد جرد من يصر على الربا رغم التحذير صفة الايمــان وذلك بقوله تعالى « ان كنتم مؤمنين » ولا نأخذ بقول من قال انها استعملت هنا للمبالغة فى التشديد مثل قولك : لا تفعل هذا ان كنت رجلا ولا محل للقياس فالرجولة واقع مادى لا يتغير بتغير الظروف ، اما الايمان فمسالة معنــوية تحتمل التغيير والتبديل ، ولذلك فنحن عند راينا الذى قال به بعكس العلماء من انه لا ايمــان لمن زاول الربا واصر على مزاولته رغم تحــذير القرآن ويدعم راينا ما سيرد فى الآية المقبلة ان شاء الله .

اما سبب منــاداة القرآن الكريم « يا ايهــا الذين آمنوا » فكون كثير من الذين دخــلوا فى الاسلام فى مرحلة متأخرة كانوا يزاولون الربا فكانت « ثقيف » على سبيل المثال تداين كثيرا من بقية قبائل العرب ، وكان العباس عم النبى قبل ان يعتنق الاسلام يتعامل بالربا ، ولذلك فقد حرص رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فى حجة الوداع ، ان يعلن على رؤوس الاشهاد ان اول ربا « يضعه » فى الاسلام بمعنى يلغيــه هو ربا عمه العباس فالآية الكريمة « فى حــدود فهمها » ولو انها تبدا بــ « يا ايها الذين آمنوا » فهى تعلق هذا الايمــان على شرط « ان كنتم

مؤمنين » ، وهذا الشرط هو أن يذروا « ما بقى من الربا » وتعبير « ما بقى من الربا » هو الذى يدحض القول أن الربا المحرم هو « الأضعاف المضاعفة » فكل زيادة على راس المال أيا كانت نسبتها هى ربا والقرآن الكريم يأمر بترك اخذ هذه الزيادة ممن يريد ان يكون مؤمنا .

« فان لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله » .

هذه هى الآية الكريمة التى جعلتنا ناخذ برأى من قال أن تعاطى الربا والاصرار عليه بعد تحذير القرآن يساوى الكفر او هو الكفر بذاته ، فرسول الله صلى الله عليه وسلم لم يؤمر بحرب احد الا أن يكون مشركا اى كافرا ، وها هو ذا يتوعد المتمسكين بأكل الربا « بحرب من الله ورسوله » وذهب بعض المفسرين الى القول بأن ذلك يكون يوم القيامة ، وهو « تكلف » فرسول الله لايحارب يوم القيامة، وفى ذلك اليوم المشهود لا فاعل الا الله ، وانما يحارب الرسول فى هذه الدنيا وقد دعاه القرآن بالفعل لحرب المشركين والكفار وها هو ذا يدعوه لمحاربة المرابين ولذلك فنحن لا نجارى كل من حاول أن لا يفهم الأمر على هذه الصورة ، فأوردوا بعض القراءات لكلمة « فأذنوا » فقالوا انها بمعنى اعلموا ، أو قالوا ان المعنى ان من يزاول الربا يحارب الله ورسوله .

ورد عن ابن عباس رضى الله عنه قوله : « من كان مقيما على الربا لا ينزع عنه فحق على امام المسلمين أن يستتيبه فاما نزع « اى اقلع عن الربا والا ضرب عنقه » .

وقال قتادة : أوعد الله اهل الربا بالقتل فجعلهم بهرجا « أى شيئا مباحا » اينما ثقفوا .

وكتب الحديث تفيض بلعن آكل الربا ومؤكله وكاتبه وشاهده .

وبقى ان نذكر من هذه الاحاديث قول الصادق الأمين وهو يصف ما نحن فيه : « يأتى على الناس زمان لا يبقى أحد الا أكل الربا ومن لم يأكل الربا اصابه غباره » .

« وان تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولاتظلمون » .

وهذا هو النص القاطع الذى لا يجوز معه تصور أن الربا المحصور هو الربا الفاحش فهو هنا يحدد أن ما يجوز استرداده ، عند التوبة ونحن هنا لا نريد أن نتعرض لتفاصيل التوبة فتلك مسألة يرجع فيها الى كتب الفقه ، واول خطواتها أو بالأحرى ، عناصرها هى أن يدع المرابى كل زيادة على راس المال وان ينقضى دينه فقط ، بدون نقص او زيادة وهو تثبيت لمبدأ الاقتصاد الاسلامى كما بيناه من أن الاسلام لا يعتبر النقود أيا كان نوعها سبيلا لجلب نقود الا من خلال العمل فمن اراد أن يستثمر ماله عن طريق آخر فليكن شريكا له فى المكسب وخسارة ، أما الاتفاق على فوائد محددة فى كل الأحوال فهذا هو الربا .

« لا تظلمون ولا تظلمون »

وسمى القرآن الكريم اخذ ما زاد عن راس المال « عن طريق الربا » ظلما ، كما اعتبر المدين الذى ينقص من الدين الذى اقترضه ظلم كذلك .

« وان كان ذو عسرة فنظرة الى ميسرة »

ذو عسرة : من اليسر وهو ضد العسر ويكون المعنى انه اذا عجز المدين عن السداد بسبب شدة وازمة ضيقت عليه ، فيجب انتظار زوال الشدة ، وذهاب الضيق ، وسعة من المال .

والآية عامة ومطلقة كما ترى فى ان كل مدين عجز عن السداد لأنه معسر فيتعين امهاله الى ميسرة .

ولكن البعض اراد ان يخصصها فى حالة ديون الربا ، ولا تنصرف الى الديون العادية وقالوا لان الآية وردت فى سياق الحديث عن الربا ، وهذا ليس بشىء فآيات القرآن تؤخذ على عمومها الا ان يخصصها مخصص من قرآن او عمل الرسول ولا شىء من ذلك هنا ، اما القول بانه جاء فى القرآن « ان الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات » ، فهى لا تغير شيئا من حكم الآية التى نحن بصددها ومن هنا فنحن على قول من قال انها عامة بالنسبة لجميع الديون .

« وان تصدقوا خير لكم ان كنتم تعلمون »

وهذا هو ما يعزز رأينا فى ان الامهال فى حالة العسر عام فى سائر الديون ، فقد جعل الله سبحانه وتعالى الصدقة فى مقابل الربا ، فاذا كان المرابى يؤجل سداد الدين فى مقابل مضاعفة الفائدة فان المؤمن الحق يجعل امهال المدين صدقة يلتمس الثواب عليها من الله . وبين اخذ الربا ، وأمل الثواب من الله مسألة لا تحتمل التردد فى الاختيار ، ولكن الله بكريم فضله وعظيم لطفه يعيننا على الاختيار فيقول لنا وقوله الحق « وان تصدقوا خير لكم ان كنتم تعلمون » .

« واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون » .

واخيرا تجىء هذه الآية الكريمة التى روى الأكثرون من الصحابة أنها آخر آيات القرآن نزولا ، واختلفوا كما هو طبيعى فى موعد نزولها فتراوح البعض بين تسعة وثلاثة أيام ، وذهب بعض الى اقصى الطرفين فقال قائل نزلت قبل وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ببضعة وثمانين يوما وقال قائل قبل موته عليه السلام ببضع ساعات ، ورويت أحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم تقول انه أمر بترتيبها فى المصحف بين آية الربا والدين وقيل اجعلوها الآية ٢٨٠ .

وقد نقلنا هذه الأقوال ليرى القارىء أنها آية وقف عندها كل من تصدى لتفسير القرآن ، ونحن بدورنا نقف امامها لانها آخر آيات القرآن نزولا ومتى كان هذا النزول فعلم ذلك عند الله ولكننا نقف امام الآية الكريمة باعتبارها تجسد هذا الفارق الجوهرى الذى تحدثنا عنه بين الاقتصاد اليهودى والاقتصاد الاسلامى ، فحيث يقوم الاقتصاد اليهودى على فصله تماما عن الدين وتأسيسه بالكامل على المادة فالاقتصاد الاسلامى جزء لا يتجزأ من الدين والعقيدة بالله ويوم القيامة حيث يجد الانسان فى انتظاره ما قام به من صالح الأعمال ومكافأة ما تصدق به وما أقرضه للناس بغير عوض وامهاله المدين المعسر الى أن يوسر .

« واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله » .

اى تدبروا واخشوا ، واعملوا حسابا لهذا اليوم الذى ترجعون فيه جميعا الى الله « يوم القيامة » « ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون » اى حيث يقوم الميزان والحساب بالقسط ، ان خيرا فخير وان شرا فشر ، وليس ثمة شر اشد عند الله من مخالفة نواهيه فكيف عندما ينذر بحرب هذا المخالف وهو المرابى ، الحق ، انه أيا كان ما ينتظره فلا يمكن أن يدعى أن الله ظلمه ، وانما كان هو الذى ظلم نفسه .

قضـــية الكسب والجبر :

ويتوقف بعض العلماء هنا ليتحدثوا عن قضية الكسب والآية الكريمـــة تتحـــدث عن الكسب ونسبته الى الانسان «ثم توفى كل نفس ما كسبت» ويرون ان فى ذلك ردا قاطعا على الجبرية ، والذين يتابعوننا مذ بدانا هذا التفسير منذ بضع سنوات يعلمون اننا نؤمن بالامرين معا فنندفع مع سنة الحياة نختار لانفسنا الأحسن ، ونحتمل نتائج اختيارنا واعمالنا ،لان ذلك يطابق ما اودعه الله فى نفوسنا من احساس بالحرية وقدرة على عمل هذا او ذاك ، ولان هذا هو معنى ان يبعث الله الرسل وان ينزل الكتب ، وان يكون هناك تعليم وارشاد وبعد ذلك حساب وجنة ونار ، فكل ذلك يصبح ولا معنى له الا ان نؤمن بوجوب العمل والسعى وما يترتب على ذلك من كسب للانسان .

وفى ذات الوقت علينا ان نؤمن ايمانا جازما وعميقا ، ان كل شيء صغر او كبر انما يتم بارادة الله « وما تشاءون الا ان يشاء الله » ولا يشغلن احد نفسه بهذه القضية ويحاول بعقله ان يحسم هذه القضية وقد عاش سلفنا الصـــالح وعلى راسهم رسول الله صلى الله عليه وسلم يعملون ويجاهدون ويختارون دون أن يفارقهم الايمـــان لحظة ان الله هو فاعل كل شيء ومقدر كل شيء ، فاذا جاء دور العمـــل فليس امامنا الا ان نعمل ما ركبه الله فى طبعنا من عقـــول وقدرة على الاختيار ، فنختار لانفسنا احسن الطريقين وهذا هو الكسب ، والله يوفقنـــا الى ما فيه الخير والله اعلم .

الاعجـــاز القرآنى :

وعدت قرائى ان لا احجب عنهم احاســـيسى ومشاعرى فانا ارسل القول ارسالا عندما يكون الأمر خاصا بتسجيل خواطرى ، والخاطر الذى يلح على الآن هو خشيتى من أن يكون توقفى من حين لآخر امام بعض الآيات لاظهار ما تنطوى عليه من اعجاز يجعل من المستحيل أن تكون من صنع بشر ، اقول اننى اصبحت اخشى ان يكون ذلك من تحصيل الحاصل ، فالقرآن الكريم هو كلام الله وانا اتكلم لمسلمين ، وكون القرآن هو كلام الله قضية قد فصل فيها الزمن وانتهى الأمر ، فلم تعد ثمة حاجة لتكرار الحديث عن اعجازه وانطوائه على ما يقع باستحالة ان يكون من صنع البشر ، ومع ذلك فها انذا افعل ، وليس يشجعنى على سلوك هذا المسلك سوى امرين :

الأول : ان هذا هو اسلوب القرآن نفسه ،فهو يذكر من حين لآخر انه من عند الله وليس من صنع بشر « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا » .

الثانى : القول المشهور عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « يعود الاسلام غريبا كما بدا » فاذا كان القرآن الكريم قد اخرس السنة المشركين والكفار ، ففى عهدنا الحاضر ، قد عاد الكفار والمشركون والماديون ينكرون ما انكره اسلافهم منذ اربعة عشر قرنا ، فاصبح لزاما ان نســلح كل مسلم بما يجعله يلقمهم حجرا .

منذ الشباب فى كلية الحقوق :

وهذه الآية الكريمة التى نحن بصددها اليوم والتى تتحدث عن « الديون » او بلغة العصر الحديث « الالتزامات » كان لاستاذنا الدكتور المرحوم محمد صالح استاذ القانون التجـــارى

فضل تنبيهنا للمعجزة القرآنية فى هـذه الآية الكريمة ، وعندما شرعت فى الوقوف امامهـا ، وجدتها فوق ذلك تنطق بأن القرآن الكريم شرع كل زمان ومكان ، وان احكامه ليست كما يتخرص بعض المتخرصين انعكاسـا لظروف العـرب « المحلية » .

الدين المدنى والدين التجـارى :

فقد علمونا منذ اربعين سنة فى كلية الحقوق، كيف وصل الأمر فى تطور القانون الرائع فى اوروبا الى حد أن أصبحوا يفرقون بين الدين المدنى والدين التجارى فاذا كان الدين المدنى لا يجوز اثباته الا بالكتابة فان الدين التجارى لا تشترط فيـه الكتابة ، فطبيعـة المعاملات التجـارية وما تقتضيه من سرعة وغير ذلك يجعل الكتابة متعذرة احيانا كثيرة .

وما زلت اذكر التشدق الكثير الذى قيل فى مدح القانون الالمانى الحديث والذى وصل الى هذه التفرقة ، وها نحن أولاء إمام آية قرآنية لكتابة ديونهم ، ثم تسـتثنى من عملية الكتابة « الا ان تكون تجارة » .

سـمو التشريع الالهى :

ولكن التشريع المدنى الوضـعى ، بعد ان يوصل قاعدة عدم جواز اثبـات الدين المدنى الا بالكتابة تراه بعد ذلك يكسر القاعدة بأن يجعل ذلك وقفـا على حالة أن يكون الدين اكثر من عشرين جنيها ، أما فى العشرين فما دونها فيجوز الاثبات بغير الكتابة ، ولا تفسير لهذه التفرقة واذا كانت العشرين جنيها قد تبـدو اليوم مبلغا متواضعا ، فقد كانت عند وضع القانون مبلغا جسيما ، والأمور نسبية على كل حال .

قارن هذا الانحراف وهذا التحكم الذى هو ضرب من ضروب التخبـط الى التشريع الالهى وسموه ، فهو بعد أن قرر القاعدة وذكر علتهـا « واقوم للشهادة وادنى الا ترتابوا » فقد عمم الحكم فى كل الأحوال لأن العلة متوفرة ، فحذر مما وقع فيه القانون الوضعى من التفرقة بين ماهو كبير وصغير ، فقال وقوله الحق « ولا تسأموا أن تكتبوه صغيرا أو كبيرا الى أجله » .

فعلى الباحثين الذين تذهلهم الحضارة الاسلامية وكيف ذهبت بالمجتمع الاسلامى الى هذا الشاو البعيد أن يذكروا دائما أن القرآن الكريم كان هاديهم وحاديهم فيها هو ذا يهديهم منـذ الف واربعمائة سنة الى امر لم تكتشفه اوروبا الا وهى فى أوج ازدهارها اى منذ اقل من مائة سنة .

دلالة الحث على الكتابة :

على انه اذا كان التفريق بين الديون المدنية والديون التجارية هو احـد مواطن الاعجـاز القرآنى فانه فوق ذلك يحمل الدليل الذى يفقأ عين كل كافر مكابر ، والذى يدعى أن احكام القرآن هى بنت عصرها وظروفه ، وان ما اصبح فى العصر الحديث من اوضاع جديدة وظروف مستحدثة ، فان ذلك يستوجب احكاما ونظما جديدة فلا خلاف على أن العـرب على أيام نزول القرآن كانوا شعبا أميا لا يعرف القراءة والكتابة منهم الا افراد يعدون على الأصابع ، ومن هنا وصفهم القرآن الكريم بأنهم أميون ، لأن النادر لا حكم له « هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم » وسيدنا محمد نفسه صلى الله عليه وسلم لم يكن يقرأ أو يكتب ، فان يجىء القرآن ليحث على كتابة الديون ، ويحث بالأكثر على عدم اغفال الكتابة مهما صغر الدين ، فهـذا هو الدليـل على أن التشريع الاسلامى عندما كان ينزل على سيدنا محمد كان منقطع الصلة تماما عن ظروف الحياة الشخصية

والعامة التى تحيط بسيدنا محمد صلى الله عليهوسلم ، وانما هو تشريع سماوى يهدف الى مافيه صلاح البشر فى كل زمان ومكان وقد راينا هذاوسوف نراه ، ونحن نتحدث عن الطهارة « بالماء » فى بيئة يكاد ينعدم فيها الماء ، وهويقرر للمراة مكانتها ، الى غير ذلك مما مر وسوف يمر بنا بعد هذه المقدمة نقول وبالله التوفيق :

« يا ايها الذين آمنوا اذا تداينتم بدين الى اجل مسمى فاكتبوه » .

قال البعض ان آية الدين اطول آية فى القرآن الكريم ولم تتهيأ لى فرصة تحقيق هذا القول بنفسى ، فعلى من يريد التثبت ان يراجع المصحف ويعد كلماتها ، يقارنها بمثيلاتها من الآيات الطويلة .

مفردات :

تداينتم : اى داين بعضكم بعضا . جاء فى معجم الفاظ القرآن .

الدين : ما ثبت فى الذمة وله اجل ، ولا يسقط الا باداء او ابراء .

وتداين : اى تعامل بالدين .

الأجل : الوقت المضروب لانتهاء شىء .

المسمى : اى المعين بالتسمية كشهر او سنةاو حادث محقق بصفة دورية محددة .

وقد راى البعض ان يخصص الدين بـ« القرض » اى عملية التسليف ، وساق على ذلك قولا عن ابن عباس رضى الله عنه حيث قال فيمانقله عنه البخارى : « اشهد ان السلف المضمون الى اجل مسمى ان الله قد اجله ، وقرا هذه الآية ،وهذا لا يفيد الا ان السلف داخل فى معناها وليس هو المقصود الوحيد ، ولذلك فنحن نؤثرتفسيرها بمعناها العام ،اى كل انواع الالتزامات والتعهدات التى يحدد وقت لادائها ، ولا تسقط الا بالاداء او الابراء .

هل الأمر للارشاد او الايجاب :

واختلفت الآراء « بطبيعة الحال حول طبيعة الامر بالكتابة هنا ، اهو للارشاد والندب ، ام هو أمر قطعى يترتب على عدم الانصياع لهالجزاء المقرر لكل معصية ، وقد بادر اقوام ممن يأخذون بقواعد اللغة فى التفسير بالقول ان الأمربالكتابة وجوبا ، غير انه لما كان واقع الحال يقطع بأن اكثر المعاملات فى المدينة كانت عن غيرطريق الكتابة ، فقد بادروا بالقول أن هذه الآيه نسخت بما جاء فى الآية التالية .

« فان أمن بعضكم بعضا فليؤد الذى أؤتمن امانته » .

والحق « فى راينا ان لا نسخ هناك ، فليس فى هذه الآية ما يتعارض مع الآية الاخرى ، فقد ساق الله سبحانه وتعالى علة التكليف بالكتابةوانه لصالح المتعاقدين « وادنى الا ترتابوا » فاذا جاءت الآية التالية لتقول انه فى حالة نفى الريبةوامن بعضكم بعضا فلا حرج فى ترك الكتابة ، فليس هذا نسخ ، ولا هو « تخفيف » كما ذهب البعض ، بل هو تأكيد للمعنى السابق ، وهو ان الكتابة « فى حالة انعدام الثقة » هو الاحكم والاحزم .

فالمسلمون الاوائل لم يفهموا من الأمر الا على انه للارشاد والندب ، فكانوا يتعاملون بالثقة وليس القطع بأن الامر كله قد شرع لمصلحة الدائن ان يتنازل عن دينه كله ، فمن باب اولى

يكون من حقه التنازل عما شرع لاثبات هــذا الدين ، فالأمر له ان شاء احتــاط لحقه بالكتابة فهى أقوم ، وان شاء وثق بصاحبه .

« وليكتب بينكم كاتب بالعدل »

وهكذا عندما تذهب للشهر العقارى ، أمامن يسمونه « الموثق » وعندما تسمع أو تتعامل بالعقود الرسمية ، وعندما يقال لك أن هــذا هو آخر ما توصــلت اليه الحضــارة فى ضبط المعاملات ، والحرص على الحقوق أن تشوبها الشوائب ، فانظر يا رعاك الله كيف أمر القرآن منذ أربعة عشر قرنا المسلمين أن يسيروا على هذا النهج ، ذلك ان الكاتب لم يؤمر بالكتابة لمجرد الكتابة ، أى أنه لا يخرج عن كونه أداة بل أمره ان تكون كتابته « بالعدل » فيجب ان يكون ملما بما يكتب ، يعرف حدوده ، ووجه الصواب فيه من الخطأ ، وما حكم الشريعة فى نوع المعاملة التى تجرى كتابتها . يقول الامام مالك ، على ما نقله عنــه القرطبى : « لا يكتب الوثائق بين الناس الا عارف بها عدل فى نفسه مأمون .

« ولا يأب كاتب ان يكتب كما علمه الله » .

أى أن الكاتب مأمور بالكتابة اذا ما دعى اليها، ومرة أخرى يبادر قوم فيقولون ، انه مأمور بذلك بدون قيد أو شرط ، فمــا دام قد دعى للكتابة فلا يمكن الا ان يستجيب ، مهما كان ذلك فى وقت غير مناسب لسبب من الأسباب فالأمر صريح ان لا يأبى ، وينسى القائلون بهــذا القول ان الآية الكريمة لن تلبث أن تقول : « ولا يضار كاتب ولا شهيد » ويسرع أصحابنا فيقولون ان هذه نسخت تلك ، وعندنا أن القول متسق ، وان الله سبحانه وتعالى انما نص بالقول على ابعاد الضرر عن الكاتب حتى يؤكد ما هو بديهى وطبيعى فليس من المعقول أن يتحول الانسان ، لمجرد أنه يعرف الكتابة الى آلة فى يد من لا يعرفها فيدعوه للكتابة فى اى وقت شاء ، لأى قدر شاء ولو كان ذلك ضد مصالحه ، ان القول بذلك هو ضرب من الخلط ولكن الله سبحانه وتعالى والذى يعلم من خلق ، ادرك بسابق علمه أن سيكون من يفهم هذا المعنى ، فقيده بضرورة انتفــاء الضرر عن الكاتب ، وهكذا أعاد السلطان والحرية للكاتب فهو الذى يقدر متى يكتب وكم من الوقت والجهد يبذله فى الكتابة بحيث لا يعود الأمر عليه بأى ضرر .

« كما علمه الله »

على أن القرآن الكريم سرعان ما ينبه الى مايفرضه الله على عباده من شكر النعمة التى انعم بها الله عليه ، وشــكر النعمة يكون ببذل بعضها لخدمة المحتاجين اليها ، فكان الشكر على الغنى بالانفاق على الفقراء ، وهو هنا يذكر بأن شكر العلم والمعرفة يكون بوضع نصيب منهــا لمنفعة الآخرين ، وهنا يظهر التفوق الاســلامى حيث يغرس فى نفس المؤمن أن المال مال الله والعلم علم الله ، وان ما فى يد الانســان ليس الا هبة من الله ، فليتق الله ربه وليمنح بدوره الناس بعض ما افاء به الله عليه .

« وليملل الذى عليه الحق »

اى ان المدين وليس الدائن هو الذى يتولى عملية الاملاء على الكاتب ، والاملاء والامــلال لغتان : أمل وأملى ، وهنا يجــدر بنا أن نتفقلنتــأمل دقة التشريع وعظمته ، حيث قضى بأن المدين هو الذى يقوم بعملية الاملاء لأنه هو الذى سيكون ملتزما بالاداء ، فيجب أن يعرف على وجه الدقة ما سوف يكون مكلفا بأدائه ، وحتى ترتفع مظنة انه ربما يكون قد اكره على الوفاء

بشيء لم يلتزم بادائه ، وهــكذا يحرص القرآن الكريم على حرية الارادة واستقلالها فلا يلتزم الانسان بشيء يجهــله ، او اكره على ادائه ،قارن ذلك بما اصبح طابع الحياة العصرية حيث يوقع الانسان على عقود مطبوعة ومعدة سلفا ،وما عليه الا ان يذعن لكل ما جاء فيها اذا اراد الحصــول على الخــدمة او الحــق المطلوب« التليفون ، الكهرباء ، المياه ، المعاشــات ، المرتبــات ... الخ » .

واصبح يطلق على هذه العقود « عقود الإذعان » والتى امتدت الى كل نواحى الحياة .

« وليتق الله ربه ولا يبخس منه شيئا » :

والسؤال هنا من هو الشخص الموجه اليـــه الخطاب بتقوى الله وان لا يبخس « ينقص » منه شيئا ، أهو المدين الذى يملى ام الكاتب الذىيكتب ، فذهبت الجمهرة الى ان هذا التحذير موجه للمدين ، ولكننا من راى من قال ان الضمير هنايعود الى الكاتب باعتباره الشخص الوحيــد فى الموضوع الذى لم يعد عليه رقيب فيمــا يفعلسوى الله عز وجل فهو يكتب ما لا سبيل لمعرفة الطرفين به « عند جهلهما الكتابة » وسوف يكونحجة عليهما عندما يحين اجل الدين فاصبح من اوجب واجبــات الكاتب ان يكتب ما املى عليهحيث لا رقيب على ما يكتب سوى الله فشاء الله ان يحــذره ، اما المدين فهو يملى تحت اشراف الدائن صاحب الحق ويحسب انه لن يرضى بأن يبخس حقه ، ولو تصــورنا انه رضى فان ذلك يكون بمثابة اتفاق جديد جار قبوله ، ومن ثم فلا حرج على المدين .

من اجل ذلك اخترنا أن يكون الأمر بالتقوىهنا موجه « بخاصة » الى الكاتب ، مع مراعاة أن المؤمنين جميعا على اختلاف مواقعهم فى ايةمعاملة مأمورون بتقوى الله .

« فان كان الذى عليه الحق سفيها او ضعيفااو لا يستطيع ان يمل هو فليملل وليه بالعدل » .

السفيه : هو المبذر ، من لا يحسن التصرف فى المال ، وقيل هو الأحمق على تفصيل فى كتب الفقــه .

ضعيفا : هو الضعيف بسبب صغر ســنهأو الشيخ الهرم الذى وصل الى مرحلة الخرف ، ومن هو من هذا القبيل .

او لا يستطيع ان يمل : اى لا يقدر على الاملاءكالأخرس .

فليملل وليه بالعدل : ولى الانســان هو منيتولى اموره ويقوم بها عنه ، وهنا طالبه الله ان يكون عادلا يتصرف بالحق والقسطاس ، لانهلا يتعاقد عن نفسه وانما يتعاقد عن غيره فلزمه أن يتوخى الصلاح وهو ما يتحقق من خــلال العدل .

« واستشهدوا شهيدين من رجالكم » .

وتمضى الآية الكريمة فى وضع الضوابط لقيدالالتزامات وتحديدها بالصورة التى تجعلها فوق الريب والشكوك او الغموض،وارجو عندما يذهبانسان الى الشهر العقارى امام موثق العقود ، فيطالبه باحضار شاهدين ليشهدا على العقد انلا يتصور انهما يفعلان هذا تطبيقا لنص القرآن ، وانما هما يفعلاه وفقا لاخر ما انتهت اليه اوروبامن اسلوب توثيق العقود ، وعلى المسلم ان يتأمل كيف ان العالم ينتهى الى ما قدره القرآن الكريم .

« فان لم يكونا رجلين فرجل وامراتان ممن ترضون من الشهداء ان تضل أحداهما فتذكر احداهما الأخرى » ويفتح القرآن الكريم بابا للتخفيف فى حالة تعذر وجود شاهدين عدلين ان يكتفى برجل واحد وامراتين متى كان ذلك متيسرا ورضى الطرفان باشهادهما .

مكانة المراة :

هنا ويقفز البعض الى القول ، ان ذلك يعنى ان المراة تساوى نصف الرجل ويدعمون رايهم بآية المواريث حيث تستحق المراة فى بعض الأحوال نصف ما يستحقه الرجل ونحن ندع مناقشة قضية الميراث الى اوانها حيث سيرى ان المراة فى بعض الدرجات تأخذ مثل ما يأخذه الرجل ، واحيانا تأخذ اكثر مما يأخذ على تفصيل سيرد عند نص الآية الكريمة ، وحسبنا الآن ان نقف أمام ما نحن بسبيله فى موضوع الشهادة وطالما قلنا انه حيث صرح القرآن بحكمة أمر من اوامره ، فلم يعد من الجائز ان يجتهد انسان ما فى الاستنباط والتعليل ، وقد صرح القرآن الكريم بالعلة « ان تضل احداهما فتذكر أحداهما الأخرى » فلزم الوقوف عند هذا الحد .

فارق ما بين الطبيعة والوظيفة :

ولقد تحدثنا من قبل ونعود للحديث ان الناس سواء فى الشرق او فى الغرب يخلطون ما بين الطبيعة الواحدة لكلا الجنسين « الذكر والأنثى » وبين اختلاف وظيفة كل منهما وقيام بعض الفوارق نتيجة لاختلاف الوظائف حيث جهز كل منهما بما يقدره على اداء وظيفته ، فالقول بأن المراة لا تساوى الرجل هو نوع من الخلط كهذا الذى غرقت فيه الحضارة الأوروبية ، عندما تزعم انه لا فارق بين الرجل والمراة ، وبالتالى فيجب ان تتقلد المراة كل وظائف الرجل ، وكل هذا خلط يقطع بأن الانسان اذا ترك وشأنه فلا حد لما يمكن ان يقوله ، ومن هنا فلا مناص من الارشاد الالهى ، وهو ما يثبته القرآن الكريم لصالح البشر وهدايتهم ، وقد قرر القرآن الكريم هذين الأصلين :

ـ الطبيعة الواحدة للجنسين .

ـ اختصاص كل منهما بوظيفته التى خلق من اجلها وبالتالى جهز تجهيزا خاصا ليكون اقدر على الاضطلاع بها .

فأما عن المساواة فى الطبيعة فقد قررها القرآن الكريم واكدها وكررها لتصبح أصلا من الأصول الثابتة ، وحسبنا أن نورد آية واحدة :

« يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله أتقاكم » .

ونحسب انه لا يوجد تعبير جامع مانع ينطق بالمساواة بين الجنسين من هذه الآية الكريمة ولكن هذه المساواة فى الطبيعة لا تعنى كما قلنا من قبل المساواة فى الوظيفة ، فقد أعدت المراة لتقوم فى الطبيعة بدور الأمومة وقد جهزت تجهيزا خاصا للقيام بهذا الدور وعلى رأس ما جهزت به هو قوة عاطفتها التى تفوق قوة العقل الذى يحتاجه الرجل للوقوف الى جوارها للسير فى الحياة ، فاذا كان يوجد من النساء من يحاولن ان ينكرن ذلك فذلك شأنهن ، ولنا ما يقرره القرآن الكريم .

ومن ذلك هذه الآية التى نحن بصددها والتى تقرر انه طبقا لظروف المراة الخاصة فانها لا تحفظ

بالدقة ما قد يجرى أمامهـا من معـاملات مثلما يحفظ الرجل ومن هنا فقد اباح القرآن لطرفى العقد اذا رضيا باشـهاد المراة أن يكونا اثنين بدلا من واحدة ، حتى اذا نسيت احداهما ذكرتها الأخرى ، وواضح ان المقصـود هو ان تكمل احداهما شـهادة الأخرى بحيث ينتهى الاثنـان بالمصادقة على واقعة واحدة .

وقد حاول بعض المفسرين أن لا يأخذ بتفسير كلمة « تضل » بأن معناها « تنسى » مع أن ذلك مستفاد من كلمة « فتذكر احداهما الأخرى » .

بقى لكى نؤكد ان احلال امراتين فى الشهادة فى بعض الأحوال مقابل رجل واحد ، انه فى جميع الأحوال الخاصة بالمراة من « حيض وبـكارة وحمل وحالة المولود عند الولادة » فكل هذه أمور تكفى لاثباتها شهادة امراة واحدة حتى ولو كانت صاحبة الشأن على تفصيل فى كتب الفقه .

« ولا يأب الشهداء اذا ما دعوا » :

قامت عظمة المجتمع الاسلامى وستظل تقوم على هذا الأصل الثابت من أصول الاسلام وهو وحدة الأمة الاسلامية :

— « ان هذه أمتكم أمة واحدة » .

— « انما المؤمنون اخوة » .

وظل القرآن الكـريم يؤكد هذا الأصل حتى جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم هـذه الوحدة رابطة مادية عضوية ، وذلك فى حديثه المشهور الذى قرر فيه أن المسلمين جسد واحد ، اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى ، ولن ينهض المسلمون فى عصرنا هذا الا اذا عادوا لهذا الأصل من أصول دينهم .

وهذا الأمر الذى نحن بصدده والذى يحتم على الشهود ان يدلوا بشهادتهم اذا ما دعوا لأدائها هو أحد تطبيقات هذا المبدأ العام فليس لأى فرد من الأفراد أن يتخلى عن واجبه فى تقرير الحقيقة التى شـهدها .

يأب : اى يمتنع .

ولا تسأموا أن تكتبوه صغيرا او كبيرا الى أجله ذلكم أقسط عند الله واقوم للشهادة وادنى الا ترتابوا .

ولا تسأموا : اى لا تملوا .

ان تكتبوه صغيرا او كبيرا الى اجله : قـدم وصف الصغير على الكبير تاكيدا لعدم التهاون فى كتابة الدين لصغره ، ونصت الآية على كتابة الأجل أيضا ، اى المدة التى يجب بعدها اداء الدين .

ذلك أقسط عند الله : اى اعدل ، القسطاس العـدل .

واقوم للشهادة : اى اعون على ادائها على وجه الصحة والدقة .

وادنى الا ترتابوا : اى حتى لا تشكوا .

فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ۗ وَأَشْهِدُوٓا۟ إِذَا تَبَايَعْتُمْ ۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ۚ وَإِن تَفْعَلُوا۟ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾ ۞ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا۟ كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ ۖ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ ۗ وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾ لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ

الا ان تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح الا تكتبوها .

استثنى الأمر بالندب الى الكتابة موضوع التجارة ، ولكنه اشترط لذلك شرطين عبر عنهما بلفظين : « حاضرة » و « تديرونها » وهما تعبيران عن حقيقة واحدة ، وهى ان يتم البيع والشراء أو المقايضة او المعاملة التجارية ايا كان شأنها على عروض حاضرة ومواد تتداول وتسلم يدا بيد ، ففى مثل هذه الحالة تصبح الكتابة ولا ضرورة لها من ناحية ، وهى متعذرة من الناحية الأخرى ، ذلك ان عملية التجارة سريعة بطبعها ، ولذلك رفع القرآن الكريم الحرج من عدم كتابتها « فليس عليكم جناح الا تكتبوها » .

اما اذا كانت العملية التجارية تدور حول موضوع مؤجل ، هنا وتعود الكتابة لتكون هى الأقسط والأقوم .

« واشهدوا اذا تبايعتم » :

بالغ البعض فاعتبروا هذا القول بمثابة أمر جاء على سبيل الوجوب كلما باع الانسان او اشترى اى سلعة مهما كانت تافهة « حزمة بقل ، كالفجل او الكرات او البصل » وهذه مبالغة ينبو عنها السياق ، ولو هذا الأمر بالاستشهاد جاء فى آية مستقلة لجاز الأمر ان يكون كذلك ، اما والكلام جزء مما قبله وما بعده فوجب ان يفسر على ضوء المعانى التى نحن بسبيلها ، فالآية الكريمة تحث على كتابة الديون الآجلة واستشهاد عدلين عليها وذلك تفاديا لما قد يقع من ريبة وغموض ثم استثنت الآية الكريمة من ذلك التجارة الحاضرة ، فلا جناح من عدم كتابتها ، ولكن هذه التجارة الحاضرة قد تدور حول عملية بيع او شراء ضخمة وقد يترتب عليها آثار جانبية ، وفى مثل هذه الحالة ومنعا للشك والغموض أمر القرآن الكريم بالاستشهاد بمعنى أنه عندما لا يوجد أى غموض فضلا عن شك وارتياب ، او كما لو كان المباع او المشترى من التفاهة بحيث لا يدور حوله نزاع ، فلو دار يكون من الهوان بحيث لا يستحق تشريعا خاصا به « كشراء حزمة فجل او جرجير ، من السوق العام » وانما يكون الاستشهاد : اذا ما خيف من الريبة والغموض حول ما يترتب على عملية البيع من آثار .

« ولا يضار كاتب ولا شهيد » :

المعنى الذى لا نتصور معنى غيره انه لا يمكن ان يكون الكتابة او الشهادة على امر من الامور مصدر ضرر على الكاتب او الشاهد ، فاذا كان الله سبحانه وتعالى قد اوجب على الكاتب ان يكتب ، وعلى الشاهد ان يشهد ، فعليهما ان يفعلا ذلك فى حدود الطاقة والقدرة وبما لا يعود عليهما بالضرر .

« وان تفعلوا فانه فسوق بكم » .

وان تفعلوا : ما نهيتم عنه « فانه فسوق بكم » اى خروج عن الطاعة ، والقول موجه لكل مكلف فى الآية بامر من الامور .

« واتقــوا الله ويعلمكم الله والله بكل شىء عليم » .

وتختتم بما تختتم به آيات الاحكام من اتقاء غضب الله باتباع أوامره والانتهاء عن نواهيه ، وان كل ما يوجه الينا هو علم يعلمنا اياه الله لخيرنا ونفعنا وصلاحنا .

والله بكل شىء عليم : ولا يذكر العــلم الا ويعلمنــا الله انه بكل شىء كان او هو كائن او سوف يكون ، سرا كان أو جهرا ظاهرا كان او باطنا الا وهو به عليم .

« وان كنتم على سفر ولم تجدوا كاتبا فرهان مقبوضة » .

ومضى القرآن الكريم يفصل اساليب المحافظة على الأموال والالتزامات والحيلولة دون وقوع الشك والغموض فيها مما يخلق المنازعات فارشد الى الكتابة على نحو ما قدمنا .

وفى هذه الآية التى نحن بصددها يشير الى اسلوب آخر فى حالة تعذر وجود الكاتب كمــا لو كان الأمر فى حــالة الســفر فاباح كوسيلة للاستيثاق « الرهن » ورهان جمع رهن وجعل شرط الرهن ان يكون « مقبوضا » اى يدا بيد ، لان وجود الشىء المرتهن فى حوزة الدائن دليــل على وجود الدين وهو ضمان لاستيفاء الحق .

ويتحدث المفسرون القدامى وبعض المحدثين هنا عن عملية الرهن ونحن نحيل فى هذا الموضوع على كتب الفقــه .

رهن سيدنا محمد درعه ليهودى :

على ان ثمة واقعة تروى عن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، فى هذا المقام لا يستطيع اغفالها ، خاصة وقد جرى بصددها جدال حدث امامنا واعنى بهذه الواقعة رهن سيدنا محمــد درعه عند يهودى ، ومات والدرع فى حــوزة اليهودى .

فقد حدث وكنا جلوسا فى مجلس علم ان ذكر احد الحاضرين هذه الواقعــة ، فانبرى له اخ فاضل يكذب الرواية وراح يتفجر باســاليب الفصاحة والبلاغة والمنطق ، استنكارا لمثل هذا القول ، وقد ذكرت هذا باعتباره اسلوبا جديدا يصطنعه البعض بحسن نية تحت تاثير اسلوب المستشرقين الذى سرى الينا ، وقد حان الوقت للتحرز منه وعدم الوقوع فيه . فالواقعة قد وردت فى صحيح البخارى ، ونصها « رهن (اى سيدنا محمد) درعه فى المدينة على ثلاثين صاعا من شــعير » .

ومجرد وجــود الحديث فى البخارى يجعله حقيقا بكامل الثقة ، لا تجوز مناقشته فضلا عن رده الا بدليل من الكتاب والسنة وفقــا لقواعد مصطلح علم الحديث ، فكيف اذا كان الحديث

قد روى أيضـــا فى صحيح مســـلم ، والنسائىوغيرهم ولم يرتفع صوت بالاعتراض .

ولقد وجدت فى تفسير القرطبى اضافة لهـــذاالحديث لم يذكر مصدرها ، جاء فيها :

« رهن النبى صلى الله عليه وسلم درعه عنديهودى طلب منه سلف الشعير فقال انما يريد محمد أن يذهب بمالى فقال النبى صلى الله عليهوسلم : كذب انى لأمين فى الأرض أمين فى السماء ولو ائتمننى لأديت اذهبوا اليه بدرعى » .

يقول القرطبى فمات صلى الله عليه وســـلمودرعه مرهونة . انتهى .

• **عظمة بغير حدود وتعليم وارشاد :**

ونعود لأخينا الفاضل الذى عز عليه ان يقال ان سيدنا محمد رهن درعه عند يهودى وينسى ما تنطوى عليه الحادثة من عظمة بغير حـــدودوتقطع بأن سيدنا محمدا هو رسول الله حقـــا وصدقا ولم يكن ملكا او حاكما ، فهذا الذى دانتله جزيرة العرب بكل من فيها وما فيها ، والذى سير الجيوش لمحاربة الروم ، والذى كان كل منحوله يفتديه بنفسه وماله ، جاءه ظرف احتـــاج فيه الى ثلاثين صاعا من شعير ، فاستلفها ولميغتصبها من احد ماديا او معنويا ، وعندما خشى أن يتصور اليهودى أن سيدنا محمدا يأخذ ما يأخذبقوة ما له من سلطان ، كان هـــذا الاجراء من ارساله درعه ليكون رهنا ، والموضوع كله ككلما يتصل بسيدنا محمد ، يراد به التعليم والتوجيه والارشاد . فها هو يهودى مستأمن يعيش فىكنف المسلمين فشاء سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ان يعلمنـــا الى ابد الآبدين ، كيف يكون التعـــامل .

فليحذر مفكرونا المخلصون ان يناقشـوا مســائلسيدنا محمد على مزاجهم وما يرون هم من وجهة نظرهم ان هذا يصح او لا يصح فالعلوم الاسلامية وعلى راسها علم الحديث قد كملت وانتهى الأمر ، ولست اغلق باب الاجتهاد ولكن لا يتصورن متصور أن الاجتهاد معناه القاء القول على عواهنه وفقا للأمزجة والاهواء مهما كان حسن النية والرغبة فى الاعلاء من شان سيدنا محمد .

فان أمن بعضكم بعضا فليؤد الذى اؤتمن امانته وليتق الله ربه .

ويقر القرآن الكريم بعد ان ارشـــد الى الوضـع الأمثل والاحسن واقع الحال الذى جرى عليه العمل وسوف يجرى فى المجتمعـــات التىلا تعرف القراءة والكتابة حيث اعتاد الناس ان يتعاملوا بالأمانة ، مرشـــدا المؤمنين ان هـــذاالتعامل الذى قد يتم فى الخفاء فانه لا يخفى عن علم الله ، ويدعو المؤمن أن يتقى غضب اللهبأن يؤدى ما أؤتمن عليه ، قال تعالى : « ان الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات » .

وقد كان المجتمع الاسلامى اعجوبة لدى غير المسلمين على اداء الأمانة واليوم انقلب الحال عند الكثيرين الى الضد ، بحيث أصبحت الكتابةهى الســـبيل الأوحد للاثبـــات ، وهكذا يثبت القرآن الكريم أنه ليس من صنع بشر ، فعندماأمر بالكتابة كان يعلم من أمر الناس وما سوف يطرأ عليهم من تغيرات ما يناسب أحوالهم .

« ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فانه آثم قلبه » .

مر بنا فيما سبق ، قوله تعالى « ولا يأب الشهداء اذا ما دعوا » وها هو ذا ســـبحانه وتعالى يعود لتأكيد هذا الأمر وليغلظه على منلا يصدع بالأمر ، فيقرر له ان كتمان الشهادة

اثم كبير وذلك مستفاد من نسبة الاثم الى القلب وهو المضغة التى اذا فسدت فسد الجسد كله .

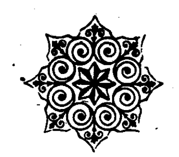
والله بما تعملون عليم : وتختم الآية الكريمة بما يذكر كل مكلف ان لا شيء يغيب عن علم الله فمحاسب عليه أن خيرا فخير وان شرا فشر .

« لله ما فى السموات وما فى الأرض وان تبدوا ما فى أنفسكم او تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شيء قــدير » .

فليسامحنى القراء ، بل ليغفر لى الله اولا اذا كنت اقحم على هذا التفسير احاسيسى التى هى شيء خاص بى وربما ما كان يجوز قولها ، ذلك اننى أشعر حيال هذه الآية الكريمة ، كما لو كانت تختم هذا الشوط الكبير ، الكبير جدا الذى قطعناه مع سورة البقرة أطول سور القرآن واشملها للأحكام والأوامر والنواهى فى حالتى السـلم والحرب ، فى حالتى الحل والترحال ، فى حالتى الزواج والطلاق ، فى حالتى الغنى والفقر ، أثناء الحياة وبعد الممــات ، وفصلت لنا من قواعــد الاسلام ما فصلت ، فى الصلاة والزكاة والصوم والحج ، والآن والسورة الكريمة اوشكت على نهايتهــا ، بهذه الآيات التى اهتز لهــا الكون اهتزازا خاصا مما سنعرض له فى حينــه ، اما الآن فحسبنا أن نسجل الاحساس بأن هذه الآية الكريمة هى التى تعد النفس لختام كل ما مر بنا وتهيئة لاستقبال الأنوار الالهية والنفحات القدسية والنغمات الروحية التى تفيض بها نهاية سورة البقرة « آمن الرسول ... الآية » .

ويتجلى الاعجاز البيانى القرآنى فى صــياغة آية فى كلمات قليلة يمتد أثرها الى كل ما تقــدم ويستطيع الانسان أن يكتب حولها مجلدات ومن ناحيتى فأنا اعتبر كل ما كتبته ابتــداء من اول سورة البقرة يندرج تحتها ولذلك فسوف أكتفى باستعراض ألفاظها .

« لله ما فى السموات وما فى الأرض » وهذا هو ملكوت الله الذى لا يمكننا أن نحيط به وان كان الله ســبحانه قد أنعم علينا برؤية صــور لبعض أجزائه .



أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾

« وان تبدوا ما فى انفسكم او تخفوه يحاسبكم به الله » .

وهذا هو اصل الأصول للايمان بالله وهو انه سوف يحاسبنا عن كل ما نجترحه من السيئات والآثام ، سواء أظهرناها او ابطناها ، ولا صعوبة هناك باى حال من الأحوال بين كون الانسان محاسب حتى على ما يضمره فى سريرة نفسه وبين قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « ان الله تجاوز لى من أمتى ما حدثت به نفسها ما لم تتكلم به أو تعمل » « رواه الستة » .

وقوله عليه الصلاة والسلام :

« قال الله : اذا هم عبدى بسيئة فلا تكتبوها عليه : فان عملها فاكتبوها سيئة ، واذا هم بحسنة فلم يعملها فاكتبوها حسنة فان عملها فاكتبوها عشرا » .

نقول ان لا صعوبة على الاطلاق فى الجمع بين هذه الأحاديث وبين الآية التى نحن بصددها فمن الأعمال ما لا تحدث ضررا من أى نوع كان الا اذا عبرت عنها أعمال وتصرفات مادية بالقول او بالفعل ، فما لم يعبر عنها الانسان فهى لا تخرج عن دائرة الهواجس والوساوس التى لا تضر احدا والتى لا قبل لأى انسان ان يدفعها عن أن تساوره ، ويمتاز العبد الصالح انه على الرغم من قيام هذه الوساوس والهواجس فى نفسه فهو يصدها ويصرفها عن نفسه ويستعيذ من شرها ، وهذا هو ما بشرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم اننا غير محاسبين عليه ولكن من الآثام التى حذرنا الله من الوقوع فيها ما لا محل له سوى القلب ، كآثم من يكتم الشهادة ، او ان يحقد انسان على انسان أو يحسده ، فهذه حالات نفسية لا مظهر خارجيا لها . وقد بقى أن تعرف ان الحقد والغل والحسد تسمم حياة من تنطوى عليها نفسه ، وقد يمتد أثرها بطريقة لا يعلمها سوى الله ولذلك فقد امرنا أن نستعيذ من شر حاسد اذا حسد .

« فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء » .

فالحساب أمر لا مفر منه فى كل الأحوال « انما الأعمال بالنيات » وانما تبقى ارادة الله العليا فى ان يغفر لمن يشاء انى يشاء وكيف يشاء ويعذب من يشاء « والله على كل شىء قدير » .

الحمد لله :

ما تصورت لحظة عندما بدات فى تفسير سورة البقرة اننى سأعيش حتى اصل الى تفسير نهايتها، ولكنها مشيئة الله ولكل اجل كتاب ، ونحن جميعا عبيده يسخر كل منا وييسره لما خلقه من اجله ، وما علينا الا السمع والطاعة ، ولنحمد الله ،لنحمده آناء الليل واطراف النهار ان هدانا لهـذا وما كنا لنهتدى لولا ان هدانا الله .

وبعد ، فقد وصلنا الى الآيتين من آخر سورة البقرة ، وسوف يرى القارىء الكريم ان لهماشأنا اى شأن ، فقد ورد بشأنهما احاديث ، ولكنى قبل ان اثبت هذه الأحاديث ارجو ان يسمح لى بتسجيل تاريخها معى فان بهما معى تاريخ وصحبة .

الشيخ محمد صادق المجددى :

كان هذا الشيخ الجليل الذى اعتبـره احـد اساتذتى فى الدين والوطنية والسلوك عامة أول من لفت نظرى وفتح روحى لهاتين الآيتين ، كان ذلك منذ اكثر من اربعين عاما فى حجتى الأولى وكان هو يشـغل فى ذلك الوقت منصب سـفير الأفغان لدى مصر والسعودية ، وكان يقيم مخيمه فى « منى » عند غار قيل أن سورة المرسـلات نزلت على سيدنا محمد فيه ، وقام السيد محمد صادق المجددى يصلى بنا اماما « صلاة المغرب » ووسط هذا الجو العبق بالذكريات الآلهية والنفحات الربانية ، ارتفع صوت الرجل الأجش فى ترتيل فخم بطىء يتلو هاتين الايتين ورحت اسمعهما ، وقلبى يستقبلهما ولم اعد احس الا بأننى اصبحت فى دنيا غير الدنيا ، ومنذ هذا التاريخ حتى اليوم لا اظن اننى نمت ليلة دون ان اتلوهما بالروح كاها ،، الا عندما عقد الله لسانى ، فأصبحت اتلوهما بفكرى ووجدانى بالروح كلها كذلك .

خلاصة الايمان وركيزته :

ولا عجب فى ذلك ، فقد وضع الله سبحـانه وتعالى فى آيتين اثنتين ختم بهما اطول سورة فى القرآن بما يجب ان يكون عليه ايمان المؤمن ،وعناصر هذا الايمان ، وكيف ينبغى للمؤمـن ان يضرع لربه مسجلا عجزه وتقصيره الا ان يتداركه الله بعفوه ومغفرته ، فهو دعاء يعلمنـا الله ان ندعوه به فندرك من خلاله كم هو رحيم بنا يقدر ضعفنا ، ونحس اذ نهتف به ان السموات والأرض تردد معنا فى ختامه « آمين » .

كما بدات السورة تنتهى :

ويجب دائما استحضار مطلع السـورة عند تلاوة نهايتها فكلاهما يكمل الآخر ويوضحه ويفصله فالسورة الكريمة تبدأ بتقرير الحقيقة الأزلية من ان القرآن الكريم كلام الله ، « ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين » وكون القرآن الكريم هو كلام الله القديم أنزل على محمد بن عبد الله ليكون من المرسلين لهداية العالمين ، هو ما تضمنته نهاية السورة فى قولها :

« آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه » .

وعندما وصفت السورة الكريمة فى مطلعها ان هؤلاء المتقين هم « الذين يؤمنون بالغيب » فقد جاء ختام السورة يفصل عناصر هـذا الغيب : « والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله » .

والايمان بالكتب السماوية يعنى الايمان بالبعث بعد الموت يوم الحساب فاما الى الجنة أو النار، وهكذا بدأت السورة وانتهت بالايمان باعتبـاره هو الجوهر وهو الاساس الذى يقوم عليه الاجتماع البشرى الصالح وبين دفتى كتاب الايمان قطعت بنا السورة الكريمة شوطها الطـويل فى التشريع الاسلامى سواء فى الأمور التعبدية من صوم وصلاة وحج ، أو فى الأمور المعاشية ابتداء من الحرب والقتال حتى الزكاة والصدقات والزواج والطلاق، والبيع والشراء والتداين وتحريم الربا ، الى آخر ما مر بنا ونحن نستعرض السورة على مدى تجاوز العامين ، والمهم ان الله سبحانه وتعالى قد حرص ان يؤكد للبشر أن المنطلق الأساسى لنجاح الفرد والمجموع هو « الايمان » وبغير هذا الايمان ، يحبط كل عمل ويخفق أى تشريع وتسوء العاقبة .

احاديث واردة فى ختام سورة البقرة :

وقد أورد ابن كثير فى تفسيره ، العديد من الأحاديث التى وردت فى ختـام سورة البقـرة ، فليرجع اليها من يريد الاستقصاء ، وحسبنا أن نورد بعضها :

جاء فى الصحيحين : البخارى ومسلم :

« من قرأ الآيتين ، وفى رواية بالآيتين من آخر سورة البقرة فى ليلة كفتاه » .

وروى الامام أحمد بسنده :

« اعطيت خواتيم سورة البقرة من كنز تحت العرش لم يعطهن نبى من قبلى » .

وروى عن سيدنا على كرم الله وجهه قوله :

« ما أرى أحدا يعقل بلغة الاسلام ينام حتى يقرأ آية الكرسى وخواتيم سورة البقرة فانها من كنز تحت العرش » .

والآن فلنتناول كلمات الآيتين بالتفصيل :

« آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه » .

آمن : أى صدق .

والمعنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صدق بما أنزل اليه من ربه « وهو القرآن » وقد تصور بعض العلماء أنه مما يتناسب وجلال النبوة أن يفرقوا بين ايمان سيدنا محمد وبقية المؤمنين ، فقالوا أن ايمانه « ايمان مشاهدة ووحى » أمـا ايمان المؤمنين فمبنى على الحجة والبرهان .

وهذا الرأى نموذج لاختلاف وجهات النظر فحيث يتصور نظر أن هذا الأمر أو ذاك هو الذى يحقق المقصود ، يرى نظر آخر أنه يؤدى الى عكس المطلوب ، والله سبحانه وتعالى فى هذه الآية الكريمة يشيد بالمؤمنين ثم أفرد ، سبحانه ، سيدنا محمدا بالذكر باعتباره أول المؤمنين وعنه انتقل الايمان الى بقية البشر الذين سيظلون يؤمنـون بالاسلام الى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، فايمان الرسول يأتى فى الأول وعنه تتقد جذوة الايمان فى سائر المؤمنين ، ويبقى جوهر الايمان واحد وهو الايمان بالغيب لا عن طريق المشاهدة، ولو صح أن ايمان الرسول صلوات الله عليـه

هو ثمرة المشاهدة ، لما زاده فضلا ، اذلا يكون ايمانا بالغيب ومن حسن الحظ ان سيرة سيدنا محمد معروفة ومسجلة بكل دقة ، وعندما آمن سيدنا محمد بما انزل اليه من ربه لم يكن ثمة اسراء او معراج بعد ، حتى يتحدث عن المشاهدة، وآية صدق سيدنا محمد وامانته انه لم يبادر بمجرد هبوط الوحى عليه لأول مرة ، فيعلن عن رسالته ، وانما عاد الى اهل بيته وهو يرتجف ويناشد أهله أن يدثروه ويزملوه الى آخر ماشرحناه بصدد سورة « العلق » وليس الا بعد ان عاود الوحى سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم وهتف به على ماتقول بعض الروايات «يا محمد انا جبريل وأنت رسول الله » ان آمن سيدنا محمد بأنه رسول الله حقا وصدقا ، فصدع بما أمر به وبلغ رسالة ربه ، وقد يقول قائل هذه هى المشاهدة، ولكن ان يصدق سيدنا محمد ان هذا الذى رآه وسمعه هو من عند الله، فهذا هو الايمان بالغيب، لأن ما راى وما سمع قد يكون من عند غير الله وهو ما قاله عنه المشركون بالفعل ، فالقضية تلخصت فى هذا الوحى الذى نزل على سيدنا محمد ، أهو من عند الله أم من عند غير الله ، فعندما يقرر القرآن الكريم « آمن الرسول بما انزل اليه من ربه » ولما كان هذا الذى انزل هو القرآن بكل مشتملاته ، وعلى راسها الجنة والنار والبعث والحساب واليوم الآخر ، فايمان سيدنا محمد بكل ذلك كان ايمانا بالغيب وليس بالمشاهدة ، واذا كان الله سبحانه وتعالى قد كافأه على ذلك فيما بعد بما اراه اياه « لقد راى من آيات ربه الكبرى » ، فذلك من قبيل « بلى ولكن ليطمئن قلبى » اى ان الايمان كان قد تحقق أولا وقد حرص القرآن الكريم على أن يعمق فى افهام المسلمين ان سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام لا يختلف فى جوهره عن سائر المسلمين، فاشتمل القرآن الكريم على اكثر من آية بمعنى « قل انما انا بشر مثلكم يوحى الى » اى انه لم يقف عند حد وصفه بالبشرية فأضاف عليها «مثلكم» اى فى جميع خصائصكم الانسانية وانما انفرد عنكم بهذا الوحى ، وكان هذا الوحى فى حد ذاته تكليفا شاقا « انا سنلقى عليك قولا ثقيلا » وكان من فضل الله على سيدنا محمد ان هداه الى الايمان أن هذا الذى يسمعه ويتلقاه هو من عند الله .

والخلاصة اننا لا يجب أن نفرق بين نوعية ايمان سيدنا محمد ونوعية ايمان سائر المؤمنين ، الا من حيث كونه كان أول المؤمنين ، وأن ايمانه كان من القوة بحيث انتقل منه وسيظل ينتقل الى ملايين الملايين .

« والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله » .

وبعد ان افرد الله سبحانه ذكر سيدنا محمد باعتباره مصدر الايمان لسائر البشر جمعه على بقية المؤمنين الى يوم الدين ، وقد حاول بعض المفسرين أن يختصوا صحابة رسول الله بشرف هذا الوصف ، ولكن ذلك تخصيص بغير مخصص فالقرآن هنا يتحدث عن عناصر الايمان التى يتصف بها المؤمن ، وفى الحديث الشريف يثنى سيدنا محمد على هؤلاء الذين سوف يؤمنون به مع أنهم لم يروه فمن الخير أن يبقى العمومى على عموميته الا أن يخصص بمخصص .

وعناصر الايمان :

١ — بالله .

٢ — وملائكته .

٣ — وكتبه ويدخل فيها الايمان بالبعث والنشور والحساب والعقاب والجنة والنار .

٤ — ورسله .

« لا نفرق بين أحد من رسله » .

وهنا يظهر تفوق ايمان المسلمين على غير المسلمين وان من ذاق حلاوة الايمان الاسلامى ووعاه لا يمكن ان يتحول عنه حيث سيظل الألوف ممن وعوا الاديان السابقة على الاسلام يعتنقون الاسلام ذلك أن الايمان فى الاسلام كل متكامل لايقوم على عنصر محضى او عصبية لمعنى خاص ، او امتياز لفئة ، وانما يقوم الايمان على قواعد محددة متى تحققت فلا مناص من الاقرار بالنتائج التى تؤدى اليها فمتى آمن الانسان بوجود الله ووحدانيته وانه خالق الكون والانسان ، وانه فى سبيل ارشاد الانسان انزل الكتب وبعث الرسل فعلى اى اساس يفرق المؤمن بين رسول ورسول، ان الذين يفرقون قد ضلوا السبيل ، فراح بعضهم يهدى « كاليهود » فيعتبرون انفسهم شعب الله المختار وانهم وحدهم الناس ومن عداهم فليسوا ناسا .

فشل عمليات التبشير وسط المسلمين :

وقد فشل المبشرون بكل ما انتهى اليهم من حول وسلطان ، حيث كان ابسط مسلم من عامة المسلمين ينظر لأعلم علماء المبشرين باعتباره جاهلا ، فسيدنا عيسى عليه السلام بكل ما يقال عنه ، هو نبى مرسل من رب العالمين . والمسلم يؤمن بتكريمه وبانجيله والله الذى ارسله قد ارسل سيدنا محمدا عليه الصلاة والسلام ، وكما ارسل الانجيل فقد ارسل من بعده القرآن ، فاذا انكر مسيحى أن يكون سيدنا محمد رسولا وان يكون القرآن كتابا منزلا ، يكون قد اهدر الايمان بالله وانه ينزل الكتب ويبعث الرسل ، وهذا ما برىء ايمان المسلم ان يتردى فيه ، فالمسلم يؤمن بأنه اله واحد ، وان جوهر الكتب والرسالات واحدة ، ويبقى بعد ذلك ان القرآن هو آخر الكتب والذى سلم بأعتراف غير المسلمين من التغيير والتحريف بعكس ما اصاب ما سبقه من كتب .

ولقد شرحنا من قبل باستفاضة ، أن عدم التفريق بين الرسل هو من حيث طبيعتهم ووظيفتهم ، فقد اختارهم الله لهداية البشر ، وذلك لا يتعارض مع سنة الله فى خلقه وهو أن يفاضل بين أصحاب الدرجة الواحدة .

« وقالوا سمعنا واطعنا » .

وهذه هى السمة الثانية والتطبيق المادى للايمان الذى هو جوهر معنوى روحى ، انه الاقرار بالسمع والطاعة وما يؤدى اليه ذلك من القيام بالاعمال الصالحة ولذلك ما ذكر الايمان الا وذكرت على الفور الأعمال الصالحة «الذين آمنوا وعملوا الصالحات » ذلك أن مؤدى الايمان بالله وانه يبعث بالكتب على لسان الرسل بالأوامر والنواهى ، أن يسمع المؤمن لكل ما أمر به ونهى عنه الا أن يطيع والا لم يكن مؤمنا .

« غفرانك ربنا واليك المصير » .

ولكن أيا كان عزم المؤمن وارادته على الطاعة فهو فى نهاية الأمر يتكون من جسـد ركبت فيه غرائز وشهوات ، وقد توعد الشيطان الانسان أن يترصد به كل مرصد ليوقعه فى الخطيئة ، ومن هنا فان المؤمن السامع المطيع يعلم انه فى نهاية الأمر قد يخطىء فهو يسـأل الله المغفرة فى يوم الحساب « واليك المصير » .

« لا يكلف الله نفسا الا وسعها » .

ويبادر الله سبحانه وتعـالى وهو الرحمن الرحيم فيطمئن عباده المؤمنين انه لن يحاسبهم الا على ما يقدرون على فعله ايجابا وسلبا حسب امكاناتهم واستعدادهم .

والتكليف : هو الالزام بما فيه كلفة اى جهدوعمل .

والوسع : ما تسعه قدرة الانسان من غير حرج ولا عسر .

« لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت » .

يقول اللغويون : ان كسب واكتسب بمعنى واحد ولكننا نقول دائما ان الاستعمال القرآنى هو الذى يحكم اللغة وليس العكس ، وما دام القرآن الكريم قد استعمل فعل الكسب مقرونا « بلها » اى فى جانب الحسنات واستعمل فعل الاكتساب مع « عليها » اى فى جانب السيئات فعلينا ان نفرق بين اللفظين فاحدهما وهـو « الكسب » يستعمل مع « الخير » والآخر ، « الاكتساب » يستعمل مع « الشر » .

والمعنى ان كل انسان مجزى بعمله ان خيرا فخير وان شرا فشر .

« ربنا لا تؤاخذنا ان نسينا او اخطانا » .

ويعلمنا سبحانه وتعالى وهو يلقننا كيف ندعوه ، انه وهو الذى خلقنا يعلم من امرنا بعض ما يرد على عقولنا من آفات طبيعية اخصها ظـاهرة النسيان ، ولقد سبق آدم جميع ابنائه بالنسيان «ولقد عهدنا الى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزما » ومع ذلك فقد تاب الله على آدم وغفر له، فهو يعلم سبحانه أن النسيان طبيعة انسانية فهو يعلمنا أن ندعوه ان لا يحاسبنا على ما نسيناه ، وهو اذ يعلمنا ذلك فهو يبشرنا بقبول الدعاء ، شريطة ان لا يكون النسيان نتيجة الاهمال او القصد فالانسان قد ينسى ما يرغب فى نسيـانه ولذلك لا يكون النسيان هنا عذرا بل هو ذنب بلاجدال او شبهة وذلك شان الخطأ ، فالانسان قد يبتغى بعمل ما ، صوابا ، ولكنه لا ياتيه على الوجه الصحيح فيقع خطأ فهذا هو الخطأ الذى يسامح الله فيه ، اما ان يخطىء الانسان اهمالا كان يجهل عمل شىء وبقدرته ان يتعلم كيف يحسن صنعه ، فليس هذا هو الخطأ الذى لا يؤاخذ عليه .

فشرط عدم المؤاخذة عن النسيان والخطأ ان لا يكون التقصير اساسا اى منهما التقصير ، بمعنى ان لا يقع من الاعمال ايجابا او سلبا ما يمكن ان يؤدى الى اى منهما ، وسيظل الاساس فى ذلك كله نية الانسان .

« ربنا ولا تحمل علينا أصرا كما حملته على الذين من قبلنا » .

الاصر : العبء الثقيل ، والاصر فى اللغة يعنى العهد ، جاء فى القرآن الكريم : « واخذتم على ذلكم اصرى » ولكنها هنا فى هذا الموقع وفى سياق ما قبلها وما بعدها ، تعنى الشدة والثقل والضيق والغلظة ، وقد مر بنا خلال عرض السورة الكريمة تعنت اليهود ولجاجتهم وعنادهم مما كان يجعل الله سبحانه وتعالى يشدد عليهم ، وهكذا يوعز الله للمسلمين ان لا يكونوا كمن سبقهم فى الامم من حيث تشديد الله عليهم ، واذ كان الله سبحانه وتعـالى قد حدث المؤمنين بماذا اسـتحق بنو اسرائيل ان يشدد عليهم ، فعندما يعلم الله المؤمنين ان يضرعوا اليه ان لا يعاملهم معاملة من سبقهم فهو يعلمهم فى ذات الوقت أن يتجنبوا اخطاءهم التى ادت الى ما ادت اليه .

« ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنـــا به .. »

ويمضى سبحانه فى توضيح اسس الدين ، على صورة الدعاء يتوجه به اليه المؤمنون ليكون ذلك ادعى الى تعميق المعنى فى نفوسهم ، فقد قام الاسلام على عكس مختلف الشرائع على عدم تكليف البشر ما لا يطيقون ما يزيد الله ليجعل عليكم من حرج وكل تعاليم الاسلام ميسرة ، حتى استخلص الفقهاء مبادىء عامة تطبق فى سائر الأحوال ، من مثل « الضرورات تبيح المحظورات »

« واعف عنا واغفر لنـــا وارحمنا » .

واعف عنا : اى ارفع عنا عقاب ما نكون قد اذنبنا فيه مما لا نستطيع ان ندفعه عن انفسنا بمقولة النسيان او الخطا او انه كان فوق الطاقة ، وهكذا يفتح الله الباب واســـعا امام العصاة الطامعين فى عفوه ورحمته ، والله سبحانه لا يغلق باب عفوه ورحمته ابدا فى وجه من يطلبها ايا كان ذنبه شريطة ان يتوب ، وأول شروط التوبة أن لا يعود الى المعصية .

جاء فى القرآن الكريم : « قل يا عبادى الذين اسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعا » .

« انت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين » .

انت مولانا : وهى هنا وفى خاتمة الدعاء تعنى منتهى الاستسلام والاحساس بالعبودية اى ان المؤمن بعد ان يبذل آخر ما عنده من الطاعات ثم يستغفر ربه عما يكون قد فرط فيه فهو يستسلم بعد ذلك لارادة مولاه وسيده يفعل فيه ما يشاء وهذا هو ذروة الايمان .

دنيـــا ودين :

وتنتهى السورة ــ أطول سورة فى القرآن ــ بما يكشف عن سر اعظم حضارة بشرية وهى الحضارة الاسلامية ، حيث يقوم الدين الاسلامى على صلاح الدين والدنيا معا ، فهو يعلمهم هنا ،

أن يكونوا هم الأعلون « وانتم الأعلون ان كنتم مؤمنين » وأن يكونوا أعزة « العزة لله ولرسوله وللمؤمنين » بان تكون لهم الغلبة والنصرة على أعدائهم واعداء المسلمين فى الدرجة الأولى هم من يكفرون ويجحدون وينكرون الله « فانصرنا على القوم الكافرين » .

تم بعون الله ونعمته تفسير سورة البقرة وتليها سورة آل عمران والله المستعان .

انتهى بحمد الله تفسير سورة البقرة .

الفهرس

الموضوع	الصفحة

رقم الإيداع ١٩٣٨/١٩٨٢